الشعر العربي
إبان الحروب الصليبية
في مصر والشام والعراق وشبه الجزيرة العربية

الأستاذ الدكتور
مسعد بن عيد العطوي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

© مسعد بن عيد العطوي ، ١٤١٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العطوي ، مسعد بن عيد

الشعر العربي ابان الحروب الصليبية : في مصر والشام وشبة الجزيرة .- الرياض.

...ص ١ . سم

ردمك ٢-٩٤٨-٣١-٩٩٦٠

١- الشعر العربي - نقد - العصر الايوبي ٢- الحروب الصليبية - شعر

٣- الشعر الحماسي أ - العنوان

ديوي ٨١١٠٧٢ ١٧/٣٢٧١

رقم الإيداع : ١٧/٣٢٧١

ردمك : ٢-٩٤٨-٣١-٩٩٦٠

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤١٧هـ-١٩٩٧م

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشعر العربي
إبان الحروب الصليبية
في مصر والشام والعراق وشبه الجزيرة العربية

تأليف

الدكتور/ مسعد بن عيد العطوي

الأستاذ المشارك بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله ولا إلـه إلا الله رب العـالمين ، وبـه نسـتعين ، ونرجـوه الهدايـة إلى الصراط المستقيم ، وأعظم هداية هي الهداية إلى الإيمان الصادق ، والفكر الصائب فنسأله أن يلهمنا ذلك جيمعاً ، وأن يرزقنا العلم النافع ، والعمل الصالح ، إنه على كل شيء قدير ، ونصلي ونسلم على سيدنا وحبيبنا نبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبعد :-

لقد قمت بطباعة هذا الكتاب تحت عنوان « الاتجاهات الفنية في الشعر إبـان الحروب الصليبية » ، ومن فضل الله تعالى عليّ أن يسرّ لي إعـادة طباعتـه للمـرة الثانية، وأني أهتبل هذه كيما أحدث فيـه بعـض المتغيرات مـن زيـادة وحـذف ، وترتيب نتيجة لصحبة هذا الكتاب بعد إخراجه ، فتدريسي للمادة جعلني أسـتعيد قراءته المرة تلو الأخرى ، مدوناً ملحوظاتي ، وكذلك أستمع لما يثيره الطلاب من قضايا . وزيادة على ذلك ما وردني من ملحوظـات بعـض الأسـاتذة الأفـاضل ، كتابة ومشافهة ؛ فإنها موضع عنايتي ، ولها ظلالها على الطباعة الجديـدة ، ولعلـي في هذه المقدمة ، أقف بعض الوقفات التي تجلو غاية الكتاب ، وتوضح منهجه بمـا لم أشر إليه في مقدمة الطبعة الأولى ومشيراً إلى ما طرأ على الكتاب جراء ذلك .

المقصد الأول : العناية بالشعر في تلك الحقبة من ناحيتي المضمون والشكل ، فالذي أهدف إليه من تأليف الكتاب ، هو النظر الشامل لحركـة الشـعر ، ولكـن رأي بعض الأخوة أن الاتجاهات الفنية حصرت الغاية في الشكل الفني ، فاعترضوا على معالجة القضايا الفكرية للشعر وموضوعاته ؛ ولهذا فإني أميل مـع مـن اقـترح تسميته « الشعر العربي إبـان الحـروب الصليبيـة » في مصـر والشـام ، والعـراق ، وشبه الجزيرة ، لاهتمامي بشعر تلك الأقاليم ؛ فهي الأكثر قربـاً لميـادين الجهـاد ، وفيها العواصم الإسلامية ، وقيادة الحركة الشعرية ، وقد ألمحت في البحث إلى تأثير

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تلك البيئات على الشعر في مواضع متعددة من البحث .

المقصد الثاني : هو أستظهار وظيفة الشعر الفكرية في هذا العصر ، فطاب لي هذا الاتجاه ، بل حشدت من المؤلفات المباشرة حول هذا وهي قليلة وغير المباشرة ، وما أكثرها حتى أضحت عندي قناعة به ، ومع طول الحوار حوله رأيت أن تناول فكر الشعر من صفات الجدة لهذا البحث ، وكان من ثمرة هذا الاتجاه أن بلور لي قضايا المجتمع التي كانت مطوية في الشعر ، ومحجوبة تحت التقسيم المتوارث للأغراض الشعرية ، فكشفت عن اتجاهات اجتماعية صائبة وخاطئة ، ومن هنا تبلورت الوظيفة المنفعية لشعر تلك المرحلة .

وقد كانت مباشرة الشعر لهذه القضايا توهم أن لا فكر وراءه ، وكان الرد أن أسلوب الشعر لا يماثل الأسلوب العلمي ، وإنما هو مجرد إيحاء ، فليس من الضروري أن يحكي الشعر فلسفة المجتمع بشعر فلسفي ، وإلا لكان الشعر الصوفي شعراً غزلياً عذرياً ، وكنا في غنى عن شرح ابن عربي لديوانه ، وإنما يصور الشاعر القضية بشعوره وارتجاله وقرب المأخذ ، أو عمقه ، أو مجرد وصف الظاهرة . ومن هنا كان إصراري على قضية الفكر الأدبي . ومن شدة علوقي بالفكر الأدبي ، فقد كتبت دراسة كيما تقرر مادة « الفكر الأدبي » وتجاوزت قسم الأدب بالكلية قبل سنوات والله أعلم بمصيرها بعد ذلك أين كان إجهاضها.

المقصد الثالث : الاتجاهات الفنية التي لم يقف النقاد عندها من قبل، وكان تصنيف الشعر الذي استخرجته من مصادره هو الذي كوّن لدي القناعة بها ، ومصدر تلك الاتجاهات بكل وضوح أن هناك فئة من الشعر تظهر الصنعة عليه في بنائه ، والتأمل فيه ، وإحالة البصيرة كما يقول أسامة بن منقذ :

كلما رددت في شعري النظر ... بأن ضعف العي فيه وظهر

فأجيل الفكر في تقليله ... فإذا قل اختصرت المختصر

لكن لا يؤخذ تواضع أسامه مأخذ الضعف، وإنما هو تواضع العلماء النبلاء.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ولقد نهج هؤلاء بشعرهم منهج الأوائل من الشعراء في بناء القصيدة ، وصورها ومضامينها ولغتها ، وشعر هؤلاء أسميته (المحافظ) وسميت الشعراء (المحترفين) .

وهناك اتجاه الطبع ، وهو الذي يقف على طبيعة الشاعر وتلقائيته ولا يبلغ أهل الصنعة من المحافظين ، وأهل التحديد الذين يزيدون على الصنعة بالتكثيف على لون أو ألوان فينة وشعر الطبع له ثلاث مسارات **فأولها** : شعر الطبع في شبه الجزيرة العربية ، وشعراء هذا النوع لم ينالوا حظاً من التعليم الفكري المنظم ، وإنما جاء شعرهم شعراً فطرياً مقتبساً من المؤثرات الخارجية ، ومنغمساً في الوجدان الذاتي ، ومتشكلاً بلغتهم الاجتماعية الفصيحة ، فكان شعراً فطرياً لا صنعة فيه ، ولا تكلف .

وثانيها : شعر الطبع عند الشعراء الذين خضعوا للمؤثر الوجداني العاطفي

وثالثها : ما يصدر عن الشاعر المطبوع الذي يغلب عليه نظم الشعر في محاوراته وأحاديثه . ونضرب مثلاً لذلك بأبي العتاهية ، وفي عصرنا موضوع البحث يظهر بهاء الدين زهير ، وهو ما يطلق عليه الشعر الشعبي غير العامي والنبطي ، ويخالفهما بفصاحته وأوزانه .

وهناك اتجاه التجديد ، وكل ناقد يدرك أن التجديد في الشعر لا يستقيم بمعناه اللغوي ، فالتجديد هو الإكثار من لون من الألوان البلاغية ، سواء كان هذا الاتجاه إيجابياً أو مما ينفر منه بعض النقاد ، وجل قارئ الأدب . لكنه في نظر أولئك ومن شايعهم من النقاد تجديد . فكلمة التجديد فيها تجاوز من اعتبارين اثنين ؛ **أولهما** : أن الجدة ليست منقطعة الجذور بل لها أصل في الاستخدام ، **وثانيهما** : أنه غير مرغوب في ماهيتها لما تجاوزت مرحلة الصنعة إلى التكلف .

والملحوظات التي أُهديت إليّ أوحت لي بالوقفات المتأنية عند كثير من القضايا ، التي ألمحت إليها في لمحات سريعة ، قناعة بفهم القارئ لها لكن في الطباعة الحديثة اضطررت أن أقف عند كل مصطلح من تلك المصطلحات

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأوضح مفهومه ولاسيما الجزئية التي أُعنى بها . وكذلك فإني أقف عند الموضوعات موضحاً ومحللاً لشواهدها، ثم أعقب جلّ الموضوعات بخاتمة تجلو نتائجه .

وقضية دخول الإحصاء في كتابي أمر أراه ضرورة ، كيما يجلو القضايا ويبرهن على الرأي النقدي ، ومن هنا فإني اجتهدت في توظيف الإحصاء توظيفاً مفيداً : تارة أدرس القضية من خلاله ، وتارة يوحي لي بالقضية ثم أثبت الإحصاء في نهاية المطاف ، مما أوهم بعدم استنباطي العلمي لهذا الإحصاء .

أما قضية انتقاء النصوص الجميلة ، فإني لم أنتقها وأدونها لجمالها وحسب ؛ وإنما لتكون شاهداً على قضية من القضايا ؛ وكلا الموضوعين الإحصاء ، والبحث عن النموذج الأمثل ، إلى جانب الاستنباط . عانيت في استقصائها معاناة كبيرة يدركها أصحاب المنهج العلمي ، وأسأل الله المثوبة عليها وان ينفع بها .

وسيتضح للقارئ أني جليت بهذا البحث كثيراً من القضايا التي يُرمى بها شعر تلك المرحلة :

فمنها قضية الفكر والمضمون التي كشفت فيها عن وظيفة الشعر التي لها دورها البارز في هذا العصر في السياسة والإدارة والاقتصاد والمجتمع والفرد ، إضافة إلى ما أشرت إليه في الموضوعات العامة ، فقد كنت حريصاً على ربطها بالمجتمع ، كالقضية الاجتماعية لمضمون المقامات عند الحريري .

ومنها قضية المبالغة في المحسنات البديعية ، فلقد بينتها بياناً واضحاً؛ فهي تتمحور في ثلاثة اتجاهات :

١ – الاعتدال عند سائر الشعراء .

٢ – الصنعة البديعية التي لا تبلغ درجة التكلف و لم تغبن المضمون ، فالصنعة لا تبلغ درجة التكلف وهي جمال وجودة ، والشعراء من هولاء وأولئك كانت المحسنات البديعية عندهم ناجمة عن مخزون لغوي ثري يتيح لهم اختيار لفظة من

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بين لفظات متعددة تنشال عليهم ، فيختار أحدهم ما يناسب المضمون والشكل معاً .

٣ - وهناك أصحاب الرياضة الفنية التي تبلغ درجة التكلف مختارين هذا الاتجاه ، ويظهر في الإصرار على الإعجام أو إهماله أو الالتزام بأحد الحروف .

• ولهذه الإشكالية وقفت طويلاً عند بحث التجديد ولا سيما بعد استغراب إيراد لفظة التجديد ، لكني رجحت هذا ؛ ليماثل مسميات التجديد في العصور الأدبية، ولتكون الموازنة ممكنة بين مظاهر التجديد لكل عصر ، وقد حصرت هذا الاتجاه عند الذين وظفوا اللغة توظيفاً صناعياً ، أو رياضة أدبية فيها غربة من التكلف . أما الذين ماثلوا أسلافهم فهم من أهل الاحتراف .

وقد أشرت آنفاً إلى تصنيف الشعر إلى ثلاثة اتجاهات لكن هناك سمات عامة لشعر المرحلة يشترك فيها جلّ الشعراء أو سمات وظواهر تبرز وإن لم يسهم بعض الشعراء فيها ، ومن تلك السمات تبرز القضايا الآتية :-

إن الرياضة الفنية بنظم الشعر نابعة من قدرة لغوية ، لكنها في قليلها تجاوزت الاعتدال والصنعة إلى الإغراب ، والاعتناء بالشكل المتكلف ، لأن لكل عصر تجاوزات أو غرائب تحدث في هذا الباب ، وتلك تطرأ على الشعر ، كما يحدث في يومنا هذا من التجديد في جانب ما يسمونه بالغموض غير المتناهي أو النص المفتوح ، ويعنون به الذي يحتمل عدداً من القراءات بلا وصول إلى حقيقة ذات براهين . وقد أشار إلى مثل ذلك الدكتور بكري شيخ وأوضح أنها أهون من العبث المعاصر(١) .

ومما تكشف لي كذلك تنوع بناء القصيدة تبعاً للأقاليم ، وظروف الحروب، فقد أظهرت الإحصائية التي أشرت إليها ، معالم القصيدة وما طرأ على المقدمة ، وسائر الموضوعات ، وما طرأ على الخاتمة . موضحاً الفرق بينها وبين قصيدة

(١) مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، المقدمة .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المدح في شعر الجهاد .

وهناك قضايا رصدتها بمنظار النقد الحديث ومنها الرمز ، والصورة ، والتناص ؛ فالرمز قضية نقدية تراكمت مفاهيمها في نفسي ، بعد أن ألفت كتابي « الرمز في الشعر السعودي » ، وفيه تجلت لي مظاهره ، وألوانه . والقضية لا تخالف ديننا الحنيف ، ولا لغتنا العربية ، ولا علماً مثبتاً وفيها فائدة كبيرة – إن شاء الله – فهي ترصد الظاهرة إبداعاً وتنظيراً ، فالشعر سابق لها ، والنقد العربي رصدها بمسميات مختلفة ، فلا أرى موانع تمنع أن تكون هذه وسيلة من وسائل نقدي التي اتبعتها ، ولا سيما وهي تكثف الدلالة أكثر من الجزئيات البلاغية ، فالرمز لا يقف عند ظاهر المعنى بل يستدعي الصورة الكلية للحدث أو الدلالة القرآنية الكاملة للسورة أو الآية وموضوعها ، ففيه عمق مضمون يفوق النظر من خلال الاقتباس والتضمين أو الكناية أو الإبهام ، ومثل ذلك ما طرحته في الصورة وفي التناص الذي يستقطب أنواع السرقات ، ,ألوان المعارف والتراكم العلمي والمضموني والحدث التاريخي ، ويوجز أو يطنب في ميادين التناص .

ومن القضايا النقدية المهمة التي أوضحت حقيقته قضية الرياضة الشعرية الفنية ، فواقعها في الدواوين الشعرية يبين أنها لم تكن شائعة ذائعة مهيمنة عند الشعراء، بل تتبين ندرتها في الدواوين فبعد أن تصفحت عدداً منها ، لم أعثر فيها إلا على مثل أو مثلين للمتكلف . وهذه المقطوعات المتكلفة نتيجة لموقف خاص ما عدا الحريري في مقاماته فإنه ألح على ذلك .

وأوضحت عنايتهم بالألغاز والأحاجي ، وبينتُ أن مضامينها وتراكيبها كانت واضحة ، وبعيدة عن التكلف الشكلي ، ويتخللها وصفٌ جيدٌ لكنها رياضة أدبية ، لا تتكاثر في الدواوين الشعرية وأكثر ما شاعت في ديوان ابن عُنين.

وهناك ملحوظة أخرى هي أن هذا العصر أمتاز بتدوينه غير المنتقى ، فالشعراء دونوا عبثهم في مجالسهم الخاصة التي يغلب عليها اللهو والمجون ، والغيبة،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فظهر عندهم الشعر الماجن ، والهجاء البذيء ، وكلاهما يحمل صوراً بذيئة وألفاظاً مبتذلة أيضاً ، مما جعلني أعرض عن هذا ، وأفصح عن الصفحة البيضاء لهذا العصر .

وقد عُنيت بشعر شعراء شبه الجزيرة العربية ، فله سماته الخاصة ، وخصصته أحياناً بالإيضاح في نهاية الفصول . والله ولي التوفيق ؛؛؛؛

د. مسعد بن عيد العطوي .

١٤١٧/٩/١هـ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله نستهديه ، ونستعينه ، خالق العقول ، ومهديها وجاعلها سبل الإنارة والعمارة ، ومغذية لليراع ؛ مَنْ ثقفها بالإيمان والعلم ، كان بإذن الله متدبراً متأملاً . خاشعاً بانياً . والصلاة والسلام على أبلغ البلغاء ، ورائد الفصحاء، الذي وظف الكلمة للمضمون الشريف ، فأشرقت بالفكر المستنير ذلكم قائدنا ورائدنا محمد رسول الله ﷺ أما بعد :-

فقد أطلت الوقوف عند الأدب المتزامن مع الحروب الصليبية لسنوات عديدة ، أقرأ مصادره القديمة ، وأعايش مراجعة الحديثة ، وأناقش الآراء حوله ، وأستمع إلى حوار طلاب الجامعة في قضاياه ، ومن هذه الصحبة تجلى لي أن أدب تلك المرحلة لم يزل بكراً يتطلب مزيداً من الجهد في اتجاهين :

أحدهما : إحياء تراثه من دواوين شعرية ، ومختارات وغيرها .

ثانيهما : دراسته وتمحيصه ، واستبيانه واستنباطه . وهذه المعايشة كشفت لي القناع عن هذا الأدب ، فاطلعت على مضمونه الشريف ، وغايته المستنيرة ، وجماله الفني الأخاذ وأن الآراء حوله ليست من الواقعية بمكان ، فهي إمّا أن تقوم على قناعة سابقة ، مصبوغة بآراء سالفة ، أو انتقاء النصوص للاستشهاد المبيت ، نتيجة لهمينة رجال البلاغة الذين يختارون ما يعنيهم من التجانس والتقابل وغيرهما من الصبغ البديعي ، وإما أن تقوم على نية مستهدفة من بعض المستشرقين يقصدون بها تغييب فكر هذا الأدب المتعارض مع الغرب المستعمر سابقاً ، المهيمن بغزوه الفكري حالياً .

وحصيلة ذلك هو أن أساتذة الجامعات ، وطلاب الدراسات العليا تجاوزوا تراث هذه الحقبة في فترة إحياء التراث السالفة ، وقد جارى هذا الاتجاه كثير من الباحثين في دراسات هذه المرحلة عن حسن نية .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والحقيقة أن لهؤلاء عذرهم ونحن نلوم ، فإن نتاج تلك المرحلة ما زال قابعاً في رفوف المخطوطات إبان كتابة تلك الكتب . أما المتأخرون من الباحثين في أيامنا هذه ؛ فهم أحسن حالاً ، فقد أُخرجت أمامهم مجموعة من الدواوين الشعرية التي تنير المُنظِر، وتضع أمامه كماً هائلاً من الشعر ليصدر أحكاماً معتدلة.

ولغزارة الأدب ، وتنوع ألوانه فقد صيرت الشعر ميداناً لدراستي ونظرت إليه نظرة شاملة في أقاليم مصر ، والشام ، والعراق ، وشبه الجزيرة العربية .

والفترة الزمنية التي تجول دراستي في إطارها هي مرحلة الحروب الصليبية التي بدأت ٤٨٨هـ وانتهت ٦٩٢هـ، وقد اخترت عنواناً للكتاب هو « الاتجاهات الفنية في الشعر إبان الحروب الصليبية » .

ودراستي لشعر تلك الحقبة أشبه ما يكون بالحوار معه ، فحاولت أن أبرز مضمونه الشريف ، واستشرف الفكر الأدبي لهذا العصر ، مع حرصي الشديد على انتقاء النصوص ذات الجودة الجمالية ، وأعرضت عما سبقني إليه المؤلفون الأوائل حتى لا تتكرر تلك النصوص .

وكان عتادي لسبر غور هذا الأدب ، ورصد اتجاهاته هو النقد الحديث لأنه يؤدي حتماً إلى الاستفادة من التراكم النقدي القديم ، وهذا لم يمنعني من التخلص من هيمنة آراء النقد الحديث على تلك الحقبة الزمنية ، وكونت آرائي من خلال التبصر والتدبر لواقع الشعر متخذاً وسيلتي الإحصاء والاستنباط لإظهار تياراته ، وتجليتها ، فجعلت الشعر هو الناطق بالاتجاهات الاجتماعية ، والإدارية ، والفنية جميعاً .

وقد اعتمدت اعتماداً مباشراً على المصادر التي حفلت بآداب القرنين السادس والسابع ، وفي صدارتها كتاب (خريدة القصر وجريدة العصر) للعماد الأصفهاني الذي عاش في العراق عاصمة الخلافة العباسية ، ومرتاد الشعراء العرب ، ومنبت الإدباء ، ثم انتقل إلى الشام ومصر ، حيث حياة الجهاد ضد

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الصليبيين ، والعواصم الحديثة التي أخذت تنافس بغداد ، وقد تألقت بأمراء الجهاد كعماد الدين زنكي وخليفته نور الدين زنكي ، وصلاح الدين الأيوبي .

فكان شاهد عصره المدون لتأريخ الأدب والأدباء ، وجمع أدباً جماً وفيراً أعانه على ذلك منهجه في الكتاب عندما صنف الديار الإسلامية إلى أقاليم كالعراق ، والشام ، ومصر ، وجمع شعراء كل إقليم ، فتحدث عنهم ، وسجل كثيراً من أشعارهم .

فكان لهذه الخاصية ولاهتمامه بتأريخ الولادة والوفاة دور فاعل في استنتاج ظواهر متعددة ، فكان هذا الكتاب خير عون لي . ومن المصادر الأخرى كتاب (معجم الأدباء ، لياقوت الحموي) المتوفى ٦٢٦هـ .

وكتاب (وفيات الأعيان لابن خلكان) المتوفى ٦٨١هـ ، ومنها كتاب (فوات الوفيات ، للكتبي) المتوفى ٧١٤هـ ، وكتاب (الوافي بالوفيات للصفدي) المتوفى (٧٦٤هـ) يضاف إلى ذلك الدواوين الشعرية التي أُخرج بعضها إخراجاً جيداً ، والكثير منها ينتظر .

أما الكتب الحديثة فإني أطلعت على جلها ، وهي جهد كبير مشكور ، اتخذت مسار التأريخ الأدبي ، واستبيان الظواهر الفنية منهجاً لها ؛ ومنها :

« الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي » لمحمد سيد كيلاني .

وكتاب « أدب الدول المتتابعة » للدكتور عمر موسى باسا الذي يعمد إلى الإيجاز في تصوير البيئة ، وتجلية الظواهر ، ويسهب في ترجمة الأعلام ومنها كتاب « الحياة الأدبية في مصر والشام) للدكتور أحمد أحمد بدوي . ثم كتاب (أدب الحروب الصليبية) للدكتور عبداللطيف حمزة و (الأدب في العصر الأيوبي) للدكتور محمد زغلول سلام (وشعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام) للدكتور محمد علي الهرفي ، ويغلب عليها المنهج التكاملي .

وأرجو الله أن يكون كتابي هذا لبنة تكمل البناء .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد حاولت رصد التيارات المكونة لشعر تلك المساحة الزمنية ، وكذلك حصر اتجاهاتها وقد قسمت الكتاب إلى الأبواب الآتية :

الباب الأول : (الاتجاهات الفكرية في الشعر) ، وقسمته إلى ثلاثة فصول: الفصل الأول خصصته لإعطاء نبذة عن (الحروب الصليبية) ، والثاني للفكر الإداري ، والثالث للفكر الاجتماعي .

الباب الثاني : خصصته لموضوعات الشعر وجعلت كل موضوع منها في فصل ، فالفصل الأول : (شعر المناسبات) والفصل الثاني :شعر الرثاء ، والفصل الثالث : الطبيعة . والرابع الوجدانيات .

الباب الثالث: يحتوي على الاتجاهات الفنية ، وتحدثت في الفصل الأول عن المحافظة والتقليد، وفي الفصل الثاني عن الطبع ، وفي الفصل الثالث عن التجديد .

الباب الرابع : بعنوان : « السمات الفنية العامة للشعر » وقسمته إلى فصول متعددة ، وتحدثت تحت كل فصل عن خاصية كبرى مثل بناء القصيدة ، والرمز ، والصورة ، والموسيقى ، التناص ، التأمل الشعري ، العبث الشعري .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ؛؛؛؛

المؤلف

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التمهيد

- دوافع الحروب الصليبية .
- الحملات الصليبية .
- انعدام المنهجية الإدارية .
- الحالة الإدارية .
- المنهجية السياسية في الحروب الصليبية .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

دوافع الحروب الصليبية :

المتدبر في أمر أوروبا يجدها قد اعتنقت النصرانية التي نبعت من فلسطين ، فعيسى عليه السلام ولد في الناصرة ، ونزل عليه الوحي في فلسطين ، ونشر دعوته هناك واضطهده اليهود في تلك الديار ، فالنصارى في كل زمان ومكان عندما يقرأون سيرته – عليه السلام – ترتبط أرواحهم ومشاعرهم بتلك الديار ، فتتعلق قلوبهم بها ، فيتلهفون إلى معرفتها وهذا هاجس في نفس كل فرد لاسيما أن الدعوة النصرانية قامت على شفافية القلوب ورقتها .

ثم إن الصراع بين النصرانية ، واليهودية تمثل في تلك الديار ، فقد زعم اليهود أنهم صلبوا المسيح عليه السلام ، ونشأ أتباعه المخلصون في دعوته ، وحدث الصدام الحربي بينهم وبين اليهود ، فالتجأ أتباع المسيح إلى بلاد الشام في مجاورة الدولة الرومانية في القسطنطينية ، حتى حدثت الحروب الطاحنة فاستولى اليهود على بلاد فلسطين ، ثم دخلت القسطنطينية في النصرانية وحرفتها في مؤتمراتها المشهورة ، فكانت الحروب الأولى ضد اليهود فأخرجت الدولة الرومانية اليهود من فلسطين وشردتهم ، فاتجه بعضهم إلى جزيرة العرب .

ثم إن فلسطين وبلاد الشام تضم ثوابت للأديان السماوية ، ومنها النصرانية ففيها كنيسة القيامة ، وأماكن حجهم لبيت المقدس فهو ارتباط سنوي ديني شعبي تهفو نفوسهم إليه ، فالشعب يلوي عنقه إلى تلك الديار ، ورجال الدين يتطلعون إليها وهذا هاجسهم الدائم وسيظل هكذا فعلينا أن نعلَمَه ونعد له .

ثم جاء الإسلام ، وأخرج الهيمنة النصرانية من تلك البلاد لكن ظل التنافس والعداء والحروب متواصلة لأن الإسلام ناسخ للأديان السالفة ، ومويد للرسل والأنبياء قبل تحريف رسالتهم ولأن السلالة العربية متوارثة في البلاد فهم ممن هاجروا من الجزيرة العربية ، وتلك الأديان نزلت عليهم . أما وضع أوربا الذي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أفرز الجيوش والحملات الصليبية ؛ فإنه يدعو إلى ذلك ، فقد انتشرت النصرانية في أوربا ، وملوكها .

وربما أن يقظتها تأثرت بالتنافس مع الدين الإسلامي ، فهم يحاربون المسلمين في الغرب في بلاد الأندلس ، فقد استولوا على بعضها سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥-١٠٨٦م) ، فملكوا طليطلة[1] ، وفي الجنوب في جزر البحر الأبيض المتوسط مثل صقلية عام ٤٨٤هـ (١٠٩١م) ومالطة وقبرص وكريت ، وعلى الجبهة الدائمة التقليدية في آسيا الصغرى ، وعلى الحدود العراقية ، والشامية حدود البيزنطيين مع الخلافة العباسية ، وقد دأب المؤرخون ، والكتاب إلى التماس أسباب الحروب الصليبية التي دفعت بأوربا إلى أن تقذف بدمها ، وفلذات أكبادها ، إلى بلاد الشام ومنها :-

الناحية الاجتماعيـــــة :

الناظر في النظام الاقتصادي الأوربي في تلك القرون يجده يقوم على الإقطاع، الذي حافظوا عليه من التفكك وحموه حتى من الورثة ، فالإقطاع يرثه الابن الأكبر . ونتيجة ذلك ؛ فإن السواد الأعظم فقراء لا ملك لهم ، يعملون بأجر زهيد ، والإقطاعيون هم أولئك الذين يقومون بإعداد القوة العسكرية التي تعد جيشاً جاهزاً للقتال ، وتتمثل في قوة الفرسان وتدريبهم . وقد احتكر هذا النبلاء من الأثرياء والإقطاعيين ، وتكاثر هولاء في القرى والمدن والإمارات ، فظهرت قوة متكافئة بين الممالك والإمارات الأوربية فهي مرحلة إمّا أن تتقاتل مع بعضها وإما تبحث عن عدو يوحد كلمتها، مما جعل استجابتهم إلى نداء البابا أمراً محققاً.

وفي ضوء النظام الإقطاعي فإن المجتمع انقسم إلى طبقات :-

١ - طبقة الملوك والأمراء ، وهم ينعمون بالثراء .

(١) انظر : الكامل لابن الأثير ١٠/١٤٢إلى ٢٠٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٢ – طبقة أهل الإقطاع ، وهؤلاء من الثراء حتى أنهم يسخرون أصحاب المهن والحرف المساعدة للزراعة بأجر زهيد .

٣ – طبقة الفرسان الذين تدربهم الدول تدريباً عسكرياً ، وهؤلاء تكفل الدول مؤنتهم .

٤ – طبقة رجال الدين وهؤلاء يحتضنون شريحة من المجتمع الفقير ويعدونهم فرقاً حربية ـ فتمد الكنيسة الواحدة الجيوش بما يتراوح بين (١٥٠) إلى (٥٠٠) محارب .

٥ – طبقة أرباب الحرف والمهن ، وهؤلاء من صغار التجار ، وأصحاب الحرف والمهن ، وهم يكدحون بما يقيم أودهم اليومي .

٦ – الطبقة الفقيرة : وهي الأكثر والأغلب في المجتمع ، وأكثرهم من القبائل المتوحشة من الشمال الأوربي(١) .

إذن فإن السواد الأعظم في المجتمع الأوربي من الفقراء .

وقد أدركوا أن لا شأن لهم ولا بقاء لهم أمام القوة التي تهيمن عليهم من الإقطاعيين والأمراء والملوك ورجال الدين ، فلما برق لهم أمل النجاة والخروج من العبودية بالتوجه إلى بلاد الشام استجابوا وبادروا مسرعين طائعين . هروباً من الواقع المذل والحرمان ، وقد تكاثر السكان ، ولم تكن لهم موارد ، فحدثت المجاعات ، مما هدد الأمن إما بالحروب الداخلية وإما بالموت الجماعي ، فأصبحت أوربا كأنما هي على مرجل حتى أتيح لها مسرب لتتدفق منه خارج هذا الواقع الصعب .

---

(١) انظر : الوطن العربي والغزو الصليبي ، د. هاشم العاضيدي وغيره ص٢٤ ، وانظر : سي سيك الحروب الصليبية ترجمة سامي هاشم ١٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الاتجـــاه الكنسي للحرب :

دخلت الكنيسة في إعداد قوات خاصة بها على شاكلة رقيب أو رقباء، ثم إن رجالها لهم تواصل مع الملوك والأمراء والإقطاعيين ، ولهم تنافس أيضاً معهم ، الأمر الذي جعلها تعد العدة وتكون في صراع حربي معهم .

والكنيسة أيضاً توجهت توجهاً حربياً نظراً للصراع الدائر بين المسلمين والنصارى على حدود الدولة البيزنطية . فقد تقدم المسلمون بقيادة السلاجقة في آسيا الصغرى وبلغوا مدناً لم يصل إليها المسلمون من قبل وحاصروا العاصمة القسطنطينية فاستعان الإمبراطور بالكنيسة ، وذلك في القرن الحادي عشر الميلادي(١) .

وكذلك فإن الكنيسة أيضاً ترقب الصراع الدائر بين المسلمين والنصارى في بلاد الأندلس . ويقترب منها سجال الحرب في جزر البحر الأبيض المتوسط . ثم إن الذي أحج الكنيسة وجعلها تتذرع بالعامل الديني هو أن السلاجقة منعوا حجاج أوربا من بيت المقدس ، ويعود ذلك لأن المنطقة حربية فالطريق غير آمن ، وقد اهتبل (بطرس الناسك) هذه الحال فأخذ يُطوف في أوربا ، ويدعو إلى الجهاد المقدس ، ويعلن إصرار السلاجقة على منع الحجاج ، وتعذيب أولئك الوافدين لطلب الغفران ، فالتف حوله جموع من رعاع الناس وغوغائهم ، واتجه بهم إلى فلسطين .

كل ذلك أثار حفيظة البابا أربان الثاني ووافق هوى من رجال الكنيسة فاتجه من روما إلى قلب أوربا أي فرنسا وعقد مجمعاً في مدينة « كليرمونت » حضره كثير من رجال الدين والفرسان وشرح لهم أحوال المسيحيين في بيت المقدس وما يلاقيه الحجاج فتأثر الشعب ، وتعاهدوا على الحرب . وقد اختلفوا في أهداف

(١) د . حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ٢٤٣/٤ ، الطبعة السادسة ، دار الأندلس ، بيروت .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

البابا من هذه الإثارة ، فمن المؤرخين من يرى أنها لتأمين سبل الحج إلى بيت المقدس ، ويرى فريق آخر أنها لنجدة نصارى المشرق ، أو أنها لتوجيه طاقة أوربا الزائدة في تلك الفترة ، أو أنه يريد بناء قوة كنسية إقطاعية في فلسطين ، وربما يريد زيادة نفوذ البابوية ، وتوحيد كنيستي الشرق والغرب(١) .

من الأسباب التي دعت إلى الحرب تأثير التجارة عند الملوك والإقطاعيين ، وتجار الداخل ، فوضحوا لهم المشاكل التي تتعرض سبل تجارتهم ، وهم لهم قوتهم في الدول المواجهة للشرق مثل البندقية وجنوة وبيزا .

ومن أسباب الحرب الصليبية تحول المجريين إلى المسيحية الأمر الذي فتح الطريق بين غرب أوربا والشرق(٢) .

الحملات الصليبية :

الحملة الأولى ٤٨٨هـ١٠٩٥م حتى ٤٩٢هـ-١٠٩٩م

سميت هذه بالحروب المقدسة لأن الهدف منها كان الهيمنة على بيت المقدس، ولأن الصراع الديني هو الذي نفث اللهيب في جذوتها ، حتى اشتعلت نيرانها قرنين كاملين من الزمان ، وكان شعارها الصليب يحمله كل جندي ، حتى سفنهم سميت بهذه التسمية ، وقد أشار ابن جبير في رحلته إلى الأندلس في رحلة الخريف (صليبية) وابن قيم الجوزية يطلق عليها « الأمة الصليبية »(٣) ، أما أسامه بن منقذ فإنه يسميهم بالإفرنجة ، وقد جرى المؤرخون على هذه التسمية ، والذي دعا إليها « إربان الثاني » الذي ارتقى عرش البابوية ١٠٨٨م فقد حرضه بطرس الناسك ، وعقد مؤتمر (كير مونت) في نوفمبر عام ٤٤٨هـ١٠٩٥م وألقى بياناً مهماً ، دعا فيه إلى الجهاد المقدس وأغراهم بالمسلمين الذين يقطعون

---

(١) انظر : ندوة التاريخ الإسلامي ص ٢١٩ .

(٢) د. حسن إبراهيم ، كتابه السابق ٤/٢٤٤ .

(٣) محمد كيلاني : الحروب الصليبية ٨ . الطبعة الأولى ، دار الكتاب العربي ، مكتبة مصر ، مصر .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

طريق الحج على النصارى ويعذبونهم ، كما يزعم ، ومنّاهم برغيد العيش وملك الديار ، ووضع الصليب على صدور المتطوعين . وكانوا يرددون في المعارك « هكذا أرد الرب» في مقابل « الله أكبر » عند المسلمين . والحملة الأولى هذه تنقسم قسمين :

١ – حملة الشعوب :

حيث نادى بطرس الناسك إلى المبادرة بالحرب المقدسة والتف حوله الفقراء وعامة الناس الذي لم يتلقوا تدريباً عسكرياً ، ولم ينتظموا في جيش ، ولم يملكوا أموالاً تعينهم في السفر ، وهم المندفعون ، ومنهم المجرمون وقطاع الطرق ، والفلاحون ، فعبرت أوربا من وسطها ، وفتكت بمن تمر به من الإفرنجة ، ودمروا القرى « فقد تكلفت إزهاق أرواح عديدة من الناس ، وقد استنفذت ما عند الإمبراطور ورعاياه من الصبر ، وعلمت الناس أن الإيمان وحدة لن يفتح الطريق إلى بيت المقدس ، إذا تجردوا من الحكمة والنظام »(١) .

٢ – الحملة المنظمة :

وقد قرر البابا أن تبدأ في ١٥ أغسطس ١٠٩٦م ٤٨٩هـ من خارج أسوار القسطنطينية ، وهي التي قادها عدد من ملوك أوربا من فرنسا ، وألمانيا ، وجيوش الدولة البيزنطية واستولت على الأناضول ، ومدينة (نيقية) قاعدة السلاجقة في ١٠٩٧م، ٤٩٠هـ ، ودخلوا أنطاكية عنوة بعد حصار تسعة أشهر ، وواصلوا هجومهم العنيف على امتداد الساحل الشامي فانتزعوا طرابلس ، وبيروت ثم اتجهوا إلى عكا ، وكان الأمراء والولاة المسلمون ، والشعوب الإسلامية يتصدون لهم ، فيحصنون المدن ، ويدافعون ، ويتمنعون داخل حصونهم شهوراً ، ولكن

---

(١) علي محمود عبدالحليم : الغزو الصليبي ٧٣ نقلاً عن ستيفن ونسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ١/١٩٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بجهد فردي لكل مدينة بل إن خلاف المسلمين كان يدب بينهم ومدنهم محاصرة؛ فهذا ابن عمار حاكم طرابلس يتسلل من طرابلس والإفرنجة محاصرتها - ليستنجد بالخلافة العباسية وولى مكانه ابن عمه أبا المناقب ابن عمار الذي انحاز إلى الفاطميين و لم ينجدوه فضيق عليه الصليبيون الحصار فسلم المدينة(١) .

ولما رأى المسلمون أن لا قبل لهم بهم ، أخذ بعض الولاة يهادنهم ويعقد عهوداً ليبقوه على إمارته ، لكن الفرنجة ينقضون العهد ، ويهجمون عليهم كما حدث مع ولاة دمشق .

وهاجمت الحملة الأولى بيت المقدس ٤٩٢هـ ، ١٠٩٩م واستولوا عليه ، وليس معنى الحملة الأولى أنها مجموعة جيوش متكاملة منقطعة عن أوربا إن الإمدادات البرية والبحرية متواصلة من بيزنطة ، وروما ، وجنوة ، والبندقية ، وصقلية لا سيما على المدن الساحلية فهي تمد الجيوش الصليبية المحاصرة للمدن الإسلامية .

وقد بادر الفاطميون إلى بعث الحملات المتتالية لإنقاذ بيت المقدس ، والشام من الصليبيين ٤٩٤هـ ،١١٠١م وحملة ثانية ٤٩٥هـ ن ١١٠٢م وبعث الفاطميون حملة ثالثة ٤٩٥هـ ،١١٠٢ لكنها انهزمت ، كما جاءت حملات من العراق والدولة السلجوقية مثل مودود التركي ، وحملات برسق السلجوقي ثم حملات عماد الدين زنكي(٢) ، ومع ذلك فإن المؤرخين يحملون الدول وزر التهاون ، يقول صاحب النجوم الزاهرة : « قلت ومن هذا يظهر عدم اكتراث أهل مصر بالفرنج من كل وجه . **الأول** : من تقاعدهم عن المسير في هذه المدة ، **الثاني** : لضعف العسكر الذي أرسلوه مع أسطول مصر ، ولو كان لعسكر الأسطول قوة لدفع الفرنج من البحر عن البلد على حسب الحال . **الثالث** : لِم لم

(١) انظر : الكامل لابن الأثير ٤١٤/١٠ ، القاهرة عام ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٧٩/٥ ، الطبعة الأولى ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يخرج الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بالعساكر المصرية »[1] .

الحملة الصليبية الثانية ٥٤٢هـ-١١٤٧م :

توالت الهزائم التي ألحقها المسلمون بالصليبيين في الساحل الشامي وحول القدس . فالفاطميون بعثوا بحملاتهم ، ومودود التركي تصدى لهم ، وحملات طغتكين حاكم دمشق وحملات برسق ، وتوج ذلك ظهور عماد الدين زنكي واحتلاله للرها عام ٥٣٩هـ الأمر الذي أضعف الفرنجة ، رغم الإمدادات المتواصلة ، فجعلهم يصرخون ويستنجدون مطالبين بحملات كبرى لإنقاذهم من البركان المحيط بهم لاسيما أن عماد الدين قد أنهكهم ، وقاتلهم كثيراً واسترد مدناً وحصوناً ؛ فسارت الحملة الصليبية الثانية ٥٤٢هـ-١١٤٧م أي بعد وفاة عماد الدين بسنة واحدة وأوائل عهد نور الدين زنكي ، وكانت بقيادة ملكي فرنسا ، وألمانيا ، وهدفها الوقوف في وجه نور الدين زنكي واسترداد الرها منه ، وتأمين الإمارات الصليبية ، وهاجمت الحملة دمشق ولكنها لم تستطع أخذها ففشلت .

الحملة الصليبية الثالثة ٥٨٥هـ-١١٩٠-٥٨٨هـ١١٩٢ :

يدخل ضمن الحملة الثانية حروب نور الدين مع الروم ، وقد تصدى للحملة وهزمها ، وقتل قائدها ريمون في قلعة (أنب) عام ٥٤٤هـ-١١٤٩م .

ويدخل ضمن الحملة الثانية بعض حروب صلاح الدين واستعادة بيت المقدس ٥٨٣هـ الأمر الذي جعلهم يندبون ملك إنجلترا وملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا ١١٩٠م وواصلوا مسيرتهم إلى عكا وحاصروها حتى انتهى بصلح الرملة ٥٨٨هـ .

---

(١) المصدر السابق ١٧٩/٥ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الحملة الرابعة ٥٩٨هـ-١٢٠٢م :

هذه الحملة انشغلت بثورة القسطنطينية و لم تصل إلى المشرق .

الحملة الخامسة :

وصلت الشام ٦١٥هـ-١٢١٧م ، وأخرى لمصر ٦١٦هـ١٢١٨م، ووصلت إلى دمياط وتصدى لها الكامل ، حتى جلوا عن دمياط ٦١٨هـ-١٢٢١م(١) .

الحملة السادسة :

وجاءت الحملة السادسة بطلب من الملك الكامل ملك مصر لمحاربة أخيه المعظم حاكم دمشق نظير تسليمه لفردريك بيت المقدس ، لكن لما وصلت الحملة قبرص مات المعظم وأمن الكامل ، وفردريك لا يريد حرباً وهو ملعون من الكنيسة لذا استجدى بالطاعة والدموع حليفه الكامل حتى يظهر بمظهره العظيم في نظر ملوك أوربا ، فسلم الكامل له بيت المقدس ٦٢٦هـ ثم عاد إلى بلاده ١٢٢٩م ، و لم يحدث فيها حروب كثيرة(٢) .

ولما توفي الملك الكامل في مصر وضعفت الدولة الأيوبية ٦٣٥هـ-١٢٣٨م ، دعت البابوية إلى حرب صليبية ووصلت الحملة إلى عكا ٦٣٧هـ-١٢٢٩م ، وعادت الحملة بعد معاهدة مع الصالح أيوب سنة ٦٣٩هـ-١٢٤٠م وجاء ملك فرنسا لويس التاسع بحملة إلى مصر وهزمه الملك الصالح ، ثم زوجه شجرة الدر من بعده عام ٦٤٧هـ-١٢٥٤م(٣) .

---

(١) انظر : الغزو الصليبي ، لعلي عبدالحليم ، من ٦٨ حتى ١١٨ .

(٢) انظر : النجوم الزاهرة ٦/٢٧١ ، والوطن العربي والغزو الصليبي للمعاضدي ٢٠٧ .

(٣) انظر : النجوم الزاهرة ٦/٣٦٤ ، ووثائق الحروب الصليبية للمعاضدي ومحمد ماهر ٥٢ ، وانظر : الغزو الصليبي لعلي عبدالحليم ٦٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

انعدام المنهجية الإدارية للمستقبل
في عهد الحروب الصليبية

الإنسان يحمل ثوابت ، ومتغيرات تلازمه في حياته كلها ، والعمل في نسق تلك الثوابت والمتغيرات ، يتأطر في الإطار الإداري ، فتتشابه مؤثراته ونتائجه .

وجذورنا من البعثة النبوية ، لأن الأمة العربية نبعت في صحراء من التكوين المعرفي السلوكي الإداري ، فقد كانت تفتقد تجارب الإدارة لتكوين الدول ، وإصلاح انحرافها ، وعوامل استمراريتها ، والنماذج السلفية لها ، وتخطيطها ، ونظرياتها المستقبلية ، فلما جاء الوحي ، ونزل على الرسول ﷺ فعمل به علماً وعملاً ، وأقام الحياة الإدارية في المدينة المنورة ، أصبحت تُعنى بحياة إنسانية ، ولما توسعت رقعة الدولة وانضمت إليها شعوب الدول المجاورة في عهد عمر بن الخطاب ﷺ بنى المنهج الإداري مثل بيت المال ، وديوان الجند الذي كان ميداناً للتنظير ، والتأليف ، والتطبيق على مر العصور ، وغابت جوانب متعددة أحوج ما تحتاج إليها الأمة ، ثم بعد ردح من الزمن تكونت الدولة الأموية فاعتراها الضعف والانقراض . حلت مكانها الدولة العباسية ، فهزلت بعد مائة عام أو تزيد قليلاً . ثم قامت الدويلات والإمارات الإسلامية التي لا يتجاوز عمرها أكثر من مائة سنة . وقد حل بالمسلمين التدهور والتمزق ، وانتقضت المعمورة الإسلامية من أطرافها ، والمفكرون الإسلاميون يغفلون التأمل ، والتدبر في الماضي، والحاضر والمستقبل ، والقادة الإداريون لم يتنبهوا إلى دراسة تلك الثروة الفكرية، ليوظفوها لحياة دولهم .

وليس معناه أن نفتقد حضور العلماء وتأليفهم في القضايا الإدارية الإسلامية، إنما نفتقد النظرة المستقبلية ، وتحديد معالمها التي يلزم لتحديدها النظر إلى ناحيتين مهمتين **أولاهما** : العبرة من الأحداث المحاكية والمشابهة لها من قبل ، ومعرفة أسباب القوة ، وتحديد مسببات الضعف .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وثانيهما : النظرة الواقعية التي تصوب سهمها إلى كيان الدولة لتخرج بعد ذلك بنظرة مستقبلية تؤطر أسساً للسلوك الإداري .

وغاب المستقبل عن المنظرين كالماوردي المتوفى ٤٥٠هـ ، في كتابه « الأحكام السلطانية » والأزرق المتوفى ٨٩٦هـ في « بدائع السلك في طبائع الملك » ، وغيرهما مما أدى إلى مزالق خطيرة ظللت الأمة الإسلامية بسحب كثيفة من الظلمات ، ومن أخطرها ما حدث للأمة الإسلامية في منتهى القرن الخامس الهجري الذي شهد غزو الصليبيين على الأمة الإسلامية ، فقد أنذرت الأمة بحملة كبرى فشلت بقيادة بطرس الناسك ٤٨٨هـ ، ولم يأخذ المسلمون حذرهم ويحصنون ثغورهم ، حتى جاءت حملة الملوك والأمراء ، فاجتاحت المدن نيقية وأنطاكية والرها ، ولم تستشعر المدن الأخرى ، ولم تعد العدة ، ولم يتداول الولاة أمرهم بشكل جماعي لكي يتآزروا ضد الغزو الجماعي ، حتى سقطت المدن الساحلية ، وبيت المقدس ، ولم نسمع للتكاتف والتعاضد همساً بين الولاة الصغار ولا بين الخلافتين مع أن الغزو اخترق الخلافتين واستقطع مدناً من كل خلافة ، وكان التدمير والاجتياح خلال سنتين ، والصليبيون يأتون عن بعد من أوربا والمسلمون لم يجتمعوا من الميدان ذاته ، والإفرنجة تعاضدت وتآخت وانتظمت تحت مظلة الكنيسة ، وتنادت للغزو ، والأمة الإسلامية لم تتداع للدفاع . والأدهى والأمر أنه لم يكن هناك اتجاه فكري لمعالجة القضية ، ولم يكن هناك توجه إداري للتصدي لها .

وكأن الاجتياح الصليبي للشريط الساحلي الشامي إنذار مبكر للأمة لمن يعتبر ويتدبر ، فلم يلبث العالم الإسلامي أن تعرض للزحف المغولي الهمجي المدمر فأخذ يحصد المدن الواحدة تلو الأخرى ، فقد أعلن جنكيز خان الحرب سنة ٦١٦هـ واجتاح خوارزم وقتل ٢٦٠ ألفاً ، ثم بخارى وتبعتها سمرقند وخربت تخريباً ، فقد مر عليها ابن بطوطة بعد مائة عام فرأى آثار الدمار ، ومدينة (

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مرو): أحرقت بكاملها وخدعوا المسلمين بالأمان ليخرجوا بأمتعتهم لكنهم قتلوهم وأخذوا الكنوز . ونيسابور قتل كل من فيها من الرجال والنساء ، وجمعت الجثث فكانت تلالاً ومثلها هراة وأذربيجان حتى بلغوا بغداد في ٦٥٦هـ فكان التدمير الشامل .

والأمة الإسلامية لم تقم لها قائمة ، و لم تستفد من نتائج الحروب الصليبية وتنظر نظرة مستقبلية بل إن المدن والدويلات تتلاحق ، و لم تجمع شتاتها فيما بين إعلان الحرب ٦١٦هـ وسقوط بغداد ٦٥٦هـ ، أربعين عاماً لم يتنبه المسلمون لهذه القضية فكانت داهية الدواهي باستباحة بغداد لمدة أربعين يوماً فقتل فيها أكثر من مليون . كل ذلك يحدث و لم ينهض المسلمون للتجمع والتعاضد ، ومعالجة الأمور ، والخلافة العباسية لم يكن لها حول ولا طول . بل إن التتار استفادوا من شباب المسلمين ، فأجبروهم على مواجهة إخوانهم في كل معركة فالعدو من ورائهم ، والمسلمون المقابلون يظنونهم جند المغول ، فتحدث المعركة وبعد أن تنهك القوة يهجم المغول ، وأيضاً فإن الوزراء يشيرون على الخليفة بتسريح نصف الجيش فأجهزوا على البقية الضعيفة بعد أن تأكدوا من قلة الخسائر البشرية(١) .

كل ذلك في غياب تكوين الجيوش القوية الملتفة المتآزرة ، وغياب العبرة من الماضي ، واستقراء الحاضر الواقعي ، وتعطيل القوى البشرية عن العمران الصناعي والزراعي، وغياب النظرة المستقبلية ، فهل تعمل الأمة الآن على إيجاد معاهد استراتيجية تنير للأمة العربية ، والإسلامية معالم تآلف ، وتجمعها قوتها ، وتحدد

(١) انظر : الكامل لابن الأثير ٣٨٤/١٢ حتى ٥٠٤ ، وانظر : النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٥٠/٧ ، وما بعدها ؛ أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي لمأمون فريز ؛ التيارات الأدبية إبان الزحف المغولي للدكتور محمد محمد التونجي .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أسباب المشاكل، وتبلورها ثم تورد الحلول ، وتبني الخطط قريبة المدى ومتوسطته وبعيدته ؟

الحالة الإداريـــة :

أفل نجم الخلافة العباسية وأضحت إدارتها التنفيذية تحت هيمنة سلاطين البويهيين ، ثم السلاجقة ، الذين قادهم طغرلبك عام ٤٢٩هـ-١٠٣٨م وقضى على دولة الغزنويين ٤٣٢هـ حتى قدم بغداد عام ٤٥١هـ .

وكانت دولة السلاجقة ذات قوة ضاربة ، ورجالها أولي همم عالية ، وهم يمارسون التدريب العسكري ، وقد مات طغرلبك عام ٤٥٥هـ-١٠٦٣م، وخلفه ألب أرسلان ابن أخيه ، ومات عام ٤٦٥هـ-١٠٧٢م وفي عهده انتصر المسلمون بقيادة السلاجقة على الدولة البيزنطية ، واسروا إمبراطورهم ، وعفا عنه ألب أرسلان ، ثم خلفه ابنه ملك شاه من ٤٦٥هـ-حتى ٤٨٥هـ-١٠٧٢م-١٠٩٢م، وكان عمره سبعة عشر عاماً ، فأسند الوزارة إلى نظام الملك الأمر الذي جعل سلطان السلاجقة يشمل جلّ البلاد الإسلامية ، وتقوى دولتهم ، ويدفع لهم أباطرة الروم الجزية ، وكان السلاجقة القوة الحربية ، وعملت على نشر المذهب السني ، وبناء المساجد والمدارس ، وقد مات ملك شاه ونظام الملك في عام واحد هو ٤٨٥هـ الأمر الذي قوض أركان دولتهم وتفرقت إلى شيع بسبب نظام الإقطاع ، وتوزيع أبناء السلاجقة مع الأتابكة المربين لهم ، وكل أتابك أراد أن يحوز السلطة لربيبه ثم يسلخها منه فاشتعلت الحروب الداخلية بين أقاليم الدولة ، وتوزعت إلى ولايات وإمارات وإقطاعات ، فانشغلت عن الجبهة الرومانية مما هيأ للصليبين الاستيلاء على ديار المسلمين بسهولة حتى بلغوا القدس في أقل من عامين .

وكان جهد السلاجقة ضد الإفرنجة قد تمثل في مواجهة الحملة الأولى حيث

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

استولى الإفرنجة على أنطاكية بعد صراع دام تسعة أشهر في إبريل ١٠٩٨م ، وكان الإفرنجة يبعثون إلى حلب ودمشق بأنهم لا يريدون إلا المدن التي كانت بيد الروم مكراً وخديعة(١)، وقد تصدى لها قوام الدولة كربوقا أمير الموصل واجتمعت معه عساكر الشام ، ومنهم طغتكين أتابك حاكم دمشق ، وجناح الدولة صاحب حمص وغيرها ، وحاصروا أنطاكية ، وكانوا في قوة وكثرة عدد لكن كربوقا لم يعمل بالمشورة ، ورفض الصلح وخروج الصليبين من أنطاكية ، حتى أن الجند خرجوا من أبواب أنطاكية فمنع المسلمين من قتلهم حتى تكاثروا فتجلدوا دفاعاً عن مدينتهم ، وكان أول الفارين فانهزم المسلمون وغنم الصليبيون وقويت شوكتهم(٢) .

ثم واصلوا الزحف إلى معرة النعمان واحتلوها(٣). ثم اتجه الإفرنج إلى عكا لكنها تمنعت عليهم ، فواصلوا المسير إلى بيت المقدس وحاصروها أربعين يوماً ، ثم دخلوها في ٢٢ شعبان ٤٩٢هـ ١٥ يوليو ١٠٩٩م . وقتلوا فيها سبعين ألفاً من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم وممن جاوروا ، وسلبوا المسجد الأقصى جميل نفائسه ومدخراته ، وغنموا من المدينة مغانم كثيرة(٤) .

ولما رأى المسلمون اجتياح الإفرنج للمدن الإسلامية ، واحتلال بيت المقدس وقتلهم المسلمين ، أخذ العلماء والقضاة يستنفرون المسلمين في دار الخلافة؛ فقد جاء إليها القاضي أبو سعيد الهروي ومعه من العلماء « فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون ، وأوجع القلوب ، وقاموا بالجامع يوم الجمعة ، فاستغاثوا ، وبكوا

---

(١) الكامل لابن الأثير ١/٢٧٥ .

(٢) المصدر السابق ١٠/٢٧٦،٢٧٨ ، وفي الحروب الصليبية لحسين أحمد أمين٣٠ ؛ وانظر : د. ارشيد يوسف ، سلاحقة الشام والجزيرة ، عام ١٤٠٩، ١٩٨٨م ، المؤسسة الصحفية الأردنية (الرأي) عمان – الأردن .

(٣) المصدر السابق ١٠/٢٧٨ .

(٤) بتصرف من الكامل ١٠/٢٨٢،٢٨٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأبكوا وذكروا ما داهم المسلمين بذلك المكان الشريف من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد ونهب الأموال »(١) .

فتأثر المسلمون وثارت حفيظتهم ، وغضبوا غضباً شديداً ، فتداعوا للجهاد لكن الولاة ووزراء الخلافة لم يبرموا أمراً ، فأخذ الشعراء يصرخون رافعين أصواتهم منادين بالجهاد داعين إلى رفع راية الإسلام ، منددين بالمتخاذلين ممجدين المقاتلين ، معبرين عن المقهورين المظلومين والمأسورين ، والمنتهكة أعراضهم ، والمشردين عن أوطانهم(٢) .

والذي لا ريب فيه أن الروح الإيمانية منغرسة في نفوس المسلمين كافة ، وأن الحمية والغيرة الإسلامية تنبعث من قلوبهم ، وهم يملكون الهمة والعزيمة للجهاد في سبيل الله بالتصدي للعدو الكافر ، وليس أدل على ذلك من استجابة المسلمين للنداءات ، فقد حمل علماء المسلمين مسوولية الدعوة للجهاد ، فهذا القاضي الهروي يهرب من بيت المقدس بعد سقوطها متجهاً إلى دار الخلافة العباسية في عام ٤٩٢هـ ، ويخطب في المساجد داعياً للجهاد واستعادة بيت المقدس ، فيتدافع الناس ملبين نداء الجهاد حتى اضطر الخليفة إلى تكوين جيشٍ كبيرٍ .

ومثل ذلك القاضي الشهرزوري ، يبعث به عماد الدين زنكي من حلب – عندما خشي من سطوة الإفرنجة – يبعث به إلى بغداد يطلب النجدة في المساجد والطرقات فالتحق به خلق كثير حتى تكون جيش عظيم باركه الخليفة العباسي .

أما الولاة والأمراء ، فأكثرهم عنده الحماسة ومستعد بالتضحية في سبيل الله، لذلك فإن الأمير يحصن مدينته ويحتمي في القلاع ، ويجند الجند ، ويصبر على الحصار كدفاع أهل أنطاكية ، وامتناع عسقلان ، ردحاً من الزمن ؛ ودفاع أهل بيت المقدس واستعصت حلب على الإفرنجة حتى ضمها عماد الدين إلى

---

(١) انظر : الكامل لابن الأثير : ٢٨٥/١٠ ، نقله حسين أحمد أمين ، في الحروب الصليبية ٣٤ .

(٢) المرجع السابق ٣٥ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

سلطته ، وأصبحت عاصمة الانطلاقة للجيش الإسلامي(١) .

وبعض الولاة هادن وصالح الإفرنجة لما رأى من بطشهم وفتكهم بالخلق ، ولخلاف أمراء البلاد الشامية، ولانشغال الخلافتين ، وخشية على ذهاب سلطانه . ومن هذه المدن التي خضعت للصليبين ، طرابلس وبيروت ، فإنهم في بداية الأمر دفعوا للإفرنجة الأموال ، وسهلوا لهم السبل ثم انتزعوا السلطة من أهلها ، ومثل ذلك صور وعكا وقيسارية . هذا الأمر جعل عماد الدين زنكي يتجه لتوحيد البلاد فانتزع كثيراً من الحصون من الإمارات الصغيرة وضمها إلى سلطانه ، وبحجة هذا فإن كثيراً من الولاة يلجأ إلى مصالحة الإفرنجة(٢) .

والقادة المسلمون الذين في مواجهة الصليبين كانوا يخشون من الاستعانة بالجيوش الكبيرة التي تبعث بها الخلافة العباسية ، كما فعل حاكم دمشق طغتكين مع جيوش الخلافة بقيادة مودود فقد قتله ، وكذلك عماد الدين فإنه بعث القاضي الشهرزوري يطلب المدد من الخلافة ، وبعد تكوين الجيش أوعز عماد الدين إلى القاضي بتثبيط الأمر ، وقد تنبه نور الدين زنكي لهذا فلم يطلب مدداً ، وكذلك صلاح الدين الأيوبي ، مما جعل هؤلاء القادة يحاربون فرادا فينتزعون الحصون ، ثم يأخذها الصليبيون ، فليس هناك نصر حاسم بل نصر يودي إلى الضعف وهذا يدعوهم إلى محالفة الإفرنج أحياناً(٣) .

وكذلك دار الخلافة في شغل شاغل عن التصدي للحملة ، فالوزراء يتنافسون حول الخليفة والحاشية وفي مكائدهم يدبرون ، ولأحقادهم يعملون ، فهم في أمر مريج ، والخليفة يضرب بعضهم ببعض ، ويذعن للقوي ، ويبطش

---

(١) انظر : الكامل لابن الأثير ٢٧٤/١٠ حتى ٢٧٨ ، ٤١٢، انظر : جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ، د. فايد حماد عاشور ١١٩ ، الوطن العربي ، دخاشع المعاضدي ٤٣ ، والغزو الصليبي علي عبدالحليم عاشور ٨٥ .

(٢) انظر : جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ، د. فايد عاشور ١٢٧ .

(٣) انظر : الكامل لابن الأثير ٢٩٩/١٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بالضعيف ، وكان أمره مقصوراً على خلع الأسماء والهدايا ، وإصدار المراسيم(١)، واستقبال الأموال المعلومة ، أما أمره فليس بنافذ ، وقد ظهر أثر الصراع الوزاري في شعر أبي الفوارس (حيص بيص) « فكان بين الوزير أنوشروان بن خالد ، وبين الوزير علي بن طراد الزينبي عداوة وتباغض(٢)، ومن التنافس حول الخلافة تنافس الإمارات العربية مثل إمارة بني عقيل في الموصل ، والإمارة المزيدية الأسدية وكان منها دوبيس الثاني بن صدقة الذي علا شأنه حتى خشي الخليفة منه وربما أن ذلك نتيجة استشارة الوزراء ، ولكن الخليفة في النهاية قبل به تحت نفوذ السلطان مسعود السلجوقي ، وكأن الخليفة والعرب أرادوا المعادلة بين الإمارات العربية وسلطان السلاجقة ، لكن السلطان مسعوداً اغتال الخليفة المسترشد في ٥٢٩هـ ، وأوحى أن الذي دبر الاغتيال دبيس ، فقتل الأخير على باب مراغة في بغداد بعد شهر واحد من قتل المسترشد . ومن الإمارات العربية آل أبي الجبر الكنانيون في الغراف والبطيحة .

ثم جاءت فترة أظهر الخلفاء العباسيون فيها استقلالاً نتيجة لحكمة الخليفة المقتفي وخليفته المستمد بالله والمستضيء بامر الله ، وتفرقت كلمة السلاجقة واشتدت حروبهم الطاحنة ، وخضعوا للأتابكة ، وتصدى أهل الساحل الشامي من مدن وقرى وقلاع للدفاع عن أنفسهم من عام ٤٩٠هـ حتى ٥٢٢هـ ، وكانت تأتيهم مساعدات ضئيلة من مصر ، ومن الموصل ودمشق وماردين ولكن الإفرنجة استولوا على الشريط الساحلي بعد بطولات غير جماعية ، من جانب المسلمين ، وقد أظهر أهل المدن والقلاع صبراً في الحصار والمحاربة ، لكنهم كانوا أمام قوة أعظم(٣) .

---

(١) انظر : كتاب الروضتين الجزء الأول ، والكامل الجزء العاشر ، ووثائق الحروب الصليبية لحماده ؛ النجوم الزاهرة الجزء الخامس والسادس .

(٢) الديوان ١/٤٦ .

(٣) انظر : الكامل لابن الأثير ١٠/٢٨٥ ، وما بعدها .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الأتـــابكة :

روى القلقشندي في (صبح الأعشى) في ذكر تاريخ السلطان عماد الدين زنكي أن أتابك أصله أطابك ومعناه الوالد الأمير(١) .

وقد وصفهم الدكتور علي عبدالحليم وصفاً إجمالياً فقال : « أما الأتابك فهم في الأصل قواد للجيش السلجوقي .. »(٢) .

وكان الأمير السلجوقي يعهد لأحد الأتابكة بتربية أولاده ، ويقطعهم إقطاعاً كبيراً وربما تزوج أم الأمير ، فيربيه ، وفي أحسن الأحوال يريد له أن يصل إلى السلطة فيتقاتل الإخوة ، وكثير منهم يتمكن من الأمر ثم يقتل الأمير السلجوقي . واستولى الأتابكة على ولايات كثيرة من سلاطين السلاجقة ، وإن كانوا يذعنون لأمرهم وكذلك يلتمسون المراسيم من دار الخلافة ، ويتعهدون ببذل الأموال ، والمشاركة في الحروب عند الطلب منهم ومن أشهرهم : أتابك دمشق ، وأتابكة الموصل ، وأتابكة حلب وغيرهم .

وكان من أوائل الأتابكة الذين فتكوا بالأمراء السلاجقة ، وكانت لهم سلطة ونفوذ أتابكة دمشق ، فقد ظهر الأتابك ظهير الدين طغتكين من موالي الأمير تتش بن السلطان ألب أرسلان السلجوقي ، فجعله تتش أتابكاً لولده دقاق وزوجه بأم دقاق الخاتون ، فتخلص طغتكين من أبناء السلاجقة ، وأصبح حاكماً على دمشق سنة ٤٩٨هـ ، ثم حارب الفرنجة فصد هجماتهم عن عسقلان ، وكان يغير على حصونهم ويخرج إلى أعماق حوران ووادي موسى ، وغور الأردن ، وجبال البلقاء وذلك عام ٥٠٠هـ ، ثم ضعف طغتكين وعقد هدنة مع بغدوين عام ٥٠٢هـ ، لكنها كانت مجحفة على المسلمين لأن ثلثي غلال البقاع للفرنج ويسلم لهم كثيراً من الحصون ، مع ذلك يطلب الإفرنجة المزيد ، ولما رأى

---

(١) د . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ٦١ .

(٢) الغزو الصليبي والعالم الإسلامي ١٩١،١٩٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ذلك استنجد بالأمير مودود بن التونتكين سنة ٥٠٦هـ ، وغدر به وكان طغتكين يناصر الباطنية مما جعل السلطان يرسل له جيشاً لكن طغتكين تحالف مع الفرنجة وهزموا الحملة السلطانية ٥٠٩هـ ، وهذا تصرف تغلب عليه المصالح الفردية على المصالح الإسلامية الأولى ؛ فهو يؤخذ عليه وقد قلاه المسلمون ، وأنكر عليه ذلك العلماء ، ثم عاد لمجاهدة الإفرنج بمفرده حتى مات ٥٢٢هـ(١) ، وتولى مكانه ابنه تاج الملوك بوري ومن أهم أعماله قضاؤه على الباطنية في دمشق ، والباطنية كانت تعمل على اغتيال الأمراء المجاهدين ، فقد قتلوا مودوداً البرسقي ، وقتلوا بوري في عملية غدر عام ٥٢٦هـ ، وظل ولاة دمشق يتحالفون مع الفرنجة ضد عماد الدين ونور الدين حتى استولى عليها نور الدين سنة ٥٤٩هـ(٢) .

أتابكة آل زنكي :

هم الذين تولوا قيادة الجيوش الإسلامية ، وأبلوا بلاءاً حسناً فقد تولى عماد الدين زنكي الموصل والجزيرة عام ٥٢١هـ ، وأصلح شأنها وضم إليها حلب في ٥٢٣هـ ، يقول ابن الأثير : « كان الفرنج خذلهم الله تعالى قد استضعفوا بلاد الشام الإسلامية ، فتابعوا الغارات على أهلها ، وقصدوها محاصرين لها لخلوها من حام ومانع ، وقد قوي طمعهم في ملك ما بقي في يد المسلمين من البلاد .. ولولا أن الله تعالى منَّ على المسلمين بولاية الشهيد (زنكي) لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعها »(٣) .

وبدأ عماد الدين جهاده ضد الصليبين عام ٥٢٤هـ ، وانطلق ناحية حلب مهاجماً الحصون الصليبية القريبة منها ثم انشغل عماد الدين بالخلاف مع

---

(١) انظر : النجوم الزاهرة ٥/١٨٩؛ وأخبار الدولة السلجوقية للحسيني ١٩٦ ؛ وسلاحفة الشام والجزيرة لارشيد يوسف ١٢٣ .

(٢) انظر : سلاحفة الشام والجزيرة لأرشيد يوسف ١٦٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ١٠/٣٧-٣٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

السلاجقة والخلافة ، وتوحيد بلاد الشام من عام ٥٢٤هـ، حيث أخذ يهاجم الحصون القريبة من حلب ، وحماة ، وشيزر ، وأخرج الروم من شيزر ، فقال أبو المجد المسلم بن خضر بن المسلم بن قسم الحموي :

بعزمك أيها الملك العظيم تذل لك الصعاب وتستقيم
ألم تر أن كلب الروم لما تبين أنك الملك الرحيم
فجاء يطبق الفلوات خيلاً كأن الجحفل الليل البهيم(١)

وفي سنة ٥٣٤هـ ، تصد عماد الدين حصن بارين فقال فيه القيسراني :

حذار منا وأنى ينفع الحذر وهي الصوارم لا تبقي ولا تذر(٢)

وقال ابن الأمير :

فدتك الملوك وأيامها ودام لنقضك إبرامها
وزلت لعيشك أقدامها وزال لبطشك إقدامها(٣)

وفي سنة ٥٣٩هـ ، حاصر الرها بعد أن خدع جوسلين فأوهم أنه لا يريدها فخرج منها جوسلين فانقض عليها عماد الدين وحاصرها فقال ابن منير .

أين الخلائف عن فتح أتيح له مظلل أفق الدنيا جناحاه

وهنأه القيسراني بالفتح :

هو السيف لا يغنيك إلا جلاده وهل طوق الأملاك إلا نجاده
سمت قبة الإسلام فخرا بطولة ولم يك يسمو الدين لولا عماده(٤)

وقد التف الشعراء بعماد الدين وأشهرهم ابن منير والقيسراني ، فكثرت أشعارهم فيه يسطرون تلك الأمجاد بأشعارهم ، ويدفعون عماد الدين وجيوشه إلى الجهاد في سبيل الله، ويشاركونه أفراحه ؛ فإذا شُفي هنؤه بالعافية ، يقول

(١) أبو شامة : الروضتين ١/٣٢ .
(٢) المصدر السابق ١/٣٤ .
(٣) المصدر السابق ١/٣٥ .
(٤) المصدر السابق ١/٣٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ابن منير :

يـــا بـــدر لا أفـــل ولا محـــاق ولا يـــرم مشـــرقك الإشـــراق
بالدين والدنيا الـذي يشكـو وهـل يهتـز فـرع لم يقمـه سـاق(١)

وقد قتله غلمانه وهو يحاصر قلعة جعبر عام ٥٤١هـ . فرثاه الشعراء ومنهم أبو يعلى التميمي(٢)والحكيم بن أبي الحكم ومنها :

عيني لا تذخـري المدامـع وأبكـي واستهلي دماً علـى فقـد زنكـي(٣)

نور الدين بن عماد الدين زنكي :

ولد نور الدين عام ٥١١هـ، وتولى السلطة عام ٥٤١هـ ، وأخذ يقاتل الصليبيين طوال مرحلة حكمه بعد قتل والده و لم يستعن بالخلافة ، ولا بالسلاجقة، واستولى على دمشق عام ٥٤٩هـ ، وأخذ يعد العدة لضم مصر ؛ فبعث لها ثلاث حملات حتى نال ما أراده بقيادة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي ، وبعد موت أسد الدين شيركوه استلم الوزارة صلاح الدين وأسقط الخلافة الفاطمية عام ٥٦٧هـ ، واعترف بالخلافة العباسية ، وأخذ ينشر المذهب السني في الديار المصرية يؤازره نور الدين ويدعمه ؛ فهو الوالي له في مصر ، واتفق نور الدين وصلاح الدين على شن حملة ضد الصليبيين في بيت المقدس لكن نور الدين مات عام ٥٦٩هـ ، وتوزعت إمارة الشام الأمر الذي شغل صلاح الدين خمسة عشر عاماً يوحد بلاد الشام ويضمها لولايته(٤) .

وكان الشعراء يمتدحونه بأعماله في عهد أبيه فقال القيسراني مادحاً له لما فتح قلعة سنجار عام أربعين وخمسمائة :

---

(١) المصدر السابق ٤١/١ .

(٢) المصدر السابق ٤٥/١ .

(٣) المصدر السابق ٤٦/١ .

(٤) انظر : سلاجقة الشام والجزيرة : لأرشيد يوسف ١٩٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هذا الـذي ولـدت لـه الأفكـار وتمحضت فـألاً بـه الأشعـار(١)

وقد سجل الشعراء كثيراً من المعارك التي خاضها نور الدين ؛ ومن ذلك جهاده دفاعاً عن مدينة الرها لما عاد جوسلين إليها عام ٥٤١هـ ، وأخذها منه وقتل جوسلين يقول القيسراني :

أمـا آن أن يزهـق الباطـل وأن ينجـز العـدة الماطـل(٢)

ويقول ابن منير :

ملك مـا أذل بالفتـح أرضـاً قـط إلا أعزهـا إغلاقـه(٣)

وقد التقى نور الدين بالإفرنجة عند بصرى وحدثت معركة كبرى نصر الله نور الدين فيها عام ٥٤٣هـ ، فقال القيسراني :

وكيـف لا نثـني علـى عيشـنا الـ ـمحمـود والسـلطان محمـود

فليشكر النـاس ظـلال المنـى إن رواق العـدل ممـدود(٤)

وقد استعاد أنطاكية عام ٥٤٤هـ ، وقتل البرنس وقال فيه أحد الشعراء من حلب :

إن كـان آل فرنـج أدركـوا فلجـاً في يـوم يغـرا ونـالوا منيـة الظفـر

ففي الخطيـم خطمت الكفر منصلتـاً أب لمظفر بالصمصامـة الذكـر(٥)

وقال القيسراني :

هذي العزائم لا ما تدعـي القضـب وذي المكـارم لا ما قالـت الكتـب(٦)

وقد سجل أعماله الكاملة أبو شامة في الروضتين ، وسطر كثيراً من الأشعار

---

(١) أبو شامة الروضتين ١/٦٨ .

(٢) المصدر السابق ١/٤٩ .

(٣) المصدر السابق ١/٤٩ .

(٤) المصدر السابق ١/٥٥ .

(٥) المصدر السابق ١/٥٨ .

(٦) المصدر السابق ١/٥٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عند كل معركة من المعارك أو فتح حصن أو استعادة مدينة بل إنه يذكر تاريخ الفتح والقصائد التي قيلت فيه ؛ الأمر الذي يجعل الشعر يشارك في الجهاد الإسلامي ، ويثير الحماسة في نفس القائد والجند بل يتجاوز ذلك إلى إثارة الآخرين من الولاة الإسلاميين فيمدون يد العون .

صلاح الدين الأيوبي :

وفي عهد نور الدين أخذت الدولة الفاطمية تحتضر ، وفتك بها خلاف الوزراء ؛ وقد أوجز أبو شامة حالة تلك الوزارات الفاطمية المعاصرة لنور الدين « ولم يرب أحد رجال الدولة مثل ما رباهم الصالح بن رزيك ، وأفنى أعيانهم مثل ضرغام ، وكانت وزارته تسعة أشهر مدة حمل الجنين ، ولا أتلف أموالهم مثل شاور ، وشاور هو الذي أطمع الغزو الفرنجي في الدولة »(١) .

فكان ضعف تلك الدولة مدعاة لقوة الإفرنج فبادروا إلى غزوها ، وهم بذلك يحتلون مساحة شاسعة من ديار المسلمين ، واحتلالهم مصر يثبت أقدامهم ، ويحمي ظهورهم في بلاد الشام لاسيما بيت المقدس ، وأيضاً ؛ فإن المسلمين يحاصرون بلاد الشام من جبهة واحدة ؛ فتأتي العدو الإمدادات من الساحل والغرب ؛ ثم إن الوزير شاور استعان بهم على خصومه في الداخل وضد نور الدين زنكي ، وأدرك زنكي أن لا قوة للمسلمين بدون وحدة الشام ومصر كل تلك العوامل وغيرها دعته إلى بعث الحملات إلى مصر وكانت ثلاث حملات بقيادة أسد الدين شيركوه فتمَّ له احتلالها ، واستلام الوزارة في عام ٥٦٤هـ ، وأخذ يقلص من نفوذ الخلافة ، ويوطد الأمن لكنه لم يلبث أن مات في ٥٦٤/٦/٢٢هـ(٢) .

---

(١) المصدر السابق ١/١٥٨ .

(٢) المصدر السابق ١/١٦٠ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان صلاح الدين(١) شاباً فتياً كاد يرفض الذهاب إلى مصر لولا إصرار نور الدين ، وكان في الجيش الشامي قادة هم أكبر منه ، وأعظم تأثيراً ، لكن الخليفة الفاطمي (العاضد) اختاره لعله يكون ألين جانباً ، وتولى الوزارة في ٢٥ جمادى الآخرة ٥٦٤هـ . وقد أشاد الشعراء بتولية صلاح الدين الأيوبي ، ومنهم أسامه بن منقذ :

ديار الهوى حيـاً معالـك القطـر ... وجادك جـود الناصر الغدق الهمر
بـه رجعت في عنفوان شبابهـا ... ونضرتها من بعد ما هـرمت مصـر(٢)

ولـه :

فما أنت إلا الشمس لولاك لم تزل ... مصـر ظلماء الظلالة سرمدا
وكان بها طغيان فرعون لم يزل ... كما كان لما أن طغى وتمردا
فبصرتهم بعد الغواية والعمى ... وأرشدتهم تحت الضلال إلى الهدى(٣)

وقد قيلت قصائد كثيرة(٤) نكتفي منها بقول عماد الدين الأصبهاني مشيداً بأسد الدين شيركوه وصلاح الدين ، ومتطلعاً للقوة والخير نتيجة لتلك الوحدة :

أيا يوسف الإحسان والحسن خير من ... حوى الفضل والإفضال والنهي والأمرا
ومن للهدى وجه الفجاج برأيه ... تجلى وثغر النصر من عزمه افترا
حمى حوزة الدين الحنيف بحوزه ... من الخالق الحسنى ومن خلقه الشكرا
أبوه أبى إلا المعالي وعمه ... بمعروفه عم الورى البدو والحضرا

---

(١) صلاح الدين هو يوسف بن أيوب بن شادي ، الملك الناصر ولد بتكريت عام ٥٣٢هـ ، صحب عمه أسد الدين شيركوه في الحملات الثلاث إلى مصر ، ثم تولى الوزارة من بعده وأصبح السلطان بعد موت نور الدين زنكي عام ٥٦٩هـ ، استعاد بيت المقدس عام ٥٨٣هـ ومات عام ٥٨٩ بدمشق ، انظر : الروضتين لأبي شامة ، ١/١٧٥ وما بعدها .

(٢) أبو شامة : الروضتين ١/١٧٧ .

(٣) المصدر السابق ١/١٧٧ .

(٤) المصدر السابق ١/١٧٧، ١٧٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وطـــال الملـــوك شـــيركوه بطولـــة وما شاركوه في العلا فحـوى الفخـــرا
بنو الأصفر الإفرنـــج لاقوا بيضـــه وسمـــر عواليـــه منياهـــم حمـــرا(١)

« وصلاح الدين دأب في الإصلاح ، واستتباب الأمن في مصر لكن الإفرنجة عاجلوه فبعثوا بحملة في صفر من عام ٦٥٦هـ إلى دمياط ، ولكن نور الدين أمده بالجيوش المتتابعة ، مما أرهب الفرنجة فخرجوا من دمياط بعد خمسين يوماً « ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين »(٢) .

وقد أخذ المستنجد الخليفة العباسي يستعجل نور الدين زنكي ، وصلاح الدين الأيوبي بإسقاط الخلافة الفاطمية ، والدعاء له لكن صلاح الدين تريث خشية الفتنة وينتظر موت العاضد الخليفة الفاطمي الذي أثقله المرض ، لكن نور الدين ألح عليه . فخطب للعباسيين في عام ٥٦٧هـ ومات المستنجد قبل تغيير الخطبة بأيام ، ومات العاضد بعد الدعاء بعشرة أيام وأخذ كل من نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي يستعد للهجوم على الصليبين غير أن نور الدين كان أكثر اندفاعاً بينما يخشى صلاح الدين التمرد والثورة ضده على أنقاض الفاطمية، وزرعت الشكوك بين القائدين حتى اتفقا على الالتقاء حول بيت المقدس لكن المنية عاجلت نور الدين عام ٥٦٩هـ .

وكان لنور الدين ولد صغير هو الصالح إسماعيل ، فحدث نزاع بين قواده شمس الدين بن الداية ، وشمس الدين بن محمد ، واحتل ابن عمه سيف الدين غازي حاكم الموصل الجزيرة وحران والرها .

فلما رأى صلاح الدين الفرقة ، أراد أن يوحد البلاد فتوجه إلى دمشق وضمها عام ٥٧٠هـ ثم اتجه يوحد البلاد ، ومكث في حروب داخلية إلى جانب الحروب مع الفرنجة حتى عام ٥٨٣هـ .

---

(١) المصدر السابق ١/١٧٩ .

(٢) المصدر السابق ١/١٨٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولما رأى الإفرنجة خطر صلاح الدين بتوحيده مصر والشام ، أخذوا يهاجمونه ومنهم أرناط الذي قطع طريق الحاج وبعث بحملة لأيلة والعقبة ثم توحدت جيوشهم حول طبرية فتجمع ملوك وأمراء الصليبيين بقيادة الملك جفري، فحدثت معركة حطين المشهورة في ١٤/٤/٥٨٣هـ ، وكان جيش المسلمين أثنى عشر ألفاً وجيش الإفرنجة خمسين ألفاً وكتب الله النصر للمسلمين في معركة حاسمة أسر فيها الملك جفري ، وأرناط ، وكبار رجال الدين ، وكبار الفرسان ، وقتل صلاح الدين الأمير أرناط لفتكه وغدره بالمسلمين ، يقول العماد الأصفهاني :

حططت على حطين قدر ملوكهم ... ولم تبق من أجناس كفرهم جنساً

بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم ... ولم ترض أرض أن تكون لهم رمساً(١)

ويقول ابن الساعاتي :

جلت عزماتك الفتح المبينا ... فقد قرت عيون المؤمنينا(٢)

ثم بادر إلى فتح بيت المقدس فحاصرها ، وصالح أهلها على الخروج ، ودخلها المسلمون في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ ، وأخذ يلاحق الإفرنجة ، لكن استعصت عليه (عكا) لقوة تحصينها ولوصول الحملة الصليبية الثالثة فعقدت معاهدة عام ٥٨٨هـ ، ثم عاد صلاح الدين إلى دمشق فمرض في أيام معدودة ومات في ٢٧ صفر ٥٨٩هـ ، فاهتزت دمشق والبلاد الإسلامية لهذا الحدث الجلل، وتوافد الناس إلى مسجد بني أمية و لم يستطيعوا الصلاة عليه جماعة حتى صلوا عليه أرتالاً(٣) .

وقد رثاه العماد الأصفهاني بقصيدة عدد أبياتها اثنان وثلاثون بيتاً ومائتا بيت (٤) .

---

(١) أبو شامة : الروضتين ٢/٨٣ .

(٢) المصدر السابق ٢/٨٤ .

(٣) المصدر السابق ٢/٢١٧ .

(٤) المصدر السابق ٢/٢١٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثم حدث الخلاف على السلطة بين أبناء صلاح الدين شأنهم شأن أسلافهم من السلاجقة والزنكيين ، وأشهر أبنائه الأفضل على دمشق ، والظاهر على حلب ، والعزيز عثمان على مصر ، ومات العزيز وانتزع السلطة على أبنائه وأشهرهم الكامل في مصر ، والمعظم في دمشق ، والأشرف في حلب ، ثم مات وحدث خلاف كبير بين المعظم والكامل واستنجد الكامل بالإفرنجة ضد المعظم، وقد أحرق المعظم بيت المقدس قبل وصول الإفرنجة لها ومات هو قبل قدومهم أيضاً ، ودخلوا سلماً برضى من الكامل ، فقد مات المعظم عام ٦٢٤هـ قبل وصول فردريك ، مما يشير إلى التعمية الإعلامية فلا الحاكم يدري متى يصل العدو ، وكذلك الشعوب ، فأحرق المعظم القدس ، وخربها وخرج الناس منها قبل سنتين من وصول فردريك إلى (يافا) .

ومما يوسف له أن فردريك الأمبراطور المغضوب عليه من البابا يصل الديار الشامية والملك الكامل وأخوه الأشرف يحاصران الناصر داود بن الملك المعظم في دمشق ٦٢٦هـ ويسلمان القدس مما أغضب المسلمين عامة(١) .

واسترد المسلمون بيت المقدس ٦٤٣هـ ، وكان آخر ملوك الأيوبيين الملك الصالح أيوب حاكم مصر الذي مات عام ٦٤٧هـ أثناء هجوم الإفرنجة على المنصورة فأخفت زوجه شجرة الدر موته ، وأخذت تصدر أوامرها حتى نصر الله المسلمين ، ثم أعلنت أنها وصية عن ابنه توران شاه ، ودعي لها على المنابر ، وتزوجت بأيبك ، فقتلته ثم قُتلت بعد ثمانية أشهر(٢) .

---

(١) انظر : د.خاشع الماضيدي وغيره : الوطن العربي ٢٠٧-٢١١ .

(٢) انظر : النجوم الزاهرة ٣٦٤/٦ وما بعدها .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المنهجية السياسية في عهد الحروب الصليبية

اشتهر ابن خلدون بواقعيته الاجتماعية ، وفلسفته النابعة من الرصد التاريخي التجريبي ، ومن الاستبيان الاجتماعي الواقعي ، تلك التي فاضت منها نظريته في تكوين الدولة ، وأنها كالكائن الحي ينمو طفلاً ثم يكون شاباً فتياً ، ثم كهلاً ثم شيخاً حتى ترد إلى أرذل العمر فتندثر ، والدول الإسلامية في تلك الأحقاب عمرها كعمر الإنسان ، ما بين مائة سنة إلى مائة وعشرين ؛ لأنها وليدة الفردية الإنسانية ، ما عدا الخلافات الإسلامية التي تتفق مع هذه النظرية في قوتها وهيمنتها ، وتختلف عنها في عهد الضعف فيمتد مرضها وتصاب بالهزال وتبقى مريضة للاستظلال فحسب . لكننا نرى دولاً عالمية لا تندرج عليها نظرية ابن خلدون ، فقد تجاوزت القرون في العالم المعاصر ، لأنها تحللت من الرأي الفردي، واستعان سلاطينها بالاستشارية الجماعية ، فالوزارة تكون لها مجالسها الاستشارية، والوزير له مستشاروه من الخبراء ، إلى جانب الاستشارات العالمية التي تقوم على الاستبيان والإحصاء ، وتحديد المشكلة ، وإيراد جمع من الحلول ، ومن أعظم الاستشارات لكيان الدولة مجالس الشورى ، ودوائر الدراسات الاستشارية الاستراتيجية إلى غير ذلك من التكوينات الاستشارية التي ترصد عوامل الضعف وتكون بمثابة الكشف الطبي الدوري للفرد البشري أو العربات ، أوغيرها من الصناعات تصلح عاطلها وتلبسها حلاً جديدة لتواكب الحياة ، وبهذا تحافظ على شبابها المستديم .

أما الدول الإسلامية المتزامنة مع الحرب الصليبية ٤٨٨-٦٩٢هـ والتي اعتمدت الأمة فيها على الفرد ، والفرد لم يعتمد على نظام مدون ، أو دستور متبع ، أو استشارات متعددة المشارب ، منظمة المعلومات ، بل استشارة فردية لمن اقترب من هوى النفس ، وظرف مجلسه ، ولطف تملقه ، فكان المصدر

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

للاستشارة دونما سواه ، فلم يكن هناك مجلس للشورى ، يستقي معلوماته من الواقع ويواكب الطوارئ ، ويصدر توصيات متعددة يأخذ الإمام بأفضلها اللهم إلا ما أثر عن نور الدين زنكي وصلاح الدين ، فقد جلبا العلماء حولهما ، لكن تخضع للفورية ، ونتيجة لذلك طرأت سلبيات رصدها التاريخ على المنهج السياسي ، ولنأخذ واحداً من هذه السلبيات وهي قضية الخليفة السياسي للسلطان في العهد المتزامن من الحروب الصليبية فيما يقارب من عام ٤٥٠ حتى ٦٤٧هـ . ففي غياب المنهجية السياسية تهاوت الأمة الإسلامية إلى التمزق والضعف حتى تداعت عليها الأمة النصرانية .

والدولة ، أي دولة في الكون ، تشخص إليها سهام أقوى من الصواريخ الموجهة ، وتتحلق حولها ، وتحتاج إلى أجهزة إنذار ، ورصد أمهر من الرصد الجوي المضاد الدقيق الإصابة . والاستشارات المتعددة للدولة بمثابة المناعة التي تجعل الخلايا تحطم كل مرض وافد وتصلح العضو المريض .

والدولة الإسلامية المريضة زمن الحروب الصليبية اعترتها أمراض كثيرة ، نشخص مرضاً واحداً منها ، وهو من يحل مكان الفرد القوي الذي بنى وأصلح البناء ، وجاهد أعظم الجهاد ، وتآلفت عليه الأمة ، وكون دولة كبرى . لكن الفراغ السياسي يقوض ذلك بعد موته ، فتحتاج الأمة إلى سلطان آخر تنفذ قدراته في إعادة البناء الذي تقوضت صروحه ، وتفرق جمعه ، ونزف جرحه ، ونزعت ثروته فيظل طوال عمره في معالجة الرجل المريض ، ويحاول البناء حتى إذا اكتمل وداهمت سلطانه الوفاة ، اعتراها ما اعترى سلفه ، وكذا الأمة الإسلامية كالتي تنقض غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، فتبني ولا تلبث أن تهدم ، مما يجعلها في شغل عن الإصلاح ، بل عن الدفاع وكم من مرة انقض العدو عليها في مرحلة الفراغ السياسي تلك .

والقضية تبدأ من دولة السلاجقة ، لما علا نجمها ، وسيطرت على الخلافة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العباسية ، ولانت أركان الإمبراطورية البيزنطية لها ، وتألق فكرها الإسلامي ، وأسست الجامعات ، وهيمنت جيوشها ، وهي في هذه المنزلة السامقة داهمها الضعف من داخل أسوارها ومن موطن القيادة فيها ، وتبلور هذا الضعف في كون السلطان السلجوقي أسس ما يعرف بالأتابكة ومعناه « مربي الأمير) فعهد لكثير من الشخصيات بتربية أبنائه ، وأقطع كل منهم إقليماً من أقاليم مملكته بغية استصلاح الأرض ، وبناء القوة ، لكن الكارثة تأتي بموت السلطان ، وتنافس الأمراء ومربيهم على السلطة ، والديار المجاورة ، وأكثر الأتابكة فتكت بالأمراء الموصى به ، أو انتزعت منه السلطة ، أو حشت صدره حقداً على أخوته ، ودُفع للمطالبة بالسلطة بقيادة الجيوش ، فتحارب الأخوة ، وتقاسموا الدولة مما عجل بأفول نجم هذه الدولة القوية في مرحلة شبابها ، وانشغلت بحروبها الداخلية زمن الهجمة الصليبية . وتوزعت إلى ولايات متحاربة ، ترى أن العدو اللدود هو جاراتها ، فاهتبل الصليبين هذا الفراغ السياسي ، وانقضوا على المدن التي لا مدافع لها إلا سلطتها الداخلية الضعيفة ، ولم يكن لها مدد من الدولة الأم . وأخذ الصليبيون يفتكون بالمسلمين(١) فاحتلوا مدنهم ، وبيت المقدس ، وأخرجوهم من ديارهم وقد مثل الشعر هذه المرحلة من ذلك قول الشاعر :

أحل الفكر بالإسلام ضيماً ... يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع ، وحمى مباح ... وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسلم أمسى سليباً ... ومسلمة لها حرم سليب
وكم من مسجد جعلوه ديراً ... على محرابه نصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوق ... وتحريق المصاحف فيه طيب
أتسبى المسلمات بكل ثغر ... وعيش المسلمين إذاً يطيب
أما لله والإسلام حق ... يدافع عنه شبان وشيب

(١) أبو شامة : كتابه السابق ١/٢٦ ؛ وانظر : سلاحقة الشام والجزيرة : أرشيد يوسف .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فقل لذوي البصائر حيث كانوا أجيبوا الله ويحكم أجيبوا(١)

وكانت هذه المرحلة مرحلة الركود الحربي عند المسلمين ضد الأعداء من عام ٤٨٨هـ حتى ٥٣٣هـ حتى قيض الله للأمة الإسلامية عماد الدين زنكي الذي أمضى عهداً طويلاً في الحروب الداخلية السلجوقية ، فاتجه هذا القائد إلى بلاد الشام ، وضم إليه حلب في عام ٥٢٢هـ وأنقذها من براثن الصليبيين ، ثم اتجه إلى الحرب الداخلية ما يقارب من عشر سنين ، ولكنه عاد إلى مصارعة الصليبيين فبرز نجمه ، وعلت مكانته ، والتف المسلمون حوله لاسيما بعد استرداده لمدينة الرها ٥٣٩هـ ، فتقاطر إليه الشعراء ، وتوافد إليه المجاهدون ، وأجبرت الخلافة العباسية تحت التأثير الشعبي في بغداد على التعبئة العامة وبعث الجيوش ، لكن الثقة مفقودة ، فخشيهم عماد الدين ، وخشوه أيضاً مما أجهض هذه الحملة، وظل عماد الدين يصارعهم منفرداً حتى قتل بمؤامرة صليبية في عام ٥٤١هـ ، فحدث الفراغ السياسي ، واختلف أبناه سيف الدين غازي في الموصل، ونور الدين في حلب ، وكادت الحرب أن تشتعل بين الأخوين ، ولكن الله سلم ، وكانت النتيجة انشطار دولة عماد الدين إلى قسمين الموصل والجزيرة خارجة عن الحروب الصليبية إلا بالدعم المعنوي(٢)، وظل نور الدين في حلب وبعض من الشام في مواجهة الصليبيين ، وأخذ يحاربهم ويبني دولته فتعلقت به أبصار المسلمين ، وحكم الناس بالعدل ، ووحد الأمة فضم دمشق وبلاد الحجاز، وصارع طويلاً حتى ضم مصر في عام ٥٦٧هـ وأصبح الخطر المحدق بالصليبيين ، وكان فتح بيت المقدس قاب قوسين أو أدنى ، ووضع نور الدين خطة للالتفاف حوله ، فصلاح الدين قائد الجيوش المصرية يأتي من الغرب ، ونور الدين يلتف من الشرق ، ولكن حدثت الفاجعة الكبرى للمسلمين ، فقد مات نور الدين في

(١) ابن تغري بردي النجوم الزاهرة : ١٥١/٥ .

(٢) المصدر السابق ١٥١/٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عام ٥٦٩هـ وحدث الفراغ السياسي الكبير ، وأُجل فتح بيت المقدس خمسة عشر عاماً ، فم يكن هناك تنظيم يملأ الفراغ السياسي بموت الفرد الصالح ، وتشطرت بلاده إلى دويلات متحاربة كل يدعي حب ليلى ، فابن أخيه في الموصل يرى أنه أحق بالإرث ، وتفاقم الصراع بينهم حول الوصاية على إسماعيل بن نور الدين ، وظل صلاح الدين يوحد البلاد لمدة خمسة عشر عاماً ، فكم فيه من حروب داخلية وإزهاق أنفس للمسلمين ؟ وكم فتك الصليبيون بالمسلمين في هذه المرحلة نتيجة لهذا المرض المتوارث في الدولة الإسلامية ، وتم توحيد البلاد لصلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٣هـ تلك السنة التي وقعت فيها معركة حطين المعركة الشهيرة ، وفُتح بيت المقدس وقويت دولة صلاح الدين المكونة من الشام ومصر ، والحجاز واليمن وكاد أن يضم بلاد المغرب ، والأهم من ذلك محاصرته للصليبيين في الشريط الساحلي ، ولكن الكارثة تقع مرة أخرى ، فبموت صلاح الدين الأيوبي يتقوض هذا البناء الشامخ ، وتنهد أركانه بسبب من الفراغ السياسي وغياب المنهجية السياسية ، وينشغل أبناؤه في حرب متبادلة(١) حتى انتزع السلطة منهم عمهم العادل ، فوحد البلاد واتسعت رقعة مملكته حتى ضم أقاليم لم يضمها أخوه صلاح الدين من قبل .

وانشغل بهذا التوحيد عن محاربة الصليبيين ، فقويت شوكتهم ، ووزع السلطة على أبنائه ، ولما أراد الانقضاض على الصليبيين داهمه الموت ، فعاد الفراغ السياسي قوياً داهماً مظلماً ، فتنازع الأخوة السلطة وأشهرهم الكامل في مصر ، والمعظم في دمشق(٢) وعاد الصليبيون إلى بيت المقدس ، بعد أن خربه المعظم بيده(٣) ، وأخذت هجمات الصليبيين تتوالى على أنقاض الدولة الأيوبية في

---

(١) المصدر السابق ٦/٦٢، ١٢١، ١٢٢ .

(٢) المصدر السابق ٦/٢٢٣ .

(٣) انظر : كتاب الروضتين ٢/١١٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مصر والشام حتى انتزعها منهم مماليكهم في ٦٤٧هـ .

إذن فالدولة الإسلامية توارثت الفراغ السياسي لقرنين كاملين و لم تكن هناك عبرة وعظة ، فكل زعيم يوزع السلطة في حياته بين أبنائه ، فيتحاربون من بعده، فيدمرون المدن ، ويفتكون بالبشر ، وينشغلون عن البناء الفكري والعمراني ، وتكون الأمة الإسلامية عرضة للعدو الخارجي .

وهذا الفراغ السياسي توارثته دولة المماليك من بعد ، فكان عاملاً كبيراً في ضعف الأمة الإسلامية ؛ لأنه أكثر دماراً من الحروب الخارجة ، والله المستعان .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الباب الأول

الفكر الأدبي

تمهيد .

الفصل الأول : الفكر السياسي والإداري .

الفصل الثاني : الفكر الاقتصادي .

الفصل الثالث : الفكر الأدبي والثقافي .

الفصل الرابع : الفكر الاجتماعي .

الفصل الخامس : الغربة والاغتراب .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تمهيد : مفهوم الفكر الأدبي :

الأدب : هو التعبير المؤثر عن فكر الحياة بما في ذلك الفلسفة « ولو عدنا إلى مراجعة تاريخ الفكر وتاريخ الكتابة الفلسفية بالذات ، لوجدنا أن الفكر الفلسفي قد لجأ إلى أكثر من شكل أدبي ، طريقاً إلى عقل الإنسان وإلى قلبه من باب أولى»(١)، ومن أقدم الأشكال الأدبية الشعر .

يقول صاحب كتاب (في الأدب الفلسفي) : « يتبين لنا في ما قلناه آنفاً أن شعراً ما قد وجد في غابر التراث الإنساني وقبل باقي الأنواع الأدبية ، فكان لذلك ومن ثمة رفيق فكر الإنسان منذ أولى خطواته ، حمل مشاعره وأحاسيسه ثم أفكاره »(٢) ، وأشار إلى عدد من الملاحم الشعرية وما تحمله من حضارة ، وميثولوجيا ، وأفكار تكاد تتحول إلى موقف فلسفي(٣) . والشعر حمل وعياً فكرياً في سائر الحضارات ، ومنها الحياة العربية . فالشعر الجاهلي دوّن فلسفة الحياة الذاتية عند طرفة بن العبد ، وفكر القبيلة عند عمرو بن كلثوم التغلبي ، وفلسفة السلام عند زهير بن أبي سلمى ، وفلسفة التكافل الاجتماعي في شعر الصعاليك، وفلسفة الفتك والثأر عن عنترة بن شداد ، وفلسفة المجون عند الأعشى . فلما جاء الإسلام حمل الأدب فكراً آخر ، وإن لم تكن مواجهة اعتراضية أو نقدية إذا استثنينا النقائض الإسلامية في عهد الرسول ﷺ ، فالشعر استلهم الفكر الموجه بالإسلام ، ودرج في ظلاله ، فأكثره يميل إلى الجهاد بالنفس وللنفس ، غير أن هناك انحرافات ذاتية طرحته على وجل وتخوف ، ومحاسبة للضمير واستشعاراً للإثم لا فلسفة مقنعة كفلسفة أبي محجن في الخمر ، وأبي نواس وثلته في سائر المجون .

---

(١) محمد شفيق شيّا : في الأدب الفلسفي ١١٢ .

(٢) المصدر السابق ١١٣ .

(٣) المصدر السابق ١١٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهم اتخذوا موقفاً فكرياً في الشعوبية ، والزندقة ، مقابل الفكر الزهدي الاجتماعي .

والفكر الأدبي ليس محصوراً في اتجاه دون آخر إنما هو الحياة ، فهو يمثل الفرد، والمجتمع والمعتقدات ، ويمثل الفلسفة ، فهو يمثل الوجود الإنساني وما يؤطره من فكر لكل جانب من جوانبه الدينية والفلسفية والثقافية والنفسية والاجتماعية ولكل منها فلسفتها . وليس معنى الفكر الأدبي أن الشاعر داعية في صراحة ، لهذا الفكر الذي درج في ركابه ، وإنما انتماء بإيحاء الشعر ودلالاته للفكر ذاته .

كما أن ليس معنى أن النص يشع بالفلسفة الفكرية التأملية ذلك مطلب كما في عينية ابن سيناء .

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة ناظر وهي التي أسفرت ولم تتبرقع

ومنها :

حتى إذا قرب المسير إلى الحمى ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
سجعت وقد كُشف الغطاء فأبصرت ما ليس يدرك بالعيون الهجع
فكأنها برق تألق بالحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع(١)

هذا تعبير الشعر عن الفكر الفلسفي المباشر لكن الأكثر منه هو استنباط الدلالة الفكرية التي ينضوي الشعر تحت لوائها ، وإن كان الشعر قريب المأخذ تماماً كالغزل الصوفي .

إذن فالذي أريده بمصطلح الفكر الأدبي يشمل جميع الاتجاهات الفكرية السايسية والإدارية ، والدينية المتضادة ، أو المذاهب المتشعبة أو أي فكر اجتماعي ندرك سماته ، وشرائحه ، وتوجيهه وقبوله ، ورفضه من خلال الشعر .

---

(١) المصدر السابق ١١٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن هنا فإني أستطيع أن أقول : الفكر الأدبي السياسي ، والفكر الأدبي الاجتماعي وهكذا .

والأدب له وظيفتان أساسيتان هما المنفعة والمتعة ، وقد أكثر الناس من تلمس المتعة ، وغفل الكثير عن وظائفه الفكرية ، ونحن لما نجيل النظر في الأدب ، ونستنبط الأفكار من أدب العصور العربية والإسلامية يتضح لنا أن الأدب تولى القيادة في التوجيه الفكري من العهد الجاهلي حتى يومنا هذا ، فنجد الخطابة لها دورها عند الجاهليين ، والشعر له دوره أيضاً ، فهو الذي يثير كوامن فكر الجاهليين ، وهو الذي يطفئ لهب الحرب ، ويحيي جذوته ، وهو الذي يغرس الفضائل .

ولما أشرق الإسلام حمل الأدب بخطابته وشاعريته الدفاع عن الإسلام ، ونشر تعاليمه .

أما في العصر العباسي ، فنجد أن الأدب كان الوعاء لتيارات صحيحة المسار مثل الزهد ، ومعالجة القضايا الاجتماعية ، ولتيارات أخرى منحرفة كان لها تأثيرها في العمق الأدبي ، ومنها الزندقة ، والمجون والشعوبية .

والأدب أيضاً حمل راية الجهاد ضد الصليبيين والتتار وعالج كثيراً من القضايا العامة التي أدت إلى ضعف المسلمين كقضية الإقطاع ، وشيوع التصوف ، والحشيش وغيرها وأشار إلى الأعمال الإصلاحية كنشر التعليم في المدن ، فقد كان هاجساً لكل والٍ ، وكل عالم ، ويتمناها المجتمع ويأمل تحقيقها ، كما نسعد نحن الآن بتأسيس جامعة من الجامعات ؛ فهذا عرقلة الكلبي يفخر شرقاً وغرباً بتأسيسها في دمشق ، ويثني على نور الدين الذي أيد قيامها :

ومدرسة سيدرس كل شيء ... وتبقى في حمى علم ونُسك
تضوّع ذكرها شرقاً وغرباً ... بنور الدين محمود بن زنكي
يقول وقوله حق وصدق ... بغير كناية ، وبغير شك

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

دمشق في المدائن بيت مُلكي وهذي في المدارس بيت ملكي(١)

وأبوبكر الجوزي المتوفى ٥١٠هـ يعلن تركه لمذهب المتكلمين ذلك الاتجاه الذي حاربه السلاجقة ، ويميل إلى الاتجاه السني الذي شاع بتأييد من السلاجقة والدولة الزنكية والأيوبية :

تركت مقالات الكلام جميعها لمبتدع يزهو بهن إلى الردى
ولازمت أصحاب الحديث لأنهم دعاه إلى سبل المكارم والهدى
وهل يترك الإنسان في الدين غاية إذا قال : قلدت النبي محمداً؟(٢)

فهذه الأبيات تمثل اتجاهاً كبيراً وفكراً مستنيراً ، أيده العلماء ، وأحتضنه الساسة كمثل نور الدين زنكي الذي أجرى الرواتب لأهل الحديث ، وصلاح الدين يجالسهم ويقربهم .

وقال شاعرٌ لم يُذكر اسمه مشيداً ببني أيوب الذين قضوا على مذهب التشيع في مصر والشام :

ألستم مزيلي دولة الكفر من بني عبيد بمصر إن هذا هو الفضل
زنادقة شيعية وباطنية مجوس وما في الصالحين لهم أصل
يسرون كفراً يظهرون تشيعاً ليستتروا شيئاً وعمهم الجهل(٣)

فالشاعر ذو اتجاه سني يماثل مذهب الأيوبيين الذين نهجوا سبيل السلاجقة لا سيما الوزير نظام الملك ، والشاعر يرفض تسمية الخلافة الشيعية بالفاطميين وإنما يسميها العبيدية ، وهو يرمي كثيراً منهم بالزندقة ، ويشير إلى المغالين بالباطنين ، بل إنه يشير إلى الغلو في الاتجاه الشيعي الذي يقر بتناسخ الأرواح المستمد من المجوسية .

والشاعر الجلياني أحد شعراء صلاح الدين الأيوبي يقارن حاله بغيره من

---

(١) الديوان ٧٠ .

(٢) الخريدة : الجزء الرابع ، المجلد الثاني ٤٧٣ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ٢٠٢/١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أولئك الذين تسنموا جاهاً وكسبوا مالاً مع أن له همة عالية لكنه يعلل أن أولئك باعوا أنفسهم ، ويذلوها ، أما هو فلم يخضع كخضوعهم :

قالوا : نرى نفراً عن الملوك سموا ... وما لهم همة تسموا ولا ورع
وأنت ذو همة في الفضل عالية ... فلما ظمئت وهم في الجاه قد كرعوا
فقلت : باعوا نفوساً واشتروا ثمناً ... وصنت نفسي فلم أخضع كما خضعوا
قد يكرم القرد إعجاباً بخسته ... وقد يُهان لفرط النخوة السبعُ

فهذه معالجة لقضية التملق ، وقضية الفرص لدى السلطان التي يسعى إليها الناس كيما يفرض لهم السلطان راتباً جارياً ، والفرض هذا ليس لعمل يقوم به وإنما لإرادة الوالي وحسب ، ولشيوع البطالة والعوز فإن الشعراء وغيرهم يسارعون إلى بذل أقوالهم وأفعالهم لينالوا فرضاً يعيشهم عيشة الكفاف .

والقاضي الفاضل يمدح صلاح الدين مدحاً فكرياً عندما أمر بمحاربة الخمر والحشيش . ويدعو إلى الجهاد بدلاً من الضياع :

ورأيت أجسام العدا ... ة ، كما رأيت ، بغير هام
ودمارها لدمائهم ... وسقامها ملء العظام
ومحسُّر لمكسر ... أعزز عليه يد المقام
كم من رؤوس من لجا ... ج ، أو خدود من لطام
والسيف سيف الله ... يسفك بالحدود دم الأثام
ومآتم اللذات قا ... ئمة بأندية الندام
أي اعتزاز كان للتقوى ... وأي يد اعتزام
ورأيت شمس الراح أو ... جم الحباب بلا ظلام
سجدت ليوسف في انتبا ... ه مثل يوسف في منام
لم يعجبون ؟ فإنها ... كيد تُحدِّث عن حسام

فهو يشير إلى ضررها ودبيبها في العظام ، وجعلها الرجال بلا عقول ولا تقوى ، ويرد على أولئك الغاضبين الذين لم يعجبوا بهذا القرار بأنها كيد تودي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إلى ضعف .

حـــدث تُعظـــم ذكـــره صحـــف الأحـــاديث العظـــام
انهـــي إلى المـــولى الأجـــل وقـــد أطَلْـــتَ مـــع اتهـــام
أن الحريـــق ســـرى بمصـــر في منازلهـــا الســـوامي
مـــن بعـــد مـــا خرجـــت أوا مـــره بتبديـــد المـــدام
وظننـــت أن الأرض تســـقا هـــا ، فتمـــر بـــالضرام
أو أن حـــد ا الله قـــا م علـــى الحجـــارة كالأنـــام
أولا تـــرى ذهبـــاً لديكـــم يســـتقر علـــى الـــدوام
إن شـئت مـن ذهـب الطـلا أو شـئت مـن ذهـب الرغـام
فليذهـب الذهـب الـذي قـد كـان يذهـب بـالكرام
كـــم أتلفتـــه أكفكـــم فجـــرى التـــلاف علـــى نظـــام
فليقطعـــوا منهـــا الرجـــا ء ، فقـــد ثـــوت تحـــت الرجـــام
قومـــوا ، فـــإن الملـــك مـــا ينســـاه .. ملـــك القيـــام
ودعـــو لغـــيركم إذا اســـ ـتيقظتـــم ، دعـــة المنـــام
تلـــك المنـــاكب قـــد حمـــا هـــا ا الله مـــن ضـــم الزحـــام
أي انحطـــام أن بيـــت العـــز يمســـي في الحطـــام
وأرحـــل عـــن الإقطـــاع فالـــ ـاقطـــاع مـــن ســـعد الغـــلام
وأنشـــر لهـــا العلـــم الشـــريف ودع محاســـبة الغـــلام
مـــا الغـــزو في أيـــامكم والنصـــر رميـــة غـــير رام
قلنـــا : اعتـــذرتم في الصيـــا م ، فقـــد عذرنـــا في الصيـــام
فـــرُّوا ، فهـــذا القـــر قلنـــا قـــد ســـبقت بـــذا المـــلام
لا تنفـــروا في الحـــر قلنـــا : العـــذر حـــق في الضـــرام[1]

فالقاضي الفاضل صوّر فكراً دينياً واجتماعياً مشيراً إلى الاقتصاد والجهاد .

(١) الديوان ١/٢٨٥-٢٨٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فوصف فتك الخمرة بالعقول والأجسام ، وتأثيرها في المجتمع من خصام وفتك وانتهاك للأعراض ، وتعطيل للشباب ، وضياع للمجتمع . وهو يحاول الإقناع بقرار صلاح الدين الأيوبي بإحراق آلاتها وقفل حوانيتها وإحراقها ، وإحراق دورها .

وهو يشير إلى تثبيط العزائم بالخمرة ، فالشباب يلهون بها عن جهاد النفس بطلب العلم والجهاد الحربي .

ويشير إلى تعاظمها عند أرباب الإقطاع ، ولو أن شبابهم اشتغل بالعلم لكان خيراً لهم ، وتنقلوا إلى الحروب لأفادوا المسلمين ذلك أفضل من اللهو والعبث .

ومن خلال هذا المنظار للفكر الأدبي فإنني سأعالج القضايا السياسية والإدارية والقضايا الاقتصادية والاجتماعية من خلال الشعر راصداً السلبيات والإيجابيات .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الأول

الفكر السياسي والإداري

- الخلافة والوزارة .
- النفوذ التركي .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفكر السياسي والإداري :

حمل الشعر لنا فكر الحالة السياسية والإدارية ، فالشعراء لم يكونوا بمعزل عن الفكر السياسي ، فلهم آراؤهم ، ولهم نظراتهم ، ولهم استنباطهم من الواقع ، ولهم وصف الحاضر المشاهد ، وهو ينتمون إلى مذهب سياسي كالخلافة العباسية أو الفاطمية ، أو مناصرة سياسية كمناصرة السلاطين من السلاجقة أو الأتابكة ، أو عنصرية تركية أو عربية ، وكل هذا تجسد في الشعر ، وقبل الخوض في هذا الشعر الذي يحمل هماً سياسياً أو إدارياً ، فإننا نقدم لمحة عن الخلافة والوزارة من من وجهة نظر العلماء .

عرف الماوردي الخليفة بقوله : « الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا ، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع ، وإن شذ عنهم الأصم »(١) ، وقد دونا سبعة شروط للإمام هي :

١ – العدالة ٢ – العلم .

٣ – سلامة الحواس ٤ – سلامة الأعضاء .

٥ – الرأي المفضي إلى سياسة الرعية ٦ – الشجاعة والنجدة .

٧ – النسب ، وهو أن يكون من قريش »(٢) .

وقد اختلف في هذا الأخير ، فمنهم من يجعله في قريش ، والشيعة تجعله في نسل علي ، أما الخوارج فيرونها لأكثرهم صلاحاً ، وأما ابن خلدون فيرى أنها من أهل العصبية المطلقة ، ولا يرى فرض العصبية القرشية على المسلمين(٣) .

وهم يرونها انتخابية ، وشرطوا شروطاً لأهل الاختيار ، مثل العدالة والعلم ، والرأي ، والخليفة يقوم بإدارة الدولة والإشراف عليها ، ويستعين بوزير وولاة

---

(١) الأحكام السلطانية ٥ .

(٢) المصدر السابق ٦ .

(٣) انظر : مقدمة ابن خلدون ١٩٣ ؛ وتاريخ الإسلام : لحسن إبراهيم حسن ٣٠٥/٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقضاة ، وقد اختلفوا في التفويض الإداري للولاة ؛ فبعضهم يعطي صلاحيات واسعة للوزير ، وولاة الأقاليم . لكن الخليفة المهيمن والموجه للحكم(١) ذلك في زمن الخلافة القوية حتى ١٣٢هـ ثم أخذ الوزراء يستبدون بالسلطة ؛ وتنحسر هيمنة الخليفة ، وقد شعر العلماء بهذا الأمر فقال البيروني المتوفى سنة ٤٤٠هـ « إنه لم يبق للخليفة من الأمر شيء اللهم إلا ما كان متعلقاً بالدين وحراسته »(٢) .

وعلاقة السلاجقة والأتابكة بالخلافة العباسية علاقة فيها ولاء ويظهرون التقدير والولاء ولكن السلطة الفعلية بيد السلطان السلجوقي أو السلطان في ولايته كسلطان نور الدين ، وصلاح الدين والسلطان السلجوقي هو الذي يأخذ التفويض من الخليفة إذا كانت قوته تفرضه على المناوئين له ، والخليفة الجديد يأخذ التفويض منه أيضاً لاسيما في زمن قوة السلاجقة . والموارد المالية للخليفة تأتيه عن طريق الضياع والقصور الموقوفة عليه ، وتأتيه أيضاً عن طريق الأموال التي تدفع له من أجل لقب من الألقاب ، وعن طريق الهدايا التي يبعث بها السلاطين عن بعد كنور الدين وصلاح الدين من أجل إصدار المراسيم المعتادة بتوليتهم لقاء هذه الأموال وذكر أسمائهم في الخطبة . والخليفة العباسي له مصانع خاصة لصنع الألبسة لتكون خاصة بخلع الخليفة(٣) .

الأتابكة في جلهم يخضعون للسلطان السلجوقي ، ويطلبون التفويض منه كما فعل سيف الدين غازي « وأرسلوا إلى السلطان مسعود فاستخلفوه لسيف الدين ، فحلف وأمره على البلاد ، وأرسل له الخِلَعَ » .

وواقع الأمر أن علاقة السلاجقة بالخلافة العباسية تقوم على مناصرة المذهب السني ، وأن الأمر بيد السلاطين ، وأن الخلافة تقوم بإصدار المراسيم والخلع ،

---

(١) انظر : الأحكام السلطانية ٧ .

(٢) تاريخ الإسلام ٣٠٣/٤ ؛ وانظر : تاريخ الحضارة الإسلامية ١٩٨/١ ؛ وتاريخ الإسلام ٣٠٦/٤

(٣) أبو شامة : الروضتين ٤٧/١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وتطلب ذلك من السلطان ، وحدث بين السلاجقة والعباسيين تصاهر ، والسلطان السلجوقي يحترم الخليفة ويقدره في ملأ القوم ، لكن الخلاف يحدث بسبب من الفتن التي تدور بين الأمراء السلاجقة أنفسهم فيؤيد الخليفة المنتصر منهم ، ثم ينتزع السلطة غيره ، فتحدث الخلافات لكن في نهاية الأمر يقنع السلطان بإصدار المراسيم ، وقل أن ينتقم من الخليفة(١) .

وأما نور الدين فكان بداية أمره لم يكاتب السلطان السلجوقي ، ولا الخلافة فكأنه تابع لأخيه سيف الدين غازي لكن لما اشتد أمره ؛ وذاعت شهرته ؛ فإن الخلافة بعثت إليه بالهدايا والخلع ، وكتابات التأييد ، وكذلك أمر صلاح الدين الأيوبي كان الخليفة يخاطب نور الدين حتى مات فأخذت الخلافة تراسله ؛ وهو يبعث إليهم بالهدايا(٢) .

وفي القضاء على الخلافة الفاطمية ، وعودة مصر للخلافة العباسية في ١٨/٩/٥٦٧هـ ، ظهر شعر كثير(٣)؛ ومنه قول أبي الفضائل ، حاجب ابن هبيرة:

ليهنك يامولاي فتحاً تتابعت إليك به حوص الركائب جف

أخذت به مصر وقد حال دونها من الشرك ناس في هى الحق تقذف(٤)

وشعراء العراق أشادوا بالنتصار ؛ وكأنه انتصار الخليفة ، ومنهم سبط التعاويذي في همزيته التي صدر بها الديوان .

وأما شعراء صلاح الدين الأيوبي فإنهم أيضاً أعلنوا ذلك يقول العماد :

قد خطبنا للمستضيء بمصر نائب المصطفى إمام العصر

ويقول :

---

(١) انظر : تاريخ الإسلام ٤/٢٨ .

(٢) المصدر السابق ٤/٣٠٧-٣٢٢ .

(٣) انظر : الروضتين ، القسم الأول ٥٠١ إلى ٥٠٩ .

(٤) المصدر السابق ٥٠١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأشعنا بهـا شعـــار بني العبـــ ـاس فاستبشرت وجوه النصـــر (١)

الـــوزارة :

يرى الماوردي أن الوزارة على ضربين : وزارة تفويض ، ووزارة تنفيذ ، فأما وزارة التفويض فهو أن يستوزر الإمام من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه وإمضاءها على اجتهاده(٢) . وقد جمع الشعر صفات الوزير المدبر :

بديهتـــه وفكرتـــه ســـواء إذا اشتبهت على الناس الأمور
وأحـزم مـا يكـون الدهـر يومـاً إذ أعيـا المشـاور والمشـير
وصدر فيـــه للهـــم اتســـاع إذا ضاقت من الهـم الصـــدور(٣)

والتاريخ يشير إلى كثرة وزارة التفويض في عهد السلاجقة ، وأشهرهم نظام الملك الذي أضحى وزيراً لملكشاه « فلما مات ألب أرسلان وازدحم أولاده على الملك وطدّ المملكة لولده ملكشاه ، فصار الأمر كله لنظام الملك ، وليس للسلطان إلا التخت والصيد ، وأقام على هذا عشرين سنة »(٤) .

وكان نظام الملك ملكشاه عملاً بنظام الإقطاع مما أوجد نظام الأتابكة أي مربي الأمير ، هذا بمثابة الوزير المفوض ، أما « الوزارة في الخلافة الفاطمية فإنها تُدفع للقوي من الوزراء المتحاربين(٥) وكان كل سلطان من السلاطين مثل عماد الدين ، ونور الدين ، وصلاح الدين ، ويضع وزيراً تنفيذياً ، ومن أولئك الوزراء المشهورين جمال الدين أبي جعفر محمد بن علي ، وقد تولى الوزارة في الموصل لعماد الدين ، ونور الدين « ولما قتل زنكي صار للدولة الأتابكية ملاذاً » يقول

---

(١) المصدر السابق ٥٠٣ .
(٢) الأحكام السلطانية ٢٢ .
(٣) المصدر السابق ٢٣ .
(٤) وفيات الأعيان ١٢٨/٢ .
(٥) انظر المصدر السابق ٢٣٠/١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فيه أبو الفوارس :

شمس من الإحسان ، عم ضياؤها بل آية جاءت بحجة مرسل

يعطي الجزيل لسائلي معروفه يجود بالنعمى إذا لم تسأل(١)

ومن أشهر الوزراء القاضي الفاضل الذي صحب صلاح الدين حتى وفاته ٥٨٩هـ ثم أصبح مستشاراً لابنه العزيز بمصر(٢)، وكذلك ابن الأثير وكان وزيراً للأفضل بن صلاح الدين .

والدولة تتابع بل تتوالد من بعضها نتيجة هيمنة الوزراء والسلاطين وقادة الجند فمن نسلهم تتكون الدول اللاحقة وقد التفت ابن تغري بردي لهذه الظاهرة فهو يقول : « وبنوا زنكي هؤلاء هم أوسط الدول ؛ فإن أول من ملك مع الخلفاء ولقب بالسلطان والألقاب العظيمة بنوا بويه ، ثم أنشأ بويه بني سلجوق، وأنشا بنو سلجوق بني أرتق وآق جد بني زنكي هؤلاء ثم أنشأ بنو زنكي (أعني الملك العادل نور الدين محمود الشهيد) بني أيوب سلاطين مصر وغيرها ، ثم أنشأ بنو أيوب المماليك ودولة الترك »(٣) .

والسلاطين يحسون بذلك ولكن لاقدرة لهم على فعل شيء ؛ فهذا نور الدين رأى خطراً على ابنه إسماعيل من أسد الدين ، ومن صلاح الدين في مصر و (لقد كان يتألم الملك الناصر ، ويقال : إنه لما مرض قال : ما أخطأت إلا في انفاذي أسد الدين إلى مصر بعد علمي برغبته فيها ، وما يحزنني شيء كعلمي بما ينال أهلي من يوسف بن أيوب ثم التفت إلى أصحابه فقال : « إذا أنا متُّ ، فصيروا بابني إسماعيل إلى حلب ، فإنه لا يبقى عليه غيرها »(٤) .

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، القسم الثاني ٣٤٤،٣٤٥ .

(٢) انظر : المصدر السابق ١/٢٣٠ .

(٣) النجوم الزاهرة ٥/٢٧٩ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ٤١١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وخدمة الخلفاء والسلاطين والوزراء محفوفة بالمخاطر ، بين غضب الخليفة أو السلطان ، وبين الصراع الدائر حول السلطة ، وكذلك فإن الوشاة لهم دورهم ، وما يقع فيه الوزارء من تعالي ، ورغبة في الجاه ، وطلب الأموال ، ولذا فقد وقعت لهم شرور كثيرة ، فكثير منهم يُقتل ، وكثير منهم يُعزل ، وتنهب أمواله ، وبعضهم يودع السجن ، ولقد تنبه لهذا الوزير الطغرائي الشاعر المشهور فأوصى بنيه ببعض القصائد التي وردت في ديوانه لكنه لم ينج من القتل بسبب من وزارته، ومما قاله على سبيل الرمز الذي يشبه كليلة ودمنه :

بُني إذا السلطان خصك فاعتمد ... نزاهة نفس تملك العزَّ أغيدا
ووفر عليه كل ما مد عينه ... إليه ولا تمدد إلى ما رأى يدا
ألم تر أن الذئب طير رأسه ... مزاحمة الضرغام فيما تصيدا
رأى نفسه بالصيد أولا فدقه ... بلطمة مسود الذراعين أصيدا
فلما أحس الثعلبان ببأسه ... تعلم منه قسمة الصيد جيداً
وآثره بالصيد صوناً لنفسه ... وكان معاناً في الأمور مؤيدا
كذا ضرب الأمثال من كان قبلنا ... وأورثنا المجد الرفيع المشيدا(١)

فهو يوصي الوزراء بالنزاهة ، وتقدير السلطان ، ومراعاة شعوره ، وعدم مناقشته ، أو التطاول عليه .

وكذلك يوصي بالعدل والإنصاف وعدم الوشاية بالآخرين . وبعض الوزراء يبيع الولايات ، ويدأب على جمع الأموال ومنهم طلائع رزّيك « وباع الولايات للأمراء وجعل لها أسعاراً ، ومدتها أشهر ، فتضرر الناس من تردد الولاة عليهم في كل ستة أشهر »(٢) .

وكان مصيره القتل ، وقد دون الشعر هذه الظاهرة في ديوان ابن قلاقس وهو معاصر لابن رزّيك .

---

(١) الديوان ١٢٨ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٣١٣/٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

النفوذ التركي :

ونلحظ تعاظم نفوذ الأتراك في تلك المرحلة ، وتهيأت لهم أسباب الهجرة إلى داخل البلاد الإسلامية ، وإلى عمق المجتمع الإسلامي في أكثر أقاليمه ، وكانت لهم مسارب عديدة أوصلتهم إلى التحكم بمقدرات المجتمع ، والتأثير فيه إدارياً ، واجتماعياً . وأول تلك المسارب جلبهم للخدمة وظهور الطاعة ليكون منهم الحراس والحجاب ، ثم قادة الجند فتكاثروا في قصور السلاطين ، فكان منهم الندماء ، والجلساء ، والمقربون ، فلمع نجم كثير منهم لما وهبه الله من الفطنة والذكاء ، والقدرة العقلية والعلمية فكانت لهم الصدارة ، ولو جاء أي جنس آخر لكان له ما للأتراك إتاحة من الفرص .

وثاني تلك المسارب التي أوصلتهم إلى مواطن اتخاذ القرار هو اعتماد السلاطين المتأخرين عليهم عسكرياً ، فقد كانوا يجلبونهم بالمئات ، وينشئونهم تنشئة عسكرية ، ويكون الولاء للأمراء والولاة وحسب ، فكان الأتراك هم القوة المهيمنة ، وكل حاكم ولاية يجعل عدداً منهم حوله ، وربما اقتصرت الحرب بين الولاة على تلك القوة العسكرية منهم ، وبقية الشعب لا تحس بوطأة الحرب ، وكان لذلك أثره حيث عزل المجتمع عن المشورة والرأي في تصريف الأمور ، ثم ظهر منهم الفساد الإداري ، والاجتماعي لأن تربيتهم كانت تفتقد الوزاع الديني، ولم تكن لهم أسر يرتبطون بها اجتماعياً ، فكانوا يعيشون في المدن القريبة لهم فساداً ، ثم يكون منهم أمراء الجيوش فيسخرون الحكام ؛ فيفتكون لهم وبهم .

ولقد أكثر الأمراء والسلاطين من شراء المماليك أسوة بالخلفاء العباسيين ، فكان لهؤلاء المماليك ضررهم على المجتمع بل هم يفتكون به ، وينتهكون عوارته: ومنهم الصالح أيوب : « استكثر من مشتري المماليك حتى ضاقت بهم القاهرة وصاروا يشوشون على النساء ، وينهبون البضائع من الدكاكين فضج منهم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الناس»(١)، وفي ذلك يقول أحد الشعراء :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ... ترك بدولته ياشر مجلوب

قد آخذ الله أيوباً بفعلته ... فالناس قد أصبحوا في ضر أيوب(٢)

وثالث تلك المسارب جلب النخاسين لهم ، وانتشارهم رقيقاً وخدماً داخل القصور والبيوت مما كان له أثراً لا يقل أهمية عن الآثار السابقة . وابن الصفار المارديني المتوفى ٦٥٨هـ يتحدث عن فاعلية الأتراك وقوتهم الحربية ، وتأثيرهم على السلاطين بقوة جمالهم وفتنتهم .

تبدت لنا عند الصباح طلعة ... من الترك مردُ فوق جرد سلاهب

بأيدهم سمرٌ طوال كأنما ... اسنتها تبغي التقاط الكواكب

تثنوا غضوناً في السروج وأطلقوا ... سهام لحاظ من قسي الحواجب

والقوا القنا المران عنهم في الوغى ... قدوداً أعدوها لقرع الكتائب

ولوكشفوا بيض العوارض في الوغى ... لأغنتهم عن سل بيض القواضب

ترى كل عين منهم عين فتنة ... تنادي أسود الحرب: هل من محارب؟

فظلت موالينا أسارى محاسن ... من القوم صرعى لا أسارى المضارب

فما ملك إلا أسير لمالك ... ولا حاجب إلا أسير لحاجب(٣)

فهذا تأثير سياسي يقوم على انحراف الفكر السياسي ، فالوالي يجب أن يختار من أهل الكفاءة والقدوة الحسنة ، وبتأثير العقل والعبقرية لا بتأثير الهوى والإغراء كما يفصح عنه مضمون البيتين الأخيرين .

والشعراء أكثروا من الحديث عن سلطة الأتراك مدحاً وقدحاً . والشاعر الصارم البطائحي يهجوهم ويتمنى زوالهم وزوال الحكم العربي معهم ، مما يشير إلى عدم مصداقية الحكمين معاً وعدم رضى الشعب عنهما .

---

(١) محمد زغلول : الأدب في العصر المملوكي ٤٩/١ .

(٢) المصدر السابق ٤٩/١ .

(٣) فوات الوفيات ١٢٠/٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يادولـة الـتـرك لا رجعـت ، ولا طلـت بقـاء يادولـة العـرب
كلاكمـا واحـد وخيركمـا شـر زمـان للنـاس منقلـب

ويشير إلى الخليفة المسلوب الذي لا حول له ولا قوة ، وقد احتجب عن الأمة :

خليفـة الله ، فيـك محتجـب فكيـف يرجـى خـلاص محتجـب

ويشير إلى الفراغ الإداري ، وعدم الرعاية للعراق :

ومـات (بكيـارق) وأخوتـه قـد وجـدوا راحـة مـن التعـب
وطـاب تفـاح (اصفهـان) لهـم جهـلاً بمـا في العـراق مـن رطـب
أظنهم قد نسـوا العـراق ولـم تبق لهـم حاجـة إلى الـذهب(١)

ويشير الشاعر إلى عدم مصداقية المدح عند أولئك ، فالشعراء يضربون الأمثال مخلصين في عرضها لكن أولئك الحكام لا يبالون بها :

وقـد منينـا بصـاحب مـذق يحـب شـعري ، وليـس يرفـق بـي
أخـاف مـن بأسـه فأمدحـه وأبلـغ الجـدّ ، وهـو في لعـب(٢)

ويقول فيهم :

كأننـي إذ وقفـت أنشدهـم شعري ، أعمـى يقـرأ على قبـر(٣)

ومن الشعراء من يمتدح الأتراك والأكراد لا سيما المصلحين ، كنور الدين زنكي ، وصلاح الدين الأيوبي ، يقول ابن سناء الملك :

بدولة الترك عـزت ملـة العـرب وبابن أيـوب ذلت شيعـة الصلب(٤)

وربما كان ذلك لتقى وعدل صلاح الدين وجهاده ، ولأنه يجزل العطاء للشعراء ، فامتدحه الشعراء .

---

(١) العماد الاصبهاني : الخريدة ، الجزء الرابع ٢/٥٤٤ .
(٢) المصدر السابق ، الجزء الرابع ٢/٥٤٥ .
(٣) المصدر السابق ، الجزء الرابع ٢/٥٤٢ .
(٤) الديوان ٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وجمع من الشعراء لا ينضوون تحت عنصر من العناصر إنما يبتغون حكماً آمناً عادلاً ، يقضي على الفتن ، ويحمي الناس من الدمار نتيجة الصراع الحربي ، يقول عرقلة الكلبي نزيل دمشق :

ذر الأتـــــراك والعـــــرب وكـــن في حـــزب مـــن غلبـــا
بجلـــق أصبحـــت فـــتن تجـــر الويـــل والخربـــا
لئـــن تمـــت فوا أســـفا ولم تخـــرب فـــوا عجبـــا(١)

والحق أن الأتراك والأكراد ، عنوا عناية فائقة باللغة العربية ، وأعلوا شأن ديوان الإنشاء ، واستقبلوا الشعراء ، وتعلم أبناؤهم اللغة العربية ، وشجعوا عليها، فاحتفظت بمكانتها الرسمية ، حتى احتل التتار بلاد المشرق « ولما ملك التتر بالمشرق ، ولم يكونوا على دين الإسلام ، ذهب ذلك المرجح ، وفسدت اللغة العربية على الإطلاق ، ولم يبق لها رسم في الممالك الإسلامية بالعراق وخراسان، وبلاد فارس ، وأرض الهند والسند ، وما وراء النهر ، وبلاد الشمال وبلاد الترك، وذهبت أساليب اللغة العربية من التعبير والكلام إلا قليل»(٢) .

أما في في مصر والشام فإن دولة المماليك ، وإن نأوا عن تعلم العربية إلا إنهم احتفظوا بدينهم الإسلامي ؛ فقربوا علماء الإسلام ، ثم شجعوا ديوان الإنشاء وكاتب السر ، وجعلوا رسماً للشعراء ، وإن كان قليلاً مما حافظ على اللغة العربية.

وأشار العلماء إلى الأخطاء التي يقع فيها الحكام العرب والمجتمع معاً فإن انقياد العرب ليس بالسهولة ولا يكون إلا بإشباع العصبة ، وفي ذلك خلل للملك وعدم توازن في تصريف الأمور من جاه ومال « إن خلق توحشهم موجب لصعوبة انقياد بعضهم إلى البعض ورئيسهم لمكان ذلك يصطبر لمحاملتهم بإحسان

---

(١) الديوان ١٣ .

(٢) أبو عبدالله بن الأزرق ، بدائع السلك في طبائع الملك ٢/٢٩٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الملكة ، وترك المراغمة ، وإلا اختل عليه وعليهم شأن العصبية التي بها الطلب ، والدفاع ، وسياسة الملك لابد فيها من قهر الوازع بها »(١)، وأقول : إن هذه النظرة ليست خاصة بالعرب إنما تنطبق على كل جنس عنصري ، وأنها تزول بالعدالة وقوة السلطان وابتعاد السلطة عنها أيضاً ، فإذا أراد تقرب شريحة فإن المعارضة تتكون من الشرائح الأخرى وهكذا لكن الدولة العادلة تقهر وازع العصبية كما حدث في الخلافة الأولى ، وبعض الملامح من الحكام التقاة ، ومنافسة العرب في هذا العرض لبروز العنصر التركي والكردي وتمكنه في المقدرات واتخاذ القرار فثارت القبائل العربية حول بغداد في وجه تسلط الأتراك حتى هيمن العنصر التركي كما حدث بين الدولة الأسدية بقيادة دبيس بن صدقة فقضى عليه السلاجقة .

وهم يرون أن مما يقوض الدول « اقتصارهم على ما بأيدي الناس من غير التفات لما وراء ذلك من وجوه الرعية لهم ، وذلك مناف للسياسية وعائد بخراب العمران »(٢) .

وهم يلصقون هذه الظاهرة بالعرب ، وليس كذلك فهي شائعة ذائعة في الدول الإسلامية من هيمنة الفرس ثم الأتراك ثم البويهيين ثم السلاجقة والدولة الزنكية والأيوبية ، إذاً فهي ليست خاصة عربية ، لكن عدم الوعي بالقضية من جميع تلك الدول قصر عمرها .

وقد التف عدد من الشعراء حول الدويلات العربية الأسدية والعقيلية ومنهم ابن حيوس والأبيوردي ، وأبو الفوارس وغيرهم ممن ينتمون إلى العنصر العربي ، ومن الشعر الذي ينزع نعزة عنصرية عربية ، لتنافس مع العنصرية التركية المهيمنة شعر الأمراء العرب ، كالمهذب الدولة أحمد البطيحة الذي مدح سيف الدولة

(١) أبو عبدالله بن الأزرق : بدائع السلك في طبائع الملك ١/١٣٥ ، اقتبس ذلك من مقدمة ابن خلدون .

(٢) المصدر السابق ١/١٢٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

صدقة ؛ فأخذ يعدد مفاخر القبائل العربية ومنه قوله :-

سل بقومي في الجاهلية والإسـ ـلام ، يخبر مجدهم والعلاء
من (غفار) و (ضمر) و (وفراس) زعماء ، أشدة ، حلماء(١)
وإذا قلت : يالـ (ليث) أجابتـ ـني (قريش) و(زمزم) و(الصفاء)(٢)
و (منى) و(الخطيم) و (الحجر) والبـ ـيت). وحسبي ما ضمت (البطحاء)(٣)
ومتى شمت من (خزيمة) برقا (أسديا) ، ينهل منه الحياء(٤)
(مزيديا) عليه من سمه الملـ ـك وقار ، وعزة ، وبهاء(٥)
من أبوه الجواد (منصور) القيل فتى لا تهوله الأعداء
مستقل وناهض بالمعالي همة دون كنهها (الجوزاء)(٦)
كشفت عن قناعها لك (بغدا د) ، وأعطتك (واسط) ما تشاء
وعطت جيدها إليك من الشو ق . حنانيك - (البصرة) الفيحاء(٧)

ومن سلوكيات العربي القح خفة الروح ، وعدم الإلحاح ، والبعد عن النقل من المجالس كقوله :

سأطرف عنكم طرف وأنفض منكم كفي

---

(١) غفار قبيلة من كنانة ، وهم بنو غفار بن مليل بن ضمرة ، رهط الصحابي أبي ذر الغفاري .

(٢) يا لليث : يا آل ليث ، وهو بطن من بكر ، من كنانه ، الصفاء .

(٣) الخطيم : بمكة ، قال مالك بن أنس : هو ما بين المقام (مقام إبراهيم) إلى الباب . وقال ابن جريج : هو ما بين الركن والمقام وزمزم والحجر ، والحجر ، والحجر : هو حجر الكعبة ، وهو ما تركت قريش في بنائها من أساس إبراهيم عليه السلام ، وحجرات على الموضع - ليعلم أنه من الكعبة ، فسمي حجراً لذلك . البطحاء : بطحاء مكة ، وتحديدها في معجم ما استعجم، وغيره .

(٤) شام البرق : نظر إليه يتحقق أين يكون مطره . خزيمة : بطن من قريش . بنو أسد : حي من بني خزيمة ، وبنو أسد : حي من ربيعة ، وبنو أسد : بطن من شنوءة من الأزد ، من القحطانية ، ينهل : ينسكب . الحياء : وهو المطر ، مده لضرورة .

(٥) مزيد : جد الأسرة .

(٦) كنه الشي : جوهره وحقيقته ، الجوزاء : برج من بروج السماء .

(٧) العماد ، الخريدة ، الجزء الرابع ، المجلد الثاني ٥٢٥،٥٧٢ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وأهجركـــــم ، ولـــــو أنـــــي لقيـــــت بهجركـــم حتفـــي(١)

هذه هي التي عزلت العربي عن الخدمة ومن ثم السلطة ، فأصبح في معزل عن تدبير الأمور .

وصلاح الدين الأيوبي ممن اجتمع عليه الفكر السياسي من جميع العناصر الإسلامية ، مما يدل على أن الحاكم العادل القائد الموحد للأمة يرضاه الشعب المسلم ، ومن هنا ؛ فإن كثيراً من الشعراء التفوا حول صلاح الدين الأيوبي . مشيدين بتوحيد البلاد ، والعدل ، والجهاد .

وأول من مدح صلاح الدين الأيوبي ، الشاعر عرقلة الكلبي (٤٨٦-٥٦٧هـ) مدحه وهو قائد لنور الدين(٢) : وقد تفاءل لصلاح الدين بولاية مصر فوعده بألف دينار فلما ملكها أرسل إليه قصيدة : يقول منها :

إليك صلاح الدين مولاي أشتكي زماناً على الحر الكريم يجور
ترى أبصر الألف التي كنت واعدي بها في يدي ، قبل الممات تصير(٣)

فبعث له صلاح الدين بعشرين ألف دينار فقال الشاعر :

يا مالكاً ما برحت كفه تجود بالمال على كفي
أفلح بالعشرين من لم يزل في رأس عشرين من الكهف(٤)

والشاعر ابن الدهان المتوفى ٥٨١هـ ، من أقدم الشعراء الذين مدحوا صلاح الدين الأيوبي ؛ فقد مدحه في خمس مطولات صدر بها ديوانه ومنها رائية مطلعها:

ما نام بعد البين يستحلي الكرى إلا ليطرقه الخيال إذا سرى
كلف بقربكم فلما عاقه بعد المدى سلك الطريق الأخضرا

(١) المصدر السابق ٥٢٧ .
(٢) الديوان ٨٧ .
(٣) المصدر السابق ٥٠ .
(٤) المصدر السابق ٦٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وإذا تصور أن يصـــورك الكـــرى فمن الضلالـــة لمقلـــة أن تسهـــرا(١)

وهو يصور الحالة التي وجد فيها البلاد بعد نور الدين :

والشام قـد أضحى حمى بك بعدمـا أشـفى وأمّلـــت العـــدى أن تظفـــرا
أمســى لنـور الديـن ليـلاً مظلمـاً حتـى أتيـــت فكـــان صبحـا نـيرا
فكأنـــه داع أجيـــب دعـــاؤه أو كـــان خُـــيِّرَ في الـــورى فتخـــيرا
وأتاك منشـور الخلافـــة شـــاكراً لك أن أعـــدت حيـــاً منشـــرا(٢)

فهو يشير إلى صلاح الدين الأيوبي الذي كان يدعي أنه الوصي لنور الدين على ابنه إسماعيل ، فلما انتصر في حلب ووحد الشام جاءه منشور التأييد من الخلافة العباسية . وهو القائل لما خطب بالديار المصرية لبني العباس .

أصبـــح الملـــك بعـــد آل علـــي مشـــرقاً بـــالملوك مـــن آل شـــادي
وغـدا الشـرق يحســد الغـرب للقـو م ومصـــر تزهـــو علـــى بغـــداد
مـا حووهـــا إلا بحـــزم وعـــزم وصليـــل الفـــولاذ في الفـــولاذ(٣)

وسبط ابن التعاويذي الشاعر العراقي المتوفى ٥٨٣هـ يمتدح صلاح الدين الأيوبي في عام ٥٧٠هـ ، ويذكر انتصاره على الإفرنجة في قصيدة دالية عدد أبياتها خمسة وستون بيتاً مطلعها غزلي وأرجح أنه يرمز إلى رغبته في مشاهدة صلاح الدين الأيوبي ولقائه :

قلـــبي في حبـــك معمـــود وحـــظ عيـــني منـــك تســـهيد
مـــا لديونـــي فيـــك ممطولـــة أقضـــي ولا تُقضـــى الموعيـــد
منهـــل وصـــل أنا عـــن ورده محـــلا دهـــري مصـــدود(٤)

(١) الديوان ٤٧ .
(٢) المصدر السابق ٥٣ .
(٣) الروضتين ١/٢٠٠ .
(٤) الديوان ١٠٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومنها :

تحمل آجام القنا في الوغى ... له أسود الغابة السود
يشفعه في صفحات الظبا ... لا في خدود البيض توريد
عتادة للرعب عسالة ... سمر وأبطال مذاويد
ومحكمات النسج موضوعة ... قدرها في السرد داوود
ومرهفات الحد مطرورة ... وضُمَّر أقرابها قود
لما سرتُ يُقدِمها حتفها ... عصائب الترك الرعاديد(١)

يشير إلى الأتراك الذين حاربوه في الشام .

ومدحه بقصيدة أخرى عام ٥٧٤هـ(٢)، وفي عام سبعين استولى صلاح الدين الأيوبي على دمشق ولكن قبله تفشى الفساد ، وقل الأمن واضطربت الأحوال فقال أسامة بن منقذ ، مستقدماً صلاح الدين الأيوبي :

فسر إلى الشام فالملائكة الأ ... برار تلقاك ملتقى حمدا
فهو فقير إليك يأمل أن ... تصلح بالعدل منه ما فسدا
والله يعطيك فيه عاقبة النـ ... ـصر كما في كتابه وعدا(٣)
ما نام بعد البين يستحلي الكرى ... إلا ليطرقه الخيال إذا سرى(٤)

ومن الشعراء سعادة الأعمى من أهل حمص مدحه بعد ضم دمشق بقصيدة طويلة أولها :

حيتك أعطاف القدود ببانها ... لما انثنت تيها على كثبانها

وقال في قصيدة أخرى يدعوه إلى فتح حلب :

---

(١) المصدر السابق ١٠٨ .
(٢) المصدر السابق ١٠٨ .
(٣) أبو شامة : الروضتين ١/٢٣٧ .
(٤) المصدر السابق ١/٢٤٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هـل بعـد جلـق إلا أن تـرى حلبـا وقـد تحلـل منهـا مشـكل عقـد
وقـد أتتك كمـا تختـار طائعـة وقد عنالك منها الحصـن والبلـد(١)

إذن فهذه دعوات لتوحيد البلاد تحت راية واحدة ، ورفض للاضطراب الأمني والفرقة . وللعماد الأصبهاني قصائد كثيرة يمدح بها السلطان صلاح الدين الأيوبي في عام ٥٧١هـ(٢) .

في عام ٥٧٥هـ هزم صلاح الدين الملك هفري فتبارى الشعراء في الإشادة بهذا الانتصار ومنهم أحمد بن نقادة الدمشقي ، وابن الساعات ، والضرير الحمصي(٣)، ومما قاله نجم الدين محمد الحسن بن نبهان العراقي :

هنيئاً صلاح الدين بالفتح والنصر ونيل الأماني الغر والتفكة البكر
وما حزت فيها من فخار ومن علا وحسن ثنا يبقى إلى آخر الدهر
سموت لها بالمشرفية والقنا سموا أبيّ لا ينام على وتر
وصلت بها حبل المفاخر مثلما قطعت بها يوم الوغى دابر الكفر
وقد عرف الإفرنج باسك في الوغى وجرعتهم منه أمرّ من الصبر
وظنوا بناء الحصن صوناً لملكهم فأصبح بالشعواء منهتك الستر
هل الفتكة الغراء لا زلت قائماً بأمثالها في الدين في السر والجهر
وأصبح في أقصى خراسان ذكرها وفي كل قلب منه جيش من الذعر
فلا ترض منهم بعدها بذل طاعة فما خلقوا إلا على شيمة الغدر
فسر واملك الأرض التي لو تركتها لأغضت عيون المجد منها على أمر(٤)

فالشعراء سجلوا تواصل صلاح الدين في محاربة الصليبيين رغم محاولته الجادة لتوحيد البلاد ، وأيضاً فإن المسلمين يتطلعون إليه في مشارق الأرض ومغاربها ،

---

(١) المصدر السابق ١/٢٥٣ .
(٢) المصدر السابق ١/٢٥٥ .
(٣) المصدر السابق ٢/١٢، ١٣ .
(٤) المصدر السابق ٢/١٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والشعراء يدفعونه لمواصلة الجهاد .

وقد تكاثر الشعراء حول صلاح الدين الأيوبي لا سيما بعد توحيد البلاد تحت لوائه : مصر والشام ، والحجاز . وزاد تكاثرهم بعد فتح بيت المقدس عام ٥٨٣هـ .

ومن أشهر الشعراء حوله الشاعر عبدالمنعم الجلياني (٥٣١-٦٠٣هـ) ، وله فيه ديوان (التدبيج) أو (منادح الممادح وروضة المآخر والمفاخر) في خصائص صلاح الدين الأيوبي ، وهذا حققه الدكتور عبدالجليل حسن عبدالمهدي ولكنه لم يطبع ، وهو الذي حقق الديوان الثاني للشاعر (المبشرات والقدسيات) وهو في سيرة البطل صلاح الدين الأيوبي أيضاً ، وقد طبع عام ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م(١) .

ومن أشهر الشعراء حوله ، العماد الأصبهاني الذي صحبه في حروبه وسجل معاركه في شعره ، وتحدث عن سيرته وحياته ، ولا نكاد نجد معركة أو مناسبة إلا وقد نظمها في شعره كما هو واضح في ديوانه وفي خريدته ، وفي كتاب الروضتين لأبي شامة ، فقد استقى منه(٢)، ومن الشعراء حوله أيضاً ابن سناء الملك وقرينه ابن الساعاتي ، ومنهم فتيان الشاغوري(٣) . ومن أشهر القصائد الحماسية قصيدة ابن الساعاتي في فتح طبرية ٥٨٣هـ .

جلت عزماتك الفتح المبينا ... فقد قرّت عيون المؤمنينا
رددت أخيذة الإسلام لما ... غدا صرف القضاء بها ضمينا
وهان بسك الصليب وكان قدما ... يعز على العوالي أن يهونا
يقاتل كل ذي ملك رياء ... وأنت تقاتل الاعداء دينا
غدت في وجنة الأيام خالا ... وفي جيد العلا عقداً ثمينا
فيا لله كم سرت قلوباً ... ويا لله كم أبكت عيونا

(١) المصدر السابق وديوان المبشرات والقدسيات ، المقدمة .

(٢) انظر : آخر الجزء الأول والجزء الثاني كاملاً .

(٣) الروضتين ٢/٨٤ ، وما بعدها ..

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وما طبرية إلا هديّ ترفع عن أكف اللامسينا
حصان الذيل لم تقذف بسوء وسل عنها الليالي والسنينا
فضضت ختامها قسراً ومن ذا يصد الليث أن يلج العرينا
لقد أنكحتها صم العوالي فكان نتاجها الحرب الزبونا
هناك ندى أهل الأرض طرا سواك ومعقل أعيا القرونا
قست حتى رأت كفؤاً فلانت وغاية كل قاس أن يلينا
قضيت فريضة الإسلام منها وصدقت الأماني والظنونا
تهز معاطف القدس ابتهاجاً وترضى عنك مكة والحجونا
فلو أن الجهاد يطيق نطقا لنادتك أدخلوها آمنينا
جعلت صباح آملها ظلاماً وأبدلت الزئير بها أنينا
تخال حماة حوزتها نساء يخوضون الحديد مقنعينا
لبيضك في جماجهم غناء لذيذ علم الطير الحنينا
تميل إلى المثقفة العوالي فهل أمست رماحاً أم غصوناً(١)

ونظراً لكثرة الاستشهاد بشعر العماد الأصبهاني ، وابن الساعاتي ، وابن سناء الملك ؛ فإني قد أقللت من أشعارهم لاسيما وأن دواوينهم مطبوعة .

وفكر الجهاد في الشعر لم يغب بغياب التشجيع من الولاة للشعر والشعراء ؛ فإن قرائح الشعراء تتجاوب مع لحظات الحماس الإسلامي ، فالشاعر محي الدين ابن عبدالظاهر يصور إقدام الظاهر بيبرس إلى قوات التتار وانتاصرهم عليهم ، وصدهم عن بلاد الشام ، حتى تجاوز نهر الفرات وتبعهم أيضاً وقتل منهم وأسر:

تجمع جيش الشرك من كل فرقة وظنوا بأنا لا نطيق لهم غلبا
وجاءوا إلى شاطئ الفرات وما دروا بأن جياد الخيل تقطعها وثبا
وجاءت جنود الله في العدد التي تميس لها الأبطال يوم الوغى عجبا
فعمنا بسد من حديد سباحة إليهم ، فما استطاع العدو له نقبا(٢)

(١) المصدر السابق ٢/٨٤، ٨٥ .
(٢) المصدر السابق ١/٢٣٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والشعراء في عهد الحروب الصليبية كانت تدفعهم الروح الإيمانية إلى إثارة الحماسة فظهرت قصائد الفخر وشعر الحرب في غياب القصائد المدحية للقادة كقول بدر الدين يوسف بن المهمندار(١) :

لو عاينت عيناك يوم نزالنا ... والخيل تطفحُ في العجاج الأكدر
وقد اطلخم الأمر واحتدم الوغى ... ووهى الجبانُ وساء ظنّ المجتري
لرأيت سداً من حديد ما يرى ... فوق الفرات وفوقه نار تري
طفرت وقد منع الفوارس مدها ... تجري ولولا خيلنا لم تطفر
ورأيت سيل الخيل قد بلغ الزبى ... ومن الفوارس أبحر في أبحر
لما سبقنا أسهماً طاشت لنا ... منهم إلينا بالخيول الضمّر
لم يفتحوا للرمي منهم أعيناً ... حتى كحلن بكل لدن أسمر
فتسابقوا هرباً ولكن درهم ... دون الهزيمة رمح كل غضنفر
ما كان أجرى خلينا في إثرهم ... لو أنها برؤوسهم لم تعثر
كم قد فلقنا صخرة من صخرة ... ولكم ملأنا محجراً من محجر
وجرت دماؤهم على وجه الثرى ... حتى جرت منها مجاري الأنهر(٢)

والمجتمع أحس بالقهر والغبن من تلك الحاشية حول السلاطين والولاة الذين يتنعمون بأموال الشعب ، وينهبوا الأموال ويقتطعونها بطرائق محرمة ، فالبوصيري يدعو عليهم لسرقتهم الغلال ، وإسرافهم بالرقيق ، وصرف الأموال على ملذاتهم وهو يعرض أمرهم على الوزير الذي أطلق أيديهم ، بل إنه يصب جام غضبه على القضاة الذين يرون الظلم والتبذير ولا يدفعونه :

فكم سرقوا الغلال وما عرفنا ... بهم فكأنما سرقوا العيونا
ولولا ذاك ما لبسوا حريرا ... ولا شربوا خمور الأندرينا

(١) المهمندار هو الذي يتلقى الرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة ، ويتحدث في القيام بأمرهم (ومهمن تعني الضيف بالفارسية) صبح الأعشى ٤/٢٢، ٥/٤٥٩ .

(٢) الكتبي : فوات الوفيات ١/٢٣٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولا ربـوا مـن المـردان مـرداً كأغصـان يقمـن وينحنـا
وقـد طلعـت لبعضهـم ذقونـا ولكـن بعدمـا نتفـوا ذقونـا
واقـلام الجماعـة جـايلات كأسـياف بـأيدي لاعبينـا
وقـد سـاوقتهم حرفـاً بحـرف فكـل اسـم ، يخطّـوا منـه سـينا
أمـولاي الوزيـر غفلـت عمـا يتـم مـن اللثـام الكاتبينـا
تنسـك معشـر منهـم وعُـدّوا مـن الزهـاد والمتورعينـا
وقيـل لهـم دعـاء مسـتجاب وقـد ملأوا مـن السُـحت البطونـا
تفقهـت القضـاة فخـان كـل أمانتـه وسمـوه الأمينـا
ومـا أخشـى علـى أمـوال مصـر سـوى مـن معشـر يتأولونـا
يقـول المسلمـون لنـا حقـوق بهـا ولنحـن أولى الآخذينـا

ويشير إلى استخدام النصارى واليهود في الخدمة العلياء للدولة ، وإبعاد الأتقياء الأمناء من علماء المسلمين ، وكان من همِّ هؤلاء الوزراء جمع الذهب بعد أن كانوا يجمعون التبن :

وقـال القبـط نحـن ملـوك مصـر وإن سـواهم هـم غاصبونـا
وحللـت اليهـود بحفـظ سـبت لهـم مـال الطوايـف أجمعينـا
ومـا ابـن قطيبـة إلا شـريك لهـم في كـل مـا يتخطفونـا
أغـار علـى قـرى فـاقوس منـه بجـور يمنـع النـوم الجفونـا
وصـير عينهـا حمـلاً ولكـن لمنزلـه وغلتهـا خزينـا
وأصبـح شـغله تحصيـل تـبر وكـانت راؤه مـن قبـل نونـا
وقدمـه الذيـن لهـم وصـول فتمـم نقصـه صلـة الدينـا
وفي دار الوكالـة أي نهـب فليتـك لـو نهبـت الناهبينـا
فثـم بهـا يهـودي خبيـث يسـوم المسـلمين أذى وهونـا
إذا ألقى بهـا موسـى عصـاه تلقفـت القوافـل والسفينـا(١)

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات ٣/١٠٦،١٠٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فهو يشير إلى هيمنة النصارى واليهود على الخراج ، وترقيتهم في المناصب العليا ولا سيما المالية بل بعضهم بلغ الوزارة ، والذين تربوا على النزاهة الإيمانية ويخلصون للعمل والصالح العام ؛ فإنهم في معزل عنها .

وقضية السطو التي تفسد على المواطنين أمنهم وأمانتهم ، وتنتهك دورهم وتسلب أموالهم تأمل منها الشعراء . فقال عرقلة الكلبي يمدح صلاح الدين ومعرضاً بتلك القضية .

رويدكم يا لصوص الشآم ... فإني لكم ناصح في مقالي
وإياكم من سمي النبي ... يوسف رب الحجا والجمال
فذاك مقطع أيدي النساء ... وهذا مقطع أيدي الرجال(١)

والشاعر الفضل بن حمد بن سليمان يشتكي بعض الولاة لظلمهم وجورهم ويرى أن نتيجة ذلك الفقر والعوز ؛ فكم من ظامئ ومن جائع ومن عار :

إن ابن إسماعيل هذا الذي ... أسرف في العدوان والإثم
لم يتق الله ولم يخشه ... ولم يخف عاقبة الجرم
كم كبد حرى تشتكي الظما ... ومقلة عبرى من الغشم
وكم ضعيف الحال عيلة ... في القرّ يعدو عاري الجسم
يخال من أبصره أنه ... خِلالة من شدة السقم(٢)

والبوصيري (٦٠٨-٦٩٦هـ) يرفع حالة أسرة متكاملة إلى الوزير ، ويفصح أن هذه الأسرة أصيبت بالعسر ، فالمال مفقود ، والأولاد كثير .

يا أيها المولى الوزير الذي ... أيامه طايعةً أمره
ومن له منزلة في العلى ... تَكِلُّ عن أوصافها الفكرة
إليك نشكو حالنا إنّنا ... حاشاك من قوم أولي عسرة
في قلّة نحن ولكن لنا ... عايلة في غاية الكثرة

(١) الديوان ٨٧ .

(٢) العماد : الخريدة الجزء الرابع ٢/٧٦٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أحدّثُ المولى الحديث الذي ... جرى لهم بالخيط والإبرة
صاموا مع الناس ولكنّهم ... كانوا لمن أبصرهم عبرة
إن شربوا فالبئر زير لهم ... ما برحت والشربة الجرة
لهم من الخبز مصلوقة ... في كل يوم تشبه النشرة
أقول مهما اجتمعوا حولها ... تنزهوا في الماء والخضرة(١)

والشيخ / محمد بن سعد بن عبدالله بن مفلح بن هبة الله بن نمير شمس الدين الأنصاري الحنبلي المقدسي ، نشأ بقاسيون على الخير والصلاح ، وقرأ القرآن والعربية ، وسمع الكثير ، وكان ديناً ورعاً ، وبرع في الأدب وحسن الخط ، وكتب للصالح إسماعيل وللناصر داود ، وطال عمره وروى عنه الدمياطي وغيره ، وتوفي سنة خمسين وستمائه(٢) قد نصح الصالح إسماعيل الأيوبي بعدم الظلم ، وأن يختار أعدل الورزاء وأنزه القضاة ، فقال :-

يا ملكاً لم أجد لي من نصيحته ... بدا وفيها دمي أخشاه منسفكاً
أسمع نصيحة من أوليته نعما ... يخالف كفرانها إن كف أو تركا
والله لا امتدّ ملك مد مالكه ... على رعيته من ظلمه شبكا
أرى الحسود به مستبشراً فرحاً ... مستغرباً بوادي أمره ضحكاً
وزيره ابن غزال والرفيع له ... قاضي القضاة ووالي حربه ابن بكا
وثعلب وفضل من هما وهما ... المشورة فيما ضاق أو ضنكا
جماعة بهم الآفات قد نشرت ... والشرع قد مات والإسلام قد هلكا
ما راقبوا الله في سر وفي علن ... وإنما يرقبون النجم والفلكا
إن كان خيراً ورزقاً واسعاً فلهم ... أو كان شراً وأمراً سيئاً فلكا(٣)

---

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات ١٠٨/٣ .

(٢) الوافي ٩١/٣ ؛ والزركشي ٢٧٨؛ مرآة الزمان ٦٢٣ ؛ وذيل ابن رجب ٢٤٨/٢؛ والشذرات ٢٥١/٥؛ وعبر الذهبي ٢٠٦/٥ .

(٣) فوات الوفيات ٣٥٨/٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والشعراء تحدثوا عن تلك المشكلة الكبرى في ذلك العصر والتي تتمثل في تنافس الوزراء جورهم ، وظلمهم لبعضهم ، ومواقفهم من السلاطين المتصارعة ؛ وكان الشاعر الطغرائي أحدهم بل راح ضحية موالاته للسلاطين ، وقد قال في الوزارة و لم يعلم أن هذا أيضاً مصيره يقول عن أحد الوزراء :

مضى وزراؤكم موتاً وقتلاً ... ولم يسلك منهم في ذاك حيلة
وعاش وزيركم هذا زماناً ... فآذى الناس مدته الطويلة
وكان أبوك فوق الشمس نوراً ... وقد كسفته عقدته الثقيلة
خزانته المصونة صرن نهباً ... على يده وعدته الجزيلة
فعاجلة بعزل أو بقتل ... وحيٌّ فهي عادتك الجميلة
وكايل شؤمه صاعاً بصاعٍ ... ومن يغلب فإن له الفضيلة(١)

تعدد الوزراء عند السلاطين السلاجقة والسلاطين أنفسهم تعددوا وتقاتلوا فالسلاطين والوزراء كلهم في صراع يمثل واقع الحياة السياسية التي أنهكت العالم الإسلامي ، وفرقته إلى شيع متحاربة ، وإلى أقاليم متضادة ، والوزراء أولئك يتدافعون على الوزارة ، ويمثلون هوى آراء السلطان .

وقد أكثر الشعراء من الحديث عن فقر العلماء ، وأهل الفضل ، فلا وظائف، ولا نوال لكن الجاهل في غنى ، ويموت العالم بسيف الفقر ؛ فهذا معين الدين بن تولو المتوفى عام ٦٨٥هـ ، يتبرم من حالة ، وحال غيره ، وهو يرفع الأمر إلى أصحاب الشأن :

أما السماح فقد أقوت معالمة ... فما على الأرض من ترجى مكارمه
فلا يغرنك من يلقاك مبتسماً ... فطالما عزَّ برق أنت شائمه
لا تتعب النفس في استخلاص راحتها ... من باخل لؤمه في الجود لائمه
آخى المذلة إعزازاً لدرهمه ... ويصحب الذل من عزت دراهمه

(١) الديوان ٣٢٢ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ماذا أقول لدهر عاش جاهله غنيً ومات بسيف الفقر عالمه
قد سالم النقص حتى ما يحاربه وحارب الفضل حتى ما يسالمه

وهو يأتي على موضوع فيه كثير من اللوم على العلماء ، وعلى المجتمع فلم يكن هناك توازن ، فالعلماء لم يعملوا في المهن ، والمجتمع لم ينصفهم ، وما أشد مرارة الفقر على العائل الذي اضطر لبيع كتبه :

يا أهل مصر وجدتُ أيدكم عن بسطها بالنوال منقبضة
(فمذ عدمت الغذاء عندكم) أكلت كتبي كأنني أرضة(١)

ومن الشعراء الذين لهم ولع بإثارة القضايا الإدارية ، وطرحها أمام السلطان الشاعر ابن المسجف (٥٨٣-٦٣٥هـ) قال في جماعة بدمشق :

تسعة رهط في جلق جمعوا ليس لهم في الفساد من عاشر
الأعور التاج والشقيشقة الصفا ر وابن الخطيب والكافر

وقال يخاطب الملك العادل ، وقد أمر بنزح الماء من الخندق لأجل عمارة البرج :

أرح من نزح ماء البرج قوماً فقد أفضى إلى تعب وعيً
مُرِ القاضي بوضع يديه فيه وقد أضحى كرأس الدولعي

وقال في جماعة حول الملك الأشرف :

وخمسة عند موسى لا خلاق لهم ما فيهم أبداً نفع لمخلوق
ابن المحور والدخوار والفلك المـ ـصري وابن جرير وابن مرزوق

وقال يخاطب الملك المعظم لما طولب بالزكاة :

أيا ملكاً حوى علماً وجوداً وحاز لكل مكرمة وفضل

ثم نحى الشاعر منحى غير يديني في محاولة الاستعفاء من الزكاة ، فهو يعلن أنه لا يصوم ولا يحج ولا يصلي ، وهذا قول شعراء لم يؤخذ به أمام السلطان

(١) الكتبي : فوات الوفيات ٤٤١/٢ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن هنا فإن الزكاة لا تجب عليه في نظرة :

ومن هو كالمسيح اسماً وفعلاً ... ونصباً للحياة وجزم محل
يكلفن البهاءُ زكاة مال ... حرام كله من غير حل
وكيف يقوم بالزكوات من لا ... يصوم ولا يحج ولا يُصلي
فجد بهبات ذلك لي فإني ... أجلُّ زكاتكم عن مال مثلي(١)

وقال :

قالوا علام رفضت الشعر مطرحاً ... فقلت من قلة الإنصاف في زمني
لا المدح يورثني مالاً أسر به ... ولا الهجاء إلى سؤلي يقربني
حتى يُقال أديب شاعر فطن ... حرام كل أديب شاعر فطن

وقال محيي الدين بن الجوزي رسول الخليفة وكان يتردد إلى الملوك في الرسائل فمات منهم جماعة متقاربون يخاطب الخليفة المستنصر :

يا إمام الهدى أبا جعفر المنصـ ... ـور يا من له الفخار الأثيل
ما جرى من رسولك الشيخ محيي الـ ... ـدين في هذه البلاد قليل
جاء والأرض بالسلاطين تزهو ... فغدا والقصور منهم طلول
أقفر الروم والشام ومصر ... أفهذا مغسل أم رسول

وقال في جماعة بدمشق :

خمسُ تيجان لا يساوون نعلا ... رث في قيمة ولا مقدار
الشحيري والأعيور والقصا ... ر وابن المصري وابن الحواري

وقال في ابن الزكي والجمال يونس المصري :

يقيسون يحيى بالفعال بيونس ... وهذا على ضدّ القياس المؤسس
وكيف يصح الحكم والحوت بالـ ... ـذاك وهذا بالـعُ حوت يونس(٢)

ونتيجة القول :

(١) المصدر السابق ٢/٢٨٥.
(٢) المصدر السابق ٢/٢٨٦.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أن الشعر حمل لنا الفكر السياسي والإداري ، فهو قد نقل اتجاه الدول فمن خلاله ندرك المذهب السياسي للخلافة العباسية ، وأكثر وضوحاً الخلافة الفاطمية، بل أدركنا مكانة الخليفة الدينية ، ونظرة المجتمع للخلافتين من الناحية الإدارية ، فإن الشعر جسد ضعفها من ناحية استغراب مضمون المدح ، ومن ناحية النقد المباشر في كثير من الشعر ولا سيما ما كان من ضعفهما عند الغزو الصليبي في كثير من الشعر ، والشعر أبان لنا عن الوزارة ووظيفتها ، وخلافهم ، واضطراب الأمن ، وأبان لنا عن الصارع السياسي بين الوزراء مختلفي المذاهب ، كما هو واضح من الشعر حول ابن زريك والوزير سلار الذي حاول أن تحل السنة محل الشيعة في الخلافة الفاطمية .

والشعر كشف عن الصراع بين العناصر العربية والتركية والفارسية ، وكشف لنا عن غلبة العنصر التركي .

والشعر كشف لنا عن الفساد الإداري في كل منصب سياسي وإداري حتى القضاة لم يغفلهم الشعراء لأنهم لم يقفوا عند القضاء وحسب ؛ بل ضُمت إليهم أعمال الحسبة ، والإشراف على المدارس ، والأوقاف .

والأتراك قربوا العلماء ؛ ليظهروا بمظهر الحاكم العادل ، وأغدقوا عليهم الأموال ، لذواتهم ، وليصرفوا منها على المحتاجين ، وكانت تبنى لهم المدارس ويكون القيم منهم وهذه تستقطب عدداً من المجتمع ، فتكون للعلماء عليهم ذات اليد .

إذن فالشعر استلهم الفكر السياسي والإداري . والشعر الفكري لم يكن نظماً علمياً ، وإنما هو إبداع فني ، وإن وجد هناك ما يشبه النظم .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الثاني
الفكر الاقتصـــادي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إن للإسلام أصوله الفقهية التي تسير ميسرة الحياة الاقتصادية بنصوصه التوقيفية القرآنية ، وحديث الرسول ﷺ . ثم الفكر البشرى لأولئك الخلفاء والولاة من الصحابة ، ثم بعد ذلك توسع الفكر الاقتصادي في العالم الإسلامي ، ودخل العلم المقنن والمنطق ؛ ثم استقل بمؤلفات خاصة به ، فالعلماء كانوا على وعي بتنظيم الحياة ، ولو أخذ بها الولاة لكان في ذلك قوة لهم ، واستمراراً لدولهم، ورفاه لمجتمعهم فالعلماء أخذوا يحصرون القضايا الاقتصادية ، ويعالجونها في ضوء توجيه الشريعة ، ثم بفكر ثاقب ، فكان على الحاكم أن يقتدي بالرسول ﷺ في توجيه أمته للعمل فقال الشاطبي : « وكذلك أصحابه – رضي الله عنهم – كانوا بين عامل سوقه ، وعامل في أرضه ، ومسافر يبتغي من فضل الله ، وهم القدوة لمن سواهم، ولم يكونوا يتحاشون من ذلك ، ولا يلحقهم في كسل وكان الغنى من مقاصدهم ، والتكسب من شأنهم ، وعلى صحة ذلك اتفق العلماء رضي الله عنهم »(١) .

وهم أفاضوا في الحديث عن الحرف والمهن والزراعة وغيرها « إن القيام بأمهات الصنائع الضرورية فرض على الكفاية كما قرره غير واحد كالفلاحة ، والبناء ، والخياطة والنجارة حتى الجماعة مما تدعو إليه الضرورة »(٢) .

وهم يحثون على العمل بأنواعه وكيفيته ، وحثوا على السلوك السليم ، وجعلوا العمل من العبادة العملية والخلق مع الآخرين لصلاح العمل وإتقانه ، وتحدثوا عن خلق التاجر ، ومراقبة الله ، وحثوا عليها جميعاً وبهذا ؛ فإنهم نظروا تنظير شاملاً للكسب(٣) .

والعلماء نظروا كثيراً للطرائق التي يُكسب منها المعاش . وقال الحكماء :

---

(١) بدائع السلك في طبائع الملك ٢٩٨/١ .

(٢) المصدر السابق ٢٩٨/٢ .

(٣) المصدر السابق ٤٤٩/٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أصول المعايش أربعة : الإمارة لأخذ ما بيد الغير يقهرها على قانون متعارف وهو المغرم ،والجباية ، والتجارة ، وهي إعداد البضائع لطلب أعواضها بالتقلب بها في البلاد ، أو احتكارها لترصد بها حوالة لأسواق ، والفلاحة : وهي استخراج فضول الحيوان الداجن كاللبن والحرير والعسل ، وثمرة النبات من الزرع والشجر. والصناعة وهي : عمل في مواد معينة كالكتابة ، والفروسية أو غير معينة وهي : جميع المهن والتصرفات »(١) .

وأوضحوا أن الكسب بالخدمة أو بالبحث عن الدفائن والكنوز ليست من المعاش الطبيعي(٢) .

ونحن لو نظرنا إلى مجتمع ذلك العصر لرأينا أن الخدمة هي الباب الأوسع لطلب الرزق في العالم الإسلامي ، وهذا ما يجعل المجتمع غير منتج ، وأيضاً يسخر الناس لإرادة فئة محدودة . ولم تأخذ السلطات بتوظيف الموارد للفرد والمجتمع ، وتضع لها نظماً ثابتة مما يطيل حياتها ومدتها ، لذا فإن الأنظمة سرعان ما تندثر لتحل محلها غيرها فعمر الدول عمر إنسان أو أقل .

والعلماء يدعون إلى التحضر ، واستعمار الأرض ، بل يبيحون للسلطان إرغام المجتمع على إقامة المدن ، وتمصير الأمصار ، وتخطيط الأحياء « بل لابد من الإكراه على ذلك وسوق الناس إليه مضطرين بعصا الملك أو مرغبين في الأجر الذي لا يفي به لكثرته إلا الملك ، فإذاً لابد من تمصير الأمصار ، واختطاط المدن من الدولة والملك »(٣) .

وهم يشيرون كثيراً إلى التدبر والتامل ، وأخذ الحيطة في بناء المدن وغيرها ، وينظرون نظرة مستقبلية ، أي يقوم كل أمر على التخطيط . ويستعدون في الأبنية

---

(١) أبو عبدالله بن الأزرق : بدائع السلك في طبائع الملك ٢/٢٩٩ .

(٢) المصدر السابق ٢/٣٠٠،٣٠١ .

(٣) المصدر السابق ٢/٢٧٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لاحتمالات كثيرة كالكوارث وغيرها . فإن علماءنا الأوائل نبهوا إلى ذلك في تنظيرهم « إذا بنيت المدينة وكمل تشييدها بحسب نظر من شيدها . وبما اقتضته الأحوال السماوية والأرضية فيها ، فعمر الدولة حينئذ عمر لها »(١) .

والشعراء قد تحدثوا عن وظائف الخدمة ، التي استمالت الناس لضمان كسبها، ويسر عملها ، فهم يتهالكون عليها ، ويتعلقون من أجلها ، فالشاعر القاسم بن القاسم الواسطي المتوفى ٥٢٦هـ يمدح الوزير جمال الدين القاضي ، ويلتمس منه أن يرتبه في خدمة :

يا سيدي قد رميت من زمني ... بحادث ضاق عنه محتملي

وأنت في رتبة إذا نظرت ... إليّ صار الزمان من قبلي

والنظم والنثر قد أجدتهما ... فيك فلا تترك الإجادة لي

فمن المتعارف عليه أن الكتابة تؤهل لديوان الإنشاء ، ويشير إلى البطالة ويتمنى العمل :

فعندما طالت البطالة بي ... وصار لي حاجة إلى العمل

قال أناس نبه لها عمراً ... فقلت حسبي رأي الوزير علي(٢)

ويقول أيضاً :

قد بت من وعده على ثقة ... أمنت في حليها من العطل

يفر من وعده المطال كما ... تفر آراؤه من الزلل(٣)

والعلماء المسلمون دائمو الإحساس بقضايا المسلمين يستشعرونها ويتأثرون بها ؛ فتفيض تجاربهم بها ويقولون الشعر على لسان الفقراء ، ومنهم شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الذي يقول :

والله ما فقرنا اختيار ... وإنما فقرنا اضطرار

---

(١) المصدر السابق ٢/٢٧٤ .

(٢) الحموي : معجم الأدباء ١٦/٣١٤، ٣١٥ .

(٣) المصدر السابق ١٦/٣١٥، ٣١٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

جماعـــــة كلنـــــا كـــــالى وأكلنـــــا مـــــا لـــــه عيـــــار

تسمـــــع منـــــا إذا اجتمعنـــــا حقيقـــة كلهـــا فشـــــار(١)،(٢)

ومعروف أن ابن تيمية من العلماء ، إذن فهو يلومهم على تكاسلهم ، وقلة عملهم ، وتمضية الوقت بالفشار ؛ فهو لم يعذرهم بطلب العلم ، بل يجب أن يعملوا ويتعلموا معاً .

ونظراً لانفصام التنظير عن التنفيذ ؛ فقد هيمنت أنظمة الحكم على الموارد الاقتصادية ، وتباعدت عن الأنظمة التي ترسخ الحياة الاقتصادية ، ففقدت الفلسفة الإدراية في كيفية البناء الاقتصادي ، والعمل على إيجاد إنتاجية ، تثري الحياة الفريدة والاجتماعية ، مع تناسي أو تغييب النظام الإسلامي الاقتصادي ، ولنكون أكثر إنصافاً ، بتحديد الانفصام بين الإدارة المسيرة للاقتصاد وبين علماء المسلمين الأوائل الذين لم يغفلوا التنظير المنظم للاقتصاد الإسلامي ، كالماوردي والسبكي ، وصاحب (بدائع السلك في طبائع الملك) .

وفي غياب النظم المالية التي تعتمد على القاعدة الشرعية والمنطق العملي ، أتيح للفرد والبطانة أن يوظفوا المال لمصالحهم الخاصة ، فالفرد يكوّن حاميته ، وحاشيته بما يبذل من مال ، والبطانة تنتهج المنهج ذاته ، ليكون لها مال ، وجاه واتباع ، والمستفيد الأكثر يهيمن بالثورات الحربية إذا أدرك أن ماله وجاهة لا تنجب له سلطاناً كما هو الشأن في وزراء الخلافة العباسية في عهد الحروب الصليبية ، ونظيرتها العبيدية في القاهرة ، ودولة المماليك في مصر المعاصرة لبقايا الصليبيين ، وما تلاها حتى سقوطها عام ٩٢٣هـ .

فقد احتجبت عن العالم الإسلامي النظرة الاقتصادية الشاملة حتى عن أولئك

---

(١) الفشار : جمع فشر ، وهي عامية كثر استعمالها .

(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات ٣٠/٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الحكام العادلين كأمثال عماد الدين زنكي ، ونور الدين زنكي ، وصلاح الدين الأيوبي وغيرهم الكثير من حكام المسلمين ومن يتسمون بالتقى والصلاح ، فإن غياب الأنظمة المالية الدقيقة أفقد القدرة على توزيع الأموال بعدالة اجتماعية و لم يستطيعوا حمايتها من الطبقية التحتية لهم ، و لم يشجعوا الإنتاجية الفردية والاجتماعية .

وقد استشعر الوزير الذائع الصيت نظام الملك أقوى وزير للدولة السلجوقية في مرحلة قوتها وعظمتها ، نقول استشعر عدم قدرة الفرد على تشجيع الموارد والإنتاج فأراد - بحسن نيه فردية - أن يوجه الاقتصاد ، وجهة اقتصادية تبني الديار وتعمر الأرض ، فتحيي الزرع ، وتثير روح التنافس والتباري بين الأقاليم الإسلامية وولاتها ليجني كل منهم مقدار جهده الفكري والعملي ، ويدرك كل منهم أن بناءه الاقتصادي هو أساس قوته ؛ فأخذ بسياسة الإقطاع ، وتوزعت الدولة السلجوقية إلى شرائح إقطاعية يهيمن على كل إقليم أحد رجالات السلاجقة ، ويوزع ما تحت يده من إقطاعات متعددة ، له الهيمنة عليهم ؛ فهم يخضعون له حتى تشتد شوكتهم فيفتكون به ، كما فتك الأتابكة بأمرائهم السلاجقة ، أو ينتظرون حتى يهلك ؛ فيتصارع أصحاب الإقطاع ، فتكون الهيمنة للأقوى ، فيضعف بانتصاره ، وهكذا حتى اندثرت الدولة في أقل من خمسين سنة حيث مات نظام الملك في ٤٨٥هـ ، و لم يأت عام ٥٣٠هـ ولها شأن يذكر ، بل استحوذ عليها الأتابكة أصحاب الإقطاع .

وسياسة الاقتصاد الإقطاعي صنفت المجتمع إلى طبقات متعددة ، الطبقة المالكة للإقطاع ، وطبقة الفلاحين الكادحين الذين يبذلون جهداً بلا عائد يذكر؛ فتثبط عزيمتهم عن العمل . وانحسرت الزراعة في القرى . فهم أشبه بعمالة النظم الاشتراكية المعاصرة ففشلت الزراعة كما فشلت في القرن الخامس عشر الهجري في تلك الدول التي أخذت بنظام إعطاء الأجير قدر كفايته اليومية .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وظهرت طبقة أخرى من المجتمع تسودها البطالة وهي القاعدة الشعبية الأكثر ونتيجة لذلك فإن الأموال انحسرت في شريحة اجتماعية محدودة وشاع الفقر والكساد والخمول في المجتمع فأصبحوا مستهلكين لا منتجين .

وكان الإقطاع وبالاً على السلطة حيث أوجد منافسين للسلطان بل مصارعين له من داخل إقطاعه ومن الإقطاعيين المجاورين ، فجفت الأموال من أيدي الناس ، وأجدبت الأرض ، وانحسرت المزارع ، وقل الخير . وقد استشف الشعراء الواقع الاجتماعي المرير ، فتبلورت قضاياه الشعرية ، ومنهم الشاعر الصارم مرجي بن تباه البطائحي فهو من الشعراء الذين واجهوا الحقيقة التي يدركها أمثاله من الشعراء ، غير أنهم يخشون مغبة أمرها ، فيعرضون عنها ، وكان يجب أن تقال الحقيقة ولكن برفق أما البطائحي فقد تصدى لها بعنف ؛ فهو أشار إلى أسماء مخصوصة في حديثه عن الإقطاع كما في قصيدته اليتيمة في هذا الموضوع فهو يشتكي من عجز السلاطين عن الهيمنة على التحكم في الأموال وروداً وإصداراً بالإقطاع توزيع المسؤولية ، وبالغوا في أولئك حتى كثر عددهم يقول :

لقد سن للسلطان (ثابت) سنة ... فلا يأمن السلطان زيد ولا عمرو
موافقة النظار والكشف عنهم ... ولو كان ممن لا يصح له العشر

ويقول ساخراً من كثرته :

وقد كثر الإقطاع حتى أظنه ... سيقطع كلب ((الجزيرة)) أو هر
ثلاثون ألفاً (للبشيري) وحده ... فدع عنك ممن لا يجوز له ذكر
وعشرون ألفاً أقطعت (نرجسه)؛ ... كثير لها ألف ولو أنها بعر
ولولا سفاه الرأي ، كان عليهم ... من الغنم الأعشار والصوف والشعر

ويصف ترف الإقطاعيين ومواكبهم ، وزينتهم :

وما كان (إسياكيل) يركب خلفه ... جياد البراذين (البشيرية) الحمر

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويركب (سلار) أخوة بدهره ومن خلفه فهد وقدامه صقر
ورمحان مدهونان ، يخفق فوقهما عقابان ، مكتوب على وجهه : (نصر)
وأصبحت لا أدري إذا ما رأيته أقد جن (إسياكيل) أم خرف الدهر؟

ويستوقفنا تأمل الشاعر في تبديد ثروات العراق ، ونضوب خيراته وكيف توزعت نهباً في فئة محدودة من المتسلطين :

سلام على مال (العراق) فإنه مضى حيث لا نفع لذاك ولا ضر

وهو يشير إلى تسلط العنصر التركي ، والكردي على توزيع الإقطاع ، ومنحهم الإقطاع الأدنى لخاصتهم من الكتاب ، والحجاب ، والصبيان وغيرهم :

فشطر لـ (أتراك) ومن دونها النهر وشطر لـ (أكراد) ومن شأنها الغدر
وشطر لكتاب وما فيهم صدر وشطر لحجاب وما بهم فخر
وشطر لصبيان يتامى ، ونسوة أيامى ، وما في بر أكثرهم أجر

وهو يتشاءم من هذه الحالة الاقتصادية الجديدة ويستدل وفق نظريته بالكسوف للبدر ، مخالفاً النظرة الشرعية :

وفي « هيت و « الأنبار » للناس عبرة إذا أبصروا (يمناً) كما انكشف البدر
كأن غراباً فوق أعواد سرحة لك الخير أن لاقيته وله الشر
كأن عليه حلة من إهابه وقد طليت بالقار أو مسها الجمر[1]

ومن دواعي الاضطراب تلك الحروب التي تكثر داخلياً في بلاد المسلمين ، فإن الجيوش تنقض على مزارع ومواشي الإقليم المجاور ، وكذلك فإن الحدود بين تلك الدويلات الصغيرة غير دقيق مما يحدث ثغرات غير آمنة في ديار المسلمين[2]، وكذلك فإن الإفرنجة يعملون قرصنة على سفن المسلمين ، وعلى قوافلهم[3] .

ونور الدين من أشهر أولئك الأمراء الذين يرعون المجتمع ، ويستشرفون قضاياه

(١) العماد الاصفهاني : الخريدة المجلد الثاني ، الجزء الرابع ٥٣٤ حتى ٥٣٦ .
(٢) انظر : الكامل ٤٠٨/١٠ .
(٣) انظر : الروضتين القسم الثاني ٥١٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وحوائجه ، وما يضره وما ينفعه ، ويحاول أن يرفع عنه ما يثقل كاهله فهو أبطل فريضة الأتبان عن المزارع ، وأسقط المكوس والضرائب عن دمشق .

« وبعد فإن من سنتنا العادلة ، وسير أيامنا الزاهرة ، وعوائد دولتنا القاهرة ، إشاعة المعروف ، وإغاثة الملهوف ، وإنصاف المظلوم ، وأعفاء رسم ما سنه الظالمون من جائرات الرسوم .

وما نزال نجدد للرعية رسماً من الإحسان يرتعون رياضه ، ويرتوون من حياضه ، ... ونلحق ما يعثر عليه بواقي رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس والضرائب ... »(١) .

ونور الدين زنكي إذا ضم إليه أحد الأقاليم ؛ فإنه يباشر برفع الضرائب والمكوس يقول منشور في الموصل « وقد استخرنا الله وتقربنا إليه ، وتوكلنا في جميع الأحوال عليه ، وتقدمنا بإسقاط كل مكس وضريبة في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة وأزالة كل جهة مشتبهة ومحو كل سُنة سيئة شنيعة ، ونفي كل مُظلمة فظيعة ...

وإطلاق كل ما جرت العادة بأخذه من الأموال المحظورة خوفاً من عواقبها الردئية المحذورة »(٢) . يقول عنه العماد :

أسقطت أسقاط ما وجدت من المكـ ـس بعدل والقاسط ارتدعا(٣)

وهو أيضاً أسقط عن أهل دمشق ((رسوم دار البطيخ ، وعرضه البقل الأنهار ، وصانهم من المئات شرارالضمان وحوالة الأجناد »(٤) .

ونهج صلاح الدين نهج نور الدين بإبطال الضرائب والمكوس ، وما

---

(١) الروضتين : القسم الثاني ٥٥٠ ، انظر : ص ٤٧٩ .

(٢) الروضتين : القسم الثاني ٤٨٠ .

(٣) المصدر السابق ٣٨٨ .

(٤) المصدر السابق ٣٨٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يستخرج من ديوان صناعة مصر ، وأنهى ما يستأدى من الحجاج بالحجاز من المكوس(١) .

ولما شاعت تلك الظاهرة عن صلاح الدين الأيوبي وسمع ابن جبير بإسقاط المكوس عن الحجاج في الحجاز فإنه أعقب ذلك بطلب رفع المكوس عن حجاج المغرب في طريقهم على مصر والشام ، فقد تعذب الحجاج بكثرة المراكز لاستخراج الأمتعة ، وأخذ المكوس على كل شيء فبعد أن قدم ابن جبير الإشادة برفع المكوس عن الحجاز طلب النظر في مكوس الطريق إلى الحج :

رفعت مغارم مكس الحجا ... ز بإنعامك الشامل الغامر
وأمنت أكناف تلك البلا ... د فهان السبيل على العابر
وسحب أياديك فياضة ... على وارد وعلى صادر
فكم لك بالشرق من حامدٍ ... وكم لك بالغرب من شاكر
وكم بالدعاء لكم كل عا ... م بمكة من معلن جاهر
وقد بقيت حسبة في فلا ... ن وتلك الذخيرة للذاخر
يعنف حجاج بيت الإلـ ... ـه ويسطو بهم سطوة الجابر
ويكشف عما بأيديهم ... وناهيك من موقف صاغر
وقد وقفوا بعد ما كشفوا ... كأنهم في يد الآسر
ويلزمهم حلفاً باطلاً ... وعقبى اليمين على الفاجر

فإن عمال المكوس يستنطقونهم ويجعلونهم يحلفون الإيمان ، ويذلونهم وكأنهم أسرى ، ويكشفون عن محارمهم ، ومن هنا فإنه يناشد صلاح الدين :

وإن عرضت بينهم حرمة ... فليس لها عنه من ساتر
أليس يخاف غداً عرضة ... على الملك القادر القاهر
أليس على حرم المسلمـ ... ـين بتلك المشاهد من غابر
ألا حاضر نافع زجره ... فيا ذلة الشاهد الحاضر

(١) المصدر السابق ١/١٢١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ألا نـــاصح مبلـــغ نصحـــه ... إلى الملـــك النـــاصر الظـــافر
ظلومـــاً تضمـــن مـــال الزكـــا ... ة لقـــد تعســـت صفقـــة الخاســـر
يســـر الخيانـــة في بـــاطن ... ويبـــدي النصيحـــة في الظـــاهر
فـــأوقع بـــه حادثـــاً إنـــه ... يقبـــح أحدوثـــة الذاكـــر
فمـا للمناكـــير مـــن زاجـــر ... ســـواك وبالعـــرف مـــن آمـــر(١)

فاستجاب له صلاح الدين ، ورفع المكس عن حجاج المغرب .

والشعر يرفع القضايا الاجتماعية إلى ولاة الأمر لعلهم يصلحون شأنها ، وقد استقبلوها أحياناً كثيرة في رضا ، فمن ذلك سبط بن التعاويذي يرفع للخليفة ظلم أحد القائمين على جلب الأموال من الناس فيقول :

إليـــك أمـــير المؤمنـــين قضيـــة ... أعيـــذك أن تلقـــى بهـــا الله آثمـــا
ألســـت أمـــين الله في الخلـــق واجبـــاً ... عليـــك لهـــم أن تســـترد المظالمـــا
أفي العـــدل أن تمســـى أســـامة ضاريـــا ... علـــى أخـــذ أمـــوال الرعيـــة عازمـــاً
يشـــن عليهـــم كـــل يـــوم إغـــارة ... ويســـزرهم ممـــا اصطفـــوه الكرائمـــا
وأقســـم إن أمســـى وأصبـــح جمعـــة ... ذخـــائره في النفـــس والمـــال ســـالما
بـــأنك مـــا هذبـــت بغـــداد مـــن أخـــي ... فســـاد وأســـتأصلت دهـــرك ظالمـــاً
وأنك مـا أغمدت للجـود صارمـــاً ... شهيراً ولا جردت للعـــدل صارمـــاً(٢)

ومن القضايا الاجتماعية التي عانى منها المجتمع الإسلامي في تلك العصور ، هيمنة أناس – لا أمانة لهم وليس لهم قدرة إدارية – على مقدرات الشعب ، وتلاعبهم بها ، واستئثارهم بها ، وتقريب الأقارب أو المتملقين ، الأمر الذي أدى إلى الضعف الإداري في العدل المالي ، والحزم الأمني ، والإنصاف الاجتماعي ، ومن ثم ضعف الإنتاج الوطني ، فمثل هؤلاء لا قدرة لهم على الإنتاج ، ولا تدبير عندهم في تصريف الأمور ، ولا منهجية في توجيه الحياة العملية المنتجة .

(١) أبو شامة : الروضتين ٤/٢ .
(٢) الديوان ٣٩٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وابن عُنين الشاعر الذي ارتحل عبر البلاد الإسلامية ، واصطدم بالولاة ، وتعرض في تجارته ، للمكوس والضرائب ، والتسلط والغبن ، تعرض لمثل هذه القضايا في شعره كثيراً ومما قال في الولاة :

أرى الناس لا يرقى إلى المجد منهم ... سوى ناقص أو ناقض في الأضالع(١)

وقوله :

قد أصبح الرزق ما له سبب ... في الناس إلا الغاء والكذب(٢)

وقال في صاحب الخزانة يرفع أمره إلى الملك المعظم بن العادل :

يامِلك الدنيا الذي أعظم الله ... ه بتأييد عزة سلطانه

أنا أشكو إليك جور رقيع ... لقبوه الضعفان تاج الخزانة

عدم العقل والمروءة والإحسـ ... ـان والدين والحياء والأمانة

وحوى اللؤم والرقاعة والخسـ ... ـة والجهل والخنا والخيانة

زعموا أنه حفيظ على المسا ... ل أمين قلت : أسكتي يا فلانة(٣)

وقد سمع بعزل المؤيد أحد الولاة الذي أخذ يذم الزمان لكنه لم يتدبر حاله وحال غيره زمن ولايته :

تشكى المؤيد من صرفه ... وذم الزمان ، وأبدى السّفه

فقلت له لا تذم الزمان ... فتظلم أيامه المنصفه

ولا تغضين إذ ما صرفت ... فلا عدل فيك ولا معرفه(٤)

إذن فهو يشنيه بالجور وعدم الإلمام بأصول الإدارة والنزاهة معاً ، ويشير صراحة إلى الإقطاع من الزكاة ، فقال في ابن السائق وكان على دار الزكاة ، وقد بنى داراً :

---

(١) الديوان ٣٩٨ .

(٢) المصدر السابق ٢١٠ .

(٣) ابن عنين : الديوان ٢٢٠ .

(٤) المصدر السابق ٢٢٩ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وسائق الصبيان أضحى ابنه ... يسرق من دار الزكاة الذهب
لا تسألوه ، واسألوا داره ... فإنها تخبر عما نهب(١)

وأكثر الشعراء سخرية وتهكماً بالألقاب التي شاعت في ذلك العصر الشاعر ابن عُنين ، فيقول في بدر الدين مودود الشحنه ، وبدر الدين حسن ، وبدر الدين قاضي اليمن :

بدران منكسفان من ضوء السُها ... لا ذاك مودود ولا هذا حسن
اثنان قد تركتهما عرساهما ... ذا أيلا سامي القرون وذا رسن
خانا فلو حكما على عين امرئ ... سرقا بمكرهما من الجفن الوسن
فسألت هل لكما قرين ثالث ... قالا نعم عرج على قاضي اليمن(٢)

ويذكر أن الدين استجار با لله من أولئك المتسمين به والمضافين إليه يقول :

صعد الدين يستغيث إلى الله ... ه وقال الأنام قد ظلموني
يتسمون بي وحقك لا أعـ ... ـرف شخصاً منهم ولا يعرفوني
جعلوا ابن المصري تاجي ولو كا ... ن شراكاً لنعلي لم ينصفوني
ثم قالوا البكري صدري كم قا ... لوا وقالوا ووجهي الزنكلوني

ومما قاله في الشهاب فتيان الشاغوري :

يا من ظلماً بالشهاب وإن ... أضحى بظلمته قد أظلم الشهبا
لا تخدعنك من مودود دولته ... وإن تعلقت من أسبابها سببا(٣)

ومما قيل في التسمية التي تخالف الواقع في نظر الشاعر ما نظمه ابن عُنين في الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب :

إن سلطاننا الذي نرتجيه ... واسع المال ضيق الإنفاق

---

(١) المصدر السابق ٢٣٧ .
(٢) ابن عنين : الديوان ٢١٠ .
(٣)المصدر السابق ٢١٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هو سيـــف كما يقـــال ولكـــن قاطـــــع للرســـــوم والأرزاق(١)

ومن الغريب اجتماع ثلاثة من قضاة القضـاة لقـب كـل واحـد منهـم شمس الدين في زمن واحد فقال بعض الظرفاء :

أهـــل دمشـــق اســـترابوا مـــن كـــثرة الحكـــام
إذ هـــم جميعـــاً شمـــوس وحـــالهم في ظـــلام

وقال أيضاً :

بدمشـــق آيـــة قـــد ظهـــرت للنـــاس عامـــا
كلمـــا ازدادوا شموســـاً زادت الدنيـــا ظلامـــا(٢)

وقد أكثرنا من إيراد شكوى الولاة ولكن الشعر سجل الوجه الآخر لهم ، فالقضاة يعانون من خدمة الولاة ، ويتألمون من أحاديث الناس وذمهم ، ويرغبون البعد عن الخدمة الرسمية يصور ذلك كمـال الديـن بـن الشريشي قـاضي القضـاة (٦٥٣-٧١٠هـ) فقال مخاطباً الوالي :

وأهـدي إليكـم مـا حيـت مدائحـاً يغني لهـا الحـادي ويصبـو بهـا السـالي
وقـد بقيـت لي بعـد ذلـك حاجـة لهـا أنـت مسـؤول فـلا تلـغ تسـآلي
أرحـني مـن واو الوكالـة عاطفـاً علـي بإحسـان وإفضـال
وصن ماء وجهي عن مشاققة الورى فهـذا علـى أرض ، وهـذا علـي مـال
ولا تتـأول سـؤالي تركهـا فوا الله ما لي نحوهـا وجـه إقبـال
ورزقـي يـأتيني وإنـي لقـانع لراحـة قلـبي مـن زمـاني بـإقلال
وحـالي حـال بافتقـار يصونـني ولبسـي أسمـالي مـع العـز أسمـا لي
وتجبر وقـتي كسـرة الخبز وحدهـا وأرضـى بـالي الثوب مـع راحـة البـال
فهذه إليكم قصـتي قـد رفعتهـا لتغنموا أجـري ورأيكـم العالـي

فقطع الأبيات كلها من الورقة وأبقى البيت الأخير وكتب تحته رأينا العالي

(١) المصدر السابق ٢٣٩ .

(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات ٣٠٩/٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أن تعود إلى شغلك وعملك(١) .

وهم يأخذون المكوس على الحبوب حتى وإن قلت ، فهذا ابن قلاقس يتطلق ثلاثة حفوص برّ وصلت له من مصر .

حـــزت الكمـــال فـــردّ عنـــ ـــــك الله مقتـــدرا عيونـــه
مملـــوك خدمتـــك الـــذي أبكـــاره أهـــدى وعونـــه
قـــد جـــاء حفصـــان مـــن مصـــر وآخـــر للمؤنـــة
فأمـــنن بأمـــرك لا عـــدمـــ ـــنا كافـــه أبـــداً ونونـــه(٢)

والحفص هذ قليل جداً فهو زنبيل من جلود فعلى مثل هذا يحتاج أن يرفع الشاعر للوالي لعله يطلقها له من يد الجباة ؟!

وابن قلاقس يتحدث عن ولاة المدن في مصر وما يصدر منهم من ظلم وما يتزونه من مال ، وما يؤثرون به خاصتهم من مناصب ، يقول :

وخصصـــت منـــه براتـــب فاعتاقـــه عـــني بهـــائم خصصـــو بمراتـــب
مـــن عـــامل يغتالـــه بعوامـــل أو كـــاتب يجتـــازه بكتـــائب
والمـــال ينـــثر في حجـــور عبيدهـــم بيـــدي نظـــام الديـــن نـــثر الخـــاصب
يـــادهر أنـــت سمحـــت منـــه بنـــاظر أعمـــى فـــلا تبخـــل عليـــه بحـــاجب
أيتـــم أمـــرك يـــا أشـــل وهـــذه الـــ ـــأ مثـــال لم تنطـــق بشـــيء كـــاذب
إن الصناعـــة يـــا أشـــل مهنـــد مـــاضي الغـــرار محلـــه للضـــارب
شـــلت يمينـــك عـــن صيانـــة مالهـــا قصـــداً وصحـــت مـــن بنيـــك لنـــاهب
وأراك قـــد ملكـــت كفـــك عـــين مـــا جحدتـــه عينـــك بـــالعمى للطـــالب
لا يـــأمرنّي منـــك وجـــه مســـلم صمتـــاً وقـــد أخفيـــت قلـــب محـــارب
لو قمت في الديوان أنظـــم هجـــوه ديـــوان شـــعر لم أقـــم بـــالواجب
دست بياذقـــه سطـــت بشياهـــه وتحكمـــت فيـــه بحكـــم غالـــب

(١) المصدر السابق ٣٣٨/٧ .

(٢) الديوان ٣٤٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يزهى أبو البدر اللعين كأنه لم يدر أن البدر نجل غياهب
ويرى أبو الفرج الخسيس مجازفاً يُقضى له بمناصب ومناسب(١)

وتحل بالمدن النازلات من الغارت التي تجتاح المدن من القبائل العربية كما حدث للبصرة وحدث للمدينة المنورة حتى بنى الوزير جمال الدين سوراً على المدينة « ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعاً أنه بنى سوراً على مدينة النبي عليه السلام ، فإنها كانت بغير سور ينهبها الأعراب »(٢) .

ومن الكوارث التي تفتك بالمسلمين الزلازل وكوارث الحروب إذا توالت كفتن حروب السلاجقة « ففي عام ٥١١هـ حدث زلزلت ببغداد ومات كثير وحارب دبيس بن صدقة الخلافة ثم غلت الأسعار ثم فقدت أصلاً ، ومات الناس جوعاً ، وأكلوا الكلاب والسنانير »(٣) .

وحدث زلزال ضربت المدن الشامية ، حلب ودمشق ، وحماة وحمص وغير ذلك في عام ٥٥٤هـ ، وقد كلفت الدولة كثيراً إذ بنى نور الدين الأسوار والقلاع(٤)، ويقول ابن تغري بردي عن زلزال الشام : « هلك خلق كثير ، حتى حُكي أن معلماً كان بحماة في كُتاب ، فقام من المكتب يقضي حاجته ثم عاد وقد وقع المكتب على الصبيان فماتوا بأسرهم ، والعجيب بأنه لم يأت أحد يسأل عن أحد منهم بل جميع آبائهم ماتوا أيضاً تحت الهدوم في دورهم ، ووقعت أبراج قلعة حلب ، وهلك جميع من كان في شيزر إلا أمرأة واحدة وخادم »(٥) .

وفي عام ٥٩٧هـ في أول ولاية العادل بن أيوب على مصر ، حدث هبوط في

---

(١) الديوان ٢١٩ .

(٢) انظر : الروضتين ، القسم الثاني ٣٥١ .

(٣) انظر : النجوم الزاهرة ٥/٢١٣ .

(٤) انظر : الروضتين ١/١٣٣ .

(٥) النجوم الزاهرة ٥/٣٢٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ماء النيل ، واشتد الغلاء ، وتكاثر الوباء ، وخرج الناس من مصر . نقل ابن تغري بردي عن أبي المظفر قوله : « كان الرجل يذبح ولده الصغير وتساعد أمه على طبخه وشيه ، وأحرق السلطان جماعة فعلوا ذلك ولم ينتهوا ، وكان الرجل يدعو صديقه وأحب الناس إليه إلى منزله ليضيفه ، فيذبحه ويأكله ، وفعلوا بالأطباء كذلك ، فكانوا يدعونهم ليبصروا المرضى فيقتلونهم ويأكلونهم ، وفقدت الميتات والجيف ، من كثرة ما أكلوها ، وكانوا يختطفون الصبيان من الشوارع فيأكلونهم ، وكفن السلطان في مدة يسيرة مائتي ألف وعشرين ألفاً ، وامتلأت طرقات المغرب والمشرق والحجاز والشام برمم الناس ، وصلى إمام جامع الاسكندرية في يوم على سبعمائة جنازة » ونقل عن العماد « اشتد الغلاء ، وامتد البلاء ، وتحققت المجاعة ، وتفرقت الجماعة ، وهلك القوي فكيف الضعيف، ونحف السمين فكيف العجين ، وخرج الناس حذر الموت من الديار»(١) .

ثم جاءت زلزلة هدمت بنيان مصر – فمات تحت الهدم خلق كثير وامتدت إلى الشام »(٢) .

ومن مظاهر العصر أن بعض العلماء اتخذ مكاناً بارزاً في المجتمع ، فأخذ الحكام يدفعون له الأموال كي يوزعها على أبناء المجتمع ومنهم الحافظ السلفي بالاسكندرية ، فقد جعل لابن قلاقس شيئاً جارياً لكنه انقص منه مما جعل الشاعر يعتب عليه يقول :

فيا حافظ الدين من له صفات تجلى بها واشتهر
لئن كنت عندك ذا رفعة فما للورى غير ما قد ظهر

(١) النجوم الزاهرة ٦/١٧٣ .

(٢) المصدر السابق ٦/١٧٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بحـــط الفتى نقصـــه درهمـــاً وكيف الذي نقـــص اثنـــى عشـــر(١)

وله قريب من هذا(٢). ومن أشهر أولئك جمال الدين وزير آل زنكي والشيخ عمر الملا بالموصل ، فإن الأقوات تعذرت في بعض السنين بهـا وغلـت الأسـعار ، كان بالموصل رجل من الصالحين يقال له الشيخ عمر الملا ، فاحضره جمال الديـن وسلم إليه مالاً ، وقال له : تخرج هـذا علـى مستحقه ، فلمـا فـرغ أرسـل إلىّ لا أنفذه غيره ، فلم يمض إلا أيام يسيرة حتى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين »(٣) .

وطلب المعاش أمر شاع وذاع حتى العلماء والقضـاة والشـعراء والوجهـاء لا يترددون في طلبه ، يقول الشاعر على لسان أحد الفقهاء :

فصـــن لي معاشـــي بـــإجراء رسمـــي وصـــن مـــاء وجهـــي ذل الطّـــلاب
ومـــن بتوفـــيره منعمـــا تَحُـــز بفعالك حســـن الثـــواب(٤)

ومع كثرة الحروب الدائرة بين المسلمين والنصارى إلا أن الانتقال بين البلدان متواصل ، فكثير من المسلمين يزورون المدن التي يحتلها النصارى ، كمثل أنطاكيـة والرها ، وبيت المقـدس ، وقـد ظهـر أثـر ذلـك في ثغريـات القيسـراني ، ظهـرت حكايات كثيرة في كتاب الاعتبار لأسامة بـن منقـذ ، وكتـب عنـه ابـن جبـير في رحلته، فإن القوافل التجارية تجوب البلاد المصريـة ، والشـامية ولا سـيما في زمـن السلم والمعـاهدات ، وهنـاك ضرائـب متعـارف عليهـا تدفـع لكـل مـن المسـلمين أو النصارى(٥) . وملخص القول في الحالة الاقتصادية :

إن موارد الاقتصاد من الوظائف الحكومية وهي قليلة جداً ولا تكون إلا عـن طريق السلطان أو الوزير أو الوالي ، وهي تكون في ديوان الجند ، وديوان الإنشـاء

---

(١) الديوان ٢١٤ .

(٢) المصدر السابق ١٨١ .

(٣) الروضتين : القسم الثاني ٣٥٢ .

(٤) الديوان ١٣٠ ، تحقيق د. علي جواد الطاهر .

(٥) انظر : رحلة ابن جبير ٢٦٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والحسبة . وهي محفوفة بالقرابة والوجاهة ، والولاء . وقد خضع لظلم كثير من الولاة كما هو واضح من الشعر . والمورد الآخر الزراعة ، وهو قُيد بالإقطاع ، فسخر الناس بأجر زهيد ، وتكاثرت المكوس عليه حتى على البقوليات ، والتبن والبطيخ ، وهُجرت القرى نظراً لضعف مواردها الزراعية .

والتجارة تنتابها كثير من الكوارث على الطرقات مثل قطع الطريق أو فتك الأعداء المتحاربين ، أما أصحاب الحرف والمهن فهم يكسبون ما يقوم بعيشهم وحسب في أوقات الأمن . ولقد حدث رخاء في عهد السلاطين العادلين مثل عماد الدين ، ونور الدين ، وصلاح الدين وكثيراً ما كانت تجتاح البلاد كوارث طبيعية مثل الزلازل والأمراض والمجاعات .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الثالث

الفكر الثقـــــافي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الأدب عامة والشعر خاصة اتجه اتجاهاً فكرياً حتمياً كمياً يعبر عن حالة الأمة تجاه قضيتهم الشاملة ، وهي الحروب ضد العدوان الشامل من الإفرنجة الذين قتلوا المسلمين ، واستباحوا المحرمات ، وأخرجوهم من أرضهم ، واحتلوا أحد مقدساتهم وهم فوق ذلك عارضوا الدين الإسلامي ، فمزقوا القرآن ، وخربوا المساجد كل ذلك جعل الأمة الإسلامية تتداعى ، ويخصنا منها القول الأدبي الذي يعبر عن الفرد عن الجماعة من خطابه وكتابه ، وشعر . وهؤلاء تناسوا فرديتهم وذواتهم ، وأخذوا يلهجون باسم الجماعة ، فظهر الأدب المسمى بالموضوعي وهو في الواقع أدب جماعي يمثل فكر الجماعة وأهدافها ، وغاياتها ومنها قصيدة البيوردي السالفة وقصيدة (أحل الكفر بالإسام عيباً) فالأولى شاعت في بداية الأمر ، ولم يعرف قائلها ثم نسبت إلى الأبيوردي في زيادة ديوانه(١) ، والثانية ما زالت مجهولة القائل ، وهذه الظاهرة تنبئ عن ذوبان الفردية في الجماعة .

والأمة الإسلامية أخذت تتداعى لمواجهة العدو فانبرى الخطباء والعلماء كالهروي ، والشهرزوري ومن سبط بن الجوزي ، وابن الزكي ، وغيرهم في أغلب المدن الإسلامية ، وكذلك ساهم الكتاب ، ومن أشهرهم القاضي الفاضل الذي يرى صلاح الدين أنه انتصر بقلمه وأسرع القراء أشهرهم الأبيوردي ، وابن الخياط ، والقيسراني ، وابن منير الطرابلسي ، وأسامة بن منقذ وهذا التداعي والنداء الحربي بل الصراخ والعويل أثمر عن فكر تبلور في تلك الفترة هي فكرة تبلو في تلك الفترة هي فكرة أدب الجهاد ، وإن لم يُعلن ذلك لكننا نستنبطه من توصيف الأدب ومن أوائل ذلك قصيدة لابن الخياط المتوفى ٥١٧هـ في أمير الجيوش لاتابكة دمشق فإن هذا القائد انتصر انتصار ضعيفاً غير أن الشاعر اهتبل الحادثة ليفيض من خلالها بما يعتمل في صدره وصدور الأمة الإسلامية نحو الجهاد.

استهل قصيدته بالمدح الحربي الذي ينبئ بخطورة الموقف ، وفيه تمني

(١) الديوان ١٥٦/٢ ـ تحقيق عمر الأسعد - الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ مؤسسة الرسالة ، بيروت .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يستشرف المستقبل فكأنه يشير إلى عدم القناعة بهذا الانتصار :

فدتـك الصواهـل قبـا وجـرداً وشـم القبـائل شـيبا ومـردا

وذلت لأسيافك البيـض قضبـا ودانت لأرحـامك السمـر ملـدا

ثم يخرج عن النهج المتعارف عليه في مخاطبة الممدوح بسرد الأعمال إلى إهداء المواعظ والنصائح ، وكأنه لا يخاطب فرداً مخصوصاً ، إنما مخاطبته هي خطاب لجميع المسلمين ولاسيما من بيده الحل والعقدي :-

وإني لمهـد إليـك القريـض يطوى على النصح والنصح يهدى

والنصح يتمثل بأخذ الحذر والحيطة من سيول الجيوش المدمرة المقبلة التي ستأخذ البلاد كما أخذت القدس ومدن الساحل :

أنومـا علـى مثـل هـذ الصفـاة وهـزلا وقـد أصبـح الأمـر جـداً

وكيف تنامـون عـن أعيـن وترتـم فـاسهرتموهـن حقـداً

بل كان في الشطر الثاني من البيت الثاني يخرج عن طوره وكأنه لم يخاطب ممدوحاً بتوجيه الدعاء له بالقطيعة في قوله « وترتم .. » .

وهو يشير في بعض أبيات القصيدة إلى الدمار والتخريب والفتك الذي ألحقه الصليبيون بالمسلمين :

بنـو الشـرك لا يذكـرون الفسـاد ولا يعرفـون مـع الجـور قصـداً

ولا يدركـون عـن القتـل نفسـاً ولا يـتركون مـن الفتـك جهـداً

وكـم مـن فتـاة بهـم أصبحـت تـدق مـن الخـوف نحـراً وخـدا

وأم عواتـق مـا عرفـن حـراً ولا ذقـن في الليـل بـرداً

تكـاد عليهـن مـن خفيـة تـذوب وتتلف حـزناً ووجـدا

وهو يصرخ بأعلى صوته نداء للمسلمين عامة بأن يحاموا عن دينهم ومحرماتهم :

فحـاموا عـن دينكـم والحريـم محامـاة مـن لا يـرى المـوت فقـدا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وسـدوا الثغور بطعـن النحـور فمن حـق ثغر بكـم أن يسـدّا(١)

بعد ذلك تكاثر شعر الجهاد حتى أصبح غرضاً من أشهر الأغراض فاق نظائره من قصائد المدح ، بالفيض الشعوري ، وشرف المضمون ، وتكاثر الموضوعات وقوة التراكيب ومعالجة الواقع الحربي ، بل رصد الحياة الحربية بجوانبها المعتادة .

وعرفت المدارس بالوزير نظام الملك الذي أسس المدارس النظامية في بغداد ، وبعض العواصم الإسلامية ، وأول مدرسة قامت في الشام هي مدرسة للأحناف بنيت في دمشق عام ٤٩١هـ ،وأخرى في عام ٥١٤هـ للشافعية ، وجاء بدر الدين وأسس عدداً من المدارس ، وفي مصر كان الجامع الأزهر ثم دار الحكمة للفاطميين، لكن المدارس لم تبن إلا في عهد صلاح الدين حيث أسس عدداً من المدارس السنية ما عدا مدرسة الإسكندرية التي أسست عام ٥٤٦هـ ، وتتابع الحكام من الأيوبيين والماليك على بناء المدارس(٢) .

وبناء المدارس من أضخم المباني التي في المدن ، ويعتنون بهندستها وروعة البناء وتقوم الدول بالبناء .

ومن أسباب بقاء تلك المدارس النظام المالي الذي صحبها فإن كل مدرسة يُوقف عليها أوقافاً لا تتأثر بالتقلبات السياسية . مع أن السلاطين يمدونها بالماء في أكثر الأحيان وينصبون قيماً لكل مدرسة . والمدرسة تحتوي على أماكن للتدريس، وأروقة لسكن الطلاب ومشفى (مارستان) ومطعم ، والأطباء يقومون بإجراء التجارب ويعالجون الطلاب ، ويشرفون على التغذية ويعقدون الندوات .

والمدرسة فيها مرحلتان : الأولى القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن والحساب ،

---

(١) الديوان ١٨٢ .

(٢) الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية في مصر والشام : لأحمد بدوي ٣٠ وما بعدها .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأما الأخرى فهي حلقة العلماء المختصين الذين يعطون الإجازة ، ولكل عالم معيد يختار من أنبه الطلاب .

وبتوافد العلماء على المدارس ، يدرسون فيها ويدرسون ثم ينتقلون إلى أخرى(١).

وكان لوجود العالم المحدث الحافظ السلفي في الأسكندرية دور في افتتاح المدارس فقد أمر الصالح بن زريك ببناء مدرسة يقول عنها ابن قلاقس :

ولثغر الإسكندرية منه ... في العلى لا لغيرة آثار
شاد للعمل فيه مدرسا للثـ ... ـغر منها جنح الدجى أنوار
وأرى الحافظ الإمام المرجّى ... لو ذعيا من دونه الأخبارُ
فحباه بها يدرس فيها ... لا افتخار إلا كذا الافتخار(٢)

والمدرسة الظاهرية التي تم بناؤها في عام ٦٢٢هـ من أشهر المدارس بمصر ، وقد شهد افتتاحها عدد من الشعراء ومنهم أبو الحسن الجزار :

ألا هكذا يبني المدارس من بنى ... ومن يتغالى في الثواب وفي الثنا
لقد ظهرت للظاهر الملك همة ... بها اليوم الدارين قد بلغ المنى

وقال عنها ابن السراج معرضاً بالمدارس الأخرى :

فشيدها للعمل مدرسة غدا ... عراق إليها شيق وشآم
ولا تذكرن يوماً نظامية لها ... فليس يضاهي ذا النظام نظام(٣)

إذن فإن فلسفة الشعراء في تلك المدارس أنها تأوي العلماء ، وتنشر العلم في الإقليم كاملاً . ويفاخر سائر الأقطار . فالمدارس مفخرة العالم الإسلامي وهي أشبه بالجامعات المعاصرة .

أما وظيفة المسجد فإنها استمرت على حالتها ، فأكثر الأعمدة في المساجد

(١) المرجع السابق ، وتاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم ٤٢/٤ .
(٢) الديوان ٣١٣، وله قصيدة أخرى ٢٩٨ .
(٣) أحمد بدوي : الحياة العقلية ٤٦،٤٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يتكئ عليها عالم من العلماء يلقي دروسه على حلقته العلمية .

إن الفكر الموجه توجيهاً ربانياً يدعو الإنسان إلى العمل . فالله استعمرنا في الأرض ، وجعل عمل الإنسان عبادة ، وعبادة الله عمل من الأعمال ، والحياة تقوم على العلم بالفطرة ، والإسلام قام بالعمل ، فالصحابة رضوان الله عليهم كانوا يعملون ، ويتعلمون ، ويعبدون ويجاهدون بتوازن . وهم يتعلمون للعمل ، وهكذ كان شأن المسلمين ، حتى جاءت العصور التالية ، فأخذ العرب يتقاعسون عن العمل للثراء المتوارث عن آبائهم المجاهدين الفاتحين ، ثم تكاثرت الشعوب الأخرى ، وانتشر التعليم وباسم التعليم تعطل الناس عن العمل فكأنهم انشغلوا به وهذا منحنى خطير في حياة الأمة ، يؤدي إلى تعطيل العقلاء المدبرين ، والأمناء المخلصين من العلماء وشباب الإسلام الذين أشرأبوا العلم والإيمان معاً ؛ هؤلاء أصبحوا عالة على الأمة الإسلامية فهم يتقاضون المال من الدولة بذلة ، وهم عالة على المجتمع يصرف عليهم ، وهم عطلوا روح الجهاد ، فقل منهم من يستجيب لنداء الجهاد . أضف إلى ذلك روح الاتكالية التي نشرتها الصوفية . كل ذلك لم يكن غائباً عن فكر المفكرين والعلماء المتدبرين ، بل كان هاجساً لهم يتحدثون عنه في شعرهم ، فهذه رائية أبي شامة تفصح لنا عن فكر الشعر حول تلك القضايا التي عمت أرجاء المسلمين ، فهو يبادر إلى الدعوة إلى اتخاذ حرفة لطالب العلم ، ويدعوه إلى عدم الاتكال على الأوقاف ففيها الذل والعسر معاً والبعد عن العمل يؤدي بطالب العلم إلى خدمة الآخرين مستجيباً لما يرغبون :

اتخذ حرفة تعيش بها ... ياطالب العلم أن للعمل ذكراً

لا تهنه بالاتكال على الوقـ ... ـف فيمضي الزمان ذلاً وعسراً

إنما تحصل الوقوف لشريـ ... ـر ونذل من العلوم مبراً

أو لمن يلزم الأكابر لا يبـ ... ـرح في خدمة لهم ومدح وإطرا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

طالباً جاههم مجيباً إلى كل أمور هم عكوفاً مصراً(١)

وهو يشير إلى فلسفة فكرية مشهورة وهي هيمنة أصحاب الجاه على أرباب الفكر الذين يوالونهم . هذا يكون للعلماء ، فكيف بالضعفاء من طلاب العلم الذين يذلون أنفسهم عند أهل الإقطاع أو ينتظرون المدد من الأوقاف .

فترى قاضي القضاة ومن يذ كر درساً يرعاه سراً وجهراً
قاصداً قربه فيصغي إليه فاعلاً ما يريد نفعاً وضرا
والضعيف المشغول بالعلم يلقى من ولاة الوقوف هجراً وهجرا(٢)

والعلماء يرون الخلل في المدرس الذي قد بدأ من القيم ، وانتقاء الطلاب ليس للذكاء أو الرغبة ، إنما للولاء والوجاهة ، وهم بهذا يخدعون ولاة الأمر ، وأصحاب الوقف :

إنما كانت المدارس عونا لأولى العلم حسب في الناس طرا
درست في زماننا إذ تولا ها أولوا الجهل والحماقة قهرا
قربوا شبههم وأقصوا وآذوا حامل العمل أسكنوه قبرا
وتراهم لا يحزنون لهذا أنهم في الضلال والغي سكرا
يالله منصباً تداوله من ليس أهلاً له دهاء ومكرا
جعلوا موضع المفقه والمر شد من لا يدري وفي الشر يدري
وأولو الأمر المالكون يظنو ن صواباً فيهم وخيراً وطهرا
فإذا ما رأوهم هكذا كا ن هم فعلهم على الظلم إعرا
ويظنون كل صاحب علم هكذا فعله فيجعل جسرا(٣)

فهو يتمنى على أهل العلم أن يكون سلوكهم أفضل السلوك ويحملوا الأمانة على عاتقهم من جراء وظائفهم .

---

(١) الروضتين : الذيل ٢٢٢ .
(٢) المصدر السابق ٢٢٣ .
(٣) المصدر السابق ٢٢٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وما وقعت فيه الأمة الإسلامية إبان الحروب الصليبية يدعو إلى التأمل فإن المدن تحاصر من قبل الإفرنجة والشاب في المدينة يطلبون العلم ، أو ينتظرون الأوقاف ، أو ينعزلون في أربطتهم فإذا داهمهم العدو فإنهم يلجأون إلى المساجد، فقد قتل في المساجد خلق عظيم وقتل في بيت المقدس ما يقرب من سبعين ألفاً من طلبة العلم . ولو قام هؤلاء بالجهاد أثناء الحصار لبنوا الأسورة القوية ولكونوا جيشاً يدافع عن المدينة من الداخل ، ولعملوا حرباً من فوق الدور والمعابر وغيرها أو لربما انتقلوا إلى مدن أخرى ويتطوعون للجهاد أو غير ذلك .

إنها حالة مرضية لا شك فيها لكنها مشتركة بين الحكام ، وبين الشعب ، وبعض الاتجاهات الفكرية ، التي كانت تدعو إلى الجهاد بالقلم وكفى . لكن فكر أبي شامة يمثل الفكر السليم الذي يدعوا الشباب إلى العمل وينهى عن الفكر فهو أوساخ الأموال ، وهو لليتامى ، والأرامل الذين لاقدرة لهم . بل يدعو إلى أن يترك أرباب الفكر العجز ، ويقوموا بالعمل ، وهو يرى أن هذا الفكر هو فكر كثير من العلماء :

فعليك المعاش ياطالب العلم ... ولا تترك المعيشة كبراً
واقتنع بالذي تسهل واشكر ... تجد الرزق فاض فيضاً ودرا
واترك الوقف إذ جرت صورة والأمـ ... ـر كذا بينهم فبئس المجرا
اجتنب فعلهم توكل على الحـ ... ـي الذي لا يموت وأسأله سترا
كن أبياً لما يشين أما تأ ... نف من أن يكون عيشك يزري
إذ يقال الأوقاف أوساخ الأموا ... ل كوقف الزمني ووقف الأضرا
والمساكين واليتامى فكل ... صدقات منهما اللبيب تبرا
لا يرى أنه يشارك ذي الأصنـ ... ـاف فيها يعيش عيشاً مرا
فجفاها مع أنه مستحق الـ ... ـوقف ما يستغل منه ويكرى
فدع العجز يا أبي إذا أنـ ... ـصفت في الفكر لم تجد لك عذرا
لا تزاحم ولا تكاثر بما تأخذ ... منه فقد عرفت الأمرا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وإن احتجت خذ كفافاً بكره ... وبعزم أن لا يدوم العمرا
كان من قبلنا أئمة هذا الد ... ين والوقف بعد ذاك استقرا

بل يرى أن اعتماد طلاب العلم على الأوقاف وتكاسلهم ذلك وصمة عار .

وهو صادق في هذه الرؤية الفكرية .

يالها وصمة على أهل ذا الـ ... ـعصر يكفيك ما رأيناه خبرا(١)

أما التصوف فإن شعراءه حملوا فكره ، وتجاوزوا لذلك إلى استلهام فلسفته كابن الفارض ، والبوصيري ، وأشهر من نظم في فلسفة التصوف ابن عربي ، والشهرزوري .

أما الشهرزوري فيرمز للدنيا بالليل وكأن الدنيا كلها ظلام ، وأن النور يأتي عن طريق الاستراحة الصوفية ، وهو يتأذى من صحبة الإنسان ويرمز بالبوق في فلسفة نور الأنوار التي يعشقها :

وإني في الظلام رأيت ضوء ... كأن الليل بدّل بالنهار
إلى كم أجعل الحيات صحبي ... وإلى كم أجعل التنين جاري
وأرضى بالإقامة في فلاة ... وفي ظلم العناصر أين داري
ويبدو لي من الزوراء برق ... يذكرني بها قرب المزاري
إذا أبصرت النور أفنى ... فما أدري يميني من يساري(٢)

وفلسفة التصوف وفكرة منتشرة عند شعرائه حتى أن هناك كتباً ألفت في مصطلحات التصوف ، غير أن هناك شريحة من العلماء والأدباء عارضوا فكر هذا الاتجاه وعابوه ، ومنهم أبو حيان النحوي نزيل مصر المتوفى ٧٤٥هـ ، فهو يسخر من ألبستهم :

أيا كاسيا من جيد الصوف نفسه ... ويا عارياً من كل فضل ومن كيس
أتزهى بصوف وهو بالأمس مصبح ... على نعجة واليوم أمسى على نفسي

(١) المصدر السابق ٢٢٤ .

(٢) الشهرزوري ، سامي الكيال ١٠٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويعرض لفكرهم :

فـــارقوا يدعـــون أمـــراً عظيمـــاً ... لم يكـــــن للخليـــــل ولا الكليـــــم
بينمـــا المـــرء منهـــم في اشـــتغال ... أبصـــر اللـــوح مـــا بـــه مـــن رقـــوم
فجنـــى العلـــم منـــه غضـــا طريّـــاً ... ودرى مـــا يكـــون قبـــل الهجـــوم
إن عقلـــي لفـــي عقـــال إذا مـــا ... صدقـــــت بافتـــراء عظيـــــم(١)

وهناك كثير من الأشعار التي تدافع عن مذهب من المذاهب كما هو في شعر كثير الحافظ السلفي دفاعاً عن الأشاعرة(٢) .

أما الفكر الفلسفي فإن معارضته استهلت بالسلاجقة ، الذين مالوا إلى دراسة الشريعة من مصادرها التوثيقية المتمثلة في القرآن الكريم ، وحديث الرسول ﷺ وحاربوا الاعتزال وكل ما يمت إلى علم الكلام ، وصار الأتابكة على هذا السنن وجاء صلاح الدين ونهج هذا النهج ، بل قتل الفيلسوف المتصوف الشهروردي بفتوى من العلماء وتبعه بعض أبنائه ، وأبناء أخيه العادل ، وقد شاع كره المذهب الفلسفي والكلامي عند كثير من العلماء ، وأدلى الشعر بدلوه في هذا المضمار . يقول أبو حيان النحوي :

وأعـدى الفيلسـوف وهـو كـذوب ... إن عـــود الجســـوم صـــار محـــالاً
وســـواء إعـــادة وابتـــداء ... عنـــد ربـــي والعـــود أهـــون حـــالاً
كـــل مـــا شـــاءه إلـــه البرايـــا ... كونـــه فهـــو كـــائن لا محـــالا
واختـلاف الأنـام في النفـس جهـل ... لا يزيـــد البحـــاث إلا ضـــلالا
هـــي خلـــق وليـــس بعلـــم خلـــق ... كنهـهـــا أنهـــا عجيـــب فعـــالا
ودعـــى علمـــه بهـــا فلســـفي ... بكـــلام قـــد أوهـــم الجهـــالا
وادّعـــى أنهـــا قديمـــة ذات ... قدم الرب جـــل ربـــي جـــلالا(٣)

---

(١) الديوان ٨٢ .

(٢) انظر : التاريخ السياسي د. عبدالمجيد بدوي ٢٣٣ .

(٣) الديوان ٨٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وتعالت أصوات الشعراء في تأييد المذهب السني بعد إزاله الخلافة الفاطمية عام ٥٦٧هـ ، على يد القائد صلاح الدين الأيوبي يقول الشاعر :

ألستم مزيلي دولة الكفر من بين ... عبيد بمصر ، إن هذا هو الفضل
زنادقة ، شيعة ، باطنية ... مجوس ، وما الصالحين هم أصل
يسرون كفراً ، ويظهرون تشيعاً ... ليستروا شيئاً ، وعمهم الجهل(١)

وقال العماد في وفاة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين :

توفي العاضد الدّعي فما ... يفتح ذو بدعة بمصر فما
وانطفأت جمرة الغواة وقد ... باح من الشرك كل ما اضطر ما
وبات داعي التوحيد منتصراً ... من دُعاة الإشراك منتقما
واستبشرت أوجه الهدى فرحا ... فليقرع الكفر سنه ندماً(٢)

ويقول الشاعر شمس المعالي أبو الفضائل حاجب ابن هبيرة الوزير المشهور :

ليهنك مولاي فتحاً تتابعت ... إليك به حرص الركائب توجف
أخذت به مصر وقد حال دونها ... من الشرك ناسي في لهى الحق تقذف
وقد دنست منها المنابر عصبة ... يعاف التقى والدين منهم ويأنف
فطهر من كل شرك وبدعة ... أغر غرير بالمكارم يشغف
فعادت بحمد الله باسم إمامنا ... تتيه على كل البلاد وتشرف
تملكها من قبضة الكفر يوسف ... وخلصها من عصبة الرفض يوسف(٣)

والشعراء تأثروا بمذاهبهم لكن الشعر يسجل لنا أن المذهب لا يمنع الشاعر من مدح المخالف له في مذهبه ومن ذلك ابن منير الطرابلسي فإنه متشيع متعصب لكنه مدح السني المشهور في سنته نور الدين زنكي ، وكذلك الشاعر عمارة اليمني فإنه سني لكنه مدح العبيدي وقد سجل الأوائل هذه الظاهرة .

---

(١) أبو شامة : كتابه السابق القسم الثاني ٥١٥ .
(٢) المصدر السابق ٤٩٦ .
(٣) المصدر السابق ٥٠١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وكانوا جماعة كثيرة من أهل ديوان الإنشاء وغيره ، وكان منهم أهل سُنة لا يغالون في المديح ؛ وشيعة يغالون فيه . فمن أحس مدح فيهم لسُني قول عمارة اليمني :

أفاعيلهم في الجود أفعال سنة أبصرت في الوحي والتنزل

ومن الذي وقعت فيه المغالاة قول بعضهم :

هذا أمير المؤمنين بمجلس أبصرت فيه الوحي والتنزيلا

وإذا تمثل راكباً في موكب عاينت تحت ركابه جبريلا

« قلت : وهذه المغالاة من المغالاة الفاحشة التي لا يجوز الإقدام عليها لسني ولا متشيع ، وإنما هي من اقتحام الشعراء البوائق »(١) .

ومن أشهر القصائد الفكرية التي تمثل الفوارق والخلاف بين المذهب السني والمذهب الشيعي القصيدة التزية لابن منير الطرابلسي الشيعي ، بعث ابن منير إلى المرتضى الموسى نقيب الأشراف وهو شيعي بمملوك له فاستبقاه الموسوي عنده فأراد ابن منير أن يستفزه بفقد شعوره وخروجه من التشيع للسنه فأورد له هذه الفروق مؤيداً لها ظاهرياً والقصيدة طويلة نكتفي منها بهذه الأبيات :

وأكذب الرواي وأطعن في ظهور المنتظر

وإذا رووا خبر (الغدير) أقول : ما صح الخبر

ولست فيه من الملابس ما اضمحل وما دثر

وإذا جرى ذكر الصحا به بين قوم واشتهر

قلت : المقدم شيخ تي م ثم صاحبه عمر

ما سل قط ظبا على آل النبي ولا شهر

كلاً ، ولا صدَّ البتو ل عن التراث ولا زجر

وأثابها الحُسنى وما شق الكتاب ولا بقر

وبكيت عثمان الشهيـ ـد بكساء نسوان الحضر

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ٣/٤٩٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وشـــرحت حســـن صلاتـــه جنـــح الظـــلام المعتكـــر
وقـــرأت مـــن أوراق مصـــ ـحفـــه (الـــبراءة والزمـــر)
ورثيـت (طلحـــة) و (والزبيـــ ـر) بكـــل شعـــر مبتكـــر(١)

أما الباطنية فإنها ناصبت أهل السنة العداء ، وهم يفتكون بالخلفاء والأمراء الوزراء ، يأكلون الحشيش فيتخدرون ، ويدخلون على المراد قتله في رباطة جأش فهم قتلوا الخليفة العباسي المسترشد بالله عام ٥٣٠هـ ، وكان مشتغلاً بالعبادة ، مالكاً في الخلافة سيرة عن مقدرة ، قرأ القرآن وسمع الحديث ، فاختفى الباطنية مع الوفود ((فسبقت الباطنية في زي الغلمان ودخلوا على الخليفة وضربوه بالسكاكين حتى قتلوه وقتلوا من كان عنده))(٢) .

وحاولا الفتك بصلاح الدين الأيوبي أكثر من مرة(٣).

ويوظف العلماء الشعر للحوار والرد على الشرعي ومن هذه المحاورة بين معتزلي وسني : كقول عز الدين بن أبي الحديد ٥٨٩-٦٥٥هـ :

وحقـــط لـــو أدخلتـــني قلـــت للـــ ـــذيـــن بهـــا قـــد كنـــت ممـــن يحبـــه
وأفنيـــت عمـــري في دقيـــق علومـــه ومـــا بغيـــتي إلا رضـــاه وقربـــه
هبونـــي مســـيئاً أوثـــق الحلـــم جهلـــه وأوبقـــه دون البريـــة ذنبـــه
أمـــا يقتضـــي شـــرع التكـــرم عفـــوه أيحســـن أن ينســـى هـــواه وحبـــه
أمـــا رد زيـــغ ابـــن الخطيـــب وشـــكه وتمويهـــه في الديـــن إذ عـــز خطبـــه
أمـــا كـــان ينـــوي الحـــق فيمـــا يقولـــه ألم تنصـــر التوحيـــد والعـــدل كتبـــه
وغاية صدق الصب أن يعذب الأسى إذا كان من يهـــوى عليـــه يصبـــه

فرد عليه الشيخ صلاح الدين الصفدي (رحمه الله) بقوله :

عملنـــا بهـــذا القـــول أنـــه آخـــذ بقـــول اعـــتزال جـــلَّ في الديـــن خطبـــه

---

(١) الديوان ٤٠ .

(٢) النجوم الزاهرة ٥/٢٥٧ .

(٣) انظر : الروضتين ، القسم الثاني ٦١٠-٦٥٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فتزعم أن الله في الحشر ما يَرى ... وذاك اعتقاد سوف يرديك غبه
وتنفي صفات الله وهي قديمة ... وقد أثبتها عن إلاهك كتبه
وتعتقد القرآن خلقاً ومحدثاً ... وذلك داء عز في الناس طبه
وتثبت للعبد الضعيف مشيئة ... يكون بها ما لم يقدره ربه
وأشياء من هذه الفضائح جمة ... فإيكما داعي الضلال وحزبه
ومن ذا الذي أضحى قريباً إلى الهدى ... وحامي عن الدين الحنيفي ذبه
وما ضر فخر الدين قولاً نظمته ... وفيه شناع مفرط إذ تسبه
وقد كان ذا نور يقود إلى الهدى ... إذا طلعت في حندس الشك شبهه
ولو كنت تعطي قدر نفسك حقه ... لأخمدت جمراً بالمحال تشبه
وما أنت من أقرانه يوم معركٍ ... ومالك يوماً بالإمام تشبه(١)

الشعر يدخل ميدان التأمل والتفكير ، أو الفلسفة بوجود الإنسان في هذا الكون كقول عز الدين بن أبي الحديد :

لولا ثالث لم أخف صرعتي ... ليست كما قال فتى العبد
أن أنصر التوحيد والعدل في ... كل مكان باذلاً جهدي
وأن أناجي الله مستمتعاً ... بخلوة أحلى من الشهد
وأن أتيه الدهر كبراً على ... كل لئيم أصعر الخد
لذاك لا أهوى فتاة ولا ... خمراً ولا ميعة نهد(٢)

قوله : ((ليست كما قال فتى العبد)) هو طرفة بن العبد حيث يقول وقد سئل عن لذات الدنيا ، فقال : مركب وطي ، وثوب بهي ، ومطعم شهي ، فسُئل امرؤ القيس فقال : بيضاء رعبوبة ، بالشحم مكروبة ، بالمسك مشبوبة ، وسئل الأعشى فقال : صهباء صافية ، تمزجها ساقية ، من صوب غادية ، قال العكوك : فحدث بذلك أبا دلف فقال :

(١) الكتبي ، فوات الوفيات ٢/٢٦٠ .
(٢) المصدر السابق ٢/٢٦١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أطيب الطيبات قتلُ الأعادي واختيالي على متون الجياد
ورسول يأتي بوعد حبيب وحبيب يأتي بلا ميعاد(١)

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدي (رحمه الله) يعارض ابن أبي الحديد :

لولا ثلاث هن أقصى المنى لم أهب الموت الذي يردي
تكميل ذاتي بالعلوم التي تنفعني إن صرت في لحدي
والسعي في درّ الحقوق التي لصاحب نلت به قصدي
وأن أرى الأعداء في صرعة لقيتها من جمعهم وحدي
فبعدها اليوم الذي حمّ لي قد استوى في القرب والبعد(٢)

والشاعر ابن حمود الحلبي الكاتب المنشئ البليغ ، ولد سنة سبعين وخمسمائة، وتوفي سنة ثلاث وأربعين وستمائة يذكر اتجاه الناس في تلك العصور إلى دراسة الحديث: وهو اتجاه تعليمي أخذ به السلاجقة والأتابكة وأسسوا مدارس للحديث.

اشتغل بالحديث إن كنت ذا فهم ففيه المراد والإيثار
وهو العلم معلم وبه بين ذوي الدين تحسني الآثار
إنما الرأي والقياس ظلام والأحاديث للورى أنوار
كن بما قد علمته عاملاً فالـ ـعلم دوح منهن تجنى الثمار
وإذا كنت عالماً وعليماً بالأحاديث لن تمسك نار(٣)

وفي عام ٥٨٢هـ شاع أن المنجمين أخبروا بخراب العالم في جمادى الآخرة ((وتهب سموم محرقة تحمل رملاً أحمر ، فاستعد الناس وحفروا السراديب وجمعوا فيها الزاد ، وانقضت المدة المعينة ، وظهر كذب المنجمين . فقال: أبو الغنائم محمد بن المعلم في أبي الفضل المنجم قصيدة طنانة :

(١) المصدر السابق ٢/٢٦١ .
(٢) المصدر السابق ٢/٢٦١ .
(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٦/١٠١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قل لأبي الفضل قول معترف مضى جمادى وجاءنا رجب
وما جرى زعزع كما حكموا ولا بدا كوكب له ذنب

ومنها :

مدبر الأمر واحد ليس للسبعة في كل حادث سبب
لا المشتري سالم ولا زحل باق ولا زهرة ولا قطب

ومنها :

فليبطل المدعون ما وضعوا في كتبهم ولتحرق الكتب

ويقول ابن تغري بردي : والله در القائل و لم أدر لمن هو :

دع النجوم لصوفي يعيش بها وبالعزائم فانهض أيها الملك
إن النبي وأصحاب النبي نهوا عن النجوم وقد أبصرت ما ملكوا(١)

فهذا يدل على أنه هناك فكراً مستنيراً ، وفكراً ضالاً ، وبينهما صرع وجدل ويشير إلى تصديق عامة الناس بالشائعات التي تصدر عن المنجمين ، وبعض المتصوفة .

(١) المصدر السابق ١٠١/٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الرابع
الفكر الاجتمـــــاعي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المجتمع الإسلامي له امتداده الجذري القديم في العمق العربي ، وله تواصل مع الروح الإيمانية التي نشأت مع كل نفس وجمعت أواصر التقارب الشعبي الاجتماعي رغم تباعد شرائحه ، وله اتساعه الأفقي الممتد إلى تراث شعوب في الشرق والغرب والشمال والجنوب إلى تراث حضارات سادت ثم بادت إلى تدفق كم بشري هائل من أنحاء المعمورة يتمثل في اعتناق الإسلام ، والتواصل الحربي ، وأعظمه وأكبره ذلك الرقيق الذي يتداخل مع كيان المجتمع ، ويتشكل تشكلاً جديداً ، والمجتمع متأثراً بحياته العقلية والفكرية والأدبية المتوارثة .

فالتيارات الفكرية من المتكلمة والمعتزلة والشيعة والمتصوفة ، والتفلسف وغيرها ، والسلوكيات الأدبية المتشكلة من ترسبات المجتمع المنضمة إلى العرب في الدائرة الإسلامية كالمجون ، كل ذلك يتمحور في التشكيل المتنامي المتشعب في أبراج الشرائح الاجتماعية الإسلامية في الشام ومصر ، والعراق ، وخراسان والجزيرة العربية وسائر الأقطار الإسلامية .

إن الاتساع المعرفي الذي له ثوابته : جمع شتات العالم الإسلامي ، فالعلوم الشرعية ، والعلوم العربية لا مناص من العلم بها والتأثر بمكوناتها ، حيث تمثل الجينات التراثية ، في كيان المجتمع الإسلامي ، ثم تتأطر الشرائح الاجتماعية بالتهجين الفكري ، والرواسب الاجتماعية والتلوين الجديد المنصهر . فالأمة العربية تمتلك العمق الذي يسير في كيانها فيجسد التواصل ، وهي أيضاً قادرة على التكوين الذاتي الجديد مع قابلية الاستقلال ذات التصفية من الشوائب ، إن كان هناك توافق وتنسيق بين أرباب التنظير والتنفيذ وما أحوجنا إلى ذلك . لكن ذلك افتقدناه في تلك الأحقاب فقد ظهر في العهود إبان الحروب الصليبية ظاهرة خطيرة تودي إلى قهر الشعوب تتمثل في عزل المجتمع عن المشاركة في الإدارة السياسية والعملية ، فالوظائف محصورة تقوم على المحسوبية ، والجيوش مستوردة من الأتراك والرقيق ، ثم يذوبون في شرائح المجتمع ، وتأتي أمواج من البشر

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يستحوذون على النفوذ ، وقد احتكر أيضاً أصحاب الإقطاع الأعمال المثمرة فالمجتمع في عزلة عن قدراته وثروات بلاده ، فأصبح الفرد في ضيق شديد وعيش مرير ، وحياة نكد ، فأخذ الصراع يتفاعل ويتمثل ذلك في شعر ينسب إلى الهجاء وهو في الواقع يصور انفصام المجتمع كمثل قصيدة الإقطاع للبطائحي(١)، وقصيدة ابن عُنين (مقراض(٢) الأعراض) ، ومن هنا فإن تقسيم المقريزي للمجتمع وإن كان في مدة متأخرة فإنه لا يجانب الصواب في كثير من أمرهم فهو يوزع الأمة إلى سبع طبقات فيقول :

((اعلم – حرسك الله بعينه التي لا تنام – أن الناس بإقليم مصر في الجملة على سبعة أقسام : القسم الأول أهل الدولة ، والقسم الثاني أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهية ، والقسم الثالث : الباعة ، وهم متوسطوا الحال من التجار ، ويقال لهم أصحاب البز ؟ ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة ، والقسم الرابع : أهل الفلح ، وهم أهل الزراعات والحرث ، وسكان القرى والريف ، والقسم الخامس الفقراء : وهم جل الفقهاء وطلاب العلم ، والكثير من أجناد الخليفة ونحوهم . والقسم السادس : أرباب الصنائع والأجراء ، وأصاب المهن ، والقسم السابع : ذوو الحاجة والمسكنة وهم السائلون الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم))(٣) .

والواقع أن المجتمع في عهد الحروب الصليبية لا يفترق عن هذا كثيراً ، فإذا طبقاته تتكون من :

١ – **أهل الدولة** : وأغلبهم الأتراك والمماليك ، والأتابكة . فالسلاجقة أتراك وأصبح من قادتهم وخدمهم أهل الدولة بل تشعبت الدولة إلى دويلات ،

(١) العماد الأصفهاني : خريدة القصر ، وجريدة العصر ، المجلد الثاني ، الجزء الرابع ٥٣٤ .

(٢) الديوان : تحقيق خليل مردم بك ١٧٩، الطبعة الثانية دار صادر بيروت .

(٣) إغاثة الأمة ٧٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وكل إقليم فيه دولة رجالها من الأتراك ، وقادة الجند من الأتراك كذلك كأسد الدين شيركوه ، وعمر شاهنشاه وصلاح الدين الأيوبي . أما الوزراء والولاة فقد كاموا من الأتراك أيضاً . وهم طبقات من الأثرياء ، تنعموا بالحياة .

وهؤلاء يفعلون خيراً مثل قيادة الجيوش والإشراف على شؤون الدولة عامة ، وإجراء الصدقات . ولكن يحدث منهم أذى للمجتمع ، مثل فتك الجند بالمدن فإنهم يضعون السيف أحياناً(١) ، وينتهكون العرض أحياناً ، ومنه ما رواه ابن تغري بردي ((أن الأشراف وجد مسعود بن مودود في حصن كيفا خمسمائة بنت من بنات الناس للفراش))(٢) ، ومنه ما رواه السبكي ((أن السلطان بيبرس نزل القلعة بالليل وطاف بالقاهرة ليعرف أحوال الناس ، فرأى بعض الأمراء المقدمين وقد أمسك بأمراة وعراها من سراويلها بيده ، و لم يجرأ أحد أن ينكر عليه))(٣) .

والمجتمع من العلماء والقضاة والشعراء ، فزعوا من ذلك فكانوا يرفعون الأمر تارة إلى السلطان وتارة يهجون السلاطين بهذه الفعلة :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ... تركك بدولته يا شر مجلوب

قد آخذ الله أيوباً بفعلته ... فالناس قد أصبحوا في صخرٍ أيوب

فلما بلغ الملك الصالح ذلك بنى لهم قلعة في الروضة من المقياس ، وأسكنهم بها وسماهم المماليك البحرية »(٤) .

٢ – **الطبقة الثانية هم أهل الإقطاع** : وهؤلاء كان لهم الهيمنة على الأموال ومواردها من الزراعة وهؤلاء الذين تشبعوا من دولة السلاجقة وأكثرهم من

---

(١) السبكي : معيد النعم ٧٤ .

(٢) النجوم الزاهرة ٦/٢٨٠ .

(٣) السلوك ٥٤٠ .

(٤) محمد زغلول سلام : الأدب في العصر المملوكي ٤٩ ، نقله عن تاريخ ابن إياس ٢/٨٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الأتابكة وأعوانهم ووزرائهم ، وهم يسخرون الناس للزراعة بأجر زهيد ، بل يرى الدكتور محمد زغلول أنهم يمتلكون الأرض والناس(١) .

وهؤلاء يقربون إليهم ثلة من طلبة العلم ، يأكلون على موائدهم ، للدعاء وللرياء معاً وقد هيمنوا على موارد الزراعة حتى هجر الناس مزارعهم في القرى وتوافدوا في هجرة إلى المدن مما جعل بعض الولاة يصدر أمراً بإعادتهم . وهؤلاء الإقطاعيون يجرون الصدقات على الزوايا والأربطة والتكايا فهم يعنون بشأن الصوفية(٢) .

٣ – **أما الطبقة الثالثة** : فهم أهل الفلاحة وهؤلاء يجتهدون في زراعة الأرض ، وتأتيهم المنافسة من أهل الإقطاع ، ثم هم يؤخذ عليهم المكوس عن ما يبيع في الأسواق ، حتى البطيخ والبقول ، بل تجاوز ذلك إلى التبن ، ومنهم من يعمل بأجر زهيد عند أهل الإقطاع ، فهم يكدحون لغيرهم ، وما يأخذونه لا يعدل شقاءهم وتعبهم فهم في حالة عوز دائمة ، وهؤلاء يغلب أن يكونوا من الريف ويلحق بهؤلاء القبائل العربية في الجزيرة إذ كانوا يعتمدون على الرعي وقليل من الزراعة .

٥ – **أما الطبقة الرابعة** : فهم أصحاب الحرف والمهن فهم يكسبون ما يفي لحالتهم من الغذاء .

٦ – **الطبقة الخامسة** : وهم الذين يدخلون في باب البطالة العامة ، ولا ريب أنهم يدخلون إلى الفقر من أوسع أبوابه ، ومن هؤلاء طلبة العلم . لكن هؤلاء يساعدهم بعض الشيء ما يأخذونه من الأوقاف فهم ينافسون الفقراء والمساكين فيه ، وقد أشار إلى ذلك أبو شامة :

فعليك المعاش ياطالب العلم ولا تترك المعيشة كبراً

---

(١) الادب في العصر الأيوبي ٤٨ .

(٢) المرجع السابق ٤٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

واقتنع بالذي تسهل واشكر ... تجد الرزق فاض فيضاً ودرا
واترك الوقف إذ جرت صورة والأمـ ... ـر كذا بينهم فبئس المجرا
اجتنب فعلهم توكل على الحـ ... ـي الذي لا يموت وأسأله سترا
كن أبياً لما يشين أما تأ ... نف من أن يكون عيشك يزري
إذ يقال الأوقاف أوساخ الأموا ... ل كوقف الزمني ووقف الأضرا
والمساكين واليامى فكل ... صدقات منها اللبيب تبرا
لا يرى أنه يشارك ذي الأصنـ ... ـاف فيها يعيش عيشاً مرا
فجفاها مع أنه مستحق الـ ... ـوقف ما يستغل منه ويكرى
فدع العجز يا أبي إذا أنـ ... ـصفت في الفكر لم تجد لك عذرا
لا تزاحم ولا تكاثر بما تأخذ ... منه فقد عرفت الأمرا
وإن احتجت خذ عفافاً بكره ... وبعزم أن لا يدوم العمرا
كان من قبلنا أئمة هذا الد ... ين والوقف بعد ذاك استقرا(١)

لكن الأوقاف لها دورها في المجتمع ، فهي تدر على المدارس ، ومناحي الخير وتعنى بالأيتام ، بل تجعل الكتاتيب الخاصة لهم ، يروي ابن الفضل الصفدي :

« اجتزت بنزعة فرأيت إلى جانبها مكتباً للأيتام ، وهم يكتبون القرآن في الواحهم ، فإذا أرادوا مسحها غسلوا الألواح وسكبوا ذلك على قبره فسألت عن ذلك فقيل لي : هذا شرط الوقف »(٢) .

ومع اتساع ميدان البطالة في المجتمعات الإسلامية ، وشيوعها بين طلاب العلم والصوفية ، بل حتى عند العلماء فإن أكثرهم عاش على الكفاف ، وهم يقنعون أنفسهم بالقناعة والزهد ، لكن الواقع أن الفكر العملي بمنأى عنهم ، فهم لم يعملوا ، و لم يزاولوا المهن لكن بعض العلماء تنبه لهذه القضية ، وبحث عن مهنة يعيش من نتاجها ومنهم أبو شامة المقدسي الذي طلب الرزق من الزراعة ،

(١) الذيل على الروضتين ٢٢٣ .
(٢) فوات الوفيات ٢٥٦/٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ووجد فيها خيراً وعفافاً عن الفلاحة :

أيها العاذل الذي أن تحرى ... قال خيراً ونال بالنصح أجراً
لا تلمني على الفلاحة والعمل ... أنها من أجل كسب وأثرى
كيف لا ألزم الفلاحة باقي ... عمري لا زال حصداً وبذرا
وبها صنت ماء وجهي عن الناس ... جميعاً وعشت في القوم حرا
إذ بها صار منزلي ذا غلال ... مع عيال من بعد ما كان قفرا
مشبع الأهل والأقارب والألـ ... ـزام منها فليس يشكون فقرا
ولكم واقف ببابي يعطى ... صدقات من الغلل وبرا
كم فقير وكم يتيم وكم ... أرملة نال من نصيبي وفرا
وكذا الطير والبهائم ترعى ... من زروع ومن ثمار تترى(١)

إذن فهو استغنى وأغنى ، فالعمل سلاح المؤمن ، والجلياني يلتمس مهنة أخرى ، فهو ذلك الشاعر ، ذلك العالم ، لكنه يعمل ويعلم ولا يستكين ، أو يستجدي أو ينتظر الرفقة والشفقة ومن هنا فإنه تعلم مهنة الطب :

بذلت وقتاً شبابي لا ... ألقى بني الملك بالسؤال
وكان وجه الصواب في أن ... أصون نفسي بلا ابتذال
ولابد للجسم من قوام ... فخذه من جانب اعتدال

وتلك النظرة إنما هي فلسفة فكرية عميقة ، لم يدركها كثير من طلبة العلم في الزمن الغابر والزمن الحاضر ، فهم أولى بالعمل وأقدر عليه ، وأتقى وأخلص وأكثر خشية لله ومراقبة فهم يصلحون أنفسهم ، ويصلحون غيرهم إذا عملوا .

والشاعر الجلياني المتوفى ٦٠٢هـ يعالج قضية ما زالت تطرح ، وهي تأنق المتحذلقين ، المنافقين الذين يجيدون التمظهر بالمظهر الملائم للمسؤول ، والذين يخدمون ولا يبالون بالسخرية أو المذلة ، فهؤلاء تسمو منزلتهم عند الوجهاء ، وما زالت هذه الأفكار متداولة فإن المبدعين الجادين الواثقين من عملهم يركنون في

(١) الروضتين : الذيل ٢٢٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الزوايا ، ويتألق أولئك الذين يلبون رغبات الرؤساء يقول الجلياني :

قالوا : نرى نفراً عن الملوك سموا ... وما لهم همة تسموا ولا ورع
وأنت ذو همة في الفضل عالية ... فلما ظمئت وهم في الجاه قد كرعوا
فقلت : باعوا نفوساً واشتروا ثمناً ... وصنت نفسي فلم أخضع كما خضعوا
قد يكرم القرد إعجاباً بخسته ... وقد يُهان لفرط النخوة السبعُ(١)

وهذه ظاهرة شاعت وذاعت بين الولاة الذين يقربون الناس ليوظفوهم لمآربهم ويظهرون التعالي عليهم ، أو يتقربون إلى الناس بتقريبهم كما كان الإقطاعيون يقربون الصوفية ويجرون عليهم الأموال . فكان ذلك سبباً مباشراً للتملق والبطالة : وننتقي مثلاً اعتباطياً من ألوف الأمثال : يتجلى في شعر الشاعر البغدادي سبط التعاويذي ، فهو يطلب الفرض الذي تعارفوا عليه بالرفد والاسترفاد :

فقال يسترفد عضد الدين بن رئيس الرؤساء ويشكو قلة معيشته وهو يومئذ يخاطب بمجد الدين :

أيا مولاي مجد الدين يا من ... إليه ومنه بثي واشتكائي
دعوتك مستجيراً من زماني ... بجود يديك فاصغ إلى دعائي
ورأيك عدتي لغدي ويومي ... وذخري في الشدائد والرخاء
فيا مولاي هل حدثت عني ... بأني من ملائكة السماء
وأن وظائف التسبيح قوتي ... وما أحيا عليه من الدعاء
وأني قد غنيت عن الطعام ... الذي هو من ضرورات البقاء
وهل في الناس لو أنصفت خلق ... يعيش كما أعيش من الهواء
فلا في جملة الأحرار أدعى ... ولا بين العبيد ولا الإماء
ولا أقصى كما تقصى الأعادي ... ولا أدنى دنو الأولياء
فلا يجرون ذكري في رسوم ... الصلات ولا دساتير العطاء

(١) الكتبي : فوات الوفيات ٢/٤٠٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فـــلا في هـــؤلاء إذا سمعتـــم تعدونـــــي ولا في هـــــؤلاء
متـى أحكمـت لي فيكـم رجـاء حللتـم بالإيـاس عـرى رجـائي
ألم يملأ بسـيط الأرض مدحـي وأقطـار السـماء لكـم دعـائي
ألم أنظـم لكـم درر المعـاني ألم أنسـج لكـم حلـل الثنـاء
وهـل أحـد يقـوم لكـم مقـامي ويغـني في مديحكـم غنـائي
متى تجني يـدي ثمـر ثمـر امتداحـي سـقيت غروسـه مـاء الـولاء
ولـولا خسـة الأيـام كـانت تبـاع علـوق شـعري بـالغلاء
أمـالي فيكـم إلا عنـاء مضـاف للشـقاء إلى غنـائي
وأثقـال أهـد بهـن ظهـري لقـد عرضـت نفسـي للبـلاء
سـعيت إلى الغنـى وجهـدت نفسـي فلم احصل علـى غـير الغنـاء
فزالت راحـة الفقـراء عنـى ولم أظهـر بعيـش الأغنيـاء

لكن الشاعر مات على هـذه الحالة .

والشعر اء يعالجون القضا يا الاجتماعية لاسيما الأقارب نسباً, وسكناً فيحدث بينهم شحناء لتنافسهم علي الجاه والمال ، والتوتر الانفعالي يدفع بالانسان إلى الإ بداع والإتقان وشحذ الهمة ، والتنافس . والطغراني يدفع بالإنسان المضطهد إ لي التفاني في العمل وطلب الرزق.

من خص با لشكر الصديق فا نني أ حبوا بخالص شكري الأعداء
جعلوا التنا فس في المعالي شيمتي حتى امتطيت بنعلي الجوزاء
ونعوا علي معا يبي فحذر تهما ونفيت عن أ خلاقي الأ قذاء
ولربما انتفع الفتي بعدوه والسم أحياناً يكون دواء(١)

فالطغرائي يصور لنا حياة الصراع بين أفراد المجتمع غير أنه ينظر إليه بمنظار تربوي يسمى في عصرنا بحالة التوتر ، أو بث روح التنافس الإداري وأنه يشحذ الهمم ، ويزيد العزيمة ، فيكون الإنتاج أكثر ، والذي يدعو إليه هو التوتر الوسط

(١) الديوان : ٤١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لا حالة الاضطراب وفقدان التوازن .

ومن التواتر للفرد في العصر المتزامن مع الحروب الصليبية ما يشير إليه المهذب ابن الزبير حيث فقد الإنسان الإيمان الروحي ، والأنس النفسي نتيجة لتهافت الناس على الحياة ، وتنافسهم فلا إحسان زائد ولا إيثار ، ولا ثقة يقول :

كم كنت أسمع أن الدهر ذو غير ... فاليوم بالخبر استغني عن الخبر
تشابه الناس في خلق وفي خلق ... تشابه الناس والأصنام في الصور
ولم أبت قط من خلق على ثقة ... إلا وأصبحت من عقلي على غرر
لا تخدعني بمرئيّ ومستمع ... فما أصدق لا سمعي ولا بصري
وكيف آمن غيري عند نائبة ... يوماً، إذا كنت من نفسي على حذر؟!(١)

وبهاء الدين زهير ، يشتكي من ظاهرة النفاق والتملق ومن صاحب الوجهين، ويشير إلى أولئك المنافقين الحالفين بالكذب ، الذين يحتمون عليه قبول آرائهم ، وهم يجهلون وعيه بما يضمرون ، وما يلمزون :

أرى قوماً بليت بهم ... نصيبي منهم نصيبي
فمنهم من ينافقني ... فيحلف لي ويكذب بي
ويلمزني بتصديق الـ ... ـذي قد قال من كذب

ويتحدث عن الجلساء والجهلاء الذين يتبرم بمجالسهتهم :

وذو عجب إذا حدثـ ... ـت عنه جئت بالعجب
وما يدري بحمد الله ... ما شعبان من رجب
وما أبصرت أحمق منه ... في عجم ولا عرب
وأحمق قد شقيت به ... لا عقل ولا أدب
فلا ينفك يتبعني ... وإن أمعنت في الهرب(٢)

ومن الشعراء من يدعو إلى العصامية والاعتماد على الذات ويستعين الله

(١) الديوان ١٣٠ .
(٢) الديوان ٤٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فحسب فيما يعترضه من عقبات ، كقول محمد بن محمد النحوي٤٩٤-٥٧٦هـ :

إن شئت ألا تعد غمراً ... فخل زيداً وخل عمراً

واستعن الله في أمور ... ما زلن طول الزمان أمراً

ولا تخالف مدى الليالي ... لله حتى الممات أمرا

واقنع بما راح من طعام ... وألبس إذا ما عريت طمرا(١)

ويقول المهند المزرفي في الألقاب :

(كمال الدين) نقص الدين ... من لا شك ولا كذب

لئيم خانه حسب ... ولم ينهض به أدب

تراه يفور من غيظ ... على الراجي ويلتهب(٢)

وابن الثرده الواعظ الذي اختل عقله عندما اغتصبت كتبه ، وظل يهذي بها حتى مات ٦٥٠هـ ، يوقظ أولئك الغافلين الذين لاهم لهم ولا عمل ، ويدعوهم إلى العمل والتيقظ ، وينهاهم عن الكسل ، ويهب بهم إلى الاجتهاد الذي يؤدي إلى الفلاح فهو يقول في موشحه :

أيها النائم كم هذا الرقاد ... انتبه كم نوم

انتبه ذا الكرى ياذا الجماد ... تلتحق بالقوم

وتأهب لغد يوم المعاد ... يا له من يوم

وافعل الخير لتحظى بالنجاح ... لا تكن كسلان

واجتهد فالمجتهد يلقى الفلاح ... ويرى الإحسان(٣)

وأبو منصور النحوي المتوفى ٥٨٩هـ ، يحس بتفشي الشكوى من الزمان والضيق بالواقع الحياتي المرير الذي يعيشه الناس ، وهو يخاطبهم لسلان الناصح الواعظ :

---

(١) الحموي : معجم الأدباء ١٩/٤٧ .

(٢) العماد : الخريدة ، الجزء الرابع ١/١١٣ .

(٣) الكتبي : فوات الوفيات ٢/٤٦٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قـــل لمـــن يشـــكو زمانـــاً حـــــاد عمـــــاد يرتجيـــــه
لا تضيقـــــــن إذا جـــــا ء ، بمـــــا لا تشـــــتهيه
ومتـــــى نـــــابك دهـــــر حـــــالت الأحـــــوال فيـــــه
فـــــوض الأمـــــر إلى اللـــــ ـــــه تجـــــد مـــــا تبتغيـــــه
وإذا علقـــــــت آمـــــــا لـــــك فيـــــه ببنيـــــه
حـــرت في قصـــــدي حتـــــى قيـــــل : مـــــاذا ببنيـــــه(١)

وكان هذا المضمون شائعاً ذائعاً في زمان فهو يعالج ظاهرة مما نال إعجاب الصفدي فقال عنه : « شعر جيد »(٢)، وهذا يدل على حرصهم بالالتزام بالمضمون المفيد ، الذي يدعو إلى الصبر والعمل الذاتي ويحث على تجنب الاتكال على الناس .

وابن المسجف (٥٨٣-٦٣٥هـ) يحكي واقع المجتمع الذي تحلل عن بعض السلوكيات كالمروءة في الصداقة ، وأخذ يتكالب على المال وأربابه .

يـــارب كيـــف بلوتـــني بعصابـــة مـــا فيهـــم فضـــل ولا إفضـــال
متنافري الأوصاف يصدق فيهم الـ ـهـــاجي وتكـــذب فيهـــم الآمـــال
غطـى الـثراء علـى عيونهـم وكـم مـــن ســـوءة غطـــى عليهـــا المـــال
جبنـــاء مـــا اســـتنجدتهم لملمـــة لؤمـــاء مـــا اســـترفدتهم ، بخـــال
فوجوههـــم عـــوذ علـــى أموالهـــم وأكفهـــم مـــن دونهـــا أقفـــال
هم في الرجاء إذا ظفـــرت بنعمـــة آل وهـــم عنـــد الشدائـــد آل(٣)

والشعراء بلوروا قضايا المجتمع ، وأمراضه التي تفتك به كالجهل والشقاق ، والخلاف والتجافي والحروب والفتك ، وقساوة القلب على بعضهم ، وغدرهم ومطلهم . فأبو الحسن الهيتي يحكي تلك الأصناف في هيت حيث يمدح ،

(١) المصدر السابق ١٧/٩ .
(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات ١٧/٩ .
(٣) الكتبي : فوات الوفيات ٢٨٤/٢ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المستضيء بالله ، ويصف (هيت) ويشكو أهلها(١) .

وإن عوتبوا فالعتب فيهم مضيع ... وإن عذلوا يوماً فما ينفع العذل
أرى شيمتي تأبى بلادي وأهلها ... فيا ليت أنا لم يكن بيننا وصل
أقسم لولا بنت عم شفيقة ... إذا غبت عنها ، ناها منهم ثقل
لأبعدت أسفاري ، وفارقت منزلي ... ولم يثني كرم بأرضي ولا نخل
وخذ بيميني ، إننا شر جبلة ... وما إن لنا دين يزين ولا عقل(٢)

والشعراء يصفون غير الزمان وتقلباته ، فهم تارة يتألمون وتارة يعتبرون ، وأخرى ينصحون . يقول الحسين بن عبدالله بن أحمد :

الدهر خدعة خلوب ... وصفوة بالقذى مشوب
فلا تغرنك الليالي ... فبرقها خلب كذوب
وأكثر الناس فاعتزلهم ... قوالب ما لها قلوب(٣)

والحسين بن محمد بن عبدالوهاب المتوفى ٥٢٤هـ يصف حال الشعراء والوجهاء وتقلبهم في أحضان أرباب السلطة والمال فيقول :

أفنيت ماء الوجه من طول ما ... أسأل من لا ماء في وجهه
أنهى إليه شرح حالي الذي ... ياليتني مست ولم أنهه
فلم ينلني أبداً رفده ... ولم أكد أسلم من جبهه
والدهر إذ مات نحاريره ... قد مد أيديه إلى بلهه(٤)

وهناك من الشعراء من يتجلد ويدعو إلى الإفاقة من المصائب ويدعو إلى الدأب والإرادة القوية وعدم التواكل ومنهم أبو محمد الثوراني الحراني سعد ابن الحسن المتوفي ٥٨٠هـ .

---

(١) العماد الأصفهاني : الخريدة الجزء الرابع ٢٩٤/١ .
(٢) المرجع السابق ٢٩٤/١ .
(٣) معجم الأدباء ٧٥/٤ .
(٤) المرجع السابق ٩٠/٤ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ولست كمن أخنى عليه زمانه فظل على أحداثه يتعتب
تلذ له الشكوى وإن لم يجد بها شفاء كما يلتذ بالحك أجرب(١)

ويقول سلامة بن غياض بن أحمد الكفري طابي المتوفى ٥٢٦هـ ، يقول :

اقنع لنفسك فالقناعة ملبس لا يطمع الاشرار في تخريقه
فلرب مغرور غدا تغريقه في حرصه سبباً إلى تغريقه

يقول أبو طالب الحلواني :

إن خانك الدهر فكن عائداً بالبيض والأدلاج والعيس
ولا تكن عبدالمنى إنها رؤوس أموال المفاليس(٢)

ويقول أبو محمد النعماني :

إذا نالك الدهر بالحادثات فكن رابط الجاش صعب الشكيمة
ولا تهن النفس عند الخطوب إذا كان عندك للنفس قيمة
فوالله ما لقي الشامتون بأحسن من صبر نفس كريمة(٣)

وهذه دعوة إلى العمل وبذل الجهد ، والأسفار بدل الاستكانة والذل والخنوع ، ونقل الحموي لهذه الأشعار مختاراً لها عما عداها يدل على مماثلة بينها وبين حالة في أسفارها فهو قد جاب الآفاق ومع هذا ترك لنا هذه المؤلفات الجامعة فالعمل لا يتنافى مع العلم .

وانتشرت المفاسد في المجتمع من جراء كثرة الرقيق ، وكثر شاربوا الخمر ، ومتعاطي الحشيش وكثير وما تصدر عن السلاطين مراسيم بمعاقبة ومعالجة تلك القضايا « ضبط شخص يسمى الكازروني وهو سكران فأمر بصلبه ، فصلب بعد حد عظيم في خشبة وعلقت الجرة والقدح في عنقه ، فلما عاين أرباب المجون والخلاعة ما جرى لابن الكازروني امتثلوا أمر السلطان والطاعة قال الشاعر :

---

(١) المرجع السابق ٤/٢٣٠، ٢٣١ .
(٢) الحموي : معجم الأدباء ٤/٢٤٦ .
(٣) المصدر السابق ٤/٢٧٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لقد كان حدّ السكر من قبل صلبه خفيف الأذى إذ كان في شرعنا جلدا
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبي ألا تب فإن الحد قد جاوز الحدّا

وقال آخر :

ليس لأبلسي عندنا أرب غير بلاد الأمير مأواه(١)
حرمت الخمر والحشيش معا حرمته ماءه ومرعاه(٢)

وكان الظاهر بيبرس (رحمه الله تعالى) قد منع الخمر والحشيش وجعل الحد على ذلك السيف ، فأمسك ابن الكازروني وهو سكران ، فصلب وفي حلقه جرة الخمر ، فقال القاضي ناصر الدين ابن المنير :

منع الظاهر الحشيش مع الخمر سر قولي إبليس من مصر يسعى
قال مالي وللمقام بأرض لم أمتع فيها بماء ومرعى

وقال الحكيم شمس الدين ابن دانيال :

لقد منع الإمام الخمر فينا وصيّر حدها حد اليماني
فما جسرت ملوك الجن خوفاً لأجل الخمر تدخل في القناني(٣)

وقال آخر :

الخمر يا إبليس إن لم تقم وتوسع الحيلة في ردها
لا نفقت سوق المعاصي ولا أفلحت يا أبليس من بعدها(٤)

فهم قد نظروا إليها نظرة شرعية وفكرية تضر بالمجتمع ، وتفتك بشبابه وظواهر الانحراف تظه في المجتمع كتبذل النساء في ملابسهن أو الرجال ففي عام ٦٥٣هـ رأى الملك المعزل أيبك التركماني ألا تخرج أمرأة في القاهرة من بيتها ولا يمشي الرجل بلا سراويل فقال أبو الحسن الجزار :

---

(١) الأدب في العصر المملوكي ١/٨٥ .
(٢) المرجع السابق ١/٨٥ .
(٣) المصدر السابق ٣/٣٣٤ .
(٤) المصدر السابق ٣/٣٤٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

جنا الملك المعزل على الرعايا وألزمهم قوانين المروّة
وصان حريمهم من كل عاد وألبسهم سراويل الفترة(١)

والشعراء لم يتركوا الحديث عن مكونات حياتهم فهم تحدثوا عن دوابهم التي تحملهم وتحمل أثقالهم ، من البغال والحمير حتى الإبل وصفوها وهي تحمل تجارتهم ، وتجوب الأقطار والسفن وهي تعبرالبحار ، وكذلك وصفوا الدور وما يدور فيها من حياة بائسة أو ناعمة ، فهناك بعض الشعر أكثر التصاقاً بعامة الناس وفقرائهم ، فهذا كمال الدين بن الأعمى من أولئك الشعراء الذين استشعروا تلك الحياة البائسة للفقراء ، فهو يلح على وصف هذه الشريحة وهو ينقلنا إلى مسرح دار فقيرة تكثر فيها الحشرات والخير عنعها نازح ، والمرض مقترب من تكاثر الجراثيم والحيوانات المعدية :

دار سكنت بها أقل صفاتها أن تكثر الحشرات من حشراتها
الخير عنها نازح متباعد والشر دان من جميع جهاتها
من بعض ما فيها البعوض عدمته كم أعدم الأجفان طيب سناتها
وتبيت تسعدها براغيث متى غنت لها رقصت على نغماتها
رقص بتيقيظ ولكن قافة قد قدمت فيه على أخواتها
وبها ذباب كالضباب يسد عيـ ـن الشمس ما طربي سوى غناتها
أين الصوارم والقنا من فتكها فينا وابن الأسد من وثباتها
وبها من الخطاف من هو معجز أبصارنا عن حصر كيفياتها
تعشى العيون بمرها ومجيئها وتصم سمع الخلد من أصواتها
وبها خفافيش تطير ونهارها مع ليلها ليست على عاداتها
شبهتها بقنافذ مطبوخة نزع الطهاة بنضجها شوكاتها(٢)

والشعراء نقلوا لنا معاناة الأسر الفقيرة ليلة العيد ، التي تعاني من الفاقة

(١) الأدب في العصر المملوكي ٧٣/١ .
(٢) الكتبي : فوات الوفيات ٣٦٢/٣، ٣٦٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والعوز وتعاني من قلة الألبسة ، والأطفال يتمنون ليالي العيد ، وتلك الأيام فهم يلبسون أبهى الثياب ، ومن لا يستطيع ذلك فإنه يستكين ويذل ، وتسود الأسرة الكآبة وما زال هذا الواقع إلى يومنا هذا . والبوصيري من أشهر الشعراء الذين لهم عدد من القصائد في هذا الشأن ومن ذلك قوله :

وأقبل العيد وما عندهم ... قمحٌ وال خبز ولا قطره
فارحمهم إن عاينوا كعكة ... في يد طفل أو رأو تمرة
تشخص أبصارهم نحوها ... بشهقة تتبعها زفرة
كم قايل يا أبتا منهم ... قطعت عنا الخير في كره
ما صرت تأتينا بفلس ولا ... بدرهم ورق ولا نقرة
وأنت في خدمة قوم فهل ... تخدمهم يا أبتا سخرة
ويوم زارت أمهم أختها ... والأخت في الغيرة كالضرة
وأقبلت تشكو لها حاله ... وصبرها مني على العشرة
قالت لها كيف تكسون النسا ... كذا مع الأزواج ياعرة
قومي اطلبي حقك منه لا ... تخلّف منك ولا فتره
وأن تأبى فخذي ذقنه ... وخلصيها شعرة شعره
قالت لها ما هكذا عادتي ... فإن زوجي عنده ضجره
أخاف إن كلمته كلمة ... طلقني قالت لها : بعره
وهونت قدري في نفسها ... فجاءت الزوجة محتزة
فقابلتني فتهددتها ... فاستقبلت رأسي بأجره
ودامت الفتنة ما بيننا ... من أول الليل إلى بكرة
وحق من حالته هذه ... أن ينظر المولى له نظرة(١)

وتلك الحالة البائسة تولد المشاكل الزوجية ، فيحدث الإلحاح من محتاج بل من أم أطفال ، ويكون هذا الطلب ثقيلاً على أب لا قدرة له ولا حيلة ، فكل

(١) الصفدي : الوافي بالوفايات ٣/١٠٨،١٠٩ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الأطراف يُعذِّبُ نفسياً ، فيشتد الخلاف والنزاع ، وهذه الحالات تحدث في أيامنا هذه أيام الرخاء فكم من قصة طلاق ليلة العيد حدثت . وهم يتحدثون عن العلاقة الزوجية وما يحدث فيها من خلاف وشقاق وربما انتقل الأمر إلى القاضي، فهذا ابن دانيال الحكيم يقول في زوجته .

قل لقاضي الفسوق والإدبار ... عضد البله عمدة الفجار
والذي قد غدا سفيه جهل ... وله من قرونه كالصواري
بك أشكو من زوجة صيرتني ... غائباً بين سائر الحضار
غيبتني عني بما أطعمتني ... فأنا الدهر مفكر في انتظار
غبت لو أنهم صفعوني ... قلت كفوا بالله عن صفع جاري
فنهاري من البلادة ليل ... في التساوي والليل مثل النهار
دار رأسي عن باب داري لله ... أخبروني يا سادتي أين داري
ملكتني عيارة وعياراً ... حين زادت بالدردبيس عياري[1]

وأبو الحسين الجزار (٦٠٣-٦٧٩هـ) يصور الحياة الاجتماعية لا سيما الطبقة الفقيرة في سخرية متناهية ، وبذاءة مما يشير إلى تهتك في المجتمع من الناحية السلوكية ، والمعيشية فهو يشتكي من كساد الشعر ، وكساد الحرف ، وقلة المؤنة وفساد الثياب ، وقذارة مهنة الجزارة[2]، وهو يصف حلته الشتوية الصيفية معاً :

لي من الشمس خلعة صفراء ... لا أبالي إذا أتاني الشتاء
ومن الزمهرير إن حدث الغيـ ... ـم ثيابي ، وطيلساني الهواء

وفيها يذكر أنه لا دار له ولا بناء فلا مأوى وإنما يفترش الأرض ، ويستكن ويلتحف بالفضاء .

ويذكرنا بما نسمعه من أولئك الفقراء الذين ينامون على الرصيف .

بيت الأرض والفضاء به سو ... ر ، مدار وسقف بيتي السماء

(١) فوات الوفيات ٣/٣٣٦ .

(٢) الكتبي : فوات الوفيات ٤/٢٨٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لو تراني في الشمس والبرد وقد ... انسل جسمي لقلت إني هباء
آه واحسرتي لقد ذهب العمـ ... ـر وحظي تأسف وعناء
كلما قلت في غد أدرك السؤ ... ل أتاني غد بما لا أشاء
لست ممن يخص يوماً بشكـ ... ـوا ، لأن الأيام عندي سواء(١)

والشاعر ابن قلاقس يرثي سترته كما رثى الشعراء حيواناتهم ، فهو يقول :

حرمتك إذ رزقتك بعد حرص ... كذاك يكون حرمان الحريص
وقمت عليّ بالغالي ولكن ... تناولت المنية بالخريص
لقد سبق القضاء برغم أنفي ... وليس على المقدّر من محيص
يقولون اصطبر وتعز عنها ... وكيف عزاء مطعون الفريصِ(٢)

والشاعر ابن قلاقس يشارك أهل مصر في احتفالات الزواج والأعياد وجميع المناسبات ، فهو يهنئ الحافظ السلفي بزواجه ، وبمناسبات أعياده ، وهو لم يقتصر على المسلمين ، بل يهنئ النصارى ويمدحهم بمناسبة زواج أحدهم :

عرس بالتوفيق والسعد ... أبو الوفاء بن أبي سعد
بدر حوى شمساً تجلى الدجى ... ما لم يكن من فاحم جعد
كريمة المنصب قد حازها ... مثالها في رتب المجد
ألبسه حمدي ومن ذا الذي ... ألبسه مفتخراً حمدي
ولم آلُ أنظم في وصفه ... فرائد الأمداح كالعقد
يا من له حوى فضلاً ونبلاً ومن ... إليه فيما قلته قصدي
آهنا بعرس قد غدا يومه ... عيداً لأهل الغور والنجد
أقبل والإقبال قد حاطه ... حياطة الخلخال بالزند
وعندك الحلواء معقودة ... أحكمها الصانع في العقد(٣)

---

(١) المصدر السابق ٤/٢٨٤ .
(٢) الديوان ٢٠٨ .
(٣) الديوان ٢٠٨ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وهو يهنئ أحد أعيان النصارى بالعرس ، ويشير إلى مكانتهم الإدارية ولا سيما في الدواوين ، ويطلب منهم الجائزة في صراحة من أمره ، وكأن مشاركة الشعراء ترف يميل إليه الوجهاء ، فهم يعطون الجائزة عليه .

يـــوم قضـــى لـــك بـــالحبور ودوام عيـــــش في ســـــرور
أضحـــت تـــزف بـــه الشـــمو س إلى مقارنـــــة البـــــدور
فاهنـــأ بعـــرس قـــد جلـــى الظـــ ـلمـــاء عـــن إشـــراق نـــور
واشـــرب هنيـــا كـــأس را حـــك فهـــي مفتـــاح الســـرور
أو رتـــل الإنجيـــل معـــ ـتضـــداً بألحـــان الزبـــور
أبنـــاء عيســـى ســـادة أو قـــادة طـــول الدهـــور
أهـــل الدواويـــن الذيـــ ـن لهـــم نفـــاذ في الأمـــور
يـــا ابـــن الأكـــارم قـــد أتتـــ ـــك قصيـــدة مثـــل الشـــذور
كـــالروض يعبـــق بـــين ريـــ ـحـــان ونســـرين وخـــيري
فـــاجر علـــى عجـــل ودم حتـــى تهـــى ركنـــاً ثبـــير
أولا فـــإني قـــائل مـــا ليـــس يحملـــه ضميـــري
إن قيـــل مـــاذا لقيـــ ـــت مـــن الكبـــير ابـــن الكبـــير
قلـــت القليـــل ومثلـــه مـــن رُحـــت عنـــه بالكثـــير

ورغم ما ذكر من فقر في عامة المجتمع إلا أن هناك طبقة مترفة ، بل تعيش في غضارة من الحياة ، والشعراء يشيرون إلى الخلع التي تقوم بصناعتها دار الخلافة في بغداد ، والقاهرة ، وتنمح هدايا ولا يكون لها نظير ، وهناك من الأزياء الشيء الكثير ، وكذلك هناك موائد تمد فيها كثير من البذخ ، ومنها مائدة الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي في حلب فيمد عليها أربعمائة خروفاً ، وكذلك يمد السلاطين الموائد في المناسبات والأعياد ، والأعراس والختان وهي تدل على تأنق في الطبخ، وتأنق في مد الموائد وتنوع في الأغذية ، ومن ذلك قول ابن قلاقس يصف مائدة عليها أنواع الأطعمة والألوان :

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فديتك قد حان وقت الصبوح ... ولا ح الصباح ولم تحضر
وجاء الطهاة بما عندهم ... وحث السقاة على المسكر
ومدَّ القباطي فوق الخوا ... ن يلمع كالقمر المزهر
وحان الصلاة على ابن الشهيد ... فحي على دفنه تؤجر
وفوق المنصة مجلوة ... علينا عرائس من ((كسكر))
بنات المؤذن ذاك الذي ... يؤذن والصبح لم يسفر
سُبين وعُرين من بعد ما ... ذبحن فيا لك من منكر
فلما سُلبن الثياب ابتلين ... بسوداء موحشة المنظر
أصابعها الحجن مسنونة ... نواشب منهن في المنحر
فزارت بهن سواء الجحيم ... ترنح باللهب المسعر
فمصلوبة سمرت كفها ... إلى جيدها وهي لم تشعر
ومنقوبة البطن في جوفها ... كرات من الذهب الأحمر
وأخرجن منها الينا يقـ ... ـن سوق العصاة إلى المحشر
كأن تماثيل كافورة ... تضمخ بالمسك والعنبر
لجين إذا قشرته الأكف ... وتبر إذا هي لم تقشر
وقدم طباخنا رزه ... عليها لثام من السكر
بها احتجب البدر تحت الغمام ... فلم تتجل ولم تستتر
ترى للدهان على وجهها ... عيوناً تدور بلا محجر
وسرباً نواعم مخلوقة ... من اللوز والسكر ((العسكري))
قريان في مئزر واحد ... فلله ما ضُم في مئزر
ثقال المآزر قُب البطو ... ن غير سمان ولا ضُمر
كأن الفواقع قد فُصلت ... عليها جلابيب لم تُزرر
تراها لرقة أبشارها ... تخبر عن حشوها المضمر(١)

(١) ابن قلاقس ١٧٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد تحدث الشعراء عن عدد من الألعاب مثل الشطرنج والمزمار ، وذكروا ألعاب السلاطين، وقد نظم الشاعر أبو بكر الكاتب أبياتاً في الشطرنج يقول فيها:

أحبَّ دعابات الرجال إلى قلبي ... دعابة شطرنج أغادي بها صحبي
أسالم منها ثم أغدوا محارباً ... فسلمٌ بلا سلم وحرب بلا حرب

ويقول في هذه اللعبة :

إنما لعبك الشطرنج للنفس رياضة ... فاهجر الهجر لديه ولا ترد يوما حياضه(١)

ومن ذلك قصيدة طويلة لابن الخياط في لعبة النرد يقول فيها :-

والنرد كالنارود في مجالها ... أو كالمجوس ضمنها ما شوشها
كأنها دساكر للشرب أو ... عساكر جائشة جيوشها
وللفصوص جولة وصولة ... تحير الألباب أو تطيشها
قاتلها الله ! فلا بنوجها ... ترفع بي رأساً ولا شوشتها
أرسلها بيضاً إذا أرسلتها ... كأنها قد محيت نقوشها
كأنني أقرأ منها أسطراً ... من الزبور درست رقوشها
كأن نكراً أن أبيت ليلة ... مقمورها غيري أو مقموشها
تطيع قوماً عمهم نصوحها ... وخصني من بينهم غشوشها
يجيبهم متى دعوا أخرسها ... وإن يقولوا يستمع أطروشها
مديد بين دأبهم غيظي فما ... تسلم منهم عشية أعيشها(٢)

وملخص القول في الشعر الاجتماعي ، أن هذه الأشعار التي استنبطت منها الظواهر الاجتماعية التي رصدها الشعراء ، وهم يرصدوها وحسب وإنما عن آرائهم ، ووجهات نظرهم ، بل اندفعوا اندفاعاً قوياً كي يفصحوا عن فكرهم بجلاء ووضوح فهي تحمل فكراً ، ونحن لا نعدم عدداً من القصائد عند الشاعر أو

(١)ابن قلاقس : الديوان ٤٢٨ .
(٢) ابن قلاقس : الديوان ٤٢٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قصيدة واحدة يفضي فيها بصريح فكره ، ونحن أيضاً نجد كماً هائلاً من المقطعات الشعرية إلى جانب عدد من الشعراء اهتموا به اهتماماً ظاهراً مثل ابن المسجف وابن دانيال والجزار ، وابن السراج والأعمى والواقع أن الموضوع أكبر من أن أجمع شتاته ضمن بحث كبير ، لكن أتمنى أن تتاح لي فرصة العودة إليه ، لكني هنا قد حاولت أن أتناوله تناولاً مغايراً لرصفه ضمن الأغراض الشعرية ، فالمجتمع أكبر وقضاياه أكثر ومع كل هذا فلا نجد له وجوداً ضمن الأغراض الشعرية ، ذلك ما دعاني لأن أسلك هذا المنهج الأدبي الفكري في موضوعات هذا الشعر فقد تجلى لي من خلال الشعر ، صراع المجتمع ، وصراع الفرد من خلال الطبقية التي توزع عليها فقد قسمته ست طبقات الأولى والثانية من الثراء ، والأربع الباقيات من الفقر في بؤس وشقاء ، وهذا خلل اجتماعي .

وقد استشعرت أن علماء تلك العصور تنبوها لهذه القضية ، فدعو إلى العمل، ومنهم من اكتفى بالشكوى ، ومنهم من رفع قضاياه إلى الولاة ، والدواوين تزخر بهذه الأهيرة .

والشعر كشف عن انحرافات المجتمع الفكرية ، وفي إدارته ، واقتصاده ، وألعابه ومجونه ، وحتى مذاهبه فهو تحدث عن الخمر والحشيش وانحراف المذاهب الكلامية ، والشيعية .

وهناك معالم الزينة والاحتفالات ، والأطعمة ، والأشربة والألبسة حتى الخلاف بين الزوجين رصده الشعراء ، وأشاروا إلى أسبابه التي تدور حول الفقر .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الخامس

الاغتـــــراب

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الغربة والاغتراب :

إن المؤثرات الخارجية التي تهب نسماتها وزمهريرها ، وحرُّها وقرُّها على أحاسيس الإنسان ، فتثير كوامنه . وتثورد أوردته ، فتلتهب مشاعره ، وتمتزج بماضيه وحاضره ومستقبله ، وتنساب في لغته . ومن تلك العناصر التي تثير الرياح وتعصف بالوجدان ، الغربة والاغتراب . فالإنسان مدني بطبعه أي اجتماعي ، فإذا اغترب عن مجتمعه بعقله أو قلبه ، أو وطنه فإنه يعاني أشجان الاغتراب ، فمن قرب الصحب والأحباب ، والأنيس والخلان ، الذين ارتاضت إليهم نفسه ، وارتاحت بقربهم جوانحه ، ثم يغادرهم إلى مجتمع مستحدث فيه من الطباع ما لا يألفه ، وربما ينغلق عليه ، فلا ينفذ إليه ، فينزوي في وحشة انفرادية ، ويستشعر التفرد والانفصال فهو في غربة اجتماعية .

وهناك حب الوطن للأرض الطيبة ، وموطن النشأة وكلها لها علاقتها بالقلوب البشرية لأن حبها ينشأ مع نشأة الإنسان فتتفتح عيناه على سهولها وأوديتها وجبالها ، ووهادها، وتدرج أقدامه على تربتها ، وتعلق نفسه طبيعتها بل إن الطفل لو أتيح له لالتهم تربتها ، وارتوي بمائها ، وتغذى بنباتها ، واستنشق هواءها وتتواصل أحداث حياته بأماكنها فتغرس في تكوينه الذهني ، فلا أرض تدانيها في ذاته ، فجذور تكوينه متجذرة في كيانه ، فعندما يغادرها فإن وشائج التواصل شكائم متحلقة في أعشار قلبه فحنينه للوطن دائم ، ورياحه قريبة تحدق به ، فهو إن رأى مكاناً مشابهاً تفتحت غريزته ، وإن هبت رياح من جهة الوطن اهتزت روحه ، وإن سمع اسماً له ولو مماثلاً تواردت خواطره . فلا غرابة أن يظهر أدب الاغتراب في الأدب العربي : كرسالة (حنين الأوطان) للجاحظ ، وكتاب (أدب الغرباء) لأبي الفرج الأصبهاني ، وأبواب الشكوى والحرمان في المختارات الشعرية في أدبنا العربي .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والشاعر محمد بن محمد البغدادي المولود عام ٥٧٨هـ ، وهو كثير الأسفار استمرت رحلته سبعاً وعشرين سنة(١): وتثور أشجانه يوم العيد حيث لا أهل ولا وطن فيتجلد أسىً وحسرة ، وتنهمر دموعه ، وتستعر أحشاؤه ، والعيد دائماً يثير وجدان الغرباء :

وقائل قال يوم العيد لي ورأى ... تململي ودموع العين تنهمر
مالي أراك حزيناً باكياً أسفاً ... كأن قلبك فيه النار تستعر
فقلت : إني بعيد الدار عن وطن ... ومملق الكف والأحباب قد هجروا(٢)

فهو قد هجر وطنه ، وقد هجر أحبابه وأصدقاؤه وربما إن أصحاب الوطن ينشغلون بأقربائهم أولاً فاحس بغربة في هذه الفترة . وأدرك بعضهم مأساة الغربة عن الأوطان ورأى أن العزة في الوطن لا في الاغتراب ، كقول هبة الله بن علي الربعي المتوفى عام ٥٥٠هـ :

لاعز للمرء إلا في مواطنه ... والذل غاية ما يلقى من اغتربا
فاقنع بما كان من رزق تعيش به ... بحيث أنت ، وكن للبين مجتنباً
واعلم يقيناً بأن الرزق يطلب من ... لم يطلب الرزق إيماناً كمن طلبا(٣)

والشاعر البطائحي له مذهب في الغربة واقعي ، فهو يعمد إلى الملاحظة وغفران الزلات :

إذا ما كنت في قوم غريبا ... ظننت بأنني لهم نسيب
أعاشرهم بمعروف وأعفو ... وأغفر ذنبهم ولهم ذنوب(٤)

وظاهر الغربة مطلب يلجأ إليه الإنسان هروباً من قهر أو إملاق ، أو طلب العلم أو العلا فإن صاحب الهمة العالية يرحل إذا دعى داع بل إن بعضهم يحث

---

(١) الحموي : معجم الأدباء ١٩/٥٠ .

(٢) الحموي : معجم الأدباء ١٩/٥١ .

(٣) المرجع السابق ١٩/٢٨٤ .

(٤) العماد الأصبهاني ، الجزء الرابع ٢/٥٤٣ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عليه وممن يحبذه الشاعر الرئيس أبو الغنائم (٥٠١-٥٩٢هـ)(١) :

تصل العلى متخمطاً هجر الكرى ... فانهض لها ، ما المجد إلا في السرى
سر طالباً غاياتها ، إما ترى ... فوق الثريا أو ترى فوق الثرى
لا تخلدن إلى المقام ، فإنما ... سير الهلال قضى له أن يقمرا
إيه (ولي الدين) ما غرر العلى ... إلا لمن ركب الخطار وغرّرا
أيقظتني ورقدت عن إحرازها ... وحيازة العلياء في أن تسهرا
جردت من عزمي الموزع مصلتا ... وجلوت من همي الموفّع مسفرا(٢)

من سمات العصر الرحلات العلمية ، فالعلماء يجوبون أقطار العالم الإسلامي، من خراسان ، والعراق والشام ومصر ، ويمكثون كثيراً بعواصمه كي ينالوا من العلم ، وهم يجدون أقاليم مختلفة المناخ ، ومجتمعات مختلفة التقاليد والعادات ، فيستشعرون الغربة ، ومنهم علي بن الحسن بن عساكر الحافظ الدمشقي (٤٩٩-٥٧١هـ)، فقد انتقل إلى نيسابور فكان غريباً فلا صاحب يسلي ولا سكن يأوي، وبردها شديد ولولا نار الفرقة والبعد لتجمد دمه في عروقه وهذا معنى لطيف يقول :

لا قدس الله نيسابور من بلد ... ما فيه من صاحب يسلي ولا سكن
لولا الجحيم الذي في القلب من حرق ... لفرقة الأهل والأحباب والوطن
لمت من شدة البرد الذي ظهرت ... آثار شدته في ظاهر البدن
ياقوم دوموا على عهد الهوى وثقوا ... إني على العهد لم أغدر ولم أخن
ولا تدبرت عيشي بعد بعدِكُمُ ... إلاّ تمثلت بيتاً قيل من زمن
« فإن أعش فلعل الله يجمعنا ... وإن أمت فقتيل الهم والحزن »(٣)

ويصدق على هذا قول من قال في شعر ابن عساكر « هذا أضاع فيه صاحبه

(١) العماد الأصبهاني : الخريدة ، الجزء الرابع ٢/٤٣٠ .
(٢) المرجع السابق ٢/٤٣٣ .
(٣) الحموي : معجم الأدباء ١٣/٨٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

شيطانه »[1]، فهو شعر عالم عقلاني واقعي .

وتنقل الأدباء في المدائن ، والعواصم الإسلامية ، واستمرار الرحلة طلباً للجاه، والأمن ، وربما تكليفاً من الولاة ، حيث إن الشعراء يسيرون في مواكب الأيوبيين ، والسلاطين الأيوبيون لا يقر لهم قرار و لم يعرف عن أحدهم استقرار في مدينة معينة ، وإنّما يسيرون للحروب الداخلية وحروب الصليبيين . ومما يصور حالة الاضطراب النفسي من جراء تتابع الأسفار بهاء الدين زهير فهو يتمنى الاستقرار حتى تأتيه منيته وهو آمن مستقر ، فقد أتلف عمره في الاغتراب والارتحال المستمر ، فلا قرار له في ديار حتى في الغربة فهو في ذهول من أمره :

ليت شعري ليت شعري ... أي أرض هي قبري

ضاع عمري في اغتراب ... ورحيل مستمر

ومتى يوم وفاتي ... ليتني لو كنت أدري

ليس لي في كل أرض ... جنتها من مستقر

بعد هذا ليتني أعـ ... ـرف ما آخر عمري

ومتى أخلص مما ... أنا فيه ليت شعري[2]

هذه الحالة المضطربة تمتد إلى حياة غالبية الشعراء ، فمن تاريخهم ، نجد أن القيسراني متنقلاً في بلاد الشام من أقصاها إلى أقصاها ويرتحل أحياناً إلى بغداد. ومثله قرينه ابن منير الطرابلسي ، وهما يتنقلان مع نور الدين الذي لم يستقر في عاصمة محددة ، وأيضاً نستحضر حالة العماد الأصفهاني في العراق ، والشام ، ومصر . وهكذا فهي ظاهرة متبلورة في التاريخ الأدبي وسيرة العلماء .

والحيرة التي أشار إليها بهاء الدين زهير تمثل لمحة شعورية تنتابه في فترات محدودة ، وإلا فهو اكتسب جاهاً كبيراً في أسفاره ، وتدارك الشعراء ذلك فهذا

(١) المرجع السابق ٨٦/١٣ .

(٢) الديوان ١٤٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

القاسم الواسطي يدعو إلى طلب المعالي ، والتصادم مع العقبات ، ويدعو إلى حياة جادة فالمجد لمن أبعدته عزائمه في سبيل الطلب ، وسهر الليالي، والاعتراك مع الحياة ومع المنافسين المتبارين ومن هناك يدرك الإنسان شأوا ، ويلتذ بحياته عندما يرتقي مرتبة ، فهي قصيدة تدفع بالشباب إلى مصارعة الأهواء ، وتستنهض عزائمهم ، ومثل هذا ما نبتغيه لشباب الأمة الإسلامية والعربية :

جد الصبا في أباطيل الهوى لعب ... وراحة اللهو في حكم النهي تعب
وأقرب الناس من مجد يؤثله ... من أبعدته مرامي العزم والطلب
وقادها كظلام الليل حاملة ... أهلة طلعت من بينها الشهب
منقضة من سواء النقع في أفق ... شيطانه بغمام الدرع محتجب
وأسود وجه الضحى مما أثار به ... وأشرق الأبيضان الوجه والنسب
لا يُرهِبُ المرء ما لم تَبْدُ سطوته ... لولا السنان استوي الخطي والقصب
إن النهوض إلى العلياء مكرمة ... لها التذاذان مشهود ومرتقب
والملك صنفان محصول وملتمس ... والمجد نوعان موروث ومكتسب
والناس صندان مرزوق ومحترم ... تحت الخمول ومغصوب ومغتصب
والطاهر النفس لا ترضيه مرتبة ... في الأرض إلا إذا انحطت لها الرتب
والفضل كسب فمن يقعد به نسب ... ينهض به الأفضلان العلم والحسب
لله در المساعي ، ما استدر بها ... خلف السيادة إلا أمكن الحلب
وحبذا همة في العزم ما انتدبت ... لمبهم الخطب إلا زالت الحجب
وموطن يستفاد العز منه كما ... أفادت العز من سلطانها حلب(١)

وابن الدهان يحكي لنا حكايته مع الأم عندما يعزم ابنها على مغادرة الديار ، وكيف تضطرب وتلح في التثبيط ثم تنتهي إلى سكب الدموع :

وذات شجو أسال البين عبرتها ... قامت تؤمل بالتنفيذ إمساكي
لجت فلما رأتني لا أصيح لها ... بكت فاقرح قلبي جفنها الباكي

(١) الحموي : معجم الأدباء ١٦/ ٣١٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قالت وقد رأت الأجمال محدجة والبين قد جمع المشكو والشاكي
من لي إذا غبت في ذا العام قلت لها الله وابن عبيد الله مولاك
لا تجزعي بانحباس الغيث عنك فقد سألت نوء الثريا صوب مغناك(١)

والعلماء يجدون صراعاً من أسرهم حول طلب العلم والمعالي فزوجاتهم تدندن على أسماعهم بالتثبيط والإغراء بالراحة والدعة ، يقول أبو الفضل ابن النظر وفي المتوفى ٦٠٣هـ :

باتت تصد عن الكرى وتقول : كم تتغرب ؟
إن الحياة مع القنا عه والمقام لأطيب
فأجبتها : ياهذه غيري بقولك يخلب
إن الكريم مفارق أوطانه أو يجدب
والبدر حين يشينه نقصانه يتغيب
لا يرتقي درج العلا من لا يجد ويتعب(٢)

ومسببات الغربة أكثر من أن تحصى ومنها غربة العالم والأديب في موطنه حيث يزداد علمه ، ويجل فضله ، وتعلو مكانته ، لكن الأهل أزهد الناس بعالمهم، وربما إن ثقافته وعلمه تكون له اتجاهاً فكرياً ، فلا يجد رواجاً لفكره ، ولا قبولاً لرأيه ، بل يتصدون له ويعارضونه فتكون الغربة .

فالكاتب الشاعر محمد بن علي اللخمي المتوفى ٦١٦هـ ، يدعي أنه سيهجر العلم لا بغضاً ولا كسلاً ، بل لكساد مكانة العالم ، ولما يجد من معارضة وحسد فهو لا يحب أن يعرف بعلمه فكلما ازداد الإنسان علماً كلما نقص ، وكلما ازداد جهلاً ازداد جاهاً فهو في غربة :

سأهجر العلم لا بغضاً ولا كسلاً حتى يقال أرعوى عن حبه وسلا
ولا أمر ببيت فيه مسكنه كي لا يمثل شوقي حيثما مثلا

(١) الديوان ١٨٢ .
(٢) الكتبي : فوات الوفيات ٢/٤٠٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إذا ظمئت وكان العذب ممتنعاً ... فلست عن غير ذاك العذب معتزلا
إذا طردت قصياً عن حياظكم ... فإن نفسي مما تكره النهلا
قد كان عندي زعيم القوم عالمهم ... فاليوم عندي زعيم القوم من جهلا
ما إن رأيت الذي يزداد معرفة ... إلا يزيد انتقاصاً كلما كملا
وآية الصدق في قولي وتجربتي ... إن الجواد على العلات ما وألا(١)

والشاعر العالم أبو الحسن البيهقي (٤٩٩-٥٦٥هـ)(٢) قد تنقل في البلاد طلباً للعلم وكتب سيرته الذاتية في كتاب (مشارب التجارب) ولم أعثر على نسخة لهذا الكتاب لا مخطوطة ولا مطبوعة . وهو يشكو فقدان الأمن ، وتدني الحال رغم أن لا نظير له في زمنه علماً وصلاحاً فلم تؤهله تلك إلى تحقيق الرجاء الذي شاب قبل يسرّ به وليرى أن الشهرة والجاه تؤديان إلى الحسد والغيرة التي تقف حائلاً في وجهه ، وهذه ظاهرة تبدو للعيان فإن صاحب العلم والعقل والدين ينافس أولئك المتربعين على عرش الجاه والمال والسلطان فمن يجرؤ أن يدنيه ؟ فالكل يخشى التنافس . ويشير إلى أن المال يؤدي إلى السيادة مما يغري الناس بكسبه من أي الوجوه :

شموسي في أفق الحياة هلال ... وأمني من صرف الزمان محال
وأطلب والمطلوب عز وجوده ... وأرجو وتحقيق الرجاء محال
إلى كم أجرى من زماني مسرة ... وقد شاب من رأس الزمان قذال
وبالٌ على الطاووس ألوان ريشه ... وعلم الفتى حقاً عليه وَبَالُ
وللدهر تفريق الأحبة عادة ... وللجهل داء في الطباع عضال
لقد ساد بالمال المصون معاشر ... وأخلاقهم للمخزيات عيال
وبينهم ذل المطامع عزة ... وعندهم كسب الحرام حلال(٣)

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات ١٥٧/٤ .
(٢) الحموي : المعجم ٢١٩/١٣، ٢٢٠ .
(٣) الحموي : المعجم ٢٣٣/١٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وتتمثل غربة العالم في بائية أبي الحسن البيهقي ، حيث يصحبه الجوى والنحيب في مضجعة ، فهو دائم الضنى والتسهد ، وأحسن تصويره ضياء الآمال الفردية وأحلام اليقظة بالليل الداجي يأساً منها لاسيما وهو يتأمل المنذرات السود، وكأن الغراب ينعب بها منذراً ، وتصويره للقوارض المعنوية بلسع الأراقم فهي توقظه من سلوته بأحلام يقظته :

ضجيعي في ليلي جوى ونحيب ... وإلفي في نومي ضنى ولغوب
دجا ليل آمالي ، وأبطأ صبحه ... وللمنذرات السود فيه نعيب
وتلسعني الأيام فهي أراقم ... وتخدعني الآمال فهي كذوب
ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... وباعي في ظل الوصال رحيب
خليلي لا تركن إلى الدهر آمناً ... فإحسانه بالسيئات مشوب

وهو يشير إلى غربة العالم ، وتعرضه لقدح الجهال بما هو جهل فهو إن لم يجارهم في سلوكياتهم فهو ناقص في نظرهم ، وليس هذا فحسب بل عيروه بالعلم والحلم والنهى ، وتلك كفيلة بإحجامه عن كثير من السلوكيات التي تكون وسيلة للمال والجاه في نظر عامة الناس . فكيف لا يكون غريباً عند من يجعل العلم جرماً :

وعيرني بالعلم والحلم والنُهى ... قبائل من أهل الهوى وشعوب
فقلت لهم : لا تعذلوني فإنني ... لصفو زجاجات العلوم شروب
وما ضرني أني عليم بمشكل ... وقد مس أهل الدهر منه لغوب
لئن عُد علم المرء جرماً لديكم ... فذلك جرم لست منه أتوب

مظاهر الغربة :

ومن مظاهر الغربة في العصور المتزامنة مع الحروب الصليبية ما ينتج عن التكوين الذهني واللغوي لأفراد المجتمع ، فإن جلّ أبناء العالم الإسلامي يعيشون التراث اللغوي والأدب القديم ، فينشئون في رياض الأدب حفظاً ، ودرساً ووعياً

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

به ، فينغرس في تكوينهم الذاتي ، ويتلونون به إعجاباً واقتداء فينزرع في نفوسهم فهو موطن النفس والعقل ، فيتواصلون معه فإذا هو بمنأى عن واقع الحياة، فيتواصل إبداعهم الأدبي مع التكوين الذهني القديم ويعرضون عن الواقع الحديث في ذلك غربة لهم وتتبلور في الثروة اللغوية ، والشكل الأسلوبي ، والمضمون الوجداني والأمثلة على ذلك تتجسد في جل دواوين المعاصرين ، فإن الجزيرة العربية موطن الأدب العربي القديم انغرست في حياتهم الأدبية . حيث نجد أن من أشهر الأقاليم التي درجت على ألسنة الشعراء إقليم (نجد) ، فنجدٌ بوحي أحداثها وعبق تاريخها ، ونسمات حنينها ، ونفثات أشجانها تمثلت واقعاً احتل مساحات كبيرة من دواوين الشعراء ، حتى أن الأبيوردي أطلق (النجديات) على ثاني دواوينه ، وتصدرت أسماء الأماكن ، وأسماء النساء في الجزيرة ، مقدمة القصائد في دواوين العديد من الشعراء ، كالأبيوري ، والأرجائي ، وابن الخياط ، وغيرهم كثير .

أليس من الغربة أن الشاعر الأمير أبا الفتوح الذي عاش متحضراً في المدن مبتعداً عن الجزيرة ، تراه وقد اغترب بشعره إلى القبائل العربية ، كعب ، وكلاب وإلى قباب البادية ، يسير قلبه مع هوادجها :

لِحَيِّ (كعبٍ) أم أخيه (كلابْ) مرت بنا بالأمس تلك القباب(١)

فهل رأت عيناك من قبلها جآذراً تمنعها أُسد غابْ(٢)

كم في حدوج القوم من غادة رخيمة الدَّلِّ أناةٍ ، كعاب(٣)

---

(١) بنو كعب : بطون كثيرة ، أشهرها بنو كعب عامر بن صعصعه ، وبنو كعب بن لؤي بن فهر بن غالب . وبنو كلاب : بطن من عامر بن صعصعه .

(٢) جآذر : جمع جؤذر ، وهو ولد البقرة الوحشية .

(٣) الحودج : مراكب النساء كالهودج والمحفات ، واحدها حدج . غادة : فتاة ناعمة لينة الجوانب رخيمة الدل : لينة الدلال رقيقة ، أناة : منعمة فيها فتور ورزانه كعاب : ناهدة الثديين

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إن أظلمت فرعاً أنارت سناً ... أو أشبعت حجلاً أجاعت حقاب(١)

يغض من ضوء الهلال العمى ... ولا يغض الحسن منها النقاب(٢)

وذي صفاء ، ليس لي دونه ... سر صريح الود محض الحباب(٣)

وهو يصفها بأوصاف الحسن الخلقي والخلقي التي تلمح على نساء القبائل المرتحلة في بواديها :

قال : لقد غيرت اسم التي ... سميتها في الشعر أخت (الرباب)

وهو كما قال ، ولكنني ... أراقب الغيران أي ارتقاب(٤)

وهي رداح الخلق ، خمصانة ... أحسن من جيت عليه ثياب(٥)

تفتر عن مثل أقاح النقا ... غر الثنايا ، واضحات عذاب(٦)

إن وعدت لم يشفني وعدها ... هل ينفع الظمآن لمع السراب(٧)

ويحي ! وما ويح بمجدٍ حداً ... فكل عيش وبقا في ذهاب(٨)

إن أنا لما أعط أمنيَّةً ... قد لجت نفسي بها ، فهي داب(٩)

لو قال لي : « ما تشتهي ؟ » قائل ... لقلتها إما خطأً أو صواب:

عندي من الشيب القليل الذي ... أمسيت منه في عنا واكتئاب

فكيف - لا كيف - يكون العزا ... إن وقع السرُ ، وطار العقاب؟

---

(١) الفرع : الشعر التام ، أشبعت حجلاً : كناية عن امتلاء ساقيها . أجاعت حقاباً : كناية عن ضمور بطنها ودقة خصرها ، والحقاب : شيء تشده المرأة على وسطها تعلق به الحلي ونحوها .

(٢) يغض منه : ينقصه ويحط من قدره . النقاب : ما تجعله المرأة على مارن أنفها تستر به وجهها .

(٣) محض : خالص . الحباب : الفقاقيع على وجه الماء ، أراد الشراب .

(٤) الغيران : الزوج ، أو الأب ، أو الأخ .

(٥) رداح : ضخمة الردف سمينة الأوراك ، خمصانة : ضمرة ، جيت : قطعت .

(٦) تفتر : تبتسم ، الأقاح : الأقحوان ، وهو نبت زهرة أصفر أو أبيض ورقة مؤلل كأسنان المنشار . كثر تشبيه الأسنان بالأبيض المؤلل منه .

(٧) ينفع : يروي ويسكن العطش .

(٨) بمجد : نافع . حداً : عطاء .

(٩) داب : داب أي عادة وشأن ، حذفت همزته للضرورة .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وكـــل شـــيءٍ ، يتعـــزى الفتـــى عنـــه إذا مـــا فـــات ، إلا الشـــباب
أســـتغفر الله ، بديـــع العُلـــى ، إليـــه أدعـــو ، وإليـــه مـــآب
مـــن ســـيئات أثقلـــت كـــاهلي قـــد مـــلأ الكـــاتب منهـــا الكتـــاب
يـــاليت شـــعري هـــل ليـــالي الغضـــى آيـــةٌ ، أم مالهـــا مـــن مـــآب ؟
أيّـــام إنْ يـــدع الهـــوى اســـتجبْ فـــاليوم مـــا عنـــدي لـــه مـــن جـــواب
مـــالي وغمـــرٌ حاســـدٌ ، ينتحـــي عرضـــي بـــالغيب بظُفـــر ونـــاب؟
يغتـــابني ظلمـــاً ، وتـــأبى العُلـــى مـــن أن ترانـــي في مقـــام اغتيـــاب
لم يستطـع مثلـي صعـود العُلـى فعاد يرميـني بهجـر السبـاب

والغربة تلزمه في الحديث عن ذاته فمصادر صوره من تلك الحياة القبلية فهو يصور الذين يعارضون ، بالكلاب النابحة ، والنوائب بالعاديات من الذئاب :

فكنـــت كـــالنجم عـــلا مـــنزلا فكـــاده بـــالنصح بعـــض الكـــلاب
يعـــدو علـــى مـــالي جـــودي ، ولا تعـــدوا عليـــه عاديـــات الذئـــاب
ولـــو جمعـــت المـــال ، أثـــرت يـــدي وآض لي مـــال عميـــم ، وثـــاب
وكيـــف ينمـــي المـــال مـــن بـــاذل طلابـــه الحمـــد ؟ ونعـــم الطـــلاب
فـــاز بمـــا وطـــد مـــن ســـؤدد وضـــل شـــانيه المعنـــى ، وخـــاب
وكنت إن خفـــت أذى من عـــدي بدلت سيفي مفرقـــاً من قـــراب(١)

والظاهرة الغربية الأظهر من الغربة تتمثل في شعر الشاعر الأمير الأيوبي الكردي الأصل الملك مجد الدين بن بهرام الأيوبي المتوفى ٦٢٨هـ . فإن هذا الملك ربيب الحضارة ، عاش في بيئة الشام ومصر بل في عواصمها ، وتربى في نعيم الدولة الأيوبية ، وتنشأ في القصور ، وكحل عينه بالحدائق الغناء في الغوطة خاصة والشام بعامة ، وشنف أذنيه بخرير الماء في الأنهار والجداول واستمتع برؤية الأزهار والورود ، ومع كل ذلك فإن ديوان شعره (ديوان الملك الأمجد) ضخم تجاوز أربع مائة صفحة من القطع المتوسط يمثل الغربة الكبيرة عن تلك الحياة

(١) العماد الأصفهاني : الخريدة ، الجزء الرابع ٢/٥٦٢ إلى ٥٦٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

السالفة ، فهذا الديوان الضخم يمثل حياة الجزيرة العربية ، بأوديتها ، وجبالها ، وسهولها وأسفارها ، وحبها العذري وأماكنها التي لمعت في الأحداث الإسلامية ، سيما الأماكن المقدسة وما حولها وما وردت في مغازي الرسول ﷺ وطريق الحاج، ومواطن العذريين .

وهذا الملك في غربته ينأى عن ظل القصور ليفيء إلى الضال والسدر ، ويستنشق أرواح نجد ليذهب ما يلتهب في صدره ، وهو يشير إلى يأسه من لقاء حبيبته ، وربما إن رغبته في شعره ترمز إلى ذلك اليأس :

وإن امرأ أمسى يسائل منزلا ... ترحّل عنه ساكنوه ، لفي خسر
وإن زماناً لا يرى فيه مغرم ... أحبته في الربع ليس من العمر
أحن إلى من بان عن رمل عالج ... واشتاق ما فيه من الضال والسدر
وأستنشق الأرواح نحو أرضه ... ليذهب ما ألقاه من غلة الصدر
توقد أنفاسي ، إذا ما ذكرته ... فأحسب مجراهن مني على جمر
لعل خيالاً منك بالليل طارقاً ... إذا هوّمت عيناي ، وأفي على قدر(١)
عدمت التلاقي يقظة فعلني ... أراك ، إذا منّت بتهويمها النزر
أحَجْرُ على الأجفان تهويمها إذا ... سرت شمال وهناً إلى الغور من حِجرِ؟
حرمت لذيذ العيش ، لما ترحلت ... بك العرمس الهرجاب ، ياربه الخدر(٢)
كأن ذراعيها ، وقد أمّت الفضا ... جناحاً عقاب اللوح تهوي إلى الوكر
وما زلت أخشى البين قبل وقوعه ... لأن الليالي قد طبعن على الغدر
فهل لي سبيل أن أجدد نظرة ... كعهد بها من قبل ، في خدك النضر
وأرشف ظلماً من مجاجك بارداً ... تفوق ثناياه على ناصع الدر(٣)،(٤)

---

(١) هوم : نام قليلاً .

(٢) العرمس : الناقة الصلبة . الهرجاب : الطويلة الضخمة .

(٣) الظلم : الماء الذي يجري ويظهر على الأسنان .

(٤) الملك الأمجد : الديوان ١٤٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فأين بهرام شاه في شامه أو مملكته بعلبك عن المهامة والموماة القاحلة ؟ ثم هو يركب الخيل النجيبة ، لكنه في غربته يركب النوق الكوم التي تمكث زمناً طويلاً عن الماء فتحن إليه فيشاركها في هيامها ، وهو يمتطيها في الفيافي الشاسعة فتغذ السير إذا شنفها لحن الحادي ، وهذه الأماكن ليست معبراً له أو درباً ولكن النفس تتوق إليها :

لئن جاد لي بالقرب دهر ذممته ... علا البعد كانت منّةً ليد الدهر
ومالي – إذا أصبحت عني بعيدة ... ولم أركب الأهوال نحوك – من عذر
سأرتحل الكوم الحراجيح ترتمي ... على الأين، في الموماة من شدة الذعر(١)
إذا غرد الحادي تطير كأنما ... ترى أنفاً أن تقتضي العيس بالزجر
تعاف المجاني غب كل سحابة ... بدت وهي تجلى في غلائلها الخضر
تتوق إليها النفس لما توشعت ... رياض الربا بالنور من سبل القطر
وأطلب وصلاً منك قد عز برهة ... بحد المواضي البيض والأسل السمر
وأجاد حرب ما بدت جبهاتهم ... من النقع إلا وهي كالأنجم الزهر
يخوضونها والخيل شهب فتنثني ... من الطعن في زهو بألوانها الشقر
إذا كنت لا أدنو إليك بعزمتي ... فلا خير في حلو من العيش أو مر(٢)

وخبرته بأنواع سير الإبل ، فهي خفاف في وردها ثقال في صدروها ثم أين وقاعة من الرقمتين أليس من الغربة أن يترنم بها وبعبق نسيم نجد ، وعبق عراره وخزاماه ويمتع ناظره برنده ، وبيانه ، وقدوده الهيفاء :

هي العيس دعها بي إلى حاجر تحدي ... طلاحا تؤم الجزع أو تنتجع نجدا
تعجز في الموماة ، وهي ضوامر ... بري نيها الإيجاف ، ظلمانها الربدا(٣)
خوماص أنضاها الذميل فكلما ... شكت ظلماً أمست لها أدمعي وردا

(١) الحراجيح : جمع حرجوج ، وهي الناقة الجسيمة الطويلة .
(٢) الملك الأمجد : الديوان ٢٥٠ .
(٣) الربد : جمع أربد ، وظليم أربد لونه كلون الرماد .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تنـــاثر في البيـــداء ورداء خفافهـــا ... وينظمـه الإرقـال مـن خلفهـا عقـدا
أجيراننـــا بـــالرقمتين نقضتـــم ... عهودي ، وكم راعيت بعدكُمُ العهدا
نـأيتم فلـي عـين أضـر بهـا البكـار ... وبنتم فلي قلب على النـأي لا يهـدا
فمـن لغـرام ليـس يخبـو ضرامـه ... إذا الريـح أهـدت لي بريـاكُمُ بـرداً
أرى في ضلال الحب وجدي بكم هدى ... وغي الهوى العذري في مثلكم رشداً
فللـه رنـد الواديـين وبانـه ... وقد رنحت ريح الصبا قضبة الملدا
كأن القدود الهيف ، وهي موائس ... أعرن الثني ذلك البان والرندا
برود الرضا العذب أورثني الضنى ... إلى أن غدت أعضاي لا تحمل البردا
وقد كنت حراً قبل أن أعرف الهوى ... فلما عرفت الحب صرت له عبدا
أحبابي طال البعد والعيس ترتمي ... عجافاً بنا تأتم أرضكم قصدا
كأن عليها السير ضربة لازم ... لتنضى به وخداً ، وأضنى بكم وجدا
وما زلت أخشى الهجر والبعد منكم ... ومن ذا الذي لم يلق هجراً ولا بعداً؟
أعاتب في الأحباب قلبي ضلالة ... ولي كيف تصلى بنار الهوى وقدا

والرجل في غربته دائم الأسفار متنقل على ناقته بين أماكن متباعدة فلا يستقر به قرار ، ولا إخال أن تلك الأشعار لمثل هذا الأمير ثم القائد المجاهد ثم الملك إلا تمثيل لغربته حيث هناك ظاهرة القائد الفذ ، والأمير النابه ، والملك العادل الحكيم ، والمدبر الصالح . ولكنه قد يعاني من الحب الذي ألهب دواخله ، فلا يستطيع منه فكاكاً ، وكأن مكانته الاجتماعية حالت دون تحقيقه ، فأخذ يفرغ ما في نفسه من غربة بعيدة التذ بها أولاً ، وهام بها بعد طول صحبة ، أو أن الأمير يحكي واقعاً يظلله بنوع من الضباب ، فهو متنقل بين الشام ومصر وميادين الجهاد ، وربما يهوى مقيمة في إحدى المدن فيرمز بتلك الأماكن إلى ما يعتلج في نفسه .

فهو يتمنى هبوب الرياح لتحمل عبير المحبوبة ، وهو يصهر القد بين البان ولا إخاله إلا يوحي بغزارة الأشجار في غوطة دمشق وزبادنية لا في شجيرات الجزيرة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المتباعدة :

فليت هبوب الريح من نحو أرضهم ... تبلغ عن ميقات عودهم وعدا
لي الله من وجد إذا قلت : قد مضت ... أواخره عني أعاد الذي أبدى
كأني لما ألق من لاعج النوى ... ولما أعانيه ومن حبهم بدا
مراد الهوى عهدي بمغناك ضاحيا ... أنيقاً به نجلو لواحظنا الرمدا
أقبل ثغراً في ربوعك أشنبا ... وأهصر بين البان من مثله قدا
قطعت به عيشاً رقيقاً إهابه ... ومن لي به لوا أستطيع له ردا؟
فكيف أحال الدهر حسنك وانثنى ... بياض التداني في عراضك مسودا؟
ودعلبة صدت عن الورد بعدما ... تراءت لها من دون أهل الحمى صدا
كأني وإياها ، وقد أمت الغضا ... إلى أربع الأحباب مسرعة وخدا
شهاب وسهم بين أعواد كورها ... رمت بي حنايا العيس قلب الفلا فردا
لئن لم أجد في حب جمل على الهوى ... جميلاً ، ولم تسعف بإسعادها سعدى
فلي أسوة بالأقدمين صبابة ... وقد وردوا للوجد منهله العِدَّا
فراق وهجركم تجلدت معهما ... وكم قهرا قبلي بناريهما جلدا
وكم في المجاني من نبال لواحظ ... فَرَتْ بعد أحشائي المضاعفة السردا(١)
لحاظ مراض أخلتني كأنما ... تعدى إليّ السقم منهن أو أعدى(٢)

ومن شعر الاغتراب لامية العماد الأصبهاني التي بعث بها إلى أهل العراق ، والقصيدة من الشعر الاغترابي فمناسبتها مدح لكمال الدين أبي الفضل عبيدا لله بن الوزير عضد الدين ابن رئيس الرؤساء ، فقد رعى ذلك الوجيه أسرة العماد الأصفهاني لما أجبرته الحياة السياسية إلى الارتحال لبلاد الشام فبعث إليه بهذه القصيدة .

والقارئ لأبياتها الأربعة الأولى يعتريه الشك أن الرحل يكتب مقدمة غزلية

(١) فرت : مزقت وخرقت . السرد : الدرع المحكمة .
(٢) الملك الأمجد : الديوان ٢٥٠ حتى ٢٥٢ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

غير صادقة العاطفة تلحق بالمقدمات التقليدية ، سيما أن الشاعر خاطب جمعاً من الأحبة فالهجر إلى الوصال ، واختياره بذكر الأحبة ، وهواه وصبابته ، والعذل في الهجر ، وحلاوة العيش بذكرهم كلها من معجم الغزل :

قضى عمره في الهجر شوقاً إلى الوصل ... وأبلاه من ذكرى الأحبة ما يبلي

وكان خليّ القلب من لوعة الهوى ... فأصبح من برح الصبابة في شغل(١)

وأطربه اللاحي بذكر حبيبه ... فآلى عليه أن يزيد من العذل

وإن مرير العيش يحلو بذكركم ... وهل لمرير العيش غيري مستحل؟

غير أن الالتباس يزول بذكر البيت (الخامس) :

وصالكم الدنيا وهجركم الردى ... وقربكم عزي وبعدكم ذلي

فهذا يشير إلى أن المقصود هم الأهل والأسرة القريبة فالحب يشفي الصدور لكن لم يرد فيه عزٌ ، و لم يود الفراق إلى ذل وإنما العز باجتماع الشمل الأسري ، والذل بانفراد الفرد عن مشكاته .

ثم ينتقل في أشواك الاغتراب من المنة بحفظ الوداد بحماية الأعراض والأموال، فله وافر الحمد ، وتارة يشير إلى تجاوز الصبر حتى تطرأ السلوكيات غير المتزنة . ويستعيد ذكريات الولاية ، وأشجانها ، وأن الأعمال في الولاية وديعة مستردة والعبرة بثبات الوصل ودوام الأصحاب ، فإن الهجر بعدها ، وقلى الناس نوع من القتل :

ومستحسن حفظ الوداد ، فراقبوا ... لأجل اقتناء الحمد – عهدي – لا أجلي

ففي الصبر من قلب المتيم خبله ... وكيف ثبات القلب في مسكن الخبل؟

فقلبي بين الشوق والصبر واقف ... على جدد بين الولاية والعزل(٢)

إذا ما بقاء المرء كان بوصل من ... يحب ، فإن الهجر نوع من القتل

غير أن انتقال الشاعر إلى الغزل في قوله :

---

(١) البرح : الشدة .

(٢) الجدد : وجه الأرض ، والأرض الصلبة المستوية ، ومنه المثل : ((من سلك الجدد أمن العثار)) .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نحولي ممـــن شـــد عقـــد نطاقـــه على ناحلي واهٍ من الخصـــر منحـــل

يشير إلى أن الشاعر قليل المعاناة في غربته فهو لم يلبث طويلاً في أسفاره حتى التقى في عز ومكانة سامقة في ظلال نور الدين زنكي ثم صلاح الدين من بعده غير أنه يشفع له أن تلك الومضة الغزلية من ذكريات الحقبة السالفة . وذلك متواصل مع صحبه الذين يصافيهم ويأنس بقربهم :

وإخـــوان صـــدق ، للصداقـــة بيننـــا صفاء صدور طهروهـا مـن الغـل(١)
نـدارس آي العقـل من ســورة الهـوى ونفهـم معنى العلـم من صـورة الجهـل
وها أنا قد أصبحت بالشـــام شائمـــاً سنا بارق من غير وبـــل ولا طـــل(٢)

ثم هو يصور وطأة الغربة في الشام حيث لا يرى إلا شائم البرق العراقي ، وهو يتجافى في غربته بلوعة البعد والحرمان ، فلا ملذات ولا سلوان ، ولا صاحب صدق يفضي إليه بمكنون لوعته والثروة التي جناها في غربته تزيد من خصاصته النفسية . ثم هو يستمطر سلوكياته حيث يدفع السيئة بالحسنة ، ويسلك مدارج المدارة التي تستل دغل الحقد ولكنها لا تجدي في مداراة الحاسد الحاقد . ثم هو لا ينكر أهل الشام وإسداء المعروف والبذل منهم :

وها أنا قد أصبحت بالشام شائماً سنا بارق من غير وبل ولا طل
يؤهلني للبعد من كل خطوة ويحرمني اللذات بعدي من الأهل
ولا صاحب عندي أحاول نصره بتخفيف ما يعروه فادح الثقل
وإني أرى عين الخصاصة ثروتي إذا عجزت عن سدها خَلَّةُ الخِلِّ(٣)
ألا أين حسادي الأشداء رقبة لهم وأعاني الصعب بالخلق السهل
وأبقى مداراة اللئيم لعله يبيت ولا يطوي الضمير على دغل(٤)

---

(١) الغل (بالكسر) : الحقد .

(٢) شام البرق : نظر إلى سحابته أين تمطر .

(٣) الخصاصة : الفقر . و الخلة (بالفتح) : الحاجة والفقر . والخل : الصديق .

(٤) الدغل : (بفتحتين وسكن الثاني للضرورة) : الفساد ، مثل الدخل .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سوى السوء لا تجدي مداراة حاسدي ... كما يستفاد السم من صلة الصل
ومن نقص دهري قصد فضلي بصرفه ... ليرخص منه ما من الحق أن يغلي
وإني من العلياء في الكنف الذي ... به حظ فضلي لكما انحط يستعلي
وماذا بأرض الشام أبغي تعسفاً ... ولا ناقتي فيها ترام ولا رحلي
ولي حرم منه الأفاضل في حمى ... من الصون بالمعروف ، بالبذل في حل(١)

والشعراء يذمون لزوم الوطن لأن ذلك يودي إلى الضعف العلمي ، والاستكانة ، ويحثون على السير ، وأن يجوب الديار طلباً للعلم والجاه والمال . فالرئيس أبو الغنائم محمد بن علي المعلم المعاصر للعماد الأصفهاني ، يدعو إلى النهوض ، وأن المجد في السير والسرى . وأن المعالي لا تنال إلا بطلب غاياتها مما يرتقي بك إلى الثريا وترتفع عن الثرى ، ويضرب مثلاً بالهلال فإن تنقله يجعله قمراً منيراً :

تصل العلى متخمطاً هجر الكرى ... فانهض لها ما المجد إلا في السرى(٢)
سر طالباً غاياتها : إما ترى ... فوق (الثريا) ، أو ترى فوق الثرى
لا تخلدن إلى المقام ، فإنما ... سير الهلال قضى له أن يقمرا(٣)
إيه (ولي الدين) ما غرر العلى ... إلا لمن ركب الخطار وغررا(٤)
أيقظتني ، ورقدت عن إحرازها ... وحيازة العلياء في أن تسهرا
جردت من عزمي الموزع مصلتا ... وجلوت من همي المرفع مسفرا(٥)
لك « واسط » ، ومن الوقوع بمثلها ... حذرت قبل ، وواجب أن تحذرا

وهو يدعو إلى التقصي في استقطاب الأمور فالرضا بالوسط معناه ضعف الإرادة والقناعة بالأدنى .

---

(١) العماد الاصفهاني : الديوان ٣٥٥ .

(٢) التخمط : التكبر . واشتداد الغضب والهياج ، والقهر والغلب . السرى : سير الليل خاصة .

(٣) أخلد إلى المقام : أطمأن إلى الإقامة والسكن .

(٤) غرر بنفسه : عرضها للهلكة .

(٥) أصلت السيف : جرده من غمده .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال : أردت به هذا المعنى :

إما ذُنابي فـــــلا تحفـــل بمنقصـــةٍ أو قمة الرأس ، واحذر أن ترى وسطـا

والشاعر يدعو لمحاربة الهوى فلا يغـتر بـالجواري والريـاض ، وإنمـا يتصـدى للصعاب فلا يضره دمعه الجاري ، أو دمه المتدفق ، فلا ريب مـن إشـهار سيوف العزم من أغمادها لمن طلب العـلا وهـو يضـرب أمثلـة كثـيرة للقناعـة بالـترحل ، وهجر الأوطان :

ذرهـا ، وذر ذكـر الإمـاء ، ولا تعـج في الربـع : صَـوِّح نبتـه ، أو نـورا(١)
لا تبـك داراً ، فـالفتى مـن إن دعـا دمعـاً عصـاه ، وإن أراد دمـاً جـرى
مـن بـات رهـن مطـوق ومسـور يومـاً ، وأصبـح بـالعلاء مسـورا
أين الكِناسُ من العرين؟ وأين غِـزْ لأن اللّوى في المجد من أسدِ الشَّرى(٢)
مـالي وللأوطـان ، لسـت أعيرهـا نظـراً ، تـأهل ربعهـا أو أقفـرا
فـ ((الهرث)) دار ، قد سمعت كما ترى حالي بها . دع ما سمعت وما ترى
أشـهر سـيوف العـزم مـن أغمادهـا فالسـيف ليـس يُخَـافُ حتـى يُشْـهَرا
مـا إن رأيـت ولا أرى زنـدا ورى للازمـي أوطـانهم مـن ذا الـورى
لو ينتج الوطن العلى ، ما سـار عـن ((غمدان)) سـيد (حِمْيَرٍ) مستنصرا(٣)

ويستدل بغربة الرسول ﷺ إلى يثرب ، وبتنقل الليث وحوبه للصحراء ، ليس بمعاب عند الشاعر وغيره من يهلك أوطانه إذا كان هدف شريف ، شـأن أولئـك الباحثين عن الجواهر في أعماق البحار فهم أحرى بها من على ضفاف السواقي :

ولو استتم بـ ((مكـــة)) لـ (محمـــد) ما رام ، لم ينصب بـ((يثرب)) منبرا(٤)

---

(١) الإماء : النساء المملوكات . صوح النبت ونحوه يبس حتى تشقق . نور : خرج نوره أي زهره الأبيض.

(٢) الكناس : موئل في الشجر يأوي إليه الظبي ليستتر . العرين : مأوى الأسد : اللوى : ما التوى من الرمل ، أو منقطع الرمل . الشرى : موضع كثير الأسود ، ويقال : هم أسود الشرى ، أشداء شجعان .

(٣) غمدان : قصر (يشرح بن يحصب) في ((صنعاء)) باليمن .

(٤) يثرب : من أسماء مدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والليث لو وجد الفريسة ، رابضاً ... أو ناهضاً في خيسه ما أصحرا(١)
لاعار في بيع النفوس على الردى ... عندي ، إذا كان العلاء المشترى
أأشِرتَ في قصد الملوك ، وقلت : إن ... البحر يمنح - لا امسواقي - الجوهرا(٢)

وهو يدعو إلى العمل ويحذر من الاستسلام للهواجس وأحلام اليقظة والأماني الكذابة :

والرأي رأيك ، والفتى من يمتطي ... ظهر الدجى ، لا من يبيت مفكرا(٣)
في « الرأي » ريٌّ للفتى وبـ (تُسْتَرِ » ... سِتْرٌ لمن بـ (الرّيّ » زوّج « تسترا»(٤)
فالمجد من أيدي الأكابر يجتنى ... والمدن - لا أيدي الأصاغر - والقرى
حتام حظي في الوهاد ، وحظ أصـ ... ـحاب الدناءة في السوامق والذرا(٥)
ما الجبن يحميني الحِمام ،ولا أرى الـ ... ـأقدار تجلب لي سوى ما قُدِّرا(٦)
لابدّ منها وثبةً ، تُعري الظُّبى ... فيها ، ويكسى الجو منها عثيرا(٧)
أشكو من الأيام : ما ألقى بها ... وجهاً ، على تلوينها ، مستبشرا
ما عذر من لم يلق يوماً أبيضا ... منهن ، إن لم يلق يوماً أحمرا؟
فَلَيَهْنِ هذا الدهرَ أنّي ما عرفـ ... ـت العُرف منه ، ولا نَكِرتُ المنكرا
حسبي الذي أولى (ولي الدين) من ... منن سوابغ ، لم تَقِلَّ فتكثرا

---

(١) الخيس : موضع الأسد ، أصحر : برز في الصحراء .

(٢) أشر : مرح ونشط ، ويجوز ((أشرت)) .

(٣) يمتطي : يركب .

(٤) الري : مدينة كبيرة مشهورة من بلاد الديلم . الصدى : العطش . تستر : مدينة كبيرة مشهورة في خوستان ، ويقال لها ((شوشتر)) كان يعمل بها ثياب وعمائم فائقة . فتحها العرب في عهد عمر بن الخطاب ، رضوان الله عليه ، وجعلها من أرض البصرة لقربها منها ، وينسب إليها جماعة من المحدثين والصوفية . ورحل قوم من أهلها إلى ((بغداد)) فسكنوا في الجانب الغربي منها بين دجلة وباب البصرة ، وسميت محلتهم بأسمهم ، وعملوا بها الثياب التسترية)) ، (الخريدة ، المجلد الثاني ٤/٤٣٣) .

(٥) السوامق : المرتفعات .

(٦) الحمام : الموت .

(٧) الظبى : جمع الظبة ، وهي حد السيف ونحوه . العثير : الغبار .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فلقـد كفـاني (اللؤلئـي) بجسـوده أن أجتـدي غدقـاً ، وأسـأل ممطـرا(١)
بدلـت عدنـا مـن لظـى في ظلـه ووردت من بعد الجحيـم الكوثـرا(٢)
وثنـى زمـان السـوء ، منـذ عرفتـه عـني حوادثـه ، فعـدن القهقـرى
قيل : إذا استمطرت غرب حسـامه ويراعه علقـاً وعرفـا ، أمطـرا(٣)

وهذه النظرة للاغتراب تمثل روح العلماء ، فهم يدعون إلى العمل ، إلى بذل الجهد بعزيمة صادقة ، وفي ذلك بناء للحياة الإنسانية ، وعمران الأرض وبناء الفكر ، وتلاحقه ، وفيه بعد عن التواكل والتكاسل ، وهذا يخالف روح الخمود والجمود التي نادى بها الصوفية ، أو التي راجت وماجت وكست البلاد ضعفاً حيث البطالة ، في العالم الإسلامي رغم الحاجة إلى العمل ، في بناء الأرض ، والصناعة ، والالتحاق بالجيوش الإسلامية .

وهذا الاغتراب من مكونات منهج العلماء في ذلك العصر فهم يجوبون الأقطار الإسلامية للعلم والعمل والمعرفة ، فقل أن تجد عالماً من العلماء لم يرتحل في عواصم العالم الإسلامية .

وما أكثر شعر الاغتراب عن الأمير أسامة بن منقذ ، والشاعر المغترب ابن عنين الذي أبعد عن وطنه ولعلهما يحظيان بدراسة منفردة .

ومن مظاهر الغربة الشعر الصوفي :

فالصوفية غربة في المجتمع ، فهي هروب من واقع الحرب ، والكوارث ، والانحراف الاجتماعي إلى انحراف فكري ، وعقدي ، والشعر الصوفي انحراف من الاغتراب الصوفي عن المجتمع ، إلى اغتراب عن واقع الصوفية .

فالصوفية هربت من الحياة الجادة للشرع الإسلامي الذي يجمع بين العبادة

---

(١) أجتدي : أسأل . الغدق : الماء الكثير الغامر .

(٢) عدن : الجنة لظى : من أسماء النار ، معرفة لا ينصرف . الكوثر : نهر في الجنة ، والخير العظيم.

(٣) القيل : الملك من ملوك اليمن في الجاهلية دون الملك الأعظم . الغرب : الحد .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

واستعمار الأرض ، في اعتدال متوسط بين الإفراط والتفريط . فالصوفية تحلل من الحياة العملية والإعراض عنها إلى وظيفة العبادة فحسب هذا في أفضل أحوالها، فكيف بمذاهبها المتعددة المنحرفة ؟ فأهل المذهب يتجردون من الأهواء والرغبات، ويتفانون في العبادة ، وينهكون أجسامهم ، لكن شعرهم اغتراب من هذا الواقع فهو يتسم بتلبية الشهوة ، والاستلذاذ بوصف المحاسن للمرأة والخمرة ، مع امتناعهم ، لكنهم يدّعون أنهم يرمزون بهذه الأوصاف للعشق الإلهي تعالى الله عما يصفون ، والناحية الأخرى في الغربة في شعر التصوف أنهم ، لا يرمزون من واقع حياتهم المعاصرة لهم ، وإنما شاركوا بقية الشعراء في الاغتراب إلى أسماء الجزيرة العربية وأحداثها ، من مسميات مقدساتها ، والجبال المشهورة والأودية المعروفة ، واستلهام حوادثها . ومن ذلك همزية ابن الفارض الذي عاش في مصر وعلى ضفاف النيل غير أننا نراه يغترب بصوفيته أولاً عن واقعه ويغترب أيضاً إلى وهاد الجزيرة وأوديتها ، فهو يشم عبق نسيم الزوراء ، ونسمات نجد ، ويستلذ بترجيع أحاديث الأحبة في تلك الديار ممزوجاً بمنظر الأذخر وهو لا يكتفي بهذا بل يطوف راكباً على ناقته الضخمة ليعرج على حمى الجرعاء ، ومتنقلاً بين تلعات وادي ضارج :

أرج النسيم سرى من الزوراء ... سحراً فأحيا ميت الأحياء

أهدى لنا أرواح نجد عرفه ... فالجو منه معنبرا الأرجاء

وروى أحاديث الأحبة مسنداً ... عن اذخر بأذاخر وسخاء(١)

فسكرت من ريا حواشي برده ... وسرت حميا البرء في أدوائي

ياراكب الوجناء بُلّغت المنى ... عج بالحمى إن جزت بالجرعاء(٢)

متيمما تلعات وادي ضارح ... متيامناً عن قاعة الوعساء(٣)

(١) الأذخر : حشيش طيب الرائحة ، والأذاخر موضع قرب مكة . وسخاء نبت شائك ترعاه الإبل.

(٢) الوجناء : الناقة الشديدة . وعج بمعنى أقم . والجرعاء : مؤنث أجرع ، وهو مكان فيه حجارة .

(٣) متيمما :متعمداً، والتلعات جمع تلعة وهي ما ارتفع من الأرض، والقاعة الأرض الملساء والوعساء : موضع.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والواقع أن القصيدة تمثل الصراع النفسي والغربة عن واقع الحياة في عمق الذات الصوفية ، فهو متنقل ، وهو دائم السهاد ، وهو أيضاً كثير الدمع خشية من نبضات خشوعية تصارع الغرائز ، وتتبلور حسرته على ضياع الزمن ، وأمله في يوم راحة ويوم بؤس فينبغي أن تشاطر أفراحه أحزانه .

وابن الفارض كثير الأسفار إلى الحجاز لكنه يطيل غربته في نجد ، ولا اخال أن قدمه وطئت نجداً ، لكن استدعاه الشوق غير أنه يرمز بشوقه إلى تلك الأماكن إلى الشوق الروحي الإيماني كما يزعم الصوفيون ، وابن الفارض لا علم له بتحديد الأماكن في الجزيرة ، فهو قد ابتعد عن تربتها وتقاربها وإنما ينتقل بين أماكنها كانتقال العصافير فوق الأشجار :

أو ميض برق بالأبيرق لاحا ... أم في ربى نجد أرى مصباحا(١)

أم تلك ليلى العامرية أسفرت ... ليلاً فصيرت المساء صباحا

ياراكب الوجناء وُقيت الرَّدى ... إن جبت حزناً أو طويت بطاحا(٢)

وسلكت نعمان الأراك فعج إلى ... وادٍ هناك عهدته فياحا

فبأيمن العلمين من شرقيه ... عرج وأم أرينه الفواحا(٣)

وإذا وصلت إلى ثنيات اللوى ... فانشد فؤاداً بالأبيطح طاحا(٤)

واقر السلام أهيله عني وقل ... غادرته لجنابكم ملتاحا(٥)

ياساكني نجد أما من رحمة ... لأسير إلف لا يريد سراحا

هلا بعثتم للمشوق تحية ... في طي صافية الرياح رواحا

يحيا بها من كان يحسب هجركم ... مزحاً ويعتقد المزاح مزاحا

---

(١) الوميض : لمعان البرق . والأبيرق : تصغير الأبرق ، وهو مكان فيه حجارة ورمل وطين مختلطة .

(٢) جبت : بمعنى قطعت . والحزن : ضد السهل ، وطويت بمعنى مشيت .

(٣) أم بمعنى : أقصد .

(٤) طاح : هلك .

(٥) ملتاحاً : عطشاناً .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ياعـــاذل المشتـــاق جهلاً بالـــذي يلقى مليـــاً لا بلغـــت نجاحـــا(١)

والحقيقة أن شعر ابن الفارض يمثل توارد الخواطر في أحـلام اليقظـة ، ويلجـأ إلى إشغال ذاته باسترجاعها ، وتتمثل الروح الصوفية فيها حيث إنـه يكـرر ألفـاظ الذات تكراراً ببغائياً في خلواتهم ليسـلوا بهـا ، وكيمـا ينفكـون مـن أسـر الحيـاة الواقعية ، إذن فقصيدته هذه وأمثالها تمثل الهروب من الواقع ليعيش في غربة عنـه .

وأصدق بيت يمثل الحقيقة إشارته إلى اجترار تلك الحواضر وهو في مصر :

مذ غبتـم عـــن ناظـــري لي أنـــه ملأت نواحـــي أرض مصـــر نواحـــا

والبوصيري أقل ارتياداً في غربته للأماكن في الجزيرة العربية وهـو في قصـائده المدحية يمتح من الواقع ، فهو يستهل قصيدته في مدح علي بـن الصـاحبي : بذكـر أحياء بلبيس ، وقليوب ، وبنها :

حـــي بلبيـــس مـــنزلاً في العمـــار، وتوجـــه تلقـــاء بـــئر عمـــارة

وإذا جئـــت حـــاجزاً بـــين بلبيـــس وقليـــوب مـــن خـــراب فـــزاره

فارجع السير بين بنهـــا واتريـــب وكـــل شاطـــئ البحـــر جـــاره

ويشير في صراحة بإعراضه عن عشق البداوة وهيامه بجمال الحضارة :

خلـــني مـــن هـــوى البـــداوة إنـــي لســـت أهـــوى إلا جمـــال الحضـــارة

واقر تلك القـــرى الســـلام فـــإن أعيتـــك منها عبـــارة فإشـــارة(٢)

ولكنه في غربته ينتقل إلى رامة والعقيق ويأنس لرقة الثمام وتمايله مع الريـاح، ويصدح متجاوباً مع حمامه :

عـــرج برامـــة إنهـــا لمرامـــي وبجـــيرة فيهـــا علـــى كـــرام

نزلـــوا العقيـــق فـــادمعي شـــوقاً إلى تلـــك الربـــا مثـــل العقيـــق دوام

مـــا للديـــار وللمحـــب كأنمـــا مُزجـــت حمائمهـــا لـــه بحمـــام

---

(١) الديوان ٧٧ .

(٢) البوصيري : الديوان ٨٢ ، تحقيق سـيد كيلاني ١٣٧٤هـ ، ١٩٥٥، الطبعة الأولى مكتبة مصطفى البابي الحلبي .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عهدي بها وكأن منهل الحيا ... دمعي ومصفر البهار سقامي

وشَدَا الحمام على الشمام ، وما لمن ... مر الصبا وحكته عود ثمام

وذهلت لا أدري بما أنا مائل ... بشذا نسيم أو بشدو حمام

نمّ الوشاة بنا ألا إن الهوى ... لم يخل من واش ولا نمام(١)

(١) البوصيري : الديوان ٢٠١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الباب الثاني

الموضوعـــــات

الفصل الأول : المدح .

الفصل الثاني : الرثاء .

الفصل الثالث : الطبيعة .

الفصل الرابع : الغزل .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الأول

المدائح وشعر الجهاد

- موضوع المدح .
- المدح في شبه الجزيرة .
- الشعر الحماسي .
- المناداة بالجهاد .
- دور شعر شبه الجزيرة في الجهاد .
- المدائح النبوية .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

موضوع المدح :

غرض المدح له وظائف عديدة في الشعر العربي وهو وسيلة للتعبير عن الواقع الاجتماعي ، ففقر الشاعر يشير إلى فقر المجتمع ، وبطالته تشير إلى انتشار البطالة، وإلحاحه ينبئ عن السدود التي تقف في وجه الفرد لكسب المعيشة ، وتوحي بقلة المسارب العملية للعمل ، وليس أدل على ذلك من احتلال طلب النوال مساحة في القصيدة المدحية . والمدح وسيلة للشاعر للتعبير عن القضايا الفكرية الملحة ، فالمتفحص للموضوعات يدرك أن مضامين الشاعر نابعة من واقع يريد تحقيقه ومخاطبة الأعلى لا تكون بالطلب أو الحث مباشرة ، وإنما دأب الشعر بإلباسها للممدوح . والإنسان يدرك بطبعه واقعية هذا ومدى تحقيقه ، وشعر المناسبات يدون الأحداث التاريخية ، من تولية خليفة أو وزير أو والٍ ، والأحداث الحربية ، أو التقلبات الاجتماعية ، وكيفية معالجتها . وفي العراق يشير إلى التنافس على الوزارة . والصراع المرير بين الوجهاء كشعر أبي الفوارس ، والأصبهاني ، وسبط التعاويذي ، ويماثلهم شعراء الخلافة الفاطمية قبيل سقوطها ، مثل الحداد ، والدهان ، وابن الزبير . وشعر المناسبات المدحية يمثل التمزق السياسي في الدولة الإسلامية ، وشرذمة العالم الإسلامي . وما وراء شعر المناسبات يوحي بضآلة الأحداث ، فتجد الشاعر يفيض في حبه ورحلته والحديث عن ذاته ، وعندما يصل إلى الإشادة بالممدوح ، فإنه لا يجد أعمالاً جليلة تثري المضمون ؛ فيعبث بالألفاظ ، مما جعل القصيدة العربية تتزهل في المقدمات وتضمحل في أصل الغرض. كما هو الشأن في مدائح الأرجاني ، وأبي الفوارس ، وعرقلة الكلبي . والحقيقة الواقعية للإدارة العملية في العالم الإسلامي يسجلها شعر المناسبات ، بل إن التقلب والتزلف من الشاعر الذي تختلف وجوهه في مدح هذا ، ومدح من يفتك به ، وربما تبادل الوزراء الأدوار ، فيكون مع من غلب ، فتمثل تلك

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الصورة الخفية لما يدور في الفلك الإداري ، فصاحب الوجه المستضعف يتنمر ، وآخر يحل محله ، مما يجعل الوزراء في شغل عن البناء والإصلاح .

❖ وشعر المدح كان أغزر الموضوعات لكثرة العواصم الإسلامية ، ولانتشار التعليم في الحواضر ولتنافس الوزراء والولاة حولهم بل إن هدايا الشعراء تصل إلى عقر دارهم .

❖ والمناسبات المدحية تكون عند الخلفاء ، والسلاطين الكبار كالتولية ، والأعياد ، والتهنئة بأعياد ، وإخماد الفتن ، والانتصارات ، والمواليد ، وغيرها .

وهي تكون عند الوزراء في تولية وانتصار . والولاة أيضاً يتوافد إليهم الشعراء ، وكذلك سلاطين الأقاليم الكبرى مثل نور الدين ، وصلاح الدين ، إلى جانب قيادتهم في ميادين الجهاد . فهم استمالوا الشعراء إليهم بأعمالهم الجهادية الخالدة .

ولو أن كل باحث يقيم ظاهرة من الظواهر التي يمثلها شعر المناسبات ، لوجدنا كماً هائلاً من القضايا التي يعنى بها الأدب .

وسبط التعاويذي يسجل في مدائحه للخليفة المستضيء عام ٥٧٢هـ ما ضُمَّ في عهده من ممالك ، فقد اندثرت الخلافة الفاطمية ، وضمت إلى الخلافة العباسية، ودانت لأتباعه اليمن في عهد صلاح الدين الأيوبي أيضاً :

وأطاعتك أرض مصر ومصر ... حين تدعى وحشية عصماء
واستقادت بعد الشماس وقد ... أسمعها بالعراق منك النداء
واغتدت خطة الصعيد تذيب ... الصخر أنفاس أهلها الصعداء
ذخرتها لك الليالي وكم حا ... ت عليها من قبلك الخلفاء
ملكتها يداك والله يؤتي ... ملكه من عباده من يشاء
أسلمتها ذلاً كما صغت قبـ ... ـل بأرباب ملكها صنعاء(١)

(١) الديوان ٢،١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهذا اللون يمثل لنا الركود الفكري ، وفقدان الجهاد العملي ، وتكاثف الحجب بين الخلفاء والوزراء ، والواقع الاجتماعي . فهم يمدحون بما لم يعملوا، فتلك أعمال نور الدين وصلاح الدين .

والشعر يمثل عنق الزجاجة الذي تتسرب منه المعلومات لأصحاب الحل والعقد ، ويمثل الفراغ الذي توجده الحركات البناءة من قبل الخلفاء أو القادة العلماء وأصحاب الإصلاح ، وشعر المناسبات يثبت لنا الاضطرابات التي تقع في الولايات ، والحروب الداخلية ، بل يحدد عناصر المعارك بين العرب والأتراك كما حدث بين السلاجقة والإمارات العربية وعلاقة الإمارات العربية بالخلافة ، وحروب الأتراك بعضهم مع بعض ، ويصفون أكثر الحروب الداخلية ، مثل إحراق دورهم بقذف قوارير النفط شأنها شأن الزجاجات الحارقة كما في القصيدة الميمية لسبط التعاويذي في مدح الأمير عماد الدين ناصر الدين ، أستاذ الدار العزيزية :

ياخير منتصر لخير إمام ... حقاً دعيت بناصر الإسلام
حكمت حد البيض في أعدائه ... والمشرفية أعدل الحكام
ونصرت دين الله نصر مؤيد ال ... آراء في نقض وفي إبرام

وهو يشير إلى أهمية الأمن والذود عن العرض والمحارم :

دافعت عنه فكنت أملك ذائد ... يحمي حقيقته وخير محامي
رعت العدو بكل أسمر رافعا ... غل الكماة وكل أبيض دامي
برقاق بيض في الدماء نواهل ... وعناق جرد في الشكيم صيام
جهلوا القراع لدى الوغا فتعلموا ... من غرب سيفك كيف ضرب الهام
قذفوا بشهب من شظاك ثواقب ... شبت عليهم من ورا وأمام
فديارهم وقلوبهم للنار في ... أرجائها والخوف أي ضرام(١)

(١) الديوان ٣٧٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهذا يصور حرب المدن ، ويبلور قساوة القلوب ، وعدم مراعاتهم الأطفال والنساء ، وطاعني السن ، إضافة إلى إهلاك الحرث والنسل .

والحقيقة أن مثل هذا قليل وأن الحروب الداخلية تكون بين جيوش نظامية، والتداعي للجهاد يغلب أن يكون ضد عدو مشترك .

والشعراء في قصائد المدح يسجلون الواقع للحروب انتصاراً أو هزيمة . ومن ذلك ما صوره ابن الدهان المتوفى ٥٨١هـ لمعركة (البقيعة) التي انهزم فيها المسلمون وثبت نور الدين ، والقصيدة تشير إلى انتصار الإفرنجة ، وعودتهم بالغنائم ، وتذكر خدعتهم ومداهمتهم لجيوش المسلمين ، والمضمون له دلالته على غفلة المسلمين في تلك الحادثة ، وهو يعتذر عن تلك الهزيمة ويعلقها بمكر وخديعة العدو والواقع يجب على المسلمين أن يحذروا من الخديعة كما يحذرون من السيف :

بني الأصيفر ما نلتم بمكركم ... والمكر في إنسان أخو الفشل

وما رجعتم بأسرى خاب سعيكم ... غير الأصاغر والأتباع والسفل

سلبتم الجرد معراة بلا لجم ... والسمر مركوزة والبيض في الخلل

هل آخذ الخيل قد أردى فوارسها ... مثال آخذها في الشكل والطول

أم سالب الرمح مركوزاً كسالبه ... والحرب دائرة من كف معتقل

جيش أصابهم عين الكمال وما ... يخلو من العين إلا غير مكتمل

هم بيوم حنين أسوة وهم ... خير الأنام وفيهم خاتم الرسل

ولنعلم أن جيش الرسول ﷺ لم يهزم من خديعة إنما من تخاذل الأفراد بخلاف واقعة (البقيعة) ونرى الشعراء كيف يضمدون الجراح بمثل هذه المعاذير ، وهم يخاطبون الجند ويدعونهم إلى الكف عن الانهزامية . ويُعيرهم بها فليغضوا أبصارهم ، وبين أنهم آثروا السهل على الصعب ، وأنهم لم يلجئوا إلى قائدهم وإنما لاذوا بالفرار :

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قل للملوين كفوا الطرف من جبن عند اللقاء وغضوا الطرف من خجل
طلبتم السهل تبغون النجاة ولو لذتم بملككم لذتم إلى الجبل
أسلمتموه ووليتم فسلمكم برفقة لو بغاها الطود لم ينل
مسارعين ولم تنثل كنائنهم والسمر لم تبتذل والبيض لم ينل
ولا طرقتم بوبل النبل طارقة ولا تغلغلت الأسياف في القلل
فقام فرداً وقد ولت عساكره فكان من نفسه في جحفل زجل

فهو يمتدح صمود نور الدين في المعركة في قلة قليلة :

وسط العدا وحده ثبت الجنان وقد طارت قلوب على بعد من الوهل
يعود فيهم رويداً غير مكترث بهم وقد كرّ فيهم غير محتفل
يزداد قدماً إليهم من تيقنه أن التأخر لا يحمي من الأجل(١)

وأبو الفوارس يعتذر للخليفة العباسي من مدحه لملك العرب دبيس حيث كان المسترشد بالله على وفاق مع ملك العرب ومنحه الوزارة ثم انفصلا ، فالشاعر يخشى عاقبة مدحه فيمدح الخليفة بقصيدة مطلعها :

منازلكم للخائفين عصام وأيديكم للسائلين غمام

وبعد مدح طويل للخليفة يوضح أن مدحه السابق لدبيس كان من أجل طلب النوال :

وبي رهب من فرط خوفك مرعب نبا بي منه مرقد ومنام
يرنحني فرط الحذار فإنني كما هزّ مخلوع الفؤاد لمام
وضاقت عليّ الأرض حتى كأنني ربيط بأعجاز البيوت يسام
ولا ذنب إلا أن تلوت ابن مزيد وأصبح حبلي منه وهو رمام
حلفت برب الواخدات كأنما جوافلها تحت الرجال نعام
بأني ابتغيت الرزق غير معاند وليس على من يبتغيه ملام(٢)

(١) الديوان ٧٤-٧٦ .
(٢) الديوان ٢/٣٩٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والشاعر الأمير أبو الفوارس المتوفى ٥٤٧هـ الذي اشتهر بعزته وكرامته يستحث بعض الأكابر في استعجال رسم ماطل به :

تعجب الناس راويهم وعالمهم ... لما تكرر في العادات والبدع
من جائع في شباط لا حراك به ... طاوٍ يحال على نيسان بالشبع
فقلت سهوة خرق من عوائده ... لا بخل كزّ عن المعروف ممتنع(١)

وسبط التعاويذي المتوفى ٥٨٣هـ يمدح عضد الدولة ، ويشكو قلة معيشته وهو يباشر بالاستجداء ، والإسراف في التواكل على الممدوح :

أيا مولاي مجد الدين يامن ... إليه ومنه بثي واشتكائي
دعوتك مستجيراً من زماني ... بجود يديك فاصغ إلى دعائي
أتتساني وأنت كفيل رزقي ... وعندك إن مرضت شفاء دائي
ورأيك عدتي لغدي ويومي ... وذخري في الشدائد والرخاء
فيامولاي هل حدثت عني ... بأني من ملائكة السماء
وأن وظائف التسبيح قوتي ... وما أحيا عليه من الدعاء
وأني قد غنيت عن الطعام الـ ... ـذي هو من ضرورات البقاء
وهل في الناس لو أنصفت خلق ... يعيش كما أعيش من الهواء
فلا في جملة الأحرار أدعى ... ولابين العبيد ولا الإماء(٢)

وقال أبو الفوارس يمدح الوزير ابن طراد لعله يشفع بزيادة المعاش من الخليفة المسترشد :

وإني لمطواع الصمات ومنطقي ... إذا قلت ماضي الشفرتين صقيل
ومبتسم في الحفل والدمع غائض ... له بين أثناء الضلوع مسيل
وعي بحاجاتي وفضلي فليتني ... مع القوم موفور الثراء جهول
ورب اصطبار بدل الحلم والنهى ... سفاها وأحوال الزمان تحول

(١) الديوان ٢/١٦ .

(٢) الديوان ١٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فلا عدم الخمد الوزيـــر الـــذي بـــه أشدُّ على صرف الـردى وأصـــول(١)

المدح في شبه الجزيرة العربية :

المدح في شبه الجزيرة العربية تـأثر بـالدويلات ، فـأغلب أقـاليم شـبه الجزيـرة تستوطنها القبائل ، وقد تناقصت فاعليه سلطة الدول على تلك القبـائل ، وظلـت هيمنة الدول على دروب الحجاج غير أنها محفوفة بالمخـاطر ، وفقـدان الـسلطة ، والأمن كان له دوره على سكان الجزيرة ، فقد ضعفت المدن ، وضعـف التقـدم العمراني والفكري ، وأصبحت إمارات متعددة متنابذة مشغولة بالحروب ، ويمثـل ذلك سلطة الأشراف في مكـة المكرمـة والمدينـة المنـورة ، ويغلـب أن تكـون كـل مدينة منهما تحت قيادة أمير منافس للأمير الآخر ، وكذلك في البلدان في نجد ، ما عدا الدولة العيونية ، وكذلك الدويلات في اليمن ، وهي الأكثر اسـتقراراً ، ولـذا احتضنت عدداً من الشعراء .

أما بقية الجزيرة فأغلبها قبائل متحاربة متناحرة ، فلا أمـن ولا اسـتقرار ، ممـا أفقد علينا تدوين تاريخها ، وتدوين شعرها ، ولم يصل إلينا منه إلا ما نقل بواسطة هجرة المهاجرين من القبائل لبغداد وسائر العراق ، ولدمشـق ومشـارف الشـام ، وأكثر من نقل مقطوعات قليلة الأبيـات أبـو الحسـن البـاخرزي صـاحب (دميـة القصر وعصرة أهل العصر) ، ومما يجدر التنويه به أن شعر تلك الفـترة أي القـرن الخامس ، والسادس . يقال بالفصحى ، وإن داخلته بعض الألفاظ العاميـة ، وقـد أشار إلى ذلك عمارة اليمني فإنه من أبنـاء القبـائل ، فلمـا وفـد إلى المـدن تعجـب الناس من فصاحته(٢)، وفصاحة أخوته .

أما المـدح فإنـه لم يكـن لـه رواج إلا في المـدن ولا سـيما مـدن اليمـن ، بـل

(١) الديوان ٢/١٨٠ .

(٢) العماد : الخريدة ، قسم الشام ٣/١٠١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الدويلات المشهورة مثل الدولة الصليحية ، وولاية نور الدين ، وصلاح الدين ، ودولة الرسوليين ، أما في وسط شبه الجزيرة فإن أشهر شاعر مدح هو ابن مقرب العيوني ، حتى أمراء مكة فإنه قلّ مدحهم من الشعراء الآتين الوافدين أو المجاورين.

وأشهر الشعراء المادحين ابن القُّم ، وعمارة اليمني ، وأبوبكر العيدي ، وزكري بن شكيل البحري ، وابن الهبيني ، وقد ترجم لهم العماد الاصبهاني . ومثل هؤلاء وهو أكثر شهرة منهم ابن مقرب العيوني .

وشعر هؤلاء في غرض المدح ينهج نهج الشعراء المحترفين في العراق والشام ، وهو يقوم على تنويع المقدمة بين الغزل إلى الشكوى إلى مباشرة الموضوع . وتتماثل البديعية في أشعارهم مع شعر أقرانهم من الشعراء الآخرين في الأقاليم الأخرى ، ومن ذلك مدح ابن القُم في الأوحد بن سبأ :

معاليك لا ما شيدته الأوائل ... ومجدك لا ما قاله فيك قائل
وما السعد إلا حيث يممت قاصداً ... وما النصر إلاّ حيث تنزل نازل
إذا رمت صيدا فالملوك طرائد ... أمامك تسعى والرماح أجادل
معايبها إن سالمتك مواهب ... وأعضادها إن حاربتك مقاتل
ومذ رمت إيراد العوالي تيقنت ... نفوس الأعادي أنهن مناهل
مليك يفض الجيش والجيش حافل ... ويخجل صب المزن والغيث هاطل(١)

والشاعر أبوبكر العيدي من شعراء اليمن ، وقد استقر في عدن من الدولة الزريعية ، وكان كاتباً للإنشاء ، وبلغ درجة الوزارة ، وعايش طرفاً من حكم صلاح الدين الأيوبي وله شعر كثير(٢)ومن شعره قوله في مدح ياسر بن بلال :

فكأنما اختصرت له طرق العلى ... منها وضل عداته في إثره

(١) العماد : الخريدة ، قسم شعراء الشام ٣/٨٨ .

(٢) المصدر السابق ٣/١٤٥ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أحيا معارف كل معروف بها ... ومحا معالم منكريه ونكره
وأفاض منها في البرية أنعما ... نطق الزمان بشكرها وبشكره
فالمدح موقوف على إحسانه ... ما بين بارع نظمه أو نثره
والعيش رطب تحت وارف ظله ... والورد عذبٌ من مناهل بره
والسعد منقاد له متصرف ... ما بين عالي نهيه أو أمره(١)

فنحن لا نجدها هناك فوارق في المضمون ، ولا بناء القصيدة عن نهج المدح في بغداد أو أو حلب أو القاهرة ، وخير من يمثل ذلك عمارة اليمني فإن شعره لم يحدث له تغير في مصر ومعنى ذلك تشابه المدح في الشعر العربي .

وابن عمارة اليمني هذا من أشهر شعراء اليمن ، مدح أعيان اليمن ، وهاجر إلى الحجاز .

ومدح أميرها هاشم ثم انتقل إلى مصر ، وأكرمه الخليفة الفاطمي ، وتتابع إكرامه ، ونال الحظوة عند الوزراء ، ومنهم ابن زريك ، وشاور ، وغيرهما . وقد مدح الخلفاء والوزراء بقصائد كثيرة .

ويرجع الفضل لنقل شعر اليمن لتلك الفترة إلى عمارة اليمني ، فقد رواه للمؤلفين في مصر والشام ، وألف فيه كتاباً جمعت بعض الشعر ، فكان مصدراً من مصادر شعر اليمن في تلك الحقبة وهي : « أخبار اليمن » و « النكت العصرية » و « ومختصر المفيد من أخبار زبيد »(٢)، ومن قصائده في الكامل بن شاور :

إذا لم يسالمك الزمان فحارب ... وباعد إذا لم تنتفع بالأقارب
ولا تحتقر كيدا ضعيفاً فربما ... تموت الأفاعي من سموم العقارب
قد هدّ قدماً عرش بلقيس هدهدٌ ... وأخرب فأر قبل ذا سد مأرب
إذا كان رأس المال عمرك فاحترز ... عليه من الإنفاق في غير واجب

(١) المصدر السابق ٣/١٧٠ .
(٢) انظر : الخريدة ، القسم الشامي ٣/١٠٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فبين اختلاف الليل والصبح معـــــرك يكر علينـا جيشـــه بالعجـــائب(١)

ومن أشهر الشعراء المادحين في جزيرة العرب الشاعر ابن مقرب العيوني المتوفى بالبحرين عام ٦٣٠هـ ، وهو من الأسرة الحاكمة في الأحساء ، أسرة العيونيين ، وهذه الأسرة أزالت دولة القرامطة واستمر حكمها ردحاً من الزمن ، وهي معاصرة للدولة الزنكية ، والأيوبية . والشاعر ابن مقرب هو الذي نقل لنا تاريخ هذه الدولة بشعره فتأثيره في تاريخ الدولة .

وشيوع ذكرها يقرب من أثر المتنبي في إبراز تاريخ سيف الدولة ، لكن العيوني لم يقتصر في مدحه على المعاصرين له من أبناء عمومته وحسب فتحدث عن تاريخ آبائهم وأشهر الحكام من أسرته وبطولاتهم وحروبهم الداخلية وعلاقتهم مع الخلافة العباسية وسائر الدول المجاورة ، ومن خلال شعره نستطيع أن نرصد حالة الجزيرة العربية ، ومكانة الدول والإمارات الصغيرة ، وفاعليتها في المجتمع ، وتأثيرها على القبائل ، وخضوع القبائل وحروبها ، بل إذا قويت الدولة فإنها تجد القبول لدى الخلافة العباسية لرغبة الخلفاء في استتباب الأمن في الجزيرة، ولتأمين طريق الحاج ، وقد استقى بعض المؤلفين تاريخ المنطقة ولاسيما الدولة العيونية من شعر ابن المقرب(٢) .

والشاعر له ديوان ضخم يضم قصائد مدح لشخصيات متعددة في العراق وخراسان ، والبصرة ، والشام ، وكذلك مدح بعض خلفاء بني العباس لكنه أخلص المدح لأبناء عمومته الحاكمين ، ومن أشهرهم الأمير محمد بن الحسين ، فهذا الأمير طالت ولايته واتسعت دولته ، ونشر الأمن في الأحساء ، ونجد حتى أصبح الحج آمناً مما جعل الخليفة العباسي يعمد له بولاية الحج يقول ابن المقرب في هذا :-

---

(١) المصدر السابق ١٢٨/٣ .

(٢) انظر : ابن مقرب وتاريخ الإمارة العيونية في بلاد البحرين ، للدكتور فضل بن عمارة العماري .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هو السيد الضرغام والأسد الذي ... بنى مجده فوق النجوم الثواقب
له خضعت غلب الرقاب وأصبحت ... به الأرض تزهو بعد تلك الغياهب
ترى عنده رسل الملوك مقيمة ... ذهاب رسول عند آخر آيب
مخافة سطوات له يعرفونها ... تقيم على الأعداء صوت النوادب
ومال أمير المؤمنين بوده ... إليه وسماه زعيم الأعارب
حمى البر من حد العراق فحازه ... إلى الشام واستولى على حد ناعب
فعز لسامي عزه كل خائف ... مروع وأغنى جوده كل طالب(١)

وهذا الأمير قام بإخضاع القبائل العربية ، فهو كثير الغارة عليهم وسريعها إذا ما رأى منهم مخالفة للأمن ، أو خطراً عليه ، والشاعر لسان إعلامي لهذا الأمير فالشاعر لا ينفك يُحذر القبائل من قوة بأس الأمير وشدة سطوته ، ويذكرهم بحروبه ووقائعه كما فعل ببني مالك حين أوقع بهم على ماء الدجاني(٢) وهزمهم شر هزيمة فهو يقول(٣) :

فقل للعدى مهلاً قليلاً فإنه ... سهام لمن يبغي العداوة قاتل
كأنكم لم تعرفوا سطواته ... إذا الحرب فارت من لظاها مراجل
سلوا تخبروا من غير جهل لفعله ... بني مالك فالحرب بالحق قائل
ألم يجلب الجرد العتاق شوازباً ... من الخط تتلوها المطايG المراسل
إلى أن أناخت بالدجاني بعدما ... براها السرى والأين فهي نواحل
فصبحن حياً لم تصبح حلاله ... قديماً ولا رامت لقاه الجحافل
فكم قرم قوم غادرته مجدلاً ... تقط شواه الخامعات العواسل(٤)

وقد أبان كل من الدكتور الخضيري ، والدكتور العماري صورا من حياة

(١) الديوان ص ٥١ .
(٢) د. علي الخضيري : ابن المقرب العيوني ١٢٤ .
(٣) المرجع السابق ١٢٤ .
(٤) المرجع السابق ١٢٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الجزيرة العربية في كتبهم عن هذا الشاعر ، وهؤلاء يتحدثون عن واقع الحروب أكثر من غيرهم . ومضمون المدح في تلك المرحلة اتسمت بسمات منها :

الغربة في المضمون :

مضمون المدح في الشعر العربي خضع لمؤثرات متعددة ؛ فالقارئ لمضمون شعر المدح يتبادر له التكرار في المضامين التي تدور حول الكرم في المنزلة الأولى ، والشجاعة ، وكلاهما متوارث من طبيعة الحياة العربية الأولى ، ثم مدحوا بقدرة التدبير ، وفضيلة العدل ، والإنصاف ، والتحريض على المثل والقيم ، ودوحة الأرومة ، وإشراق الوجه ، وضياء الجبين .

وتلك مضامين لم يملها الشعراء ؛ وإن ملها الخلفاء ، أو ملّوا بعضها ، وحاول أن يمسها النقاد مساً خفيفاً ، ولكنهم لم يسبروا غورها ، ولم يلجأوا إلى مكوناتها وعوامل تكثيفها .

ونحن لو تأملنا لوجدنا أن المؤثرات تتأتى من الشعراء أنفسهم ، ومن الممدوحين ذاتهم ، ومن النقاد المنظرين كابن قدامة .

فالشعراء نظروا إليه من نواحي ثلاث ، إحداها : دوافع المدح ، فهو ينظم في جله من أجل طلب النوال ، ومن هنا فإن عنصر الكرم يدخل المدح من أوسع أبوابه ، والشجاعة وليدة الصراع القبلي المتوارث .

وثانيتها : تكوين ذهنية الشاعر ، فهو يحفظ الشعر الجاهلي ، ويقتدي بمن سبقه ، فيتأثر بمعانيه ، إضافة للتوافق الطبيعي الذي تحتمه تشابه الظروف .

وثالثتها : الحياة العملية ، فإن الشاعر بمنأى عن الممدوح بل إن حياة الأخير محتجبة عن الأوائل ، فلم يشهدوا المواقف الحاسمة في الإدارة ، والحرب ، وتصريف الأموال . مما يحتم عليهم اجترار المضمون الماضي أو المضمون العام الشامل الذي يتمثل في القيم العليا ، ندرك ذلك من صحبة الشعراء للقادة فهم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يمدحونهم بالوقائع الحربية كالمتنبي مع سيف الدولة ، وابن منير والقيسراني مع نورالدين ، والعماد الاصبهاني مع صلاح الدين .

أما الممدوح فكثير من المبجلين يعمل أعمالاً جساماً لكنه لا يباشرها وإنما يقوم بها الولاة ، وقادة الجند ، وجرى الشعراء على عدم إلصاق تلك الأعمال بأولئك الممدوحين ؛ فالوليد بن عبدالملك ، وأخوه سليمان لم يمدحا بالفتوحات ، وكذلك عمر بن عبدالعزيز .

وربما أن الممدوح لم يقم بأعمال بطولية أو إصلاحية أو أنه مسلوب الإرادة كما هو شأن الخلفاء العباسيين والعبيديين زمن الحروب الصليبية .

أما النقاد فإنهم دعوا إلى المدح بالمضامين المعنوية ، ورغبوا في المبالغة ، ولم نسمع عنهم النداء بالمدح الواقعي المستمد من الوقائع التي تدور في الزمان والمكان، ومن هنا فإنهم ألحوا على مضامين متوارثة فأستغرب مضمون المدح عن واقع الحياة ، وواقع الممدوح في الأغلب ، إلا إذا كان الممدوح في مواجهة عدو للإسلام ، فإن الأمر يتغير كثيراً .

أما الحروب الداخلية ، فقل أن نرصد معالمها ، وأحداثها ، وأسماء شخصياتها، لأنه يؤثر الشاعر السلامة ، فإن المنتصر لا يلبث أن يكون منهزما.

وهذه الظاهرة برزت جلياً في عهد الحروب الصليبية عند أولئك الشعراء الذين يمدحون الخلفاء الوزراء بعيداً عن الحروب مع الإفرنجة ، فإن هؤلاء الشعراء اغترب مضمونهم عن واقع الحياة ، فهم لم ينقلوا لنا الصراع الداخلي ، والحوادث التاريخية إلا قليلاً ؛ ولذلك ظل جهدهم الفكري محصوراً في توليد المعاني من فضيلة الكرم ، والشجاعة ، فهذا الطغرائي لم ينقل لنا الصراع بين السلاجقة مع أنه من وزرائهم ، وكذلك الأرجاني ، فإن ديوانه الضخم اغترب عن تلك الحروب مع أنه عايشها ، ومثل ذلك أبو الفوارس وابن الدهان ، وسبط ابن التعاويذي .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المبالغـــة :

تحدث علماء اللغة والنقاد عن المبالغة كثيراً ، وفصلـوا القـول فيهـا ، وأبـانوا عن وجودها في التعريف اللغوي ، والاستعارة والتشبيه ، بل إنهم يحللونها في كل علم من علوم البلاغة: البيان ، والمعـاني ، والبديـع ومـن أشـهر هـؤلاء الآمـدي ، والرماني وابن جني . وأنا أقف عند نوع واحد منه وهو الزيادة في المعنى والخروج عن المألوف(١) لأن المدح يرتكز أساساً على التضخيم والتعظيم ، وكـان جلبـه في أول الأمر يقوم على جلب الصفات السامية ، كالكرم والشـجاعة والمـروءة ، ثـم توسعوا في ذلك فأخذوا يجعلون الممدوح يبلغ مرحلة عالية في الصفة ذاتها حتى لا يدانيه أحد .

والمدح شأنه شأن الشعر عامة ، فإن المضامين تلتقـي في البشـر ، وإن المعـاني يطرقها الشعراء في تتـابع عصورهـم ، والشـعر العربـي تراكمـي بمعنـى أن الشـعر الجاهلي محور الاعتماد ، فغالبية الشعراء ينهلون منه كالفرزدق وجرير وغيرهمـا ، ثم جاء العصر العباسـي فتصـدى اللغـوي للدفـاع عنـه وطرحـوه أنموذجـاً سـلفياً يحتذى مع تفضيل العصـر الإسـلامي علـى نتـاجهم في حينـه ، ومـن هنـا نجـد أن الشاعر يعلم بالنماذج السلفية ، ويبني عليها فتولد الأفكار ثـم تـزداد ، وتتنـامى ، وكل عصر حلقـة يتنمـى فيهـا الشـعراء المتتـابعون حيـث نجـد التكـرار في أشـعار الجاهليين ، وشـعراء بـني أميـة يقبسـون ويزيـدون في معـاني أسـلافهم ، وشـعراء العباسيين يستفيدون من أسلافهم وهذه الظاهرة لم تغب عـن النقـاد العـرب فقـد عالجوها في كتب السرقات كثيراً واختلفوا فيها كثيراً أيضاً .

لما جاء القرن السادس وما بعده ، وقد نضج الشعر وتراكم في عصور مختلفـة وبلغت الحضارة الإسلامية قمتها من مناخ كثيرة ومنها الشـعر فقـد ذهـل شعراء

(١) انظر : المبالغة في البلاغة العربية : لعالي القرشي ١٧ حتى ٢٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تلك الفترة أمام الكم والكيف الماثل أمامهم ، وأن مضامين المدح ومبانيه قد تألقت في كمال البناء ، والمضمون والشكل فكان لزاماً عليهم نتيجة البناء المضموني أن يأتوا بمعانٍ فوق تلك المعاني السالفة حتى يظهروا بمظهر جديد ، فأخذت المبالغة تتبلور .

ودافع آخر من دوافع المبالغة هو أن لمبالغة ذاتها انتشرت انتشاراً شعبياً، فألفاظ التبجيل متداولة في والوسط الشعبي الوسط التعليمي ومن مظاهره تلك الألقاب التي أضحت سمة من سمات العصر ، وأيضاً فإن القارئ للرسائل الإخوانية يجد من ألفاظ التفخيم بين الأصدقاء ، وبين العلماء والتلاميذ لأساتذتهم ، وفي مخاطبة العلماء .

وعامل آخر أثر في الشعراء وهو أن المذهب الشيعي انتشر انتشاراً كبيراً فعم الدولة الفاطمية وكثيراً من الإمارات حول الخلافة العباسية ــ وأمراء العرب من الدولة المزيدية، والعقيلية يتشيعون ، وكذلك في اليمن ولذلك انتشر هذا المذهب.

لذا فإن أقرانهم من شعراء آل البيت والدولة العبيدية يغالون في مدائحهم ، فيرى الشعراء أن شعرهم يضعف أمام ممدوحيهم فحاولوا التعويض في المبالغة وقل منهم من يلج إلى الغلو .

فمن المعاني التراكمية في المبالغة ، ما نراه عند ابن عنين حيث تكون المنح والعطايا من الإبل وتطور في الشعر إلى الأمصار فابن عنين يمدح الأشراف موسى بن الملك العادل :

أأخاف من فقر وجود الأشرف الـ ـسلطان في الآفاق قد ملأ الملا

فهو يجسد الكرم بمساحة كبيرة . ثم يهب الأمصار وليس هذا فحسب بل هو يهبها محتقراً لها ، فهو يصل إلى نهاية الشيء ومقارناً لها بالهبات القديمة :

الواهب الأمصار محتقراً لها إن غيره وهب الهجان البزلا

ما زار مغناه فقير سائل فيعود حتى يستماح ويسألا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ملك غدا جيد الزمان بجوده حالٍ ولولاه لكان معطلا(١)

ومن المبالغة في المعاني قول ابن عنين يمدح الملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك :

وثبات الرأي أغنت ألمعيته عن أن يشاركه في رأيه الوزراء
عار من العار كاس من مفاخره تكاد عزته تستوقف القدرا
تمضي المنايا بما شاءت أسنته إذا القنا بين فرسان الوغى اشتجرا
تكاد تخفي النجوم الزهر أنفسها خوفاً ويشرق بهرام إذا ذكرا
يدعو العفاة إلى أمواله الجفلى إذا دعا غيره في الأزمة النقرى(٢)

وليس مضمون كلامنا هذا شمول ظاهرة المبالغة وإنما انتشارها ، فهذا الدهان يمتدح ويقول لممدوحه :

مولاي سعد الدين دعوة آمل من بحر فيض يديك خير مؤمل
أعددته للدهر أنفع عدة وعليه بعد الله فيه معولي(٣)

الغلو :

الغلو عند العسكري تجاوز حد المعنى والارتفاع فيه إلى غاية لا يكاد يبلغها»(٣) .

والغلو في البلاغة : أن يكون الأمر المدعى غير ممكن عقلاً ويلزم ألا يكون ممكناً عادة أيضا »(٤) .

والذي ألتمسه ما يتعلق بالمضمون وهو ما يستحيل فعله للبشر وإنما يفعله الله

(١) ابن عنين : الديوان ١١ .
(٢) ابن عنين : الديوان ٥٧ .
(٣) ابن الدهان : الديوان ١١٦ .
(٣) د . بدوي طبانه : معجم البلاغة العربية ١١٦/٢ .
(٤) د . بدوي طبانه : معجم البلاغة العربية .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سبحانه وتعالى فذلك ما أريد بيانه :

والغلو في زمن الحروب الصليبية يعود إلى أن المدائح لآل البيت تقوم على قاعدة تعظيم آل البيت وأن الإمام منهم في بعض مذاهبهم يحل فيه السر نتيجة لتناسخ الأرواح . وأن التأييد الإلهي ينتقل إلى الخليفة كما هو الشأن في الدولة العبيدية ، ولذلك ظهرت عندهم المغالاة الشديدة(١) .

وأيضاً فإن تواصل الشعر في مدح آل البيت ورثاء الحسين بن علي الذي لم يقتصر على مرحلة ما بعد الموت القريبة إنما تتواصل عبر العصور ، كان لصدوره في ظاهره الغلو . وشعراء الشيعة منتشرون من قبل في أيام الدولة البويهية ، وفارس ، وخراسان ، والإمارات العربية ، وسلاطين السلاجقة والأمراء الأتابكة ، وولاة الشام لم يمتنعوا من تقريب الشعراء الذين عرفوا بتشيعهم كابن منير الطرابلسي وغيره .

فمن الغلو الاستغاثة بمجد علي بن أبي طالب ودعائه إلى تفريج الكرب واستصراخه عند الملمات للحماية منها والاعصتام به فهذه أوصاف لا تطلق إلا على الرب سبحانه وتعالى ، ومن ذلك ما قاله أبو الفوراس مخاطباً أمير المؤمنين علي بن أبي طالب :

ألا يا أمير المؤمنين الذي به ... أفلُّ الرّزايا جحفلاً بعد جحفل

وكنت متى استصرخته لملمةٍ ... حماني فأغنى عن سنان ومنصل

جعلتك في أمري عصاماً ولم تزل ... عصامي من بعد الإله وموئلي

أغثني أغثني عاجلاً غير آجل ... بإخراس مجموع المخازي قرنفل(٢)

وابن الحداد المتوفى ٥٢٩هـ يمدح الخليفة الفاطمي الآمر بالله بما فيه غلو ويمنحه أوصافاً تتأول إلى صفات الله سبحانه وتعالى ، ويهدد به الروم في بلاد

---

(١) انظر : د. أحمد بدوي ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ٦٨ .

(٢) أبو الفوارس : الديوان ٢/١٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشام :

هـذا الإمـام إمـامي حـاضر بـادي فـاليوم أشـرف أيـامي وأعيـادي
هذا مقام سمـا عـن كـل مرتبـة تسمو لها في المعالي نفـس مرتـادي

ومنها :

لأنـت وارث ملـك الأرض قاطبـة ودعيـه سـواك الغـاصب العـادي
فأنـت للخلـق روح ظاهـر وبـه يحيـا ولولاك أضحـى رمّ أجسـاد(١)

الشعر الحماسي :

والقارئ لشعر الحماسة في هذا العصر يجد أن له وظائفاً متعددة وأدواراً مختلفة تصب في مهمة الأدب المنفعية في شكلها الماثل : فقد سار جنباً إلى جنب مع العلماء الذين استنهضوا همم المسلمين الغافلة اللاهية إبان الهجمة الصليبية كما هو الشأن عند الأبيوردي ، وابن الخياط وغيرهما ، و لم ينضب معين الإثارة فيه فقد أخذ يدفع بالمجاهدين إلى الأمام ويحفزهم من نصر إلى نصر ويدعوهم إلى مواصلة الجهاد ، وكلما فتح حصن أو مدينة فإن الشعراء يصارحون القادة بأملهم بفتح بيت المقدس فلما تحققت لهم رغبتهم ألح الشعراء على تطهير الساحل فنحن لا نكاد نقرأ قصيدة للقيسراني أو ابن منير ، أو العماد الأصبهاني أو غيره إلا وتلح هذا الإلحاح . وقد أشار إلى ذلك المولفون كالدكتور عمر موسى باشا ، ومحمد سيد كيلاني ، والدكتور أحمد أحمد بدوي ، والدكتور عبداللطيف حمزه ود . محمد الهرفي ، وقد قسموا ذلك إلى الدعوة إلى الجهاد ، والتحريض عليه ، وهذه الفكرة هاجس الشعراء أنفسهم من الأوائل ، فقد سموا دواوينهم بما يوحي بذلك كديوان الجلياني (المبشرات والقدسيات) .

ومن وظائف الشعر أنه سجل لنا المعارك الحربية وحفظ لنا أزمانها ،

(١) ابن الحداد : الديوان ١١١، ١١٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومسمياتها ، وأسماء قادتها من الطرفين ، ودوّن أحداث المعارك ، وحفظ لنا صفات العتاد الحربي ، وأنواع الأسلحة ، وأوصاف الحصون ، بل كيفية حرب تلك الحصون .

وشعر الجهاد يمثل الأمطار التي تهطل على الأرض الجدبة فهو يحييها ، ويجعلها تهتز وتربو ، فكذلك قلوب القادة ، وقلوب المسلمين ، وما زالت تحيي الجذوة إلى يومنا هذا مما جعل المستعمر يدرك ذلك ويضفي على هذه العصور ستائر من الجهل والأحكام الجائرة .

وقصيدة الأبيوردي التي أنشدها القاضي الهروي وصحبه في بغداد في عام ٥٩٢هـ أول قصيدة عثرت عليها تثير الحماس الحربي ، وتستثير همة المسلمين وتدعوهم إلى الدفاع عن مقدساتهم وديارهم ، وتستنهض عزائمهم وتحيي جذوة الروح الإيمانية ، وهي بكاء على بيت المقدس وديار المسلمين لكنه يعترف أن البكاء حيلة العاجز الذي لا حول له ولا قدرة ويحذر من الأهوال التي تلحق ، والناس في غفلة من أمرهم في ظل آمن وغبطة وعيش ناعم وكأنه يقول إن هذه المحذرات للأمة ، فيجب أن تشتكي أعضاء الجسم من الخطر الداهم على أحد الأطراف ، وإن تَعُدَ ذلك فالذي يحدث للمسلمين في الشام ينال إخوانهم في العراق وغيرها :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراجم

وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... إذا الحرب شبت نارها بالصوارم

فإيها بني الإسلام إن وراءكم ... وقائع يلحقن الذرا بالمناسم

أتهويمةٌ في ظل أمن وغبطة ... وعيش كنوّار الخميلة ناعم

وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم

وأخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ... ظهور المذاكي أو بطون القشاعم

وهو يستنفر المسلمين بتوضيح المصائب التي حلت بالمسلمين من الروم ، فهم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يسومونهم الهوان ويقارنها بما في العراق من لين العيش وغضارته :

تسومهم الروم الهوان ، وأنتم تجرّون ذيل الخفض فعل المسالم

ويشير إلى استباحة المحرمات وانتهاك حرمات المسلمين ويدعو إلى الدفاع :

وكم من دماء قد أبيحت ومن دمىً توارت حياء حسنها بالمعاصم

بحيث السيوف البيض محمرة الظبا وسمر العوالي داميات اللهاذم

وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة تظل لها الولدان شيب القوادم

ثم هو يستصرخ الناس للجهاد وإنها مسؤوليتهم ومن يتأخر عنها فإنه يتعرض للمحاسبة في الدنيا والآخرة ، ويندم ندماً لا مثيل له :

وتلك حروب من يغب عن غمارها ليسلم سيقرع بعدها سن نادم

وبعد أن استنجد بالمسلمين عامة ، خص آل هاشم وخليفتهم العباس بالنداء لأن القاضي الهروي يطلب النجدة منه :

سللن بأيدي المشركين قواضبا ستغمد منهم في الطلى والجماجم

يكاد هن المستجن بطيبة ينادي بأعلى الصوت : يا آل هاشم

وهو يُلمح إلى التخاذل والتقاعس عند المسلمين ، و لم يوقظهم هوان الإسلام والمسلمين و لم يبذلوا أنفسهم في سبيل الله ، بل يجتنبون الحرب خوفاً من الردى ، وكيف ترضى أمة المسلمين والعرب باستذلال الأعاجم لهم :

أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا رماحهم والدين واهي الدعائم

ويجتنبون النار خوفاً من الردى ولا يحسبون العار ضربة لازم

أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ويغضي على ذل كماة الأعاجم

وهو يستنفد الدوافع إلى الحرب فهم ينافحون عن الدين أولاً فإذا لم تكن هناك همة فليكن لهم رغبة في المال والأجر ، وإن لم يعملوا لهذا ولا ذاك فليحموا المحارم :

فليتهمُ إذ لم يذودوا حمية عن الدين ضنوا غيره بالمحارم

وإن زهدوا في الأجر إذ حمي الوغى فهلا أتوه رغبة في الغنائم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثم هو يدعو عليهم بالويل والثبور وجدع الأنوف إن لم يستجيبوا :

لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى فلا عطسوا إلا بأجدع راغم

وأخيراً يجاهرهم بموجبات الدعوة إلى الحرب ويريهم المسرح الحربي الذي تشهده بلاد الشام :

دعوناكم والحروب ترنو ملحة إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية تطيل عليها الروم عض الأباهم
فإن أنتم لم تغضبوا بعده هذه رمينا إلى أعدائنا بالجرائم(١)

ومن أوائل الشعراء الذين يفيض شعرهم بالحماسة الحربية جهاداً في سبيل الله ضد الفرنجة الشاعر الأمير مجد العرب العامري المتوفى ٥٧٣هـ(٢) الذي قال عنه الأصبهاني: « شاعر مبرز محقق ، له خاطر معجز مفلق ، هو الداهية الدهياء، وأعجوبة الدنيا ، ... يصب الشعر في قالب السحر ، ويباهي الفضلاء بالنظم والنثر ، ويصوغه في أسلوب غريب ، ويمهده في قانون عجيب »(٣) .

وصنف العماد شعره إلى عراقي وشامي ، وقد فضل الشامي بحجة كثرة الهبات والعطايا ، وقصائده التي أنشأها بالشام أجزل وأحسن مما أنشأه بالعراق ، وقدماً قيل « اللها تفتح اللها » « واليفاع يغير الطباع »(٤) .

فعاد بجودة الشعر الشامي لسببين اثنين أولهما التشجيع والتكسب به فوجد لشعره سوقاً بالشام وثانيهما أن الأسفار والرحلات العلمية تثري الفكر ، وتقدح الذهن ، وتصقل التجارب .

لكن أضيف إلى ذلك أن ثراء الأحداث الحربية التي تحرك أشجان المسلم ، وتضيف إلى الشاعر كماً من المضامين الواقعية المستحدة التي تقدح تجربة الشاعر .

---

(١) الديوان ١٥٦/٢ .

(٢) العماد الأصبهاني : الخريدة ، القسم العراقي ١٤١/٢ .

(٣) المصدر السابق ١٤١/٢، ١٤٢ .

(٤) المصدر السابق ١٤٣/٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فالشاعر العامري الذي كان يعيش في صراع سياسي في العراق بين ولاة المسلمين لم يتدفق شعره بالغرر الشعرية الرائعة حتى التحق بالجيوش التي تصدت للغزو الفرنجي ، فأشعلت الجذوة الإيمانية الكامنة ، واستمطرت المعارك تجاربه ، تلك المعارك التي قادها الأمير حسام الدين ، تاج الدولة ، قطب الملوك أبو سعيد تمرتاش بن أيل غازي بن أرتق الذي يحكم (ميافارقين) و (ماردين) وكان في مواجهة الفرنجة وله غزوات ضدهم ، قبل أن يلمع نجم عماد الدين زنكي بانتصاراته على الصليبيين(١) .

وكانت أول قصيدة حماسية اطلعت عليها للشاعر في الحروب الصليبية هي النونية التي أنشدها في مدح الأمير حسام الدين أرتق عام ٥٢٤هـ .

والشاعر استهل قصيدته بالغزل الرمزي الذي يتلاءم مع موضوع القصيدة فهو يدعو إلى الحيطة ، ويسمى الألحاظ بالسيوف ، ويشبه فتكها بفتك ليث الغاب ، ويشير إلى الطريق الشائك بالسعدان ويومئ إلى العقبات دون الحبيب :

سل بالكثيب سوانح الغزلان ... أهي الموانس أم غصون البان

واحفظ من الألحاظ لُبك إنها ... شغل الخلي ، ولوعة اللهفان

تلك السيوف البيض تسمى أعينا ... للبيض ، والأجفان كالأجفان

من جازئات ظباء (وجرة) من لها ... فتكات ليث الغاب من (خفان)

سعدية ، لولا هواها ، لم يشق ... قلبي برامة منبت السعدان

يدنوا المزار ودون حمر قبابها ... لحظ الرقيب وهبة الغيران

« وجمال هذا البيت لا يخفى فإن العاشق يرى قرب المكان وإن نأى ويستسهل العقبات وإن عظمت » .

وبعد هذه المقدمة القصيرة يشير إلى تفرق بعض الأنصار مباشرة :

ما للأقارب من ذويك تباعدوا ... حنقاً ؟ كأنهم ذوو شنآن

(١) انظر : الخريدة ، القسم العراقي ١٤٤/٢، وحضارات تاريخ الأمم الإسلامية ٥٠٦ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ويصرح بذم العرب المعاصرين له ، مما تتبين منه الخلاف بين الأجناس الذي يؤدي إلى الفرقة :

عـرب أضـاعوا فيـك جـارهم ... والعـرب تحفـظ ذمـة الجـيران
فنفيـت مـن عدنـان إن جـازيتهم ... إلا بخـزر أسـنة المُـران
متقدمـاً لجبـا يحلـق فوقـه ... مستبشـراً لَجِـبٌ مـن العقبـان
خـذ بالشـهامة لا الكرامـة ، أهلهـا ... تـردع عـداك بهـا عـن العـدوان
فالحزم أن تضـع العقـاب إذا فشـا ... سـر المظالم ، موضـع الغفـران

وقد أشار العماد إلى أنه أخذه من قول المتنبي :

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى ... مضر كوضـع السيف موضع النـدى

ومنها :

حيـث النـدى عـذب المـوارد رائـق ... للـوارد المتهـافت الظمـآن
والحجـب ترفـع عـن أسـرة مـاجد ... كـالنصل لم يَكهـم لـه غربـان
عـن غـرة التـاج الـذي تعنـو لـه ... غـر الأمـاجد مـن ذوي التيجـان
عن خير من يـردي بـه متمطـر ... في يـوم مكرمـة ويـوم طعـان

ومنها في حربه مع الإفرنجة :

طأطـأت فيـه الكفـر بعـد بذوخـه ... ورفعـت فيـه دعـائم الإيمـان
جمعـت عليـك بـه الفرنـج جموعهـا ... وتفرقـت لمـا التقـى الجمعـان
ظنـوك مـالاقوا ، فـأبطل ظنهـم ... طعـن أحـق مظنـة السـرحان
بذوابـل أبـدت اسِنَّهـنَّ مـا ... أخفـت قلوبهـم مـن الأضغـان

ويشير إلى التدريب العسكري للجيوش الإسلامية ، وإن كان هذا التمرين يقتصر على عدد قليل ، وهي ظاهرة قل أن يشير إليها المادحون :

ومدربـين علـى القتـال ، كأنمـا ... شـربوه ولدانـاً مـع الألبـان
مـن كـل مشـوح الـذراع ، يهـزه ... قـرع العـوالي هـزة النشـوان
نظـروا إلى البيـض الخفـاف كأنهـا ... بـأكفهم مشـبوبة النـيران

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والخيل قد عادت وراداً شهبها ... مما لبسن من النجيع القاني

يسبحن طوراً في الدماء ، وتارة ... يركضن فوق جماجم الشجعان

ونكتفي بالتعليق على هذه الأبيات بما قاله العماد عنها : « هذه الأبيات كأنها بيوت للكواكب ، المعاني في كل بيت نظم بيت نجم ، وفي ضمن كل عبارة إشارة لطيفة ، وتحت كل كلمة فقرة شريفة ، أو درة يتيمة ، ما لها قيمة ، أو كأنها خزائن الضمائر وسنائن زواخر السرائر »(١) .

ومنها تلك المعاني الجيدة قوله :

في مأزق ضنك المجال ، كأنه ... مغني المبخّل أو فؤاد العاني

ستر السماء عجاجة ، فسماؤه ... نقع ، وأنجمه من الخرصان(٢)

فالصبح مما سل فيه واحد ... والليل مما ثار فيه اثنان

والدهر أخوف من به من فارس ... صب الحمام به على الفرسان

إحسانه للمجتدي ، وجنابه ... للملتجي ، وذمامه للجاني

ناهيك ياقطب الملوك من أمرئ ... قطب النهى بتنمر الشيحان(٣)

ويشير إلى هيمنة الترك :

تركت به الأعراب للترك العلى ... وتعللت بعلالة السقبان(٤)

وله قصيدة رائية في (حسام الدين أرتق) ، بعد أن ظفر على الفرنجة عام ٥٣٤هـ ، وهذه القصيدة لم يستهلها بمقدمة وإنما باشر بالموضوع ويعود ذلك لطول مكثه في ميادين الجهاد ، فهي متأخرة عن الأولى بما يقارب خمس سنوات .

والقصيدة من روائع قصائد الحماسة في الحروب الصليبية استهلها بقوله :

أطاعتك – فيما ساء حاسدك – الدهر ... ووالاك ما عادى معاديك العمر

---

(١) العماد الأصبهاني : الخريدة ، القسم العراقي ٢/١٥٤ .

(٢) الخرصان : الدروع .

(٣) قطب : مزج ، الشيحان : الغيور .

(٤) المصدر السابق ٢/١٥٠حتى ١٥٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولا استعرت إلا بحملاتك الوغى ولا سار إلا تحت راياتك النصر

ومنها :

حويت حسام الدين كل فضيلة سواك لها طي ، وأنت لها نشرُ
فما ينتهي إلا إلى كفك الندى ولا يعتزي إلا إلى بيتك الفخر
سطا كلما تابعتها جزع الردى ونعمي متى فرقتها جمع الشكر
ونفس كأن من طبعها خُلق السخا وبأس كأن من حره طبع الجمر

وقد أعجب بهذه الأبيات العماد الأصبهاني : (الأبيات الأربعة حقها أن تكتب بذوب التبر على صفحة الدهر ، وترقم بسويداء الفؤاد على سواد الحدق ، وترتاح لها النفوس ارتياح الرياض للديمة الغدق(١) .

والواقع أن القصيدة تقدح بشرر الفخر ، وتسري في النفوس ، وتشتعل لها القلوب أن القصيدة متضامن مع المضمون ، وتصوير مبدع :

مناقب لا (الغوث) الذي شمخت به على العرب (طي) يدعيها ولا (النضر)(٢)
ومقربة شقر ، وماذية خضر وهندية حمر ، وخطية شمر
نصول إذا استمطرتها ذرت الطُلا وخيل إذا استحضرتها أظلم الفجر
معودة ألا تجوس عمارة فترحل إلا وهي من سكنها قفر
هزمت بها جيش العدو مجاهداً فعزبك الإسلام ، وامتهن الكفر
ورويت بيض الهند من مهجاتهم فهن قوان من دمائهم حمر(٣)
بقية من نجا من سجنك الفدا وأعتقه من سيف والدك الأسر
تركت بأطراف (اللقان) جسومهم تذم من الأرماح ما يحمد النسر
وقد عدت مذ عامين ثانٍ وأول وما عاد عنهم من مهابتك الذعر(٤)

---

(١) العماد الأصبهاني : الخريدة ، القسم العراقي ١٤٦/٢ .

(٢) طيء : قبيلة طيء المعروفة ، والنضر : قبيلة من قريش .

(٣) قوان : الأحمر .

(٤) المرجع السابق ١٤٤/٢ حتى ١٤٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وله بقية في مدح حسام الدين وأسرة آل (ارتق) جيدة المعاني وحسنه الشكل :

والقاضي كمال الدين بن الشهرزوري من أشهر العلماء الذين لهم دور في إحياء روح الحماسة في بلاد الشام وفي عاصمة الخلافة العباسية : فلما حاصر الصليبيون حلب ورأى عماد الدين أن لا قبل للمسلمين بمهاجمتهم ، وأنه من المخاطرة بمكان أن يتقابل معهم وجهاً لوجه في معركة غير متكافئة ، فأراد عماد الدين أن يبعث القاضي كمال الدين الشهرزوري إلى السلطان السلجوقي مسعود طالباً منه النجدة فقال له كمال الدين (أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ، ويجعل السلطان هذا حجة ، وينفذ العساكر ، فإذا توسطوا البلاد ، ملكوها فقال الشهيد أن هذا العدو قد طمع فيّ وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام ، وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار)[1] ، ويصف القاضي حاله في بغداد :

« فلما رأيت عدم اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم ، أحضرت فلاناً وهو فقيه كان ينوب عنه في القضاء ، فقلت خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة من أوباش بغداد والأعاجم ، وإذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وأنت معهم واستغاثوا بصوت واحد والإسلاماه ، وادين محمد ، ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطنة مستغيثين ثم وضعت إنساناً آخر يفعل مثل ذلك في جامع السلطان » .

ونتيجة لذلك سار الناس إلى دار السلطنة ، واجتمع أهل بغداد وشاركهم العسكر ، فأمر الخليفة بتجهيز الجيش في الحال[2] .

(١؟؟ أبو شامة : الروضتين ١/٣٥ .

(٢) انظر : المصدر السابق ١/٣٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المناداة بالجهاد :

والمسلمون يتنادون للجهاد والالتفاف حول العدو ، فهذا طغتكين يعود يطلب من الخلافة المدد ، وهذا عماد الدين يبعث البعوث التي تدفع بالخلافة لمدده في حلب ، ولكن كل منهما يتراجع لأنه يخشى من القوة الضاربة ، وهذا نور الدين يطلب المدد من أخيه في الموصل ، ويبعث إلى الإمارات القريبة منه ، بل لا يكتفي بذلك فإنه يبعث العلماء والوعاظ لحث الناس في المساجد والأماكن العامة للجهاد في سبيل الله فيرهبهم الحكام ، فيستجيبوا لنداء نور الدين ، وكذلك فإن الوزراء في مصر كان لهم دور في بعث الجيوش على الساحل الشامي للدفاع والتصدي ، وقد عاتب رزيك نور الدين وطلب من أسامة بن منقذ أن يحث نور الدين إلى التحالف فقال :

أيها المنقذي أنت على البعد صديق لنا ، ونعم الصديقُ
ليس فيما تأتيه من بر أفعالك للطالب الحقوق عقوق
فلهذا نرى مواصلة الكتب تباعاً إليك مما يليق
ونناجيك بالمهمات ، إذ أنت بإلقائها إليك خليقُ
وأهم الأمور أمر جهاد الكفر ، فاسمع فعندنا التحقيق
وأصلتهم منا السرايا فأشجاهم بكور منا لهم وطروق
وأباحت ديارهم ، فأباد القوم قتل ملازم وحريق
وانتظرنا بزحفنا برء نور الدين علماً منا بأنه سيفيق
وهو الآن في أمان من الله ، وما يعتريه أمر يعوق
ما لهذا المهم مثلك ، مجد الدين ، فانهض به ، فأنت حقيق
قل له : لا عداه رأي ، ولا زال لديه لكل خير طريق
أنت في حسم داء طاغية الكفار ذاك المرجو والمرموق

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فاغتنم بالجهاد أجرك ، كي تلقى رفيقاً لـه ، ونعـم الرفيـق(١)

والقيسراني من أوائل الشعراء الذين عانوا من الغزو الصليبي ، فقد شردته من عكا ، ثم من قيسارية ، وقد ألهبته نارها في دمشق فهو شديد التمني لقيام قوة إسلامية تصد زحف هذا العدو ، ثم تحرر الديار الإسلامية منه فعندما يرى بارقة أمل يهب ممجداً ومحرضاً لإبطالها فالغاية ليست المدح وإنما هو وسيلة لإثارة الحماسة ، ويعبر الشاعر عن أمانيه وأماني الأمة معه : فقد صد تاج الملوك بوري في عام ٥٢٣هـ هجوماً صليبياً على دمشق فقال :

الحق مبتهج والسيف مبتسم ومال أعداء مجير الدين مقتسم
قدت الجياد وحصنت البلاد وأمنت العباد فأمنت الحل والحرم

ويقول منها :

وافوا دمشق فظنوا أنها جدة ففارقوها وفي أيديهم العدم
وأيقنوا مع ضياء الصبح أنهم إن لم يزولوا سراعاً زالت الخيم(٢)

وينتقل عماد الدين في عام ٥٣٤هـ إلى الحصون الإفرنجية ، ويستعيدها ويصحبه الشعراء فيدونون تلك ، ومنهم القيسراني الذي رافقه في فتح حصن بارين ، والمعرة وكفر طاب ، فلما استولى عليها سجل القيسراني هذا الفتح معبراً عن فرحة المسلمين ، ومحرضاً عماد الدين على متابعة الجهاد في قصيدة مطلعها :

حذار منا وأنيّ ينفع الحذر هي الصوارم لا تبقي ولا تذر
وأين ينجو ملوك الشرك من ملك من خيله النصر لابل جنده القدر(٣)

وهذه أول قصيدة للشاعر القيسراني مع أسرة آل زنكي - ضد الإفرنجة - التي تصدرت لحروب الصليبيين ، وتلك المعارك أيضاً تستدعي ابن منير الذي يقول :

---

(١) الديوان ١٠٣ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ١/٥٤ .

(٣) المصدر السابق ١/٣٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أيـــا محيـــي العـــدل لّمـــا نعـــا ه أيـــامى البرايـــا وأيتامهـــا
ومســـتنقذ الديـــن مـــن أمـــة أزال المحـــاريب أصنامهـــا
دلفـــت لهـــا تقتفيـــك الأســـو د ، والبيـــض والسمـــر آجامهـا(١)

والتحق الشعراء بعماد الدين زنكي بعد أن عاد إلى ميادين الجهاد في الشام في عام ٥٣٢هـ واتجه لفك الحصار عن شيزر ، ونجح في زعزعه ملك الروم وتخويفه ، وإشغاله بمعارك خاطفة حتى عاد ملك الروم إلى بلاده فمدحه أبو المجد المسلم بن الخضر بن قسيم الحموي ، يوضح فيها صدق العزيمة لعماد الدين ، ويدعوه إليها لوقف زحف هذا الجيش الذي يشبه الليل البهيم والمسلمون أحوج ما يحتاج في هذا الفراغ السياسي إلى الإرادة القوية ، لهذا استهل قصيدته بها :

بعزمـــك أيهـــا الملـــك العظيـــم تـــذل لـــك الصعـــاب وتســـتقيم
ألم تـــرَ أن كلـــب الـــروم لمـــا تبـــين أنـــك الملـــك الرحيـــم
فجـــاء يطبـــق الفلـــوات خيـــلاً كـــأن الجحفـــل الليـــل البهيـــم

ومنها :

أيلتمـــس الفرنـــج لديـــك عفـــواً وأنـــت بقطـــع دابرهـــا زعيـــم
وكـــم جرعتهـــا غصـــص المنايـــا بيـــوم فيـــه يكتهـــل الفطيـــم(٢)

وهذه أبيات من قصيدة تسير على النهج تحوي مضامين حماسية تخبو فيه الفنية ونتعيض عنها بإثارة الحماسة مباشرة .

وفي فتح مدينة الرها عام ٥٣٩هـ ينبري القيسراني مهنئاً عماد الدين والمسلمين بهذا النصر المؤزر بقصيدة حماسية مطلعها :

هـو الســـيف لا يغنيـــك إلا جـــلاده وهـــل طـــوق الأمـــلاك إلا نجـــاده
وقـــل لملـــوك الكفـــر يســـلم بعدهـــا ممالكهـــا إن البـــلاد بـــلاده
كذا عـــن طريـــق الصبـــح فلينتـــه الدجى فياطالمـــا غـــلا الظـــلام امتـــداده

(١) المرجع السابق ١/٣٥ .
(٢) المرجع السابق ١/٣٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن كان أملاك السموات جنده فأية أرض لم ترضها جياده(١)

والشعراء يقتفون على هذا المضمون حيث يجمعون على الإشادة بعماد الدين وانطلاقته المباركة لمبارزة الصليبيين ، فيقول ابن منير في المعركة ذاتها :

ياصارما بمين الله قائمة وفي أعالي أعادي الله حداه
أصبحت دون ملوك الأرض منفرداً بلا شبيه إذ الأملاك أشباه
قل للأعادي ألا موتوا به كمداً فالله خيكم والله أعطاه(٢)

ولابن منير قصيدتان أخريان في هذا الفتح المبين(٣)، ومن القصائد الحماسية التي تقتفي نهج بائية أبي تمام قصيدة القيسراني في فتح أنطاكية عام ٥٥٩هـ :

غضبت للدين حتى لم يفتك رضاً وكان دين الهدى مرضاته الغضب
طهرت أرض الأعادي من دمائهم طهارة كل سيف عندها جنب
حتى استطار شرار الزند قادحه فالحرب تضرم والآجال تحتطب
والخيل من تحت قتلاها تقر لها قوائم خانهن الركض والخبب
والنقع فوق صقال البيض منعقد كما استقل دخان تحته لهب
والنبل كالوبل أهطال وليس له سوى القسي وأيدٍ فوقها سحب(٤)

ونور الدين الذي تولى السلطة عام ٥٤١هـ ، وبادر إلى الجهاد ، حف به الشعراء كالقيسراني ، وابن منير ، ولما لمع نجمه في الآفاق الإسلامية ، وأصبح السلطان المجاهد التقي الورع العادل ، التف حوله العلماء أيضاً مما كون له مكانة في نفوس المسلمين ، وتسلم قيادة الجهاد الإسلامي ، وأعلن الاتحاد الإسلامي وجاهد من أجله ووحد صفوف المسلمين فأخلص له شعراؤه الأوائل وأخذ يتوافد عليه شعراء العراق ، مثل أبي الفوراس (حيص بيص) وسبط التعاويذي والعماد

(١) أبو شامة : الروضتين ١/٣٧، ٣٨.
(٢) المرجع السابق ١/٣٩ .
(٣) المرجع السابق ١/٣٩ .
(٤) المرجع السابق ١/٥٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الاصبهاني ، وغيرهم الكثير ومن مصر المهذب بن الزبير .

وقد مدحه الأمير الشاعر أسامة بن منقذ ، وقد احتل نور الدين مساحة واسعة من شعر المراسلات بين أسامة بن منقذ وطلائع بن زريك .

ونور الدين قليل العطاء للشعراء لكن أسامة بن منقذ بالغ بدعابته ببيتين هما:

أميرنا زاهد والناس قد زهدوا ... له فكل على الخيرات منكمش

أيامه مثل شهر الصوم طاهرة ... من المعاصي وفيها الجوع والعطش(١)

ولكن الشعراء قد أكثروا من مدائحه(٢)، وأجادوا فيها ، وفاضت بصدق العاطفة ، وانصهرت في الشعر الحماسي الصداق وذلك لبطولاته الحربية ولتوحيد الأمة الإسلامية في الشام ، ومصر ، والحجاز ، واليمن ، ولانتشار العدل ، وقيام الإصلاحات ، ولمباشرته للجهاد وقيادته للجيوش .

والشعراء في عهده هم أولئك الذين سطروا أحداث الحروب الصليبية ، في مرحلة بدايتها وتزايد قوتها وانتصاراتها ، وقد سجل لنا الشعر التاريخ والأسماء وكيفية الحياة الحربية ، ووصف المعارك والحصون والاستعداد الحربي وآلات الحرب ، كما سجل أسماء المدن التي احتلها الصليبيون وأسماء قادة الصليبيين ، وأوضح لنا صفات الأعداء وخصائصهم وتعاملهم بالغدر والخيانة .

ومن شعر الجهاد الحماسي ما رغب فيه نور الدين إلى العماد الأصبهاني أن يعمل بيتاً في معنى الجهاد على لسانه : (من الدوبيت) :

للغزو نشاطي وإليه طربي ... ما لي في العيش غيره من أرب

بالجد وبالجهاد نجح الطلب ... والراحة مستودعه في التعب

وقال أيضاً :

---

(١) الديوان ٢٠٨ .

(٢) انظر : محمود فايز السرطاوي ، نور الدين زنكي في الأدب العربي ١٩٣، وما بعدها .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لا راحة في العيش سوى أن أغزو وسيفي طرباً إلى الطلى يهتز
في ذل ذوي الكفر يكون العز والقدرة في غير جهاد عجز

وقال :

أقسمن سوى الجهاد ما لي أرب والراحة في سواه عندي تعب
إلا بالجد ينال الطلب والعيش بلا جد جهاد لعب(١)

وفي عهد نور الدين زنكي ظهر لون من الشعر الحماسي يقرب إلى التفاخر بالأعمال المجيدة في الحرب وهو تناظر بين شاعرين لإقليمين اشتركا في حروب الصليبيين تحت راية دولتين مختلفتين أحدهما دولة نور الدين زنكي في الشام تحت لواء الخلافة العباسية وشاعرها أسامة بن منقذ وثانيتهما دولة الخلافة الفاطمية في مصر وشاعرها الوزير طلائع بن زريك ، وكل منهما يعدد البطولات التي أنجزها في حروب الصليبيين . وقصيدة أسامة بعيدة عن غرض المدح ، ولكنها من شاعر خاض غمار الحرب في بدايتها مع عماد الدين ثم أمراء دمشق ، ثم مع نور الدين، فهو يحكي سيرته الحربية ، وقد نبعت من تجربة صادقة ، وهي أشبه بالمطولات الكبرى التي تحكي واقعاً حربياً ممتداً لسنين متعددة ولا تقف عند معركة واحدة كقصيدة أبي تمام ، وهي أيضاً تمثل سيرة قائد حربي ذلكم هو نور الدين ، وفيها تعداد لأسماء الأماكن والوقائع الحربية ، وذكر للقيادات العسكرية ، وفيها وصف للجيوش والاستعداد الحربي ، ووصف مسرح المعارك .

والقصيدة تجمع بين شرف المضمون ، وجمال العبارة ، وتدفق الشعور ، وصدق العاطفة وهي تماثل معلقة عمرو بن كلثوم وترجح بها في الواقعية والصدق ، وشرف الغاية . والقصيدة طويلة تبلغ أبياتها تسعين بيتاً .

وقصيدة أسامه بن منقذ ، تشير إلى مبادرة أهل الشام إلى المعارك والدولة التي تعنى بالأمن الداخلي ، وتتصدى للعدو الخارجي ، ويفتخر بإعراضهم عن ملذات

(١) أبو شامة : الروضتين ١/٢٠٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الدنيا ، وعزوفهم عن الملاهي ، وبذل أموالهم وأنفسهم في سبيل الله :

أبى الله إلاّ أن يكون لنا الأمرُ ... لتحيا بنا الدنيا ، ويفتخر العصر
وتخدمنا الأيام فيما نرومه ... وينقاد طوعاً في أزمتنا الدهر(١)
وتخضع أعناق الملوك لعزمنا ... ويرهبها منا على بعدنا الذكر
بحيث حللنا الأمنُ من كل حادث ... وفي سائر الآفاق من بأسنا ذعر
بطاعتنا لله أصبح طوعنا الأ ... نام ، فما يعصى لنا فيهم أمرُ
فأيماننا في السلم سُحبٌ مواهب ... وفي الحرب سُحبٌ وبلهن دمٌ همرُ(٢)
قضت في بني الدنيا قضاء زمانها ... فسر بها شطرٌ وسيء بها شطر
وما في ملوك المسلمين مجاهد ... سوانا ، فما يثنيه حرٌ ولا قرُّ
جعلنا الجهاد همنا واشتغالنا ... ولم يلهنا عنه السماغ ولا الخمرُ
دماء العِدا أشهى من الراح عندنا ... ووقع المواضي فيهم الناي والوتر(٣)
نواصلهم وصل الحبيب وهم عداً ... زيارتهُ ينحط عنا بها الوزر

والقصيدة ملحمة حربية يستعرض فيها بطولات الجهاد في بلاد الشام ، تحت قيادة الزنكيين ؛ من أسرهم لملوكهم ، وتحرير الحصون كالعريمة ، وأخذ يعدد المواقع الحربية التي انتصر فيها المسلمون وهي قصيدة حماسية نادر أن يكون لها مثيل في الشعر المعاصر لها ، ما عدا قصيدة طلائع بن زريك التي سنستعرضها - إن شاء الله - وفيها يشير إلى الانتصار على جوسلين ، وبغدوين وغدرهما :

وفي سجننا ابن الفنش خير ملوكهم ... وإن لم يكن خير لديهم ولا بر
أسرناه من حصن العريمة راغماً ... وقد قتلت فرسانهم فهم جزر(٤)
وسل عنهم الوادي بأقليس إنه ... إلى اليوم فيه من دمائهم غُدر
هم انتشروا فيه لردّ رعلينا ... فمن تربه يوم المعاد لهم نشر

---

(١) أزمه : جمع زمام .

(٢) همره : صبه ، والوبل : المطر الشديد الضخم القطر .

(٣) الراح : الخمر ، المواضي : السيوف الباترة .

(٤) العريمة : اسم موضع ، جزر : مخفف جزر بضمتين وهي جمع جزور وهي الناقة المجزورة : الذبيحة .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ونحن أسرنا الجوسلين ولم يكن ... ليخشى من الأيام نائبة تعرو
وكان يظن الغر أنا نبيعه ... بمال ، وكم ظن به يهلك الغر
فلما استبحنا ملكه وبلاده ... ولم يبق مال يستباح ولا ثغر
كحلناه نبغي الأجر في فعلنا به ... وفي مثل ما قد ناله يحرز الأجرُ
ونحن كسرنا البغدوين وما لمن ... كسرناه إبلال يرجى ولا جبرُ
فله اللعين الخائن الذي ... له الغدر دين : ما به صنع الغدر
وقد ضاقت الدنيا عليه برحبها ... فلم ينجه برٌ ، ولم يحمه بحر
أفي غدره بالخيل بعد يمينه ... يانجيله بين الأنام له عذر
دعته إلى نكث اليمين وغردته ... بذمته النفس الخسيسة والمكر
وقد كان لون الخيل شتى فأصبحت ... تعاد إلينا ، وهي من دمهم شقرُ
توهم عجزاً حِلْمَنا وأناتنا ... وما العجزُ إلا ما أتى الجاهل الغمرُ
فلما تمادى غيه وضلاله ... ولم يثنه عن جهله النهي والزجر
برزنا له كالليث فارق غيله ... وعادته كسرُ الفرائس والهصر(١)
وسرنا إليه حين هاب لقاءنا ... وبان له من بأسنا البؤس والشر

ثم يفتخر بالاستعداد الحربي الدائم فهم فوق سروجهم ، وحملهم الدروع ، وقصورهم الخيام ، وملوك الشام تحارب وأمرائهم يتنعمون ، وهم يسيرون إلى الأعداء وقد تبعهم الطيور لما اعتادت عليه من الشبع من أعدائهم .

وهو يكثر من الصفات الفخرية الحماسية :

وثير حشايانا السروج ، وقمصنا الد ... روع ، ومنصوب الخيام لنا قصر
ترى الأرض مثل الأفق ، وهي نجومه ... وأن حسدتها عزها الأنجم الزهر
وهمُّ الملوك البيض والسمر كالدمى ... وهمتنا البيض الصوارم والسمر(٢)
صوارمنا حمر المضارب من دم ... قوائمها من جودنا نضرة خضر

(١) الهصر : الكسر .

(٢) الدمى : جمع دمية وهي الصورة المنقوشة من الرخام ، والتمثال .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نسير إلى الأعداء والطير فوقنا ... لها القوت من أعدائنا ، ولنا النصر(١)
فبأس يذوب الصخر من حر ناره ... ولطف له بالماء ينبجس الصخر(٢)
وجيش إذا لاقى العدو ظننتهم ... أسود الشرى عنت لها الأدم والعُفر(٣)
ترى كل شهم في الوغى مثل سهمه ... نفوذاً ، فما يثنيه خوفٌ ولا كثر
هم الأسد من بيض الصوارم والقنا ... لهم في الوغى الناب الحديد والظفر
يرون لهم في القتل خلداً فكيف ... باللقاء لقوم قتلهم عندهم عُمرُ
إذا نسبوا كانوا جميعاً بني أب ... فطعنهم شزر ، وضربهم هبر(٤)
يظنون أن الكفر عصيان أمرنا ... فما عندهم يوماً لإنعامنا كفر
لنا منهم أقدامهم وولائهم ... ومنا لهم إكرامهم والندى الغمر
بنا أيد الإسلام ، وازداد عزة ... وذل لنا من بعد عزته الكفر
قتلنا البرنس ، حين سار بجهله ... تحف به الفرسان والعسكر المجر(٥)
ولم يبق إلا من أسرن ، وكيف بالبقاء ... لمن أخنت عليه الظبا البُتُر(٦)

إن الله اختار أهل الشام لمواجهة الغزو الصليبي تكريماً لهم بالشهادة والإبتلاء، وحقيقة أن الكفار قوية شوكتهم في بداية احتلالهم لبلاد الشام ، ولكن القوة التي صحبت عماد الدين زنكي وابنه نور الدين ، قد غيرت الميزان الحربي لصالح المسلمين ، والحق أن الجيوش من أبناء الشام والأتراك والقبائل المجاورة . وكثيراً ما يظهر قائد فاتك من الإفرنجة مثل جوسلين وبلدوين ، وأرناط فتكون معارك حاسمة ، ويكون همَّ القائد القضاء على هذا الأمير الإفرنجي الفاتك ، فقد قضى

---

(١) في هامش الديوان الهيجاء ، بدل الأعداء .

(٢) انبجس : تفجر .

(٣) الأدم من الظباء : بياضاً ، والأعفرا من الظباء : ما يعلو بياضه حمرة .

(٤) طعن شزر : شديد صعب . وضرب هبر : يسقط الهبر . والهبرة : بضعة لحم لاعظم فيها .

(٥) المجر : الجيش العظيم .

(٦) أسنة السيوف القاطعة .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نور الدين على جوسلين ، وقضى صلاح الدين على إرناط ، وهم بعد ذلك لاهم للمسلمين إلا استرداد بيت المقدس وسائر المدن الإسلامية .

والشاعر يفخر بوقائع شهدها أو سمعها عن قرب ، وهو يصف المعارك وقت اشتباكها ، ثم مطاردة المنهزمين ، وهو يشير إلى كثرة الحصون التي استردها المسلمون وهو يسجل أشهر تلك المعارك ومنها فتح الرها ، وتل باشر ، وتل عزاز

فولّى يباري عائرات سهامنا ... وفي سمعه من وقع أسيافنا وقر(١)
وخلّي لنا فرسانه وحُماته ... فشطر له قتل ، وشطر له أسر
وما تنثني عنه أعنة خيلنا ... ولو طار في أفق السماء به النسر
إلى أن يزور الجوسلين مساهما ... له دياج ، ما لليلتها فجر(٢)
ونرتجع القدس المطهر منهم ... ويتلى بإذن الله في الصخرة الذكرُ
كأفعالنا في أرض من حان منهم ... فلم يبق منها في ممالهم شبر(٣)
إذا استغلقت شم الحصون فعندنا ... مفاتحها : بيض ، مضاربها حمرُ
وإن بلدٌ عز الملوك مرامه ... ورمناه ، ذل الصعب واستسهل الوعر
وأضحى عليه للسهام وللظبا ... ووقع المذاكي الرعد والبرق والقطر(٤)
بنا استرجع الله البلاد وأمّن العباد ... فلا خوف عليهم ولا قهر
فتحنا الرها حين استباح عداتنا ... حماها ، وسنى ملكها هم الختر(٥)
جعلنا طلى الفرسان أغماد بيضنا ... وملكنا أبكارها الفتكة البكر
ونحن فتحنا تل باشر بعدها ... وقد عجزت عنه الأكاسر الغر
أتى ساكنوها بالمفاتيح طاعة ... إلينا ، ومسراهم إلى بابنا شهر
وما كل ملك قادر ذو مهابة ... ولا كل ساع يستتب له الأمر

---

(١) العائر : كل ما أعل العين ، والوقر : ثقل في الأذن .

(٢) الجوسلين : أحد ملوك الصليبيين .

(٣) حان : هلك .

(٤) المذاكي من الخيل : التي أتى عليها بعد فروحها سنة أو سنتان .

(٥) الرها : عاصمة إمارة صليبية بالشام ، سناه : سبله ، والختر : الغدر والخديعة .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وتـــل عـــزاز ، صبحتـــه جيوشـــنا فلـــم تحمـــه عنـــا الرجـــال ولا الجـــدر
وملنا إلى بـــرج الرصـــاص وأنـــه لكالسد ، لكن الرصاص له قطر(١)،(٢)

وقصيدة طلائع بن زريك حماسية ، تفتخر ببطولات مصر ، وتحكي وقائعهم مع الصليبيين ، وتبلغ ثلاثة وستين بيتاً ، والقصيدة تستهل بروح إيمانية جهادية ، توحي برغبة صادقة في مواصلة الجهاد ، وتشير إلى أن هناك في مصر من يتمنى لقاء الصليبيين لكنهم لم يتمكنوا من الوفاء بنذرهم ، وهم يملكون إرادة قوية تستنزل العدو من شامخ مجده ، وتفتك بالأعداء في عقر دارهم ، ولا يثنيهم وهج الهاجرة :

ألا هكـــذا في الله تمضـــي العزائـــم وتمضي لدى الحرب الســـيوف الصوارم
وتستنزل الأعـــداء مـــن طـــود عزهـــم وليـــس ســـوى حـــر الرمـــاح ســـلالم
وتغزي جيوش الفكر في عقر دارهـــا ويوطـــأ حماهـــا ، والأنـــوف رواغـــم
ويـــوفي الكـــرام النـــاذرون بنذرهـــم وإن بذلـــت فيـــه النفـــوس الكرائـــم
نذرنا مسير الجيـــش في صفـــر فمـــا مضى نصفه حتى أنثنى وهـــو غانـــم

ويفخر ببعث الجيوش لمساندة إخوانهم في الشام ولا تمنعهم ، الصحاري الشاسعة والمهام المهلكة ، إنما تتابع الرايات ، وتتبارى الخيول :

بعثناه من (مصر) إلى (الشام) قاطعـا مفـاوز وخـد العيـس فيهـن دائـم(٣)
وناهيك من أرض (الجفار) إذا التظى بجنبيه مشبوب من القيـــظ جاحـــم(٤)

---

(١) القطر : النحاس الذائب .

(٢) أسامه بن منقذ : الديوان ٢٥١ حتى ٢٥٤ .

(٣) المفاوز : جمع مفازه وهي الفلاة ، الوخد للبعير : الإسراع في السير ، العيس : الإبل البيض يخالط بياضها شقره .

(٤) الجفارة : أرض بين فلسطين ومصر ، أولها رفح كلها رمال بيض ، مشبوب : من شب النار اتقدت ، الجاحم : الجحيم .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وصارت عيون الماء كالعين عزة ... إذا ما أتاها العسكر المتزاحم(١)
فما هاله بعد الديار ولا ثنى ... عزيمته جهد الظما والسمائم(٢)
يهجر والعصفور في قعر وكره ... ويسري إلى الأعداء ، والنجم نائم
إذا ما طوى الرايات وقت مسيره ... غدت عوضاً منها الطيور الحوائم
تبارى خيولاً ما تزال كأنها ... إذا ما هي انقضت نسور قشاعم(٣)
فإن طلبت قصداً تساوين سرعة ... قوادمها في جوها والقوائم(٤)
هي الدهم ألواناً ، وصبغ عجاجه ... فإن طلبت أعداءها فالأداهم(٥)
تصاحبها علماً بأن سوف نفتدي ... بها ، ولها في الكافرين مطاعم

والشاعر ابن زريك بعد أن وقف متأنياً عند العقبة الكبرى في وجه الجيوش المصرية تلك تتمثل في الفيافي الشاسعة من صحراء سيناء ، حيث الآبار القليلة الماء في طول المسافة ، فهو يفخر باقتحامها بجيش لجب ، ثم هو يسجل في الشعر قادة الجيوش المصرية التي التقت مع الصليبيين وهم « ضرغام » و « وعين الزمان » و « حاتم » و « يحيى » ويشير إلى استشهاد قائدهم حاتم في إحدى المعارك .

كما أن وحش القفر ما زال منهم ... مدى الدهر أعراس لهم وولائم
خيول إذا ما فارقت (مصر) تبتغي ... عدا ، فلها النصر المبين ملازم
يسير بها ضرغام في كل مأزق ... وما يصحب الضرغام إلا الضراغم(٦)
ورفقته عين الزمان وحاتم ... ويحيى وإن لاقى المنية حاتم(٧)

---

(١) عزة من الشيء : قل ، ندر .
(٢) السموم : الريح الحارة .
(٣) القشعم : المسن من النسور والضخم .
(٤) القوادم : ريشات في مقدم الجناح .
(٥) الدهم : جمع أدهم ، وهو الأسود ، والأداهم : القيود .
(٦) ضرغام : قائد مصري ، الضراغم : جمع ضرغام : الأسد .
(٧) أسماء قواد ثلاثة .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مضى طاهر الأثواب من كل ريبة ... شهيداً كما تمضي السراة الأكارم(١)
هنيئاً له يسقى الرحيق إذا غدت ... تحييه في الخلد الحسان النواعم(٢)
ولو أنا نبكي على فقد هالك ... لقلت له منا الدموع السواجم(٣)
ولكننا بعنا الإله نفوسنا ... ورحنا ، وما منا على البيع نادم
تهون علينا أن تصاب نفوسنا ... إذا لم تصبنا في الحياة المآثم
وما خام إذ لاقى همام وصنوه ... عشية أصوات الرجال هماهم(٤)

ثم هو يقف عند تكوين الجيش المصري ، ويذكر أشهر الفرق الحربية مثل (برقية) و (سنبس) وهو يسجل ظاهرة قل تسجيلها ، فيصف القبائل العربية التي اشتركت في المعارك ، وهم جمع من أخلاط القبائل المتفرقة ، أو جمع من قبيلة (ثعلبة) ، وجيش من قبيلة (جذام) ، إذاً فإن شرائح المجتمع شارك في مواجهة الإفرنجة .

وبرقية شاموا السيوف ، فلم يعش ... لبارقها في ساحة الشام شائم
وأنفاء جند لو توجه جمعهم ... لرومية جالت عليها المقاسم
وجمع مماليك بأفعالنا اقتدوا ... فكلهم بالطعن والضرب عالم
و (سنبس) قد شادوا المعالي بفعلهم ... وليس لهم إلا العوالي دعائم(٥)
و (ثعلبة) أضحوا بنا قد تأسدوا ... فما لهم في المشركين مقادم
وإن (جذاما) لم يزل قط منهم ... قديماً لحبل الفكر بالشام جاذم(٦)
جيوش أفدناهم اعتزاماً ونجدة ... فظاعننا منهم ، ومنا العزائم
إذا ما أثاروا النقع فالثغر عابس ... وإن جردوا الأسياف فالثغر باسم

---

(١) السراة : السادة .
(٢) الرحيق : الخمر .
(٣) السواجم : جمع سجم : الدمع سال .
(٤) حام عنه : نكص وحبن : والصنو : الأخ ، الهمهمة : الكلام الخفي : وتردد الزفير في الصدر من المهم
(٥) العوالي : أعالي الرماح .
(٦) جذاماً : من قبائل الجيش المصري .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ولما وطـــوا أرض الشـــآم تحالفـــت ... فآضت جميعـــاً عربهـــا والأعاجـــم

والشاعر ابن زريك تستوقفه المشاهد للمعارك ، فهو يصف المواجهة ويصف تلاطم الجيوش وتلاحم الأبطال بالسلاح ، واستمرار الحرب زمناً طويلاً ، ثم يصف إحدى الهزائم للإفرنجة فلم يبق لهم باق ، وهو تارة يمكر بالعدو ، وينتصر عليهم بالرأي والتدبير ، مع هذا البعد ومحاولة التدبير فإنهم ما زالوا يعثون بجيوشهم .

وواجهـــم جمـــع الفرنـــج بعملـــة ... تهـــون علـــى الشـــجعان منـــه الهزائـــم
فلقوهـــم زرق الأســـنة وانطـــووا ... عليهم ، فلم ينجم مـن الكفر ناجم(١)
ومـا زالـت الحـرب العـوان أشـدها ... إذا مـا تلاقـى العســكر المتصـادم
يشـــبههم مـــن لاح جمعهـــم لـــه ... بلجـــة بحـــر موجهـــاً متلاطـــم
وحســبك أن لم يبـق في القـوم فـارس ... من الجيش إلا وهـو للرمح حـاطم(٢)
وعـادوا إلى سـل السـيوف فقطعـت ... رؤوس ، وحـزت للفرنـج غلاطـم(٣)
فلـم ينـج منهـم يـوم ذاك مخـبر ... ولا قيـل : هـذا وحـده اليـوم سـالم
كذلـك مـا ينفـك تهـدي إلى العـدا ... وللوحـش أعـراس لهـم ومـآتم
وتسـري لهـم آراؤنـا وجيوشـنا ... بداهيـة تبيـض منهـا المقـادم(٤)
نقتلهـم بـالرأي طـوراً ، وتـارة ... تدوسـهم منـا المذاكـي الصـلادم(٥)
ومـا العـازم المحمـود إلا الـذي يـرى ... مـع العـزم في أحوالـه ، وهـو حـازم
وقـد غـرق الكفـار منـه بقطـرة ... سـحاب انتقـام عندنـا مـتراكم

---

(١) نجم : ظهر بدى ، بقي .

(٢) الحطم : الكسر .

(٣) الغلطمة : اللحم بين الرأس والعنق ، أو رأس الحلقوم .

(٤) مقدم العيت كمحسن ومعظم : ما يلي الأنف ، ومن الوجه : ما استقبلت به .

(٥) الصلدم : كزبرج : الأسد . والصلب الشديد الحافر ، والمذاكي من الخيل ما أتى عليها بعد قرحها سنة وسنتان .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فكيف إذا سالت عليهم سيولنا ... وجاشت لنا تلك البحار الخضارم(١)

وما نحن بالإسلام للشرك هازم ... ولكننا الإيمان للكفر هادم

ثم هم يخاطب نور الدين في الشام ويدعو إلى مناجزة الأعداء في أرض الشام لعله يتجه إليهم مما يليه وتأتي جيوش مصر مما يليها ، فإن ابن زريك هو الوزير في مصر ويرغب أن يتعاضد مع دولة قوية ، تلك الدولة الزنكية ، ويشير إلى افتعال موت نور الدين في مرض ألم به ، لكنه لم يمت في ذلك المرض غير أن الشائعات زلزلت بعض أركان الدولة ، وهو يعلن قوة الجيش المصري بل ما زال معادياً ومحارباً للإفرنجة :

فقولوا لنور الدين : لافل حده ... ولا حكمت فيه الليالي الغواشم(٢)

تجهز إلى أرض العدو ، ولاتهن ... وتظهر فتوراً إن مضت منك حارم(٣)

فما مثلها تبدي احتفالاً به ، ولا ... تعض عليها للملوك الأباهم(٤)

فعندك من ألطاف ربك ما به ... علمنا يقيناً أنه لك راحم

أعادك حياً بعد أن زعم الورى ... بأنك قد لاقيت ما الله حاتم

بوقت أصاب الأرض ما قد أصابها ... وحلت بها تلك الدواهي العظائم

وخيم جيش الكفر في أرض (شيزر) ... فسيقت سايا ، واستحلت محارم

وقد كان تاريخُ الشآم وهلكه ... ومن يحتويه أنه لك عادم

فقم ، وأشكر الله الكريم بنهضة ... إليهم ، فشكر الله للخلق لازم

فنحن على ما قد عهدت نروعهم ... ونخلف جهداً أننا لا نسالم

وغاراتنا ليست تفتر عنهم ... وليس ينجي القوم منها الهزائم(٥)

وأسطولنا أضعاف ما كان سائراً ... إليهم ، فلا حصن لهم منه عاصم

---

(١) الخضارم : جمع خضرم . وهو الكثير من كل شيء .

(٢) الغشم : الظلم .

(٣) حارم : مدينة .

(٤) الأباهم : جمع إبهام .

(٥) الفتر : الضعف .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ونرجـو بـأن نجتـاح بـاقيهم بـه ... وتحـوي الأسـارى منهـم والغنـائم(١)
علـى أننـا نلنـا مـن المجـد مابـه ... نفـاخر أمـلاك الـورى ونقـاوم
ولكننـا نبغـي المثوبـة جهدنـا ... وطاقتنـا ، والله معـط وحـارم
ونختم بالحسنـى الفعـال ، وإنمـا ... تزين أعمـال الرجـال الخواتـم

والواقع أن القصيدتين مطولتان سطرتا المعارك الحربية والبطولات الإسلامية، قبل عهد صلاح الدين الأيوبي .

والقصيدة الأخيرة تفتخر بالحروب التي خاضتها الدولة الفاطمية ضد الصليبيين ، ولما تولى الوزارة ابن زريك كأنه تطلع إلى التحالف مع نور الدين في بلاد الشام ، لكن نور الدين يحارب الصليبيين ، ولم يستطع التحالف مع الدولة الفاطمية لاختلاف المذهب ، وخشية الغدر ، لكن لما هجم الصليبيون على مصر بادر ببعث الجيوش بقيادة أسد الدين شيركوه .

والقصيدة تشيد بقوة نور الدين ، وهي أيضاً تشير إلى المعارك الحربية البحرية التي قل الإشارة إليها بل هو يفخر به على سائر الأساطيل .

ونستدل من القصائد المتبادلة على فرقة المسلمين واتحاد شمل الإفرنجة ومع أن الفرنجة غزاة للخلافتين معاً فإنه لم يكن هناك تعاضد وتنسيق بين المسلمين ، وتلك ظاهرة مشينة في العالم الإسلامي فإن المذهبية أو التوجه السياسي يحول دون التعاون بينما ، هذه الأمور من المذهبية والتباعد في الوجهة السياسية لم تحل دون اتحاد أوربا في الأزمات الحربية .

وأما دور شعراء الجزيرة العربية في الحروب الصليبية ، فإنني حاولت أن أنقب عنه في الدواوين الشعرية ، أومصادر الشعر ، فلم أعثر إلا على النزر اليسير منه ، وربما لعدم وجوده أصلاً ، فالجزيرة نأت عن الأحداث الحربية ، والمدح فيها قليل، والشعراء المحترفون أقل ، ولا أستبعد وجود بعض الشعر غير أن تدوينه فيه من

(١) الجوح : الإهلاك والاستئصال ، كالاجتياح .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الصعوبة بمكان ، ولا ريب من فقده ما عدا بعض الخطرات التي أشير إليها .

فشعراء الحجاز مثلاً قلّ اتصالهم بنور الدين مع أنه ضم إليه الحجاز ، ودعوا له ، ولم أجد له مدائح تذكر ، أو إشارة إليه إلا ما كان عن الشاعر الريحاني من أهل مكة من تميم فإنه وفد إلى نور الدين في ٥٦٢هـ وأنشد هذه الأبيات :

يا أوحداً عظمته العرب والعجم ... وواحداً وهو في أثوابه أمم

إنا قصدناك والأقطار مظلمة ... والبدر يرجى إذا ما التجت الظلم

سرنا إليك من البيت الحرام ولم ... نعد المقام به إذ بيتك الحرم

وأشهر شعراء شبه الجزيرة الذين هاجروا إلى مواطن الحروب مع الإفرنجة في مصر والشام هو الشاعر عمارة اليمني ، لكنه جاء في فترة اضطراب ، وبداية تهديد الإفرنجة لمصر مما جعله يقل لكنه يعرض به في بعض القصائد ، ومن ذلك قوله محذراً من قدوم الإفرنج لبلاد مصر :-

يارب إني أرى مصراً قد انتبهت ... لها عيون الليالي بعد رقدتها

فاجعل بها ملة الإسلام باقية ... واحرس عقود الهدى من حل عقدتها

وهب لنا منك عوناً نستجير به ... من فتنة يتلظى جمر وقدتها(١)

وشعراء شبه الجزيرة العربية بمنأى عن ميادين الحروب الصليبية ، وهم لم يكونوا مادحين حتى يراسلوا السلاطين أو يفدوا عليهم ، غير أن ابن مقرب العيوني ، لما سمع بالملك موسى الأشرف يرغب في سماع شعره ومقابلته اغتنم فرصة وجود الأشرف في الموصل ٦١٧،٦١٨هـ واستعد للوفود عليه ونظم قصيدة في أكثر من سبعين بيتاً يشيد فيها بصد الأيوبيين الإفرنجة عن مصر .

إليك رمت بي نائبات هوارق ... لدمعي وأحداث لعظمي عوارف

أبيت وفي صدري من البين خارق ... وفي عنقي من كظمة الغم خانق

(١) العماد : الخريدة ، قسم الشام ٣/١٤٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولم يبـــق بعـــد الله إلاّك مقصـــد تَمُـــدُّ إليـــه بالأكـــف الخلائـــق

وهـو يشير إلى حـروب الأيوبيـين للإفرنجـة بمصـر ، و لم يكـن القـائد فيهـا الأشرف إنما أخوه الكامل .

سل الكفر من أوْدي بدمياط ركنه وقصـر أعلـى فرعـه وهـو باسـق

يخبرك صدقاً أن موسى هـو الـذي بصارمـة باقـت عليـه البوائـق

فلـولاه لم ينطـق بدميـاط داعيـاً إلى كلمـة التوحيـد والعـدل نـاطق

فأقسـم مـا والاه إلا موحـد تقـي ومـا عـاداه إلا منـافق

فلا يَعْدِ مَـنَّ الله أيامـه الـتي بها يرتق الإسلام ما الكفـر فاتـق(١)

لكن العيوني لم يقابل الأشرف في الموصل لسـفره قبـل وصـل الشـاعر ، و لم يستطع اللحاق به في الشام وأيضاً فإن أثـر موسـى الأشـرف في الشـام قليـل فـإن السلطة كانت لأخيه الكامل .

(١) الديوان : ٣٠٠إلى ٣٠٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المدائح النبويـــــة :

والمدائح النبوية تكـون نتيجـة التـأمل الطويـل في حيـاة الرسـول ﷺ ، فتهـب نسمات الإيمـان علـى القلـوب فتفيـض بالتجـارب الشـعورية الشـعرية ، وكـانت الدوافـع الأولى لهـا ، معارضـة قصيـدة (بـانت سـعاد) في مـدح الرســول ﷺ ، والتقليد لمدائح العلويـين ، كقصيـدة دعبـل ، والقصـائد الـتي قيلـت في آل البيـت والسلاطين الأتراك وإن استقبلوا الشعراء لكنهم أضعف من أولئـك الأوائـل ، ممـا جعل الشعراء ينصرفون بقصائدهم إلى مدائح النبي ﷺ ، فالبوصيري مثلاً لجأ كثيراً إلى الولاة لكنه لم يغنم كثيراً ، ففي حالة الإحباط يعود الإنسان إلى ربه ، ولكنهم بالغوا في مخاطبة الرسول ﷺ ، والتوسل به مما جعلهم يفرغون حـالاتهم الشـعورية في هذا الجانب نتيجة للتحلل من الحياة العمليـة ، والتواكـل الـذي عـمّ ضـرره في شباب المجتمع الإسلامي للتربية الصوفية الرائجة التي شجعها الحكام حتـى يسـيروا المجتمع كيفما شاءوا .

والانـزواء الصـوفي عـن الحيـاة ، واسـترجاع النفحـات الإيمانيـة بالأذكـار والأحداث ، ألهب مشاعر أولئك الذين يحملون الموهبة الشـعرية ، وأيضـاً التنفـس عن الكبت الشعوري الغريزي الذي يعتمل في شعورهم فجعلهـم يفرغـون حبهـم للرسول ﷺ .

ثـم إن الـروح الإيمانيـة تدفـع الشـاعر المسـلم إلى حكايـة الأحـداث ، وقـد تضاءلت البطولات ، مما جعلهم يجترون أحداث الماضي . ومدائـح الرسـول ﷺ ، بدأت بالتشوق إلى زيارة الأماكن المقدسة ، ومدحه في تلـك القصـائد ، كقـول الجلياني المولود (٥٣١-٦٠٣هـ) .

يـــازائر المصطفـــى مـــن الأمـــم وخـــير هـــاد في العـــرب والعجـــم
أبلغـــه مـــني الســـلام أبلغـــه وقـــل فتـــى قلبـــه مـــع الحـــرم

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يبكي إذا سـرت الركـاب ولـم يسر بدمـع كالقطـر منسجـم(١)

وربما كان للمدائح التي قيلت في رثاء الحسين بن علي من الشعراء في بلاط الدولة الفاطمية كقصائد طلائع بن زريك(٢) دور في تحويلها بعد انقراض الفاطميين إلى مدائح للرسول ﷺ ، ولم أعثر عليها في دواوين الشعراء الأوائل في عهد الحروب الصليبية مثل الطغرائي ، والأبيوري ، وابن الخياط ، والقيسراني ، وابن سنا ء الملك ، وابن عنين ، وغيرهم ، وأول ما صادفني في ديوان شاعر قصيدة لامية لابن الساعاتي المتوفى ٦٠٤هـ ينهج فيها نهج (بانت سعاد) :

وكيـف أجمـل في دنيـا وآخـرة ومنطقـي ورسـول الله مـأمول
هو البشير النذير العـدل شاهـده وللشهـادة تجريـح وتعديـل

وفيها مغالاة شديدة لا تليق بالمؤمن(٣) .

وفتيان الشاغوري (٥٣٠-٦١٥هـ) مدح الرسول ﷺ بقصيدة دالية باشر فيها المدح ومطلعها :

إليـك المطايـا اعتقـت يـا محمد إلى خـير مـن يُسـعى إليـه ويحفـد
إلى الـذروة العليـاء مـن سـر هاشـم عليهـم سـلامي كـل وقـت يـردَّدُ
تـردد أنفاسـي الـتي لا أملهـا ولا أنتهـي منهـا ولا أتبلـد
كـأن دموعـي لاشتياقـي لآليءٌ فمن بين أصـداف لجفـون تبـدد(٤)

ثم بعد ذلك تكاثرت ، وأكثر الشعراء مدحاً للرسول ﷺ الشاعر يحيى بن يوسف جمال الدين العلامة الزاهد أبو زكريا الصرصري المولد عام ٥٨٨هـ ، والمتوفى شهيداً في سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ .

« صاحب المدائح النبوية السائرة في الآفاق لا أعلم شاعراً أكثر من مدائح

---

(١) ديوان المبشرات والقدسيات ٣٠ .

(٢) الديوان ١٥٧ .

(٣) د . عمر موسى باشا : الأدب في بلاد الشام ٤٦٩ .

(٤) الديوان ١٠٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

النبي ﷺ منه ، وشعره طبقة عالية ، وكان فصيحاً بليغاً شعره في لماني مجلدات»(١)

ومن شعره :

ذكر العقيق فهاجه تذكاره ... صب عن الأحباب شط مزاره

وهفت إلى سلع نوازع قلبه ... فتضرمت بين الجوانح ناره

كلف برامة ما تألق بارق ... من نحوها إلا بدا إضماره

يشتاق واديها ولولا حبها ... لم يُصبه وادٍ زهت أزهاره

شغفاً بمن ملك الفؤاد بأسره ... وبوده أن لا يفك إساره

لولا هواه لما ثنى أعطافه ... بان الحجاز ورندة وعراره

يامن ثوى بين الجوانح والحشا ... مني وإن بعدت على ديارة(٢)

وقد أورد له الكتبي تسع قصائد في مدح النبي ﷺ (٣) ، إذن الشاعر الصرصري - فيما أعلم - هو أول من ألح على هذا اللون وأكثر منه وأبدع فيه ، ومعنى ذلك أنه راضت معانيه ومبانيه قبل العصر المملوكي الذي شاع فيه وذاع بإبداع البوصيري المتوفى عام ٦٩٢هـ الذي يعتبره د . بكري شيخ (أول من فتح باب المدائح النبوية في العصر المملوكي ، وخاصة قصيدته المشهورة بالبردة)(٤) .

وشرف الدين الأنصاري المتوفى ٦٦٢هـ يمدح الرسول ﷺ بلامية في حج عام ٦١٩هـ في مكة المكرمة ، وهي أول قصيدة قالها في مدحه ﷺ مطلعها :

هو موطن الشرف العريض الأطول ... فارح فلاصك من ركوب وانزل

ياصاح ها بحر الهدى ، فتمل من ... ذي ، وهو بدر للهدى فتأمل

(١) الكتبي : فوات الوفيات ٤/٢٩٨ .

(٢) المرجع السابق ٤/٣٠١ .

(٣) الكتبي : فوات الوفيات ٤/٢٩٩-٣١٢ .

(٤) مطالعات ٢٦٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فلطالما أرسلت دمعك ساخناً شوقاً إلى هذا النبي المرسل(٥)

ويمدح الرسول ﷺ بخمسة أبيات :

ذكرت يارسول الله ذكراً شغلت به عن الماء النقاح
وحركني إليك شديد شوقي فأذن شرع صبري بانفساخ
فبورك ترب طيبة من تراب ومد الظل في ذاك الساخ
هناك العز مرفوع السواري وثم المجد منصوب الأواخي(٢)

وشرف الدين الأنصاري يمتدح الرسول ﷺ بدالية عدد أبياتها ثلاثة وثلاثون بيتاً يستهلها بغزل في المذكر في ثلاثة عشر بيتاً ومنه :

وخير نبي نبه قدر عودي إلى المدح فيه أحمد
ومرسل حمده شعاري لأنه في المعاد أعود(٣)

واستهلال قصيدة في مدح الرسول ﷺ بالغزل بالمذكر مما يعاب على الأدب والشعر في تلك الحقبة الزمنية ، وتدل على ذوق مريض ، والقصيدة يزهر فيها التكلف وضعف الوازع الشعوري ، وله أرجوزة في المدح :

أخي عذ بالقابض الباسط
من شره التفريط والإفراط
واقنع من الدنيا بالقيراط
إن ارتفاع العمر في انحطاط(٤)

وله قصيدة همزية لم يستطع جامع الديوان أن يجمعها بل عثر على مقدمتها

(٥) الديوان ٥٥٩ .
(٢) المرجع السابق ١٤٢ .
(٣) المرجع السابق ١٤٧ .
(٤) الديوان ٢٩٢ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وخاتمتها فيقول في مستهلها :

تشـــرف بذكـــر حميـــد الثنـــاء علـــى أحمـــد أشـــرف الأنبيـــاء
على موضح الرشـد بعـد العمـى على مظهر الحـق بعـد الخفـاء(١)

والبوصيري (٦٠٨-٦٩٦هـ) من أشهر الشعراء في المدائح النبوية فله الهمزية التي بلغت ٤٥٧ بيتاً سماها (أم القرى) ، في مدح خير الورى مطلعها :

كيـف ترقـى رقيـك الأنبيـاء يـا سمـاء مـا طاولتهـا سمـاء
لم يساووك في عـلاك وقـد حـا ل سـنا منـك دونهـم وسـناء
إنمـا مثلـوا صفـاتك للنـا س كمـا مثـل النجـوم المـاء(٢)

وأرجح أن الدافع إلى المدائح النبوية اعتقادهم بأنها تحيي القلوب كما يقول البوصيري :

بمدح المصطفـى تحيـا القلـوب وتغتفـر الخطايـا والذنـوب

ومن أشهر مدائحه البردة أو البرأة واعتقاد أنها أشفته من الشلل ، والأحلام التي صحبتها ورواج ذلك في مصر جعل الكثير يقبل على حفظ تلك القصيدة كما أقبل الجاهليون على حفظ المعلقات ، فأكثر الشعراء منها ومطلعها :

أمـن تذكـر جـيران بـذي سـلم مزجـت دمعاً جـرى مـن مقلـة بـدم؟
أم هبت الريح من تلقـاء كاظمـة وأومض البرق في الظلماء مـن إضـم

وقد بلغت (١٦٠) بيتاً(٣). ومع أن الصرصري من أوائل الشعراء الذين أفاضوا في المدح فإنه وقع في المحظور الديني حيث خاطب الرسول واشتكى إليه ، ومعلوم أن الرسول ﷺ لا يستجيب له ، وأن الشفاعة تكون يوم القيامة ، ولا تكون لتحقيق الأمور الدنيوية مما يدل على أن المدائح النبوية صحبت بالمخالفات

(١) المرجع السابق ٥٣٥ .
(٢) الديوان ٢ ، تحقيق / محمد سيد كيلاني ، الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م .
(٣) المرجع السابق ١٩٠-٢٠١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الدينية ، وربما إن أولئك الشعراء لم يكونوا من العلماء المتبحرين الذين يدركون تحريم ذلك ، وإن تبعهم الكثير فيها ، ومن ذلك قول الصرصري :

ويهزه طرب إذا كر الحمى ... هز الشمول شمائل النشوان
تا لله إن سمح الزمان بقربكم ... وحللت منكم بالمحل الداني
لأقبلن لأجلكم ذاك الثرى ... وأعفر الخدين بالصوان
ياخير من وخدت إليه نجيبة ... من كل مرمى نازح الأحضان
يطوى إليك بها السباسب ساهم ... يد السمائم منهج الدرسان
يهفو إذا ذكر العقيق فؤاده ... ويبيت من سلع على أشجان
شوقاً إلى عرصات حضرتك التي ... نسمت بنشرك أطيب النسمان
فيها لحزن سلوة ولخائف ... أمن وللطلاب نيل أماني
أشكو إليك تخلفي عن رفقة ... كانوا على الطاعات من أعواني
رحلوا وصدتني الموانع عنهم ... فنكرت قلبي بعدهم وزماني
أصبحت في وقت كثير هرجه ... متدارك الآفات والأفتان
يمسي الفتى فيه يروم زيادة ... ترضي فيصبح وهو في نقصان
فيمن كسا عطفيك أحسن حلة ... ليست على ملك ولا إنسان
سل في ربك أن يوفق باطني ... لرضاه في سري وفي إعلاني
قل رب صلِ يحيى بن يوسف إنه الـ ... ـمقطوع عنك أضيعف العبدان
فلأنت أكرم شافع علقت به ... لمروع يوم النجاة يدان(١)

ثم بعد ذلك تحولت المدائح النبوية إلى بديعيات ، ويحكى أن صفي الدين الحلي أراد أن يؤلف في البديع وأنواعه على شاكلة كتاب ابن المعتز ، وكتاب أسامة بن منقذ (بديع البديع) ، ولكن حال المرض دونه يقول : « فعرضت لي علة وطالت مدتها ، وامتدت شدتها ـ واتفق لي أني رأيت في المنام رسالة من

(١) الكتبي : فوات الوفيات ٤/٣٠٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

النبي ﷺ ، تتقاضاني المدح ، وتدني البرء من الأسقام ، فعدلت عن الكتاب إلى نظم مجده الرفيع ، فنظمت مائة وخمسة وأربعين بيتاً من بحر البسيط ، تشمل على مائة وواحد وخمسين نوعاً من محاسنه ، وجعلت كل بيت منها شاهداً ومثالاً لذلك النوع »(١) .

ومعنى ذلك أن البديعية تعني القصيدة في مدح الرسول ﷺ ، وقد تضمن كل بيت منها لوناً من ألوان البديع(٢) .

وملخص القول في غرض المديح :

إن هذا الغرض نهض بوظيفته في هذا العصر شأنه شأن العصور الأخرى وتتضح أبرز معالمه في :

١ - كونه سجل لنا الصراع الحربي والفكري ، والاجتماعي بين المسلمين والإفرنجة والجهاد عامل من عوامل غزارة شعر المدح ، ولم يكن شعراء الشام ومصر هم الذين نظموا في الجهاد - وإن كانوا أكثر من غيرهم - إلا أن هناك شعراء شاركوا فيه من العراق ، كمجد العرب العامري ، وأبي الفوارس وسبط بن التعاويذي ، والعماد الأصبهاني ، من العراق ، وهناك الشاعر عبدالمنعم الجلياني من المغرب العربي .

* تكاثر عواصم الأدب ، فكل إقليم له شعراؤه في بغداد ، وواسط ، وشبه الجزيرة العربية ، وخراسان ، والموصل ، وحلب ، ودمشق ، والقاهرة ، والمغرب، والأندلس .

من هنا قسم كتاب خريدة القصر الشعراء على الأقاليم فتكاثرت المجلدات التي تزخر بشعر كل إقليم .

---

(١) شرح بديعية الصفي الحلي له (النتائج الإلهية) ٢ المطبعة ١٣١٦هـ نقله صاحب (البديعيات) ص ١٨،١٧

(٢) البديعيات في الأدب العربي ، لعلي أبو زيد ؛ ورسالة الدكتور محمد الصامل (البديعيات) مخطوطة .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

❖ شعر المدح حمل روح العصر بما فيها من إيجابيات وسلبيات ، فهو حمل لنا غربة المضمون في مواطن الركود ، والحروب الداخلية ، وحمل لنا موج الوقائع الحربية في مواجهة الإفرنجة .

❖ ظهر شعراء مادحون يجارون جلّ الشعراء في العصور السابقة ، مثل الطغرائي ، وابن الخياط ، والقيسراني ، وسبط التعاويذي ، وابن سناء الملك ، وابن عنين .

❖ قل شعراء المدح في جزيرة العرب ما عدى ابن مقرب العيوني ، وعمارة اليمني ، وبعض الشعراء في دويلات اليمن في صنعاء وزبيد .

❖ ظهر فيه المبالغة في المضمون نتيجة لتراكم معاني المدح وتطورها ، وورد فيه الغلو في شعر المدح للعبيديين ، وقل في سائر الأقطار .

❖ طالت القصيدة عند شعراء المدح .

❖ عاد إلى الظهور الشعر الحماسي الذي يشاكل شعر الأمراء الفرسان في العصر الجاهلي ، كعمر بن كلثوم التغلبي وسلامة بن جندل ، وعامر بن الطفيل ، وغيرهم ، فقد ظهر في هذا العصر أسامة بن منقذ وطلائع بن زريك .

وتنوعت موضوعات قصيدة الجهاد إلى الدعوة إلى الجهاد في مستهل الحروب، ثم التحريض أثناء المعارك ، وكذلك وصف الحروب والحصون والسلام، بل تناول التعامل مع الأسرى من فك وتسامح عند المسلمين ، وقتل للفاتكين من الأمراء ، وكذلك الحديث عن غدر الإفرنجة بعد المعاهدات .

والخلاصة أن الشعر حمل تاريخ الحروب الصليبية .

والمدح برز في ميدان جديد هو مدح الرسول ﷺ ، فقد أستهل في هذا العصر عند فتيان الشاغوري ، وابن الساعاتي ، ثم ابن الفارض ، والصرصري .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الثاني

الرثـــــاء

- نظرة عامة .
- أثر الحروب على الرثاء .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

غرض الرثـــاء :

الرثاء غرض استمراري عبر العصور لأن مكوناته نابعة من تركيـب الإنسـان الغريزي ، وموضوع الرثاء تيار خارجي يلفح تجربـة الشـاعر ويثير لواعـج نفسـه فيتدفق فيضاً شعورياً ، تتماوج نزعات الذات بين الألم والحزن ، والعظة الذاتيـة ، فيروض عن نفسه بالإيمان بالقضاء والقدر، ثم استلهام الحكم والتجارب السالفة.

وهو موضوع شعري قديم مع الإنسان ، ممـا يطرحـه في كـل زمـان ومكـان ودليلنا على ذلك امتداده في مساحة العصور الأدبية العربية .

ومع هذا التواصل فإننا نلمح في غرض الرثاء امتداداً للتطور الفـني للغـرض ، وتراكم مضامينه ، وأيضاً تـأثره بواقـع العصـر ، وأظهـر ذلـك تحـول القصـائد في الرسول ﷺ إلى غرض المدح .

ومنها تأثره بالحروب الصليبية التي امتدت ردحاً مـن الزمـن وسـأتحدث عنـه كموضوع عام ، وعن علاقته بالحروب الصليبية .

تنـاول الشـعراء في مرثيـاتهم خلفـاء الدولـة العباسية والعبيديـة ، والـوزراء والولاة(١) ، وفاض الشعر برثاء الأقارب والأرحام كرثاء الأبنـاء عنـد أسـامة بـن منقذ الذي رثى ابنـه عتيـق الملقـب بـأبي بكـر فقـال فيـه عـدداً مـن المقطعـات ، وقصيدتين شعريتين(٢)، ورثاء العفيف التلمساني لابنه الشاب الظريـف(٣)، ورثـوا الأمهات كابن سناء الملك(٤)، ورثوا العلماء ورثـوا حواسـهم كسـبط التعـاويذي الذي رثى بصره(٥)، ورثوا أصحاب الحرف الصغيرة(٦) .

---

(١) أبو الفوارس : الديوان ١/٥١ .

(٢) الديوان ٣٤٥ ، وما بعدها .

(٣) الشاب الظريف : الديوان ١٦ الدراسة .

(٤) الديوان ١/٨ .

(٥) الديوان .

(٦) د . أحمد بدوي : الحياة الأدبية ٨٠ نقله عن الطالع السعيد ١٢٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ورثوا الدول كعمارة اليمني الذي رثى الدولة العبيدية ، والقاضي الفاضل، ورثى الشعراء الدولة العباسية ، ورثوا القصور ، فقد رثى القاضي الفاضل قصر العزيز بن صلاح الدين الأيوبي(١) .

وقد دمر الزلزال مدناً وحصوناً فرثاها الشعراء ومنهم أسامة بن منقذ الذي رثى شيزر موطنه الأصلي حيث قضت الزلازل على أبناء عمومته ودمرت إمارتهم فرثاهم في أكثر من قصيدة(٢) ، ورثى الشعراء مكتباتهم وحيواناتهم .

ولنقبس بعضاً من الأمثلة :

وأسامة بن منقذ يرثي أسرته آل منقذ ويبكيهم بكاءً حاراً ، ويعرض بمن يظهر أنه سر لفقدهم لأنهم أخرجوه من دياره لكن الرجل ليس من أصحاب النفوس الذليلة أو الوضيعة إنما يحمل نية حسنة ، وعقلاً راجحاً ، وهو لا يرى أن هناك بلوى أكبر من مصيبته(٣) :

حمائم الأيك هيجن أشجاناً ... فليك أصدقنا بثاً وأشجانا(٤)

كم ذا الحنين على مر السنين ؟! أما ... أفادكن قديم العهد نسياناً

هل ذا العويل على غير الهديل ، وهل ... فقيدكن أعز الخلق فقدانا(٥)

ما وجد صادحة في كل شارقة ... ترجع النوح في الأفنان ألحاناً

كما وجدت على قومي تخونهم ... ريب المنون ودهر طال ما خانا

إذا نهى الصبر دمعي عند ذكرهم ... قال الأسى : فض وجد ، سحا وتهتانا

وهو بعد أن عقد علاقة مشابهة مع حمائم الأيك ذلك المشهور بترجيع الصوت الشجي وهو ما أكثر منه الشعراء من قبل بعد تلك الأبيات الرائعة ينقلنا

---

(١) الديوان ٣٣٣ .

(٢) الديوان ٤٠٦/٢ .

(٣) الديوان ٣٥٤.

(٤) الأيك : الشجر الملتف الكثير .

(٥) الهديل : فرخ حمام زعموا أن جارحاً من الطير صاده فما من حمامة إلا وهي تبكي عليه .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إلى صحبته في حزنه وألمه فهو دائم التذكر مشتعل الأسى لا نفع لعذل العذال ، ولا برد للتأس والاتعاض فلا سبيل إلى السلوان من شعلة القلب الملتهبة التي نجمت من قتلهم أجمعين فلم يستدرجهم الموت كما استدرج غيرهم ، لكن موتهم الجماعي لم يسبق له نظير ومثيل حتى اتعظ به ، فقد داهمتهم المنايا ، وفاجأتهم القارعة فماتوا كرجع الطرف ، وانقرضوا فما ترى لهم أثرا .

قالوا : تأس وما قالوا بمن ، وإذا ... أفردت بالرزء ما انفك أسوانا(١)
ما حدثتني بالسلوان بعدهم ... نفسي ، ولا حان سلواني ولا آنا
ما استدرج الموت قومي في هلاكهم ... ولا تخرمهم مثنى ووحدانا(٢)
فكنت أصبر عنهم صبر محتسب ... وأحمل الخطب فيهم عز أو هانا
وأقتدي بالورى قبلي ، فكم فقدوا ... أخاً ، وكم فارقوا أهلاً وجيراناً
لكن سبق المنايا وسط جمعهم ... رغا ، فخروا على الأذقان إذعانا
وفاجأتهم من الأيام قارعة ... سقتهم بكئوس الموت ذيفانا(٣)
ماتوا كرجع الطرف ، وانقرضوا ... هل ما ترى تارك للعين إنسانا
أعزز علي بهم من معشر صُبُر ... عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا(٤)
لم يترك الدهر لي من بعد فقدهم ... قلباً أجشمة صبراً وسلواناً
فلو رأوني لقالوا : مات أسعدنا ... وعاش للهم والأحزان أشقانا
لم يترك الموت منهم من يخبرني ... عنهم ، فيوضح ما لاقوه تبيانا
بادوا جميعاً ، وماشادوا ، فواعجبا ... للخطب ، أهلك عماراً وعمرانا

وهو بعد أن وقف على قصورهم التي أصبحت قبورهم يخاطب الزلزال الذي

---

(١) الأسوان : الحزين .

(٢) تخرمهم : استأصلهم .

(٣) الذيفان : بفتح الذال وبكسرها : السم القاتل .

(٤) اللوثة بالضم : الاسترخاء والبطء والضعف ، وهو عجز بيت لقريط بن أنيف العنبري :

إذا لقام بنصري معشر خشن ... عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أفناهم ، ويرسم مأساته ، فهو ذاهل كأنه سكران ، وليس بسكران ، وهو ملتهب الجوى دائم الكمد كديمومة جبل ثهلان وما أصدقه حين يقول إنهم أفسدوا عمره الباقي فلظى الأسى وكآبة القلب لن تنفك عنه ، وهو يصدق في أمانيه « فليتني معهم أو ليت أنهم بقوا » .

وهو يصدق أيضاً فقد لقي الهم والعقوق في حياتهم ، ولقي من بعدهم الحزن والألم ، وربما إن استشعاره بفناء مملكة أجداده زاده ألماً على ألم .

هذي قصورهم أمست قبورهم ... كذاك كانوا بها من قبل سكاناً
ويح الزلازل أفنت معشري ، فإذا ... ذكرتهم خلتني في القوم سكراناً
بني أبي إن تبيدوا أن عدا زمن ... عليكم دون هذا الخلق عُدوانا
فلن يبيد جوى قلبي ولا كمدي ... عليكم أن يبيد الدهر ثَهلانا(١)
أفسدتم عمري الباقي علي فما ... أنفك فيه كئيب القلب ولهانا
أفردت منكم ، وما يصفو لمنفرد ... عيش ولو نال من رضوان رضوانا
فليتني معهم ، أو ليت أنهم ... بقوا ، وما بيننا باق كما كانا
لقيت منهم تباريح العقوق كما ... لقيت من بعدهم هماً وأحزانا(٢)

والشاعر ابن سناء الملك يرثي أمه بهمزية طويلة منها :

صح من دهرنا وفاة الحياء ... فليطل منكما بكاء الوفاء
وليبن ما عقدتماه من الصبر ... بأن تحلُلاً وكاء البكاء
وأهينا الدموع سكباً وهطلاً ... وهبا انهن مثل الهباء
وامنحا النوم كل صب ينادي ... من يعير الكرى ولو بالكراء
ليست العين منكما لي بعين ... أو تعاني حملاً لبعض عنائي
قد رماني الزمان منه بخطب ... أفحمت عنه ألسن الخطباء
ودهاني بما أعزاه فيه ... عن ثباتي له وحسن عزائي(٣)

(١) الجوى : شدة الوجد ، ثهلان : جبل .

(٢) تباريح العقوق : شدته .

(٣) الديوان ١/٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والشاعر الأمير نجم الدولة أحمد بن أبي الفتوح المتوفى ٥٤٨هـ مات ابنه عبدا لله فحزن عليه حتى ذهب بصره ، وله فيه قصيدتان الأولى دالية والأخرى ميمية ، والشاعر في داليته يستحضر ابنه في يوم العيد ، فهو يرى الناس يلبسون جديداً وهو يكتسي الحزن ، ويتمنى أنه غيب في اللحد وابنه يدب على الأرض ، يتساءل كيف يسر بالعيد بعد أن حثا على ابنه التراب وفوقه جندل وصفائح :

لبس الجنود جديدهم في عيدهم ... ولبست حزن (أبي الحسين) جديداً

ووددت لو حضر المصلي فيهم ... حياً وكنت المسبت الملحودا(١)

أيسرني عيد ، ولم أر وجهه ... فيه ؟ ألا بعداً لذلك عيدا(٢)

كيف المسرة لامرىءٍ فقد الهوى ... والبدر حُسناً والسحابة جوداً ؟

والشاعر يصور لنا مأساته ويعرض على مسرح الواقع ، فهو قد تقدمت به السن ، ودب إليه الضعف ، وتكاثرت عليه الأمراض ، فهو أحوج ما يحتاج إلى ابنه الشاب القوي الذي يشار إليه بالبنان ، فهو كالليث في نظره ، وهو النجيب ابن النجباء ، وهو الفتى الكامل في نظر الأصدقاء ، وهم يرجونه كما أرجوه وهو الكهف الذي آوى إليه وقت الخطوب ذلك هو الفتى الذي اكتمل في نظر الأب الذي انحنى ظهره وأوهت الليالي عظمه وتناقص بصره ، وفي هذه المرحلة في قمة هذه الحياة الضعيفة يخترم الموت ابنه فتلك المأساة فهو يقول :

أفحين عاد الليث بأسا يتقى ... والبدر حسناً والسحابة جودا؟

وتقيل النجباء من آبائه ... وجدوده المتخيرين الصيدا(٣)

ورجاء الصديق كما رجوت بأن يرى ... بعدي به ما ساءني مسدودا

وتخذته كهفاً أرد به الأذى ... عني ، وركناً في الخطوب شديداً

---

(١) المسبت : الميت .

(٢) الجنادل : الصخور العظام .

(٣) تقيل أبائه : نزع إليهم في الشبه والعمل . الصيد : جمع أصيد ، وهو كل ذي حول وطول من ذري السلطان .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأوان أوهنت الليالي أعظمي ... وغضض من بصري وكان حديدا
ومشيت للسبعين منحني القرا ... وبما أرى سبط القوام سديدا
وطوى لداتي الموت إلا قلهم ... فبقوا بعد القصور لحودا(١)
فارقته ، وبقيت أخلد بعده ... لا كان ذاك بقاءً ولا تخليدا
من لم يمت حزناً لموت حبيبه ... فهو الخؤون مودة وعهودا
مت مع حبيبك إن قدرت ، ولا تعش ... من بعده ذا لوعة مكمودا
أنساه ؟ لا والله أو ينسى إذا ... ركب الغصون الأورق الغريدا
أصبحت بعد (أبي الحسين) أظنني ... وبنا أبي حزق لدي وحيدا

وهذه القصيدة من أجمل القصائد الرثائية في الأدب العربي فأنت كلما تنقلت من بيت إلى بيت تذوب مع تجربة الشاعر في تصوير رائع وقول شائق ، فهو يتمنى موته قبل موت ولده ، وهو لن ينساه ما دام حياً ، وهم لم يفقد قوته وتجلده إلا بعد أن فقد ولده ، وهو يحزن عليه بعد الموت بما يعادل حبه له في حياته .

قد كان يجزئني وكم من واحد ... يجزي ويعدل في الغناء عديداً(٢)
ما أم خشف قد ملا أحشاءها ... حذراً عليه وجفنها تسهيدا
أ (أبا الحسين) ، وما عدمت جلادتي ... إلا غداة رأيتك المفقودا
وعدمت صبري يوم مت ، وطالما ... قد كان - إن طرق الردى - موجودا
كنت الجليد على الرّزايا كلها ... وعلى فراقك ما خلقت جليدا
ولئن بقيت وقد هلكت فإن لي ... أجلاً - وإن لم أحصه - معدودا
لا موت لي إلا إذا الأجل انقضى ... فهناك لا أتجاوز المحدودا
ومع البقاء فإنني بك لاحق ... من عن قريب لا أراه بعيدا
حزني عليك بقدر حبك لا أرى ... يوماً على هذا وذاك مزيدا

---

(١) اللدات : جمع لدة ، وهو من ولد معك في وقت واحد .
(٢) يجزني : يكفيني . الغناء بفتح أوله : النفع والكفاية .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ما هدني مر السنين وإنما ... أمسيت بعدك بالأسى مهدودا
ياليت أني لم أكن لك والداً ... وكذاك أنت فلم تكن مولودا
فلقد شقيت وربما شقي الفتى ... بفراق من يهوى وكان سعيدا
من ذم جفناً باخلاً بدموعه ... فعليه جفني لم يزل محمودا
يبكي ولا يرقا فأحسب دمعه ... بالسحب - لا بشؤونه - ممدودا(١)
إن نام لم تهجع وطافت حوله ... فيبيت مكلواءاً بها مرصودا(٢)

ثم هو ينقلنا في تصوير كلي كما نقلنا من قبل أبو ذؤيب الهذلي ، فهو يصور حزنه بوحشية متقدمة السن من البقر أو الظبا ترعى في خميلة وتعطف على وليدها، وفجأة ينقض عليه الذئاب فتفتك به وتلتهم لحمه ، وتترك عظامه ، فلا ترى إلا هذا الهيكل العظمي ، فأي وجد لتلك الشاة ؟! فوجده أشد وأفتك .

وجدي به وجد التي بعد الصبا ... والشيب أعقبها الإله وليدا
خرق كدملوج اللجين ترى له ... من غير ما كحل مآقي سودا(٣)
جذلت به يومين ، ترعى حوله ... بالحزن بقل خميلة معهودا(٤)
فإذا فواق الرسل أعجلها ارعوت ... فحنت عليه من الرضاع الجيدا(٥)
حتى أتاح لها المتيح - من الردى ... قبل السواد من العشاء - السيدا(٦)
فقضى عليه ، فلم يدع من لها ... إلا أهاباً بالعرا مقدودا(٧)

---

(١) يرقا : يرقأ (بالهمز) أي يسكب ، حذفت همزته للضرورة ، الشؤون : مجاري الدمع في العين .
(٢) المكلوء : المحفوظ .
(٣) خرق : لا يقدر على النهوض . الدملوج : حلية تحيط بالعضد . اللجين : الفضة .
(٤) جذلت : فرحت . الحزن : ما غلظ من الأرض . المعهود : الممطر أمطال أول السنة وهو العهاد
(٥) الرسل : اللبن . الفواق : الوقت بين الحلبين ، و- الوقت بين قبضتي الحالب للضرع و - ما يعود فيجتمع من اللبن بعد ذهابه برضاع أو حلاب ، الجيد : العنق .
(٦) أتاح : قدر ، وهو يجاني السياق . السيد : الذئب .
(٧) أهاب مقدود : جلد مقطوع .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فهنـــاك أعلنبـــت البغـــام كأنهـــا ثكلـــى أصيبـــت فارســـاً صديـــدا(١)
مـــني بـــأوجع إذ رأيـــت نوائحـــاً لـ (أبي الحسين) وقد لطمـن خـدودا(٢)
فلانظمـــن مراثيـــاً مشـــهورة تُنسـي الأنـام (متمّمـاً) و (لبيـدا)(٣)
وجميـع مـــن نظـم القريـض مؤبنـاً ولـــداً لـــه أو صاحبـــاً مـــودودا
ولأدعون لك (المهيمـن) راجيـــاً منـــه الإجابـــة ربنـــا المعبـــودا(٤)

وله قصيدة قيمة رائعة جمعت بين مكنونات الشعر من المضمون الشريف في بابه ، المنغمس في لهيب الشعور المتمثل لنا في جمال التركيب ، وقدرة التصوير ، وتدفق العبارة ، فالشاعر يقف على قبر ابنه ويبعث له بدعاء السلام والرحمة تلك قدرته ولو استطاع لما أطبقت عليه الأرض ولفداه بنفسه ، والشاعر مع قوته وقوة صبره إلا أنه تصدع وتحطم كما يفعل الحسام الصارم ، بل يرى أن الجبال لا تحتمل ما يحتمله ، فلو وقع لشمام ما وقع له لتصدع واندك وما أجمل تصويره بالعود الأخضر الذي طرفه في النار يلتهب وطرفه الآخر غضاً رطباً .

على القبر بـ (المجنون) كل عيشة) وكـل صبـاح – رحمـة وسـلام(٥)
ثـوى فيـه مـن لـو يفتـدي لفديتـه بنفسـي ، ولم يطبـق عليـه رجـام(٦)
لئن فـل صـبري يـوم مـات ، فربمـا يفـل غـرار السـيف وهـو حسـام(٧)
أبعد مشيب الـــرأس مني وكـــبرةٍ تحني لها صلب وهيـــض عظـــام(٨)

---

(١) الباغام : صوت الظبية ، ثكلى : فاقد ولدها .

(٢) مني بأوجع : يرد ((بأوجع مني)) وهو خبر : ((ما أم خشف ...)) قبل تسعة أبيات .

(٣) متمم بن نويره اليربوعي : شاعر فحل ، صحابي من أشراف قومه . كان له أخ من الفرسان اسمه مالك ، قتله خالد بن الوليد رضي الله عنه في حرب الردة ، فجزع عليه متمم جزعاً شديداً ورثاه أبلغ رثاء

(٤) العماد الأصبهاني : الخريدة ، الجزء الرابع ٢/٥٤٤ .

(٥) المجنون : كتب في الحاشية : ((المجنون : موضع بالحويزة)) ، وليس له ذكر في كتب البلدان المتداولة .

(٦) رجام وهو جمع الرجيم ، بفتحتين ، والرجم الحجارة التي توضع على القبر ، و– القبر .

(٧) فل : ثلم . غرار السيف : حده . حسام : قاطع .

(٨) كبره : هيض العظم : كسر بدما كاد ينجبر .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أفـارق (عبـدا لله) ؟ تـا لله إنهـا ... مصـائب جلـت كلهـن عظـام
لـو أن « شماماً » يتلسى بمصيبتي ... تصدع من عظم المصاب « شمام »(١)
ألا ليت شعري كيف في القبر مكثه ... تجلى نهاراً أو أجن ظلام(٢)
إذ التهبت نار الأسى بين أضلعي ... تَحدَّرَ ماءُ العين وهو سجام(٣)
كعود : يسح الماء من جانب له ... ومن جانب للنار فيه ضرام(٤)

ومنها :

خليلي إن آنستما البرق لامعاً ... من الأفق الشرقي حين يشام(٥)
وهبت من الحي « الحويزي » نفحة ... من الريح أو منه استقل غمام(٦)
فلا تعذلاني إن بكيت وإن جرى ... بعيني فرادى أدمع وتؤام(٧)
فإن بهاتيك الأماكن لي هوىً ... يؤرق عيني والعيون نيام(٨)

والرثا في هذا العصر له دلالته القوية على الشعر بل هو يجذبه إلى شعر الفطرة المتدفق ، والرثاء يبتعد عن المبالغة في الصنعة فضلاً عن التكلف وهو يكشف لنا عن دواخل الإنسان ، وشعر هذا العصر تكاثر فيه رثاء الأبناء والبنات(٩)، فهذا الواسطي يجمع في رثائه الألم على ابنه المتوفى ، وينعى نفسه في آن واحد ، ويصدق في مناجاته لله ببقاء ابنه ، فهذا شأن كل أب ، فالأب يتمنى أن يموت قبل ولده ولا سيما إذا كان وحيداً ، أو أن هذا الابن له منزلة خاصة يقول

---

(١) شمام : جبل لباهلة ، وقيل : لبني حنيفة ، وقيل غير ذلك . معجم ما استعجم ومعجم البلدان .
(٢) أجن : اشتد ، وستر .
(٣) سجام : مصدر سجم الدمع إذا سال قليلاً أو كثيراً .
(٤) الضرام : لهب النار .
(٥) آنستما : أبصرتما شام البرق : نظر إليه بتحقق أين يكون مطره .
(٦) استقل : ارتفع .
(٧) أن بكيت : لأن بكيت .
(٨) العماد الأصبهاني : الخريدة ، الجزء ، الجزء الرابع ٢/٥٥٩، ٥٦٠ .
(٩) أبو حيان النحوي : رثاء ابنته في اثنتي عشرة قصيدة ، انظر : الديوان .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الواسطي المتوفى ٤٩٨هـ :

كفاني إنذاراً وفاة قريني ... فكيف الذي في السن أصبح دوني؟
فكيف تراني أصحب الدهر آمناً ... إذا هو أضحى فيك غير أمين؟
وكنت أناجي الله ، جل جلاله ... بأن فيك مكروه القضاء يقيني
فبلبلت الأقدار قلبي وولدت ... وساوس أخشى أن تبلبل ديني
وإنك لم تبلغ من العمر غاية ... تكون بها في النائبات معيني
فليت المنايا نفست من خناقها ... إلى أمد ، أرجوه فيك ، وحين
لئن صان منك الدمع حالاً تغيرت ... ففائض دمعي فيك غير مصون
فلي لهف مغصوب ، وحيرة مكره ... وأنفاس مكروب ، ووجد حزين
فلا قلت يوماً للكآبة : أقصري ... ولا لجفوني : دمع عينك صوني
وأستذنب الأيام فيك جهالة ... وكم أهلكت من أمة وقرين
هو الموت ، لم يحفل بصاحب معقل ... ولم يخش من حصن عليه حصين
ولا فاته سار ، يواصل سيره ... على ظهر سرحوبٍ ومتن أمون
وإن تك هذي الأرض غيرك تبتغي ... كريماً فما ترضى إذن بدفين
عليك سلام كم إليك جوارح ... تَحنُّ ولكن ما لها كحيني(١)

ومن الرثاء النادر المضمون قول المهند المزرقي في (ثقة الدولة ابن الدريني سنة ٥٤٩ هـ) :

قد قلت للرجل المولى غسله ... هلا أطاع وكنت من نصائحه
جنبه ماءك ، ثم غسله بما ... تجريه عين المجد عند بكائه
وأزل أفاويه الحنوط وطيبه ... عنه وحنطة بطيب ثنائه
ومر الكرام الكاتبين بحمله ... أو ما تراهم وقفاً يازائه
لا توه أعناق الرجال بحمله ... يكفي الذي فيهنَّ من نعمائه(٢)

(١) العماد ، الخريدة ١/٣١٨،٣١٩ .
(٢) العماد : الخريدة ، الجزء الرابع ١/١١٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أثر الحروب على الرثاء

يظهر هذا اللون في قسمين كبيرين :

أحدهما : رثاء الأبطال :

إن الأبطال من قادة المسلمين الذين تصدوا للصليبيين فردوا زحفهم ، وانتصروا عليهم ، وأعادوا بعض الأقاليم والمدن والحصون ، تعلقت آمال المسلمين بهم ووقفوا إلى جانبهم ، فكان فقد أولئك كارثة كبرى على المسلمين لاسيما أن كل مسلم يدرك الفراغ السياسي الذي يتركه القائد ، ويدرك انشطار دولته من بعده ، ويدرك الصراع المرير بين المسلمين الذي يطرأ من بعده كما حدث بعد عماد الدين زنكي ، فقد انشطرت دولته إلى إقليم الموصل ، وإقليم حلب ، ولذلك يقول أبو شامة : « كانت الأعمال بعد قتل زنكي قد اضطربت ، والمسالك قد اختلت بعد الهيبة المشهورة والأمنة المشكورة ، وانطلقت أيدي التركمان والحرامية في فساد الأطراف والعبث في سائر النواحي والأكناف(١).

ويظهر أثر هذه الحالة في مرثية العماد الأصفهاني لصلاح الدين الأيوبي حينما يلح بالسؤال فيقول :

من للعلا من للذرى من للهدى ... يحميه من للبأس من للنائل

ولكن يبدو أن الاضطراب السياسي بعد وفاة القائد يشغل الشعراء ويذهلهم عن بناء قصائد الرثاء ، وأمر آخر يتمثل في خشية الشعراء أن إعلان تلك المراثي يعرضهم للخطر لأن السلطة تقع في يد خصوم السلطان ومنافسيه . الأمر الذي جعل القصائد الرثائية قليلة ، فهذا عماد الدين زنكي يجتمع حوله عدد من الشعراء فلا نعثر له على مراث عند ابن منير الطرابلسي ولا القيسراني ، ومثله

(١) أبو شامة : الروضتين ١/٤٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نور الدين يتداول المؤلفون مرثية العماد الأصفهاني له فحسب ، وصلاح الدين الأيوبي الذي التف حوله أكثر من ستين شاعراً لم نعثر على مراث له كثيرة ويتناقل المؤلفون قصائد لعماد الأصفهاني .

وقد بحثت عن مرات لعماد الدين فلم أعثر إلا على قصائد قليلة منها ميمية للشاعر الرئيس أبو يعلى التميمي :

كذلك عماد الدين زنكي تنافرت ... سعادته عنه وخرت دعائمه
وكم بيت مال من نضار وجوهر ... وأنواع ديباج حوتها مخاتمه
وأضحت بأعلى كل حصن مصونة ... يحامي عليها جنده وخوادمه
ومن صافنات الخيل كل مطيهم ... يروع الأعادي حلية وبراجمه
فلو رامت الكتاب وصف شياتها ... بأقلامها ما أدرك الوصف ناظمه
وكم معقل قد رامه بسيوفه ... وشامخ حصن لم تفته غنائمه
وكانت ولاة الأرض فيها لأمره ... وقد أمنتهم كتبه وخواتمه
وأمن من في كل قطر فهبة ... يراع بها أعرابه وأعاجمه
وظالم قوم حين يذكر عدله ... فقد زال عنهم ظلمه وخصائمه
وأصبح سلطان البلاد بسيفه ... وليس له فيها نظير يزاحمه
وزاد على الأملاك بأساً وسطوة ... ولم يبق في الأملاك ملك يقاومه
فلما تنامى ملكه وجلاله ... وراعت ولاة الأرض منه لوائمه
أتاه قضاء لا ترد سهامه ... فلم تنجه أمواله ومغانمه
وأدركه للحين فيها حمامه ... وحامت عليه بالمنون حوائمه
وأضحى على ظهر الفراش مجدلاً ... صريعاً تولى ذبحه فيه خادمه
وقد كان في الجيش اللهام مبيته ... ومن حوله أبطاله وصوارمه
وسمر العوالي حوله بأكفهم ... تذود الردى عنه وقد نام نائمه(١)

أمّا نور الدين فلم يخلفه ابن ذو نفوذ حتى يشجع الشعراء على استقبال

(١) أبو شامة : الروضتين ١/٤٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أقوالهم ما عدا مرثية ضعيفة لعماد الدين الأصفهاني(١) .

ومرثيات صلاح الدين الأيوبي قليلة في المصادر مما جعل المؤلفين يتداولون قصائد العماد الاصفهاني ، وربما يعود ذلك أن العماد سجل تلك في المصادر الأدبية والتاريخية ، ومن هذه القصائد قوله :

شمل الهدى والملك عم شتاته ... والدهر ساء وأقلعت حسناته

أين الذي مذ لم يزل مخشية ... مرجوة رهباته وهباته

أين الذي كانت له طاعتنا ... مبذولة ولربه طاعاته

يا لله أين الناصر الملك الذي ... لله خالصة صفت نياته

أين الذي ما زال سلطاناً لنا ... يرجى نداه وتتقى سطواته

أين الذي شرف الزمان بفضله ... وسمت على الفضلاء تشريفاته

أين الذي عنت الفرنج لبأسه ... ذلاً ومنها أدركت ثاراته

أغلال أعناق العدا أسيافه ... أطواق أجياد الورى مناته

لم يجد تدبير الطبيب وكم وكم ... أجدت لطب الدهر تدبيراته

من في الجهاد صفاحه ما أغمدت ... بالنصر حتى أغمدت صفحاته

من في صدور الفكر صدر قناته ... حتى توارت بالصياح قناته

لذ المتاعب في الجهاد ولم تكن ... مذ عاش قط لذاته لذاته

مسعودة غدواته محمودة ... روحاته ميمونة ضحواته

والشاعر يستوقفنا وقفة واضحة حينما يرى أن موت صلاح الدين موت للعالمين ، فهو يقترب من الحقيقة ، فنحن لا ندرك ما يدركه المعاصرون لأولئك القادة كمثل عماد الدين زنكي ، ونور الدين ، وصلاح الدين ، فإن هولاء القادة وقفوا في وجه الزحف الصليبي وهزموه ، وقادوا المسلمين للجهاد ، وهولاء وحدوا البلاد الإسلامية ، ونشروا العدل والأمن ، وفوق ذلك إدراك العالم الإسلامي أن موت أحدهم موت لدولته ، بل فرقة وشتات ، وحروب تدور

(١) أبو شامة : الروضتين ١/٢٣١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رحاها بين المسلمين ، وتلك عظيمة . إذن فموت أحدهم موت للأمة كما مثل ذلك عماد الدين :

لا تحسبوه مات شخص واحد فممات كل العالمين مماته

فهو المحامي عن الإسلام إذا أسلمته حماته ، وغاب عن المسلمين نور الوهج الذي أضاء به العالم الإسلامي فافتقده ، وتضعضع أركان الدولة القوية الإسلامية.

في نصرة الإسلام يسهر دائماً ليطول في روض الجنان سناته
لا تحسبوه مات شخصاً واحدا فممات كل العالمين مماته
ملك عن الإسلام كان محامياً أبداً إذا ما أسلمته حماته
قد أظلمت مذ غاب عنها دوره لما خلت من بدره داراته
دفن السماح فليس ينبش بعدما أودى إلى يوم النشور رفاته
الدين بعد أبي المظفر يوسف أقوت قواه وأقفرت ساحاته
جبل تضعضع من تضعضع ركنه أركاننا وتهدنا هدّاته
ما كنت أعلم أن طودا شامخاً يهوى ولا تهوى بنا مهواته
ما كنت أعلم أن بحراً طامياً فينا يطم وتنتهي زخراته
بحر خلا من وارديه ولم يزل محفوفة بوفوده حفاته
من لليتامى والأرامل راحم متعطف مفضوضة صدقاته
لو كان في عصر النبي لأنزلت في ذكره من ذكره آياته(١)

ثانيهما : رثاء الديار :

والحقيقة أن جامعي الشعر أغفلوا القصائد التي تمثل نزيف الجراح للمسلمين في بداية الهجمة على بلاد الشام ، و لم يصل إلينا منها إلا القليل كهذه المقطوعة التي دونها صاحب النجوم الزاهرة فتناقلتها المصادر والمراجع من بعده لكنها توحي بدلالات كثيرة وتصور واقعاً :

(١) أبو شامه : الروضتين ١:٢:٢١٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أحـــل الكفـــر بالإســـلام ضيمـــاً ... يطـــول عليـــه للديـــن النحيـــب
فحـــق ضـــائع وحمـــى مبـــاح ... وســـيف قـــاطع ودم صبيـــب
وكـــم مـــن مســـلم أمســـى ســـلباً ... ومســـلمة لهـــا حـــرم ســـليب
وكـــم مـــن مســـجد جعلـــوه ديـــراً ... عـــل محرابـــه نصـــب الصليـــب
دم الخـــنزير فيـــه لهـــم خلـــوق ... وتحريـــق المصـــاحف فيـــه طيـــب(١)
أمـــور لـــو تـــأملهن طفـــل ... لطفّـــل في عوارضـــه المشـــيب(٢)
أتســـبى المســـلمات بكـــل ثغـــر ... وعيـــش المســـلمين إذاً يطيـــب
أمـــا الله والإســـلام حـــق ... يدافـــع عنـــه شـــبان وشـــيب
فقل لذوي البصائـــر حيـــث كانـــوا ... أجيبـــوا الله ويحكـــم أجيبـــوا(٣)

الله أكبر ما أكبر مصيبة المسلمين لما يضام الإسلام ونتيجة هذا الضيم الحق الضائع لكل فرد ، والحمى المباح بفقد الأمن ، والسيف يعمل عمله في رقاب المسلمين ، والأشلاء تتناثر في المدن والطرق ، والبراري من المسلمين ، وهل بعد هذا ما هو أشد منه ؟ إنها والله لعظائم المصائب تجتاح العالم الإسلامي فكيف إذا النساء بلا حرم ، وكيف بالمساجد وقد تحولت إلى أديرة ، والمصاحف تحرق وكيف يطيب للمسلمين عيش ؟!

فقل لذوي البصائـــر حيـــث كانـــوا ... أجيبـــوا الله ويحكـــم أجيبـــوا

إن التأمل في البيت الأخير كفيل بالتأثر واستحضار ما يعادل آلاف الأبيات ، ومن أوائل الأبيات التي قيلت في رثاء المدن في زمن الحروب الصليبية أبيات وجيه بن عبدالله بن نصر في المعرة لما خربها الإفرنجة عام ٤٩٢هـ :

هـذه صـاح بلـدة قـد قضـى اللـ ... ـه عليهـا كمـا تـرى بـالخراب
وقف العيس وقفة وأبكِ مـن كـا ... ن بها مـن شيوخهـا والشبـاب

(١) خلوق : الخلوق بالفتح ضرب من الطيب .
(٢) طفل : أي دنا وقرب .
(٣) النجوم الزاهرة ٥/١٥١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

واعتبر إن دخلت يوماً إليها فهي كانت منازل الأحباب(١)

وفي شوال من عام ٥٦٥هـ حدثت زلزلة عظيمة عمت العراق ومصر ومركزها في بلاد الشام فخربت بعلبك وحمص وحماه وشيزر وبرين ، وتأثرت دمشق(٢)، وقد رثى الشعراء تلك الديار ومنهم العماد الأصبهاني :

سطوة زلزلت بسكانها الأر ض وهدت قواعد الأطواد
أخذتهم بالحق رجفة بأس تركهم صرعى صروف العوادي
خفضت في قلاعها كل عالٍ وأعادت قلاعها كالهوادي
أنفذ الله حكمه فهو ماض مظهر سر غيبة فهو بادي
آية آثر ذوي الشر باهلك وأهل التوحيد بالإرشاد
والأعادي جرى عليهم من التد مير ما قدر جرى على قوم عاد(٣)

ومن القصائد في رثاء المدن تائية شهاب الدين أبي يوسف يعقوب بن المجاور في رثاء بيت المقدس لما غزاها الصليبيون في عهد المعظم بن العادل وقد دمرها المعظم وحرق بيوتها وأخرج أهلها عام ٦١٦هـ ، ولكن المعظم مات قبل احتلالها، والحملة الصليبية ضعيفة و لم يدخلوها إلا بشروط من الكامل ، لكن الناس عابوا على المعظم تحريقها وإخراج أهلها ، فرثاها الشاعر بهذه القصيدة التي تناقلتها المؤلفات لقلة مثيلاتها ولأنها تعبر عن الحدث :

أعيني لا ترقي من العبرات صلي في البكا الآصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفئ فيضها توقد ما في القلب من جمرات
ويا قلب أسعر نار وجدك كلما خبت بادكار يبعث الحسرات
ويا فم بح بالشجو منك لعله يروّح ما ألقى من الكربات

إن هذا الدمع الدائم التدفق من الشاعر ليس إلا دمع كل فرد شرد وأخرج

---

(١) ابن تغري بدري : النجوم الزاهرة ٥/٢٠٠، مرآة الزمان القسم الأول ٨/٣٣.
(٢) أبو شامة : الروضتين الجزء الأول ، القسم الثاني ٢/٤٦٧.
(٣) المرجع السابق ٢/٤٦٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من داره ووطنه قهراً ، بل شهد إحراق مدينته لم يكن ذلك من عدو غادر ، وإنما من صديق راحم كما يتوهم ، وتلك مصيبة عظمى ، وأظنه غاب عن المعظم الدعاء « اللهم أرنا الحق حقاً وأرزقنا اتباعه » ، ويظن أنه يحسن صنعاً وهو يدمر مدناً، تلك ضحالة الرأي، وتلك التي جعلت لسان المجتمع ينطلق في شعر شهاب الدين. فقلبه المستعر ، وصوته المبحوح لم يتصور الهلاك والضياع ، وتدمير الأسرة بكاملها لما أخرجوا من ديارهم ، وشتتوا في الأرض .

وهو ينعي المسجد الأقصى الذي جل قدره ، موطن الصلوات والإخبات ، ومسرى الرسول ﷺ ومعراجه والقبلة الأولى للمسلمين ، فقد عفا من الساكنين ومن العمران ، ومن الحياة فخلا من حنين التائبين العابدين :

على المسجد الأقصى الذي جل قدره ... على موطن الإخبات والصلوات
على منزل الأملاك والوحي والهدى ... على مشهد الأبدال والبدلات
على سلم المعراج والصخرة التي ... أنافت بما في الأرض من صخرات
على القبلة الأولى التي اتجهت لها ... صلاة البرايا في اختلاف جهات
على خير معمور وأكرم عامر ... وأشرف مبنيٍّ لخير بناة
وما زال فيه للنبيين معبد ... يوالون في أرجائه السجدات
عفا المسجد الأقصى المبارك حوله الـ ... ـر فيع العماد العالي الشرفات
عفا بعد ما قد كان للخير موسما ... وللبر والإحسان والقربات
يوافي إليه كل أشعث قانت ... لمولاه بر دائم الخلوات
خلا من صلاة لا يمل مقيمها ... توشح بالآيات والسورات
خلا من حنين التائبين وحزنهم ... فمن بين نوّاح وبين بكاة

ثم هو يستدعي المشاعر المقدسة لتشارك بيت المقدس مأساته ، بل لتبك عليه البلاد بأسرها ، وتكشف عن أحزانها وترحها وتعلق مكة وعرفات وطيبة الطيبة مشاركة للقدس الشريف .

لتبك على القدس البلاد بأسرها ... وتعلن بالأحزان والترحات

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لتبك عليها مكة فهي أختها وتشكو الذي لاقت إلى عرفات
لتبك على ما حل بالقدس طيبة وتشرحه في أكرم الحجرات
لقد أشمتوا عكا وصور بهدمها ويا طالما غادتهما بشمات

ثم هو يعلن أن هذه الحادثة ، قوضت ما بناه صلاح الدين الأيوبي ، بل ما بنته الدولة الأيوبية ، فإن مجد صلاح الدين تمثل باستعادة بيت المقدس ، فلما أخرج ابن أخيه المعظم أهلها منها فذلك تقويض لهذا المجد الشامخ .

لقد شتتوا عنها جماعة أهلها وكل اجتماع مؤذن بشتات
وقد هدموا مجد الصلاح بهدمها وقد كان مجداً باذخ الغرفات
وقد أخمدوا صوتاً وصيتاً أثاره لهم عظم ما والوا من الغزوات
أما علمت أبناء أيوب أنهم بمسعاته عدوا من السروات
وأن افتتاح القدس زهرة ملكهم وهل ثمر إلا من الزهرات
فمن لي بنواح ينحن على الذي شجاني بأصوات لهن شجاة(١)

والشعراء أثقلتهم هموم العالم الإسلامي ، لا سيما دمار بيت المقدس ، فأحد الشعراء يمر مسلماً على ما تبقى من ربوعه بعد تدميره من الإفرنجة ففاضت دموعه ، لكن الشاعر يرى في تلك الأطلال معالم عبرة وعظة ويقظة للمسلمين :

مررت على القدس الشريف مسلماً على ما تبقى من ربوع كأنجم
ففاضت دموع العين مني صبابة على ما مضى من عصرنا المتقدم
وقد رام علج أن يعفي رسومه وثمر عن كفي لئيم مذمم
فقلت له شلت يمينك خلها لمعتبر أو سائل أو مسلم
فلو كان يفدى بالنفوس فديته بنفسي وهذا الظن في كل مسلم(٢)

وخراب بغداد في عام ٦٥٦هـ على يد التتار أمر عظيم دمر عاصمة العالم بأسره ، وخرب بيوتها وقصورها ، وفتك بأهلها وانتهك حرمتها ، ودخل

(١) أبو شامة : الروضتين ٢/٢٠٦ ، ونقلتها المراجع الحديثة .
(٢) انظر : محمد سيد كيلاني ٢٢٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

دورهم قتلا وفتكاً ، فلجأ الناس إلى حضائر البهائم ، واستكانوا بها أربعين يوماً ثم خرجوا هزالى مرضى ، فشاعت الأمراض حتى لم يبق منه إلا أربعة عشر ألف وهذا الشاعر شمس الدين الواعظ الذي فقد أحبته يستدعي قول أبي نواس « يا دار ما صنعت بك الأيام) فهي لم تبق فيها بشاشة فضلاً عن ذهاب ذلك البهاء ، وذلك الإعظام .

إن كنت مثلي للأحبة فاقداً ... أو في فؤادك لوعة وغرام
قف في ديار الظاعنين ونادها ... « يا دار ما صنعت بك الأيام »(١)
أعرضت عنك لأنهم مذ أعرضوا ... « لم يبق فيك بشاشة تستام »
يا دار أين الساكون وأين ذيّـ ... ـاك البهاء وذلك الإعظام
يا دار أين زمان ربعك مونقاً ... وشعارك الإجلال والإكرام
يا دار مذ أفلت نجومك عننا ... وا لله من بعد الضياء ظلام
فلبعدهم قرب الردى ولفقدهم ... فُقد الهدى وتزلزل الإسلامُ
فمتى قبلت من الأعادي ساكنا ... بعد الأحبة لا سقاك غمام

ثم هو يخاطب أولئك المقتولين فقلبه شيق لهم ، ودمعه سجام عليهم ، وما دام أن الدار عدمت جمال وجوههم فلا مقام فيها ، فلا عيش بعدكم بل ضرام نار يشتعل في الفؤاد ، وكما تذكر أن لا أخبار ولا آثار تنقل عنكم ، ولم يجد الشاعر إلا تناقص الحياة ، وجور الزمان بما لم يتخيله في زمانه .

يا سادتي أما الفؤاد فشيق ... قلقٌ وأما أدمعي فسجام
والدار مذ عدمت جمال وجوهكم ... لم يبق في ذاك المقام مقامُ
لاحظ فيها للعيون وليس للـ ... ـأقدام في عرصاتها إقدام
وحياتكم إني على عهد الهوى ... باق ولم يخفر لدي ذمام
فدمي حلال إن أردت سواكم ... والعيش بعدكم علي حرام
يا غائبين وفي الفؤاد لبعدهم ... نار لها بين الضلوع ضرام

(١) لأبي نواس وعجزه : ضامنك والأيام ليس تضام

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لاكتبكم تأتي ولا أخباركم ... تروي ولا تدنيكم الأحلام
نغصتم الدنيا عليّ وكلما ... جد النوى لعبت بي الأسقام
ولقيت من صرف الزمان وجوره ... ما لم تخيله لي الأوهام
ياليت شعري كيف حال أحبتي ... وبأي أرض خيموا وأقاموا(١)

والشيخ شمس الدين الواعظ يذكر خراب بغداد ويرثيها بقصيدة أخرى :

إن لم تقرح أدمعي أجفاني ... من بعد بعدكم فما أجفاني
إنسان عيني مذ تناءت داركم ... ما راقه نظر إلى إنسان
يا ليتني قدمت قبل فراقكم ... ولساعة التوديع لا أحياني
ما لي وللأيام شتت صرفها ... حالي وخلاني بلا خلان
ما للمنازل أصبحت لا أهلها ... أهلي ولا جيرانها جيراني
وحياتكم ما حلها من بعدكم ... غيرُ البلى والهدم والنيران
ولقد قصدت الدار بعد رحيلكم ... ووقفت فيها وقفة الحيران
وسألتها لكن بغير تكلم ... فتكلمت لكن بغير لسان
ناديتها يا دار ما صنع الأولى ... كانوا هم الأوطار في الأوطان
أين الذين عهدتم ولعزهم ... ذُلاً تخر معاقد التيجان
كانوا نجوم من اقتدى فعليهم ... يبكي الهدى وشعائر الإيمان
قالت غدوا لما تبدد شملهم ... وتبدلوا من عزهم بهوان
كدم الفصاد يراق أرذل موضع ... أبداً ويخرج من أعز مكان
أفتتهم غير الحوادث مثلما ... أفنت قديماً صاحب الإيوان
لما رأيت الدار بعد فراقهم ... أضحت معطلةً من السكان
ما زلت أبكيهم وألثم وحشة ... لجماهم مستهدم الأركان
حتى رثى لي كل من لا وجده ... وجدي ولا أشجانه أشجاني
أترى تعود الدار تجمعنا كما ... كنا بكل مسرة وتهاني

(١) الكتبي : فوات الوفيات ٢/٢٣٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إذ نحن نغتنم الزمان ونجتني ... بيد الأمان قطوف كل أماني
والدهر تخدمنا جميع صروفه ... والوقت يعدينا على العدوان
والعيش غض والدنو ممزق ... بيد الوصال ملابس الهجران
هيهات قد عز اللقاء وسددت ... طرق المزار طوارق الحدثان
ما لي أردد ناظري ولا أرى الـ ... ـأحباب بين جماعة الإخوان
واهفتي وا وحدتي وا حيراتي ... وا وحشتي وا حر قلبي العاني(١)

وخلاصة القول في الرثاء:

وفي نظر الباحث أن هذه النماذج لموضوع الرثاء تمثل إبداعاً جميلاً ، فالمضامين تغري بالقارئ وتجذبه ، والشعور بحالة الشاعر المأسوي يصحب المضمون في تدفقه حتى أنك لتنسى تتبع معالم الجمال الفني ، وكلتا الخاصيتان تمثلان ركنين من أركان الشعر ، فلا ريب أن الشكل هو الحلة التي نقلت لنا الخاصيتين ، فكيف بنا إذا ما عرجنا على الشكل وتبصرنا صدره ودلالة حروفه ، وألفاظه ، وتراكيبه فإن الناقد يفتن بهذه المقدرة الشعرية ، وتلك تتجسد في رثاء الأبناء أجلى وأوضح ، وتتجلى أيضاً في شعر رثاء المدن .

وهذا الشعر يجعلنا نفكر ملياً في منزلة شعر الحروب الصليبية بين العصور الأدبية فإذا ما حصرنا الرثاء بين المراثي في العصور الأخرى فإننا نشق بمواكبته لأفضل العصور .

لكننا لا نعدم بعض الرثاء الذي استوقفته الصنعة كرثاء ابن سناء الملك لأمه وأبيه . والرثاء متوسط الطول في قصائده .

(١) الكتبي : فوات الوفيات ٢/٢٣٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الثالث

الطبيعـــــة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الطبيعة :

المتصفح لدواوين الشعر في هذه المرحلة يتبصر في الطبيعة ، فيمد بصره في النجوم ويتمايل مع الأغصان والأشجار ، ويعبق برائحة الورود والزهور ، ويذهل لمنظر الجمال الذي يرسم في لوحات منسوجة من الطبيعة النباتية في فصل الربيع ، وربما تستشعر تمازج الطبيعة من شعابها ورياضها وورودها وأزهارها وتدلي أهداب السحاب ، وتساقط الأمطار ، وأحياناً ينقل نظرك إلى الطير صفات أجنحتها في الفضاء ، وربما تهوي بك في قاع الماء تلتقط الغذاء ، وأحياناً يصفون القصور ، والبرك ، والحمامات وميادين النزهة .

* ويوردها الشعراء في مقطعات شعرية ، وفي مقدمة القصائد ، ابتهاجاً للممدوح ، ورمزاً لحالتهم في المستقبل ، وشعراء الشام أكثر تصويراً ، وأكثر إبداعاً في هذا اللون ، وذلك لجمال الطبيعة .

* ومن الوصف مقطوعة في وصف الروض للشاعر المهند المزرفي عاش إلى ما بعد ٥٥٧هـ ، وله يصف الروض :

الروض بين متوج ومكلل ... والماء بين مكفر ومصندل(١)

فانظر إلى الوسمي كيف كسا الثرى ... ثوباً ، يطرزه معين الجدول(٢)

تلظ جنان الخلد في الدنيا ، بلا ... شك ، وَتَرْنُ نزهة المتأمل(٣)

فكأن غيدان البنفسج عاشق ... بالصد والهجر المبرح قد بلي(٤)

وكأن زهرته بقية عضة ... في خد رئم ذي دلال أكحل(٥)

---

(١) مكفر : صاف أبيض وهو شجر من الفصيلة الغارية ، يتخذ منه مادة يميل لونها إلى البياض ، رائحتها عطرية وطعمها مر وهو أصناف كثيرة . ومصندل مطيب ، مشتق من الصندل ، وهو شجر طيب الريح .

(٢) الوسمي : مطر أول الربيع ، والمعين : الماء الجاري على وجه الأرض .

(٣) الرنو : إدامة النظر في سكون طرف ، ويقال : رناه ، ورنا إليه ، ورنا له .

(٤) غيدان : الغض الريان . المبرح : الملح على الإنسان بالأذى .

(٥) رئم : جمعها آرام .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والنرجس الغض الشهي ، كأنه حدق .. أصابت بالصبابة مقتلي
مالي وللآرام ؟ قبح حسنها حالي ، وغالت بالجمال تجملي
وتركنني غرض الرماة مقسما بين الوشاة وبين عذل العذل(١)،(٢)

وفتيان الشاغوري يصف ليلة مستهلها بوصف النجوم وكأن ذلك قبل ظهور القمر بدليل هروب الدجى حتى ظهرت ألوان الزهور والورود فهي صور كلية تجمع بين السماء والأرض والأشجار ، والأزهار وتعامل النفس البشرية مع كل ذلك :

ليلة حليت بمنطقة الجو زاء والشعرين والجوز هراً
وهلال السماء يشرق والشهب تروق العيون نظماً ونثرا
وتبارى النسران سبقاً وقد قدم سبق نسراً وأخّرَ نسرا
وترينا بنات نعش نساء في حداد سفرن شفعاً ووترا(٣)
والثريا كأنها كف خود ختمت ياقوتاً وتبراً ودرا
والدجى هارب كما تهرب الزنج من الروم إذ تخاف الفجرا
ولدينا من الربيع برود حملت من وشي الرياض الزهرا
مبديات حمراً وصفراً وبيضاً رائقات لنا وزرقاً وخضرا
والنسيم العليل قد أيقظ ألبا نات حتى نفث مسكاً وعطرا
والنعامى تهز عطف الخزامى بين يمنى من التثني ويسرى(٤)

والشاعر فتيان الشاغوري المتوفى ٦١٥هـ هام في طبيعة الشام لا سيما دمشق فقد وصف رياضها ، ومنتزهاتها وغوطتها ، واستوطن الزبداني وما زالت تحتفظ بروعتها وجمالها فقال عنها :

---

(١) الغرض : الهدف الذي يرمى إليه .
(٢) العماد الأصبهاني : الخريدة ، الجزء الرابع ، المجلد الأول ١١٢ .
(٣) بنات نعش : مجموعة من النجوم المعروفة .
(٤) الديوان ١٦٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قد أجمد الخمر كانون بكل قدح وأخمد الجمر في الكانون حين قدح
ياجنة الزبداني أنت مسفرة عن وجه حسن إذا وجه الزمان كلح
فالثلج قطن عليك السحب تحلجه والجو ندَّافه والقوس قوس قزح
متى يجل فيك طرف الطرف من مرح قريته لحاً تأتي بحسن مُلَح
تلق النواظر من روض نواظر في قلوبنا فرحاً من همها وفرح(١)

وديوان فتيان الشاغوري مزخرف بأفواف الزهور والورود تحس بها تتمايل وتتلون في الرياض والحدائق ، وأنت تعثر عليها في قصائد قصيرة أو مقطعات وتكثر في مقدمة القصائد ، ولا نظير له من معاصريه في وصف دمشق والحديث عن الطبيعة .

والشاعر ابن النبيه المصري المتوفى ٦١٩هـ ، يصور لوحات من جمال الطبيعة، فالرياض المتوجة بالأزهار والورود ، والأرض ذات الخطوط المنسوجة من النبتات المختلفة الألوان ، وتكمل الصورة بها بالتلاحم بين أجزاء الطبيعة واستشعار الشاعر بأحاسيسها فالحمام يغرد طرباً وبجاريه الغصن يهتز فرحاً والسماء تكرم هذا التلاحم وتعطف عليه فتمنحه الماء البارد :

الروض بين متوج ومشنف والأرض بين مدبج ومفوف(٢)
والغصن غناه الحمام فهزه طرباً وحياه الغمام بقرقف(٣)

وتلفت نظرة صورة الأشجار أو ظلالها وهي تتماوج على سطح غدير الماء ويقرنها بصورة الصدا على لوح الحسام المرهف ، وإن أخفق الشاعر في دلالة الصورتين ، فدلالة الأولى ترتاح لها النفس ، وأما دلالة الثانية (الصدا على السيف) فتنفر منه .

والظل يسبح في الغدير كأنه صدأ يلوح على حسام مرهف

---

(١) الديوان ٩٤ .

(٢) مدبج من الديباج ، وبرد مفوف أي رقيق ، وبرد مفوف أي من خيوط بيض .

(٣) القرقف : الماء البارد .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قـس بالسماء الأرض تعلم أنها ... بكواكب الأزهار أحسن زخرف
أحداق نرجسها بخد شقيقها ... مبهوتة لجماله لم تطرف
والطل في زهر الأقاح كأنه ... ظُلَمٌ ترقرق في ثنايا مرشف(١)

وعمد بعض الشعراء إلى الوصف ، وأجال بصيرته في مفاتن الطبيعة كقافية (أيدمر المحيوي) حيث وصف الروض وأخضلاله وغضارة نباته ، وتناثر نداه ، ولآلاء عقده ، وتناثر تيجانه واستنطق أغصانه وسيقانه واستمالة امتداد الشمس الفضية على الروض المتلألئة الأزهار :

الروض مقتبل الشبيبة مونق ... خضل يكاد غضارة يتدفق
نثر الندى فيه لآلاء عقده ... فالزهر منه متوج ومنطق
وارتاع من مر النسيم به ضحىً ... فغدت كمائم نوره تتفتق
وسرى شعاع الشمس فيه فالتقى ... منها ومنه سنا شموس تشرق
والغصن مياس القوام كأنه ... نشوان يصبح بالنسيم ويغبق
والطير ينطق معرباً عن شجوه ... فيكاد يفهم عنه ذاك المنطق
غرداً يغني للغصون فتنثني ... طرباً جيوب الظل منه تشقق
والنهر لما راح وهو مسلسل ... لا يستطيع الرقص ظل يصفق(٢)

والشاعر يتحدث عن تعاقب الليل والنهار :

رعى الله ليلا ما تبدى عشاؤه ... لأعيننا حتى تطلع صبحه
كأن تغشية لنا وانفراجه ... لقربهما أطباق جفن وفتحه(٣)

وله أيضاً في الخيل :

وأغر مصقول الأديم تخاله ... زرت عليه جلابب من عسجد
ذي منخر كفم المزادة زانه ... خدٌ قليل اللحم غير محدّد

---

(١) الديوان ١/١٩٨ .
(٢) الكتبي : فوات الوفيات ١/٢٠٩ .
(٣) المصدر السابق ١/٢١٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وكأنه نال الجرة وثبه ... فرمته وسط جبينه بالفر قد
صناه عن رسم الحديد فوسمه ... بالشكر من نعم الوزير محمد(١)

وله أيضا :

حبذا القسطاط من والدة ... جبت أولادها درّ الجفا
يرد النيل إليها كدراً ... فإذا مازج أهليها صفا

وله أيضا :

كأنما الهالة حول بدرها ... كمامة تفتقت عن زهرها

وله أيضا :

كم لدينا همانياً ... قد حوت محكم العمل
فارغات من الدنا ... نير ملأى من الأمل(٢)

وقال يرثي سهماً انكسر :

يا سهم هاج رداك لي بلبالاً ... وأطار نومي والهموم أطالا
[لولاك] ما راع الحمام حمامة ... يوماً ولا علق المنون غزالا
ولطالما شوشت من سرب المها ... ألفاً ومن سطر الكراكي دالاً(٣)

والشاعر الصرصري المولود عام ٥٨٨هـ والمتوفى شهيداً في نكبه بغداد ٦٥٦هـ ، حيث وكز أحد الجند المغولي لما دخل عليه البيت فقتله ثم قُتِل الصرصري شهيداً(٤)، وهو يصف الربيع وتأثيره في الرياض وتلألأ النوار والأزاهير:

خط الربيع بأقلام التباشير ... رسالة كتبت بالنوْر والنور
حي البقاع الحيا فاهتز هامدها ... لما أتتها يدُ البشرى بمنشور
وانشقت الأرض عن مكنون ما خبأت ... كأنما باكرتها نفخة الصور

(١) المصدر السابق ١/٢١٠ .
(٢) المصدر السابق ١/٢١٠ .
(٣) الكتبي : فوات الوفيات ١/٢١٠ .
(٤) انظر : المصدر السابق ٤/٢٩٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأزّينت بحلي النبت وادرعت ملابس الفخر من وشي الأزاهير
والطل في عبقري الروض منتشرٌ كلؤلؤ من عقود الغيد منثور
والبان قد ماس من نفح الصبا طربا كأن أغصانه أعطاف مخمور
والورق تهتف في الأوراق شاكرة إحسان مبتدئ بالفضل مشكور

وتأمله في هذا الروض يمنحه عبرة وعظة أن الذي أحياها لمحيي الموتى :

وقد فهمنا هذا الفصل ترجمة أن المهيمن يحيي كلّ مقبور(١)

والشاعر العفيف التلمساني المتوفى ٦٩٠هـ له ولع بوصف الرياض والزهور والورود والحمائم والطل :

ندى في الأقحوانة أم شرابُ وطلٌ في الشقيقة أم رضاب
فتلك وهذه ثغر وكأس لذا ظَلْمٌ وفي هذي شراب
وخضر خمائل كجسوم غيدٍ قد أنشقت فراق بها الخضاب
يريك بها الشقيق سواد هدب وحمرة وجنة فيها التهاب
وورق حمائم في كلّ فنٍ إذا نطقت لها لحن صواب
لها بالطل أزرارٌ حسانٌ وأطواقٌ ومن ورق ثياب
كأن النهر سيف مشرفيّ له في كف صيقله اضطراب
تجردهُ يمين الشمس طوراً وطوراً بالظلال له قراب
يعاب السيف إذ في جانبيه فلولٌ وهو منها لا يعاب
فإن قلت الحبابُ أنساب ذعراً ورمت الرقش صدقك الحساب
وللأغصان هيمنة تحاكي جبائب رق بينهما العتاب(٢)

وقال أيضاً :

رياض بكاها المزن فهي بواسم وناحت لغير الحزن فيها الحمائم
وأودعت الأنواء فيهن سرَّها فنمت عليهن الرياحُ النواسم

(١) المصدر السابق ٤/٣١٠ .
(٢) الكتبي : فوات الوفيات ٢/٧٤ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يبيت الندى في أفقها وهو ناثر ... ويضحي على أجيادها وهو ناظم
كأن الأقاحي والشقيق تقابلا ... خدودٌ جلاهن الصبا ومباسم
كأن بها للنرجس الغض أعيناً ... تنبه منها البعض والبعض نائم
كأن ظلال القضب فوق غديرها ... إذا اضطربت تحت الرياح أراقم
كأن غناء الورق ألحان معبدٍ ... إذا رقصت تلك القدود النواعم
كأن نثار الشمس تحت غصونها ... دنانير في وقت ووقت دراهم
كأن ثماراً في غصون توسوست ... لعارض خفاق النسيم تمائم
كأن القطوف الدانيات مواهبٌ ... ففي غصن ماس الدوح حاتم(١)

ومخاطبة الطيور والديار ، ومشاركة الوجد والهيام ، والحزن والأسى لون قليل في الشعر العربي . وفي هذا قل ما يحاكي الشعراء الطبيعة ويبادلونها الأحاسيس ، غير أننا لا نعدم ذلك . وكان لأسامة بن منقذ مقطوعات في هذا اللون ، ومنها مخاطبته للناقة التي تحن من الوجد على ولد ، وتعرف الإبل بحنينها الذي يشبه الأنين ، وتأثيره الذي يثير الأشجان يقول :

كم ترزمي ، وكم تحني ياناق ... حسبك ، قد هجت الجوى والأشواق
هي النوى ، فما غناء الإشفاق ... تقسمتنا بالشتات الآفاق
كأنها خلق ونحن أرزاق ... حتى إذا أدمى البكاء الآماق
أصقبت الدار وقلبي مشتاق ... ما أتعب الحامل قلباً تواق
كالبرق مشبوب الضرام خفاق(٢)

ومنه مخاطبة الحمامة :

وهاج لي الشوق القديم حمامة ... على غُصُنٍ في غيضة تترنم
دعت شجوها محزونة لم تفض لها ... دموع ، ففاضت أدمعي ، مزجها دمُ

(١) المصدر السابق ٢/٧٥ .
(٢) الديوان ١٤٢ ، تحقيق د . أحمد بدوي ، حامد عبدالمجيد .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فقلت لها : إن كنت خنساء لوعة ووجدا فإني في البكاء متمّم(١)

فهذه الأبيات تدل على تفاعل أكثر من سابقتها ، فهو يدعي أن الذي هاجه الحمامة ويصفها على غصن في غيضة تترنم ، ثم هي تعلن شجوها في غير ما دمع، لكنه يسعفها بالدمع ، فكأنه يحس بإحساسها ، ثم هو يخاطبها بأنها تحمل لوعة الخنساء على صخر ويحمل بكاء متمم على أخيه مالك بن نويرة .

والشاعر ابن مُكِندا يهتزل لنوح الحمام فوق أغصان ألبان ، ويستنطقهن فيخاطبهن ويعبرن بهديلهن عن حالته(٢) :

نوح الحمام على فروع ألبان أهدي إليّ بلابل الأشجان

ورق تداعي في ذرى أغصانها بهديلها وترجع الألحان

يخطرن بالأطواق والحلل التي قد زخرفت بعجائب الألوان

ناديتهن ودمع عيني هاطلٌ لما صمتن وملن بالأفنان

با لله يا وُرق الحمام أعنّني بهديلكن وكن من أعواني(٣)

وذوق ذلك العصر لم يستسغ هذا اللون ، فقال عنه الصفدي (شعر منحط ثقيل) بينما عصرنا الحاضر يحبذ هذا اللون ويميل إلى مناجاة الطبيعة .

والشاعر بدر الدين الذهبي المتوفى ٦٨٠هـ ممن تحدث عن الطيور ووصفها ، لكنه يوظف هذا توظيفاً رمزياً للمحبوب الذي لا يرجى ترويضه ، أو للشباب الذي لا يرجى عودته :

لا بندقي مهما خطوت يناله أنى ينالُ مراوغاً طيارا

وسنان خرز اللغالغ لم يزل يرعى الرياض وليس يرعى الجارا

لا قادمٌ بل راحل عني إلى ماء الفرات يخوض منه غمارا

أو ما تراني فاقداً ومنعماً في الجو ليلاً خلفه ونهارا

---

(١) الديوان ١٤٩ .

(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات ٣٣/٧ .

(٣) المصدر السابق ٣٣/٧ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

دعني فقد برد الهواء وقد أتى ... أيلول يطفي للهجير جمارا
ووراءه تشرين جاء برعده ... عجلان يحدو للسحاب قطارا
والبارق الهامي على طلل الحمى ... سدًى هناك خيوطه وأنارا
والفيض طامٍ ماؤه متدفقٌ ... والطير فيه يلاعب التيارا
والنهر جنَّ به فراح مسلسلاً ... صبٌّ تحيَّر لا يصيب قرارا
بهر النواظر حين أنبت شطه ... للناظرين شقائقاً وبهارا
والصبح في آفاقه يا سعدُ قد ... أخفى النجوم وأطلع الغرّارا
فانهض إلى المرمى الأنيق بنا فقد ... هبّ الصباح ونبه الأطيارا

والشاعر الذهبي يسجل لنا رحلة الطيور التي أدركها العلماء اليوم ، فإن هذه الطيور آتية من العراق كما يتصوره ، وهي مهاجرة من أوربا ، وهذه الهجرة تكون موسماً للصيد فإن الصيادين يتعرضون لها بسهامهم . وهو يعجب بوقع القسي فيها وتضرجها في الدماء ، ويلفت انتباهه فزعها وطيرانها في جموع تتبعها جموع ، وهو يسجل تدبر وتأمله لهذه الطيور التي وفدت للفتك البشري ، وتلك نعمة للإنسان يرزقه الله بها في زمان ومكان محددين ، كما هو الشأن في رحلة الطيور التي يتابعها الآن الصيادون :-

وتتابعت جفاتها في أفقها ... مثل النعام قوادماً تتبارى
من جوّ زوراء العراق قوادماً ... يا مرحباً بقدومها زوّارا
فأصخ إلى رشق القسي إذا ارتمت ... مثل الحريق أطار عنه شرارا
واطرب إلى نغمات أطيارٍ بدت ... في الجو وهي تجاوبُ الأوتارا
من كل طيار كأن له دماً ... عند الرماة فثار يبغي الثارا
هل جاء في طلب القسي لحتفه ... أم جاء يطلب عندها الأوتارا
خاض الظلام وعب فيه فسوّد الـ ... ـرجلين منه وسوّد المنقارا
وأتى يبشر باللقاء فضمخت ... تلك المغارز عنبراً ونضارا

والشاعر يعجب بالطائر أبي منجل فهو كالشيخ المزمل في برديه هيبة ووقاراً،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وكيف أنه يسطو على الأسماك وينشلها من البحر .

ثم هو يصف الوز ونغمته البلبلية ، واللغالغ وصفار عيونها كأن الورس ذيب في أجفانه ، وكذلك يصف لونا من ألوان الحباري وهو الحبارج وتلك الطيور مما يغرم بها الصيادون ويستوقفه النسر ذلك الذي يأتيه رزقه ، ويرصد هذه الطيور فيفترس فيها ما شاء حتى إذا تقدمت به السن عجز عن ملاحقتها فتشتد حسرته، ونصف العقاب والكراتي وغيرها :

والكي كالشيخ الرئيس مزمل ... في بردتيه هيبة ووقارا
يسطو على الأسماك يوماً كلما ... أذكى له حرّ المجاعة نارا
والوز كم قد هاجنا بنغيمه ... ليلاً وكم قد شاقنا أسحارا
فإذا بدا ضوء الصباح ثنى له ... عطفاً وصفق بالجناح وطارا
وترى اللغالغ تستبيك بأعين ... خزرية صفر الجفون صغارا
فكأن ورساً ذيب في أجفانها ... فحكى النضار وحير النظارا
وترى الأنيسات الأوانس تنقضي ... بين الرياض كأنهن عذارى
يلبسن أرباب العقول عقولهم ... ويرغن منه حيلةً ونفارا
وترى الحبارج كالقطا أرياشها ... أو الرياض تفتحت أزهارا
هجرت منازلها على برح الظما ... واستبدلت دوّية وقفارا
والنسر سلطان لها لكنه ... لم يلقها لدمائها مهدارا
قد شاب منه رأسُهُ من طول ما ... كرّت عليه عصوره الأدوارا
أرخى جناحيه عليه كجوشن ... لو كان يمنع دونه الأقدارا
وإذا العقاب سطا وصال بكفه ... عاينت منه كاسراً جبارا
يعطي ويمنع غيرةً وتكرماً ... ويبيح ممنوعاً ويمنع جارا
وترى الكراكي كالرماد وربما ... قَرَقَتْ فأذكت في القلوب النارا
قد سطرت في الجو منها أسطر ... وطوت سجل سخائها أسفارا
فإذا انصرعن فلا تكن ذا غفلة ... عن أن تنقط حليهن مرارا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وبـــدت غرانيـــق لهـــن ذوائـــبٌ لـــولا البيـــاض لخلتهـــن عـــذارى
حُمرُ العيون تديـرُ مـــن أحداقهـــا فينا كؤوسا قـــد ملـــين عقـــارا(١)

والشعر درج على ألسنة الشعب ، حتى أولئك الذين لم يتعلموا القراءة والكتابة ، كان عندهم القدرة اللغوية على بلورة تجاربهم النفسية ، وصياغتها في قوالب فنية شعورية ، تنبض من عواطفهم ، فهذا الشاعر (عين بصل) إبراهيم الحراني المتوفى ٧٠٩هـ يصف دمشق وينقلنا في شعره بين أحيائها ويمتع أبصارنا بغزلانها في ساحة جيرون ، وساحة الجامع وباب البريد ، والقصيدة تمثل روح التجانس الذائعة في العصر رغم أن الشاعر أمي وأيضاً فإنه استطاع توظيف التجانس للتلاحم مع المضمون :

ربـــوع جلـــق للأوطـــار أوطـــان وليـــس فيهـــا مـــن الندمـــان ندمـــانُ
كـــم لي مـــع الحـــب في أقطارهـــا أربـــاً إذ نحـــن في ســـاحتي جـــيرون جـــيران
أيـــام تجريـــر أذيـــالي بهـــا طربـــاً ولي مكـــان لـــه في الســـعد إمكـــان
إذ بـــت أنشـــد في غزلانهـــا غـــزلاً لمـــا غـــزت كبـــدي بـــاللحظ غـــزلان
ســـقياً لجامعهـــا كـــم قـــد جُمعـــن لنـــا فيـــه مـــن الغيـــد أقمـــارٌ وأغصـــان
وكم حوى الحسن في باب البري لنا فهل ترى عند ذاك الحسن إحسان
أغنـــت عـــن الســـمر فيـــه إذ خطـــرت وســـودُ أجفانهـــا للبيـــض أجفـــان
أهلّـــة عـــن تحـــت ليـــل الشـــعر تحملهـــا لفتنـــة الصـــب قضبـــان وكثبـــان
جمالهـــا وأخـــو الأشـــواق حـــين بـــدت إليـــه في الحـــب مفتـــون وفتـــان
وبعدهـــا ليـــس يحلـــو في الهـــوى أبـــداً يومـــاً لإنســـانه في الخلـــق إنســـان
نواحـــه في نواحـــي جلـــق ولـــه بالحســـن لا بالنقـــا والحـــزن أحـــزان
فجلـــق جنـــةٌ تبـــدوا جواســـقها مثـــل القصـــور بهـــا حـــورٌ وولـــدان
والسبت كالغيد تلقى الغيد سانحةً وقـــد حـــوى الغيـــد ميـــدان وبســـتان
أنـــزه الطـــرف في الميـــدان مـــن فـــرح والقلـــب مـــني لطفـــل اللهـــو ميـــدان

(١) الكتبي : فوات الوفيات ٤/٣٧٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فأنت في جنـــة منهـــا مزخرفـــة وقد تلقـــاك بالرضـــوان رضـــوان

ثم يصف لوحات جمالية من ورودها وأزاهيرها :

وربيع الشام استوقف الشعراء قبل الشاعر الحراني ، فهو يتابع نهجهم فتستوقفه الرياض التي تخلب الأبصار بمفاتن زهورها وأزهارها فكأنها مرصعة بالجواهر والياقيت والمرجان وهو ينقلنا في صور مبتعدة من نبات الريحان ويشبه الحمرة بالصلبان في روض يمتع البصر ، ويفوح عطراً ، وهو لا ينفك يصور تلك الورود والأزهار بأسمائها ويرسمها رسماً تشكيلياً معاصراً .

وأنـت فيهـا عـن اللـذات في كـل انهـض فمـا بلـغ اللـذات كـسلان
أما ترى الأرض إذ أبكى السحاب بها آذارهـا ضحكـت إذ جـاء نيسـان
والزهـر كـالزهر حيـاه الحيـا فبـدت في الـروض منـه إلى الأبصـار ألـوان
زمـرد قُضِّـب فيهـا مركبـة جواهـر ويواقيـت ومرجـان
كأنما الـورد خدّ الحب حين غدا لـه العـذارُ سـياجاً وهـو ريحـان
كـأن منثورهـا إذ لاح مبتسـماً جيش من الـروم بـانت فيـه صلبـان
كأنما البان أهدى المسك حين بدا فعطـر الكـون لمـا أورق البـان
كأن ريح الصبا طافت بخمر هوى مـن الريـاض فكـل الكـون نشـوان
كأنما حُمـرةُ التفـاح خـدُّ رشـاً لي في هـواه عـن السـلوان سـلوان
كـأن نـار نجهـا نـارٌ وباطنـه ثلـج وفيـه لجـين وهـو عقيـان
والطـير تطـرب بـالعيدان نغمتهـا مـا ليـس يُطـرب بالأوتـار عيـدان
أبـدت فنونـاً فـأفنت صـبر سـامعها بـالنوح إذ حملتهـا فيـه أفنـان
بلابـل هيجـت منـا بلابلنـا وهـاج منّـا صبابـاتٌ وأشـجان
وهزنا الشوق إذ غنّـى الهـزار بها فلا تجف لنـا بالدمـع أجفـان(١)

وأبو الفتوح يصف السفينة وصفاً غير مباشر ، فهو يذكر أنها لا ترعى وليست بذات لقاح فلا تُحلب ، ولا تتعب ، ولا أقدام لها :

(١) الكتبي : فوات الوفيات ١/٣٧، ٣٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يـا أيهـا الرائـح تنحـو بـه ... هوجـاءُ تنقـض انقضـاض العُقـاب(١)
لم يـرأم الفحـل أمهـا في الفـلا ... ولا عراضـاً لقحـت في الضـراب(٢)
ولا رعـت حمضـاً ولا خلّـةً ... يومـاً ، ولم تجـتز بهمـى العـذاب(٣)
ولا اعتقـى الحـالب أغبارهـا ... ولا رأت سـبقاً لهـا في السـقاب(٤)
لا تشـتكي الأيـن ، إذا مـا اشـتكت ... من الوحـي الوجنـاء ذات الهبـاب(٥)
دهمـاء ، لم تلمـس لهـا أشـطراً ... كليـةً ، قـد عصبتهـا اعتصـاب(٦)
تنـساب ، والتيـار ذو حومـة ... مثل الحباب الصل ، فوق الحباب(٧)
طالـت علـى العـود بأعوادهـا ... والناب لكن ما لها قط نـاب(٨)،(٩)

فتراه استعان بأوصاف الناقة كيما يصف السفينة.

إذا فشعر الطبيعة من الشعر الواقع الذي يقترب في وصفه من معالم الحياة ، وهو يكشف عن المضمون في جمال من النظم ، وقد نرصد بعضاً من معالم الصنعة، وهذه محمدة وقل أن نجد تكلفاً فيه ، ومن هنا نرى أن شعر الطبيعة من

(١) هوجاء : مسرعة كأن بها هوجاً ، أي حمقاً وطيشاً .
(٢) رأمها : أحبها وألفها . أمها : توصل همزتها بلام الفحل ، عراضاً : مصدر عارضه إذا أخذ في عروض من الطريق ، أي ناحية . ضرب الفحل الناقة : نزا عليها ونكح .
(٣) الحمض : كل نبت حامض أو مالح يقوم على ساق ولا أصل له ، وهو للماشية كالفاكهة للإنسان ، وضده الحلة ، وهي كل نبت حلو . البهمي : نبت ، قال أبو حنيفة : هي خير أحرار البقول رطباً ويابساً . العذاب : السهل واللين من الرمل ، تغيب فيه الأرجل ، كالأوعس .
(٤) اعتقى : حبس ، الأغبار : بقايا اللبن ، جمع غبر كقفل . السقاب : جمع السقب ، وهو ولد الناقة الذكر ساعة يولد .
(٥) الأين : الإعياء والتعب . الوحى رقة الخف من كثرة المشي . الوجناء : الشديدة ، أو العظيمة الوجنتين . الهباب : النشاط .
(٦) دهماء : سوداء .
(٧) الحومة من البحر : معظمه . الحباب بالضم : الحية ، وحباب الماء : بالفتح معظمه ، وقيل : نفاحاته التي تعلوه ، وهي اليعاليل .
(٨) العود المسن من الإبل وفيه بقية . الناب : المسنة من النوق . والناب الثانية : السن التي خلف الرباعية
(٩) العماد الأصبهاني : الخريدة ، الجزء الرابع ٢/٥٦٥،٥٦٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الصنعة، وهذه محمدة وقل أن نجد تكلفاً فيه ، ومن هنا نرى أن شعر الطبيعة من محاسن العصر ، وأنه ملأ فراغاً مزعوماً وهو أكمل حلقات الشعر في العصور و لم يضعف عنها ، وشعر الطبيعة تكاثر عند الشعراء ، وأشهرهم فتيان الشاغوري .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الرابع

الغـــزل

- الغزل الوجداني .
- وصف الكنائس والراهبات .
- الغزل بالمذكر .
- الغزل في شبه الجزيرة .
- خلاصة الرأي .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الغـــزل :

موضوع الوجدانيات الغزلية يحتل صفحات كثيرة من إبـداع تلـك المرحلـة ، ومن مظاهره :

❖ مقدمة القصائد وتظهر فيه غربـة الوجـدان ، فالشـاعر ينتقـل إلى الذاكـرة التراثية ، فهو يتحدث عن الجزيرة ومسمياتها وهـذا هـروبٌ مـن الواقـع أحيانـاً ، وكثافة تأثر أحياناً أخرى ، ورمزٌ تارات أخرى . وأكثرت من إيراد هذه النمـاذج في عدد من المباحث .

❖ القصائد الغزلية لشعراء الصوفية فهم يهيمون بمعشوقاتهم التي ترمز للحـب الإلهي تعالى الله عما يصفون .

❖ ومنه الغزل الوجداني الـذي يمثـل التدفـق الشـعوري ، والهيـام والوجـدان العذري ، مع القدرة على تلوينه بالإبداع الفني .

❖ ومنه الوجداني المتأثر بالغزو الصليبي الذي تجلى فيه وصف الروميات .

❖ ومنه الغزل بالمذكر . وقد اخترت له نماذج لدراسة الظاهرة وحسب .

❖ ومنه ألوان ماجنة تتسم بالارتجالية ، ويأتي على شكل مقطعات ، ويظهـر فيه البذاءة اللفظية ، والغزل المكشوف وقـد أعرضـت عـن الاستشـهاد بمثـل هـذا اللون .

❖ كثيرون هم الشعراء الذيـن أخلصـوا شـعرهم للغـزل فطفحـت دواوينهـم بالوجدانيات ومنهم : تاج الملوك بوري المتوفى ٥٧٩هـ الذي يهيم وجداناً وجـل شعره مقطعات وجدانية في المحبوب .

والشاعر مجد الدين بهرام شاه الأيوبـي المتوفى ٦٢٨هـ فإن جـل شـعره في الغزل المستغرب إلى التراث ، ومنهم الشاب الظريف المتوفى ٦٦٦هـ .

وقد كثر نتاج العصر حتى أنهم طلبوا الفتيا فيه ، والشعر يبرز فلسفة العلمـاء

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

في الحب واللهو والمجون ، فهم يكتبون الفتوى شعراً ، ويرد عليها العالم على نفس الوزن والقافية كرد أبي القاسم القشيري المتوفى ٥١٤هـ لما كُتبت له الأبيات التالية :

يا إماما حوى الفضائل طرًّا ... طبت أصلاً وزادك الله قدراً
ما على عاشق رأى الحب مختا ... لاً كفصن الأراك يحمل بدرا
فدنا نحوه يقبل خديـ ... ـه غراماً به ويلثم ثغرا
وعليه من العفاف رقيب ... لا يداني في سنة الحب غدرا

فأجاب رحمه الله تعالى :

ما على من يقبل الحب حد ... غير أني أراه حاول نكرا
امتحان الحبيب باللثم حيف ... لو تعففت كان ذلك أحرى
لا تشرف للثم خد وثغر ... فتلاقي من لحظ نفسك مرا
واخش منه إذا تسامحت فيه ... غائلات تجر إثماً ووزرا
قمعك النفس دائماً عن هواها ... لك خير فالزم النفس صبرا
من بلاه إلهه بهوى الخلـ ... ـق فقد سامه هواناً وصغرا
فاجتنبهم وراقب الله سراً ... فهو أولى بنا وأعظم أجرا
ذا جواب لابن القشيري فاسمع ... إن أردت السداد سراً وجهرا(١)

ولما تفحصت الدواوين والمصادر منقباً عن الوجدانيات اتضح لي شعر يمثل القمة الإبداعية ليس على مستوى عصرهم وحسب ، وإنما يرتقي لينافس غيره من روائع الشعر العربي – فهو يمثل الفيض الشعوري ، الذي يتماوج بالاهتزاز الشعوري ، وصدق الأحاسيس ، وشرف النزعة الوجدانية ، متحلياً بحلل من الجمال الفني وقد آثرت بعضها لتكون نماذج أحلي بها كتابي ، ولتظهر إلى السطح فتكون في متناول النقاد لتسهم في تكوين الرأي النقدي لهذا العصر .

ومن القصائد الوجدانية باتية المويد الآلسي (٤٩٤-٥٥٧هـ) ، وهي

(١) الكتبي : فوات الوفيات ٢/٣١١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قصيدة تلحق بالشعر الوجداني العذري ، في مسارب شتى منها :

• أن القصيدة تجري مجرى شعر جميل بن معمر في بثينة في الفيض الشعوري المتدفق من تجربة ذات إحساس عميق ، فالأحاسيس تنبض من كل تركيب ، بل تشع من الألفاظ .

• وهي تشابه الشعر العذري بأنها تحكي أحاسيس الشاعر ولوعته أكثر من تعريجها على مفاتن المحبوبة .

• وهي لا تقف عند الأوصاف الجسمية والمفاتن وإنما الشاعر معجب بها وكفى .

• والقصيدة تصور عاطفة سامية لا تبحث عن نزوة شهوانية مؤقته .

• وهي تحكي حكاية طويلة الأمد ، فهو تعلقها طفلاً ويافعاً ، وكبيراً فقد احتلت قلبه ، فهي الحبيبة حتى الممات ، وهي أقصى أمانيه :

لعتبة من قلبي طريف وتالد ... وعتبة لي حتى الممات حبيب

وعتبة أقصى منيتي وأعز من ... عليّ وأشهى من إليه أثوب

غلامية الأعطاف تهتز للصبا ... كما اهتز من ريح الشمال قضيب

تعلقتها طفلاً صغيراً ويافعاً ... كبيراً وها رأسي بها سيشيب

لكن الشاعر يغالي في هذا الحب عندما يتملك عليه دينه أمّا دنياه فإنه يضارع في ذلك عروة بن حزام ، ومجنون ليلى ، وهذا الحب يتجدد مع الأيام خلافاً لسنن الحياة التي تخلق وتخور في كثير من أمور الإنسان ، وهو يتمنى حبها يوم النشور ، ويلهج باسمها ، ويستثيره ذكرها وهو دائم الوسوسة بها وله من حبها جنة ونار ، وله داء قاتل وطبيب .

وصيرتها ديني ودنياي لا أرى ... سوى حبها إني إذا لمصيب

وقد أخلقت أيدي الحوادث جدتي ... وثوب الهوى ضافي الدروع قشيب

سقى عهدها صوب العهاد بجوده ... مُلثٌ كتيار الفرات سكوب

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وليلتنـــا والغـــرب ملـــق جرانـــه ... وعـود الهـوى دانـي القطـوف رطيـب
ونحـــن كأمثـــال الثريـــا يضمنـــا ... رداء علـــى ضيـــق المكـــان رحيـــب
إلى أن تقضـى الليـــل وامتـــدَّ فجـــره ... وعـــاود قلـــبي للفـــراق وجيـــب
فيـــالـيت دهـــري كـــان ليـــلاً جميعـــه ... وإن لم يكـــن لي فيـــه منـــك نصيـــب
أحبـــك حتـــى يبعـــث الله خلقـــه ... ولي منـــك في يـــوم الحســـاب حبيـــب
وأهـــج بالتذكـــار لاسمـــك دائمـــاً ... وإنـــي إذا سُـــميت لي لطـــروب
فلـــو كـــان ذنـــبي أن أديـــم لودكـــم ... حيـــاتي بذكراكـــم فلســـت أتـــوب
إذا حضـرت هـاجت وساوس مهجـتي ... وتـزداد بـي الأشـواق حـين تغيـب
فـــوا أســـفا لا في الدنـــو ولا النـــوى ... أرى عيشـتي يـا عُتـب منـك تطيـب
بقلـبي مـــن حيـــك نـــار وجنـــة ... ولي منـــك داء قـــاتل وطبيـــب
فأنت التي لولالك مـــا بت ساهـــراً ... ولا عاودتنـــي زفـــرة ونحيـب(١)

والقصيدة تمثل فيض الحياة العاطفية ، غير أن الشاعر قبس من مضامين العذريين الأوائل لكنها استلهمت روح العصر و لم يستغرب بها إلا بالاسم أو لعله واقعي ، و لم يفصح عن عواطفه ، و لم ينقلنا نقلاً رمزياً إلى الجزيرة كما هو شأن المقدمات الغزلية .

والشاعر أوجد توازناً بين المضمون والشكل مع تألق الضياء الشعوري ، فلم ترى صنعة تبحث عن الجمال وتميل بنا إلى التأمل فيها ، وإنما جمال الشعار تألق في نقله للأحاسيس الداخلية .

ومن الوجدانيات التي سارت في زمنها ، وتداولها الناس لصدق تجربتها وجمال أسلوبها قول الشاعر المطامري المتوفى ٥٢٠هـ :

ومجدولـــة مثـــل جـــدل العنـــان ... صبـــوت إليهـــا فأصبيتُهـــا
إذا لام في حبهـــا العـــاذلا ... ت ، أســـخطتهن ، وأرضيتُهـــا
كـــأني إذا مـــا نهيـــت الجفـــون ... عـــن الدمـــع بـــالدمع أغريتُهـــا

(١) الكتبي : فوات الوفيات ٢/٤٥٤،٤٥٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فلـــو أنـــني اســـتمد البحـــور دموعـــاً لعيـــني ، أفنيتهـــا
ولو كـان للنفـس غيـر السلـو عنـــك دواء ، لـــداويتهـــا(١)

فهي مقطوعة جميلة .

وللرئيس أبو الفرج المولود ٤٨٢هـ ، مقطوعة شعرية رقيقة :

الوشـــاة ، قـــد صدقـــوا في الـــذي بـــه نطقـــوا
إنـــني ، بكـــم كلـــف مدنـــف الحشـــا ، قلـــق
بنتـــم ، ففـــارقني قلـــبي الشـــجي الفـــرق
والرفيـــق ، بعدكـــم لي الســـهاد والأرق
نـــاظرٌ ، بـــه دفـــع مـــن حشـــا ، بـــه حـــرق
هـــل عليكـــم حـــرج ؟ أو ينـــالكم فـــرق؟
لـــو وصلتـــم كمـــداً قلبـــه بـــه علـــق
فـــاعطفوا علـــى دنـــف مـــا بقـــي بـــه رمـــق(٢)

وأنت ترى أن المقطوعتين السابقتين يمثلان الشعر المطبوع الذي يستجيب لوجيب الوجدان ، ويتدفق من وهجه ، وهي أبيات تصور الهيام واللوعة ، والحوار العذري ، وهما من الأوزان الخفيفة ، وتميزتا بالتقسيم الداخلي الذي يفرض لوناً موسيقياً ، وهما تبتعدان عن الوصف المباشر ، وإنما تقفان عند اللوعة والكمد .

والشاعر ابن دواس القنا له رائعة غزلية يستنطق فيها الطيف بل الجماد ، فالوادي يستجيب لسؤاله ويرثى له حاله .

« أندشني له بـ « واسط » القاضي (عبدالمنعم ، بن مقبل) من قصيدة مشهور له ، يُغني بها :

هل أنت منجزة بالوصل ميعادي؟ أم أنت مشمتةٌ بالهجر حسادي

(١) العماد : الخريدة ، القسم العراقي ١٩٦/٢ .
(٢) المصدر السابق ، الجزء الرابع ٣٧٣/١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سألت طيفك إلماماً ، فضن به ، ولو ألم ، لأروي غلة الصادي
يا ظبية الحيّ ، ما جيدي بمنعطف إلى سواك ، ولا حلي بمنقادي
لولا هواك ، لما استلمعت بارقةً ولا سألت حمام الدوح إسعادي
ولا وقفت على الوادي أسائله بالدمع ، إلا رثى لي ذلك الوادي
رحلتم ، وفؤادي في رحالكم موزع بين إتهام وإنجادي
والله لولم تصيدوا يوم « كاظمة » قلبي ، لما علقتني كف مصطاد
إن تأسروا فذوو عز ومقدرة أو تطلقوا ، فذوو منّ وإرفادي
لا توهنوا زاجرة الحادي بعيسكم فما الفجيعة إلا زجرة الحادي
إذا سمحتم بتقريبي ، ولم تصلوا حبلي ، فسيان تقريبي وإبعادي(١)

ومن الغزل المغنى الذي يمثل التجربة الشعورية ، ويذكرنا بالحب العذري قول شمس الرؤساء المتوفى ٤٤٥هـ .

عاد عيد الهوى بقلبي فأبدى زفرات ، تعيي الحليم الجلدا
ما يريد الهوى ؟ كأن له عند فؤادي المشوم ثأراً وحقدا
أحمد الصدَّ بالوصال ، ولولا لذة الوصل ما حمدت الصَّدا
يا طليق الفؤاد ، حاجة مأسو ر أبي من وثاقه أن يُفدَّى
أين أيامنا بـ « سلع »؟ أعاد الـ ـلّهُ أيامنا بـ « سلع » وردّا
ياها نفحة بـ « ذي البان » يزدا د فؤادي لبردها الدهر وقدا
وليالٍ بجو « ضارح » صَيَّرن عدا لحزني أيّامي البيض رُبدا
لا عدا الغيث من « تهامة » ربعا هام قلبي به غراماً ووجدا
أتمنى « نجداً » ، ومن أين تُعطى ني الليالي بأرض «نعمان» « نجدا »؟
حبذا رفقتي بوادي الأثيلا تِ ، وأظغانهم مع الليل تُحدى
ومناخاً بـ « الأبرقين » توسد تُ بحراته ، فأحسست بردا
وثرى نالت المناسم ، عفر تُ عليه في ساعة البين خدّا

(١) المصدر السابق ، الجزء الرابع ٣٦٢/١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وكأنـــا – لمـــا عقدنـــا يمينـــاً ورهنّـــا رهائنـــاً لـــن تُـــردا –
كان رهني قلـبي لديهـم علـى الـود مقيمـاً ، ورهنهـم طيـف (سُـعدى)
يـا لُواتـي ديـن الغـرام أمـا آ– ن لديـني عليكـم أن يُـؤدَّى ؟
يـا ظبـاءَ الصريـم ، لي فيـك ظـبيٌ صـاد قلـبي يـوم « الغميـم » وصـدّا
لم أكُن عالمـاً ، بـ « وجـره » يومـاً أن غزلانهـا يصـدن الأسـدا(١)

وقصيدة الواسطي هذه تذكرنا بشعر الشريف الرضي ، فهو من أوائل الشعراء المكثرين من غربة أسفارهم ، ولا سيمّا في القصائد الوجدانية لا في مقدمة القصائد ، وهذا النهج نهجه شعراء الصوفية ، فالواسطي ذكر سلع وضارج وتهامة ونجد ، ونعمان ، ووادي الأثيلان والأبرقين ، والغميم ، ووجرة ، وتلك جبال وأقاليم ، وأودية متفرقة في جزيرة العرب ، بعضها في سطها وبعضها في شمالها وبعضها في جنوبها وأخرى في غربها ، مما يشير إلى أن القصيدة رمزية لحالة وجدانية يتلظى بها الشاعر فوارى أماكن بعيدة .

والشاعر أبو القاسم هبة الله بن الفضل من الشعراء المطبوعين ، بغدادي ، توفي عام ٥٥٨هـ قال قصيدة وجدانية غُنيت في زمنها :

يـا مـن هجـرت ولا تبـالي هـل ترجـع دولـة الوصـالي؟
مـا أطمـع – يـا عـذاب قلـبي – أن ينعـم في هـواك بـالي
الطـرف كمـا عهـدت ، بـاك والجسـم ، كمـا تريـن ، بـال
مـا ضـرك أن تعلليـني في الموصـل بموعـد محـال
أهـواك وأنـت حـظ غـيري يـا قـاتلي فمـا احتيـالي
أيـام عنـاي فيـك سـود مـا أشـبههن بالليـالي
والعُـذّلُ فيـك قـد نهونـي عـن حبّـك ، مـا لهـم ومـالي
يـا مـلزمي السـلو عنهـا الصـب أنـت ، وأنـا سـال
والقـول بتركهـا صـواب مـا أحسـنه لـو استوى لي

(١) المصدر السابق ، الجزء الرابع ٣٦٥/١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

في طاعتهـــا بـــلا اختيـــاري قـــد صـــح بعشـــقها اختـــلالي
طلقـــت تجلـــدي ثلاثـــاً والصبـــوة بعـــد في حبـــالي
ذا الحكـــم علـــيّ مـــن قضـــاه من أرخصنـــي لكـــل غـــال(١)

فالقصيدة رائعة في جمال عبارتها ، وخفة ظلها ، وانبثاقها بحوار ذاتي ، فهو نادى محبوبه بصفة الهجر ، وهو البائس الباكي الذابل الشاكي ، ثم عاد إلى التسلية وحلم اليقظة ومخاطبتها ففيه الأنس « ما ضرك أن تعلليني بموعد محال » وهو شأن الشعراء العذريين ألا يستقر لهم قرار عند فكرة وإنما يتلون الشعر بتدافع الخواطر ، فهو يشير إلى عذل العذال ودعوتهم له بالسلوان ، وهو يتمنى ذلك لو استطاع لكنه طلق تجلده ثلاثاً . فحقّ للمغنين أن يتغنوا بها لخفة أوزان ، ومحاكاتها للشعور الداخلي ، ولأنها تبعث الأسى والحسرة التي تشعل الوجدان .

ومن روائع الشعر القصيدة الوجدانية للشاعر أحمد الدبيثي المتوفى ٥٨٨هـ :

يـروم صـبراً وفـرط الوجـد يمنعـه سـلوّةُ ودواعـي الشـوق تردعـه
إذا اسـتبان طريـق الرشـد واضحـة عـن الغـرام فيثنيـه ويرجعـه
محـلأ ذاده عـن عـذب مـورده جـور الزمـان وطـام عـزّ مشـرعه
مشـحونة بـالجوى والشـوق أضلعـه ومفعـم القلـب بـالأحزان مترعـة
تُصْبِيـهِ أن هتفـت ورقـاء ضاحيـة في كـل يـوم لهـا لحـنٌ ترجعـه
تسـنمت مـن غصـون البـان مرتعـداً تخطـه الريـح أحيانـاً وترفعـه
خضبـاء ضافيـة الـربال ناعمـة جنابهـا دمـث الأكنـاف ممرعـة
لا إلفهـا نـازح تنهـلُّ أدمعهـا عليـه وجـداً كمـا تنهـلُّ أدمعـه
عـاثت يـد البـين في قلـبي لتقسـمه على الهـوى وعلـى الذكـرى توزعـه
كأنمـا آلـت الأيـام جـاهدة لمّـا تبـدد شملـي لا تجمعـه
روعـت يـا دهـر قلـبي بالبعـاد وكـم قـد بـات قلـبي ولا شـيء يروعـه
وأنـت يـا بـين قلـبي كـم تذوّقـه مـرّ الأسـى وفـؤادي كـم تجرعـه

(١) العماد الأصبهاني : الخريدة ، القسم العراقي ٢/٢٧٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وكـم مـرام لقلـبي ليـس يبلغـه ... تصـده عنـه أسـباب وتمنعـه
مـن لي بمـن قلبـه قلـبي فأسمعـه ... بثـي فيبسـط مـن عـذري ويوسـعه
قـل الوفـاء فمـا أشـكو إلى أحـد ... إلاّ أكـب علـى قلـبي يقطعـه
يـا خالي القلـب قلـبي حشـوه حـرقٌ ... وهـاجع الليـل ليلـي لسـت أهجعـه
إن خنـت عهـدي فـإني لم أخنـه ، وإن ... ضيعـت ودّي فـإني لا أضيعـه
هـذا مقـام ذليـل عـز نـاصره ... يشكو إليـك ، فهـل شـكواه تنفعـه؟
يلومـه في الهـوى قـوم ومـا علمـوا ... أن الملامـة تغريـه وتولعـه
مـن لا يكـابد فيـه مـا أكـابده ... منـه يوجعـني مـا ليـس يوجعـه
تمر أقوالهـم صفحـاً علـى أذنـي ... مـر الريـاح بسلمـى لا تزعزعـه

كثيرون هم الذين يجردون العصر من الجمال الفني الـذي يستضيء بالشعور مع روعة المضمون وربما يعود بذلك إلى أن القصـائد والأشـعار الـتي طفحـت إلى سطح الأدب من الشعر المختار للبديعيات ، أو المناسبات شعرية ، أو غيرها ، أمـا الذي يغوص في عباب المصادر فإنه يعثر على الـدر الثمـين ومـن ذلـك عينيـة ابـن الدبيثي تلك ، فهذه القصيدة الرائعة تحتـل منزلـة عاليـة في شـعر الوجـدان العربـي لكونها تبلور الموجات البشرية التي تلفحها رياح الهيام والعشق ، والحزن واللوعـة الصادقة ، فالشعر يصور معاناته فهو يطلب الصبر ، والوجد يثـيره ويمنعـه ، ذلـك الذي هيمن على العقل :

يروم صبراً وفـرط الوجـد يمنعـه ... سلـوه ودواعـي الشـوق تردعـه

فالفعل يروم يدل على تكرار الإرادة لكن تيار الوجد يمحو السلو ، ونزعـات الشوق تردعه فالفعل المضارع أيضاً يدل على الصراع القـوي الـذي يقـابل يـروم الصبر ، فجدلية المعارضة تتراءى بين الفعلين المضارعين المتضادين أحدهما في أول البيت والثاني خاتمه .

والشاعر تثير أشجانه وتصبيه تلك الورقاء التي تصدع في الأغصان التي تعبث بها الرياح فكأن الشاعر يصور اضطرابه في الحيـاة بتلـك الورقـاء ، وكأنـه يصـور

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

خفوق جوانحه بحالته تلك :

تصبيه أن هتفت ورقاء ضاحية ... في كل يوم لها لحن ترجعه
تسنمت في غصون البان مرتعدا ... تحطه الريح أحياناً وترفعه
خضباء ضافية السربال ناعمة ... جنابها دمث الأكناف ممرعة
لا إلفها نازح تنهلُّ أدمعها ... عليه وجدا كما تنهلُّ أدمعه

وانظر معي إلى معجمة الوجداني ، فالقلب يكاد يتكرر في كل بيت ، وليس هذا فحسب وإنما يضيفه إلى ضمير المتكلم ويجاوره ألفاظاً لها صداها في القلب مثل روعته التي رد بها عجز البيت على صدره ، والأسى والتجرع ، والبت والتقطيع :

روعت يا دهر قلبي بالبعاد وكم ... قد بات قلبي ولا شيء يروعه
وأنت يا بين قلبي كم تذوقه ... مر الأسى وفؤادي كم تجرعه
وكم مرام لقلبي ليس يبلغه ... تصده عنه أسباب وتمنعه
من لي بمن قلبه قلبي فأسمعه ... بثي فيسط من عذري ويوسعه
قل الوفاء فما أشكو إلى أحد ... إلا أكب على قلبي يقطعه
يا خالي القلب قلبي حشوه حرق ... وهاجع الليل ليلى لست أهجعه

والواقع أن القصيدة تمثل الجدل النفسي والحوار الدائم ، والصراع المتفاوت ، فلا يكاد يخلو بيت من أبياتها من عملية التعارض والتقابل الذي يودي إلى التضاد والتصادم :

من منقذي من يدي من ليس يرحمني ... يقتادني للهوى المردي فأتبعه
آتيه بالصدق من قولي فيدفعه ... ظناً ويكذبه الواشي فيسمعه
لو خفف الثقل عن قلبي وعلله ... بالوعد كنت أمنيه وأطمعه
لكنه صرح الهجران فالتهبت ... نار لتأسف بالأحشاء تسعفه
أقول أسلو فتأتيني بدائعه ... ترى بكل شفيع ليس أدفعه
وليلة زارني فيها على عجل ... والشوق يحفزه والخوف يفزعه

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وبات مستطقاً أوتار مزهره الـ ـفصاح يتبعها طوراً وتتبعه
إذا لوت كفه الملوى سمعت لها وقعاً يلذ على الأسماع موقعه
فبت أنظره بدراً ، وأرشفه خمراً ، وأقطفه ورداً ، وأسمعه
وقام الوجد يبطيه ويعجله ضوء الصباح وأنفاسي تودعه(١)

« قلت : أظنه عارض بهذه القصيدة عينية ابن زريق المشهورة التي أولها :

لا تعذليه فإن العذل يولعه قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه

وجيد هذه أكثر من جيد تلك .

وكانت وفاة ابن الدبيثي بواسط سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى»(٢) .

ومن القصائد الوجدانية عينية راجح بن إسماعيل الحلي المتوفى ٦٢٧هـ يعارض قصيدة ابن زريق :

أخفى الغرام فأبداه توجعه وترجمت عن مصون الحب أدمعه
صب بعيد مرامي الصبر ما برحت تحني على برحاء الشوق أضلعه
به لواعج شوق لو تحملها رضوى لهدته أو كادت تضعضه
ما بات أخيب خلق الله منه سوى مفندٍ ظن أن العذل يخدعه

ما أجمل هذا المطلع فالإرادة عنده التجلد لكنه لم يستطع إخفاء التوجع ، فلما ضاق بعذل العذال والسؤال عن حاله فاضت أدمعه ، ولم يواصل رحلة الصبر الطويلة على الشوق الذي ألهب أضلعه فشوقه لو تحمله جبل رضوى لتضعضع وهُدت أركانه وبعد تلك الأبيات الصادقة التجربة يوجه الخطاب لمحبوبته بنداء يسمها بصفة نابعة من ذات الشاعر فهو الذي تعذب بها فيقول :

يا عذاب قلبي ، وهو يأتي بمعنى فيه دقة فإن الشوق يروع مع ذلك فهو يصاحب صاحبه وكأنه يرعى معه ويعود أن الواشي نابع من الداخل ليس من

(١) الكتبي : فوات الوفيات ١/٦٣، ٦٤ .
(٢) المصدر السابق ١/٦٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الرقيب إنما هو فرط الحنين الذي أمسى يرجعه ثم هو يذكر سعادته بالوصل مع محبوبه .

يا عذّبَ الله قلبي كم يجنّ هوى ... يجني عليه ويرعى من يروعه
وشى عليه بما أخفاه من شجن ... فرط الحنين الذي أمسى يرجعه
وما أعاد الهوى إلا ليخجله ... لمّا توهم أن الصبر ينفعه
واهاً لغر خلا مما يكابده ... مسهد الطرف صب القلب موجعه
ظبي توهم نومي حيلة نُصِبَتْ ... لصيده فهو بالهجران يقطعه
أجرى دماً دمع عيني وهو مورده ... وأسكن النار قلبي وهو مرتعه
ويلاه من شرس الأخلاق يعذب لي ... فيه العذاب ويحلو لي تمنعه
وليلة بتُ أسقى من مراشفه ... سلاف خمر ثناياه تشعشعه
يرنو ويعلم أن الطرف يصرعني ... وقد تيقنت أن السكر يصرعه
حتى إذا أخذت منه الكؤوس ثنى ... إليّ جيداً يغير الظبي أتلعه
وبات قلبي الذي ما زال يؤيسه ... يسمو إلى غاية الآمال مطمعه
ولان بعد شماس كنت أعهده ... منه وأصغى إلى شكواي مسمعه
ولا تسل كيف بت الليل من سهري ... لمّا اطان بعيد النوم مضجعه(١)

والشاعر يتأثر بالطبيعة ويحاكيها ، وتثير كوامنه . كقول ابن عربي (٥٦٠-٦٣٣هـ) ، يقول :

ناحت مطوقة فحن حزين ... وشجاه ترجيع لها وحنين
جرت الدموع من العيون تفجعاً ... لحنينها فكأنهن عيون
طارحتها ثكلى بفقد وحيدها ... والثكل من فقد الوحيد يكون
بي لاعج من حب رملة عالج ... حيث الخيام بها وحيث العين
من كل فاتكة اللحاظ مريضة ... أجفانها لظبا اللحاظ جفون
ما زلت أجرع دمعتي من غلتي ... أخفي الهوى عن عاذلي وأصون

(١) الكتبي : فوات الوفيات ١٤/٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حتى إذا صاح الغراب بينهم ... فضح الفراق صبابة المحزون
وصلوا السرى قطعوا البرى فلعيسهم ... تحت المحامل رنة وأنين
عاينت أسباب المنية عندما ... أرخوا أزمتها وشد وضين
إن الفراق مع الغرام لقاتل ... صعب الغرام مع اللقاء يهون
ما لي عذول في هواها أنها ... معشوقة حسناء حيث تكون(١)

والتجربة الشعرية إذ تلونت بالتفاعل الذاتي ، فإن الشعر يتلاحم معها فتتبلور النفثة الشعورية اللغوية متلاحمة بين المضمون والشكل والشعور مما يظهر فيه الموهبة الصادقة ، وتوظيف التلاعب اللفظي ، بل إنها تقترب مع الشعر الوجداني العربي في فيضه وتدفقه كقول : « محمود بن أحمد بن عبدالله بن داود بن محمد ابن علي الهاشمي الحنفي ، شمس الدين الكوفي ، كان أديباً فاضلاً عالماً شاعراً ظريفاً كيساً دمث الأخلاق . ولي التدريس بالمدرسة التشيشية ، وخطب في جامع السلطان ، ووعظ في باب بدر . توفي في شهور سنة خمس وسبعين وستمائة ، ومولده سنة ثلاث وعشرين وستمائة »:

ملابس الصبر نبليها وتبلينا ... ومدة الهجر نفنيها وتفنينا
شوقاً إلى أوجه متنا بفرقتها ... حزناً وكانت تحيينا فتحيينا
أحزاننا بهم لا تنقضي ولنا ... شوق إلى ساكني يبرين يبرينا
يا دهر قد مسنا من بعدهم حرق ... من الفراق إلى التكفين تكفينا
وعدتنا بالتلاقي ثم تخلفنا ... فكم نرى منك تلويناً وتلوينا
ديارهم درست من بعدما درست ... نفسي بها من تلاقينا تلاقينا
متعت فيها إلى حين فوا أسفا ... إذ عشت حتى رأيت الحين والحينا
كنا جميعاً وكان الدهر يسعدنا ... والكائنات بكأس الأمن تسقينا
فالآن قرت عيون الحاسدين بنا ... بما جرى واشتفت منا أعادينا
فصار يرحمنا من كان يأملنا ... وعاد يبعدنا من كان يدنينا

(١) المصدر السابق ٣/٤٤٠

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وبـات يخذلنـا مـن كـان ينصرنـا وصـار يرخصنـا مـن كـان يغلينـا
واليوم ألطف كـل العالميـن بنـا من عن احبتنـا أضحـى يعزينـا(١)

يظهر أنه يعارض بهذه القصيدة نونية ابن زيدون :

أضحى التنائي بديلاً مـن تدانينـا وناب عن طيـب لقيانـا تجافينـا

وصف الكنائس والراهبات :

والشعراء في هذه الحقبة الزمنية تأثروا بالإفرنجة ، فهم يفدون إلى مدنهم ، ويسيرون في طرقاتهم ، ويرون السفور عند نسائهم ، واعجبوا بالراهبات ، والقائمات على خدمة الكنيسة ، ورأوا الشعور المسترسلة ، والنحور الوضاحة ، والعيون الزرق مما أغرى كثيراً من الشباب ، وهيمن على لب بعض الشعراء ، ومن أوائل أولئك الشاعر القيسراني (٤٧٨-٥٤٨هـ) فقد زار أنطاكية والرها ، وفاضت قريحته بتجاربه الوجدانية في شعر رقيق لطيف كون ديوانه (الثغريات) وهو نسبة للثغور النسائية ، وربما أوحى له بذلك الثغور الحربية لأن أنطاكية والرها من الثغور الحربية ، وهما ميدان تغزله ، وقد جرت هذه في تآليف المؤلفين مما جعلني أتجاوزها إلى غيرها . ومنهم الشاعر عون الدين العجمي المتوفى ٦٥٦هـ، يبعث بآهاته إلى بلاد الشام ليبلغ (دير مرّان) ويشير إلى الحور في الأديرة والكنائس :

يـا سـائقاً يقطـع البيـداء معتسـفاً بضـامر لم يكـن في سـيره وانـي
إن جزت بالشام شم تلك البروق ولا تعدل - بلغت المنى - عن دير مران
واقصـد عـلالي قلاليـة تـلاق بهـا ما تشتهي النفس من حـور وولـدان
مـن كـل بيضـاء هيفـاء القـوام إذا ماسـت في خجلـة المـران والبـان
وكـل أسمـر قـد دان الجمـال لـه وكمـل الحسـن فيـه فـرط إحسـان
ورب صـدغ بـدا في الخـد مرسـله في فـترة فتنـت مـن سـحر أجفـان

(١) المصدر السابق ٤/١٠٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فليـــت ريقتـــه وِردي ووجنتـــه وَردي ومن صدغـه آســي وريحانــي

ثم يأمر بالتعريج على دير متى ثم حي الربان بطرس ، ويعبر إلى دير حنينا ويستمطر الملذات عند القساوسة والمطران ، ويستمر في وصف الشرب والالتذاذ بمعالم الجمال والأنس في ربوع الفرنجة :

وعرج على دير متى ثم حي به الـ ـربـــان بطـــرس ، فاربـــان ربّـــاني
فهمـت منـه إشـارات فهمـت بهـا وصنـت منشـورها في طـي كتمـاني
واعبر بدير حنينـا وانتهـز فـرص ال ـملـذات مـا بـين قسـيس ومطـران
واستجل راحا بهـا تحيـا النفـوس إذا دارت بـــراح شمـــاميس ورهبـــان
حمراء صفراء بعد المزج كم قذفت بشـهبها مـن همومـي كـل شـيطان
كم رحت في الليـل أسـقيها وأشـربها حتـى انقضـى ونديمـي غـير نـدمـان
سألت توماس عن من كان عاصرها أجـاب رمـــزاً ولم يســـمح بتبيـــان
وقـــال : أخـــبرني شمعـــون ينقلـــه عن ابن مريم عن موسى بن عمران
بأنهـا ســفرت بـالطور مشــرقة أنوارهـــا فكنـــوا عنهـــا بنـــيران
وهـي المـدام الـتي كـانت معتقـة من عهد هرمس من قبل ابن كنعان
وهـي الـتي عبدتهـا فـارس فكنـى عنها بشمس الضحى في قومـه مـاني
سكرت منها فلا صحو وجدت بها على النداما وليس الشح من شأني
وسـوف أمنحهـا أهـلاً وأنشـده مـا قيـل فيهـا بـترجيع وألحـان
حتـى تميـل لهـا أعطافـه طربـاً وينتشي الكون من أوصاف نشوان
خير الملوك صلاح الـدين ليـس لـه في الجود ثانٍ ولا عن جـوده ثانـي[1]

الشعراء الأوائل عرجوا على الديارات ، وحانت الخمر لليهود والنصارى ، وهم يعبون الخمر ، وينادمون الساقي أو الساقية غلاما فرداً أو امرأة واحدة ويماجنونهم ، وقد تكاثر في الشعر العربي ، فالذي يعود إلى ديوان أبي نواس يجد مساحة كبيرة تحوي شعره في الخمر والغزل ، ويدور في جله في الديارات أو

(١) الكتبي : فوات الوفيات ٢/٦٧، ٦٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حوانيت الخمر . ولم أجد له ولوجاً إلى كنيسة من الكنائس ، وكذلك الشعراء الذين نهجو على شاكلته فإنهم وقفوا عند الخمر وجمال الساقي أو الساقية والعبث بهما ، ويظهر ذلك كثير في كتاب « الديارات » فإنه ذكر كنائس لكن لم أجد وصفاً لها ولا للراهبات أما القيسراني فإنه اقتدى بأبي نواس في بناء الشعر وبعض الأوصاف غير أنه وقف على الكنائس متأملاً للراهبات ، والصور على الجدران ، مستنطقاً لهما ومحادثاً تارة حتى ران على قلبه الوجد والهيام مما جعله يضيف جديداً في ثغرياته :

١- الهيام العاطفي والعشق الغامر ، والإعجاب الشديد نتيجة الانبهار بالجمال ، وذلك لا لمجرد الشهوة ونزوتها العابرة ، وإنما لعلوق بالقلب .

٢ - وصف الكنائس والراهبات وألبستهن ، وجمالهن ، ويتضح هذا اللون الجديد في تغريات القيسراني في قوله :

واحربا في الثغور من بلد ... يضحك حسناً كأنه ثغر
به قصور كأنهما بيع ... ناطقة من خلالها الصور
ألات طاقاتهن آهلة ... يبسم عن كل هالة قمر
سوافر كملا شعرن بنا ... برقعهن الحياء والخفر
من كل وجه كأن صورته ... بدر ولكن ليله شعر
سرت وخلفت في ديارهم ... قلباً تمنيت أنه بصر
ولم أزل أغبط المقيم بهم ... للقرب حتى غبطت من أسروا(١)

فهو يقف وقفة العاشق الهيمان الذي أخذ لبه وعقله جمال الفتيات المبرقعات الذي يجللهن الحياء ، والخفر ولم يكن ماجناً عابثاً مستهتراً .

وهو يقف عند طقوس العابدات وألبستهن التي تفرضها الكنيسة ، وقد أظهرت جمالهن وروعتهن يقول :

(١) صدى الغزو الصليبي في شعر القيسراني ٩٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كم بالكنائس من مبتلة ... مثل المهاة يزينها الخفر
من كل ساجدة لصورتها ... لو أصقت سجدت لها الصور
قديسة في حل عاتقها ... طول وفي زنارها قصر
غرس الحياء بصحن وجنتها ... ورداً سقى أغصانه النظر
وتكلمت فيها الجفون فلو ... حاورتها لأجابك الحور
وجلت مدارعها غدائرها ... فأراك ضعفي ليلة قمر(١)

والغزل في شبه الجزيرة العربية يغلب عليه الاتجاه العذري الذي يكشف عن اللواعج الذاتية ، ويتسم بالأنين والحنين لفراق المعشوقة ، وربما داخل بعض السمات القبلية التي تعتمد على الصراع القبلي من القتال والنهب ، وهم في غزلهم إنما يحكون واقعاً ، فهم يقطعون الفيافي على جسرة من الإبل ، وهم يشيرون إلى الزناد وسيلة إشعال النار في المفاوز ، وإلى الارتحال والفراق ، وأنت تقرأ قصائدهم تجد الفارق بين ذلك الشعر الواقعي في غزله ومسمياته وشعر الاغتراب في غزله وسرد الأسماء والأماكن والبروق بلا معايشة واقعة من الشاعر وأقرأ معي أبيات أبي علي محمد بن حسان .

وتنوفةٌ مجهولة جوف القطا ... فيها يجار إذا أراد ورودا
قطعت مناكبها مناكب جسرة ... جسرت فصيرت الجبال صعيدا
ولطالما رفّهتها بمؤدب ... في الجري يأنف أن يرى مكدودا
متمرد في الركض لا تستطيعه ... فخذاك إلا أن تكون مريدا
يغنيك عن حمل الزناد بأربع ... تطس الصفا فترى لهن وقودا
ومساير حلو الحديث إذا انتشى ... فيه ظننت حديثه تغريدا
يمتارني ما يشتهي ويميرني ... منه حديثاً تارة ونشيدا
هذا وبادية حللنا فيهم ... لا طالبين قرى ولا تزويدا
نحروا لنا الخيل الإناث وأصبحوا ... رجلي وكانت عُدةً وعديدا

(١) المصدر السابق ٩٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وكريمة من قومها استنقذتها ... والطعن يخرق لبةً ووريدا
أصحبتها كلتا يدي وما رأت ... عيناي منها معصماً ونهودا
وضممت هودجها وقلت لصاحبي: ... سر بيننا حتى تكون شهيدا
ما كنت في هذي العشيرة كلها ... مذ كنت إلا واحداً ووحيدا(١)

فأنت تراه في آخر الأبيات يشير إلى حادثة مخصوصة ، وتخللها النهب والسلب وأخذ الضعينة ، وهي المرأة تمتطي راحلتها .

وشعر الغزل تأتي عند شعراء شبه الجزيرة على شاكلة مقطوعات قصيرة تمثل النبضات الشعورية ، وقل أن يكون في مقدمة قصائد ، ومن ذلك .

سقيا لأيام التصابي ... مع كل خرعبة كعاب
إذ نحن نرتع في الهوى ... ونجر أردية الشباب
والدهر عنا غافل ... كالسيف يومن في القراب
فاتنهزوا فرص المنى ... فالعمر يركض كالسحاب(٢)

والشاعر أبو كامل الطائي ، يقف بنا وقفة عند الحل والارتحال عند البادية ، وأثرها في علاقة الفتيان والفتيات ، فهم يجتمعون ثم يفترقون ، فتكون الحسرة والندامة عند المتألفين ، فهذه أبيات يصور فيها حاله حين أزمعت جارته الفراق وهو يتمنى نظرة وداع ووقفة تحية وإشارة :

ودعينا إن كنت أزمعت جاره ... قبل أن يمنع الفرقا الزياره
زودي وامقاً أجد ارتحالا ... ما قضى في مقامه أو طاره
[مغرماً ما علمت يا أم عمرو ... أين صار الهوى به يوم صاره]
لم يزل يحذر التفرق حتى ... حققوا يوم رامتين حذاره
كان يكفيه ، والمحب قنوع ... وقفة أو تحية أو إشارة
منظر ما رأيته قط إلا ... قلت : بدر لمته وسط داره

(١) الباحرزي : دمية القصر ٩٢/١ .
(٢) المصدر السابق ٩٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كـاعب في الحجـاب يمنعهـا الـزور حيـاء يصونهـا وغـراره
ذات ثغر كأنـه ، حيـن يبـدو عقـد در أو أقحـوان قـراره(١)

وشعر الوجد يتخذ هذه الشاكلة عند شعراء القبائل والأمراء العرب في الحجاز واليمن وشعراء الأمراء الأسديين ، والأمراء العقيليين قرب الموصل .

وشعر شبه الجزيرة يخلو من الغزل بالمذكر ، بل يخول من الغزل الماجن الفاحش ، ويجتنب الصدارة المبتذلة ، والألفاظ الساقطة .

الغزل بالمذكر :

ومن مظاهر الغزل بالمذكر أن يذكر المولفون قصة غرامية لتعلق أحد المشاهير، أو من لهم إلمام بالعلم أو الشعر ، أو يشيرون إلى المتصوفة في زواياهم وتكاياهم ، أولئك الذين يغلب عليهم الشوق والوجد والهيام ، ويذكرون في أشعارهم الحديث عن المحبوب ويندفعون في ذكر السمات النفسية ولولا الإشارات إلى اسم المملوك أو إشارة العذار لاستطعنا تأويله إلى المحبوب .

وأما حديث أصحاب اللهو والمجون عن الغزل بالمذكر ففيه من الفحش وألفاظ البذاءة والمجاهرة الشيء الكثير . ويكثر في مجالسهم ومنتدياتهم وحديثهم إلى بعضهم ، ويكون في مقطعات شعرية لكنه يغزو القصيدة فيحتل مقدمتها لا سيما عن أولئك الشعراء الذين لم يرتقوا إلى مدح الطبقة العليا من الحكام كنور الدين وصلاح الدين ، وإنما أخذوا يمدحون بعض الولاة وصغار الأمراء كمثل فتيان الشاغوري .

وهناك شعراء أكثروا منه في دواوينهم بل احتل مساحة كبيرة منها كديوان تاج الملوك بوري .

والغزل بالمذكر أصبح أمراً مألوفاً عند المولفين ، فهم لا يتورعون عن نقله

(١) المصدر السابق ١/٦٥.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ونقل أحداثه وذكر ذلك في ترجمات بعض المشاهير حتى من العلماء ، وهم إما يذكرون القصص حول ذلك أو يوردون أشعاراً لهم ومن أشهر المؤلفين العماد الأصفهاني في خريدة القصر وجريدة العصر ، والقاضي ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان والصفدي في كتابه الوافي بالوفيات ، وأكثر منه الكتبي في كتابه فوات الوفيات وأورد منه ياقوت الحموي في معجم الأدباء .

وكان من الخير أن تتنزه الكتب عن مثل هذا اللون حتى لا تشيع الفاحشة ، ولا يشجع الشعراء في هذا اللون بل إن بعض الشعراء ذكر أنه أورده في شعره ليكون له سيرورة وقبولاً عند الناس . ومما يشار إلى العصر الحاضر أن المؤلفين نزهوا كتبهم عنه ، أما جامعو الدواوين فحاولوا التعويض عنه بنقط أو جمعوا تلك الأشعار في مؤخرة الديوان كما هو في ديوان ابن سناء الملك .

والغزل بالمذكر جر أذياله على بعض الشرائح الاجتماعية نتيجة امتزاج بعض الشعوب مع العرب ونتيجة للبعد عن الأوطان وامتلاك الناس للرقيق الذين منحهم الله جمالاً .

وأيضاً ما زاد من المجاهرة به حضوره في شعر المجان والفساق كأبي نواس ومن شاكله ، وأما في القرون المتزامنة مع الحروب الصليبية ، فإن كون الجند من الأتراك ويربون للواء للسلطان وحسب ، ويُعزلون في قلاع ومعسكرات خاصة للجند أغواهم الشيطان بذلك ، وأيضاً لكثرة الرقيق من الأتراك ذوي الجمال وحضورهم مجالس الفساق ، ولنعلم أن الكثير من القصص تدل على أن الشعراء لا يتحرجون في إظهار وساوس الشيطان لهم بالفتنة بالغلمان وإن لم يمارسوها بل يظهر الكثير منهم الثقة في بعد أولئك عن الفاحشة كما يشيرون إلى هيام بعض الفضلاء بأبناء بعض الأمراء ، أو بعض طلبة العلم وغير ذلك . وأنا بهذا أتحدث عن واقع لا أبرره ولا أزعم أنه حجة لهم بل إن مثل ذلك حجة واهية فيحسب ستره والاستعاذة بالله منه كيما لا تشيع الفاحشة .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وانظر إلى الشاعر ابن الصفار الماردِيني المقتول ٦٥٨هـ كيف يصف فرويسة الأتراك لكنه لم يتفلت من جانب فتنتهم وجمالهم :

تبدت لنا عند الصباح طليعة ... من الترك مرد فوق جرد سلاهب
بأيديهم سمر طوال كأنما ... أسنتها تبغي التقاط الكواكب
تثور غضوناً في السروج وأطلقوا ... سهام لحاظ من قسي الحواجب
وألقوا القنا المران عنهم وقوموا ... قدودا أعدوها لقرع الكتائب
ولو كشفوا بيض العوارض في الوغى ... لأغنتهم عن سل بيض القواضب
ترى كل عين منهم عين فتنة ... تنادي أسود الحرب : هل من محارب؟
فظلت موالينا أسارى محاسن ... من القوم صرعى لا أسارى المضارب
فما ملك إلا أسير لمالك ... ولا حاجب إلا أسير لحاجب(١)

ورغم تمنعهم بالحديث عن جمال المحبوب وفتنته وولههم له ، فإنهم يلوذون بالعفاف وإعلانه في نهاية مقطوعاتهم الغزلية كقول كمال الدين بن العديم (٥٨٩-٦٦٦هـ) :

وأهيف معسول المراشف خلته ... وفي وجنتيه للمدامة عاصر
يسيل إلى فيه اللذيذ مدامة ... رحيقاً وقد مرت عليه الأعاصر
فيسكر منه عند ذاك قوامه ... فيهتز تيهاً والعيون فواتر
كأن أمير النوم يهوى جفونه ... إذا هم رفعا خالفته المحاجر
كذلك أحلى الحب ما كان فرجه ... عفيفاً ووصلاً لم تشبه الجرائر(٢)

ومن المضامين الجديدة الإشارة إلى المحبوب التركي كما يقول ابن النبيه المصري في مقدمة قصيدة يمتدح بها الأشرف :

الله أكبر ليس الحسن في العرب ... كم تحت كمة ذا التركي من عجب
صبح الجبين بليل الشعر منعقد ... والخد يجمع بين الماء واللهب

(١) الكتبي : فوات الوفيات ٣/١٢٠ .
(٢) الكتبي : فوات الوفيات ٣/١٢٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تنفست عن عبير الرياح ريقته وافتر مبسمه الشهدي عن حبب(١)

والشعراء يمتدحون القادة الأفذاذ لكنهم يتأون عن الغزل بالمذكر ويظهر لنا ذلك في ديوان ابن النبيه المصري فهو يمتدح الخليفة العباسي الناصر(٢) فيباشر الموضوع ، ولما يمدح الملك العادل سيف الدين أبابكر بن أيوب يستهل بمقدمة في وصف السفن(٣)، ولكن لما يمدح الأشرف موسى فإنه يستهل جل قصائده بوصف الأتراك بل إن ابن النبيه يمازج بين الغزل والمدح للأشرف كما في رائيته(٤) ومنه قوله :

غزلي له ومدائحي وقف لمولانا مقرر
الأشرف الطلق الندى شاه أرمن موسى المظفر(٥)

ومن الأعذار التي يوردها الشعراء لغزلهم بالمذكر ، ما يذكرونه للحبيب فربما يكون المقصود المرأة . وحقاً أنهم لم يقتربوا من ممارسة الفاحشة بل يظهرون عفافهم ومن ذلك شعر صفوان ابن إدريس المتوفى ٥٩٨هـ وكان « فصيحاً جليل القدر ، له رسائل بليغة ، وكان من الفضل والدين بمكان ، توفي وله سبع وثلاثون سنة ، رحمه الله تعالى .

ومن تصانيفه كتاب « بداهة المتحفز وعجالة المتوفز » وكتاب « زاد المسافر» الذي عارضه ابن الأبار بكتاب « تحفة القادم » ومات معتبطاً و لم يبلغ الأربعين ، وتولى أبوه الصلاة عليه » ومن شعره :

يا حسنهُ والحسن بعض صفاته والسحر مقصور على حركاته
بدر لو أن البدر قيل له اقترح أملاً لقال أكون من هالاته

(١) الديوان .
(٢) انظر : الديوان ٨٣، ١٠٠ .
(٣) المصدر السابق ١١٠ .
(٤) المصدر السابق ٢٦١ .
(٥) المصدر السابق ٢٦٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والخـــال ينقـــط في صحيفـــة خـــده ... مـــا خـــط حـــبر الصـــدغ مـــن نوناتـــه
وإذا هـــلال الأفـــق قـــابل وجهـــه ... أبصرتـــــه كالشـــــكل في مرآتـــــه
عبـــث بقلـــب محبـــه لحظاتـــــه ... يـــارب لا تعتـــب علـــى لحظاتـــه
ركـــب المـــآثم في انتهـــاب نفوســـنا ... فـــا لله يجعلهـــن مـــن حســـناته
مـــا زلـــت أخطـــب للزمـــان وصالـــه ... حتـــى دنـــا والبعـــد مـــن عاداتـــه
فغفـــرت ذنـــب الدهـــر منـــه بليلـــة ... غطـــت علـــى مـــا كـــان مـــن زلاتـــه
غفـــل الرقيـــب فنلـــت منـــه نظـــرة ... ياليتـــــه لـــــو دام في غفلاتـــــه
بتنـــا نشعشـــع والعفـــاف نديمنـــا ... خمريـــن مـــن غـــزلي ومـــن كلماتـــه
وأبى عفـــــا في أن يقبـــــل ثغـــره ... والقلب مطـوي علـــى جمراتـــــه(١)

فالشاعر لم يأت بأوصاف ترجح جانب المؤنث أو جانب المذكر ، ويكون عود الضمير على المحبوب ، ثم أعلن عفافه عن ثغر محبوبه .

* والمؤلفون دأبوا على الاستغفار لهم قبل إيراد القصيدة كقولهم غفر الله له. وعفا عنه ، كما في ديوان تاج الملوك بوري ، وشرف الدين الأنصاري ، والشاب الظريف .

وهم أيضاً يستغفرون الله عند إيراد هذا اللون كما يشير الكتبي عند إيراده القصيدة الزائية لابن منير التي مطلعها :

لائمي قد ســـددت بـــاب التعـــزي ... كل لـوم في لوعتـــي غيـــر مجـــز

فقد قال : « وأنا أستغفر الله تعالى من كتابتها » ومحقق الديوان يستغفر الله « وأقول أنا خادم العلم عمر تدمري ، أستغفر الله العظيم من كتابتها وسامح الله ابن منير »(٢) .

وأهل العلم والخير يستنكرون هذا اللون ، ويحذرون منه ، وأشار إلى ذلك الانطاكي ، ومما رواه عن أهل العلم قوله :

---

(١) الكتبي : فوات الوفيات ٢/١١٨ .

(٢) ديوان ابن منير ١٤٩ ، تحقيق ، د . عمر تدمري .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

« عن الخدري قال رأيت إبليس في النوم فقلت له تعال . فقال لا حاجة لي بمن رمى الدنيا وإن لي فيكم لطيفة فقلت وما هي ؟ قال بمجالسة الأحداث فأخذت العصا لأضربه قال أنا لا تخوفني العصا وإنما يخوفني نور القلب .

وعن الموصلي قال نهاني ثلاثون من الأبدال عن صحبة الأحداث وعن بعضهم قال نظرت إلى شاب جميل ، فقلت أيعذب الله هذه الصورة ، فقال لي أستاذي أو رأيته سوف ترى غبها ، فأنسيت القرآن بعد عشرين سنة والآثار في هذا المعنى كثيرة و لله در من قال في المتصفين بهذا الشأن من هذا الزمان »(١) :

فإن لم تكونوا قوم لوط حقيقة ... فما قوم لوط منكم ببعيد
وإنهم في الخسف ينتظرونكم ... على مورد من جهلكم وصديد
يقولون لا أهلاً ولا مرحباً بكم ... ألم يتقدم ربكم بوعيد
فقالوا بلى لكنكم قد سننتم ... صراطاً لنا في الفسق غير حميد
أتينا به الذكران من عشقنا بهم ... فأوردنا ذا العشق شر ورود
فأنتم بتضعيف العذاب أحق من ... يتابعكم في ذاك غير رشيد
فقالوا وأنتم رسلكم أنذرتكم ... بما قد لقيناه بصدق ووعيد
فما لكم فضل علينا فكلنا ... نذوق عذاب الهون غير مزيد
كما كلنا قد ذاق لذة وصلهم ... ويجمعنا في النار غير بعيد(٢)

ونتيجة ذلك أن الشعر الوجداني له توجهات عديدة :

فقد تواصل الشعر الوجداني العذري الذي يضارع سائر الشعراء في العصور السالفة ، فهو يفيض بالأحاسيس ، والأنين والحسرة ، ولوعة الشوق ، ناجم عن حكايات صادقة ، وهذا الشعر متناثر في دواوين الشعر بقصائد قليلة ، غير أنه يكثر عن بعضهم لكنه لا يمثل الديوان الكامل إلا عند شعراء الصوفية فإن ديوان ابن عربي وديوان ابن الفارض يماثلان ديوان جميل بثينة وكثير عزة لولا أن ابن

(١) تزيين الأسواق في أخبار العشاق ٣٣٢ .
(٢) المصدر السابق ٣٣٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عربي وابن الفارض جنحا بشعرهما إلى التأويل الصوفي ، ومن هنا فإن غزارة هذا اللون تماثل أو تزيد على أكثر العصور السالفة ، وجمال هذا الشعر واكتمال عناصره من بروعة المضمون وتدفق الشعور ، وجمال العبارة بعيداً عن الصنعة أو التكلف كل ذلك يؤهل شعر هذا العصر كيما يشرق ضمن أضواء الفن في العصور الإسلامية .

ويلتحق بهذا شعراء الطبع في الجزيرة الذين مالوا إلى الفطرة ولاسيما الأمراء الهاشميين في الحجاز ، وأمراء الدولة الأسدية ، والعقيلية فإن شعر هؤلاء يحمل شدة الوجد وجمال العبارة .

وكذلك شعراء الوجدان في العواصم كمثل تاج الملوك يوري ، والشاب الظريف ، وأشهر الشعراء في هذا الملك الأمجد فإن له ديوان كبير الحجم ، غزير القصائد وجلها في الغزل العذري الذي يفيض بتجربة وجدانية غير أنها تميل للرمز ولولا بعده عن التصوف لكان على شاكلتهم .

وهناك الشعر الماجن وهو كثير جداً في الدواوين ويظهر عند ابن منير الطرابلسي وعرقلة الكلبي وابن سناء الملك ، وابن عنين ، هؤلاء لا يدخل ضمن الموازنة مع العصور الأخرى التي ذكرت غير أنه يوازن مع نظائره من الشعر والشعراء .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الباب الثالث

الاتجاهـــات الفنيـــة

- الفصل الأول : المحافظ .
- الفصل الثاني : الطبع .
- الفصل الثالث : التجديد .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الفصل الأول

الاتجـــاه المحافـــظ

- تمهيد .
- الشعراء المحترفون .
- هيمنة القديم .
- خصائص عامة :
  - الخطابية .
  - الأسلوب الموضوعي .
  - الذاتية .
  - موقف المحترفين من التجانس .
  - التقابل .
  - أعلام المحترفين .
  - النتيجة .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تمهيد :

اتسعت دوائر الفن الشعري اتساع الرقعة الإسلامية ، وتعددت مكوناته ومؤثراته تعدد العواصم الإسلامية ، واختلفت صبغاته باختلاف بيئاته في العراق وخراسان ، والشام ومصر والجزيرة ، والتنافس في مرحلة الحروب الصليبية كان بين بيئات هي بيئات : العراق ، والشام ، ومصر . ولكل منها خصائصها ، فالعراق موطن الخلافة العباسية العريقة ، وموطن التراكم الثقافي العربي الإسلامي، ومنبت الشعراء ، ومرتادهم من الأقاليم الأخرى ، وفيه عواصم الثقافة الأولى ، البصرة والكوفة وبغداد .

فتألق الثراء الفكري واللغوي في القرن الخامس لكن في مستهل القرن السادس خبا الوهج الفكري وأكثروا من ألوان التجديد والعبث الشكلي ، فكان مصدراً للمقامات ولا سيما مقامات الحريري ذات الأشكال الفنية ، الشعري منها والنثري .

فنظراً للركود الحركي الفكري والاجتماعي والاضطراب السياسي ضحل المضمون في شعر المدح واتخذت القصيدة مسارب متعددة ليكتمل الشكل الخطابي الذي ظلت دواعيه قائمة عند الخلفاء والوزراء .

وبيئة الشام تعددت فيها العواصم الأدبية في حلب ودمشق ، وعند الأمراء العرب مثل آل منقذ في شيزر وآل عمار في طرابلس ، وهي في مواجهة الصدام مع الروم ومع الفرنجة ، فتأثرت بهذا الاتجاه فكانت موطناً للشعر الحماسي ، وإن وظف المدح في ذلك كثيراً مما أشغلهم عن العبث اللفظي كالتلاعب بالحروف أو الألفاظ .

أما بيئة مصر فإنها تأثرت بالخلافة العبيدية في المبالغة والغلو في المدائح ، وأيضاً تأثرت بالرقة الحضارية التي ظهرت في شعر ابن سناء الملك ، وغيره إلى

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

جانب تأثرها بالحروب الصليبية .

ويلحظ القارئ أنني استخدمت مصطلحات عامه أعرض للإيضاح منها :

الشعراء المحترفون المقلدون : وهم الشعراء الذين مارسوا الشعر وأخلصوا له، وكان مصدر جاههم ومالهم ، وقد نهجوا نهج الأوائل في بناء القصائد ، والشكل الفني في حل أشعارهم .

المطبوعون : وهم الذين ينثال إليهم الشعر لتجاربهم الخاصة .

التجانس : ويشمل على التكرار والاشتقاق ، والجناس البلاغي .

التقابل : ويشمل الطباق والمقابلة .

ومن الخير أن أنوه أن الحد بين الشاعر وهذه الاتجاهات ليس حداً فيصلياً وإنما هي غلبة وكثرة . فكثير ما نجد أن ديوان الشاعر تتبلور فيه هذه الاتجاهات جميعاً .

والشعر المحافظ أو التقليدي ذلكم الذي نهج نهج النموذج السلف ؛ فحافظوا على التوازن والاعتدال في الظواهر الفنية فلم يلحوا على إحداها دون الأخرى ، ولم تكن الظواهر هاجساً لهم وإنما يأتون بها عفواً بلا تكلف ، والتقليد أيضاً يعني أنهم ساروا على عمود الشعر العربي للقرون السالفة كالبناء الفني للقصيدة ، وهم أولئك الذين استمدوا صورهم من التكوين الذهني المستمد من التراث العربي : وقد عني بهذا اللون الشعراء المحترفون المقلدون .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشعراء المحترفون المقلدون

فالتقليد هو : « تطبيق المبادئ والتقاليد النافذة في الأدب »(١) ، مع بروز الأصالة للشاعر التي تتمثل في أسلوبه المنفرد بذاته ، مع المحافظة على المبادئ . ومنهج الأوائل وهم الذين يشتركون مع سائر الشعراء في الموهبة ، والقدرة وانثيال الشعر عند التجربة لكن المحترفين هم الذين يجعلون من الشعر مهنة يمتهنونها ، ووسيلة يرتقون بها للجاه والمال ، وقد رزقهم الله موهبة ، ونهلوا حفظاً ، ومارسوا دربة، ثم تواصلت مسيرتهم بالتجارب والاستزادة من مظان النماء والتطوير لتكوين شاعريتهم ونبوغهم .

ولم يجدوا سبيلاً للارتقاء بشعرهم ، أفضل من التبصر فيه ، وتنقيته ، وتنقيحه فأخذوا يضيفون إلى التجربة والموهبة التراكم المعرفي من فكري وفني ، فرصعوا شعرهم بمعالم الجمال ليأخذ بالألباب ويجمع بين عناصر المنفعة والمتعة .

وقد تنبه الأصمعي من قبل إلى هذا التثقيف والتمحيص فقال : « زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر) ، وكذلك كلّ من جود شعره ووقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر ، حتى تخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة ، وكان يقال : لولا أن الشعر قد كان استعبدهم واستفرغ مجهودهم – حتى أدخلهم في باب التكلف ، وأصحاب الصنعة ، ومن يلتمس قهر الكلام ، واغتصاب الألفاظ ، لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعاني سهواً ورهواً ، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالاً »(٢) .

وعندي أن الشعراء المحترفين يمرون بمرحلة المطبوعين الذين تأتيهم المعاني سهواً ورهواً ، وتنثال عليهم انثيالاً ، لكنهم يزيدون طلباً للكمال ، واستزادة

---

(١) جبور عبدالنور ، المعجم الأدبي ٧٦ .

(٢) الجاحظ : البيان التبيين ١٣/٢ ، ابن قتيبه ، الشعر والشعراء ٧٨/١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

للجمال ، وطرداً للعيوب ، وتنسيقاً للبناء ، وتشييداً للتركيب ، ودعماً للدلالة ويقول عنهم الجاحظ : « ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريتاً ، وزمناً طويلاً يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقلب فيها رأيه، اتهاماً لعقله ، وتتبعاً على نفسه ، فيجعل عقله زماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفاقاً على أدبه ، وإحرازاً لما خوّله الله من نعمته .

وكانوا يسمون تلك القصائد : الحوليات ، والمقلدات ، والمنقحات ، والمحكمات ، ليصير قائلها فحلاً صنديداً مفلقاً »(١) وأميل إلى القول : إن الصنعة الشعرية تماثل الصنعة التقنية ، فإذا كان الصانع في المهنة خبيراً مدرباً معتمداً على العلم والمعرفة والتجربة ، فإن صناعته تخرج متكاملة يظهر جمالها في اكتمال جوانبها ، فإذا كان الشاعر يمتلك الموهبة والتكوين الذهني ، والممارسة أفلا يكون من الخير أن يجيل النظر ليشيد البناء ويكون صرحاً ممرداً ؟!.

والأقدمون يسمون ذلك تكلفاً : « ومن الشعراء المتكلِف والمطبوع ؛ فالمتكلِف هو الذي قوّم بالثقافة ، ونقحه بطول التفتيش ، وأعاد فيه النظر كزهير والحطيئة »(٢) .

وأرى أن التكلف يتأتى ممن لا موهبة له ولا خبرة ، فهو إنما يقتحم الشعر اقتحاماً ، أما أولئك فقد اكتملت لديهم عناصر تكوين الشاعرية ، فهم يأخذون به إلى الأفضل . وكثير من الشعراء المحترفين المتزامنين مع الحروب الصليبية ، ينقحون الشعر ويطيلون النظر في بنيته ، وتراكيبه ، وسياقاته ، وجمالياته .

---

(١) البيان والتبين ٩/٢ ، الطبعة الرابعة .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٧٨/١ ، دار المعارف بمصر ١٩٦٦م .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هيمنة القديم :

الذي يمحص الشعر في تلك الفترة يكشف بجلاء هيمنة التقاليد الموضوعية والفنية للشعر القديم ولا سيما العصر العباسي على شعر المحافظين في عصور الحروب الصليبية . فإن ذلك الباحث يستنبط السمات الراسخة في ذهنه عن العصور الأدبية السالفة . ويلمح تلك الوشائج القوية التي تمتد بين هذا الشعر وذاك ، بل نرى معالم الشعر القديم بزواياه المتعددة .

فالشاعر يجول في الأغراض التي جرى عليها الأوائل من الشعراء وحدد معالمها النقاد مثل المدح والغزل ، والرثاء والهجاء ، والعتاب .

فأغلب الدواوين متعددة الموضوعات ، كالأرجاني ، وابن الخياط ، وعمارة اليمني ، وابن منير ، والقيسراني ، بل إن أسامة بن منقذ صنف ديوانه على هذه الأغراض وزاد على ذلك تشطيره لكل قصيدة ، فوزعه على عدد من الموضوعات(١) . والذي رسخ تلك الموضوعات تسلط القديم بحفظه ، وعلو مكانته ، ومساندة النقد له ، فالشاعر يحكم له بتعدد أغراضه .

وهم صنفوا الشعراء ولقبوهم بألقاب أو أسماء السابقين من فحول الشعراء ، فهذا الأبيوري أطلقوا عليه المتنبي الصغير لجودة شعره ، والعلو همته وقوة انفعاله وحبه للسيطرة ، ولتعصبه العربي(٢) .

وهذا الشاعر أبو الفوارس (حيص بيص) اقتفى أثر الفرزدق في صليل اللغة وجهوريتها ، وقوة مخارج حروفها ، وجزالة سبكها ، وكذلك بمضمونه في الفخر القبلي .

يقول الفرزدق عن تميم :-

---

(١) انظر : الديوان : المقدمة .

(٢) انظر : المتنبي الصغير ، وعمر الأسعد .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

منا الذي اختير الرجال سماحة وخيراً إذا هبّ الرياح الزعازعُ
ومنا الذي أعطى الرسول عطية أسارى تميم والعيون دوافع
ومن الذي يُعطي المئين ويشترط الـ غوالي ، ويعلو فضله من يدافع

ويقول :

أخذنا بآفاق السماء عليكم لنا قمرها والنجوم الطوالع
لنا مقرم يعلو القروم هديره بذخ كل مُحل دونه متواضع(١)

وأبو الفوارس التميمي يقتفي أثر بمضامين كثيرة في قصيدته العيذية يقول فيها:

وفتيان صدق من تميم تناثلوا دروعهم والليل ضافي الوشائع
وقيذين من عرق السرى وقلوبهم شداد على مر الخطوب الصوارع
يقودون جردا مضمرات كأنها كواسر عقبان الشريف الأباقع
ضمنت لهم ملك العراق فأوسعوا ضراب الطُّلى بالمرهفات القواطع
وكنت إذا ما ساورتني كريهة برزت لها في جحفل من مجاشع(٢)

وتستطيع أن تلحق ابن الخياط بالبحتري . وهم ألحقوا ابن منير الطرابلسي والقيسراني بالفرزدق وجرير .

وقصيدة المدح اقتفت أثر قصيدة المدح في العصر العباسي ؛ فاستهلوا بالمقدمة الطللية قليلاً ، وبالغزل كثيراً ، ووصفوا الرحلة كما وصفها أبو نواس ، حين ارتحل إلى ابن الخطيب في مصر ، وأحسنوا التخلص ومدحوا ثم طلبوا النوال مع تكاثر الأخير في العصر الأخير(٣) .

أما قصيدة المدح في شعر الجهاد ؛ فإنها اتخذت حربيات المتنبي وروميات أبي فراس منها جالها ، واقتفوا أثرهم في الأوصاف والمضامين ، والصور مع توظيف

---

(١) الديوان ٣٦٠ .

(٢) الديوان ١/٧٥ .

(٣) انظر : ديوان الأرجاني وديوان ابن منير ٢٢١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تلك فيما يتعلق بأحداث العصر وموضوعاتها(١) .

وهناك قصائد مدح الرسول ﷺ فإنهم نهجوا نهج قصيدة كعب بن زهير ، كقصيدة ابن الساعاتي(٢)

والنقاد تسلّط عليهم النموذج العباسي حتى جعلوه ميزاناً ، ومضرب مثلٍ فهذا العماد الأصبهاني يقول عن أثير الدين : « هو ابن العميد الثاني نسباً وأدباً ، واحد العصر فضلاً وحسباً »(٣) .

والعماد إذا رغب في رفع شأن أحد الشعراء أو الكتاب فإنه يفضله على المشهورين من أهل الصنعة ، يقول عن الأجل رضى الدين بن المطلب : « له الخط الرائق ، والفضل الفائق ، إذا كتب أغفى ابن مقلة حياء ، وأغلق ابن البواب بابه خجلاً ، وإذا ترسل فاسترسل كان لفظ عبدالحميد للفظه عبداً »(٤) .

وهو يقول عن شعر الشاعر الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي « وما أشبهه إلا بسيف الدولة بن حمدان وبني عمّه أو عضد الدولة ابن بويه »(٥) فهم يشبهون الشعراء بنظائرهم السابقين في الأعصر السالفة .

وتظهر في قصائد شعراء القرنين السادس والسابع الهجريين .

وفي شعر القرنين السادس والسابع من الهجرة تظهر قصائد المعارضة لشدة كلفتهم بالقديم وإعجابهم به ، ويتجلى التقليد في الغرض والمضامين ، وبناء القصيدة والصدر والأوزان والروي ، من الأمثلة على ذلك قصيدة القيسراني البائية :

هذي العزائم لا ما تدعى القضب وذي المكارم لا ما قالت الكتب

---

(١) انظر : الأدب في عهد الزنكيين والأيوبيين ، لعمر باشا ٤٦٩ .

(٢) المصدر السابق ٤٦٩ .

(٣) خريدة القصر ، القسم العراقي ١/١٥٠ .

(٤) المرجع السابق ١/١٧٨ .

(٥) المصدر السابق ، قسم الشام ، شعراء دمشق ٨٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهـذه الهمـم اللاتـي متـى خطيـت تعـثرت خلفهـا الأشـعار والخطـب
ما فتحت بابن عماد الدين ذروتها براحـة للمسـاعي دونهـا تعـب
ما زال جدك يبنـي كـل شاهقـة حتى ابتنى قبـة أوتادهـا الشهب(١)

فهي تقتضي بائية أبي تمام :

السـيف أصـدق أنبـاء مـن الكتـب في حـده الحـدّ بـين الجـد واللعـب

ومنها :

والعلـم في شـهب الأرمـاح لامعـة بـين الخميسـين لا في السـبعة الشـهب

ومنها :

فتح الفتـوح تعـالى أن يحيـط بـه نظم من الشعر أو نثر مـن الخطب(٢)

فالذي يوازن بين القصيدة يجد أن القيسراني سار على نهج أبي تمام في بناء القصيدة ، فهما لم يأتيا بمقدمة غزلية ، ودارت كلٌّ من القصيدتين حول الحرب ومدح قائد المعركة . وقد استمد القيسراني كثيراً من مضامين وصور أبي تمام ومن ذلك قول القيسراني :

ضربـت كبشـهم منهـا بقاصمـة أودى بها الصلب وانحط بها الصلب

مأخوذ من قول أبي تمام :

لو بينت قـط أمـراً قبـل موقعـه لم تخف ما حـل بالأوثـان والصُلُـب

وأخذ المعنى الذي ابتدعه وروضه أبو تمام في قوله :

تصـرح الدهـر تصريـح الغمـام لهـا عن يوم هيجاء منها طاهرِ جنـب(٣)

فقال القيسراني متابعاً له :

طهرت أرض الأعـادي مـن دمائهـم طاهرة كـلّ سيـف عندهـا جُنُـبُ

فإن التطهير من هذا الجانب استعير لتطهير المدن من الأعداء وقد شاع هذا ،

---

(١) أبو شامة : الروضتين ١/٥٨ .

(٢) الديوان ١/٤٠ .

(٣) الديوان ١/٥٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وواضح متابعة القيسراني لأبي تمام في اجتناب المقدمة .

والطهارة من الجنابة وفض البكارة من المعاني التي شاعت عند الشعراء ، فهذا تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي يقول عن استعادة بيت المقدس على يد صلاح الدين :

زفت إليك عروس خدر تجتلى ... ما بين أعبدها وبين إمائها

إيه صلاح الدين خذها عادة ... بكراً ملوك الأرض من رقبائها

كم خاطبٍ لجماها قد رده ... عن نيلها أن ليس من أكفائها(١)

فقد أخذت من قول أبي تمام عن عمورية ، وقد أعيت كسرى وخلفاء المسلمين من قبل :

وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها ... كسرى وصدّت صدوداً عن أبي كُرَب

بكر فما افترعتها كف حادثة ... ولا ترقّت إليها همة النوب(٢)

فهي صور اقتبسها شعراء الجهاد من بائية أبي تمام وقد أخذ منها غيرهم الكثير ، وكذلك عن المتنبي .

وهم قد أخذوا من مضامين الأوائل ، بل زادوا عليها ، وفتقوها ، حتى بلغت درجة المبالغة كما أشرت سابقاً في موضوع المبالغة ، ومن تلك المضامين الكرم ، والشجاعة والحكمة ، وحسن التدبير ، والعدل بين الرعية ، وبعض الأوصاف الجسمية(٣) .

وهم قد تابعوهم في الوصف الحربي كما أشرت آنفاً ، وكرروا ذكر القوة وقوة الإرادة والعزيمة الصادقة .

وبصريح العبارة فإن الإقتداء بالسالفين من الشعراء أمر يفوق الحصر ، وهو

---

(١) خريدة القصر ، قسم الشام ٨٦/٦ .

(٢) الديوان ٤٧، ٤٨ .

(٣) انظر : ديوان الإرجاني ، وسيط بن التعاويذي .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

متجلي في جل الديوان الشعري للحروب الصليبية ، وكل من كتب أشار إلى ذلك ولا سيما الذين خصوا الشعراء بتآليف منفردة(١) .

وأشير هنا إلى بروز بعض الملامح العامة في الشعر المحافظ ومنها :-

• حافظ والشعراء المحترفون المقلدون على الذوق السلوكي الأخلاقي ، وعلى روح الغزل الذي يتواصل مع الأحتشام ، ويجنح إلى العذرية ، فهم لجوؤوا إلى محاكاة الأقدمين في ذكر الأسماء والأماكن ، ووقفوا معهم على الأطلال حيناً ، وأكثروا من استحضارهم لصبا نجد ، وعبير خزاماه ، والتمتع برياضه ، وهذه كثيرة الشواهد كما وضحته في موضوعات المقدمات .

• ومن محامد تلك الشريحة إعارضهم عن المجون ، والغزل بالمذكر ، بل إن بعضهم أعرض عن الغزليات كأبي الفوارس ، (حبص بيص) ، كقوله في مدح صدر الإسلام :

أظلما ورمحي ناصري وحُسامي ... وذلاً وعزمي قائدي وزمامي

ولي بأس مشبوح الذراعين مغضب ... يصاول عن أشباله ويُحامي

كذبت لقد استسهل الوعر في العلى ... وأكرم نفسي أن يهون مقامي

هجرت الثغور اللامعات وشاقني ... بريق المواضي تحت كل قتام(٢)

فهو مغرم بذاته وبقيمه ، ويعلن هجر الغزل ، وذكر الثغور ، وهذا اللون كثير في شعره .

---

(١) انظر : صدى الغزو الصليبي في شعر القيرواني ١٧٢ ، وديوان ابن قلاقس ٥٢ .

(٢) الديوان ١/١٤٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الخطابيـــة :

والقصيدة الخطابية مأخوذة من الخطبة التي هي « من التعبير عن الأشياء بحيث أن السامعين يصغون إلى ما يقوله المتكلم في موقف رسمي »(١) .

وقصيدة المدح استعارت هذه الظاهرة ، فهي تنشد في مجلس خليفة أو أمير وأكثر العلماء والأدباء ، والنقاد يستمعون وينقدون .

والشعراء المحترفون يغلب عليهم التكسب بشعرهم ، وعرضه والاستعراض به في المنتديات ، وذلك يقتضي الإنشاد ، وكيما يصلح له ذلك فلا مناص من أن يتأطر بأطر منها :

كثافة المضمون التي يقتضيها الموقف ، فليس من المنطق أن يقف الشاعر لينشد مقطوعة شعرية أو قصيدة قصيرة ، إذن عليه أن يحشد المضامين ثم ينتظمها في منظومة شكلية خطابية ، ومن هنا تعددت موضوعات القصيدة ، فطالت قصائدهم ، وغلبت على دواوينهم .

ومنها أن المواقف الخطابية تستدعي التلوين الصوتي الذي يوظف اللغة ، وذلك بتكوين الجمل المزدوجة أو المتقاربة الطول والقصر ، وما يطرأ عليها من الجناس والترصيع وغيرها من مكثفات الموسيقى الداخلية .

وتقتضي أيضاً : الإتقان في الصنعة لأنها تنشد على ملأ من علية القوم ومثقفيهم وعلى مسمع من المتنافسين والمتبارين .

ولا بدّ من طول الأبحر الشعرية حتى تحتوي مضموناً كثيفاً .

كما ويغلب عليها اختيار الألفاظ المكونة من حروف الحلق حيث الجهر والفخامة ، وتتركب من هذه الألفاظ تراكيب تكون جزلة فخمة ، فيتلوها الشاعر بصوت جهوري .

---

(١)حبور عبدالنور : المعجم الأدبي ٢٤٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فأرباب شعر الاحتراف يميلون إلى الأوزان الطويلة التي تحوي نفساً طويلاً ، ومضموناً وافراً ، وهي أيضاً تمثل الوقار الذي يتلاءم مع تكوين الشاعر القدير ، ومقام الإنشاد أمام السلطان ، وتساعد على التنغيم الخطابي الذي يلونه الشاعر ؛ فيكثر عندهم بحر الطويل ، والبسيط ، والكامل ثم الخفيف ثم الوافر والرجز كما هو الشأن في ديوان الأبيوردي الذي بلغت قصائده ٢٤٦ احتوى الطويل منها ثلاثاً وثلاثين ومائة قصيدة ، والبسيط منها ستاً وأربعين ، والكامل خمساً وثلاثين. والبقية موزعة على الأبحر الأخرى(١) .

وقد أحصيت أبحر القصائد المطولة في ديوان الأرجاني ، فضم الطويل عنده خمساً وأربعين قصيدة ، الكامل بلغ ثمانياً وثلاثين قصيدة ، والبسيط بلغ ثمانياً وعشرين ، والوافر ست عشرة ، والمتقارب ثلاث عشرة ، والخفيف ثلاث عشرة ، والرجز تسع قصائد ، والمنسرح ثلاثاً ، وبلغ السريع اثنتين ، والرجز اثنتين ، وواحدة لكل من المتدارك والهزج(٢) .

وابن منير أيضاً يكثر عنده بحر الكامل والطويل ، والمتقارب ، والخفيف ، وقد اتضح ذلك من نماذج أوردها أبو شامة له في مقدمة كتابه الروضتين ، وأيضاً فإن النماذج التي أوردها أبو شامة للقيسراني في مدح نور الدين من بحر الكامل والخفيف والوافر(٣) .

وقصائد أسامة بن منقذ تكثر الشكوى فيها ، وتحتل مساحة كبيرة من الديوان، وقد بلغت القصائد على بحر الكامل ستاً وثلاثين وعلى بحر الطويل تسعاً وعشرين ، وعلى البسيط عشرين ، والرجز خمس قصائد ، والمنسرح أربع قصائد

---

(١) الديوان ٣٢٤/٢ ، تحقيق د. عمر الأسعد ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة ١٤٠٧هـ،١٩٨٧م

(٢) الديوان ١٦٠١/٣، تحقيق د. محمد قاسم مصطفى ، دار الرشيد العراق ، طبع عام ١٩٨١ ،

(٣) أبو شامة : الروضتين ١٨/١ حتى ٢١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقريباً من هذه النسبة في سائر الأغراض(١) .

وأطول الشعراء نفساً في هذه الفترة ، الأرجاني ، فجلّ شعره قصائد طويلة من أربعين إلى سبعين بيتاً ، وكثير منها تجاوز السبعين ، فقد بلغت قصائده تلك تسعاً وثمانين قصيدة :

القصائد التي تجاوزت أبياتها ٧٠ إلى ٧٩ بلغت إحدى وعشرين قصيدة .

والقصائد التي تجاوزت أبياتها ٨٠ إلى ٨٩ بلغت تسعاً وثلاثين قصيدة ، والقصائد من ٩٠ إلى ٩٩ بلغت أربع عشرة قصيدة .

والقصائد من ١٠٠ إلى ١٦٠ بلغت خمس عشرة قصيدة(٢) .

والشاعر ابن الخياط له مطولات كقصيدة في مدح عضب الدولة أبق التي بلغت اثنين وسبعين بيتاً(٣) .

وقافيته التي بلغت ستاً وسبعين بيتاً(٤)، ورائيته التي بلغت سبعين بيتاً(٥)، وهناك مطولات أشار إليها أبو شامة وأنه اقتطف منها أبياتاً كشعر ابن منير الطرابلسي ، والقيسراني .

وأيضاً فإن أسامة بن منقذ له مطولات غير أنه وزعها على أغراض شعره .

وسبط التعاويذي من الشعراء المداحين ، فكثرت عنده القصائد المطولة ، وقد أحصيت عدد القصائد التي تجاوزت السبعين ، فبلغت ثمانياً وعشرين قصيدة أطولها قصيدتان إحداهما بلغت واحداً وثلاثين ومائة بيت والأخرى أربعة وثلاثين ومائة بيت في مدح القاضي الفاضل ، أمّا روي مطولاته فأربع على روي الباء ، وثلاث على روي الدال ، وخمس على روي الراء ، وخمس على روي اللام

---

(١) الديوان (فهرس القوافي) .

(٢) الديوان (فهرس القوافي) .

(٣) العماد الأصفهاني : الخريدة شعراء الشام ٦/١٤٥ .

(٤) المصدر السابق ١٦٤ .

(٥) المصدر السابق ١٨٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأربع على روي النون(١) .

والنتيجة أن الإحصاء دلنا على أن المدح يستدعي الإنشاد ، والإنشاد يستدعي القصائد المطولة ، والشاعر يبتغي هذا ليصور نفسه .

أمام الممدوح ، فيفيض في المقدمة من غزل رمزي ورحلة فيها معاناة ، والممدوح يبتغي مطولة ، ويبتغي مدحا تنقله هذه المطولة ، ثم إن الشاعر يطلب النوال ومن هنا كان طول القصيدة الذي رأينا في الإحصائية السابقة .

الأسلوب الموضوعي :

الأسلوب الموضوعي « هو الذي يصف الأشياء كما تتراءى له ولجميع الناس»(٢) . فهو غير ذاتي يصور الأشياء من غير إقحام لذات الشاعر ، وقصائد المدح يكثر فيها هذا اللون ، ولا سيما في مباشرة وصف المدح أو الوصف لما يتعلق بأعمال الممدوح ، وتبرز في شعر الجهاد ، فالشاعر يصف القائد والمعركة ، وآلة الحرب ، والحصون والقلاع بمنأى عن شخصيته فمن المدح الذي يظهر فيه الموضوعية قول ابن الدهان في صلاح الدين الأيوبي :-

جواد بالبلاد وما حوته ... إذا جادوا بألبان اللقاح
وأبلج يستهين الموت يلقى ... بصفحة وجهه خدّ الصفاح
ويخشى من دنو العار منه ... ولا يخشى من الأجل المتاح
وقوال إذا الأبطال فرّت ... مكانك ثبتة ما من براح
إذا ما دب في خرم ذليل ... سعى سعي الأعزة في السراح
بأس مذهل الأسد الضواري ... وسيب مخجل سيل البطاح
فللاجين والراجين منه ... أعز حمىً وأكرم مستماح(٣)

---

(١) الديوان .

(٢) جبور عبدالنور : المعجم الأدبي ٢٧٣ .

(٣) الديوان ٦٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فالقارئ لهذه الأبيات يرى وصفاً موضوعياً . ومثل ذلك قول ابن قلاقس:-

تهز بك الخطوب من الخطاب ... وتنهزم الكتائب بالكتائب
وتخشى نار حربك وهي تخبو ... فكيف إذا أرتمت شرر الجراب
ومذ جرّدت عزمك وهو سيف ... رمينا ما يكون من الرقاب(١)

ومثل ذلك في شعر الجهاد ووصفه فأنا أنقل أبياتاً لشاعرين في وصف موقف واحد ، وهما القيسراني ، وابن منير : فقد تحدثا عن أسر القائد جوسلين يقول القيسراني :-

دعا ما أدعى من غره النهي والأمر ... فما الملك إلا ما حباك به الأمر
ومن ثنت الدنيا إليه عنانها ... تصرف فيما شاء عن أذنه الدهر

ومنها :

سللت سيوفاً أثكلت كل بلدة ... بصاحبها حتى تخوفك البدر
إذا سار نور الدين في عزماته ... فقولا لليل الأفك قد طلع الفجر
ولو لم يسر في عسكر من جنوده ... لكان له من نفسه عسكر مجر(٢)

ويقول ابن منير :

يهب التلاد من البلاد وما حوت ... إن السماحة للبحار بحار
يقظان يخشى الله في خلواته ... لا منزف لاه ولا جبار
نصب المراقب للعواقب ناظرا ... فيها كذلك تربأ الأبرار
لا كالذين تعجلوا حسواتها ... وتفلسوها بعد وهي خسار(٣)

وقد قال في المناسبة ذاتها كل من الشاعرين قصيدتين لا نرى لشخصية الشاعر دوراً فيهما(٤) .

---

(١) الديوان ١٩٥ .
(٢) الروضتين ١/٣٧ .
(٣) المصدر السابق ٧٥ .
(٤) المصدر السابق ١/٧٢ إلى ٧٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الذاتيـــة :

يقـول عنهـا جبـور عبدالنـور : « تجلـي الـذات ، وهـو اكتمـال الخصـائص الإنسانية العامة والفردية في الفنان أو الأديب ، وبروزها بوضوح ، وتعبير متميز من خلال الآثار التي يبدعها »(١) .

وهي أيضاً تلك الخاصية الشعورية التي تلفـع العمـل الأدبـي ، فـإن المؤثـرات الخارجية تلوب في أتون الأحاسيس ثم يخرج الحـدث متلبساً بحالـة تلـك التجربـة الشعورية ، وهذ تتكشف في الشعر الوجداني كثيراً ، غير أننـا لا نعـدم الذاتيـة في قصيدة المدح أو الرثاء وشعر الشاعر أجمع ، فإننا نستطيع أن نلتمـس الشـاعر مـن أسلوبه الذاتية الأسلوبية فكل شاعر له أسلوب ينفرد به كانفراد أبي العتاهية وأبي تمام والمتنبي وغيرهم كمـا يظهـر ذلـك في النـثر ، فللجـاحظ أسـلوبه ، وللقـاضي الفاضل أسـلوبه ، ولطـه حسـين أسـلوبه ، وللعقـاد أسـلوبه المنفـرد بـه وهكـذا . وظاهرة تجلي الأسلوب موجودة في شعر الحروب الصليبيـة ، فنحـن نـدرك نمطيـة أسلوب الأبيوردي ، وكذلك الشاعر أبي الفـوارس ، وأسـلوب أسـامة بـن منقـذ غير أسلوب القيسـراني ، وأسـلوب ابـن عنـين غـير أسـلوب فتيـان الشـاغوري ، وأسلوب ابن سناء الملك غير منافسه ابن الساعاتي . وهكذا فإن الأسلوب الذاتـي يبرز عند الدارس لتلك المرحلة الذي ألم بخصائص كل شاعر وقـارن بـين الشـعراء وتجلت – أيضاً – الذاتية في غرض الفخر(٢) .

وتظهر الذاتية في بعض الموضوعـات مـن قصيـدة المـدح كـالغزل ، وكذلـك طلب النوال ، وإهداء القصيدة .

ونتيجة لذلك فإن القصائد التي تخلـو مـن المقدمـات الغزليـة ، لا تظهـر فيهـا روح الشـاعر ولا شـخصيته ، ولـو حذفـت مـن ديوانـه لا تُعـرف إلا بالأسـلوب

---

(١) جبور عبدالنور : المعجم الأدبي ١١٦ .

(٢) انظر : ديوان أسامة بن منقذ ٢٥١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الذاتي للشاعر ، ومرد كل هذا لعدم تلبس الشاعر بتجربة ذاتية تتأطر القصيدة بأطر زمانها ومكانها ونوعيتها ، كقصيدة سبط التعاويذي الهمزية في الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله عام ٥٧٢هـ ، فيستهلها بالإخبار بالماضي ليثبت الحدث ، ثم يتبعه بخمسة عشر بيتاً تبتدئ بالفعل الماضي ، وكأنه يستوحي أعمال الخليفة من الماضي :

خَجِلتْ من عطائك الأنواءُ ... وتجلّت بنورك الظلماءُ
واستجابت لك الممالك إذعا ... نا وفيها على سواك إباءُ
أصبحت في يديك واتفقت طو ... عا عليك القلوب والأهواءُ
نسخ العدل في إيالتك الجو ... ر كما ينسخ الظلامَ الضياءُ
وأهنت المال العزيز على غير ... ك حتى استوى الثرى والثراءُ(١)

وانظر إلى قصيدته البائية في مدح صلاح الدين كيف تتجلى الذاتية في غزله، بل يباشر بها الاستهلال في حوار عاتب :

حتام أرضى من هواك وتغضب ... وإلى متى تجني عليَّ وتعتبُ
ما كان لي لولا ملالك زلة ... لما مللت زعمت أني مذنب
خذ في أفانين الصدود فإنّ لي ... قلباً على العلات لا يُتَقَلَّبُ
أتظُنني أضمرتُ بعدك سلوةً ... هيهات عطفُك من سُلُوّي أقربُ
لي فيك نار جوانح ما تنطفي ... حرقاً وماء مدامع ما ينضبُ
قالت وريعت من بياض مفارقي ... وشحوب جسمي: بان منك الأطيب(٢)

فالقارئ يحس بحضوره في كل بيت.

وابن عنين من الشعراء المحترفين يمتدح المعظم عيسى بن العادل بعينية تظهر ذاتيته في مقدمتها الغزلية ، والموضوعية في المدح وتعود الذاتية في شكوى الغربة فهو في مطلعها لا يذيع سر أهل الحمى الذي نأى عنه :

---

(١) الديوان ١ .

(٢) الديوان ٢٢،٢٣ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ما سر سكان الحمى بمذاع عندي ولا عهد الهوى بمضاع
أين الحمى مني سقى الله الحمى رياً وكان له الحفيظ الراعي

ويجرد الأبيات من ذاته في المدح :

ليث الشرى في متن أجدل كاسر يسطو بصلّ في ثياب شجاع(١)
ملك فواضل جوده مبثوثةٌ في الأرض تسأل عن ذوي الإدقاع
خُلقت أناملـه لحطم مثقّفٍ ولفلّ هندي وحفظ يراع

وتعود ذاته في شكواه من الغربة :

فإلى متى أنا بالسفار أضيع الأيـ ـام بين الشد والإيضاع
حِلفَ الرّحالة والدُّجى فرواحلي ما تأتلي ممعوطة الأنساع
بينا أُصبِّحُ بالسلام محلةً حتى أمسي أهلها بوداع(٢)

إذن فإن الذاتية الشعورية تتكشف في جوانب من القصيدة في موضوع المدح كالمقدمة ، وطلب النوال والإهداء وتحتفي في المدح والوصف ، لكننا لا نعدم الذاتية الأسلوبية في سائر شعر الشاعر .

(١) الصل : نوع من الحيات طويل سريع لكنه خفيف السم ولا يلدغ ، الشجاع هو الحية السامة .
(٢) الديوان ٢٢، ٢٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

موقف المحترفين المقلدين من التجانس

والذين يستضيئون على هذه المرحلة من الأدب العربي بالأحكام الاتباعية درجوا على وسم هذا العصر بالمغالاة في ألوان البديع ، فإنهم يجانبون الأحكام الصادرة من الواقعية أو الانطباعية المباشرة ، وقد أثرت الأحكام النقدية السالفة على كثير من المؤلفين والأدباء الذين لهم شأن في هذا المضمار ، فمثلاً الدكتور زغلول يشير إلى تفنن الشاعر الأرجاني للبديع ، وأنه أكثر تأثراً به لكونه ينتمي للمدرسة العراقية(١) .

ولما نتقصى ديوان الأرجاني بنية استنباط الألوان البديعية ، ونلتقي بالحقيقة الإحصائية فإننا نقف أمام شاعر ينأى عن التكلف ، وهو معتدل في صنعته ، أوجد تلاحماً بين الشكل والمضمون ، فلم يسرف في التجانس ولا التقابل ، ولا مراعاة النظير ، أو التورية .

وسطحية المضمون ، إن لُمِحت ؛ فتعود إلى الفكر بعامة ، وإلى تكرار الموضوعات الشعرية ، وإلى فقدان التوتر الذي يلحق التجارب المنفصلة الصادقة. ونحن نأخذ نماذج عشوائية كيما نطرح واقعه أمام القارئ .

فالأرجاني من الشعراء المحترفين الذين يشتقون من الكلمة ؛ فيكون اشتقاقاً أو تكراراً ، أو جناساً ، غير أنه لم يسرف فيه ، وإن عني به ، فعينيته تتكون من ثلاثة وسبعين بيتاً أحصيتُ التجانس فيها فكان تسعة وعشرين بيتاً ، بينما التقابل لم يتجاوز عشرة أبيات ، ومن التجانس قوله في أبيات متباعدة من القصيدة :

فلئن أقمتُ فلات حين إقامة ... ولئن رجعتُ فلات حين رجوع

وإذا سمعت به سمعت بماجدٍ ... يأتيك واصفه بكل بديع

والمرء يمنع ثُم يرتع آمناً ... ما نجعةٌ إلا وراء نجيع(٢)

(١) الأدب في العصر الأيوبي ٢٦٧ .

(٢) الديوان ٣/٩١٤، ٩٢٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وله قصيدة ميمية في مدح معين الدولة مختص الملوك ، عدد أبياتها أربعة وخمسون بيتاً ، فكان التجانس فيها تسعة عشر بيتاً ومنه :

قل قولةً لله فصالة والداء تحسمه فينسحم

دُم للأفاضل ما هَمَتْ دِيَمُ واسلم لهم ما أورق السَّلَمُ(١)

وقصيدته القافية في ظهر الدين شمس الملك الوزير عثمان بن نظام الملك مكونة من ثلاثة وخمسين بيتاً ، والتجانس فيها لا يتجاوز ستة أبيات ، والتقابل ثلاثة أبيات فقط ومطلعها :

رمين القلوب بأشواقها ظباءٌ تصيد بأحداقها

تحيَّر من حسنها الطرف بين حبيس الدموع ومُهراقها

رمتْ باهوى قلب كلِّ أمرئ عليل الجوانح خفاقها

فلم لا تَرق لأشباهها عيونٌ مراض كعشاقها(٢)

فالتقابل ظاهر في البيت الثاني : (حبيس الدموع ومهراقها) .

أما التجانس فلم يستخدمه إلا في البيت الخامس عشر وما بعده كما في قوله:

قوافٍ على القاف مبنيةً لوصف الفراق بمنساقها

وقصيدته القافية التي يمدح فيها الصفي على بن نصر السالمي ، التي بلغت واحداً وثمانين بيتاً استغرق التجانس منها عشرين بيتاً فقط ، والتقابل سبعة أبيات(٣) . وتجانسه غير متكلف وهو يستهل به قصائده أحياناً ، كمدحته في شرف الملك أبي سعد محمد بن منصور المستوفي ، التي بلغت أربعة وستين بيتاً، استغرق التجانس منها أحد عشر بيتاً ، وإليك مطلعها الذي يحويه :

قليلٌ لهم أن يحنَّ المشوقُ وها هي حنّت إلى الحيّ نوقُ

---

(١) الديوان ٣/١٢٣ .

(٢) المصدر السابق ٣/٩٨٠،٩٨٢ .

(٣) المصدر السابق ٣/٩٨٦ وما بعدها .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أيعلـــم حـــاديهم أنـــه يسـوق فـؤادي فيمـن يسـوق ؟
فيـا قلـب : أنـت مـع الظـاعنين تسـايرهم ، فـإلى مـن تتـوق؟
ومـا البيـن أوّل مـا شاقنـي ولا هـو أوّل دمـعٍ أريـق(١)

فهو استخدم الجناس في (يحن وحنت) ، والتكرار في البيت الثاني (يسوق ويسوق) ، والبيت الثالث : (أول - أول) .

ولا تشعر في هذا التجانس تكلفاً ولا تعسفاً ، وكأنه عفو الخاطر .

والأرجاني في مقطعاته يقرب إلى الطبع وقرب المأخذ ، وإن ظهر عنده التكرار غير أنه له دلالة شعورية تنبض بها ألفاظه المكررة .

يقول في مقطعة شعرية يناجي فيها الحمام الحزين :

أقـول ، وقـد نـاحت مُطوَّقـةٌ ورقـا على فنـن والصبـحُ قـد نـوَّر الشـرقا
بكـت ، وهـي لم تبعـد بألاّفِهـا النـوى كـألفي ، ولم تفقـد قراءنهـا الورقـا
كـذا كنـت أبكـي ضلّـةً في وصـالهم إلى أن نـأوا عـني فصـار البُكـا حقـاً
فـلا تضربـي - قـال الفـراق - مجانـةً فتلقـى علـى فقـد الأحبـة مـا ألقـى
خـذي اليـوم في أنـس بـألفك وانطقـي بشـكر زمـان ضـم شملكمـا نطقـاً
وخلـي البكـا مـا دام إلفـك حـاضراً يكـن بـين لقيـاه وغيبتـه فرقـا
وفي الدهر ما يبكـي فـلا تتعجّلـي ولا تحسـبي شيئاً علـى حالـةٍ يبقـى(٢)

فلا جدال في قوة التأثير بتكراره (إلفي) في البيت الثاني ، حيث أضافها إلى ذاته للتحبيب ومعاودة ذكره ، بينما نستشعر ألم الفراق في تكرار (البكاء) في البيت الثالث ومثله (ألقى) في البيت الرابع .

والتكرار الاشتقاقي الذي يلح على الإفصاح في البيت الخامس ، فكأنه يأمر بالشكر ، وأن يلهج به على جمع الشمل بين المتحابين ، وجميل أن يستنطق الحيوان في هذا البيت .

---

(١) المصدر السابق ٣/٩٨٨ .
(٢) المصدر السابق ٣/١٠٠٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن النادر عنده أن يتجاوز التجانس نصف عدد القصيدة ، وقد فعل ذلك في مدح عزيز الدين عماد الإسلام في قصيدته اللامية ، ولئن غلبت الصنعة هنا فإن منشأها هو ضعف الوازع في التجربة ، فالممدوح ضعيف الشأن .

ومجمل أبيات القصيدة ثلاثون بيتاً استغرق التجانس منها ستة عشر بيتاً(١) .

وله قصيدة لامية عدد أبياتها ستة وثمانون بيتاً يمتدح بها سعد الملك أبا المحاسن ، لم يتجاوز التجانس فيها أربعة عشر بيتاً ، أما التقابل فكاد ينعدم(٢) .

وقصيدته اللامية في مدح الأستاذ موفق الدين أبي طاهر الخانوتي رقيقة لينة بلغت ستين بيتاً ، والتجانس لم يتجاوز عشرة أبيات ، وهي قصيدة رقيقة لينة الجانب يقول في طلعها :

هو ما علمت فأقصري أو فاعذلي ... ورتقي عن أي عقبى تنجلي

لا عار إن عطلت يداي من الغنى ... كم سابق في الخيل غير محجّلَ

صان اللئيم - وصنت وجهي - ماله ... دوني فلم يذل ولم أتبذل

أبكي همٌ ضافني متأوّباً ... إن الدموع قرى الهموم النُّزل(٣)

وقصيدة في مدح شهاب الدين أسعد الطرغائي اتي بلغت ثلاثة وثمانين بيتاً استغرق التجانس منها ثلاثة وعشرين بيتاً واستهلها بقوله :

إقلاّ عند طيّتي المقالا ... وخُلا عن مطيتي العقالا

فما خُلق الفتى إلا حُساما ... وما خُلق السرى إلا صقالا

وما راع الدُّمى إلا فراق ... خطبت به إلى العليا وصالا

سموت لها بزهر من فتور ... هتفت بهم ، وجنح الليل مالا(٤)

ومدحته التي امتدح بها معين الدين الوزير عدد أبياتها أربعة وثمانون استغرق

---

(١) المصدر السابق ٣/١٠٠٠ .

(٢) المصدر السابق ٣/١٠٤٨ .

(٣) المصدر السابق ٣/١٠٥٨ .

(٤) المصدر السابق ٣/١٠٦٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التجانس أربعة وثلاثين بيتاً ، والتقابل ستة أبيات ومنه :

أقلب طرفي بمنة ثم يسرة ... على إثر أحوال الزمان الحوائل

وقوله :

وقد علم الأقوام صدق مقالتي ... وما عالم حظه مثل جاهل(١)

وله قصيدة لامية مكونة من سبعين بيتاً لم يستغرق التجانس منها سوى سبعة أبيات يقول في مطلعها :

خفّض عليك ، وإن أطلت تأملاً ... فلقد عذلت من الرجال معذّلا

أعياك إسعادي ، فصرت معنّفي ... ليت الذي عدم الجميل تجمّلاً

ماذا تُريدُ إلى رديٍّ مطالب ... مُنع الرضا من حاجة فتعلّلا

مالي شكوت إليك نار جوانحي ... لتكون مُطفئها فكنت المشعلا(٢)

ومن الشعراء الذين وظفوا الاشتقاق أو الجامع اللفظي بين الكلمات في أشعارهم توظيفاً مناسباً ، يؤدي إلى معنى مقبولاً ، وانسجاماً موسيقياً ، وتفتيقاً للغة ، ابن الخياط الدمشقي المتوفى ٥١٧هـ ومن ذلك قوله :

يقيني يقيني حادثات النوائب ... وحزمي حزمي في ظهور النجائب

فيقيني الأولى من اليقين ، ويقيني الثانية من الوقاية ، وحزمي الأولى من الإرادة والعزيمة ، وحزمي الثانية من ربط الرحل على المطايا .

ومنه قوله في مدح مقلد بن منقذ :

وإن إمراء أفضى إليه رجاؤه ... فلم ترجُهُ الأملاك إحدى العجائب

من القوم لو أن الليالي تقلّدت ... بأحسابهم ، لم تحتفل بالكواكب

إذا أظلمت سبل السراة إلى العلا ... سروا فاستضاؤوا بينها بالمناسب(٣)

فمن قدرته على الاشتقاق ، وتناسق الصوت ، جمعه (رجاؤه) وبالفعل

---

(١) المصدر السابق ٣/١٠٧٩ .

(٢) المرجع السابق ٣/١٠٨٨ .

(٣) الخريدة شعراء الشام .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

(ترجه) وقوله (السراة - سروا) . ومنه قوله[1] :

هم غادروا بالعز حصباء أرضهم أعز منالاً من نجوم الغياهب

إذا المنقذيون اعتصمت بعزهم خضبت الحسام العضب من كل خاضب

إذن فالتوليد درج على ألسنة الشعراء لإتقان اللغة ، وتدارسها الدائب ، وقصد[2] توظيفها .ونتيجة هذا الإحصاء لشعر الشاعر فإنه يكشف عن عدم مبالغته في البديع ، وعدم تكلفه بل تظهر اعتداله ، وحسن توظيه للغة .

وابن منير (٤٧٣-٥٤٨هـ) ينشد نور الدين لما فتح حارم قصيدة دالية مكونة من واحد وثلاثين بيتاً .

تأملها نجد أن مقدمتها تخلو من التجانس ، والتقابل ، لكنه سرعان ما يتلألأ في أعصان الأبيات ، وقد بلغت الأبيات التي ظهر فيها التجانس أحد عشر بيتاً ومنها :

أنت الذي خطبت له حساده والفضل ما اعترفت به الحساد

وأشد ما يظهر صنعته في قوله :

حاموا فلما عاينوا حوض الردى حاموا برائش كيدهم أو كادوا

حاموا الأولى بمعنى طافوا ، وحاموا الثانية بمعنى دافعوا ، كيدهم : حقدهم وتدبيرهم ، وكادوا بمعنى : أوشكوا .

وقوله :

ورجا البرنس وقد تبرنس ذلة حرما بحارم والمصاد مصاد[3]

وهذان البيتان ظهر فيهما الإلحاح على الجناس ، أما بقية الأبيات فإنه يوحي بمضمون ودلالة ، وهذا يشير إلى عدم تكلف ابن منير للتجانس في أغلب بديعه

---

(١) العماد الأصبهاني ٦/١٧٢،١٧٣ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ١/١٠١ .

(٣) المصدر السابق ١/١٠١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كما يتضح من جلّ قصائده(١) .

وهو من الشعراء الذين لزموا المجاهدين من القادة الإسلاميين ، ولمع نجمه الأدبي في شعره المصاحب للجهاد .

والتجانس عنده يغلب عليه إرادة الاشتقاق وتوليد الألفاظ وهذا يخفف من تكلف الجناس المقصود الذي يألفه البلاغيون أحياناً وأحياناً نجده يتوافق بين عمليا التوليد والجناس .

فمن الاشتقاق المتوافق معنى قال معرضاً بصاحب دمشق في محاصرة نور الدين لها :

وجالدت جلاداً وأنت مؤنث تذكرت والجلاد أدهى واجلد(٢)

ومنه :

ومنك تعلم القطع المواضي وقد زبنت بها الحرب الزبون

غنوا حتى غزوتهم فغنى الصدى في أرضهم خف القطين(٣)

ومنه استغلاله لكلمة الصليب بمعناها النصراني ، حيث هي علامة صلب عيسى عليه السلام في زعمهم والصلب ويعني في اللغة القوة .

كانوا على صلب الصليب سرادقاً أنبت بنيه بكل مذكر(٤)

كم غير الصليب بهم صلباً فردته قناك وفيه لين(٥)

ومنه قوله :

ملأت عظام ساحتهم عظاماً فكل ملا لقوك به جرين

وبينهم القنا تجري نجيعاً كأن عيون أكعبها عيون

(١) انظر : الديوان من ٢٥٨ حتى ٢٧٠ .

(٢) الروضتين ١/٧٩ .

(٣) المصدر السابق ١/٨٢ .

(٤) المصدر السابق ١/٧٨ .

(٥) المصدر السابق ١/٨٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وبين حرار صرخد ذبن حراً ... له في كل حجة كمين
وفين من العريمة في عرام ... له في جوانبها الأقصى وجون
وكم حرم لحارم غادرته ... ودارته لمنسفها درين(١)

فأنت ترى سمات الاشتقاق والجناس معاً فعظام الأولى من العظمة والفخامة وعظام الثانية من العظام البشرية والحيوانية التي تكون هيكل الإنسان . وكذلك بين عيون وعيون فالعيون الأولى وهج الرماح وعيون الثانية عيون الرؤية . أو تكون الأولى من جريان الدم والثانية العين المائية .

ومنه حرار وحّر ، والعريمة في عرام ، وحرم الحارم ، دارته ودرين .

ومن أسلوب التجانس عنده التكرار :

أيا نور دين الله وابن عماده ... والكوثر بن الكوثر بن الكوثر(٢)

وإن أنت تتبعت نماذجاً من قصائده تتبعاً اعتباطياً تجد أن التجانس بألوانه يأخذ حيزاً من أبياته أقل من نصفها ، فقصيدته في نور الدين في محاصرة دمشق عام ٥٤٥هـ أورد منها أبو شامة تسعة وعشرين بيتاً ، التجانس منها في عشرة(٣).

وله قصيدة أخرى في الحادثة ذاتها أورد منها أربعين بيتاً بلغ التجانس منها اثنى عشر بيتاً ، بمعنى أنه أقل من النصف(٤)، وقصيدته في موقعة الجولان أورد منها أبو شامة تسعة وعشرين بيتاً بلغ التجانس عشرة أبيات(٥) .

وله قصيدة ميمية بلغت الأبيات التي أوردها صاحب الروضتين خمساً وثلاثين بيتاً الجناس منها أربعة عشر بيتاً(٦) .

---

(١) المصدر السابق ١/٨٢ .
(٢) المصدر السابق ١/٧٧ .
(٣) المصدر السابق ١/٧٧،٧٨ .
(٤) المرجع السابق ١/٧٨،٧٩ .
(٥) المرجع السابق ٨١،٨٢ .
(٦) المصدر السابق ١/٨٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وله قصيدة لامية أورد منها أبو شامة ثلاثين بيتاً وبلغ التجانس اثنى عشر بيتاً(١) .

وأكثر قصائده جناساً الدالية التي وردت في الروضتين في سبعة وثلاثين بيتاً بلغ التجانس فيها عشرين بيتاً ، وقد قيلت في عام ٥٤٦هـ(٢) . أي قبل وفاته بعامين اثنين وجل قصائده تلك قيلت بعد الأربعين وخمسمائة مما يعني أنها في آخر حياته لأنه توفي ٥٤٨هـ ، وزيادة العدد في قصيدته الأخيرة يوحي بالحاجة على هذا اللون وقناعته به استجابة للاتجاه النقدي . إذن فإن الاعتدال هو أقرب الأحكام في بديع ابن منير الطرابلسي .

ويستعين القيسراني (٤٧٨-٥٤٨هـ) بالتجانس لتلوين أسلوبه ، وتكثيف لغته ، وتنويع إيقاعه مما جعله يجلب منه ألواناً يغلب عليها الأداء الجيد ، فهي تحمل إيحاءً ، ودلالة أحياناً تكمل المعنى فحسب ، وتتبلور في قصائده ، فأورد أبو شامة له قصيدة عدد أبياتها واحد وخمسون بيتاً ورد التجانس في أربعة وعشرين منها:

ومن راهن الأقدار في صهوة العلى ... فلن تدرك الشعر مداه ولا الشعر

وجللتها نقعا أضاع شياتها ... فلا شهبها شهب ، ولا شقرها شقر

وتوجت ثغر الشأم منك جلالة ... تمنت لها بغداد لو أنها ثغر(٣)

والقيسراني (٤٧٨-٥٤٨هـ) يقل عدد أبياته في القصيدة الواحدة فيما نقله أبو شامة ، ولكنها عند الإحصاء تعطي مدلولاً ، يقترب من قرينه ابن منير الطرابلسي كقصيدة القيسراني في تاج الملوك بوري عند انتصاره على الإفرنج عام ٥٢٣هـ ومطلعها :

---

(١) المصدر السابق ١/٨٤ .

(٢) المصدر السابق ١/٨٥،٨٦ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ١/٧٣،٧٤ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الحق مبتهـــج والسيـــف مبتســـم ومال أعـــداء مجيـــر الـــدين مقتســـم

وبلغ عدد الأبيات التي نقلها أبو شامة اثنين وعشـرين ، الجنـاس منهـا تسـعة أبيات(١) .

وفي عام ٥٣٩هـ فتح عماد الدين (الرها) وقال القيسراني قصيدة أولها :

هو السيـف لا يغنيـــك إلا جـــلاده وهـــل طـــوق الأمـــلاك إلا نجـــاده

وعدد أبياتها في الروضتين ثمانية وعشرون بيتاً بلغ الجناس أربعة عشر بيتاً(٢).

وله قصيدة في ذات المعركة هنأ بها القاضي كمال الدين الشـهرزوري أورد صاحب الروضتين واحداً وثلاثين بيتاً منها عشرة أبيات تحـوي تجانسـاً(٣) ومـدح القيسراني نور الدين لما فتح أنطاكية بقصيدة بائية أورد منهـا اثنين وخمسين بيتـاً منها ثلاثة وعشرون تحوي تجانساً(٤) .

والقيسراني اعتمد في بديعه علـى التجـانس الـذي يوظـف الاشـتقاق بتوليـد الكلمات من بعضها ، ويتلاحم مع الجناس أحياناً ، وأيضاً التكرار ثم الجناس .

ونلحظ أن جناسه امتدادٌ لأولئك الشعراء العباقرة الذيـن حـذا حذوهـم فقـد اقتفى أثر أبي تمام في توليد الألفاظ عن طريق الاشتقاق فهو يأتي بفرع الكلمـة في البيت الواحد ، وهو أيضاً نتيجة لمتطلبات العصر النقديـة ، فالاتجـاه النقـدي يحبـذ هذا الاتجاه ، وكان زعيم النقدين العماد الأصبهـاني الـذي يشـيد بأهميـة الصنعـة عند القيسراني(٥) .

ولنوازن بين قصيدة الأنموذج السلف لأبي تمام وبعضاً مـن أبيـات القيسـراني لنرى معالم التوليد والاشتقاق :

---

(١) المصدر السابق ١/٥٤ .

(٢) المصدر السابق ١/٣٧،٣٨ .

(٣) المصدر السابق ١/٣٨،٣٩ .

(٤) المصدر السابق ١/٥٨ .

(٥) العماد الأصبهاني : الخريدة شعراء الشام ٢/٩٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا في السبعة الشهب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض في أثوابها القشب
حتى إذا محض الله السنين لها ... محض البخيلة كانت زبدة الحقب
بسنة السيف والخطيِّ من دمه ... لا سنة الدين والإسلام مختضب

وانظر إلى القيسراني يقتفي أثر أستاذه وقدوته في قصيدته البائية التي عارض بها قصيدة أبي تمام :

ما زال جدك يبني كل شاهقة ... حتى ابتنى قبة أوتادها الشهب
ضربت كبشهم منها بقاصمة ... أودى بها الصلب وانحطت بها الصلبُ
غضبت للدين حتى لم يفتك رضاً ... وكان دين الهدى مرضاته الغضب
طهرت أرض الأعادي من دمائهم ... طهارة كل سيف عندها جنبُ(١)

وقد أحصيت التجنيس في بائية أبي تمام فوجدت أن عدد أبيات القصيدة اثنان وستون بيتاً ، والتجنيس فيها بلغ أربعين بيتاً ، بينما قصيدة القيسراني بلغت اثنين وخمسين بيتاً ، وبلغ التجانس فيها ثلاثة وعشرين بيتاً .

ومن هنا ندرك أن زعامة التصنيع لأبي تمام وأن القيسراني وصاحبه ابن منير يجريان في سياقاته : وبهذا نخالف ما قاله الدكتور عمر موسى باشا عن القيسراني بأنه (رائد من رواد مذهب التصنيع البديعي في هذا العصر)(٢) .

والذي أراه أننا لا نصف ابن الخياط ، والأرجائي وابن منير ، والقيسراني ، التجديد ، ولا بقيادة التكلف ، وإنما يوصفون بالمقلدين ، وهم شعراء لهم دورهم الفاعل ، شاعريتهم القديرة ، إبداعهم المشرق ، وعليهم مآخذ كأي شاعر ، فلا

(١) أبو أسامة : الروضتين ١/٥٨ .
(٢) عمر موسى باشا : الأدب في بلاد الشام ٢٠٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نصفهم بالريادة ولا بالعبقرية وإنما هم امتداد طبيعي للاتجاه البديعي ، ومن هنا فإني خالفت أولئك الذين يصفونهم بالزعامة الإبداعية في البديع أو قيادة التكلف والجمود .

والتجانس عند عرقلة الكلبي يؤدي معنى ، ويلون صوتاً . من ذلك قصيدته في مدح علي بن نيسان بآمد(١) :

أظباء وجرة كم بشطّي آمدٍ ... من ظبية كحل ، وظبي أكحل

ومدلل ومذلل في حبه ... شتان بين مذلل ومدلل

وعرقلة الكلبي شاعر معاصر للحروب الصليبية ، قريب من ميادين الأحداث وشعره رقيق ، وقد أكثر من التوليد فهو الذي يقول :

وبوجنتيّ ووجنتيه إذا بدا ... من فرط وجدينا حياً وحياءُ

كيف الوصول إلى الوصال وبيننا ... بين ودون عناقه العنقاء

لله جيراني بجيرون ولي ... بلحاظهم ، وبهم ظبيٌ وظباء

وكأنهم ، وكأن حمرة راحهم ... في راحهم ، وهنا دمي ودماء(٢)

فجانس في البيت الأول بين وجنتيه ، وحياً وحياء ، وزاد في البيت الثاني ، حيث تصاريف الاشتقاق في ثلاث كلمات هي : الوصول ، بيننا ، عناقه ، وتقارب التوليد في قوله : جيران وجيران ، وظبي وظباء في بيته الثالث ، أما الرابع فكرر الجرس فيه في : كأن وراحهم ، ودمي . ومنه قوله(٣) :

تضاعف ضعفي بعد بُعد الحبائب ... وقد حجبوا عني قسيّ الحواجب

ومذ أفلت تلك الكواكب لم تزل ... موكلة عني برعي الكواكب

وتكرير الكلمة يتبين في شعر عرقلة الكلبي في مثل قوله :

ميلوا إلى الدار من ذات اللمى ميلوا ... كحلاء ما جال في أجفانها ميل

---

(١) الديوان ٨٠، ٨١ ، تحقيق أحمد الجندي ، طبع عام ١٣٩٠هـ ، ١٩٧٠م دار الحياة دمشق .

(٢) المصدر السابق ٣ .

(٣) المصدر السابق ٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فاستهل البيت بقوله : (ميلوا) ، وبنى وسطه على مماثلة ، ورد العجز على المقدمة في قوله : (ميل) التي يختلف معناها عن الميل والانحراف ، وهو يولي الاشتقاق اهتماماً فيجعل القافية توليداً للكلمة التي تسبقها :

كأنما قدها رمح ومبسمها صبح وحبك عسّال ومعسول
في كل يوم بعينيها وقامتها دمي ودمعي على الأطلال مطلول
إن يحسدوني عليها لا ألومهم لذاك جار على هابيل قابيل(١)

وأنت تشاركه الإحساس بنمنمة الربيع في قوله :

رقم الربيع ربوعها فكأنها زنجية تختال فيها بالحلي

ويتجلى روعة تجانسه في ذابل ويذبل :

ويرد صَدر السمهري بصدره ماذا يؤثر ذابل في ذبل

ومن تجانسه(٢) :

وكيف يكون لي صبر وفيه خلال صيَّرت جسمي خلالا
تصيدني الغزال بمقلتيه وقدماً كنت أصطاد الغزالا

والتجانس عند أبي الفوارس يتأتى في تباعد بين الأبيات ، و لم يلتزم به في المقدمة ، أو في خاتمة القصيدة ، وإنما يتخذ مكاناً حسب المضمون .

يقول في قصيدته الميمة التي قالها بمناسبة عزل شرف الدين علي بن طراد الزينبي وتولية شرف الدين أنو شروان بن خالد(٣) :

شكراً لدهري بالضمير وبالفم لما أعاض بمنعم عن منعم

فمنعم الأولى : الوزير علي بن طراد ، والثاني أنو شروان .

وهو في البيت الثالث يأتي بالتكرار في شطره الأول :

خير السوداد وداد أفوه ناطق لعبت به الجلّى ولم يتصرَّم

(١) المصدر السابق ٧٦ .
(٢) المصدر السابق ٨٤ .
(٣) الديوان ٢٥٧/١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والقصيدة مكونة من تسعة وستين بيتاً ، ولم يأت التجانس إلا في اثنى عشر بيتاً .

والتجانس الذي ورد فيها من باب التكرار في أغلبه مما يدل على أنهم خذوا بمبدأ توليد الكلمة واشتقاقها أو توظيفها مرة أخرى حيث تضيف مدلولاً جديداً .

ومثلها قصيدته في شرف الوزير علي بن طراد الزينبي(١)، وهاتان القصيدتان نموذجان ، ويشاكلهما الكثير من قصائده .

وأسامة بن منقذ الذي نهج سبيل الأوائل في الشعر ، ولم يغرم بالجناس ، وسائر المحسنات البديعية ، هو من أولئك الذين روضوا اللغة وولدوا اشتقاقها ووظفوها للحديث الوجداني في قدرة اشتقاقية رائعة .

فها هو يكرر كلمة نهج في البيت الأول ، أما الثاني فيأتي نغم (لُجّة) في إيحاء دلالي شعوري ، ويزيد المعنى إشراقاً وإيحاءً تكرار (لجوا) في ختام البيت حيث الأعماق السحيقة للعاشقين تستشرف أهوال ظلمات البحر ومخاوفه .

ونجده كذلك يكرر تمني النجاة في البيت الثالث :

وقائل رابهُ ضلالي عن نهـ ـجي والحبُّ مالهُ نهجُ
ويح بني الوجد كلما عُذلوا في خوضهم لُجّة الهوى لجّوا
علك تنجو منهم ، فقلت له : إياك عني ، حاشاي أن أنجو(٢)

وقوله :

وذكرَ الوفاءَ خيالك المنتابُ فسألم ، وهو بودّنا مرتابُ
نفسي فداؤك من خيال زائر متعتب عندي له الإعتاب
مستشرف كالبدر خلف حجابه أو في الكرى أيضاً عليك حجاب ـ!
أنكرت هجري ، والزمان بجوره يقضي بأن يتهاجر الأحباب(٣)

(١) المصدر السابق ١/٣٤٤ .
(٢) الديوان ٥٩ .
(٣) المصدر السابق ٥٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فتراه يستخدم التكرار والاشتقاق في هذه الأبيات ما عدا البيت الأول حيث قارب التلوين الصوتي بين المنتاب ومرتاب .

وهذا اللون القريب من التجانس يكثر في شعر أسامة بن منقذ ، غير أنه لا يظهر منه التكلف والتعسف له .

والتجانس عند أسامة بن منقذ ليس فيه تكلف ، ولا صنعة ؛ وإنما يأتي نتيجة توظيفه للمعنى القريب ، ويبدوا أنه لا يسعى إلى تلوين صوتي من ورائه .

وقد أحصيت التجانس ، بألوانه من تكرار وجناس في قصيدته الميمية التي تبلغ أبياتها تسعة وخمسين بيتاً ، كان عدد التجانس فيها سبعة عشر بيتاً ، يميل الكثير منها إلى التكرار ومن ذلك قوله(١) .

وناهم من توالي سُحب نائله ... ما نال نبت الثرى من وابل الديم

ولئن ظهر هذا البيت أكثر عناية من غيره ، فانظر إلى يسره وعفويته في قوله:

يرى الضغائن في قلب الحسود له ... تدب مثل دبيب النار في الفحم

ومثله :

جرت لطافته من قلب سامعه ... مجرى الهوى من فؤاد المغرم السّدم

يزيدي سامعها تكرارها شغفاً ... بها وكم جلب التكرير من سأم

وقد استعرضت رائيته الرائعة التي تبلغ تسعين بيتاً فلحظت بعده عن الإغراق فيها ، أو جلبها ، أو الحرص على ترصيع قصائده بها ومن التجانس القليل عنده :

فأيماننا في السلم سُحب مواهب ... وفي الحرب سحب وبلهن دم هَمِرُ

قضت في بني الدنيا قضاء زمانها ... فَسُرَّ بها شطر وسيء بها شطر

ويصف أقدام المجاهدين فيقول :

نواصلهم وصل الحبيب وهم عِدا ... زيارتهم ينحط عنا بها الوزر(٢)

---

(١) الديوان ٢٤٤،٢٤٧ .

(٢) أسامة بن منقذ : الديوان ٢٥١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والتجانس تختلف كثافته في دار الخلافة عنها في ميادين الحروب الصليبية ، فالشعراء يعبثون بالألفاظ ، ويجدون فسحة للصنعة الشعرية بعيداً عن الحروب .

فهذا العماد الأصفهاني عاش بالقرب من دار الخلافة ، وصحب قادة الجهاد، ولما نقارن بين قصائده نجده يكثر من التجانس في قصائده الأولى كقصيدته التي مدح بها عضد الدولة ، فعدد أبياتها خمسة وستون بيتاً تحتوي على التجانس بألوانه ، ما عدا سبعة عشر بيتاً(١) .

أما قصيدته في صلاح الدين التي تضم ستة وستين بيتاً فإن التجانس أكثر من النصف فيها ، فقد تجاوز ثلاثة وثلاثين بيتاً(٢) .

ومن الشعراء الذين زامنوا صلاح الدين الأيوبي الشاعر عبدالمنعم الجلياني (٥٣١-٦٠٣هـ) ، وقد صحب صلاح الدين في حروبه وله قصائد قبل فتح بيت المقدس يستحثه فيها لفتحه ؛ وتسمى المبشرات ، وأخرى بعد الفتح وتسمى القدسيات : ومن قوله ذلك : « لم أزل أتابع ذكر غزواته - أي غزوات صلاح الدين - وقرائن أحواله بأصناف المنظوم ، والمدبَّج ، والمسجوع ، ثم توالت حروبه وفتوحه في الساحل ، فعبّرت عنها بالقصائد القدسيات »(٣) .

وهذا الشاعر المغربي الذي التحق بديوان صلاح الدين ؛ يمثل الاتجاه الذي لم يتأثر بالبديع فالقارئ لديوانه (المبشرات والقدسيات) يدرك عدم تأثر الجلياني بالاتجاه نحو التجانس والتقابل والتورية ، وغيرها ، فلم يحرص على تدبيج شعره بالمحسنات رغم تسميته ديوان شعره في صلاح الدين (ديوان التدبيج)(٤) . وقد انتقيت عدداً من قصائد الديوان الآنف الذكر ، وأحصيت ما فيها من تجانس

---

(١) العماد الأصبهاني : الديوان ٦٦ .

(٢) المصدر السابق ١٠٧ .

(٣) ديوان المبشرات والقدسيات :٦٤ تحقيق د.عبدالجليل حسن عبدالمهدي .

(٤) المبشرات والقدسيات ٥٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وتقابل ، ومنها قصيدته الرائية التي سماها (القصيدة الفتحية الناصرية) التي بلغت اثنين وثلاثين بيتاً(١) .

والتجانس فيها لم يتجاوز ثلاثة أبيات ، والتقابل فيها بيتان فقط ، وقصيدته الدالية في فتح بيت المقدس المكونة من واحد وأربعين بيتاً ، التجانس فيها في سبعة أبيت فقط ، والتقابل في ثلاثة(٢) .

و (مدبجة رهان الأذهان) الرائية في ذكر صلاح الدين الأيوبي التي بلغت ستين بيتاً يندر فيها التجانس والتكرار والتقابل ، فلم أعثر على التجانس إلا في بيتين فقط ، والتقابل في بيت واحد(٣) .

وميميته (المبسوط الميمية) بلغت ستة وثلاثين بيتاً فيها تجانس واحد وتقابلان ، ولعلنا نتقي منها شاهداً(٤) :

ومن ليلهُ فكرٌ وصدقُ عناية ... تناهى ليحيى أمة مستدامُهُ

فإن أظلم الإسلام أشرق منك ما ... أجال به شمساً فذاب ارتكامه

فالبصدق ينقاد الملوي مسابقاً ... بطاعته والفتح مُرخىً زمامُهُ

وما وارثُ الأملاك غيرُ أخي وغيّ ... أفاض يداً يعلو الأنام حسامُهُ(٥)

وابن عنين (٥٤٩-٦٣٠هـ) الذي عاش مُزامناً مع تألق الكتابة الفنية عند القاضي الفاضل ، ومزمناً مع العماد الأصبهاني ، وابن سناء الملك اللذين أُخِذا عليهما الإكثار من التجانس ، وألوان البديع الأخرى - نجد أن ديوانه مصنف إلى المدائح ، والحنين إلى دمشق ، والرثاء ، والهجاء ، والدعابة والفخرية ، والألغاز ، وجميع هذه الأبواب يندر فيها الإلحاح على استجلاب البديع ، بل تندر الصنعة

---

(١) المصدر السابق ١٣٧ .

(٢) المصدر السابق ١٤٣ .

(٣) المصدر السابق ١٥٦ .

(٤) المصدر السابق ١٦٠،١٦١ .

(٥) الديوان ٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أيضاً وبينهما فرق كبير .

وقصيدته الرائية التي تصدرت الديوان في مدح العادل يستأذنه في العودة إلى دمشق لا تكاد تعثر فيها على تجانس . أو تقابل ، أو أي من ألوان البديع إلا في البيت الواحد أو الاثنين (فيه بعض من ألوان البديع)(١) .

وقصيدته اللامية في مدح الأشرف موسى بن الملك العادل المكونة من ستة وثلاثين بيتاً ، ليس فيها من التجانس إلا خمسة أبيات ، وخمسة أخرى في التقابل(٢) .

وقصيدته لعلها العينية مكونة من أربعة وثلاثين بيتاً ، فيها عشرة أبيات تتضمن تكراراً لا جناساً(٣) .

وقصيدته في الملك المعظم بلغت واحداً وثلاثين بيتاً ، حوت ستة أبيات في التكرار(٤) .

وقصيدته البائية في المعظم بلغت واحداً وثلاثين بيتاً ، جاء التكرار في ثلاثة أبيات منها(٥) ، وقريب من هذا جميع قصائد الديوان . والذي ألحظه أن التكلف لم يكن في الموضوعات الجادة ومواطن الإنشاد ، ولا يظهر التكلف حتى في باب الألغاز والأحاجي .

فهذا ابن عُنين الشاعر المشهور الذي يمثل مرحلة وسطاً بين القرنين السادس والسابع ، متأخر في عهد الحروب الصليبية ، نجزم بنأيه عن التكلف لألوان البديع (نتيجة إحصاء ديوانه) ، بل إنه أقل من الجيل السابق له كابن منير الطرابلسي ، والقيسراني ، ولا يقترب من العماد الأصبهاني ، وابن سناء الملك بإكثارهما

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ٩ .

(٣) المصدر السابق ١٢ .

(٤) المصدر السابق ١٥ .

(٥) المصدر السابق ١٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من المحسنات .

وهذا يحتم علينا أن نقول : إن الأحكام التي اتسمت بالشمولية ، ووسمت العصر بالتكلف والانحراف وراء البديع ، يجانبها الصواب .

ومن المعاصرين لابن عُنين ، بهاء الدين زهير ، غير أنهما في اتجاهين مختلفين من ناحية موضوعات شتى ، فالحياة الجادة عند ابن عُنين ، ونفسيته التي جابت الآفاق مشردة تمارس التجارة ، تعيش رغد العيش أحياناً ، وتتلوى سغباً أحياناً أخرى ، تلك الحياة أضفت ظلالها على شعره الذي يميل إلى القوة ، والجزالة ، وموضوعات المدح والوصف ، مع تعهده لشعره بالتثقيف والتنقيح ، إلا أنه ظهر لنا بمنأى عن الصنعة البديعية ، كما ظهر ذلك من خلال الإحصائية السابقة ، وربما لأن تلك الظروف كانت تشغله عن التصنع البديعي .

لكن إذا انتقلنا إلى بهاء الدين زهير (٥٨١-٦٥٦هـ -١١٨٥-١٢٥٨م).

ذلكم الذي يذوب رقة ، ويندفع شعره عفوية ، ويكثر من الأوزان الخفيفة ، ويستخدم ألفاظاً وأمثالاً دارجة ، وأكثر موضوعاته ذاتية وقليل منها مدائح ، وكلها تتأطر بالرقة . ومع أن هذه الصفات تنجذب إلى الصنعة البديعية ؛ إلا أن ديوانه يكاد يخلو من تعمد البديع أو الإكثار منه ، إلا ما جاء عفو الخاطر كغيره من الشعراء الأوائل ، كمثل قصيدته القافية في مدح الصاحب صفي الدين المعروف بابن شكر المكونة من ثلاثين بيتاً ، فإن التجانس الصوتي فيها لا يتجاوز خمس مرات(١) .

وقصيدته في مدح السلطان الصالح نجم الدين أيوب عام ٦٢٢هـ تعد من أطول قصائده ومع ذلك فإن التجانس (التكرار والجناس) لم يتجاوز خمسة أبيات وأقل منه التقابل(٢) .

---

(١) الديوان ٢٢٨ .

(٢) المصدر السابق ٢٢٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومثل ذلك قصيدته (جنة الحسن) في الرحيل عن مصر فإنها تكاد تخلو من التكرار أو الجناس معاً[1] .

• ونتيجة هذه الإحصائية أن التجانس لم يكسو القصيدة ، و لم يسرف الشعراء في جلبه ، و لم يكن غابناً للمضمون ، وإنما ورد في اعتدال مع إنسجامه في اتجاه عصره ، والعصر السابق له – وهو لم يكن – متكلفاً ووظفوه لجمال الجرس الموسيقي ، وحسن تآلفه ، وفي هذا رد على من زعم تكلف التجانس فضلاً الجناس .

(1) المصدر السابق ٢٣٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التقابل والتضـــاد

إن التقاء الأشياء المتقابلة وتجريدها أمام الناظر ، يدعوه إلى التأمل والمقارنة بينها ، مما يطيل التدبر فيها ، ويظهر مفرداتها أكثر ، ويقرب التضاد بين الأشياء ، فالتقابل يدعو إلى التفكير وإحالة النظر ، ويقود إلى التأمل ، بل إنه يؤدي إلى الجدل والحوار ، وكلاهما يفتق الوعي ، ويلهم ، ويبرهن ، ويبلغ إلى الجودة ، والقمة . والإرجاني معتدل في استخدامه للتقابل من طباقا وتعارض ، وقد وقع أمام ناظري قصيدته العينية في مدح أنو شروان بن خالد التي بلغت ثلاثة وسبعين بيتاً ، فوجدت أن التقابل فيها لا يتجاوز عشرة أبيات ومنه قوله :

النار تقبس من وطيس جوانحي والماء يسوري من غدير دموعي
قلبي وعيني يغنيان ركابكم عن رحلتي قيظ لكم وربيع(١)

وله قصيدة عينية أخرى عدد أبياتها أربعة وخمسون بيتاً ، التقابل فيها لا يتجاوز خمسة أبيات(٢).

ويقل التقابل عند ابن منير فهذه إحدى قصائده مكونة من واحد وثلاثين بيتاً، نجدها تحتوي على أربعة أبيات يتبلور فيها التقابل منها قوله :

سحب إذا سحبت بأرض ذيلها فالحرب سهل والهضاب وهاد
يا من إذا عصفت زعازع بأسه خمدت جحيم الشرك فهي رماد(٣)

ويوجد التقابل بقلة عند القيسراني فرائيته أثبت أبو شامة منها واحداً وخمسين بيتاً ، منها تسعة أبيات يظهر فيها أحد ألوان التقابل :

وقد أدَّت البيض الحداد فروضها فلا عهدة في عنق سيف ولا نذر

---

(١) الأرجاني : الديوان ٣/٩١٤ إلى ٩٢١ .
(٢) المصدر السابق ٣/١٢٢٥ .
(٣) الروضتين ١/١٠١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وصلّت بمعـــراج النـــبي صـــوارم مساجدها شفع وساجـــدها وتـر(١)

وأبو الفوارس المتوفى ٥٧٤هـ من الشعراء البارزين في العراق ، وموطنه قريب من موطن الحريري ، وقد تعهد التقابل والتضاد بشيء من الاهتمام لم يبلغ مرحلة الصنعة أو الاسراف .

يقول في قصيدته اللامية يمتدح فيها الخليفة المسترشد :

وكلما كثرت - والحال شاهدة - وسائلي آذنت حالي بإقلال

أمضى الخلائف عزماً عند مجلبة وأثبت القوم قلباً عند أهوال

منكب العيش خفضاً من تهامُمِهِ ونازلٌ بشعاف المجد محلال(٢)

فالكثرة والإقلال ، ثم المضي والثبات ، والخفض والشعاف ، كلها كلمات متضادة تدعو إلى التأمل ومقارنة الحالين .

ومن ذلك أيضاً قوله(٣):

إذا رقد الكس الدثور عن العُلى تجافي ضلوعاً عن حشيّ وغرق

لتبلغ جياش المراحل بالدجى الـ ـبهيم ضروباً بالصباح المشرق

يضاحك شمس الصبح منه بيضه وزهر الليالي من شبا كلّ أزرق

ليهنك عيد أنت عيد لأهله سرور لمهموم ووجدٌ لمملق

فالتقابل الذي يسمى بالطباق في (رقد وتجافي) ، والتقابل في (الدجى البهيم والصباح المشرق)، وفي (الصبح والليل) وفي (سرور المهموم ووجد المملق) ظاهر هنا .

وقد وجدنا أن الشاعر قليل العناية بالتقابل بشتى صوره ، فله قصيدة مكونة من ستة وخمسين بيتاً تخلو من التقابل إلا أربعة الأبيات السابقة .

---

(١) المصدر السابق ١/٧٣ .

(٢) الديوان ١/٣٤٣ .

(٣) المصدر السابق ١/٣٤٦،٣٤٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولا يبدو عليه فيها التكلف أو التصنع لهذا اللون إنما يأتي عفواً موحياً(١) .

والأوائل أدركوا جمال التقابل والتضاد وتأثيرهما النفسي ، فالعماد الأصبهاني يشيد بأربعة أبيات من رائية الأمير مجد العرب أبي علي بن محمد بن غالب العامري التي أنشدها في حسام الدين تمرتاش في عام أربعة وثلاثين وخمس مائة :

حويت (حسان الدين) كل فضيلة ... سواك لها طي ، وأنت لها نشر

فما ينتهي إلا إلى كفك الندى ... ولا يعتزى إلا إلى بيتك الفخر

سُطا كلما تابعتها جزع الردى ... ونعمى متى فرّقتها جُمع الشكر

ونفس كأن من طبعها خُلق السخا ... وبأس كأن من حره طُبع الجمر

ويقول العماد عنها : « الأبيات الأربعة حقها أن تكتب بذوب التبر ، على صفحة الدهر ، وترقم بسويداء الفؤاد على سواد الحدق ، وترتاح لها النفوس ارتياح الرياض للديمة الغدق »(٢) .

والمتدبر للأبيات يلتمس أن الذي أعجب العماد هو التقابل بين (طي ونشر، وينهى ويعتزى ، وفرقتها وجمع ، ونفس طيبة وبأس) .

الشعراء يكثرون منها في غير إسراف ولا تبذل ، وذلك شأن أسامة بن منقذ وآخذ بطريقة عشوائية قصيدته الميمية التي يشكر فيها الملك الصالح بن رزّيك على بعثه أهله من مصر ، وهي مكونة من تسعة وخمسين بيتاً بما فيها المقدمة المفصولة عنها ، وقد بلغت الأبيات التي احتوت على التقابل ثلاثة عشر بيتاً ، وهذه نسبة متواضعة لا توحي بتكلف أو بعد مأخذ ، ويبدو أنه لا يسعى إلى إشارة جدلية من ورائه .

---

(١) المصدر السابق ١/١٤٤ .

(٢) العماد الأصبهاني : الخريدة القسم العراقي ، الجزء الثاني ١٤٦ المجلد الأول ، المجمع العراقي ١٣٨٤هـ ، ١٩٦٤م .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن تلك الأبيات :

يستقبل الحرب بساماً ، وقد كشرت بها المنية عن أنيابها الأُرُم
فإن سطا عن يقين أو عفا كرماً فإنه خير ذي عفو ومنتقم(١)

وظاهرة الاعتدال هذه ظاهرة في جل شعره ومنه قصيدته الرائية في بطولات الجهاد لنور الدين ، التي بلغت تسعين بيتاً ، وهي من أجود شعره ، وأجمله تركيباً وتصويراً ، ومع ذلك لم يتكلف أو يتصنع التقابل فيها ، فأبيات التقابل ثمانية عشر بيتاً فقط ، ومنها :

بحيث حللنا الأمن من كل حادث وفي سائر الآفاق من بأسنا ذعر
وما في ملوك المسلمين مجاهد سوانا ، فما يثنيه حرٌ ولا قرّ
وفي سجنا ابن الفنش خير ملوكهم وإن لم يكن خير لديهم ولا برّ(٢)

ومن التقابل والتضاد في شعر عرقلة :

تناءوا بعد قربهم ملالا وسرنا يمنة وسروا شمالا
بك استغنيت عن زيد وعمر ومن طلب الهدى ترك الضلالا
محلك في النجوم إذا تدانى وضدك في التخوم إذا تعالى
أقاموا في سماحهم بحارا وأضحوا في حلومهم جبالا(٣)

ويندر التقابل في شعر ابن عنين ، فقصيدته اللامية في مدح الأشرف موسى بن العادل ، المكونة من ستة وثلاثين بيتاً بلغ التقابل فيها خمسة أبيات(٤) .

وقصيدته العينية مكونة من أربعة وثلاثين بيتاً منها ثلاثة أبيات في التقابل(٥).

وقصيدته الرائية في مدح المعظم عيسى بلغت واحداً وثلاثين بيتاً ضمت

---

(١) الديوان ٢٤٥ .
(٢) المصدر السابق ٢٥١، ٢٥٢ .
(٣) الديوان ٨٤ .
(٤) الديوان ٩ .
(٥) المصدر السابق ١٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

خمسة أبيات فيها تقابل(١) .

وقصيدته البائية في المعظم بلغت واحداً وثلاثين بيتاً منها ثلاثة أبيات في التقابل(٢) .

وهذا التقابل الذي تبلور في شعرهم إنما هو امتداد لسلفهم وتقليد له فهم لم يتجاوزوا رائد هذا اللون الشاعر أبا تمام بل لم يبلغوا مبلغه في هذا . وهو لم يصدر عن تكلف ، وإنما جاء عن أسلوب تعبيري صادر عن أصالة الشاعر ، ولم يكن مجافياً لمضمون البيت بل كان موظفاً توظيفاً فنياً . إذن فإن الإحصاء للتجانس والتقابل يجعلنا نرفض مجاراة الذين يرون ضعف وترهل الشعر في العصر بسبب التكلف للمحسنات البديعية .

(١) المصدر السابق ١٥ .

(٢) المصدر السابق ١٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أعلام المحترفين

١ – الأرجاني(١) :

ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد الأرجاني نسبة إلى أرجان من كور الأهواز ولد عام ٤٦٠هـ ، مدح الملك الوزير الفارسي الأصل الذي يمثل الرجل الثاني في دولة ملكشاه السلجوقي ، ومدح غيره من وزراء ، السلاجقة ، فقيه تولى القضاء كثيراً ، مات عام ٥٤٤هـ ، وله ديوان مكون من ثلاثة مجلدات حققه الدكتور محمد قاسم مصطفى .

يغلب على ديوانه المدائح لوزراء السلاجقة ، ووزراء الخلافة العباسية ، وهو يطيل في المقدمات الغزلية ، ومن ذلك قصيدة في مدح تاج الملك أبي الغنائم(٢):

غير العدا بسيوفكن قتيل ... وعيونكن الصارم المسلول

أنّى لبيض الهند وهي جديدة ... فتكات ذاك الطرف وهو كليل

وبعد ثلاثة عشر بيتاً من الغزل يمدح فيقول :

أو ليس تاج الملك من آدابه ... ألا يطاع على السماح عذول

وهو الإمام المقتدى بفعاله ... وهو الهمام المتقي المأمول

إن كان جاد به الزمان فإنه ... بجواد آخر مثله لبخيل

قل في الورى طراً إذا استثنيته ... القول جمّ ، والفعال قليل(٣)

ومدائحه تتجاوز التعسين بيتاً أحياناً كميميته في القاضي الهروي وكنونيته في عز الدين أبي نصر وغيرها(٤) .

---

(١) مقدمة الديوان ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ١/١٥١ ، إشراف د . إحسان عباس ، دار صادر بيروت .

(٢) الديوان ٣/١٠٧٣، ١٠٧٤ .

(٣) المصدر السابق ٣/١٣٠٠، ١٣٤٣ .

(٤) المصدر السابق ١/١٤٥٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويرثي بقصائد مطولة أيضاً كنونيته في رثاء أبي المحاسن فقد بلغت ثمانية وتسعين بيتاً(١) .

٢ – ابن منير الطرابلسي :

عين الزمان ، مهذب الدين أبو الحسن أحمد بن منير بن مفلح الطرابلسي ولد عام ٤٧٣هـ في طرابلس ، وهو شيعي متعصب ، التحق بنور الدين ومدائحه كثيرة ، وهي تمثل الحياة الحربية في تلك المرحلة مات عام ٥٤٨هـ(٢) .

سجل له أبو شامة كثيراً من القصائد التي تصور حروب نور الدين ضد الصليبيين(٣) :

شمّر فقد مدت إليك رقابها	لا يدرك الغايات غير مشمّر
أولت من ملأ البسيطة عدله	واجتب بالمعروف أنف المنكر
يا هضبة الإسلام من يعصم بها	يؤمن ومن يتول عنها يكفر
كانوا على صلب الصليب سرادقاً	أنبت بنيته بكل مذكر
ملك تساوى الناس في أوصافه	عُذر المقلّ وبان عجز المكثر
يا أيها الملك المنادي جوده	في سائر الآفاق هل من معسر

ويقول(٤) :

ومنك تعلّم القطع المواضي	وقد زبنت بها الحرب الزبون
وأنت السيف لم تمسه نار	ولا شحذت مضاربه القيون
ترقرق فوق صفحته الأماني	ويقطر من غراريه المنون
لقد أشعرت دين الله عزاً	تتيه له المشاعر والحجون

(١) المصدر السابق ١٤٥٤/٣ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤٩/١ ، د. عمر موسى باشا ، الأدب في بلاد الشام : ٢٠٥، أحمد بدوي ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ١٣٦، د. محمد المرزي ، شعر الجهاد ٢٥٥ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ٧٨/١ .

(٤) المصدر السابق ٨٢/١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقـــام بنصـــره والنـــاس فوضـــى قـــويّ منـــك في الجلـــى أمـــين
وكـــم عـــبر الصليـــب بهـــم صليبـــاً فردّتـــة قنـــاك وفيـــه لـــين
ومـــا خطـــرت بـــدار الشـــرك إلا هـــوى الناقـــوس وارتفـــع الأذيـــن

٣ – القيسراني(١) :

هو شرف الدين محمد بن نصر بن صغير الملقب بالقيسراني ولد في عكا سنة ٤٧٨هـ ، ويدعى أنه من نسل خالد بن الوليد (رضي الله عنه) ، خرج أبوه من عكا بأسرته فراراً من الصليبيين ، واستوطن قيسارية ومن هنا لقب الشاعر بالقيسراني ، وليس أبوه كما وهم الكثير ، وصاحب الروضتين يطلق عليه القيسراني .

تتلمذ على الشاعر المشهور ابن الخياط ، ومدح أمراء دمشق ، ثم التحق بعماد الدين ومدحه ، ولما قتل عماد الدين في عام ٥٤١هـ ، عاد إلى دمشق لكنه لم يلبث طويلاً حتى التحق بنور الدين زنكي وصحبه في حروبه وأسفاره ، ونافسه على تلك المكانة الشاعر أحمد بن منير الطرابلسي ثم عاد في عام ٥٤٨هـ إلى دمشق وحُمّ ومات بعد عشرة أيام من مرضه .

وشعره يتكون من شريحتين كبيرتين إحداهما : المتمثل في المدائM وهذه الشريحة يصور فيها حياة الجهاد ضد الصليبيين حتى وفاته ، وهو شعر تقليدي ينهج فيه أثر أبي تمام ، المتنبي ، وأبي فراس الحمداني ، ويمتح من معانٍ ثرة في الجهاد وأبطاله ، ووصف المعارك والحصون ، وحسن القيادة والتدبير ، وأماني وحدة المسلمين ، واسترداد بيت المقدس .

لذلك كان أسلوبه جزلاً قريباً ، وكان يطيل القصائد وينظمها على الأوزان الطويلة .

---

(١) انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ١٦/٢ ، والأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين ١٧٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومصدر أشعاره في الجهاد ، كتاب الروضتين ، والخريدة وغيرهما .

وقد صحب عماد الدين سنة ٥٣٤هـ ومدحه لما استرد المهرة وكفر طاب(١):

حذار منا وأنىّ ينفع الحذر ... هي الصوارم لا تبقي ولا تذر

وأين ينجو ملوك الشرك من ملك ... من خيله النصر لابل جنده القدر

سلوا سيوفاً كأغماد السيوف بها ... صالوا فما أغمدوا نصلاً ولا شهروا

حتى إذا ما عماد الدين أرهقهم ... في مأزق من سناه يبرق البصر

وفي المسافة من دون النجاة لهم ... طول وإن كان في أقطارها قصر

وأصبح الدين لا عيناً ولا أثراً ... يخاف والكفر لا عين ولا أثر

فلا تخف بعدها الإفرنج قاطبة ... فالقوم إن نفروا ألوى بهم نفر

والشريحة الثانية تتجسد في ديوانه الثغريات حيث كان يزور أنطاكية والرها ويتردد على الأديرة والكنائس ، فأخذت لبه بنات الإفرنج ، وقال شعراً عاطفياً رقيقاً يفيض شعوراً وإحساساً ، ويتحلى بقشب الفن ، ومتعة الذوق وسهولة النطق ، وسلامة الترتيب ، وصدق العاطفة ، وواقعية المضمون(٢) :

كم بالكنائس من مبتلة ... مثل المهاة يزينها الخفرُ

من كل ساجدة لصورتها ... لو أنصفت سجدت لها الصورُ

قدسية في حبل عاتقها ... طول وفي زنارها قِصرُ

غرس الحياء بصحن وجنتها ... ورداً سقى أغصانَه النظرُ

وتكلمت عنها الجفون فلو ... حاورتها لأجابك الحورُ

٤ – المهذب بن الزبير :

هو أبو محمد الحسن بن علي بن الزبير المصري ، ينتمي إلى غسان من أسرة

(١) أبو شامة : الروضتين ١/٣٤ .

(٢) العماد الأصبهاني : الخريدة ، شعراء الشام ودمشق ١/١٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

معروفة بالمال والرياسة ، ولد في أسوان بمصر ، مدح الملك الصالح نور الدين زنكي ومات سنة ٥٦١هـ . حقق ديوانه الدكتور محمد عبدالحميد سالم ، وكتب عن حياته وأدبه في ثلاث وسبعين ومائة صفحة ، ثم اتبع ذلك بالديوان . ويبدو أن الذي عثر عليه أقل مما نظمه الشاعر بكثير وربما ضاع أكثره(١) .

له في المقدمة قصيدة مدح :

بـــا الله يـــا ريـــح الشـــما ... ل إذا اشـــتملت الليـــل بُـــردا
وحملـــت مـــن نشـــر الخـــزا ... مـــي مـــا أغتـــدى للنـــدّ نـــدّا
ونســـجت في الأشـــجار بيـــ ... ـــن غصونهـــن هـــوى وودّا
وهـــززت عنـــد الصبـــح مـــن ... أعطافهـــا قـــداً فقـــدا
ونـــثرت فـــوق المـــاء مـــن ... أجيادهـــا هـــذا الزهـــر عقـــدا
فمـــلأت صفحـــة وجهـــه ... حتـــى اكتســـى آســـا وودا(٢)

وأطول قصائده في الديوان النونية التي يمدح بها الصالح طلائع بن رزّيك بلغت سبعة وستين بيتاً منها :

أعلمـــت حـــين تجـــاور الحيـــان ... أن القلـــوب مواقـــد النـــيران
وعرفـــت أن صدورنـــا قـــد أصبحـــت ... في القـــوم وهـــي مرابـــض الغـــزلان
وعيوننـــا عـــوض العيـــون أمدهـــا ... مـــا غـــادروا فيهـــا مـــن الغـــدران
ولقـــد بعثـــت إلى الفرنـــج كتائبـــاً ... كالأســـد حـــين تصـــول في خفـــان
وتيممـــوا أرض العـــدو بقفـــرة ... جـــراء خاليـــة مـــن الســـكان
وثللت في يـــوم العريـــش عروشهـــم ... بشبا ضـــراب صـــادق وطعـــان(٣)

أبو الفواس : حيص بيص :

هو شهاب الدين سعد بن محمد بن سعد بن صيفي التميمي ينتهي نسبه إلى

(١) انظر : شعر المهذب بن الزبير ، تحقيق د . محمد عبدالحميد سالم ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٨م

(٢) المرجع السابق ١٨٦ .

(٣) المصدر السابق ٢٣٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أكثم بن صيفي ، ولد في بغداد سنة ٤٩٢هـ ومات عام ٥٧٤هـ ، درس في المدارس النظامية « اشتهر أبو الفوارس بصدق اللهجة ، ورصانة الخلق ، والترفع عن الصغائر ، والتنزه عن المقابح ، والتزم السلوك الكريم ، وتأدب بآداب الشرع»(١) .

يعد من كبار الشعراء في بغداد ، له مكانته ، يلتزم بالزي الاعرابي ، يُدل ويفخر بأرومته التميمية ، يعرض كثيراً عن الغزل الفاحش ، ويقدم مدائحه بالفخر أحياناً .

له ديوان شعر مكون من جزأين ، حققه مكي السيد جاسم ، وشاكر هادي شكر ، نشر عام ١٩٧٤م بالعراق .

مدح الخلفاء من بني العباس ووزراتهم ، وملوك بني أسد . ومدح نور الدين زنكي ، وهو يجنح إلى الصور البدوية في شعره ، يقول في مقدمة قصيدة يمدح بها أنو شروان بن خالد الوزير(٢) .

وفتيان صدق من تميم تناثلوا ... دروعهم والليل ضافي الوشائع
وقيذين من عرق السرى وقلوبهم ... شداداً على مر الخطوب الصوادع
يقودون جرداً مضمرات كأنها ... كواسرُ عقبان الشريف الأباقع
وكنت إذا ما ساورتني كريهة ... برزت لها في جحفل من مجاشع
فلم أستكن من صرف دهر لحادث ... ولا ارتعتُ من وقع الخطوب لرائع

وشعره يمتاز بقوته ، فهو يلجأ إلى الحروف ذات المخارج الحلقية ، والأصوات الجهورية ، ومن هذه الألفاظ القوية تتكون تراكيبه الجزلة القوية .

٦ – عرقلة الكلبي :

هو أبو الندى حسان بن نمير ، يلقب بالكلبي ، ولد عام ٤٨٩هـ ، عاش في

---

(١) الديوان ١/٣٩ .

(٢) المصدر السابق ١/٧٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

دمشق ، يقول عنه العماد الأصبهاني : « لقيته في دمشق شيخاً خليعاً ربعة مائلاً إلى القصر ، أعور مطبوعاً حلو المنادمة ، لطيف النادرة ، معاشراً للأمراء ، شاعراً مستعراً في الهجاء » مات عام ٥٦٧هـ(١) .

له ديوان صغير حققه أحمد الجندي طبع هام ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .

مدح شيركوه وصلاح الدين لما ذهبا إلى مصر عام ٥٦٢هـ(٢)، وهو يتقلب في مدائحه فتارة يمدح الوزير ابن رزيك ، ويعلن أنه على مذهبه يتشيع ، وبعد ذلك يمدح أسد الدين شيركوه ، وصلاح الدين ، وتارة يعلن الابتعاد عن الصراع(٣) .

ذَرِ الأتراك والعربا ... وكن في حزب من غلبا

بجلق أصبحت فتن ... تجر الويل والخربا

لئن غمت فوا أسفا ... ولم تخرب فواعجبا

وهو قصير النفس يغلب على ديوانه المقطوعات الشعرية ، والقصائد القصيرة؛ فهي لا تتجاوز خمسة وعشرين بيتاً ، وقد أشار إلى ذلك الأصبهاني : « ثم وقع بيدي بعد ذلك ديوان شعره فطالعته ، وقصائده قصار ، وفي النادر أن تزيد قصيدته على خمسة وعشرين بيتاً ، ومقطعته على عشرة أبيات وكلها نوادر»(٤) .

٧ - أسامة بن منقذ :

ولد أسامة بن منقذ في شيزر عام ٤٨٨هـ في أسرة توارثت الإمارة في حصن شيزر ، كان أبوه صالحاً ، علمه الفروسية ، وحفظه القرآن ، وألحقه بالعلماء ،

---

(١) العماد الأصبهاني : الخريدة شعراء الشام١/١٧٨ .

(٢) الديوان ٣٠، ٤٩ .

(٣) المصدر السابق ١٣ .

(٤) العماد الأصبهاني : الخريدة شعراء الشام ١/١٨٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ورعاه عمه أبو العساكر حاكم شيزر حتى جاء له أبناء فضيق على أسامة وأخرجه منها ، فولى وجهه شطر عماد الدين زنكي ، والتحق بجنده ثم عاد مرة أخرى إلى شيزر ليفك حصار الصليبيين عنها ، ثم أخرجه عمه مرة أخرى هو وأسرته فاتجه إلى دمشق ، وأصبح مستشاراً ، ثم انتقل إلى مصر عام ٥٣٩هـ ، واستقبل استقبالاً حافلاً ، وأصبح من رجال الدولة لكنه عاد إلى لشام ٥٤٩هـ والتحق بنور الدين زنكي واعتكف في حصن (كيفا) للتأليف ثم التحق بصلاح الدين عام ٥٧٠هـ وقربه إليه وتقدمت به السن ومات عام ٥٨٣هـ(١) .

وشعره يمثل حياته فهو أمير فارس أبي النفس ، له مكانة عالية عند علية القوم ليس بالمدح لكن بسجل الأحداث ولا سيما في مكاتباته مع الصالح طلائع بن رزّيك ، وله ديوان شعر مطبوع حققه الدكتور أحمد بدوي ، وحامد عبدالحميد ، وله كتاب الاعتبار ، وبديع البديع ، والعصا ، ولباب الآداب وغيرها، وقد اقتفى بشعره آثار أبي فراس ، والمتنبي ، وأبي تمام وغيرهم من شعراء العربية، يقول في الشكوى(٢) .

وما أشكو تلوّن أهل ودي ... ولو أجدَتْ شكيَّتهُم شكوتُ

مَلَلْتُ عتابهم ، ويئست منهم ... فما أرجوهم فيمن رجوت

إذا أدمت قوارصُهُم فؤادي ... كظمت على أذاهم وانطويتُ

ورحتُ عليهم طلق المُحيّا ... كأني ما سمعت ولا رأيتُ

تجنّوا لي ذنوباً ما جنتها ... يداي ولا أمرت ولا نهيت

ولا والله ما أضمرت غدراً ... كما قد أظهروه ولا نويت

ويوم الحشر موعدنا وتبدو ... صحيفة ما جنوه وما جنيتُ

(١) انظر : أسامة بن منقذ : الديوان ، المقدمة ؛ انظر : عمر موسى باشا ، الأدب في بلاد الشام .

(٢) الديوان ١٦٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سبط بن التعاويذي :

هو أبو الفتوح محمد بن عبيد بن عبيدا لله بن عبدا لله الكاتب المعروف بابن التعاويذي ، ولد عام ٥١٩ ، ومات عام ٥٨٣هـ ، شاعر عراقي ، ولكن له مدائح في صلاح الدين الأيوبي وله هبات وهدايا منه يقول عنه ابن خلكان : « شاعر وقته و لم يكن مثله ، جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ، ورقة المعاني ودقتها ، وهو في غاية الحسن والحلاوة »(١) .

كان معاصراً للعماد الأصبهاني وصديقاً له بينهما معارضات شعرية(٢)، وله ديوان ضخم مطبوع ولكنه لم يحقق .

وشعره ينبئ عن موهبة ودربة شاعرية ، ونظرة واعية ، وطول نفس ، وتفوق في النظم ، وقدرة في توظيف اللغة حيث السهولة والانسياب والتأثر والتأثير الشعوري ، وهو بعيد عن التكلف في المضمون والشكل ، وابتعد عن صنعة البديع وتصنعه(٣) :

لما رأوك وأنت أثبت منهم ... جأشاً وأفئدة الفوارس تخفق

وَلّوا على الأدبار لا يدرون أنـ ... ـهم إلى ورد المنية أسبق

وأدرتهن كؤوس موت أحمر ... عاف الشراب به العدو الأزرق

فنجا وصدر الأشرفية وأغر ... منه وقلب الزاغبية محنق

نبذته أقطار البلاد فأصبحت ... من دونه والرحب فيها ضيق

حتى كأن الأرض حلقة خاتم ... في عينه والجو سقف مطبق

يرتاع من ذكراك إن خطرت له ... ويراك في حلم المنام فيفرق

---

(١) مقدمة الديوان .

(٢) الديوان ٤٣٨ .

(٣) الديوان ٢٩٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٦ – ابن عُنين(١) :

هو شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر الأنصاري الدمشقي ، ولد سنة ٥٤٩ وتوفي سنة ٦٣٠هـ ، نشأ بدمشق قبلي الجامع الأموي قال الشعر وعمره ستة عشر عاماً ، وشب في مرحلة تكوين الدولة الأيوبية ، فلم يكن العهد بعد نور الدين محمود زنكي عهد استقرار ، ولم تظهر سمات القوة والجهاد عند صلاح الدين مما جعل ابن عنين يشك في الحكام الجدد ويسخر منهم فقال في صلاح الدين ، والقاضي الفاضل :

سلطاننا أعرج وكاتبه ذو عمش والوزير متحدب

فأخرج من دمشق وتوجه إلى اليمن ، والحجاز ، والعراق ، والهند ، وطوف كثيراً ثم عاد إلى دمشق في عهد العادل أخي صلاح الدين الأيوبي .

والتقى بمصر بمجموعة من الشعراء ولهم مجالس أنس يتطارحون الشعر فيها ومن ذلك الألغاز والأحاجي .

وله ديوان حققه خليل مردم بك المتوفى عام ١٩٥٩م ، والديوان مصنف على أبواب : الباب الأول المدائح ، والثاني في الرثاء ، والثالث في الحنين إلى دمشق ، والرابع في الوقائع والمحاضرات ، والخامس في الدعابة والتهكم والسخرية، والسادس في الألغاز ، والسابع في الهجاء .

وينهج ابن عُنين في بناء القصيدة منهج العمود الشعري ، والنسق المألوف فيستهلها بالغزل ، ثم الشكوى ، ثم يحسن التخلص إلى غرض المدح ، ويخرج أحياناً إلى ذكر محاسن دمشق كأنه يعوض به عن ذكر الأطلال .

وهو هو يمدح الملك المعظم عيسى بن الملك العادل فيذكر دمشق(٢) :

---

(١) الديوان ، المقدمة ، د.عمر موسى باشا ، الأدب في بلاد الشام ٣٤٤،د. أحمد بدوي ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ٢٢٢ .

(٢) ابن عنين : الديوان ١٥إلى ١٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أشاقك من عُليا دمشق قصورها ... وولدان روض النير بين وحورها
ومنبجس في ظل أحوى كأنه ... ثياب عروس فاح منها عبيرها
منازل أنس ما أمَّحَتْ ولا أمَّحَتْ ... بمر الغوادي والسواري سطورها

ومن الشكوى على شاكلة الأوائل حتى في التجريد واللفظ (الخليلي) :

خليلي إن البين أفنى مدامعي ... فهل لكما من عبرة أستعيرها
لقد أنسيت نفسي المسرات بعدكم ... فإن عاد عيد الوصل عاد سرورها

ثم يتبلور عنده حسن التخلص :

وقد ماتت الآمال عندي وإنما ... إلى شرف الدين المليك نشورها
مليك تحلى الملك منه بعزمة ... بها طال من رمح السماك قصيرها

ومبالغته :

همام تظل الشمس من عزماته ... محجبة تقع المذاكي ستورها
مهيب فلو لاقى الكواكب عابساً ... تساقطت الجوزا وخرت عبورها

ونتيجة الرأي :

أن شعر الشعراء المحافظين كان امتداداً لمسيرة الشعر العربي عبر العصور ، وأنه حلقة من حلقاته المتشابكة مع ماضيه ، المؤسسة لمستقبله ، فهم استمدوا مضامين الماضي ، ونهجه وصوره وعامة أسلوبه ، غير أنهم لم يذوبوا في ذلك التراث ، فإن شخصية العصر الفكرية والمضمونية ، والأسلوبية في سمات شعرهم عامة ، وليس هذا وحسب ، فإن شخصية كل شاعر تتميز من خلال شعره عامة، فهم ساروا في سنن الحياة من حيث التأثير والتأثر ، ونقلوا الفكر الديني عند الخلافتين ، والمذاهب مثل التشيع والتصوف ، وهم سجلوا لنا الحياة السياسية في الخلافتين العباسية والفاطمية ، وصوروا لنا تقلبات السياسية والإدارة ، وتنازع الوزارة والحروب الطاحنة الداخلية منها والخارجية ، وهم نشروا الحياة الاجتماعية بشرائحها المتعددة ، وحياتها الاقتصادية ، واستطعت أن أصنف شرائح المجتمع – كما يتضح من شعر أبي الفوارس ، وابن عنين ، وفتيان

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشاغوري ، والبطائحي ، ومجمل الشعر في خريدة القصر للعماد الاصبهاني ، ثم ظهرت حياة الشعبية عند الجزار ، وابن السراج وغيرهما أكثر وضوحاً .

أمّا من جانبي البناء الفني والأسلوب ، فإنهم رضعوا ألبان الظواهر الفنية بدربتهم الحافظة التي كانت تمثل نهجاً تعليمياً تمرسوا عليه ، وتوارثوا ذلك كابراً عن كابر تماماً كما يتعلم الأطفال المشية وطرائق القول عن آبائهم ومجتمعهم ، ولا ريب هنا من التأثر والاقتداء ، لكنهم وظفوا تلك الموروثات لتكوين ذهنيتهم وصقل مواهبهم ، وثراء لغتهم ، وانطلقوا بها ليودعوها تجاربهم الشعرية التي تميزت بسمات عامة ميزتهم عن غيرهم ، كما تميز شعراء التقليد في العصر العباسي عن أسلافهم من شعراء بني أمية . والشعر ينحصر في ظواهر جزئية داخلت الظواهر العامة التي تجمعهم بغيرهم مثل :-

١ - الطول في بناء القصيدة ، فإنه تجلى في المقدمة ، فهم أسهبوا في الغزل ووصف الرحلة ومعاناتها لأنهم يتغون قصيدا طويلاً وهم قانعون بنضوب المضامين الناجمة من أعمال الممدوح كما هو في شعر الأرجاني ، وأبي الفوارس وابن الدهان ، وكذلك يطيلون في طلب النوال ، فإن الأولائل يكتفون بالتلميح(١) ببيت أو بيتين أما هؤلاء فإنهم بلغوا به عشرة أبيات أو قريباً منها(٢) .

٢ - ظهر عندهم إهداء القصيدة الذي تجاوز بضعة الأبيات(٣) .

٣ - تجلى بوضوح غربة المقدمة إلى نجد والجزيرة العربية أكثر من سالفيهم .

٤ - تراكم المضامين حتى بلغ درجة المبالغة التي فاقوا بها غيرهم كقول سبط التعاويذي يمدح عضد الدين رئيس الرؤساء .

وأصبحت من جميل سيرته كعبة جود وأرضها حرمُ

---

(١) انظر : ديوان المتنبي ٢/١٤ .

(٢) انظر : ديوان سبط التعاويذي ٣٣٠ .

(٣) انظر ديوان الأرجاني .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لا ينتحي أهل الخطوب ولا يحل فيها السنون ولا الآزامُ
ترى وفود الندى بساحته على بحور العطاء تزدحمُ
أنت نبي السماح أرسلك الله غياثاً والناس قد لؤموا(٤)

فهل هناك من مبالغة أشد من تصويره بالكعبة ، وكون المصائب وسني الجدب والأزمات عن البشر تنتفي بوجوده .وبعد أن صوره بالكعبة يصوره بالنبي المبعوث للسماح فكأنه يغيث الناس . فهي مبالغة تجاوزت الحدّ إلى المبالغة .

٥ – تنامي بعض المحسنات ولا سيما التجانس وأكثر ألوانه الأشتقاق .

٦ – الاعتدال في المحسنات البديعية عامة بالنسبة لمن سبقوهم ولمن لحقوهم ، ولا أرى إفراطهم أو نسبة التكلف إلى شعرهم عامة ، ولا أرى رأي من يحاسبهم على وجود الألوان البديعية والبلاغية عامة في كل بيت كما أشار الدكتور محمود إبراهيم « فإن من الواضح أن شعراء الفترة التي نعالجها – ومنهم القيسراني – قد طغت اللفظية على شعرهم طغياناً عظيماً » .

وشعر ابن القيسراني بالذات ، يبدوا وكأنه معرض لأنواع الزخارف اللفظية ما بين جناس وطباق وتقسيم وحسن وتعليل وتورية ، وترجيح ولعب على الألفاظ ، وغلو ومفارقات إلى آخر أنواع فن الزخرف اللفظي »(١) .

وهذا القول عليه مآخذ ومنها :-

١ – أنه حين نسب شعر ابن القيسراني إلى القصائد البديعية ، وهذا أمر بعيد عن الصواب .

٢ – أنه أتى بالشواهد انتقاها من قصائد متعددة وليست من قصيدةٍ واحدةٍ ومعنى ذلك أنه يناقض نفسه بقوله قصائده معرض للزخرف ، فلو كانت القصيدة الواحدة لانتقى من ديوانه ، قصيدة تكون نموذجاً وإنما أجهد نفسه في

---

(٤) الديوان ٣٣٠ .

(١) صدى الغزو الصليبي ٣٣٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

البحث من قصائد مختلفة(١) .

إذن فهذا الحكم يتبع الأحكام السالفة التي تجمع أبيات الشواهد التي تحوي محسناً لفظياً أو محسنات ونقول : إن هذا تكلف كما هو حال الشواهد البلاغية فهم عثروا على بيت فرد وتداولوه ونسبوا إلى صاحبه التكلف . ذلكم هو الأرجاني ببيته المشهور :

مودة تدوم لكل هول وهل كل مودة تدوم(٢)

وهذا مجانب للاعتدال فإن الحكم ينبغي أن يكون على القصيدة كاملة أو على إحصائية الديوان كاملة ، فإذا تكاثرت وطغت على المضمون فإن ذلك خلل بل التكلف الذي يعاب .

٣ - هل يستطيع الدكتور محمود أن ينفي كون القيسراني من حاملي لواء المعاني في شعره الحربي والغزلي معاً . إذن فإن حكمه هذا فيه تجاوز واتباع لغيره .

٤ - ثم إذا أراد نفي الظواهر الفنية عن كل بيت فكيف لنا بجمال فني ؟!.

وقد حرصت على إحصاء التجانس بألوانه والتقابل بنوعيه الطباق والمقابلة لأنهما الأكثر شيوعاً ، فوجدت أن هذه الأصناف مجتمعة لم تبلغ نصف القصيدة ولم تخل بالمعنى في جلّ الأبيات ، أمّا بقية الظواهر البديعية فقد أجهدت نفسي محاولاً الإحصاء لها فلم أتمكن من وجود ظاهرة تبرز بل كثيراً من الأحيان ما أقرأ أكثر الديوان ولا أجد شاهداً لمثل الترصيع والتقسيم ، والتورية .

إذن فالرأي عندي أن الشعراء المحترفين اتخذوا الوسطيّة لهم ووظفوا مخزونهم اللغوي أكثر لجمال أسلوبهم ، وتأثروا بشعراء القرنين الرابع والخامس من الهجرة الذين انداحوا خلف المحسنات البديعية ، لكن أولئك وهؤلاء لم تهيمن على

---

(١) انظر : الشواهد التي اقتبسها من كتابه صدى الغزو الصليبي ٢٠٣

(٢) الديوان ١٣٣٤/٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مضامينهم ولم ترجح كفة التكلف بل الصنعة هي البارزة . وليس أدل على ذلك من الشواهد الاحصائية التي أخذتها اعتباطاً من الشعراء ، فهي وضحت قلة المحسنات بالنسبة للقصيدة الواحدة وللديوان ، وكشفت أنها لم تكن تخل بالمضمون .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الثاني

الطبــع

- تمهيد .
- الطبع في شعر شبه الجزيرة العربية .
- سمات الشعر المطبوع .
- أعلام الطبع .
- الخلاصة .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تمهيد :

مأخوذ من الطبيعي وهو « ما يولد فينا شعوراً بالحقيقة والبساطة ، فيأتي هذا الشعور عن جهد كبير يبذله الفنان »(١) . فهو يتولد من عفوية الشاعر متقارباً مع طبيعة مشاعره ، ويكون له طابعه الفني ، وفنه يصدر عن تلقائية ذات موهبة ، والشعر يصدر عن النفس بلا تكلف أو تصنع .

ويتأتى شعر الطبع نتيجة صدمة شعورية بفعل العوامل الخارجية ، فتتلاقح في نفسية الشاعر تلك التجربة مع الواقع والشعور والمخزون الذهني ، ثم يتأطر بأطر اللغة ، فينفث لنا شعراً يمثل الطبع وحين النظم يكون الشاعر في شبه الغيبوبة نتيجة استحواذ التجربة عليه ، وشعراء الطبع امتداد لأمثالهم من شعراء الجاهلية والأمراء من الشعراء العرب ، ومن أمراء العرب في الإسلام من أمويين وعباسيين، كشعر يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد ، وإبراهيم بن المهدي ، والعباس بن الأحنف وغيرهم .

وقد أشار إلى هذا اللون الجاحظ فقال : « وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكر ، ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين يمتح على رأس بئر ، أو يحدو ببعير ، أو عند المقارعة والمناقلة ، أو عند صراخ أو في حرب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه أرسالاً ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ، ثم يقيده على نفسه ولا يدرّسه من ولده »(٢) .

وهذا شأن أولئك الشعراء الأمراء مثل تاج الملوك بوري ، والملك الأمجد ،

(١) جبور عبدالنور : المعجم الأدبي ١٦٤ .

(٢) البيان والتبيين ٣/٢٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والمترفين كالشاب الظريف ، والوزراء مثل بهاء الدين زهير وغيرهم ، وإن كنت لا أرى بالارتجالية لهذا الشعر ، إنما هو يمر بمرحلة من التهذيب المباشر بعد الارتجال وحسب ، ثم يعود الشاعر إلى خضم الحياة .

وشعراء الطبع في القرنين السادس والسابع هم أولئك الذين رزقهم الله موهبة شعرية ، كغيرهم من الشعراء تتدفق بنزعاتهم النفسية ، وتفيض بتجاربهم الفردية ، التي تخفق بالمؤثرات الخارجية ويلحق بهم أولئك الذين وهُبوا الأسلوب الشعري الجاري على ألسنتهم حتى يقرب من المحادثة اليومية . وكذلك من شعراء الطبع شعراء شبه الجزيرة العربية في الحجاز ونجد ، وشعراء القبائل العربية ، والإمارات في الشمال الشرقي وعلى هذه الشريحة من الشعراء هيمن شعر الطبع ، وهم أقرب إلى الواقع الذاتي والمؤثرات الخاصة بذاته ، والواقعية الأسلوبية أيضاً ، لأنهم نقلوا دواخلهم بكل واقعية ، وصاغوها في تراكيب قريبة المأخذ قرب المؤثرات في نفسياتهم ، فهم ينأون عن التأمل الفكري والمضموني ، ويستمدون من سطحية النفس ، وتلبية الرغبة والشهوة ، ولا يعنون بالصنعة الشكلية بل يلبسون تجاربهم الحلل اللفظية والشكلية التي تداعبهم في حال التوتر النفسي للتجربة ، ومن هنا تنغمس ألفاظهم في ماهية الحالة الشعورية ، فيظهر الشكل عندهم متماثلاً مع الطبع ، ولا يبحثون عن الصنعة بعد ذلك . غير أننا لا ندرجهم ضمن الارتجالية المباشرة ، فهم يهذبون وينقحون في مرحلة لا تبلغ الصنعة ، وتلك الفئة تمثل الشعر في أكبر شرائحه ، وتبين لنا عن قدرة شعرائه ، وترد على أولئك الذين يصفون أدب العصر عامة بالتكلف ، وكونه لا يمثل شعور الشعراء .

وموجز القول : إن شعراء الطبع يشتركون مع غيرهم في الموهبة الشعرية ، والدربة والممارسة وتدفق الشعر ، لكنهم يحصرون شعرهم على تجاربهم الشعورية الذاتية ، لتبرز في شاعرية متدفقة بالأحاسيس الداخلية التي تلوب في النفس ، بينما

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عند شعراء الاحتراف وغيرهم يتضاءل الفوران النفسي للتجربة الشعورية ليستحوذ وهج الفكر والمضامين ، فتبرز الشاعرية لتحكم النظم بكثير من المضامين العقلية . وشعر المطبوعين مؤثر شعورياً ، وشعر المحترفين والمجددين يؤثر بتأنقه الفني ، والمطبوعون لا يعددون الغرض في القصيدة ، والمحترفون يعددونه ، والمحترفون والمجددون يسمون بشعرهم إلى القيم العليا ، والمطبوعون يقتصرون على ما يلامس ذواتهم ، وشغاف قلوبهم ، وكثيرا ما نستنبط قضايا إنسانية لكن الكثير منهم يقصر وظيفة شعره على همه وغمه ، وبعضهم ينحرف ، كتاج الملوك بوري الذي جعل شعره خالصاً في الغزل بالمذكر . إذن فشعراء الاحتراف أغزر معانٍ من شعراء الطبع . ومن هنا فالأولون ألصق ، بالأوزان الطويلة ، والقصيدة الطويلة من الآخرين (المطبوعين) .

ومما سبق فإن القارئ لديوان تاج الملوك بوري لايقرنه البتة بمعاصريه كأسامة بن منقذ في مضامينه وأسلوبه ، ولا يقرنه بتأنق ابن سناء الملك في صنعته الشعرية، ومثل ذلك شعر البهاء زهير لا يقرن بصنعة ابن عُنين ، والشاب الظريف لا يوازن بالبوصيري ، في مضامينة وصنعته . ومن خلال القراءة المتأنية التي لا يتحمل البحث هنا رصد كامل ظواهرها ، فإنه يتبين الفرق بين شعراء الطبع وغيرهم من الشعراء .

وعندما نقف وقفات متأنية ونجيل النظر في دواوين القرنين السادس والسابع الهجريين ، نجد عجباً من كثرة الشعر المطبوع وشعراء الطبع . فهو يتمثل في كثير من دواوين الشعراء بنسب متفاوتة فلا انعدام للخلجات النفسية التأثرية . ومن ذلك تلك المقطوعات الشعرية في دووانهم والقصائد القصيرة ، إلى جانب كثير من الشعر الوجداني كتغريات القيسراني وبعض من المقدمات الغزلية في شعر ابن الخياط . وهناك شعراء أخلصوا شعرهم لهذا الاتجاه ، ومنهم الأمير تاج الملوك

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الأيوبي (ت٥٧٩هـ)(١)، أخو صلاح الدين الأيوبي ، ومنهم الملك الأمجد (ت ٦٢٨هـ)(٢)، والشاب الظريف (ت٦٨٨هـ) ، ومهران شاه الملقب بمجد العرب. ومن هؤلاء شعراء الجزيرة العربية من القبائل العربية ، وأمراء القبائل كأمراء الأسديين ، والعقيليين .

ومن أوائل شعراء الظرف والطبع في القرن السادس الشيخ الأديب أبو محمد الحسن بن أحمد بن جكّينا (ت ٥٢٨هـ) ، وكان « ظريف الشعر مطبوعه ، لم يجد الزمان بمثله في رقة لطفه وسلاسته ، وقد أجمع أهل بغداد على أنه لم يرزق أحد من الشعراء لطافة طبعه »(٣) .

ومن مدحه :

سألوني : من أعظم الناس قدراً؟ قلت : مولاهم (انو شروان)
لست أحوي صفاته ، غير أني ما رأيت الإعسار منذ رآني
وإذا أظهر التواضع فينا فهو من آية الرفيع الشأن
ومتى لاحت النجوم على صفـ ـحة ماء ؟ فما النجوم دواني(٤)

ومن التيار المعتدل الذي ينبئ عن عدم التكلف ، القصيدة اللامية لأبي القاسم هبة الله بن الفضل الشاعر المتوفى ٥٥٨هـ في بغداد(٥)، والتي تكاد تخلو من الألوان البديعية إذ يقول فيها :

يا من هجرت ولا تبالي هل ترجعُ دولة الوصال؟
ما أطمعُ - يا عذاب قلبي - أن ينعم في هواك بالي

---

(١) هو تاج الملوك أبو سعيد بوري بن نجم الدين الأيوبي ، نشأ في رغد من العيش ، ومال إلى اللهو والعبث ، له ديوان حققه الدكتور محمد عبدالحميد سالم طبع عام ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨م .

(٢) له ديوان شعر حققه الدكتور ناظم رشيد ، طبع عام ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م ,

(٣) العماد الأصبهاني : خريدة القصر ، القسم العراقي ٢/٢٣٠ .

(٤) المصدر السابق ٢/٢٣٦ .

(٥) المصدر السابق ، القسم العراقي ٢/٢٧٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الطـــرف كمـــا عهـــدت بـــاكٍ والجســـم كمـــا تريـــن بـــال
مـــا ضـــرَّك أن تعلليـــني في الوصـــل بموعـــد مُحـــال
أهـــواك وأنـــت حـــظُّ غـــيري - يـــا قـــاتلتي - فمـــا احتيـــالي
أيـــامُ عنـــاي فيـــك ســـودٌ مـــا أشـــبههن بالليـــالي
والعُـــذّل فيـــك قـــد نهونـــي عـــن حبـــك مـــا لهـــم ؟ ومـــالي ؟
يـــا مـــلزمي الســـلو عنهـــا الصّـــبُّ أنـــا ، وأنـــت ســـال
والقـــول بتركهـــا صـــوابٌ مـــا أحســـنه لـــو استوى لي !
في طاعتهـــا بـــلا اختيـــاري قـــد صـــح بعشـــقها اخـــلالي
طلقـــت تجلـــدي ثلاثـــاً والصبـــوة بعـــدُ في حبـــالي
ذا الحكـــم عليَّ مـــن قضـــاه؟ مـــن أرخصنـــي لكـــل غـــال(١)

وله شعر كثير يغلب عليه الطبع وقرب المأخذ ، وربما لأن موضوعاته تدور في فلك التأثير الذاتي كالهجاء ، والمجون ، وقد التزم بهذا المنهج في داليته التي يعرض فيها للواعظ البرهان علي الغزنوي :

إلى متـــى تجـــني وتســـتعدي يـــا ســـيءَ التدبـــير والعهـــدِ
فحاســـب النفـــس علـــى مـــا كـــلّ مـــا تأتيـــه مـــن جـــور علـــى عمـــدِ
ولا تغـــاثث بعتـــابي علـــى إغضـــاء وافٍ صـــالح الـــودّ
وســـالف الصحبـــة لا تنســـه ولا تثـــوّر بـــالأذى حقـــدي
ولا تجـــدد - بعتـــابي - مـــن الـــ ـــإخوان مـــا ســـكّنت مـــن وجـــدي
دعـــني أصـــادي النفـــس مـــن غيظهـــا منـــك بشـــكري البـــرّ ولرّفـــدِ
واعجبـــاً مـــن فطـــن كيـــس إيمانُـــه يـــأوي إلى زُهـــد
والشـــوك والثّلـــجُ علـــى حالـــةٍ يشـــوب حـــر الوخـــز بالبـــرد(٢)

والشاعر أبو القاسم من بغداد قريب النشأة من عهد وموطن الحريري ، غير

(١) المصدر السابق ٢/٢٧٤ .
(٢) المصدر السابق ٢/٢٨٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أنه لم يتخذ نهجه فجاء شعره مطبوعاً ، وغيره كثير كمثل الشروطي البغدادي (ت ٥٥٥هـ تقريباً) وله قصيدة بائية طويلة منها :

في حدّ رأيك ما يغني عن القُضُب ... وفي سخائك ما يربي على السُحب
وفي اعتزامك ما لو شئت تنفذُهُ ... أيادٍ بالخوف أهل الدّهر والرُّعُبِ
دانت لهيبتك الأيام خاضعة ... وفلّ عزمك حدّ الموكب اللّجِبِ(١)

وله أيضاً :

حي جيراناً لنا رحلوا ... فعلوا بالقلب ما فعلوا
رحلوا عنّا فكم أسروا ... بالنوى صبّا ، وكم قتلوا
من لصب ذاب من كمد ... طرفة بالدمع منهمل
واقفٌ بالدار يسألها ... سفها لو ينطق الطلل
لو تجيب الدارُ مخبرة ... أين حلّ القوم وارتحلوا؟
لتشاكينا على مضض ... نحن والأوطان والإبلُ
يا صبا نجد أثرت لنا ... حُرقاً في القلب تشتعل
غرد الحادي ببينهمُ ... فله - يوم النوى - زجلُ(٢)

وجميع أشعاره التي دونها صاحب الخريدة من هذه الشاكلة.

ومن شعراء الترسل والطبع شرف الدين أبو البدر ظفر بن الوزير ابن هبيرة ، وله « شعر يروق ، وعبارة تشوق » مات في (٥٦٢هـ) ، وله قصيدة بائية سهلة الألفاظ ، متدفقة التراكيب ، استهلها بقوله :

طُلّ دمٌ بالعتاب مطلوب ... وطاح دمع في الربع مسكوبُ
وَذُلّ قلبٌ أمسى الغرام به ... وهو بأيدي الغواة منهوب

ومنها قوله يصف الشباب :

ما لي لا أمدحُ الشبابَ ولي ... من نوره شارةٌ وتطريبُ

(١) المصدر السابق ٢/٢٩٣ .
(٢) المصدر السابق ٢/٢٩٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إذا تمـــــايلت في ملاءتـــــه فحبـــذا راغـــب ومرغـــوب
أصنـــع مـــا شـــئت في حمايتـــه وهـــو إلى الغانيـــات محبـــوب

ويقول في الشيب :

وكيـــف لا أوســـع المشـــيب قلـــيَ وهـــو بمـــاء العيـــون مخضـــوبُ
أيامـــــه ذلـــــةٌ ومبخلـــــةٌ ولونـــــه نفـــــرةٌ وتـــــثريبُ(١)

ويقول من قصيدة أخرى :

أضـــاءت لنـــا بـــالأبرقين بـــروق نوافـــل منهـــا كـــاذب وصـــدوق
يُذِعْـنَ لنـا مـن أهـل وجـرة ريبـة يخـفُّ إليهـا السـمع وهـو فـروق
ومـا كل مطوي مـن السّـر مُنكـر ولا كلُّ مشـور الحديـث يـروق(٢)

وقصائده على هذه الشاكلة تخلو من التجانس والتقابل وتنأى عـن الصنعـة ، فهي شعر شاب أمير مترف متظرف ، وقد وصف قصائده فقال :

قَـدْ سـلكت مذهبـاً تدينـ لـه تـبراء لا حبـة ولا حـوب
بكـــاء ربـــع أو صـــف غانيـــة وضدهـــا خالـــب ومخلـــوب(٣)

ومن جميل شعره وصفه اللطيف حيث يقول(٤) :

أســـلمني إلى الغـــرام والأرق طيـف متـى شـاء علـى النـأي طـرق
يخبـــط جفـــني بأبـــاطيل المنـــى ويســـحر العـــين ببشـــر وملـــق
مـا وردت أحلامهـا مـن مقلـتي فصـــدرت إلاّ بـــريٌ وشَـــرَقْ
ولا انثنت عن كبـدي ركابـه بخـــبر إلا الزفيـــر والقلـــق

ويمتاز على غـيره مـن الظرفـاء بطـول قصـائده ، و لم نجـد لـه مقطوعـات في خريدة القصر وجريدة العصر(٥) .

---

(١) المصدر السابق ، القسم العراقي ١/١٠٣، ١٠٤ .
(٢) المصدر السابق ١/١٠٧ .
(٣) المصدر السابق ١/١٠٥ .
(٤) المصدر السابق ، ١/١١٧ .
(٥) المصدر السابق ، انظر ترجمته ١/١٠١ حتى ١٢٠ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والعلماء لهم ترسُّلٌ بعيد عن الصنعة كابن عسكر الموصلي (ت٦١٦هـ) ، فها هو يصف الشيخ مكي وزاويته وينتقد الصوفية(١) .

ألا قل لمكي قول النصوح ... فحق النصيحة أن تستمع
متى سمع الناس في دينهم ... بأن الغنا سنة تتبع
وأن يأكل المرء أكل البعير ... ويرقص في الجمع حتى يقع
فلو كان طاوي الحشا جائعاً ... لما دار من طرب واستمع
وقالوا سكرنا بحب الإله ... وما أسكر القوم إلا القصع
كذاك الحمير إذا أخصبت ... ينقرها ريها والشبع

ومن شعراء الطبع الذين أدركوا تأثير المواجهة الأولى - وقوة انطباعها على النفس ، وأكثر استعمالها الشاعر ابن النبيه المصري ، حيث باشر المتلقي بالصورة التي يتفاعل معها ، فهو يستهل قصيدته في المدح بانثناء الغصن فوق كثبانه(٢) :

لما انثنى الغصن فوق كثبانه ... جبرت قلبي بكسر رمانه

وهذا في « عطف القلوب ، واستدعاء القبول بحسب ما في الطباع من حب الغزل والميل إلى اللهو وإلى النساء وأن ذلك استدراج إلى ما بعده »(٣) .

والاستهلال مناسب لموضوع القصيدة التي فيها تهنئة بالنصر ، فقوله : (جبرت قلبي) في هذا البيت يناسب قوله في القصيدة(٤) :

عساكر الموصل التي انكسرت ... تخبر عن نفسه وفرسانه

الطبع في شبه الجزيرة :

• وأغلب شعراء الطبع في شبه الجزيرة العربية متأثرون بالحياة البدوية التي

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١/٣٨ .
(٢) الديوان ١٣٠ .
(٣) ابن رشيق : العمدة ٢٢٥ .
(٤) ابن النبيه : الديوان ١٣٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تقوم على لوعة الفراق والحرمان وهما عاملان يؤججان الأحاسيس ، ويقدحان قريحة الشعر ، ويشكلان جذوته . وهم بمنأى عن بناء الفكر والتأمل فمضامينهم من واقعهم الوجداني ، وفي تلك المرحلة نضب معين التكسب في الجزيرة فلم تكن هناك دوافع شعرية تؤدي بهم إلى الاحتراف في الشعر ، ولغة شعر أهل الجزيرة إنما هي لغة المجتمع فلم تكن هناك روافد تعليمية تمدّ الشاعر بمعجم لغوي، كل هذه الأسباب رفعت بشعر شبه الجزيرة إلى اتجاه الطبع ، فكان شعر إقليم نجد الذي وصل إلينا أقله ينتمي إلى الفطرة الوجدانية ، فتجسد في الطبع و لم يخرج عن هذا إلا شاعر محترف هو ابن مقرب العيوني فإنه عاش في كنف دولة ، وتعرض للسجن والتحدي ، والاغتراب ، ثم كثرة الأسفار والانتقال إلى العراق وذلك ما أخرجه إلى شعر الاحتراف . أما عامة الشعراء وشعر الأمراء من الإسديين والعقليين في أطراف الجزيرة ، فإن شعرهم من ألصق الشعر بالطبع ، وكذلك الأمراء من الأشراف في الحجاز ، فشعرهم وجداني يتدافع الشعر عليهم نتيجة لموقف مؤثر فينظمون المقطوعة والقصيدة القصيرة ، بل هم متأثرون بحكاية الوجدان في نجد . ونحن لم نعثر على مولف يجمع شتات الشعر في شبه الجزيرة العربية ، و لم يصل إلينا إلا عن طريق هجرات بعض الشعراء فينشدون أشعارهم للمولفين ، ويروون بعض أشعار غيرهم ، كما هو الشأن في دمية القصر ، للباخرزي ، وهم في هجراتهم للعواصم الإسلامية ذات الحضارة والعمران ، والثراء والترف ، يلوون أعناقهم دائماً إلى الجزيرة ، فهذا الشاعر أبو بكر محمد بن عتيق السوارقي نسبة إلى سوارق تلك القرية بين مكة المكرمة ، والمدينة المنورة المتوفى عام (٥٣٨هـ) ، انتقل إلى العراق وخراسان ، لكن قلبه متعلق بنجد فلم تستهوه الحياة الحضرية ، مما جعله ينظم تلك الأبيات التي تفصح عن لوعة الفراق:

أيا ساكني نجد سلام عليكم وإن كنت لا أرجو إياباً إليكم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وإن كان جسمي في خُراسان ثاوياً فقلبي بنجد لا يزال لديكم(١)

ولما كانت أسفارهم وهجراتهم من الجزيرة التي يهيمن عليها الفقر والنسيان تدفع بهم إلى البعد عن الأوطان والأهل ، وتشرف بهم على المهالك ، وتلقي بهم في بحور الحرمان والعوز ، فإن أشعارهم تنضح بالأسى .

فهذا كافور النبوي ، خدم في مسجد الرسول ﷺ ، وهو شاعر ذكر العماد أنه كان ببخارى (٥١٠هـ) وكان بخوارزم (٥١١هـ) وقال عنه : « كان أسوداً طويلاً لا لحية له ، وكان خصياً . قال أنشدنا محمود بن محمد الإمام بخوارزم ، أنشدنا عليّ بن محمد الأدمي ، أنشدنا كافور النبوي لنفسه » :

حتّام همك في حل وترحال تبغي العلى والمعالي مهرها غالِ

يا طالب المجد دون المجد ملحمة في طيها تلفٌ للنفس والمال

ولليالي صروفٌ قلما انجذبت إلى مراد امرىءٍ يسعى لآمال(٢)

قال العماد عنها : « هذا شعر يثبت على محك النقد ، وعيار السبك ، لا كشعر يبهرجه محك المحق .. أرق من النسيم ، وأذكى من العبير ، وأطيب من المسك »(٣) .

مما يدل على أن الأوائل أدركوا أن لشعر الجزيرة ألواناً فنية خاصة به تميز شعرهم عن الاتجاهات الفنية في العواصم الإسلامية المعاصرة لهم ، فقد احتضنتهم الجزيرة ، التي نأت عن التواصل الحضاري بل أناخت البداوة كلكلها عليها ، الأمر الذي جعلهم يتواصلون مع موروثات الحياة العربية الأولى في مجتمعهم ولغتهم وأساليبهم الشعرية .

وأبو محمد بن جعفر التهامي المكي تنقل في البلاد الإسلامية ، وكان فيه

---

(١) العماد الأصبهاني : الخريدة ، قسم الشام ٢٨/٣ .

(٢) المصدر السابق ٢٩/٣، ٣٠ .

(٣) المصدر السابق ٣١/٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

غرور وتكبر مات بعد (٥٣٠هـ) كما يشير العماد الأصبهاني(١) .

والشاعر لم يتحلل من بيئته فقد صحبته صورها من ظلام الليل وثبات نجومه وصور الإبل الضخمة ، والطريد الشريد من الصعاليك ، وأخرى ينتقل إلى النسر مكسور الجناح وذلك رمزاً لحالته :

أما لظلام ليلي من صباح ... أما للنجم فيه من براح
كأن الأفق سُدَّ فليس يرجى ... له نهج إلى كل النواحي
كأن الشمس قد نسجت نجوما ... تسير مسير أذواد طلاح
كأن الصُبح منفي طريدٌ ... كأن الليل بات صريع راح

وهو يشير إلى النحوم المسماة ببناة نعش والنجم المسمى بالنسر كناية عن طول ليله :

كأن بنات نعش من حزناً ... كأن النسر مكسور الجناح
خلوت ببث بثي فيه أشكوى ... إلى من لا يبلغني اقتراحي
وكيف أكف عن نزوات دهري ... وقد هبت رياح الارتياح
وإن بعيد ما أرجو قريب ... سيأتي في غدوي أو رواحي(٢)

ومنها قول الشاعر شكر أبي الفتوح :

قوض خيامك من أرض تهان بها ... وجانب الذل إن الذل يجتنبُ
وأرحل إذا كا ن في الأوطان منقصة ... فالمندل الرطب في أوطانه حطب(٣)

وشعراء الجزيرة مع بنية الشعر الجاهلي ، حيث التلاحم بين بيئة الشاعر ، وتجربته الذاتية النابعة من الواقع ، فهو ينظم كلَّ موجه شعورية بمقطوعة ، أو قصيدة قصيرة ، فأبو بكر محمد بن عتيق السوارقي ، ينشر لوحة شعورية لأولئك الذين نأت بهم أرض الجزيرة عن معترك الحياة فارتحلوا لميادين الجاه والمال ، فهم

(١) المصدر السابق ، شعراء الشام ٣/٢٠ .
(٢) العماد الأصبهاني : الخريدة ، شعراء الشام ٣/٢٢ .
(٣) المصدر السابق ٣/١٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يتطلعون إلى النعيم الذي فيه أقرانهم من الشعراء في بغداد ودمشق ، وعواصم الحضارة الإسلامية الأخرى ، والشاعر لكثرة أسفاره « أدركته وفاته بطوس(١)، سنة ثمانٍ وثلاثين وخمسمائة ، ذكره السمعاني في تاريخه بكلام هذا معناه ، وقال أنشدني لنفسه إملاءً »(٢) :

سوى عبراتي رقرقتها المعالم ... وغيرُ فؤادي هيجته الحمائم
أبت لي ركوب الذُّل نفسٌ أبيةٌ ... وأبيض مصقول الغرارين صارمُ
تقول سليمي يوم بنتُ ودمعها ... على خدِّها من لوعة البين ساجم
رويداً إلى كم لا تزالُ مخاطراً ... بنفس كريماً لوحته السمائم
فقلتُ لها والعيس في ذَمَلانها ... تلاعبها أشطانها والخزائم
ذريني فلا أرضي بعيشة مقترٍ ... وما رضيت عني السيوف الصوارم
لئن لم أُزرها الحرب قُباً يقودها ... إلى الموت ليث من قريش ضبارمُ
فلا ولدتني من لؤي بن غالب ... ليوث الوغى من عرضة السيف سالم
أيطمع نيل المجد والسيف مغمدٌ ... ويأمل إدراك العُلى وهو نائم

ويقول العماد عن هذا الشعر :

« هذا شعرٌ معتدل لم يطر به خطأٌ ولا خطل . قال : وسمعت أبا نصر الخطيبي يقول : للشريف أبي بكر البكري بيتٌ ما قيل في معناه أحسن منه ، وهو(٣) :

على يعملات كالخنايا ضوامرٍ ... إذا ما أنيخت فالكلالُ عقالُها

فالمقطوعة تمثل شخصية الشاعر ، فتحس بحضوره الذاتي في كل بيت من

---

(١) مدينة بخراسان ، بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ ، تشتمل على بلدتين ، يقال لإحداهما الطابران وللأخرى نوقان ، ولهما أكثر من ألف قرية . فتحت أيام الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ، وفيها آثار أبنية إسلامية جليلة ، وفي بعض بساتينها قبر علي بن موسى الرضا ، وقبر الخليفة هارون الرشيد ، خرج منها أئمة العلم والفقه ما لا يحصى ((معجم البلدان)) .

(٢) العماد الأصبهاني : الخريدة ، شعراء الشام ٣/٢٧ .

(٣) المصدر السابق ٣/٢٧، ٢٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أبياتها ، حيث يعود بضمير المتكلم ، وتواصل الحديث عن حالته الفردية ، فهو يقول شعره تحت هيمنة التجربة الذاتية ، ويتمثل الإبداع متلوناً بشخصيته ، بخلاف الشعر في بقية الأقاليم . فالشعراء يرصدون ما يناسب المتلقي ويكون هاجس الشاعر رصد ما يستميله وما يرضي ذلك المجتمع ، مما يؤثر على بنية القصيدة من حيث الطول والقصر ، ومن حيث الإثارة والخطابية والتحدث بموضوعية .

وصور شعراء الجزيرة من واقع البيئة البدوية ، حتى في الرثاء ، تنزع إلى التصوير النفسي ، وليس عند شعراء القرى وحسب ، وإنما عند الأمراء من الأشراف في مكة المكرمة ، فالشريف علي بن عيسى ، ينادى حادي العيس ، حيث الترحال المتواصل تلك الخاصية عند القبائل العربية ثم يشير إلى نوع من السير وأيضاً إلى علامة العوز والجود ، ومداومة الأسفار فتلك التي تدل على (فضل النعال) وقوله : غاض النمير العذب ، فالقبائل أحوج ما يحتاجون إلى الماء فهو يتألم إذا فقده يقول في رثاء الأمير قاسم جَدّ الأمير عيسى :

يا حادي العيس على بُعدها ... وخادة تسحب فضل النعال
رفّة عليهن فلا قاسمٌ ... لها على الأين وفرط الكلال
غاض النمير العذب يا وارداً ... وحال عن عهدك ذاك الزلال
إن يمض لا يمض بطيءَ القرى ... أو يود لا يود ذميم الفعال(١)

وشعراء الجزيرة يميلون إلى الفطرة البشرية التي تتلاحم في الإنسان بشبكة من الغرائز تتوزع اهتمامه ، وربما إن شظف العيش وشدته ، وكدحه يشغله عن الحب واللهو لذا فإنهم يرون الحب يعرض مرة ويخبوا أخرى تماماً كما يراه أبو محمد جعفر الحسيني التهامي المكي :

وقال أنشدني لنفسه :

---

(١) المصدر السابق ٣/٣٤ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ما لي بما جرَّ طرفي من جني قبلُ كانت غراماً لقلبي نظرة قُبلُ
ما دلَّ ناشد شوقي دل غانية ولا أفادت فؤادي الأعين النجل
ولا دعاني إلى لياءَ لثم لمىً ولا أطال وقوفي باكياً طللُ
وإنما الحب أعراض إذا عرضت لعاقل عاقة عن لبه خبلُ(١)

ومنه قول الأمير شكر بن أبي الفتوح الحسني :

وصلتني الهموم وصل هواك وجفاني الرقاد مثل جفاك
وحكى لي الرسول أنك غضبى يا كفي الله شرَّ ما هو حاك(٢)

(١) المصدر السابق ٣/٢٢ .
(٢) المصدر السابق ٣/١٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سمات الشعر المطبوع

والشعر المطبوع يتواصل مع ألوان الشعر الأخرى واتجاهاته في الأوزان وخصائصها ، وفي الاعتدال في المحسنات البديعية وغيرها ، ويفترق بسمات تميزه منها :

الأوزان الخفيفة :

وشريحة المطبوعين تتناثر أشعارهم في أوزان قصيرة كالأزهار التي تتماوج في أغصان الشجيرات الربيعية الخفيفة :

والأوزان وليدة المضامين التي تطرأ شفافة على أولئك ، فهم يتمايلون بأذواقهم وأحاسيسهم ، وتفيض تجاربهم في قطوف من الشعر لا إطالة فيها ، وإنما تتراقص كالفكرة التي ولدت التجربة .

يقول بهاء الدين زهير من مجزوء الكامل :

لله بستاني وما ... قضّيت فيه من المآربْ
لهفي على زمني به ... والعيش مخضر الجوانب
فيروقني والجو منـ ... ـه ساكن والقطر ساكب
ولكم بكرت له وقد ... بكرت له غرّ السحائب
والطل في أغصانه ... يبكي عقوداً في ترائب
وتفتحت أزهارُهُ ... فتأرجحت من كل جانب
وبدا على دوحاته ... ثمر كأذناب الثعالب
وكأنما آصاله ... ذهبٌ على الأوراق ذائب
فهناك كم ذهبيةٍ ... لي في الولوع بها مذاهب(١)

فهذه أفكار تطرأ كالأمواج وقد تلاحمت مع الوزن الخفيف الراقص من

(١) الديوان ٢٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مجزوء الكامل .

وبهاء الدين يزخر ديوانه بالمجزوء من البحور الشعرية لا سيما مجزوء الكامل الذي نال حظاً وافراً من ديوانه ، وأيضاً يكثر في شعره بحر الوافر ومجزوء الرجز والمشطور والأوزان الكاملة أقل بكثير من المجزوءة والمشطورة في ديوانه(١) .

ومن ذلك قوله في الشكوى والعتاب من مجزوء الرمل(٢) :

يـــا أعـــزَّ النـــاس عنـــدي كيـــف خُنـــت اليـــوم عهـــدي
ســـوف أشـــكو لـــك بُعـــدي فعســـى شـــكواي تُجنـــدي
أيـــن مـــولاي يرانـــي ودموعـــي فـــوق خـــدي
أقطـــع الليـــل أقاســـي مـــا أقاســـي فيـــه وحـــدي
ليتـــني عنـــدك يـــا مـــو لاي أو ليتـــك عنـــدي
إرض عـــني ليـــس إلا ذاك مطلوبـــي وقصـــدي
أين مـــن يُلفـــي لـــه فـــي النـ ـــاس ودّ مثـــل ودي

والشاب الظريف أقل منه ميلاً إلى تجربة الأوزان غير أنه يميل إلى الخفيفة كالوافر الذي مع خفته يبني قصيدة مدحية عليه :

صـــدودك هـــل لـــه أمـــد قريـــب ووصلـــك هـــل يكـــون ولا رقيـــب
رمـــى فأصـــاب قلبـــي باجتهـــاد صدقتـــم كـــل مجتهـــد مصيـــب

ومنها :

فيـــا قـــاضي القضـــاة متـــى يوفّـــي حقـــوق صفـــاتك اللـــن الأريـــب
فتـــى رقـــت خلائقـــه كشعـــري حـــوى وصفين كلهمـــا عجيـــب(٣)

وقد استعان الشاب الظريف بالموشحات في تلوين تجاربه النفسية الرقيقة :

يـــا أمـــيراً جـــار مـــذ وليـــا

(١) انظر الديوان .
(٢) المصدر السابق ٩٩ .
(٣) الديوان ٣٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كيـــــف لا ترثـــــي لمـــــن بليـــــا
فبثغـــــر منـــــك لي جليـــــــا
قـــــد حـــــلا طعمـــــاً وقـــــد حليـــــا
وبمـــا أوتيـــت مـــن كيـــس جد فما أبقيت مصطبرا(١)

ومنه قوله تاج الملوك الأيوبي في مجزوء الرجز :

وأهيـــــف طلعتُـــــهُ صبـــــح تبـــــدّى في مَسَـــــا
مـــــا أحســـــن الدهـــــرُ بـــــه إليّ إلا وقســـــــــا
أو حشـــــني وكـــــان لي قبـــــل الفـــــراق مؤنســـــا
بـــــدر دجُـــــاً بدّلـــــني مـــــن الســـــرور بالأســـــى
إذا تدانيـــــت نـــــأى وإن تلاينـــــت قســـــا
صبـــــراً لعـــــل الدهـــــر أن يجمـــــع شملـــــي وعســـــى(٢)

الذاتيـــة :

وشعراء الطبع ، ينزع شعرهم إلى التأثير النفسي ؛ الذي يقـوم على مـا بنـاه الفلاسفة من نظرية علاقة الأدب بالذات الشاعرية « فالنفس الإنسانية تتألف من مجموعة من القوى تبدأ بالحواس الخمسة الظـاهرة الـتي هـي طريـق معرفـة النفـس بالأشياء المادية ، وتنتهي بالعقل ، وبينهما الحس المشترك والقـوة الوهميـة المتخليـة وتنشأ عن هذه الأخيرة (المتخلية) قوة أخرى تأتمر بأوامرها وهي ما سموه (القوة النزعية) الباعثة على التحريك وقوامها الشهوة والغضب »(٣) .

وشعراء الطبع في هذه المرحلة يمثلون هذه النظريات المتراكمة ، فشعرهم نـابع من المؤثرات المتداعية الـتي تكـوّن كـلٌّ منهـا تجربـة ذاتيـة خاصـة تتجلـى في نـص

(١) الديوان ١٧٥ .
(٢) الديوان ١٧٥ .
(٣) د . مجيد عبدالحميد ناجي : الأسس النفسية الأساليب البلاغية ١٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

شعري، ولكن قبل تبلورها تكون مؤثرة في الغرائز الشهوانية ، ثم تنصهر في العقل؛ فتأخذ حللها من اللغة ، ومن هنا يكون شعراً ذاتياً .

وشعراء الذاتية يخضعون لموجات نفسية متتابعة نتيجة لانغماس ذواتهم في مؤثر إحدى الغرائز ، وغالباً ما تكون الوجدانية . والإنسان الوجداني (العاطفي)، نباض القلب يتوقد اشتعالاً فهو يهتم لأي نسمة تعبر عليه ، ومن هنا يكون شعرهم نابعاً من مؤثرات عاطفية إنسانية ، فهو سريع الانفعال من جانب الذاتية ، سيما وقد تشبع بالحرمان الداخلي الذي تدفعه أحلام اليقظة وآماله إلى التعلق بأي مؤثر يفرح بالأمل به ، ويحزن لموجات الامتناع ، وهؤلاء يغلب عليهم هاجس الذاتية الفردية كالعشق . وينشغلون به دونما سواه ، ولا يبالون بغيره . ومن هنا تتولد أشعارهم في نهج واحد يتلون معه أسلوبهم الخاص ، والشعر الذي يمثل تلك الأحوال النفسية ، والشعراء المبدعون الذين ينقلون تلك الصور الداخلية للإنسان ويسجلون التفاعل عبر الحياة بين الذاتية والعوامل الخارجية ، أولئك هم الشعراء المبدعون وفي القرنين السادس والسابع ، فاض هذا اللون الذي تمثل في الشعر الوجداني في بعض دواوين الشعراء ، مثل المقدمات في شعر ابن الخياط ، والثغريات عند القيسراني ، والرثاء في شعر أسامة بن منقذ . وهناك شعراء غلب عليهم هذا اللون ، ومنهم تاج الملوك الأيوبي ، ومجد الدين بن بهرام شاه ، وبهاء الدين زهير ، والشاب الظريف .

ومن شعراء الطبع الملك الأجل تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي ، شاعر الطبع المتوفي ٥٨٧هـ(١)، ويقول عنه العماد الأصبهاني : « يساجل العظماء ، ويجالس العلماء ويثافن الأولياء ، وينافث الأدباء ، ولكثرة امتزاجه بهم نظم الشعر طبعاً ، ولم يميزه خفضاً ونصباً ورفعاً »(٢)، وهو شاعر

(١) خريدة القصر ، شعراء دمشق ٨٠ .

(٢) المصدر السابق ٨١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

غزلي وجداني فشعره ومبض من اضطرابات وجدانية ، وهو ينبض بالحس الوجداني ، شأنه شأن غيره من الشعراء الأمراء ، وشعراء الطبع . وهو ينأى عن المطولات ، ويسمو شعره إلى الومضات الشعرية التي تشبه لمعان البرق ، وهذا اللون له مريديوه من الأدباء والشعراء ومن شعره :

أو ما ترى صبا صحيح ... ح الود معتل الفؤاد
هجر الهجوع كأن بين ... جفن ضلوعه شوك القتاد
وغدا الفؤاد مقسماً ... بصدوده في كل واد
فارحم فديتك ، مهجة ال ... بعد المعذب بالبعاد(١)

وهو يعلنُ ولاءه لمعذبه ، وأنه أسير الهوى الذي أثخنته الجراح :

يا ملكاً رقى برقة خده ... ومعذبي دون الأنام بصدّه
ومكذبي وأنا الصدوق وهاجري ... وأنا المشوق ومانعي من رفده
لما تيقن قلبه أني أرى ... فقد الحياة ألذ لي من فقده
اشتاقه وأنا الجريح بلحظه ... وأحبه وأنا الطعين بقدّه(٢)

فالذاتية تتمثل من ناحية الشكل في (ياء) المتكلم التي يضيف إليها الصفة مثل : (مكذبي ، هاجري ، وأني ، ولي) ، وفي هذه الياء قوة دلالة على أثر الحب في نفسه ، ويتضح ذلك في الأنين الذي يوحي به ضمير (أنا) المتكرر في البيت الأخير حيث المد المتكرر بالحرف ذاته طويل المقطع فكأنه يجتر النفس الطويل الطويل الذي ينبع من الحسرة والحزن .

ويقول في العتاب :

أخي كم أخ لي في هواك هجرته ... ولم أستمع منه مقالة زور
فزر غير مزور ولا متجنب ... لتنقذني من لوعتي وزفيري

(١) المصدر السابق ٩٣ .
(٢) المصدر السابق ٩٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تسامر من تهواه نفسك في الدجى وذكرك من دون السمير سميري(١)

والبيت الأيوبي منح الأدب شعراء مطبوعين منهم تاج الملوك بوري الأيوبي الذي ضم ديوانه كثيراً من النفثات الوجدانية ، فهو لا يرتجي السلوان يأساً لعلمه بقلبه المدنف الذي يتمزق أسى وحسرة ، لتمكن العشق منه فهو شاخص أمام عينيه لا يتمثل غيره(٢) :

متى أرتجي السلوان والقلب موجع يكاد إذا سكنته يتقطع

تمكن من قلبي حبيب ألِفتُه فليس لخلق غيره فيه موضع

وهو يجتر الذكريات في ندم ، وتوجع ويستشعر هولها ؛ فهي تحجب الشمس، وتصدع الصخر ، ويستغيث ، ولا يندم على وقوعه في براثن الخديعة ممن يحب(٣) :

هل ما مضى من لذيذ العيش مرتجع أن يرجع الشمل يوماً وهو مجتمع

واشقوتي ! كم صبابات ، وكم شغف وكم غرام ، وكم شوق ، وكم ولع

أشياء لو كلفتها الشمس ما طلعت يوماً أو الصخر كاد الصخر ينصدع

ياللورى من معيني في هوى رشأٍ منعم اظهرت في حسنه البدع

ومنه وقطوعة لابن النبيه المصري(٤) :

إذا رأيت الهلال والغصنا ذكرت قداً ومنظراً حسناً

كالروض عرفاً وبهجة وجنىً والبدر حسناً ورفعة وسنا

جسمي ألفت السقام كما أنّ جفوني لا تعرف الوسنا

ومجد الدين بهرام شاه الأيوبي المتوفى ٦٢٨هـ من الوجدانيين المطبوعين ، ولكنه يكثر من الوقوف على الأطلال ، ويسلك نهج الأوائل في قصائد مطولة

(١) المصدر السابق ٩٦ .

(٢) الديوان ١٨٢ .

(٣) المصدر السابق ١٨٤ .

(٤) الديوان ٤٦٢ ، تحقيق د. عمر محمد الأسعد .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقليلاً ما نجد عنده المقطوعات ومنها(١) :

أهـــل الحمـــى قـــد أودعـــوا قلـــبي جـــوىً وودعـــوا
فقـــل لعـــذالي اعذلـــوا بعـــد نواهـــم أو دعـــوا
بـــانوا فهـــل لقربهـــم بعـــد التنـــائي مرجـــع؟
أم هـــل لنـــا في عودهـــم إلى الديـــار مطمـــع؟
تذكرنـــي أيـــامهم حمامـــة ترجـــع
فـــأنثني وقـــد تـــروّت مـــن دموعـــي الأربـــع
وليـــس للـــدار وللتذكـــا ر إلا الأدمـــع

فالمقطوعة نابعة من الذات الشاعرة بالوجد ، وتبلور ذلك في شكل ضمائر المتكلم مثل : (قلبي ، عذالي ، فانثني) .

٣ – السطحية المضمونية :

شعراء الطبع في الأعم تسودهم المشاعر التي تتقلب في أتون الوجدان ، وترعف بنزيف الهيام ، وأحاسيسهم رقيقة كالأغصان الغضة الطرية يميل أحدهم مع النسيم ، فأي مؤثر لمس شغاف قلوبهم فتتساقط أزاهيره التي تمثل الأبيات عند الشاعر . كل ذلك مدعاة إلى قرب مضامينهم وسطحيتها . ويمثلهم بهاء الدين زهير الذي قربت معانيه من المضامين المتداولة عند العامة ، فها هو يصف موقفاً وجدانياً فيرى أنه مغبون وصاحبه مغرور ، واصفاً مشيته بالتيه والعجب وهو أجوف حيث لا قدْر ولا قدرة :

مـــا لي علـــى الغـــبن قُـــدرةْ وأنـــت قـــد زدت غِـــرَّةْ
تمشـــي فتظهـــرُ عجبـــاً إذا مشـــيت وخطـــرة
ولســـت صـــاحب قـــدر ولســـت صـــاحب قـــدرة
ولا أرى غـــير تيـــه على الأنـــام ونفـــرة

(١) ديوان الملك الأمجد ٣٤٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وفيـــك وقتـــاً ووقتـــاً بعـــض المـــلال وفـــتره
وقـــال قـــوم ومـــالي بمـــا يقولـــون خـــبره
فأســـــــال الله أن لا أمـــوت منـــك بحســـرة
ولا وقـــى لـــك نفســـا ولا أقـــالك عثـــرة(١)

وانظر إليه كيف ينقل أقوال العامة عند لقائهم أو سؤالهم :

يـــا ســـائلاً عـــن زهـــير وكيـــف حـــال زهـــير
والله إنـــــي بخـــير مـــا دمـــت أنـــت بخـــير(٢)

ويقول الشاب الظريف :

عريـــب كـــان لي معهـــم عهـــود ظننـــت بقاءهـــا ولهـــم وداد
عهـــدت لديهـــم خلقـــاً جميـــلاً وقـــد غضبـــوا ولـــو ردوا لعـــادوا(٣)

ويقول واصفاً ما بينه وبين محبوبه :

لـــه مـــني المحبـــة والـــوداد ولي منـــه القطيعـــة والبعـــاد
فقلبـــي لا يلائمـــه اصطبـــار وجفنـــي لا يفارقـــه الســـهاد(٤)

وقريب من هذا قول مجد الدين بهرام شاه الأيوبي في مقطوعته المتقدمة(٥) :

أهـــل الحمـــى قـــد أودعـــوا قلـــبي جـــوىً وودّعـــوا

فهي أبيات قريبة المعنى ، واقعية السلوك ، شائعة بين الناس كافة ، تقرب من الشعبية العامة ، وتخلو من التأمل والتدبر والخيال التصويري ، غير أنها تحفل بالتأثير الشعوري ، وتمتزج فيها السعادة والتعاسة في زمن واحد ، فهو وإن عانق الملذات التي يهفو إليها فسرعان ما تنداح في هواجسه نوازع التعاسة كالبعد

(١) الديوان ١٦٧ .
(٢) المصدر السابق ١٦٧ .
(٣) الديوان ٨٨ .
(٤) المصدر السابق ٨٧ .
(٥) ديوان الملك الأمجد ٣٤٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والحرمان ، فهو سوداوي النظرة دائماً ، يقول تاج الملوك(١) :

وما زلت أخشى الدهر قبل فراقه ... إلى أن قضى فليقض ذا الدهر ما قضى

والمرأة عندهم تمثل الدنيا بإقبالها وإدبارها ، بحسنها وجمالها ، بقربها ونأيها ، كلما اقترب منها أو التذ بها زاد قرباً إليها وحباً في المزيد منها ، جمالها الفاني يغري بجمالها المقبل ، فلا فكاك ولا مناص ، ومغرياتها ، وصدودها ، هي الدنيا ببريقها وآمالها ، يسعى إليها الإنسان في عجل ووجل ، تصيد وتغري وهي مفزعة إذا انتقضت أو نظرت شأن الدنيا إذا أقبلت بكلاكلها ، حتى إن الشاب الظريف استلهم لها صورة الطعان والحرب في أكثر من مرة ولا ريب عندي أن استحضاره هذه الصورة قد تجاوز المرأة إلى الدنيا عامة :

قف بالركاب أو سُقها بترتيب ... عسى تسير إلى الحيّ الأعاريب

وأسأل نسيماً ثنت أعطفنا سحراً ... من أين جاءت ففيها نفحة الطيب

وفي الركائب مطوي على حرقٍ ... يلحقن مرد الهوى العذريّ بالشيب

يلقى الفراق بصبر غير منتصر ... على النوى وبوجد غير مغلوب

يا ربة الهودج المحمي جانبه ... إلام حبك يغريني ويغري بي

وكأن أي فتى يملك المال والجاه يتوهم أن الدنيا في قبضته ، ومسيرة لأمرة ، فليكتشف الوهم الذي يداعبه ، ويلوح له الخداع ، يلوب به الشقاء :

ظننت أن شبابي فيك يشفع لي ... وأن جود يدي يقضي بتقريبي

وقعت بي وبآمالي علي خدع ... من المنى بين تصديق وتكذيب

كم قد شقيت بُعذالي عليك وكم ... شقوا بصدّي وأعراضي وتقطيبي

أسعى إليك ويسعى بي ملاكهم ... فإنني بين تأويب وتأنيب

صدت بلا سبب عني فقلت لها ... يا أخت يوسف ما لي صبر أيوب

ترحّلي أو أقيمي أنت لي سكن ... وأنت غاية آمالي ومطلوبي

شيئان قد أمنا من ثالث لهما ... وجدي عليك وإحسانك ابن يعقوب

(١) تاج الملوك الأيوبي : الديوان ١٧٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويقول في تأثير المرأة :

لحاظ الظبا تحكي الظبى في المضارب ... على أنها أمضى بقطع الضرائب

ظبي مقل سالمتهن لدى الهوى ... وأفعالها في القلب فعل المحارب

وقد جردت للفتك فينا فلا ترى ... سوى دم مضروب على حدّ ضارب

فلا تحذروا بيض القواضب واحذروا ... قواضب سود في جفون الكواعب(١)

٤ – قصر النفس :

الشعراء المطبوعون يغلب عليهم الميل إلى المقطعات الشعرية التي لا تتجاوز عشرة أبيات ، وذلك لأن شعرهم يمثل لحظة محدودة تخضع لتجربة مخصوصة . ونحن لما نتصفح ديوان تاج الملوك بوري نجده يضم بين دفتيه سبع وثمانين ومائة قصيدة ومقطعة . القصائد الطويلة لا تتجاوز ثماني قصائد أطولها تسعة وخمسون بيتاً ، وأخرى اثنان وأربعون بيتاً .

وله سبع وعشرون قصيدة قصيرة أكثرها أربعة وعشرون بيتاً وجلها أقل من أربعة عشر بيتاً ، أما مقطعاته فقد بلغت اثنتين وخمسين ومائة مقطعة أكثرها أقل من سبعة أبيات .

وديوان الشاب الظريف نجد أن مجموعة أشعاره (٣٧٥) قصيدة ومقطعة ، القصائد التي تجاوزت عشرة أبيات بلغت ثلاثاً وخمسين قصيدة ، وما تبقى فهو من المقطعات وعددها اثنتان وعشرون وثلاثمائة مقطعة.

وللشاعر بهاء الدين زهير قصائد قليلة العدد الأبيات ، ومجموعة ديوانه (٤٦٢) قصيدة ومقطوعة منها (١١٣) قصيدة أقل من العشرين بيتاً وله (٣٤٩) مقطعة . ومن هذه الإحصائية ندرك غلبة المقطعات على دواوين شعراء الطبع . ويلحق بشعراء الطبع شعراء الجزيرة فإنهم لم يعبأون بالطول حتى أن مدائحهم

(١) الديوان ٥٥ ، ٥٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مقطعات أو قصائد في جلها ، فالأمير دهمش بن وهاس السليماني يكتب لأمير مكة المكرمة هاشم بن فليته بن قاسم يتشفع في جماعة حبسهم ، مقطوعة لا تتجاوز سبعة أبيات(١) .

والشاعر أبو الحسن علي بن الحسين بن اريحاني التميمي يمدح نور الدين زنكي بمقطوعة لا تتجاوز ستة أبيات(٢) .

(١) العماد الأصبهاني : الخريدة ٣/٤٢ .

(٢) المصدر السابق ٣/١٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أعلام شعر الطبع

١ – تاج الملوك الأيوبي :

هو مجد الدين أبو سعيد بوري بن أيوب المتوفى سنة (٥٧٩هـ) الأخ الأصغر لصلاح الدين الأيوبي ، نشأ في ظلال الدولة الأيوبية ، وشهد مرحلة قوتها تحت سلطان صلاح الدين الأيوبي غير أنه الشاب المنعم لم يخض غمار الحروب ، بل كان يتتبع مجالس الأنس والأدب ، وأصبح من الأمراء الشعراء الذين يميلون للظرف والظرفاء .

وتاثر بهذا الاتجاه فنقل تجاربه الذاتية التي تمثل الحكايات والحوار والحركة في شعره بعيداً عن الخيار المركب ، بل هو خيال حضوري حضري يُسقى من مكوناته الفكرية ومشاهداته البصرية ومغامراته في الحب ، ومضمون قريب يمثل الخاطرة العابرة وينأى عن التأمل والتفكير .

فحينما يتحدث عن محبوب ، تقترب خطراته من واقعية الحب الصادق الذي تتلون به النفس البشرية ، فالقلب المعذب الذي براه دلال المحب الذي يلين له الأمير مع تعاليه ، يجفو عنه المحبوب وينفر منه ، يتقرب الشاعر بالإحسان فيزداد بعداً ، فما ينفك في حيرته ، فتشتعل جمرة قلبه ويتلوى في أساه وعذابه(١) :

أما لك قلبي ، وهو قلب معذب ... براه التجني منكمُ والتجنّبُ

أيحسن في شرط المروءة أنني ... ألين فتجفوا ثم أرضى فتغضب!

تقربت بالإحسان منك فزادني ... بعاداً فما أدري بما أتقرب

وهبتك نفسي كي تجود فلم تجد ... فهل لي بعد النفس شيء فيوهب

لئن بردت أحشاك من حرقة الهوى ... فبين ضلوعي جمرة تتلهب

ملأت فؤادي بالصبابة والأسى ... وأنت خلي القلب تلهو وتلعب

---

(١) الديوان ١١٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فزدني عذاباً مـــا استطعـــت فإننـــي ليحلو عـذاب الحب عنـدي ويعـذب

وفي تكرار القلب الأولى إشارة معاناتـه الوجدانيـة التي تحـترق بلوعـة الحـب والقلب هو مصدر التأثير والتأثر .

ويظهـر الجنـاس النـاقص في (التجلي والتجنـب) ولكنـه جنـاس لـه إيحـاؤه ودلالته فهما السلوكان الظاهران اللذان يخفق القلب بتأثيرهما .

وحركة القلب واضطرابها ينقلنا إليها في التقابل الذي يتمثـل في الطبـاق بـين (ألين وتجفـو) وبـين (أرضـى فتغضـب) فعمليـة الصـراع النفسـي تطفـو علـى الحركة الجسمية فاللين والجفوة والغضب والرضى صفـات نفسـية شـعورية ، أمّـا (تقربـتِ والبعـاد) فإنهمـا يوحيـان بـالامتزاج بـين النفـس والجسـم ، وأرى أن الشاعر لم يحالفه التوفيق لما تقـرب إلى صاحبـه بالإحسـان ؛ فالإحسـان والصدقـة والعطاء فيها عطف وتعالٍ .

والبديع في هذه المقطوعة لا يظهر عليه التكلـف وإنمـا يوحـي بقـرب المـأخذ والواقعية في التصوير .

والقطعة تمثل الطبع فهي تصف موقفاً وجدانياً من جانب واحد ، وتنقلك في موجاته النفسية لأنه يرسمها كما هي ، فالشعور فيها يطفو على المعنـى . والقطعـة نبضة شعورية تتسم بالسـطحية ، وتبـدو في صـورة الحكايـة الـتي توظـف الحـوار الذاتي .

ومنه قوله(١) :

أفديـــك يـــا مـــن عليـــه أخـــاف مـــن صـــرف دهـــري

ومـــن إذا غـــاب أو ضـــل ضـــاق خُلقـــي وصـــدري

ومـــن إذا زاد وجـــدي في حبـــه قـــل صـــبري

هـــل أنـــت يـــا نـــور عيـــني بمـــا أقاســـيه تـــدري

(١) المصدر السابق ١٦٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لـــو كـــان ينفـــذ يومـــاً على الحـــوادث أمـــري
لكنـــت أفديـــك بالخلـــ ـــق بـــين بـــدو وحضـــر
مـــن كـــل خطـــب مخـــوف وكـــل داء مُضـــرِ

يلاحظ الفرق بين هذه المقطوعة وسالفتها ، فالأولى لا يخلو بيت فيها من التجانس أو التقابل ، أما هذه فنعدم فيها الجناس ولا نرى الطباق إلا بين (بدوي وحضر) (وزاد وقل) .

ومع هذا تشعر بالصدق الشعوري في القطعتين ، وما هذا إلا لأنه يتعامل مع الألفاظ والتراكيب نتيجة الانفعال الداخلي لا الاستدعاء الشكلي .

بهاء الدين زهير :

هو أبو الفضل زهير بن محمد بن علي المهلبي ، المشهور ببهاء الدين ، ولد بمكة المكرمة ، أو بوادي نخلة قريباً من مكة في (٥٨١هـ) ، ومات (٦٥٦هـ)، وتنقل بين مصر والشام مع السلطان الملك الصالح .

يغلب على شعره الوجدانيات ، ويميل إلى الأوزان الخفيفة ، ويقترب من الشعبية مع التزامه الفصحى إلا فيما ندر عن طريق الحكاية أو المداعبة .

والأوزان الخفيفة لازمته حتى في إخوانياته ، بل إنه يجري حواراً عن طريق هذه الأوزان ، فقد كتب إلى صديقه الحافظ النبيه إبراهيم الأجهوري(١) :

قـــالوا النبيـــه فقلـــت أهـــ ـــلاً بالنبيـــه ومرحبـــا
قـــالوا صديقـــك قلـــت أعـــ ـــه الصديـــق المجتبـــى
قـــالوا أتـــى لـــك زائـــراً متـــوداً مُتحببـــا
قلـــت الكريـــم ومثلـــه مـــولى تُحـــل لـــه الحبـــى

وهو يستخدم الأوزان المجزوءة في المدح كقوله(٢) :

---

(١) الديوان ٤٥ .

(٢) المصدر السابق ٦٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يـــا ســـيداً إحســـانه ... مـــا غـــاب عمـــن يســـتميحه
كـــم غـــدوة لـــك في النـــدى ... ورواح مكرمـــــة تروحـــه
وقديـــم مجـــد صنتـــه ... بحديـــث مجـــد تســـتبيحه
مُلّكتـــــه دون الـــورى ... والحـــق لا يخفـــى وضوحـــه

وهو يستمد مضامينه من الواقع الحياتي الذي يكتنفه ، كما أنه يستمد لغته من اللغة الشعبية أو القريبة منها .

وهو قليل التثقيف لشعره ، يتسم بالارتجالية ، وهو لا يعنى بالمحسنات البديعية ، فهي قليلة في شعره كقوله(١) :

أحبابنـــــا حاشـــاكم ... مـــن غضـــب أو حنـــق
أحبابـــا لا عـــاش مـــن ... يغضبكـــم ولا بقـــي
هـــذا دلال منكـــمُ ... دعـــوة حتـــى نلتقـــي
وا لله مـــا خرجـــت في ... حبـــي لكـــم عـــن خلقتـــي

فهذا كلام لتراكيب دراجة على ألسنة المجتمع حتى أنني فكرت في اختيار أكثرها التصاقاً بالسوقية فوجدتها تقترب من بعضها ، فلا خيال أو تصوير ، ولا دلالة إيحائية ، ولا تركيب سياق دلالي .

وفي ذات القصيدة نجدة يتعلق بأستار فضلهم ، ويشتكي كما يشتكي الطفل الغرير ، أو الإنسان الضعيف بلفظة دارجة (ويلاه) :

ومـــا برحـــت بســـتو ... ر فضلكـــم تعلقـــي
ويـــلاه مـــا يلقـــاه قلـــ ... ـــبي ومـــا لقـــي
إن لم تجـــودوا بالرضـــا ... فبشـــروا قلبـــي الشقـــي

٣ – الشاب الظريف :

شمس الدين بن عفيف الدين التلمساني ، ولد في مصر عام ٦٦١هـ ، أبوه

(١) المصدر السابق ٢٤٠، ٢٤١ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

من علماء الصوفية ، يقول عنه الصفدي : » شاعر مجيد ابن شاعر مجيد ، وكان في لعب وعشرة وانخلاع ومجون » .

وشعره رقيق سهل الانقياد واقعي نابع من التكوين الحياتي للشاعر ، وألفاظه قريبة المتناول ، آسرة للنفوس ، ومضامينه مستوحاة من تقلب حياته ، تمور بحياة العبث ، والوجد ، والحرمان ، والخلاعة ، وبناء شعره يعتمد على الخاطرة التي تنصهر في تجربته جزئية وتتبلور في مقطوعة شعرية ، أو قصيدة قصيرة ، وتظهر مكانته الاجتماعية في شعره ، ويتحلى الذوق الأدبي الرفيع الذي يتمثل الروح الحضارية في أسلوب سهل ممتنع ؛ فألفاظه منتقاة تبعد عن التمحل والتقعر ، ولا تسف إلى الشعبية والألفاظ السوقية ، وتراكيبه نسج حريري ، فهو رقيق يهيم باكتمال الجمال فينشد الرقة الجسمية والنفسية ويستملح المنطق السليم(١) :

من لي به رقّ معنى فيه رونقه ... ما كان أكمله لو صح موثقه

لدن القوام حَلَت ألفاظه فسبى ... قلبي ممنطقُه الزاهي ومنطِقه

استنظر الدهر يغفو عن ممانعتي ... فيه كأني من الأيام أسرقه

يا لله يا راقد الأجفاني رقّ على ... ذي ناظر لم يزل هَمٌ يؤرقه

يا آخذ القلب أردده على جسدي ... أو حاذر الله فيه أن تحرّقه

لا أشتكي منك في وجد تخص به ... قلبي ودمع بأجفاني ترقرقه

فإن لي بعض صبر أستعين به ... ترفوه كف التأسي إذ تمزقه

يارب قد ضاع قلبي في محبته ... ما بين غدر وعذر لي ألفقه

فأي رقة وأي عذوبة تفوق هذا الشعر الجميل الذي يمطر النفوس بهاءً ونقاءً، وحُقّ لمعاصري الشاعر أن يلقبوه بالشاعر الظريف .

ومن الأمراء العرب الذين يكثر شعرهم المطبوع ، شمس الدولة (بدران بن صدقة الأسدي) المتوفى (٥٣٠هـ) . وله مقطوعة في الفروسية :

(١) الديوان ١٦٤،١٦٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولما التقى الجمعان والنقع ثائر حسبت الدّجى غطاهم بجناحه
وكشّف عنهم سدفة النقع في الورى (أبو حسن) بسمره وصحافه(١)
فلم يستضوا إلا ببرق سيوفه ولم يهتدوا إلا بشهب رماحه(٢)

والشاعر يفتخر بعزته وكرامته ولا يرضى بالهوان ، وإلاّ فهو يتحلل من نسبه إلى بني أسد إن وقع في ذل وإن رأى ملازمته له ارتحل فهم لا يرضون بالهوان ، وكأنه يقول رغم عزة بني أسد عندي وحبي للمقام بينهم ، فإني إن أصبت بالذل فسأرحل عنهم طلباً للعز .

لا والذي قصد الحجيج على بزل وما يقطعن من جدد(٣)
لا كنت بالراضي بمنطقة يوماً ، وإلا لست من (أسد)
لأقلقلن العيس دامية الـ أخفاف من بلد إلى بلد(٤)
إما يقال : سعى فأحرزها أو يقال : مضى ولم يعد

وشعره الغزلي يميل إلى المضمون اللطيف ، والقول المعسول ، والتحاور المغري وينأى عن الوصف المكشوف في أبيات معدودة فهو يقول :

وغريرة ، قالت ونحن على (منى) والليل أنجمه الشوابك ميل(٥)
زعم العواذل أن مللت وصالنا والصبر منك على الجفاء دليل
فأجبتها ، ومدامعي منهلة والقلب في أسر الهوى مكبول
كذب الوشاة عليّ فيما شنّعوا غيري يَمَلُّ ، أو غيرك المملول

وهو يشير إلى دولة العرب الأسدية ، ويفتخر بتآزرهم وتعاضدهم وبعربيتها وبداوتها :

---

(١) سدفه النقع : ظلامه . السمر : الرياح . الصفاح : السيوف .
(٢) فلم يستضوا : يريد (فلم يستضيؤوا) فسهل الهمزة وحذف الياء اضطراراً .
(٣) البزل : جمع البازل ، وهو البعير الذي طلع نابه ، وذلك في السنة الثامنة والتاسعة . الجدد : الأرض المستوية .
(٤) العيس : الإبل التي يخالط بياضها شقرة ، والكريم منها . الواحد أعيس .
(٥) الغريرة : الشابة التي لا تجربة لها . منى : موقع بمكة .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يـــا راكبـــين مـــن (الشـــآ ... م) إلى (العـــراق) تحســـا لي
إن جئتمـــا حلـــل الكـــرام ... ومركـــز الأســـل الطـــوال
قـــولا لهـــا ، بعـــد الســـلام ... وقبـــل تصفيـــف الرحـــال
مـــا لي أرى (الســـعديّ) عـــن ... جيـــش الفتـــى (المضـــري) خـــال؟
والقبـــــة البيضـــــاء في ... نقـــص ، وكـــانت في كمـــال
يـــا صـــدق لـــو صدقـــوا رجـــا ... لـــك مثـــل صدقـــك في القتـــال
أو يحملـــون علـــى اليميـــ ... ـــن كمـــا حملـــت علـــى الشـــمال
دامـــت لهـــم بـــك دولـــة ... تســـعى لهـــا همـــم الرجـــال
عربيـــــة بدويـــــة ... تســـمو علـــى طـــول الليـــالي
لكنهـــــم لمـــــا رأوا ... يـــوم الوغـــى وقـــع العـــوالي
فـــروا ومـــا كـــروا ، فتبّـــ ... ... ـــاً للعبيـــد وللمـــوالي

وله أيضاً :

فواعجبا!كيف اهتدى الطيف في الدُّجى ... إلى مضجع لم يبق فيه سوى الجَنْبِ؟

وله أيضاً :

وصغـــــيرة عُلّقتُهـــــا ... كـــانت مـــن الفـــتن الكبـــار
كـــــالبدر ، إلا أنهـــــا ... تبقـــى علـــى ضـــوء النهـــار

ولـــه :

ولائـم لا منـى جهـلاً ، فقلـت لـه ... – والقلب في حرق والطرف في غرق –
يا لائمي ! كيـف يسـلو مـن تُقَلِّبـه ... أيـدي السـقام ، وتثنيـه يـدُ الأرق؟
أما وربِّ المطايا الواجفات ضحىً ... تـؤم ((بَكّـةَ)) بـين الوخـد والعَنَـقِ
لا زلت عن حب (مَيَّ) ما حييت ، وما ... زال الصبابـة والأشـجان مـن خُلُقـي

ولـــه :

من عذيري من صاحب سيءِ العشـ ... ـــرة ، لا يهتـدي لأمـر مسـدّد ؟
كخيوط الميـزان ، في كـل وقـت ... ليـس ينفـك دائمـاً يتعقـد(١)

(١) جميع هذه المقطعات أوردها العماد الأصفهاني في الخريدة المجلد الرابع ، الجزء الأول ١٧٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وملخص الرأي :

أن شعراء الطبع يدورون في فلك المضامين الوجدانية الذاتية ، فشاعرهم إما ينفث حنين مغترب نأت به الديار ، إو يتفجر لوعة وحرقة وجدانية غزلية نتيجة الحرمان . ووسيلة التأثير هي حديث القلب إلى القلب : أي يجتمع صدق الحديث، مع تدفق الشعورالذي يلامس أحاسيس القارئ . ومن هنا فإن قدرته الفنية ترتكز في تأثيره الشعوري ، وتلك خاصية فنية تنبعث من اللغة ، فقدرته على إيداع تلك المراجل الشعورية في لغتهم تلك هي وسيلته الشعرية .

وشعراء الطبع ينقسمون إلى أقسام :

١ – شعراء الوجدان الغزلي وهم أولئك الذين مرّوا بتجربته لازمتهم في حياتهم ، وأخلصوا لها بل هيمنت على إبداعهم الشعري . ومن أولئك الشاعر تاج الملوك بوري ، والشاب الظريف وبعض الشعراء من العراق .

٢ – وهناك شعراء الأسلوب الشعري ، وهذا اللقب أخترته لعله يفي بالغرض ، والذي أريد بالأسلوب الشعري أن الشعر غلب على حديثه عامة ، فهو يتحدث بالشعر ، فهو يدرج على لسانه حتى نثره يكاد أن يكون شعراً ، وشعره يكاد أن يكون نثراً ، وخير من يمثل هذا في الماضي أبو العتاهية . أما في عصر الحروب الصليبية فيمثله بهاء الدين زهير .

٣ – وشعراء التلقائية ، وهؤلاء هم شعراء شبه الجزيرة العربية ، فهؤلاء قصروا شعرهم على المؤثرات الخارجية من الوجدان العاطفي أو الحنين للأوطان ، وشعرهم ينبع من الفطرة ولغته من من تكوينهم الاجتماعي ، وسطحية مضامنهم التي تتمثل في الفراق عن الديار ، وتباعد المتآلفين . وتذكر تجارب الحكاية الوجدانية .

٤ – وشعر الطبع يكثر بين شرائح الشعر لأنه يمثل الذاتية الفردية التي تتجرد من تكلف الفكر والمضمون ، ولا تجعل الصنعة هاجساً لها ، وذلك حين ينظم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشاعر في موقف ذاتياً وما أكثره .

وشعر الطبع يميل للأزوان الخفيفة لا سيما عند شعراء الأسلوب الشعري كالبهاء زهير .

وشعر الطبع قصير النفس ، فهو يحكي تجربة منفردة ، محددوة بحدودها الزمانية والمكانية .

شعر الطبع ذاتي فهو نبض الوجدان ، يحكي صوراً من حياة الشاعر ، والشعر عند حلّ شعراء الوجدان يخضع لذات الفرد وما يوصف بهذه الذات من المؤثرات الخارجية .

وهم يستمدون معانيهم من احتمال حياتهم وصراعهم النفسي وموجات الحزن والألم ، ومن هنا كانت مضامينهم سطحية ، تمر بحياة الكثير من البشر ، غير أن أولئك الشعرا أكثر تأثراً بها لهيمنة إحدى الغرائز أو لمؤثر ذاتي كبير .

ونحن نفتقد الصور الخيالية عند شعراء الطبع وهم لا يتأملون في اشعارهم كثيراً ، إنما يكفتون بالارتجال أولاً ثم إعادة النظر وتعديل ما يمكن تعديله في عجلة من أمرهم وكفى ، فهو ألصق بالتجربة الشعورية من ذلك الشعر الذي يقف عليه صاحبه المرة تلو الأخرى حتى تتضاءل الذاتية فيه ، ويعلوا سلطان الفنية الجمالية .

والشعر الوجداني أكبر قضاياه الفنية التجربة الشعورية المتعلقة بالأنا تولده ، واللغة الشاعرة تصقله تلك اللغة التي تفيض بدلالة الأحاسيس والانفعالات .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الثالث

التجديد

- تمهيد : الاتجاه البديعي .
- مكانة البديع .
- مظاهر التجديد .
- الاشتقاق والتوليد .
- التجانس الصوتي .
- التجديد باللغة .
  - الحروف .
  - الكلمات .
  - التراكيب .
  - الرمز .
- أعلام التجديد .
- خلاصة الرأي .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الاتجاه البديعي

تمهيد :

نحن ندرك أن البذرة الفكرية تتنامى ويسير بجانبها اتجاهان متعارضان ، هذا يبرز المحاسن وآخر المساوئ حتى تبلغ مرحلة الكمال ، ثم تتهاوى إلى السقوط حت يحل على أنقاظها لون جديد من الجمال الفني .

والتنامي يتدرج حتى يبلغ الكمال ، والبديع يخضع لهذه الفلسفة ، فقد أخذ يتنامى برافديه الإبداعي والتنظيري ، واتجه إلى الكمال و لم يبلغه إلا في القرنين السادس والسابع الهجريين . ولاكتمال حلقاته ، واستوائه ، وتربعه على عرش الجمال الفني ، وهيمنته على العقول المبدعة ظل طوال القرنين المذكورين ، ثم جاءت مرحلة المحاكاة التقليدية ، وقل عطاؤه ، وجف ماؤه ، وذبلت أوراقه ، وأدركه فصل الخريف ثم تهاوت أغصانه ليحل على أنقاضها لون جديد من الألوان الجمالية ، ولكن رحلة التدرج هذه طال بها الزمن والذي يعنينا هنا رحلة البديع للكمال في القرنين السادس والسابع الهجريين في قطبيه النثر والنظم .

النثر : لقد تمثل البديع شاخصاً في الألوان النثرية كالوعظ والقصص والخطابة والكتابة ، وتلك والألوان تعمد إلى التلوين الصوتي ، والتناسق اللفظي ، فظهر الاشتقاق ، والتجانس في الألفاظ ، وظهر الازدواج ، والسجع في التراكيب فكان النثر أسبق إلى التأنق في الألفاظ ، والتطوير في الجرس الموسيقي ، وجلب الإثارة بإدراكهم لتأثير الموسيقى ، وفي مقدمتهم الوعاظ الذين حرصوا على السجع ، ومنهم الحسن البصري يقول : « ما لي لا أسمع حسيساً ، ولا أرى أنيساً ذهب الناس ، وبقي النسناس ، لو تكاشفتم ، ما تدافنتم ، تهاديتم الأطباق ، و لم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تنهادوا النصائح »(١) .

وقد كثر هذا اللون في وعظ الوعاظ وخطبهم .

ومن ذلك أحاديث الوفود على الخلفاء لاسيما معاوية بن أبي سفيان ، فقد وفدت عليه نساء كل منهن ذات مقول فصيح يتشح بالسجع ، ومثلهن من الرجال أيضاً . ومثل ذلك ليلى الأخيلية التي وفدت على الحجاج فوصفت حال قومها : « الفجاج مغبرة ، والأرض مقشعرة ، والمبرك معتل ، وذو العيال مختل ، ... والناس مستنون ، رحمة الله يرجون ، وأصابتنا سنون .. لم تدع لنا هيفاً ولا ربعاً ، ولا عافطة ولا نافطه ، أذهبت الأموال ، ومزقت الرجال ، وأهلكت العيال »(٢) .

وما يقال أمام الولاة والسلاطين من هذا القبيل ، وأكثر منه أحاديث الزهد وقصص الوعظ في المساجد ، ثم أعجب الملأ من الكتاب والأدباء بأحاديث ابن دريد التي يجعلها [زكي مبارك] البذرة الأولى للمقامات حيث يقول : « كلامه غض المكاسر ، أنيق الجواهر ، يكاد الهواء يسرقه لطفاً ، والهوى يعشقه ظرفاً»(٣)

إذن فهذه المواعظ ، وخطب الوفود ، والقصص ، وكتابات ابن دريد كانت الكتابة الفنية الأولى التي التمست التناسق بين الجمل ، والتآليف بين الألفاظ ، والتماثل في خواتم التراكيب .

ثم تألق نثر بديع الزمان الهمذاني في مقاماته التي درجت على ألسن الكتاب، وتأملها الأدباء ، وتنشأ عليها طلبة العلم ، وكان محور شكلها ، وأكسير حياتها السجع ، وتآلف الجمل ، وخفة التركيب فاقتفى أثرها المتأدبون ، ونهج نهجها الكتاب والمؤلفون ، فحفظها الكثير ، وتسرب أثرها إلى الشعر وبلغت مشاكلتها

---

(١) الجاحظ : البيان والتبين ٣/٦٩ .

(٢) القالي : الأمالي ١/٨٦ دار الكاتب العربي .

(٣) القيرواني : زهر الآداب ١/٣٠٥ ، تحقيق زكي مبارك .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

القمة عند الحريري ، التي طغت على سالفتها لعناية الرجل باللغة ، فقد أحيا ألفاظاً كادت أن تندثر أو اندثرت ، ونسجها في ديباجة من السجع ، فكان لهذه المقامات الأثر الكبير في تطور المحسنات اللفظية من سجع وتجانس وغيرهما ، حيث إن كل متأدب أو متعلم أو شاعر ، بل كل من رغب في ديوان الإنشاء يمتطي حفظها ، ويجعلهما وسيلة ليعتلي منابر الكتابة والخطابة ، ويقتحم منتديات الشعر ومجالسه.

مكانة البديع :

والإبداع الذي يغري بالمحسنات ، ويدفع إليها تمثل في لون الشعر .

والنثر أما الامتداد الإبداعي للشعر ، فقد تنامى هذا الاتجاه في شعر بشار بن برد ، وأبي نواس ، وتجلى في شعر مسلم بن الوليد ، وتمكن في شعر أبي تمام ، واتخذه الشعراء إنموذجاً إبداعياً شعرياً ، ينهجون نهجه ، ويسلكون سبله ، ويقطفون من ثماره .

ولما تلألأت إشراقاته في الشعر تبعاً للنثر أخذ التنظير يقتفي أثره ويفتق مكنونه ، ورجح جانب الإعجاب على المقت جرياً على السنن الكونية التي تنبهر بكل جديد ، وجرياً وراء الإطراء والتمجيد ، فقد أخذ الشعراء يلتمسون تلك الطريقة في التجديد ، وأكثر من يميل إلى ذلك أصحاب الشعر الذاتي الذي يتطارحونه في منتدياتهم وذلك كالشعراء الأمراء ، أو الشعراء الذين أوصدت في وجوههم أبواب الأمراء والولاة ، أوانعزلوا بذاتهم ، ومن هولاء الشاعر الأديب الوجيه الصاحب بن عماد « الذي قال قصيدته المعراة من الألف التي هي أكثر الحروف دخولاً في المنظوم والمنثور وأولها :

قد ظل يجرح صدري من ليس يعدوه ذكري

وهي في مدح أهل البيت تبلغ سبعين بيتاً ، تعجب الناس منها

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وتداولها الرواة:

فسارت مسير الشمس في كل بلدة وهبت هبوب الريح في البر والبحر

فاستمر الصاحب على تلك النمطية ، وعمل قصائد كل واحدة خالية من حرف من حروف الهجاء ، وبقيت عليه واحدة تكون معراة من الواو ، فانبرى أبو الحسين ، علي بن الحسيني الحسني الهمذاني لعملها وقال قصيدة فريدة ليس فيها واو مدح الصاب في عرضها »(١) .

وهذا التكلف ينبع أولاً : من قدرة لغوية ، فهو لا يستبعد المعنى ، وثانياً تخف فيه التأثيرات الشعورية ، وهو في جملته صناعة أدبية ويمثل الامتداد للإبداع لا مرحلة اكتماله . ولولا هذه وأمثالها لما تواصل النقد ، وتواصل التقعيد ، فمثل هذا أعجب شريحة من النقاد ومنهم الثعالبي إذ يقول عن الشاعر البستي المتوفى (٤٠٠هـ) : « صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس ، البديع التأسيس ، وكان يسميه المتشابه ، ويأتي فيه بكل طريقة لطيفة »(٢) .

والذي يتصفح الدواوين يرى لمعاً ، وقطفاً تتناثر في الدواوين تمثل حالة الدعة والراحة والتأنق والترف في نفوس الشعراء ، ولا تمثل جلّ شعرهم ، ولا نصيفه ولا قريباً من ذلك . والغريب في الأمر أن النقاد والمتأخرين أخذوا يجمعون تلك المقتطفات من الشعر ، بل إن غالبيتها مما اختاره الأسلاف في كتبهم النقدية أو البلاغية وأخذوا يدللون به على شيوع هذا الاتجاه ، وهو لا يعدوا ظاهرة من الظواهر ، فنحن نرى الأمثلة معادة مكررة في مؤلفاتهم كقول الأرجاني :

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم

وباعترافهم أنه يندر مثله ومع ذلك يجعلونهم سمة ، فكيف يكون اتجاهاً . ولا يعزب عنا أنهم استخدموا هذا اللون ، للمران والممارسة والدربة ، فهو وسيلة

(١) د. أحمد إبراهيم موسى : الصبح البديعي ص ٣٢٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٢٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تعليمية ، تقدح في ذهنية المتعلم ، وتروضه وتختبره معاً . وقد أدرك الحريري هذا الهدف : « إن وضع الأحجية لامتحان الألمعية ، واستخراج الخبية الخفية ، وشرطها أن تكون ذات مماثلة حقيقة وألفاظ معنوية ، ولطيفة أدبية »(١) .

ويعلم العلماء والمثقفون أن للفن وظائف متعددة إلى جانب المتعة . أما المتعة الفنية فلا ريب في حضورها في المقامات ، وأما المنفعة فهي في إحياء الألفاظ اللغوية ، وكيفية الإبداع الجمالي . إذاً فهي تفتقد الشعور والتأثير النفسي لكنها من جانب آخر تمتع المتأمل ، وتفيد اللغة وتثري المخزون اللغوي أكثر لطلاب العلم والحريري حينما يأتي بشعر ، يدرك أن القلب الذي يقرأ بالانعكاس لا يريد تأثيراً شعورياً إنما بناء لغوياً ، ومتعة تأملية حيث يقول :

آس أرمـــلا إذ عـــرا وارع إذا المـــرء أســـا

أســـند أخـــا ناهـــة ابـــن إخـــاء دنســـا

أســـل جنـــاب غاشـــم مشـــاغب إذا رســـا

اسكـــن تقـــوّ لعســـى بسعـف وقـــت نكســـا(٢)

فلا شك في هذا التكلف ، ولكنه مدعاة لمحاولة التأمل اللغوي والأسلوبي معاً. ولا حسنة غير ذلك ، وحسب هذه الحسنة أن جعلت المتعلمين يعكفون على اللغة ، وينقبون عن مفرداتها ، ويروضون استخدامها .

وانتقاء هذه الصنعة وضمها إلى بعضها ، ودراسة الشعر من خلالها ، وأخذها بمعزل عن الاتجاهات الشعرية الأخرى ، جعلهم يصدرون أحكاماً قاسية على الأدب العربي شعره ونثره ، بل يتجاوزونه إلى أهل العصر عامة حيث : « تسرب إلى الحياة الشعرية شيئاً فشيئاً جمود وركود ، واستولى على العقل العربي ضعف وفتور ، فأخذ الشعراء يكتفون بمحاكات سالفيهم والوقوف عند الحدود

(١) المرجع السابق ص ٣٤٦ .

(٢) د. أحمد إبراهيم : الصبغ البديعي ص ٣٤٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التي بلغوها من قبل ، وخالوا أن جميع الطرق التي تسلك إلى الاختراع والتجديد قد سدت أمامهم ، وأن الأول لم يترك للآخر شيئاً »(١) .

وعن أبي العلاء المعري الذي تأثر بالآراء المؤازرة للبديع يقول :

« وقد كان لشيوع هذه الآراء أثر قوي في نفوس الأدباء إذ جعلهم لا يبحثون عن موضوعات جديدة يظهر فيها سبقهم وتجديدهم ، بل عمدوا إلى أصباغ البديع – ولا سيما التي تنزع إلى التقليد – واستخدموها مسرفين حتى سقم أدبهم وهزل ، ولم يسلم من ذلك شاعر أو كاتب ، حتى الشاعر الحكيم الفيلسوف أبو العلاء المعري (٣٦٣-٤٤٩هـ) سيطرت عليه هذه الصناعة في جزء ليس باليسير من شعره »(٢) .

ونحن نستنبط من هذه الآراء :

أنها حكمت على جمود الشعر وفتوره في زمن متقدم من القرن الخامس استهلالاً بأبي العلاء المعري ثم الحريري ، ولم يفند الناقد أن هذه ظواهر جانبية عند فئة نادرة من الشعراء .

ثم إن هذه الأحكام على نتف من الشعر والشعراء جُعلت عامة شاملة على الشعر العربي ، فلا يحق لأي ناقد أن يعممها على سائر الشعر والشعراء .

وإن هذه الأحكام الشاملة متأخرة في عصر النهضة الحديثة ، أما المعاصرون لتلك الحركة الشعرية ، فإنهم انقسموا قسمين ، منهم المؤيد وآخر معتدل يشترط شروطاً .

فهذا ابن الأثير يقول عن الحريري : « فقوله : وعاف عافي العرف عرفانه) من التكرار المشار إليه ، وكذا ورد قوله أيضاً في رسالتيه اللتين صاغهما على حرف السين والشين فإنه أتى في إحديهما بالسين في كل لفظة من ألفاظها ،

---

(١) المرجع السابق ص ٣١٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٣٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأتى في الأخرى بالشين في كل لفظة من ألفاظها ، فجاءتا كأنهما رقى العقارب أو خذروفة العزائم ، ما أعلم كيف خفي ما فيهما من القبح على مثل الحريري مع معرفته بالجيد والرديء من الكلام »(١) .

وقوله : « وقد سلك قوم في منثور الكلام ومنظومه طرقاً خارجة عن موضوع علم البيان وهي بنجوة منه لأنها في وادٍ وعلم البيان في واد »(٢) .

إذن فهذه الأحكام موجهة إلى أفراد من المبدعين الذين نهجوا هذا النهج وليست بشاملة .

ولست أدري بأي منطق علمي تجيز الإجادة وبلوغ القمة عند القاضي الفاضل إلى التعريض به لمجرد أن الذين خلفوه لم يبلغوا شأوه ، وتاهوا في قدائد جماله قبل بلوغ منزلته فقيل عنه « كان القاضي الفاضل أحد الجناة على الكتاب والشعر بما شرع من هذه الطريقة التي قضت على الأدب أن يكون مجرد ألواناً من البديع مرصوصة مصفوفة ، وهونت من شأن المعاني في نظر الأدباء حتى استباحوا التضحية بها في سبيل تورية سخيفة أو جناس مرذول ، وغدا ميزان الجمال ومقياس البراعة أن يلم الأديب بجملة من هذه الألوان يحشو بها ذهنه ، حتى إذا أخذ في الكتابة أو الشعر حشدها بمناسبة وغير مناسبة »(٣) .

وأجزم أن هذه الأحكام جناية على الأدب في قرنيه السادس والسابع الهجريين ، فهو يتشح بوشاح الجمال في أكثره ، وإن ظهرت بعض المخالفات الذوقية عند معاصري القاضي مثل العماد الأصبهاني ، وعند خلفه مثل الظاهر الكاتب المملوكي ، بل في شعر القاضي دون نثره ، ولو أحصينا ما نرتضي جماله من النصوص وما لا نرتضي جماله ، لتبين الإجادة في هذا الأدب المظلوم . فلنعد

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥٠ .

(٢) المثل السائر ص ٣٠٨ ؛ د . أحمد إبراهيم : التصنيع البديعي ٣٤٨ .

(٣) د . أحمد إبراهيم : التصنيع البديعي ٣٥٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إلى الإحصاء .

ولم يلبث صاحب المقولة السابقة أن فطن لقدرات القاضي الفاضل الفنية « نعم إن القاضي الفاضل لسلامة فطرته ، وتمكنه من صناعته لم ينحدر كما انحدر خلفه ، فكان لكتابته وشعره شيء من الرونق والجمال يسطر له حسن الذوق وسلامة الفطرة ودقة الصنعة »(١) .

إذن فالقاضي الفاضل له ما كتبه وأبدعه وليس عليه ما أخفق فيه من تبعة وخلفه . والأجدر بأولئك أن يبدعوا كما أبدع ، وليكن معلوماً أن الجمود والركود في غلبة التلاعب اللفظي على المضمون ، وكان متأخراً عن القاضي الفاضل والتكلف عند الشعراء والكتاب في النصوص الشعرية أو النثرية ينحسر كثيراً في الأدب المتلون بالشعور الحاد المتوتر .

وأرجح أن الأحكام التي وسمت بها العصور المتأخرة من مثل الانحطاط والجمود والركود ، كانت المحاور التي يدور حولها الكتاب عن هذا القرن ، ويلتمسون لها الشواهد من ثنايا الدواوين ، ولم تكن هناك منهجية استقرائية للأحكام .

ولعل النقاد اللاحقون يدركون مستوى البديع الذي وصل إليه في شعر أولئك ، وذلك المستوى وحسب الذي أشاد به النقاد ، بل لعلهم يدركون أن الأمر في مجمله أخف مما لحق بجانب من جوانب المضامين المتمثل في شعر الغزل بالمذكر . فلو كان الهجوم على الأخير لكان الأجدر والأصوب على ألا يجعلوه سمة عامة أيضاً .

(١) د . أحمد إبراهيم : التصنيع البديعي ٣٤٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مظاهر التجديد

مقدمة التجديد :

التجديد الأدبي لا يعني الانقطاع عن الماضي ، وإنما هو التواصل مع المكون الذهني والمكون الموسيقي ، والذخيرة اللغوية ، فالتجديد له جذوره الممتدة وشائجها مع التراث الماضي والحاضر ، حتى أرباب الحداثة الذين يدعون إلى الانقطاع ، لم ينقطعوا عن الماضي بلغته وإبداعه وتنظيره . وهم أنفسهم أكثر التزاماً باللغة ومعانيها . إذن فالتجديد أكثر ما يعني التطوير أو لنقل تطور الظاهرة وتناميها نحو الإيجابية في نظر دعاتها والمبدعين فيها .

والتجديد لا يكون ظاهرة شاملة في قضية فنية ، إنما يكون في عنصر من عناصرها في الأعم الأغلب . والمتعارف عليه أن البديع موجود في القرآن الكريم، وحديث الرسول ﷺ ، والشعر الجاهلي من قبل ، لكن إكثار بشار ومسلم بن الوليد ، وأبي تمام منه جعله ظاهرة تجديد .

والتجديد في عهد الحروب الصليبية أمر لم يخرج عن هذا التطوير ، بل هو أكثر تعقيداً ، ولا سيما أنه قد جاء بعد بلوغ القمة للحضارة الإسلامية عامة ، وقمة العبقرية الشعرية خاصة ، لكن كل ذلك لم يمنعهم من تطوير ما يرونه جديداً . وربما نخالفهم في أكثره لكننا لا نفرض ذوقنا على ذلك العصر ، فالتجديد الذي نتحدث عنه إنما هو تجديد شريحة أو فئة من الشعراء يسايرهم عدداً من النقاد ، ولا ننفي المعارضة القوية لهذا الاتجاه ، وهو لا يشمل شبه الجزيرة العربية ، لأنها نأت عن الحركة الشعرية العامة وسار شعرهم في منهج الطبع .

وحصري لهذه الظواهر لا يمنع اشتراك الاتجاهات الأخرى بها ، فاللغة مشاعة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولا غنى عن جل ألفاظها وتراكيبها وظواهر البلاغة ، لكن كثرة هذه الألوان عند شريحة من الشعراء وغلبتها عليهم واتخاذهم لها مذهباً فنياً وأسلوباً تتمير به شخصية كل منهم ، ذلك ما جعل تلك الظواهر وأولئك الشعراء يدخلون في التجديد ، ومن مظاهر التجديد ، الاشتقاق والتوليد ، والتجانس الصوتي .

الاشتقاق والتوليد :

إن الاشتقاق وتوليده يضفي حللاً موسيقية ، وديباجة لفظية ، وإيقاعاً صوتياً متناسقاً ، وابتكاراً في القوافي فهو استمداد من لفظة متواجدة في البيت دون المعاناة إلى أخرى ، والحريري(١) هو الذي فتق هذا اللون ، وجال فيه البصر والبصيرة ، وأجرى فيه التجربة ، حتى ذلل صعابه ، ولين جانبه ، ولون استخدام المفردة ، ونسجها في دلالات مبتكرة ، يقول في مقطوعة ترتكز على الاشتقاق والتزمه فيها ، حتى إن القافية تكاد أن تكون تذييلاً مليحاً ، وله نغمة ذات جرس خاص :

بُنيَّ ، استقم فالعود تنمي عروقه ... قويماً ، ويغشاه – إذا ما التوى التّوَى

ولا تطع الحرص المذل وكن فتى ... إذا التهبت أحشاؤه بالطوى طوى(٢)

وعاص الهوى المردي فكم من محلق ... إلى النجم لما أن أطاع الهوى هوى

وأسعف ذوي القربى ، فيقْبُحُ أن يُرى ... على من إلى الحر اللباب انضوى ضوى

وحافظ على من لا يخون ، إذا نبا ... زمانٌ ، ومن يرعى إذا ما النوى نوى

وإن تقتدر فاصفح ، فلا خير في امرىء ... إذا اعتلقت أظفاره بالشوى شوى

وإياك والشكوى ، فلم ير ذو نهى ... شكابل أخوالجهل الذي ماارعوى عوى(٣)

---

(١) الحريري : أبو محمد القاسم بن علي بن محمد الحريري ، من أعالي البصرة ، صاحب المقامات ولد عام ٤٤٦هـ ومات ٥١٦هـ . (انظر : خريدة القصر ، وجريدة العصر للأصبهاني ٢/٥٩٩).

(٢) الطوى : الجوع .

(٣) العماد الأصبهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ٢/٦٠٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهذا التقابل الصوتي يحقق تناسقاً إيقاعياً ، وتوافقاً نغمياً ، وتذييلاً شكلياً .

ومن هذا الاشتقاق اللغوي في باب الاشتقاق حيث يشتق القافية من اللفظة التي تسبقها يضيف إليها جناساً في البيت الذي يليه « كجني جاني » في قوله :

أخمد بحلمك ما يذكيه ذو سفه ... من نار غيظك ، وأصفح إن جنى جاني

فالحلم أفضل ما أزدان اللبيب به ... والأخذ بالعفو أحلى من جني جاني(١)

فهو قد استخدم اللفظ جني في صيغتين مختلفتين متجاورتين ، ومثلها في البيت الثاني ، لكن هناك تضاد بين معنى الاشتقاقين في البيتين ، حيث زاد المعنى تأملاً بجانب القيمة الفنية فالجناس البلاغي في خاتمة البيتين وليس في اللفظتين المتجاورتين وحسب .

والاشتقاق داخل البيت يكسوه حلة موسيقية ، وفيه براعة لغوية ، ومشاكلة صوتية وتوظيف للفظة الواحدة في معانٍ مختلفة كقول الحريري :

ومخطف الخصر للألبان مختطف ... تهفو الحلوم لما فيه من الهيف

ما جال للطرف لمح من ملاحته ... إلا كسا من حلاه أملح الطرف

وكم مخامر داءٍ شفه كمدٌ ... لجا إلى شفتيه ، فاشتفى وشفى

فلست أنسى تلاقينا بـ (خيف منى) ... وقوله لي بذاك الخيف : لا تخف

وحلفه بـ (الصفا) إن الضمير صفا ... وإنه لي إلى حين الوفاة وفي(٢)

وهذا الاشتقاق والتماثل في الأسماء والصفات يزيد المعنى رونقاً ولا يخلو من الشعور وبهجته وهي ذات مضمون شريف .

وهذه القدرة اللغوية التي اكتسبها الحريري من بناء مقاماته التي بلغت مسوداتها أحمال عدد من الجمال ، هذه المعاناة والممارسة والقدرة اللغوية هي التي قد ولدت هذا اللون من الشعر .

---

(١) المصدر السابق ٦٠٣/٢ .

(٢) العماد الأصبهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ٦٠٦/٢،٦٠٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد غني أهل العصر وما تلاه من عصور بهذه الألوان النثرية (المقامات) والقصائد الشعرية ، وحفظوها ونسجوا على قدائدها ونهجو نهجاً فهو إبداع قوبل بالإعجاب والاتباع .

ولما انتقل في رياض الشعر لشريحة أخرى في فيئة تالية ، نرى أزاهير الفصحى تتوج أغصان الأبيات الشعرية ، فهناك التماثل بين التجانس لزهرتين اثنتين ، وربما ثلاث زهرات ، وتتلون بجانبها أزاهير أخرى في الأبيات المجاورة ، وهكذا تظهر لنا القصيدة في تشكيلة متكاملة من الأزاهير المتنوعة الأشكال وإن تناسقت في الطول والحجم في جلها .

وهذه الأغصان يظهر عليها الرواء والرونق لأنها تشكلت من بنية لغوية قوية، غير أن الأزهار لا يكتفي بمنظرها الخارجي وحسب ، وإنما تعطي معنى وتضيف مدلولاً . ومن شعراء هذه المرحلة ، ابن الساعاتي (٦٠٤هـ) وابن سناء الملك (٦٠٨هـ) ، وفتيان الشاغوري (٦١٥هـ)، والشاب الظريف (٦٦٠هـ)،وابن نباته المصري (٦١٩هـ)، والملك الأمجد الأيوبي (٦٢٨هـ)، وتمثل مرحلة الاعتدال بين تلك التلوينات القليلة عند الشريحة السابقة كالأبيوري، وابن الخياط ، والقيسراني ، وابن منير الطرابلسي ، وأبي الفوارس . أما الشريحة التي أكثرت من التلوين الموسيقي ، واعتمدت على الشكل الفني ، فإنها كانت نتاجاً لعوامل عدة أهمها :

١ - أن المقامات لبديع الزمان ، والحريري ، وأسلوب الحريري الشعري أيضاً كلها كانت النموذج الأعلى للتنظير المعاصر لهم ، فقد نالت إعجاب النقاد، حيث ألحوا على تلامذتهم بحفظها ومجاراتها والسير على نهجها ، واعتمدوها علامة على نجابة التلميذ وتفوقه ، وشرط لالتحاقه بالدواوين الإنشائية .

٢ - أن اللغة الفصحى ، خاضعة للتعليم ، فأقبل طلبة العلم على النهل منها وأصبحوا علماء فيها ، مما جعلها تلين لهم فسخروها لأشعارهم أو لنقل لذوقهم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

النقدي وبراعتهم اللغوية ، فأكثروا منها في أشعارهم ، وتفاخروا بذلك .

٣ – أن الشعراء والكتاب في هذا الزمن نظروا نظرة اتباعية فاقتفوا آثار من سبقهم من رواد الشعر العربي كأبي تمام ، والمتنبي ، وأبي العلاء المعرّي ، وحفظوا دواوينهم واستلهموها ، فغلب الإعجاب على الإبداع ، وأضحى جل اهتمام الشعراء أن يأتوا بمثل ما أتى به الأوائل كأبي تمام ، وأبي العلاء المعرّي في لزومياته ، والحريري ، في صنعته اللغوية ، البديعية .

٤ – أن كبار الشعراء كانوا في حماية السلطة فهم بمنأى عن النقد والتوجيه والتوتر المودي للإبداع كمثل العماد الأصبهاني ، وابن سناء الملك ، والأنصاري، بل إن المتأدبين والشعراء يطرونهم لينالوا رضاهم فتقهقر التنظير السليم .

ومن ذلك قصيدة ابن سناء الملك يرثى العفيف التلمساني :

لقد عفت عيشي بعد العفيف ... على العيش بعد العفيف العفاء

فما غاب من غاب إلا الجميل ... وما مات ما مات إلا الوفاء

وإلا الصديق وإلا الصدوق ... وإلا الصفي وإلا الصفاء

فقد جمع في البيت الأول عفت واشتق منها العفيف ، وكرر العفيف ، وأتى بمعنى جديد من اللفظة ذاتها وهو العفاء .

وفي البيت الثاني كرر غاب ، وما ، ومات ، وإلا .

أما البيت الثالث فقد جانس بين الصديق والصدوق ، وبين الصفي والصفاء إضافة إلى تكرار « إلا » أربع مرات .

وهذا اللون يمثل قدرة لغوية ، ولكنها تحتاج إلى تأمل ليقارن المتلقي بين هذه المتشابهات في اللفظ ، ويقرن كل منها بمعناه المراد داخل البيت ، ثم يقارنه بما يجاوره . وهذه الأبيات تحتوي مضموناً جيداً ولكن تختفي الدلالة وراء هذا التصنع اللغوي .

وهم يحشدون تلك في مقدمة القصيدة ثم يأخذون في التخفيف منها

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والاسترسال : فهو يتابع القصيدة بالتخفيف البديع :

حبيب قريب به يلتقي ... وتنسى الأحباء والأقرباء
يقرب إن بعد الأقربون ... ويشكر إن ذمت الاصدقاء(١)

بل هو لم يلتزم هذا التجانس الصوتي في مقدمة قصائده أو يكثر منه ، وإنما يورده في بيتين متواليين ، أو غب كل بيت أو رابع أو خامس ، فهو يمتدح صلاح الدين في فتح حلب ، ولا نجدة يلجأ لتجاور المشتقات إلا في البيت الثاني والثالث ثم يعرض عنه تارة ويورده أخرى :

بدولة الترك عزت ملة العرب ... وبابن أيوب ذلت شيعة الصلب
وفي زمان ابن أيوب غدت حلب ... من أرض مصر وغارت مصر من حلب
ولابن أيوب دانت كل مملكة ... بالصفح والصلح أو بالحَرْبِ والحَرَبِ
مظفر النصر منعوت بهمته ... إلى العزائم مدلول على الغلب(٢)

التجانس الصوتي :

التجانس الصوتي له وظائف لغوية عديدة ، وبصرية أيضاً ، وله علوق بالنفس وله إشارة ذوقية ، وإن كان الذوق لا يتأتى من الأشياء إلا في مرحلة قريبة من الكمال التركيبي . فالتجانس في النجوم يعطي جمالاً وإن كان جمالاً فيه أشكال مختلفة من داخلها ، والمباني تتناسق في ألوانها وأشكالها ، وإن اختلفت تراكيبها في بواطنها : وأيضاً من الأزهار والورد ما تتماثل وتتناسق فتحوي جمالاً ومتعة بصر ولا ماهية خلفها . وأيضاً فإن القبب والنوافذ تتماثل في أشكالها الهندسية طولاً وعرضاً ولكن لاشية وراء ذلك .

وأبنية اللغة شعرية ونثرية تماثل الطبيعة في هذا التناسق والتناسب : فالجناس والتكرار إذا ما حملا اختلافاً ومدلولاً وإيحاءً وراء الشكل الظاهر فإن وظيفتهما

---

(١) الديوان ١/٦ ، حققه ، د. محمد عبدالحق ، دار الجيل ، بيروت .
(٢) المصدر السابق ١/١٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

في اللغة ذات قوة ومكانة ، ويدلان على إبداع الشاعر وتمكنه من إبداعه كتمكن المعماري من فنه والتشكيلي من ألوانه ، أما إذا لم تشر إلى إضافة معنى ، أو تكشف دلالة ، فإن هذا يؤدي إلى الجمال الشكلي الخارجي ، وذلك ما عابه النقاد على شعراء القرنين السادس والسابع وما بعدهما . إذن سيكون هذا مقاسنا لشعر شعراء تلك المرحلة، فإلى أي الأنواع تميل أشعارهم ؟ يقول ابن سناء الملك:

كحلاء ما كحلت جفوني بالكرى فعلام تبصرها جفوني مرودا؟
كُحلٌ على كَحَلٍ وما احتاجت له إلا لتسقيني السلاف مولدا(١)

الحرف ما في البيت الأول حرف نفي ، فهو ينفي اكتحال عيونه بالنوم بسبب هذه الحسناء كحلاء العينين ، ولو كانت ما هنا موصولة تجاوزاً لانقلب المعنى وصار : إن التي كحلت عيوني بالنوم هي الحسناء كحيلة العينين .

والتجانس في البيت الأول بين « كحلاء وكحلت » ، وهذا فيه جناس في اصطلاح البلاغيين لاختلاف معناهما ، لكن كحلاء الأول لها دلالة وإيماء . فالكحلاء : تشير إلى ثبات هذه الصفة فيها ، وهي صفة جمالية للعيون .

أما قوله (كحلت) فإنها تدل على ثبات فعلها حيث الزمن الماضي ، وأن التكحيل مغاير للكلمة الأولى فهو في الثانية بمعنى آثار الدموع والسهر وفيه إيحاء باللهف والغرام والهيام حيث السهر والاضطرب .

وفي البيت الثاني : « كحل على كحل » نجد أن فيه التكلف بخلاف الصنعة حيث يشير إلى دلالة خفيفة بأنها تتكحل إضافة إلى كونها كحلاء وهذا أشرنا إليه آنفاً . إذن فالشاعر أبدع في الأول وتكلف في الثاني .

والشاعر يوحي بتنظير نقدي يشير إلى وعيه بالجناس وأنه يحاول الابتعاد عن متكلفه :

(١) الديوان ١٥٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

علم الزمان عـن الجنـــاس ترفعـــي فلذاك ما جمع الجدايـــة والجـــدى(١)

ويقول واصفاً إيّاها :

لم تصدئ الأيـــام سيـــف لحاظهـــا لكن على الشفتين أبصـرت الصـــدا(٢)

نجد روعة التقابل في المعنى « فتصدىء » أي أن الأيام لم تؤثر فيها ، فجمالها لم يعتره التغير والاضمحلال والتلاشي ، ونظرتها مؤثرة ساحرة ، وتلك خاصية مشهورة عند بعض النساء تحتفظ بمعالم جمالها وملاحتها وإن تقدمت بها السن .

كمثل عريب التي أغرت ثمانية من الخلفاء والوزراء وأعيان الدولة(٣) .

قوله الصدى يقصد به العطش الشديد - ربما يقصد الحب - أما سمرة الشفتين فهي اللمى أو اللعس .

إذن فإن كل من الكلمتين قد أدت معنى ، وأوحت بدلالة ، فقامت بوظيفتها ودلالتها ، إلى جانب المنحى البلاغي رد العجز على الصدر .

ويقرب من هذا دلالة متعمدة في قوله :

ولرب جـــان قـد جنـــى متعمـــداً فتراه عنـــه قـــد عفـــا متعمـــداً

فكلاهما توحي بالإصرار ولكن في معنيين مختلفين ، ويشيران إلى حالة نفسية في ناحية التمرد ، الإجرام ، والأخرى تقابلها في العفو والاقتدار .

ومن التكرار الذي لا يتجاوز معناه القريب قوله :

تعنـــو الملـــوك لوجهـــه بوجوهها وتظـــل ســـادتها لديـــه أعبـــدا

وإليه تأتي حيـــن تأتـــي خشعـــاً وعليه تدخل حين تدخـــل سجـــدا(٤)

فقوله « لوجهه بوجوهها » و « تأتي حين تأتي » و « تدخل حين تدخـل »

---

(١) المصدر السابق ١٥٣ .

(٢) ابن سناء الملك : الديوان ١٥٢ .

(٣) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني .

(٤) ابن سناء الملك : الديوان ١٥٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لا أرى في هذا التكرار مزيد معنى ، فلا دلالة أو كثافة للمعنى ولا مزيد مبنى ، فليس فيها جرس موسيقي يضفي جديداً إنما هي تكرار يطنب في البناء .

فلو قال : « تعن الملوك لوجهه : لكفاه . أو قال : تعنو الملوك ، لكان أبلغ، وقد وردت في الديوان بالألف (تعنوا) وهذا خطأ مطبعي ولو كانت لغة « أكلوني البراغيث لقال « يعنون » بإثبات النون . كذلك فإن « تضل » خطأ مطبعي وصحتها تظل كما أثبتها في النص .

ولا نشك أن كثيراً من الشعراء في هذه العصور ، قد وظف التجانس الصوتي توظيفاً جميلاً يؤدي إلى دلالته الموسيقية إلى جانب دلالته المعنوية .

ونتيجة لشغفهم بهذا اللون ، فقد نرى بعض ملامح التكلف بدرجة أقل .

التجديد باللغة :

البناء اللغوي محور التجديد الفني لتلك المساحة الزمنية الرحبة في عهد الحروب الصليبية ، فاللغة هاجس طالب العلم فيظل دائباً لتكوين مخزونٍ لغوي ، فيحفظ القرآن الكريم والحديث ، ويلتهم أشعاراً ، ويتوجها بالمقامات الحريرية ، ثم ينتقل إلى مرحلة التطبيق والممارسة ، فينثر المنظوم وينظم المنثور ويبني المقامات لا بقصد الإبداع والتأليف ، وإنما بهدف الترويض والتدريب ، فكانت اللغة هاجسه ، وأخذت تتشكل في تكوينه الفني . ومن هنا فإن الشكل الفني الجمالي يحتل مساحة كبرى من التجديد في الشعر . ونحن نصنف اللغة إلى عوامل تكوينها الأولى حتى نستجلي معالم التجديد بالتفصيل . فاللغة تتكون من الحروف ، ثم الكلمة ثم اللفظة ثم التركيب ثم نسيج البيت ثم بناء الموسيقى .

أولاً : الحـــروف :

وظف الشعراء الحرف توظيفاً فنياً يجنح إلى التكلف ، لكن إعجابهم به جعل

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أثره يطرأ على شكل المقطوعة الشعرية أو القصيدة المتوسطة وأحياناً للمطولة ، كأن تكون المقطوعة معجمة الحروف أو خالية من الإعجام ، أو تلتزم حرفاً في جميع كلماتها ، أو يبدأ كل بيت منها بحرف وينتهي بحرفٍ .

ويندر أن يأتي الشعر المتكلف الذي يعمد إلى الإعجام أو حروف الإهمال في قصائد المناسبات كالمدح والرثاء والجهاد وغيره ، إلا في بعض المقطعات للتظرف ، والإعداد لمناسبتها من قبل كما صنع أبو السمح الذي يقول عنه العماد: يحذوا حذو (الحريري) في ترسله وينسج على منواله وأبو السمح سمح الخاطر ، جواد القريحة ، مجيب الرؤية ، مصيب المعاني الرائقة ، مجيد لنظم الكلم الفائقة . أسلم في الدولة المستنجدية ، وحسن إسلامه ، وعمل قصيدة في الرد على اليهود وإظهار معايبهم ، ورتبه الإمام كاتباً بمنثره .

فمما أنشدني له في الإمام (المستنجد بالله) ، يهنيه بعيد الفطر سنة إحدى وستين ، أبياتاً ، نظمها غير معجمة ، وهي :

ملك الأمر ، دام أمرك مسمو ... عاً مطاعاً ما حال حول وحال

ورعاك الإله ما همر الرعـ ... ـد وما دام للودود وصال(١)

وأدام العلاء ملكك محرو ... ساً محوطاً ما حلل الإحلال(٢)

عم أهل الإسلام طولك طراً ... وعداهم ، لعدلك الإمحال(٣)

ومحا رسم كل عاد معاد ... ملحد همه الدها والمحال(٤)

سرَّ أهل الصلاح عصرُ إمام ... ما عراه ، لردع روع ، ملال(٥)

---

(١) يقال : همر الماء والدمع والمطر ، إذا انصب . وهمر فلان : دمدم بغضب .

(٢) حاط الشيء فه محوط : حفظه وتعهده بجلب ما ينفعه ودفع ما يضره .

(٣) الطول : الفضل ، والإمحال : القحط والجدب .

(٤) المحال ، بكير الميم : الكيد .

(٥) الروع : الفزع ، والحرب .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عـــالم عـــامل ، مُعَـــمٌّ ، عـادل ، عهـده عدلـه هطـال(١)
ملـك راحـم لـداع ، مملـو ل لـداه ردا الـولاء طـوال
حالـه حـالك ، ومـورده مـ ـر ، واسمـاء دروعـه أسمـال(٢)
عمّـه طولـه ، وأعدمـه الإعـ ـدام عمـداً ، ومـا عـرا إهمـال
أسـعد الله ، كـل دهـر وعصـر ، سـدة الملـك ، مـا أهـل هـلال(٣)
حاطها الله مـا حـى طالحـاً لا حِ ، وما لاح للحـداة الآل(٤)،(٥)

ومن مظاهر الجديد التمـائل بـين الحـروف الأولى في البيـت وحـرف الـروي والالتزام بذلك في المقطوعة كاملة : كقول أبي الحسن علـي بـن محمـد القمـاحي المعاصر للعماد الأصفهاني :

جدالـك في القريـض أفـاد فضـلاً فهيـج منـه بلبـالي مهيـج(٦)
جليـت شـي البراعـة بعـد هـزء، فجـاءت بعـد مـا أمتنعـت تمـوج
جمـال الفضـل فيهـا غـير خـاف بديـع الحسـن ، رائقـة بهيـج
جعلـت بهـا لـك المنـن اللواتـي تـرادف كلمـا حـج الحجيـج
جمانات ، بهـا نظمـت عقـود تقر هـا الثواقـب والبـروج(٧)

---

(١) معم الأولى : بفتح العين ، وقد تكسر : من كرمت أعمامه وكثروا . ومعم الثانية ، بكسر العين : من عم الناس بخيره ومعروفه . وهطال : كثير الهطلان ، وهو تتابع المطر متفرقاً عظيم القطر . والعهد : أول مطر الوسمي .

(٢) حالك : شديد السواد .

(٣) السدة : السرير ، وهي معجمة خلافاً لما التزمه من استعمال الحروف المهملة وحدها ، إلا أن يعد التاء ((هاء)) .

(٤) لحاه يلحوه لحياً : قبحه ولعنه . والحداة : جمع الحادي ، وهو الذي يسوق الإبل بالحداء والتطريب ، ويقال فيها ما قلته في تاء ((السدة)) في البيت السابق . والآل : السراب ، أو هو خاص بما في أول النهار وآخره .

(٥) العماد الأصفهاني : الخريدة ، القسم العراقي ٢/٢٦٤،٢٦٥ .

(٦) البلبال : شدة الهم ، والوسواس .

(٧) الجمان : اللولو ، وحب يصاغ من الفضة على شكل اللولو العقود : القلائد . الثواقب : النجوم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

جفيت عرارها جهلاً ، فقلبي جريح ، حيثما دامت ضريح(١)
جهلت بتركها فأفدتنيها بقيت ودمت ما حدبت حدوج(٢)
جميع الناس قد علموا بأني جنحت بها إذ اتسع الخليج(٣)
جنت ، وأنت إذ تسطو هزبر به تزهو المذاكي والسروج(٤)
جحيمك في البسالة ليس يطفى وتنتصر الظبابك والوشيج(٥)

ومن هذا اللون ما نقله العماد الأصفهاني :

« ذكر الأديب (علي العبيدي البصري) : أن كتب (أبو منصور بن المدهوني) إلى الشيخ (أبي الاقسم عبدالواحد بن المقرئ) في جواب شيء ، على رَوِيّ التاء ، وأوّل الأبيات (تاء كذلك) :

ته في الجمال ، فطرفي فيك مبهوتُ والقلبُ في سورة الهجران مفتوتُ
تأمّل الدّمع من جفني منسكباً كأنه فصلُ مهرجان وياقوتُ
تُميتُني بجفونٍ منك فاترةٍ أحلها السحر (هاروتٌ) و (ماروتُ)
تنام عن ساهر الأجفان ذي مقةٍ خلفته وهو بالإبعاد مبتوتُ(٦)
تباعدٌ أشمتَ الواشي - فُديتَ - ولو أحييت بالوصل أضحى وهو مكبوتُ
تُدني العذول وتقصيني لتقتلني هل يستوي لك محبوب ومقوت ؟
تظنني لا أطيق الصّبر عنك ، ولي حسني (أبي القاسم) العلاّم تثبيتُ
تلذه منه أبيات ، تضمنها ذكرُ (المهلب) في الأبيات مثبوتُ(٧)(٨)

---

(١) حفا البقل يجفوه حفاءً وحفواً ، وحفاه يجفيه حفياً : اقتلعه من أصوله . العرار : نبات طيب الرائحة . ضريح : مدمى .

(٢) حدبت : ارتفعت ظهورها فصارت ذوات أحداب . الحدوج : مراكب النساء كالهودج والمحفات .

(٣) جنحت : ملت .

(٤) الهزبر : الأسد . المذاكي : الأفراس التي أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان .

(٥)

(٦) المقه : الحب ، مبتوت : مقطوع .

(٧) تلذه : الأصل ((تلذ به)) مثبوت : أراد ((مثبت)) على توهم ثبته .

(٨) العماد الأصفهاني : الخريدة ، الملحد الثاني ٤/٧٥٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن المظاهر اتيان القصيدة على حروف المعجم فيستهل بالهمزة والباء ، وهذا اللون نادر و لم أعثر إلا على نموذج واحد يتمثل في قصيدة فتيان الشاغوري منها :

أما والذي يحيى الورى ، ويميت ... لقد نعمت عيني بكم وشقيت
بُليت بهجر منك يا من أُحبه ... ومن خصرك البالي النحيل بليتُ
تَصُد وتجفوني بغير جناية ... فلِمَ يا منى قلبي الكئيب جُفيتُ
ثناني الهوى عن عاذلي فأنا الذي ... هوى بي هوان الوجد حين هويتُ
جفاني حبيبي بل كواني بهجره ... ففي كبدي بالنار منه كويت(١)

وهذه الألوان لا ريب أنها من الشعر المتكلف الذي يعمد إليه عمداً ، فيطيل الشاعر الوقوف عند كل بيت وربما يمكث في القصيدة زمناً طويلاً ، فهي تلح على الشكل وهم حين يعمدون إليها إنما يستشعرون التجديد وإن كان متكلفاً ، وهم أيضاً يتغون الغرابة فيها ، ويظهرون قدراتهم ، ويستمتعون ببنائها ، ويتنافسون في ذلك . وهي تروض لهم اللغة وتثري معجمهم الشعري ، وقصد التعليم واضح لاشك فيه .

ثانياً : الكلمة :

والشعراء في تلك المرحلة وظفوا اللفظة توظيفاً دلالياً وبلاغياً ، وجمالياً وموسيقياً . فمن تلك الوظائف الاشتقاق ، والتكرار والجناس ، ومنها إيراد الكلمة التي ترد فيها الضاد والظاء ، وإيراد المضامين المختلفة ومنها إيراد الألفاظ المهجورة ، ومنها حشد أسماء المذكر ، ومنها الإلحاح على الألفاظ الغريبة كما ورد في مقطعات الشعر التي تأتي ضمن المقامات(٢) .

ومن مظاهر التجديد عن القاضي الفاضل تكراره بالاشتقاق فيأتي بالفعل ثم

---

(١) الديوان ٦٦ .

(٢) انظر : العماد الأصفهاني : خريد القصر ، الجزء الرابع ٢/٦٠٠ وما بعدها .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

اسم الفاعل منه أو من جذر قريب من جذور ، ويكرر أكثر من لفظة حيث كرر في بيته الأول همّ هائم ، وظلم ظالم ، وجعل كلاً من الاشتقاقين خاتمة للشطرين، وفي بيته الثاني يصدره بفعل يضيم ، ويرد العجز على الصدر بضيم ضائم ، ومثله في البيت الثالث ، أشم ، شم شائم .

وقال :

أبى الدمع أن يُشفي به هم هائم ... ولا ري إلا الرشف من ظلم ظالم

يضيم اطباري من يعز ببعده ... منامي ، فوا لهفي على ضيم ضائم

أشم ثراها أو أشيم بروقها ... فلم يخل ربع الحب من شم شائم

وهو يأتي بالمضمون الأول بألفاظه في وسط الشطر الأول ويختم به الشطر الثاني . والقصيدة تسير على هذه الشاكلة فهو لم يلتزم بالمضمون الأول وألفاظه لكنه التزم بإيرادها في العجز ، وقد داخل القصيدة أبياتاً قليلة لم يرد فيها هذا التكرار المضموني واللفظي :

عزيز علينا أن عطلن وعندنا ... ذخائر من در الدموع السواجم

ولنورد لك القصيدة لترى تلك الملامح :

ولو ساجلت غر الغمائم أدمعي ... تبين عن قرب غرور الغمائم(١)

ألا سُقيت تلك المعالم دعوة ... عنتني ؛ فإني بعض تلك المعالم(٢)

عزيزٍ علينا أن عطلن ، وعندنا ... ذخائر من دُرِّ الدموع السواجم(٣)

أتعجب والواشي ، تهب رياحه ... لميل غُصُونٍ كالغصون النواعم(٤)

أقول إذا ما صارم القطر قطرها ... تُرى رشفت سُحب السماء سمائمي(٥)

---

(١) ساجله : باراه ، الغمائم : جمع غمامة .

(٢) المعالم : جمع معلم كمقعد ، وهو : ما يستدل به على الشيء . عنى : من عناه الأمر : أهمه .

(٣) عطلن : من عطلت المرأة : لم يكن عليها حلي . السواجم : جمع ساجم من سجم الدمع سال .

(٤) الواشي : من وشى كلامه : كذب فيه ، وبه إلى أحد : نم ، وسعى به . رياحه : أي يبدأ في وشايته . غصون : أي قامات كالغصون .

(٥) القطر : بالضم الناحية . سمائمي : جمع سموم ، وهي : الريح الحارة والمعنى : إذا لم ينزل القطر بديار

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولي زفـــرات تمتـــم الخـــد دمعهـــا ... ونمـــت بأســـرارها الحشـــا والحيـــازم(١)
حـــانيك إن الحســـن عـــاذل عـــاذلي ... وعـــاذرُ أشـــجاني ، ولائـــم لائمـــي
علـــى غـــير آس قـــد نبســـت بســـلوة ... وزوحمـــت مـــن وجـــدي بألف مزاحـــم(٢)
رأوا أن بـــانٍ لا يقـــوم بهـــادم ... فكيف بان خلفـــه ألـــف هـــام(٣)

ومن إيراد الكلمات التي تتشابه نطقاً ولكن إحداها بالظاء والأخرى بالضاد، والتمييز بين معانيها ، ومن ذلك قصيدة السديد أبي نصر محمد بن أحمد الفروض، ومنها :

وقيـــل أصـــل الحـــافر الوظيـــف ... وكـــل وقـــف فاسمـــه وضيـــف(٤)
والنصـــر فهـــو ظفـــر وظفـــره ... والجـــدل في الشـــعور أيضـــاً ضفـــره(٥)
والغيـــظ مـــا يعـــرض للإنســـان ... والغيـــض غيـــض المـــاء في النقصـــان
والمنطـــق العـــذب الشـــهي ظـــرفُ ... ونـــاعم العيـــش الرخـــي ضـــرف
وعظت الحرب إذا مـــا اشتـــدت ... ثم السباع والذئـــاب عضـــت(٦)

حبيبة فإنه يعجب لذلك ، ويسأل / أشربت زفراتي التي أصعدها والتي تشبه في حرارتها السموم - هذه السحب الممطرة .

(١) تمتم : زخرفة ، ونقشه . الحيزوم : ضلع الفؤاد وما أكتنف الحلقوم من جانب الصدر .

(٢) نبس : تكلم فأسرع . والمعنى أنك تتحدث بالسلوة عن شخص غير حزين ، أي عن غيري ، أما أنا فقد زوحمت بألف مزاحم من وجدي .

(٣) القاضي الفاضل : الديوان ٢٨٩/١ .

(٤) الوظيف ، لكل ذي أربع ما فوق الرسغ إلى منفصل الساق . ووظيفاً يدي الفرس : ما تحت ركبتيه إلى جنبيه ، ووظيف رجلية : ما بين كعبيه إلى جنبيه .

وضيف : أهمل هذه المادة ((الصحاح)) و ((لسان العرب)) وذكرها ((القاموس المحيط)) ولكنه لم يذكر هذا المعنى ، ولم يعرض له ((تاج العروس)) بزيادة أو استدراك .

(٥) الظاهر أنه يريد بالظفرة ، اظفرة الواحدة ، وكذلك ((الظفرة)) التي بالضاد . الجدل : إحكام فتل الشعر . هو في ضرفه خير ، بالضم : أي كثرته .

(٦) عظت : اختلف أهل اللغة في هذا ، فجعل الليث عظته الحرب كعضته ، وأنكر المفضل بن سلمة عظته الحرب بالظاء .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وحـــرم الله الزنـــى وحظـــرا وغـــاب زيـــد بهـــرة وحضـــرا(١)
وجـــود مولانـــا الوزيـــر ظـــلٌ ينكـــره مـــن قـــد عـــراه ضـــل
مـــن بـــات في جـــواره وظـــلا فعن سبيل رشـــده مـــا ضـــلا(٢)

ومن مظاهر التجديد البحث عن الكلمات المهجورة بقصد إظهارها وإحيائها، لإظهار القدرة اللغوية ، وربما يهدف إلى التعليم بنشرها وذيوعها قصيدة الشاعر عبدالواحد بن طلحة الشيباني المتوفى (٥٤١هـ) يصف الإنسان(٣) ومنها:

أبـــى العـــاجز أن يخبـــ ـــر مـــن يســـأل عـــن علـــم
ومـــن يكتـــم مـــا يعلـــ ـــم منســـوب إلى الظلـــم
فمـــا الأحـــوص ، والأخـــو ص ، إن كنـــت أخـــافهم(٤)؟
ومـــا الأسحـــر والأشتـــ ـــر ، تبياناً بـــلا وهـــم(٥)؟(٦)

ومن مظاهر العبث في اللفظ حشد الأسماء المذكورة ما رواه الكتبي : قال شهاب الدين القوصي : « أنشدنا ضياء القناوي سنة تسعين وخمسمائة قصيدته اللغوية التي نظمها ووسمها بـ « اللولوة المكنونة واليتيمة المصونة » في الأسماء

---

(١) حظر : منع .

(٢) العماد الاصفهاني : الخريدة ، الجزء الرابع ، الملجد الأول ٢٠٨ .

(٣) من « النظم التعليمي » الذي شاع في العصور الوسطى ، وعلى منوالها نسج أبو الحسن ضياء الدين شيث بن إبراهيم القناوي المتوفى سنة ٥٩٩هـ منظومته اللغوية : « اللولوة المكنونة واليتيمة المصونة» ، وقد شرح شهاب الدين القوصي هذه المنظومة في معجمه .

(٤) الاحوص : الضيق العينين . الأحوص : الغائر العين ، وقيل : هو من كانت إحدى عينية أصغر من الأخرى ، وقيل غير هذا .

(٥) الأسحر : من خالط بياض عينه حمرة يسيرة . الأصل « الأسحر » بالحاء المهملة ، وهو تصحيف . الأشتر : من انقلب جفن عينه ، ومن انشقت شفته السفلى . الأصل « الأستر » بالسين المهملة ، وهو تصحيف كذلك .

(٦) العماد الأصفهاني ، الخريدة ، المجلد الثاني ٧٤١/٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والمذكورة » ومنها(١) :

وصفت الشعر من يفهم ... يخبرني بما يعلم
يخبرني بألفاظٍ ... من الإعراب ما الدهثم
وما الإقليد والتقليـ ... ـد والتهنيدُ والأهتم
وما النهاد والأهدا ... م والأسماء والعيهم
وما الإلغاد والإخرا ... د والأقراد والمكدم
وما الدفراس والمردا ... س والقداس والأعلم
[وما الأوحاص والأدرا ... ص والقراص والأنترم]
وما اليعضيد واليعقيـ ... ـد والتدميسُ والأرقم
وما الإنكالُ والأنكا ... ث والأعلام والأفضم
وما الأوغال والأوغا ... دُ والأوغاب والأفصم

ومن القصائد التي مالت إلى ألوان البديع من التجنيس ، كالاشتقاق والتكرار والجناس ، والطباق ، وغيرها قصيدة أحمد بن عمار الحسيني الكوفي المتوفى (٥٢٧هـ) في مدح جلال الدين بن صدقة وقال عنها العماد الأصبهاني (٢):

« وهذه القصيدة ، من حقها أن تكتب بسويداء القلوب على بياض الأحداق ، وقد أحدقت بها حدائق من « التجنيس » و « التطبيق » و « الترصيع» أحسن إحداق . وما يخلو بيت من تجنيس ومعنى نفيس ، وتخجل من نسجها صناع « تونه »(٣)، و« تنيس »(٤) . بكر ما لها كفء فرضيت بالتعنيس(٥) .

---

(١) الكتبي : فوات الوفيات ١٠٨/٢ .

(٢) الخريدة ، الجزء الرابع ٢٢٧/١ .

(٣) تونه : جزيرة قرب « تنيس » و « دمياط » من الديار المصرية ، من فتوح (عمير بن وهب) . اشتهرت بصنع الثياب والطرز الحسان ، وضرب بها المثل في ذلك .

(٤) تنيس : مدينة مصرية إسلامية منذثرة ، كانت في جزيرة تحمل اسمها في الشمال الشرقي من بحيرة تنيس (بحيرة المنزلة حالياً) بين مدينتي « الفرما » في شرقيها و « دمياط » في غربها .

(٥) التعنيس : كون مكوث البنت البكر في بيت أهلها بعد إدراكها من غير زواج .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وعلى الحقيقة لم أرَ كهذه الحديقة ، و لم أسمع قبلها ، في صنعتها مثلها ، فهي غراء وعذرا حسناء ، بل روضة غناء ، أو غانية رعناء(١)، خدرها الحياء . فلله در جالب درها ، وحالب درها ! .

فالشاعر يجانس بين (تنض والانضاء ، ويبيد البيداء وهكذا في جل الأبيات) وهي :

خلـــهِ ، تنـــض ليلـــة الأنضـــاء ... فعســـاه يشـــفي جـــواء الخـــواء

ويبيـــد البيـــداء والعيـــس ، إنـــي ... مشـــفق أن تبيـــده البيـــداء

فقـــد اســـتنجدت حيـــاة رب « نجـــ ... ـــد » وشـــامت بروقـــه (شـــيماء)

وثنـــت نحـــوه الثنيـــة قلبـــاً ... قُلبـــاً ، تســـتخفه الأهـــواء(٢)

عاطفـــات إليـــه أعطافهـــا ، شـــو ... قاً ، كمـــا تَلِفـــتُ الطُّلـــى الأطـــلاء(٣)

دمـــن دام لي بهـــا اللهـــوُ حينـــاً ... وصفـــا لي فيهـــا الهـــوى والهـــواءُ(٤)

وأســـرت الســـراء فيهـــا بقلـــب ... أســـرته مـــن بعدهـــا الضـــراءُ

فســـقت عهدهـــا العهـــاد ، وروَّت ... منـــه تلـــك النـــوادي الأنـــداءُ(٥)

وأربـــت علـــى الرُّبـــا ثراهـــا ... ثـــرةٌ ، للريـــاض منهـــا ثـــراءُ(٦)

يســـتجمُ الجُمـــام منهـــا إذا مـــا ... نـــزح المقلـــة البكـــي البكـــاءُ(٧)

---

(١) الغنية : الغنية بحسنها وجمالها عن الزينة . والرعناء : الحمقاء ، والمسترخية . وحائز أن تكون رعناء ، من رغن إليه إذا أصغى إليه قابلاً راضياً بقوله . فليتأمل .

(٢) الثنية : الطريق في الجبل . قلب قلب : كثير التقلب .

(٣) أعطافها : جوانبها . الطلى : الأعناق . الأطلاء : أولاد الظباء ونحوها .

(٤) الدمن : آثار الدار .

(٥) العهاد : أمطار أول السنة .

(٦) أربت : دامت أمكارها . ثرة : غزيرة الماء .

(٧) يستجم : يتجمع ويكثر . الجمام : ملء الإناء ، والجمام من الإناء ما تجاوز رأسه بعد امتلائه ، وبالكسر : جمع الجم ، وهو الكثير المجتمع من كل شيء . نزح البكاء العين : فرّغها حتى قل دمعها أو نفد، ويقال للمكثر من البكاء : بكى .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

زمـــن كـــان لي عـــن الهَـــمّ هَـــمّ بالتصـــابي ، وبـــالغواني غنـــاءُ(١)
نـــاضرٌ كلمـــا تعطفـــت الأعـــ ـــطافُ منـــه ، تثنـــت الأثنـــاءُ(٢)
وإذا هـزت الكعـاب كعـاب « الـ ـخط»، سلت ظبى السيوف الظباءُ(٣)
في رياض ، راضت خلال (جـلال الـ ـدين) أرواحُهن والصهبـــاءُ(٤)،(٥)

والقصيدة يتكاثر فيها ألوان التجانس من اشتقاق ، وتكرار ، وجنـاس وتمثـل الظاهرة النادرة في زمنها حيث إن المعاصرين له من الشعراء قبل (٥٥٠هـ) لم يلحوا على هذه الصنعة فتبلغ هذه الكثرة الكاثرة ، حيث التزم بالتجـانس في كـل بيت من أبياتها .

وحكم الأصبهاني السـالف علـى هـذه القصيـدة يومئ إلى ميله إلى تكلـف البديع تكليفاً يتجاوز حد الصنعة المعتدلة .

ثالثاً : التراكيـــب :

ومن مظاهر التجديد في التراكيب حسن التقسيم كأن يقسم البيـت إلى جمـل متماثلة في عدد الكلمات ، أو يقسم البيت إلى جمل مختمة بحروف متماثلة ، وهـو ما يسمى بالترصيع ، ويلحق به التصريع الذي يظهر في تماثل الشطرين في البيت ، ومنه تقسيم الشطر الثاني إلى أربع كلمات ، ومنها ما يـورده الشـاعر مـن قطـع

---

(١) الغناء : بالفتح النفع والكفاية .

(٢) الأعطاف جمع العطف ، وهو من الإنسان من لدن رأسه إلى وركه .

(٣) الكعاب : بالفتح ، الفتاة التي كعب ثدياها ونهدا . والكعاب : أراد بها الرمـاح ، مـن إطـلاق الجـزء على الكل . الخط : مرفأ السفن في ((البحرين)) تنسب إليه الرماح ، لأنها تباع فيه ، لا لأنه منبتها . ظبي السيوف : حدودها . الظباء : جمع الظبي .

(٤) الأرواح : الرياح . والصهباء : الخمر .

(٥) الخريدة ، الجزء الرابع ١/٢٢٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نثرية يكون عكسها منظوماً .

ويلحق بها التقابل من طباقٍ ومقابلة ، وكافة التراكيب التصويرية التي تشير إلى خيال إبداعي ، ومن الجديد في التراكيب ظهور القصيدة البديعية .

ومن التجديد الإكثار من الجمع والتقسيم في القصيدة ، وقد كثر عند القاضي الفاضل لصنعته الكتابية ، ولعلمه الغزير باللغة ، ولطول الممارسة :

همي بهم زائد زادته أربعة ... ينمي ، ويهمي ، ويستشري(١)، ويزداد

وكيف يبقى على العينين أربعة ... عداً ، ودمع ، وأطراق ، وتسهادُ

هيهات يصدق منك الظن أربعة ... عهدٌ ، وود ، وأقوال ، وميعادُ

له من الغصن الريان أربعة ... عالٍ ، وباه ، وميال ، وميادُ

له من الكوكب الدري أربعة ... نشرٌ ، وشكرٌ ، وإصدارٌ وإيرادُ

له إذا سل سيف المدح أربعة ... غيظٌ ، ووثب ، وإيقاد ، وإزنادُ

ولي من الدهر عما رمت أربعة ... كد ، وود ، وإقصاءُ ، وإقصادُ(٢)

ولي عن السعي في المرجو أربعة ... بأس ، ويأس ، وإخلال ، وإخلادُ(٣)

وللعزيز من المملوك أربعة ... قلب ، ونطق ، وأخلاق ، وإحمادُ(٤)

تجمعت في مديحي فيه أربعة ... سبك ، ونظم ، وأنشاء ، وإنشادُ

جواب راوي ثنائي فيه أربعة ... نسخ ، ودرس ، وتكرير ، وإيرادُ

أيامنا والليالي فيه أربعة ... فعل ، وأنس ، وإعراس ، وأعيادُ

فلم يطف باعتقاد الخلق أربعة ... نصب ، ورفض ، وإشراك ، وإلحادُ(٥)

الأمن ما سلكت في الأرض أربعةٌ ... بر ، وبحر ، وأغوار ، وأنجادُ

ما دون منقطع في الأرض أربعة ... ليث ، وذئب ، وقطاع ، ومرادُ

---

(١) استشرى : لج .

(٢) أقصده : طعنه ، فلم يخطئه .

(٣) أخلد إلى الأرض : لصق بها .

(٤) أحمد : أتى أو فعل ما يحمد .

(٥) يشير إلى بعض المعتقدات .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تحمي به من بـــــلاد الله أربعـــة مصر ، وشام ، وخراسان ، وبغـــدادُ

إن يبـــق فيهـــا بقايـــا فهي أربعـــة تأى فتفتح ، تستعصـــي ، فتنقـــادُ(٦)

ومن مظاهر التجديد أن يورد الشاعر كلمات منثورة عكسها منظوم كشعر عمر بن الحسن الملقب بجمال الإسلام « ومما أنشأه وحبره ووشاه ، كلمات منثورة ، عكسها منظوم ، وهي :

« الأيام تنزع ، ما فيها المرء يجمع . آثام مجموعها ، دار الضر منفوعها . أصنام أربابها ، حتى عز ثوابها . إجرام مكسوها ، لكن عم مسلوبها . ظلام صباحها ، دنيا قل فلاحها . اغتنام قوامها(٢)، لما نيل حطامها »(٣) .

ومقلوبها نظماً :

حطامهـــا نيـــل لمـــا قوامهـــا اغتـــام

فلاحهـــا قـــل ، دنيـــا صاحبهـــا إظـــلام

مســـلوبها عـــمٌ ، لكـــن مكســـوبها إجـــرام

ثوابهـــا عـــز ، حتـــى أربابهـــا أصنـــام

منفوعهـــا الضـــر ، دار مجموعهـــا آثـــام

يجمـــع المـــرء فيهـــا مـــا تنـــزع الأيـــام(٩)

وقد أشار العماد إلى تكليف هذا اللون ، وصعوبته ، وقد مارسه للرد والتحدي فقال :

« فعملت ارتجالاً في فنها ، وما يكاد ينظم إلا تكلفاً ، ويجد الخاطر فيه تعسفاً ، وهي أيضاً تقرأ مقلوباً :

---

(٦) الديوان ١/١٩٠ ، تحقيق أحمد بدوي . الطبعة الأولى ، مطابع دار الكتاب العربي، عام ١٩٦١م

(٢) اغتنام : لا يفصحون لعجمة في منطقهم .

(٣) حطام الدنيا : متاعها .

(٩) العماد الأصفهاني : الخريدة ، الجزء الرابع ، المجلد الثاني ٥٨٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

« بالأوطار[1] لهيت ، لكن نفسك ألهبيت . النار فيها ألهبت ، إذ شهوتها طلبت . بالأعذار قدّمت ، لما ذنبك قدمت . الدار هذي عمّرت ، حتى عمرك هدمت . غدار بالفتى الدهر ، ويقصر العمر مشتار جناهما[2] ، مستعار كلاهما. إصدار إيرادها ، دنيا قل ودادها ، إضرار طباعها ، ضاريات سباعها ، إنكار عرفانها ، جائرات جيرانها . إبدار نقصانها ، عندي الربح خسرانها . غرار غريرها[3]، مستقل كثيرها . أطوار أوطارها ، دائرات أدوارها . أغمار أناسها[4]، مستقل كثيرها . أطوار أوطارها ، دائرات أدوارها . أغمار أناسها[5]، فاعلم البأس لباسها . الأبصار والقلوب ذهل ، البصائر غفل . الأسفار طالت ، ومنها السفر توالت[6]، للإنذار حذار ، صعب فالأمر بدار[7]، العار أنف ، والثراء أفن ، والثناء أقن[8]، الدينار أنفق ، وأحسن ولهاك فرق[9] . الأنصار مالي، فمالي أكثر مالي ؟ / مختار لي الشكر ، وخير عندي الذكر . الأقدار تنتج ، ما عني الهم يفرج » .

ومقلوبها نظماً :

أهيت نفسك ، لكن ... لهيت بالأوطار

طلبت شهوتها إذ ... ألهبت فيها النار

قدمت ذنبك ، لما ... قدّمت بالأعذار

---

(١) جمع وطر ، وهو الحاجة فيها مأرب وهمه .

(٢) مستخرج عسلها من خليته .

(٣) غريرها : عيشها الناعم .

(٤) أغمار : جمع غمر ، وهو من لم يجرب الأمور .

(٥) أغمار : جمع غمر ، وهو من لم يجرب الأمور .

(٦) السفر : المسافرون .

(٧) بدار ، بوزن حذار : اسم فعل أمر ، مبني على الكسر ، أي أسرع .

(٨) أقن : أكسب واجمع .

(٩) للها ، بالضم ، : جمع لهوة ، وهي العطية .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

هدمت عمرك حتى ... عمرت هذي الدّار

العمر يقصر ، والدهـ ... ـر بالفتى غدّار

كلاهما مستعار ... جناهُما مشتار

ودادها قلّ ، دنيا ... إيرادها إصدار

سباعها ضاريات ... طباعها إضرار

جاراتُها جائراتٌ ... عرفانها إنكار

خُسرانها الربح عندي ... نقصانها إبدار

كثيرها مستقل ... غريرها غرار

أدوارها دائراتٌ ... أوطارها أطوار

لباسها البأس فاعلم ... فناسُها أغمار

غُفل البصائر ، ذُهل القـ ... ـلوب والأبصار

توالت السَّفر منها ... وطالت الأسفار

بدار ، فالأمر صعبٌ ... حذار للإنذار

أقن الثناء ، وأفن الثـ ... ـراءَ ، وانف العار

فرق هاك ، وأحسن ... وأنفق الدينار

مالي أكثر مالي ؟ ... وما لي الأنصار

الذكر عندي خير ... والشكر في مختار

يفرّج الهمّ عندي ... ما تنتج الأقدار(١)

ومن أمثلة القصيدة البديعية النادرة في تلك المرحلة ، قصيدة الشاعر الأربيلي علي بن عثمان المتوفى (٦٧٠هـ) .

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة ، الجزء الرابع ، الملحد الثاني ٥٨٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رق يـا قاسـي الفـؤاد لأجفـان قصـار أسـرى ليـالٍ طـوال
(الطباق)

شـارحاتٍ بدمعهـا مجمـع البحـ ـرين في حـب مجمـع الأمثـال
(الاستعارة)

نفـت النـوم في هـواك قصاصـاً حيـ ـث أدى منهـا خـداع الخيـال
(المقابلة)

أنـا بـين الرجـاء والخـوف في حبّـ ـك مـا بـين صحـة وإعـلال
(التفسير)

لسـت أنفـك في هـواك ملومـاً في معـادٍ يسـومني ومُـوال
(التقسيم)

عُمُـرٌ ينقضـي وأيـامي الأيـا م بـالهجر والليـالي الليـالي
(الإشارة)

ليـس ذنـبي سـوى مخالفـة اللا حـين فيـه ، وأخيبـة العـذال
(الإرداف)

سـالباً بزتـي وما هـي إلا الـ ـعمـر رفقـاً بهـذه الأسمـال
(المماثلة)

طلـب دونـه منـال الثريـا وهـوىً دونـه زوالُ الجبـال
(الغلو)

وغـرام أقلـه يذهـل الآ ساد خيسـها عـن الأشـبال
(المبالغة)

أنـا أخفـي هـواك صونـاً وإن بـ ـت طعـين القنـا جريـح النبـال
(الكناية والتعريض)

فشـمالي لم تسـتعن بيميـني ويميـني لم تسـتعن بشـمالي
(العكس)

لـذّ طـولُ المطـال منـك ولـولا الـ ـحب مـا لـذ منـك طـول المطـال
(التذييل)

خنـت عـدي فـدام وجـدي فهـل يكـ ـبتُ ضـدي يومـاً بطيـب الوصـال
(الترصيع)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لـــك ألحـــاظ مقلتـــين شـــباها كالحســـام الهنـــدي غـــب الصقـــال
(الإيغال)

كملـــت وصفهـــا بمـــدح علـــيّ في علـــي رب الحجـــى والكمـــال
(الترشيح)

مـــاجدٌ بعـــض فضلـــه بذلـــه المـــا ل ، وقـــلَّ الـــذي يجـــود بمـــال
(رد العجز على الصدر)

يفعـــل المكرمـــات طبعـــاً فـــإن جـــ ـــودَّ أفنـــى رغـــائبَ الآمـــال
(التعميم والتكميل)

طـــال شـــكري نـــداه حتـــى لقـــد أفـــ ـحـــم فضـــل ، لا زال إفضـــال
(الالتفات)

هـــو مـــا لم يـــزل وذلـــك أبقـــى عصمـــة المرملـــين ذي الأطفـــال
(الاعتراض)

ذو وداد للأصفيـــــاء بعيـــــد عـــن زوال وهـــل بـــه مـــن زوال
(الرجوع)

أفـــترب الأنـــواء تخصـــب منـــه الـــ أرض أم ســـيبُ جـــوده الهطـــال
(تجاهل العارف)

جـــاد حتـــى للمكتفـــين فـــأثروا فنـــداه كالمـــاء في ســـيمال
(الاستطراد)

جـــامع العلـــم والفصاحـــة والحلـــم ـــم وحســـن الأخـــلاق والأفعـــال
(جمع المؤتلف والمختلف)

لا يعـــدّ الفعـــل الجميـــل لدنيـــا ه ولكـــن يعـــدّه للمـــآل
(السلب والإيجاب)(١)

ونلحظ أن الشاعر صنع كل بيت على لون من ألوان البديع ، مع سبق الإصرار والترصد ، فهو يقصد إلى الصنعة وإن تجاوزها للتكلف ، وهذا اللون لو أتى عفو الخاطر فإنه لا ضير في ذلك ، لأننا لا نعدم لوناً بلاغياً في جل التراكيب العربية، لكن البديعيات تخالف التلوين البلاغي في القصائد الأخرى ، بينما البديعية

(١) الكتبي : فوات الوفيات ٣/٤٠، ٤١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تنحصر في لون البديع ، مع الالتزام الذي يفرض نفسه مسبقاً قبل ورود المعنى .

الموسيقى :

ومن مظاهر التجديد في الموسيقا أن الموسيقا الداخلية للبيت قد أخذت تتضح معالمها نتيجة لتوظيف الحروف الداخلية كالمدات التي تظهر الإطالة فيها ، ومن تكرار الحروف والحركات ، والتنوين وتكرار الكلمات المتجانسه .

وهم أيضاً استعملوا الأوزان المهملة في الدوائر العروضية عند الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ووظفواء الأبحر المستخدمة ، بتجزئتها وتشطيرها وإنهاكها .

واستخدموا القافية ، بأن كرروا القافية أو التزموا فيها ما لا يلزم أو جاءت قريباً من الشعر الحر في الموشحات ، وبعضهم لا ينسبها للموشحات . وأيضاً أكثروا من الرباعيات والمخمسات والسداسيات والمسمطات والدوبيت وغيرها ، ويظهر تكرار الحروف والمدات في قول أبي البدر ظفر :

ترنح من برح الغرام مشوق غداة نأت بالوائلية نوق

وقال :

أضاءت لنا بالأبرقين بروق نواقل منها كاذب وصدوق
يذعن لنا من أهل وجرة ريبة يخف إليها السمع وهو فروق
وما كل مطوي من السر منكر ولا كل منشور الحديث يروق
أبارق ذاك الشعب ، هل أضمر النوى تفرقهم ، أو ضمهن وسيق؟
وهل حرجات الحي بدلن أدمعاً عن السحب لم ترقع لهن خروق(١)

ومن مظاهر التجديد في شعر القاضي الفاضل ، أن يأتي بجملة مفيدة تخرج عن الوزن الشعري ويجيب عنها بشطر من البحر الطويل ، ويلتزم هذا الوزن في الإجابة وكأنه يمثل الشطر الثاني ، ويختص هذا في الرسائل الشعرية عند الشاعر :

(١) الأصبهاني : الخريدة ، القسم العراقي ١/١٠٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وصل كتاب مولاي بعدما ... أصات(١) المنادي للصلاة فاعتما

فلما استقر لديَّ ... تجلى الذي من جانب البدر أظلما

فقرأته ... بعين إذا استمطرتها أمطرت دما

وسألته ... فساءلت مصروفاً عن النطق أعجما

ولم يرد جواباً ... وماذا عليه لو أجاب المتيما

ورددته قراءة ... فعوجلت دون الحلم أن أتحلما

وحفظته ... كما يحفظ الحر الحديث المكتما

وكررته ... فمن حيثما واجهته قد تبسما

وقبلته ... فقبلت دراً في العقود منظما

وقمت له ... فكنت بمفروض المحبة قيماً

وأخلصت لكاتبه ... وليس على حكم الحوادث محكما(٢)

ولم أصدفْهُ ... ولكنه قد خالط اللحم والدما(٣)

وأرخصت وصوله ... فكان لأيام المواسم موسما

وشفيت (به) غليل ... فؤاد أمنيه ، وقد بلغ الظما

وداويت عليل ... حشاً ضر ما فيه من النار ضُرما

فأما تلك الأيام التي ... حماها(٤) على اللوم المقام على الحمى

والليالي العذاب التي ... ملأن بحور الليل بيضاً وأنجماً(٥)

(فإني لأذكرها ... بصبر كما قد صُرِّمَتْ قد تَصَرُّمَا)

---

(١) أصات : نادى ، من الصوت .

(٢) لعل الصواب (وليست) ، والمعنى : لست متصرفاً في الحوادث ، فإذا كانت كتبي قد انقطعت فما ذلك بيدي .

(٣) أصدفه : أي لم اغفله بالصدف كما يغلف الدر .

(٤) أي حرمها على اللوم ، وفي التذكرة الصفدية : (حماها من) .

(٥) بيض : جمع أبيض ، وهو الرجل النقي العرض . يصف بذلك أصدقاءه ، ويريد أنهم كالنجوم في الشرف ، وعلو المنزلة .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأرسلت الزفرة ... فلو صافحته رضوى(٦)،لرض(٧) وهدما
وأسبلتُ العُبرة ... كما أنشأ الأفق السحاب المديما
وخطبت السلوة ... فأسأل معدوماً ، وأقفل معدما
فأما الشكر فإنما ... أفض به مسكاً عليه مختما
وأقوم منه بفرضٍ ... أراني به دون البرية أقوما
واوفي واجب قرض ... وكيف توفي الأرض قرضاً من السما(٨)

ومن مظاهر التجديد أن يأتي الشاعر بأربعة قوافي كقصيدة الرشيد النابلسي المتوفي (٦١٩هـ) :

كم الحشا معذب ... موجع على المدى ... صب الفؤاد مغرم
بناره يلتهب ... ملذع ما خمدا ... أوراه والضرم
حكم فيه أشنب ... ممنع من الفدا ... فهو الأسير المسلم
مبتعد مجتنب ... مودع تعمدا ... وهو القريب الأمم
زماته تعتب ... وولع قد أكمدا ... من عز فهو يحكم
ما الحب إلا لهب ... ومدمع تجددا ... ولوعة وسقم
يا هل إليه سبب ... ممتع يولي يدا ... من لبه مخترم
ما أنا إلا أشعب ... وأطمع فيما عدا ... فما إليه سلم(٩)

ومن التجديد في الشكل الذي طرأ في هذا العصر تعدد الوزن والقافية معاً ، فالجزء الأول يمثل الوزن الأطول وهو مجزوء الكامل ، والجزء الثاني ، مشطور الكامل ، فالبيت من هذا الوزن الجديد بزيادة تفعيلة عن وزن الكامل ، وذلك

(٦) رضوى : اسم جبل قرب ينبع بالمملكة العربية السعودية .
(٧) الرض : الدق والهرس .
(٨) القاضي الفاضل : الديوان ٢/٤٩٧،٤٩٨ .
(٩) الكتبي : فوات الوفيات ٢/٢٧٦ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

كقول الأجل صفي الدين البغدادي :

جود الإمام المستضيء غمامة للمجتدي ... تروي بها آماله

منح الورى منه بأبلج في الشدائد منجد ... معدومة أمثاله

إن الخليقة بالخليقة في المكارم تقتدي ... فدليلها أفعاله

وبجوده الحيران منها في النوائب يهتدي ... فسراجها أفضاله

ورد الرجاء به على أحلى مراشف مورد ... معذوب سلسباله

أحيا مناقب جده العباس عمَّ محمد ... فبذاك تمّ جلاله

خجل الحياء بسخائه متبرعاً بندى يد ... متتابع تهطاله

جود السحاب بمائه والمستضيء بعسجد ... فاعتاقه إخجاله

دان الزمان لفخره ولماله من مجتد ... وعنت له أقياله

وأمده الرحمان منه بناصر وبمسعد ... وأطاعه إقباله

وأجاب فيه دعاء قس مخلص متعبدِ ... نطقت بذلك حاله(١)

ومن الجديد إكثارهم من المسمط كقول أبي المعالي بن مسلم الشروطي :

ياريم ، كم تجني ؟ لم قد صددت عنا ... صل عاشقاً معنىً بالوصل ما تهنا

السلسبيل ريق والشهد والرحيق ... والورد والشقيق من وجنتيه يجني

حتّام يا غزالُ ذا التيه والدلالُ؟ ... والصدُ والملالُ أفنى وليس يفني ؟

عذّبتني ، فمهلاً لم ترع في إلاّ ... ما كنتُ قطُّ إلا أحسنت فيك ظناً

يا فتنة الفتون يا نزهة العيون ... إرحم أخا شجون ما نال ما تمنى

يا بدر كل بدر في نصف كل شهر ... يا من أطال فكري يا من به فُتنا

لم يرق فيك جفني من عُظم طول حزني ... ناح الحمامُ عني في دوحة وغنى

قد عيروا ولاموا من شفه السقام ... ما ينفع الملام من في هواك جنا؟

صب بكم عميد أشواقه تزيد ... قد شفه الصدود أضحى بكم معنى(٢)

---

(١) العماد الأصفهاني : الخريدة ، القسم العراقي ١/١٩٨ .

(٢) العماد الأصفهاني : الخريدة ، القسم العراقي ١/٣٠٩ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الـــــرمـــــز

ومن مظاهر التجديد الرمز :

ومن ألوان الرمز استدعاء النص أو الحكاية أو الحدث أو الأسطورة بإشارة تكثفها في الذهن ، ولا تفصل فيها ، وإنما تدعو إلى استحضار أوسع وأشمل للقضية أو الحدث أو النص كاملاً ، معبرة تعبيراً غير مباشر عن حادثة معاصرة مشابهة لتلك ، أو يكون الرمز لذات الإيجاز وتكثيف المضمون .

ومن ألوانه التعبير عن أحاسيس الإنسان تجاه الأشياء ، فقد ذهبوا « ألى أن العالم بمجمله هو مجموعة من الرموز ، والرمز في مفهومه ليس صورة تقوم مقام فكرة مجردة ، بل هو ما يراه الإنسان الذي يحس بأن الأشياء تنظر إليه »(١) .

ومن ألوان الرمز المشابهة بالفرد أو الأشياء الذاتية ، أو الصور الكلية كمن يرمز للمرأة بالنخلة ، أو الزهرة ، أو يرمز بالمساء لدنو الأجل ، أو نهاية الأشياء ، أو يرمز بالحياة الفردية للحياة الاجتماعية ، كما يتضح في القصص أو القصائد المطولة .

والرمز المستخدم في الشعر إبان الحروب الصليبية ، ليس مستحدثاً استحداثاً بكراً لهم ، إنما هم اقتفوا أثر نفر من الشعراء ، غير أنهم ألحقوا عليه ألجوا عليه إلحاحاً قوياً حتى أصبح ظاهرة بارزة من معالم تجديدهم إن جاز لنا أن نطلق التجديد في الأدب على تطور الظواهر الفنية ، ومن تلك المظاهر الرمزية :-

١ – رمز المشابهة :

حيث رمز الأرجاني للعطاء بحوض الماء ، في قصيدة نادرة في الأدب العربي،

(١) صور عبدالنور المعجم الأدبي : ١٢٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد وضع لها عنوان « يعاتب الماء في استعاره » .

فهو يتحدث عن أحد الممدوحين الذي حجب عنه العطاء والنوال لكنه يرمز له بالماء ، الذي يصدر منه الرعاء وقد ارتووا ، غير أنه حُجب عنه :

صدر الرعاء وما سقيت ظمائي ... أفلا يخور جنان هذا الماء

والشاعر يهدد الماء بالرحيل عنه والابتعاد بعد أن أطال الانتظار وقصر الرشاء بعد محاولة دائبة لتطويله وبلوغ لمنهل :

يا ماء : ها أنا عن فائك راحل ... فلقد أطلت ولم ينلك رشائي

حتى متى صدري ووردي واحد؟ ... وإلام أشكو حرقة الأحشاء؟

من جَمْيعِ قطر حياً أراك مصوراً ... أفليس يوجد فيك قطر حياء؟

تروي أخا نهل ، وتترك صادياً ... أغدير ريٍّ أم غدير رياء؟

إني أرى – يا ماء – وجهك صافياً ... لكن نفسك غير ذات صفاء

ما الفضل فيك لشاربيك بمعوز ... بل ، ليس عندك حرمة الفضلاء

بخل الغمام عليك بخلك ظالما ... وجفا ذُراك كما أطلت جفائي

وإذا تفروزت المياه بخضرة ... فبقيت غير مدبج الأرجاء

وإذا الربيع كسا البلاد بروده ... فتجاوزتك نسائح الأنواء(١)

والرمز في هذه القصيدة يظهر مفرداً ثم يتشكل في صورة كلية ، فرمز للشاعر بالمحجوب عن الماء ، ورمز لصاحب النوال بصاحب البئر ، ورمز لعوايد الوصل بالرشاء ، ورمز لفاقة الشاعر بالظمأ ، ورمز بعدم صفاء الماء إلى جفاء واختلاف صاحبه عن سابق عهده ، بل يرمز إلى إهمال الفضلاء والعلماء ، فلا مكانة لهم ، وهو يرمز إلى أن صاحب العطاء لا يبتغي وجه الله ؛ أداء العمل الإنساني :

تروى أخا نهل ، وتترك صادياً ... أغدير ري أم غدير رياء ؟

(١) الأرجاني : الديوان ١/٤١، ٤٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهذه الصور كلها تتلاحم لتتكون صورة كلية لبئر الماء والرشاء وموارده ، وإغراقه ونضوبه ، ورياضه وجديه بحال السلطان صاحب النوال الذي يعطي من يشاء ويمنعه عمن شاء بلا عدل ولا إنصاف .

٢ – الرمز الشعوري :

والرمز الشعوري يكثر في هذا العصر ، والقارىء لديوان القاضي الفاضل يلمح ذلك ، ومنه قصيدته النونية ، والقصيدة النونية ترمز إلى ناحية شعورية تعتمل في نفسية الشاعر ، فالشاعر يتذكر ألواناً من التقلبات في أواخر الدولة العبيدية ، وعاش نجماً لامعاً في دولة الأيوبيين وكان ممن لهم الشأن ، والكل منهم طائع لصلاح الدين مستجيب لأهدافه يظهر الصلاح والإخلاص ، فلما سقط صريعاً فإذا الأمور تضطرب ، ويتنمر من كان مسالماً وأرجح أن الشاعر يرمز إلى الملك العادل أخي صلاح الدين الأيوبي الذي أوجد الشقاق بين أبناء صلاح الدين الأيوبي وتعاهد مع عثمان العزيز بن صلاح الدين الأيوبي على اخوته . فلما مات عثمان العزيز انقض العادل على بلاده وامتلكها بل إنه أهمل قصور العزيز وهجرها وأعرض عن حاشيته مثل القاضي الفاضل ، فأصبح القاضي الفاضل في عزلة ، فكانت القصيدة ترمز إلى ذلك الشعور شأن الرمز الحديث .

فالشاعر يشير إلى غرور الإنسان بمظاهر إشراق الأبدان كالوجه ، ومعالم الجمال والنظرة التي تقرأها عن الإنسان ، فقد كانت تنبئ عن إنسانية الإنسان ، وأنهم كرماء أفاضل ، ويشير إلى أن أولئك هم النجباء في زمان صلاح الدين الأيوبي ، فظهروا بمظهر جديد . فالغموض يلازم تأويل الأبيات نظراً لأنها نزيف شعور غامض من إنسان خائف يترقب في آخر عمره ومنها :-

وقال :

غرتك أبدان وأردان ذا الشأن ما من تيهُ شان

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

في العين إنسان فإن خلتها ودًّا فما في العين إنسان
وإنما الإنسان محصولة إن قبل التحديد - إحسان
قالوا : كرام ، وإني بعدهم للؤم أزمان وأزمان
ولم يكونوا اليوم ، فاستبتوا لعلهم بالأمس ما كانوا
قد أفلح الجود ، فلا قطرة منه ، وهذا البخل طوفان
ماتت كما ماتوا أحاديثهم فالكتب والأوراق أكفان
كيف إذا ما سحب أقلعت يبقى على النضرة بستان

ثم يرمز إلى عما يريد إظهاره من رثاثة للعزيز عثمان وكأنه يرمز إلى حالة الحلقة المحيطة به التي كبلته من قبل عمه العادل فلم تترك للعزيز التصرف بأمواله وأملاكه ، وهذه حالة أغفلها التاريخ الأدبي فلم يشر إليها ولكنه أشار إلى هذه الألوان في بيتيه الأخيرين .

ثم هو يرمز إلى حالة الشاعر ذاته فيشبه نفسه بحالة الشاعر الجاهلي الذي يتمنى أنه من مازن لما أغارت عليه ذهل بن شيبان :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذاً لقام بنصري معشر خشن عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا(١)

يقول كاشفاً حالة العزيز بن عثمان ، ورامزاً لضعف الشاعر وعدم قدرته لإغاثة صديقه ، فلو أن القاضي الفاضل عنده القوة كقوة تلكل القبيلة لنصر العزيز صلاح الدين :

أصبح في دار ضلوعي الأسى قلبي كما أصبح عثمان
محصورة أمواله ماله مع اشتداد الحصر إمكان
قد أحدق الهم بأرجائه جيشاً ، فضرّابٌ ، وطعانُ

(١) المرزوقي : شرح ديوان الحماسة ١/٢٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فيا زماني ، إن جرت قطرة من دم قلبي ، فلها شأن
في ذمّ عثمان الذي قد حوى جرت من الأحداث ألوان
لا كنتِ يا ذهل همومي ، ولا أبوكِ دهري ، فهو شيبان(٢)
ذووا الحفيظات لهم لوثة لانوا فلا غرو إذا هانوا
ندبت للخطب حثوثاً ، فما قاموا ، ولا إذ قام برهان(٣)
غمودهم كسوة أسيافهم لا حُملت ، والشر عريان
كم زق خمر فيهم ناطق سكران ، بل راجيه سكران
فلا تراجعه ، ولا لفظة ولا تسزد ، فالزق ملآن
كأنه الحائط ، لم يستمع شكوى ، وللحائط آذان
فاليأس ياناس ، ويكفيكم فقوة الألسن سلطان(٤)

فالقصيدة كلها ترمز إلى حالة شعورية يكسوها الأسى والحزن ، وترمز إلى موقف الشارع من ذلك الحدث الذي فتك بابن صلاح الدين الأيوبي ، بل إن العزيز عثمان كان يناصر العادل على أخوته وها هو يُكبل اليوم .

الرمز التراثي :

فمن الرمز التراثي ، أن يغترب الشاعر إلى الجزيرة العربية ويستلهم وقائعها الوجدانية أو يرمز إليها بالأحداث ، أو أسماء الأماكن ، أو أسماء المعشوقات اللاتي ذكرن في الشعر الجاهلي أو الإسلامي . فالشاعر أبو البدر ظفر ربيب الحضارة

---

(٢) يشير البيت إلى قول الشاعر :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبان

(٣) يشير بهذا إلى قول الشاعر :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهاناً

(٤) الديوان ١/١١٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وابن الوزير وأخو الوزير ، تضيء له بالأبرقين بروق ، ويشير إلى وجرة ، وتارة أخرى ينتقل إلى البرق اليماني ، وهذه الأسماء متباعدة فهي ترمز إلى علوق تلك الأماكن بنفسية الشاعر ، وترمز إلى تكوينه الذهني والوجداني ، وترمز إلى غربته عن واقعه أيضاً :

أضاءت لنا بالأبرقين بروق ... نواقل منها كاذب وصدوق
يذعن لنا من أهل وجرة ريبة ... يخف إليها السمع وهو فروق
وما كل مطوي من السر منكر ... ولا كل منشور الحديث يروق
أبارق ذاك الشعب ، هل أضمر النوى ... تفرقهم ، أو ضمهن وسيق؟
وهر حرجات الحي بُدِّلن أدمعاً ... عن السحب لم ترفع لهن خروق
لعمرك ما البرق اليماني وامق ... ولا ذلك الشعب الرحيب مشوق
وهل نزع الأشجان خفقة لامع ... وقد علقت بالجانحات عروق
لحى الله يوماً بالثنية أشرفت ... علينا بأقصى أرض وجَرَة نوق(١)

وهي إلى كونها ترمز إلى التكوين الذهني والوجداني ، وترمز إلى غربته عن واقعه فإنها ترمز إلى حكاية وجدانية تتعلق بالشاعر ذاته ، فهو لم يستطع التصريح عنها ، أو خشي البوح بها من خلال حديثه عن بيئته فاغترب إلى بيئة بعيدة .

الرمز الصوفي :

الشعر الصوفي الوجداني ظاهرة يشترك مع المقدمة المغتربة التي ترمز إلى حكاية وجدانية عند الشاعر أو إلى تكوينه الذهني ، لكن باطن هذا الشعر أكثر رمزية ، وتأويلهم له أعمق مما يصوره ظاهر الشعر ، فخطاب ابن الفارض مباشر لا غرابة في ظاهره لو أننا لم ندرك بيئته الحضرية ، ومكانه البعيد عن الجزيرة لقلنا إنه من ساكني إقليم الحجاز ، وأنه صادق الوجد ، فهو ينقلنا إلى الحجاز وأسمائه المشهورة يقول :

(١) الحريدة ، القسم العراقي ١/١٠٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يا سائق الظعن يطوي البيد معتسفاً ... طي السجل بذات الشيح من إضم
عج بالحمى يارعاك الله معتمداً ... خميلة الضال ذات الرند والخزم
وقف بلع وسل بالجزع هل مُطِرت ... بالرقمتين أثيلات بمنسجم
ناشدتك الله إن جزت العقيق ضحى ... فاقر السلام عليهم غير محتشم
وقل تركت صريعاً في دياركم ... حياً كميت يعير السقم للسقم
فمن فؤادي لهيب ناب عن قبس ... ومن جفوني دمع فاض كالديم
وهذه سنة العشاق ما علقوا ... بشادن فخلا عضوٌ من الألم
يا لائماً لامني في حبهم سفهاً ... كف الملام فلو أحببت لم تلم
وحرمة الوصل والود العتيق وبالـ ... ـعهد الوثيق وما قد كان في القدم
ما حلت عنهم بسلوان ولا بدلٍ ... ليس التبدل والسلوان من شيمي(١)

لكن قرب المأخذ هذا ليس على ظاهره ، فهم يرمزون به إلى حب الله ومثل هذا عند سائر الشعراء الصوفية ومنهم ابن عربي . يقول بكري شيخ عنه وعن ديوانه « إن في شرح ابن عربي لديوانه « ترجمان الأشواق » ما يمكننا من أن نتبين كيف انطوت الكنوز في رموز ، وكيف أمكن للرجل أن يجعل الألفاظ والعبارات الغزلية أو الخمرية أدوات تعبير عن عاطفة إنسانية تسامت بصاحبها أو تسامى بها صاحبها إلى أن جعلها عاطفة إلهية ، المحبوب فيها هي الذات العلية»(٢) .

رد العجز على الصدر :

ومن مظاهر التجديد إكثار الشعراء من رد العجز على الصدر ، وقد أبدع فيه ابن سناء الملك ، ففي قصيدة واحدة مكونة من اثنين وخمسين بيتاً ضمن سبعة أبيات رد العجز على الصدر منها :

ولتظهر على عدو ... ك إن حزب الله ظاهر

(١) الديوان ٨٠ .

(٢) مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ٢٤٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سـر في ضمـان الله فالـ ـفتـح المبـين إليـك سـائر
وزر الخليـل فقـد تشـوّ ـق أن تكـون إليـه زائـر
وتـسـتروا في زعمهـم بأريجهم هـل عنـك سـاتر(١)

وقصيدته البائية في مدح الملك العادل بلغت خمسين بيتاً منها سبعة أبيات تحوي رد العجز على الصدر ، منها :

وشـاربة خمـر الـدلال فدهرهـا يغـني عليهـا جليهـا وهـي تشـرب
وإن شاب رأسي اليوم من أمس هجرها فإنسـان عيـني قبـل بـالدمع أشـيب
فلا تحجب الراجون عـن باب رفـده وعن بابـه الملك المحجـب يحجـب(٢)

ومنه عند فتيان الشاغوري :

يميس الغصن بل قدّه المهفهف أميس(٣) .

وقوله :

وإذا يجـادل في العلـوم بزاتهـا كـانوا بغاثـاً وهـو فيهـم أجـدل(٤)

وقـوله :

بهـا كـل هـاروت ينفـث سـحره ومـاروت لا مـا أودعتـه المكـاحل(٥)

وقولـه :

إذا اشـتغلت شـوس الملـوك بلهوهـا فليـس لـه إلا المكـارم أشـغال
متى قابـل الغافلـون غـرّة وجهـه تلقاهم منـه قبـولٌ وإقبـال(٦)

وشرف الدين الأنصاري ليس بالمكثر من رد العجز على الصـدر ، فقصيدتـه الحائية في مدح الملك الأمجد سبعة وعشرون بيتاً منها بيتان فقـط حويـا رد العجـز

---

(١) الديوان ٣٩٦ .
(٢) المصدر السابق ١٩ .
(٣) الديوان ٢٢٨ .
(٤) المصدر السابق ٣١٣ .
(٥) المصدر السابق ٣١٦ .
(٦) المصدر السابق ٣٣١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

على الصدر هما :

وارتحت للبين لما ارتعت منه فقل ... في طول شقوة مرتاع بمرتاح

ويُصدرُ الرمح ريانا ، وليس بذي ... تجبر لذيول البُرد رماح(١)

فاستهل البيت الأول بارتحت وختمه بمرتاح ، وفي صدر البيت الثاني الرمح والعجز رماح ومنه قوله :

لا جناح في خفض عيش المحبين ... إذا ضمهم من الليل جنح(٢)

فصدره جناح وعجزه جنح .

وقوله :

ثوّرتها عن جوشن ولمثلها ... عن مثل ذاك الرّبع مثلي ثوّرا(٣)

وقد عثرت على أربعة أبيات في قصيدة له مكونة من سبعة وأربعين بيتاً هي:

لا تسأل الركب عنه ، فهو في خلدي ... مذ بان عني ، وعن حالي فلا تسل

يا عاذلي ليس مثلي من تخادعه ... وليس مثلك مأموناً على عذلي

وكم أحلت إلى هون إباءَهُمُ ... الله أكبر لولا أنت لم يحل

وأحتلتُ في خدعه بالزهد أظهره ... فما تخلصت من جدواه بالحيل(٤)

ومن النادر عند شرف الدين الأنصاري توالي رد العجز على الصدر فلم أعثر في ديوانه إلا على أربعة أبيات متوالية في قافية وهي :

فلم تقه مني الحجال ، ولا حمت ... ولم يَحْمها منه القتال ، ولا وقى

ففرقت من سحب الجوى ما تجمعت ... وجَمع من شمل العلا ما تفرقا

وصدق ظني موشكاً في افتاحها ... وما زال ظني في علاه مصدّقا

لقد سبقت سكانها مستغيثة ... فكنت إليها بالإغاثة أسبقا(٥)

---

(١) الديوان ١٢٨ .

(٢) المصدر السابق ١٢٤ .

(٣) المصدر السابق ٢٣٢ .

(٤) المصدر السابق ٣٩٩، حتى نهاية القصيدة .

(٥) الديوان ٣٦٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أعلام التجديد

رائد التجديد في الحروب الصليبية التي بدأت في عام ٤٨٨هـ ، أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري ، هو صاحب (المقامات) ولد بالبصرة في عام ٤٤٦هـ ، ومات ٥١٦هـ ، وهو صاحب ديوان الخليفة بالبصرة . نال شهرة في الآفاق بقدرته اللغوية ، وترويضها في رياض فنية وكانت مقاماته على لسان كل متعلم أو متأدب ، يقول عنه العماد الأصبهاني : « سار فضله في الآفاق ، بين المقيمين والرفاق ، وطلعت ذكاء ذكائه في المغرب والمشرق ، وامتلأت ببضائع فوائده وتواصع فرائده حقائب المشتم ، والمعرق »(١) أي الذاهب إلى الشام والعراق .

ومصدر الإعجاب بأدبه يعود إلى صنعته الفنية ، حيث اتخذ أسلوباً قصصياً لا فضل له في المنهج ، فبديع الزمان أولى به ، لكن قدرته على مجاراة البديع في هذا الأسلوب لا مناص من الأذعان لها . وتفوق على بديع الزمان في إحياء اللغة فاستخرج من أصدافها ما غرق في قاع النسيان ، وروضة وجعله يدرج على الألسنة . والقارئ لا يشعر بإقحام الألفاظ لغرابته لأنه أوجد القناعة بأهمية اللفظة في مكانها المناسب من التركيب وتلك خاصية جديرة بالإشادة .

وهو أيضاً استعمل الجناس والسجع في قدرة تركيبية بارعة ، في تلاحم وانسجام مع المضمون ، وقد أعجب به أهل عصره .

« وشي بلاغة الحريري ذهبي الطراز ، سحباني الإعجاز ، قسي الإسهاب والإيجاز ، ومتى قدر (قس) على ترصيع كلمة ، وتوشيع حكمه ... قد أعجز الفصحاء بصناعته ، وآبر على البلغاء ببراعته ، بلغ السماء ببلاغته ، وأوجد حلي

(١) خريدة القصر ، الجزء الرابع ٢/٦٠٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الزمان العاطل بجودة صناعته »(١) .

ورب سائل يسأل ما علاقة الحريري بالشعر ؟ ونقول : إن الحريري اشتهر بمقاماته ولا ريب في ذلك . والمقامات تحمل كثيراً من شعر الصنعة المتكلف المتماثل مع صنعة المقامات ، والمقامات أيضاً لهجت بها ألسنة العلماء وطلاب العلم ومنهم الشعراء ، فكان التأثر بها واقعاً لا محالة .

والحريري لم يقتصر على المقامات ، وإنما جال في ألوان الشعر ، وأكثر من الأزهار المتناسقة التي تدل على طول تأمل وامتداد رعاية ، ومعاودة التنسيق والتنظيم .

وشعره ينضح بالمنفعة والمتعة معاً ، وإن افتقد لعنصر الشعور كثيراً ، وربما نقتطف المنفعة من الشكل حيث الثروة اللغوية والقدرة التركيبية اللتان ألهت الأدباء عن كل مكرمة مضمونية في المقامات . والتجديد في شعر الحريري اتخذ قدائد شتى ، فهو يوظف الجناس كثيراً ، والسجع ، ولزوم ما لا يلزم ، والتجريد من بعض الحروف ، والالتزام بحرف من الحروف في جميع ألفاظه في نص من النصوص . فمن الجناس قوله :

وقلت للأنمي : أقصر ، فإني ... سأختار ((المقام)) على المُقامِ
وأنفق ما جمعت بأرض « جَمْعٍ » ... وأسلوبـ « الحطيم » عن الحُطَامِ(٢)

ومن الجناس ولزوم ما لا يلزم بين البيتين والتكرار في البيت الواحد قوله :

أخذ بحلمك ما يذكيه ذو سفه ... من نار غيظك واصفح إن جنى جاني
فالحلم أفضل ما ازدان اللبيب به ... والأخذ بالعفو أحلى ما جنى جاني(٣)

وازدحام البيتين بالصنعة لا ينفي زخم المضمون . وتتبلور قدرته الفنية في

---

(١) المصدر السابق ٢/٦٠٠-٦٠١ .

(٢) الجزء الرابع ٢/٦٠٢ .

(٣) المصدر السابق ٢/٦٠٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مقطوعته التي يخاطب بها ابنه ويعظه ، ويسلك بـه سبل الخير والرشاد ، وتلك المضامين المؤثرة ، لا تنتزعها تلك الحشود من الجناس ، والتكرار والتزام ما لا يلزم، وصدى الصوت الذي يظهر في تذييل كل بيت بما يتناسب مع اللفظة المجاورة للقافية يقول :

بنيَّ استقم ، فالعود تنمي عرقوه ... قويماً ، ويغشاه – إذا الْتوى – التوى
ولا تطع الحرص المذل ، وكن فتى ... إذا التهبت أحشاؤه بالطوى طوى
وعاص الهوى المدري ، فكم من محلّق ... إلى النجم لما أن أطاع الهوى هوى
وأسعف ذوي القربى ، فيقبح أن يُرى ... على من إلى الحر اللباب انضوى ضوى
وحافظ على من لا يخون إذا نبا ... زمان ، ومن يرعى إذا ما النوى نوى
وإن تقتدر فاصفح ، فلا خير في امرئ ... إذا اعتقلت أظفاره بالشوى شوى
وإياك والشكوى ، فلم ير ذو نهى ... شكابل أخوالجهل الذي ما ارعوى عوى(١)

وقصيدته ذات الصنعة الرائعة التي لا عوج فيها ولا أمتا والشكل فيها حلل جمالية لمعان متناسقة مع غرض القصيدة ، حيث قالها على لسان ابنه لتكون ذات يد عند الوزير أنو شروان :

ألا ليت شعري ، والتمني تعلة ... وإن كان فيه راحة لأخي الكرب
أتدرون أني – مذ تناءت دياركم ... وشط اقترابي من جنابكم الرحب
أكابد شوقاً ، ما يزال أواره ... يقلبني بالليل جنباً على جنب
وأسكب للبين المشت مدامعا ... كأن عزاليها امترين من السحب
وأذكر أيام التلاقي فأنثني ... لتذكارها بادي الأسى طائر اللب
ولي جنّةٌ في كل وقت إليكم ... ولا جنة الصادي إلى البارد العذب
فوالله إني لو كتمت هواكم ... لما كان مكتوماً بشرق ولا غرب
ومما شجا قلبي المعنّى وشفه ... رضاكم بأهمال الإجابة عن كتبي
على أنني راض بما ترتضونه ... وأفخر بالإعتاب منكن وبالعتب

(١) المصدر السابق ٢/٦٠٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولما سرى الوفد العراقي نحوكم ... وأعوزني المسرى إليكم من الركب
جعلت كتابي نائباً عن ضرورة ... ومن لم يجد ماءً تيمم بالترب
ونفذت أيضاً بضعة من جوارحي ... لينبئكم عن شرح حالي ويستبي
وقلت له عند الوداع وقلبه ... شج ، وأبوه الشيخ منكسر القلب
ألا أبشر بما تحظى به حين تجتلي ... محيا سديد الحضرة الأوحد الندي
ولست أرى إذكاركم بعد خبركم ... بمكرمة ، حسبي اهتزازكم حسبي(١)

فهذه القصيدة نلمح فيها الاعتذار ، والأسلوب الاعتذاري شديد الأحكام لا يحتمل التأويل بل يحذره ، وقدرة الحريري على الاعتذار مع الصنعة البديعية أمر يدعو للعجب .

والقصيدة تزخر بالمقابل « تناءت ، اقترابي » و « التلاقي ، وأنثنى » و « شرق وغرب » إلى جانب التقابل في التراكيب بالنفي وغيره .

والتجانس في « جنب على جنب » وقوله : « ولي جنة ولا جنة » وقوله : « راضٍ بما ترتضونه » .

والقصيدة تفيض بشعور الشاعر وتلك محمدة لصاحب الصنعة .

والصنعة تأتي له في المقطوعات أكثر مما تسخر له في المطولات ، فقد ظهر التكلف على صنعته ، واتخذت مساراً يبتعد عن الذوق السليم في قصيدته التي تجاوزت الخمسين بيتاً التي امتدح بها « سعد الملك » وأكثر فيها من التجنيس ، لاسيما بين الكلمة في خاتمة البيت وجارتها السابقة لها . وليس هذا وحسب وإنما تتفقان في الوزن ، يقول منها :

طيف ألم به وهناً ، فأحياه ... لما حباه برؤياه وريّاه
سرى إليه يسرّى الهمّ عنه فما ... أسرّه عند مسراه وأسراه

(١) العماد الأصبهاني : خريدة القصر ، الجزء الرابع ٢/٦٠٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أعجب به ! كيف وافى غير محتشم؟ ومن هداه ، وأهداه ، وهدّاه(١)

والمقطوعتان التي تتخلل المقامات أكثر روعة من مطولته ، وأكثر تآلفاً بين المضمون والشكل ، يقول في نصيحة من مقامة له :

إذا ما حويت جنى نخلة فلا تقربنها إلى قابل

وإما سقطت على بيدر فحوصل من السنبل الحاصل

ولا تلبثن إذ ما لقطت فتنشب في كفه الحابل

ولا توغلن إذا ما سبحت فإن السلامة في الساحل

وخاطب لـ «هات» وجاوب بـ «سوف» وبع آجلاً منك بالعاجل

ولا تكثرن على صاحب فما مُلَّ قط سوى الواصل(٢)

والالتزام بحرف في كل لفظة من ألفاظه نوع من الصنعة يتجلى فيها التكلف واضحاً . وهم يرونه تجديداً ونحن نراه بعيداً عن البلاغة أو أي تلوين جمالي .

ومن ذاك قوله :

وسيف السلاطين مستأثر بأنس السماع وحسو الكؤوس

سلاني ، وليس لباس السلو يناسب حسن سمات النفيس

وسن تناسي جلاسه وأسوا السجايا تناسي الجليس

وسرَّ حسودي بطمس الرسوم وطمس الرسوم كرمس النفوس(٣)

ومثلها الشينية أيضاً(٤)، والأبيات العواطل من الإعجام(٥)، والأبيات التي حروفها كلها معجمة(٦) .

والخلاصة : أنه قد أغرق في الصنعة حتى بلغ التكلف أحياناً ، ويخفف من

(١) المصدر السابق ٢/٦٠٨ .

(٢) المصدر السابق ٢/٦٦٢ .

(٣) العماد الأصبهاني : خريدة القصر ، الجزء الثاني ٢/٦١٨ .

(٤) المصدر السابق ٢/٦٢١ .

(٥) المصدر السابق ٦٦٧ .

(٦) المصدر السابق ٦٦٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ذلك أن هدفه الفني ليس التأثير الشعوري ، أو منتهى الجمال الفني للشعر ، وإنما هدفه الإبداعي تحليه اللغة وتلوين الصوت ، والقدرة اللغوية وذوق شريحة من المعاصرين له تستملح ذلك وتأنس به . والإقبال الذي حظي به أدبه ليس من منزع شعري تأثُري ، إنما من منزع تأملي وكم لغوي ، وتوظيف تركيبي . ذلك ما عساه يشفع له أو قل شفع له عند أدباء عصره ومن تلاهم .

والشاعر أبو المعالي سعد بن علي الوراق الكتبي الحظيري يقول عنه العماد الأصبهاني :

« نظمه بديع صنيع ، وخاطره في إبداعه وإبداعه ، كل معنى حسن جريء سريع ، وشعار شعره المجانسة والمطابقة ... فشعره مصرع مرصع ، معلم بالعلم ملمع ، برده مفوّف . وسهمه مفوق ... »(١) .

وهو من أوائل الشعراء المجددين لا المتكلفين ، تظهر في شعره الصنعة البديعة وهو إلى جانب قدرته الإبداعية فإنه عالم بهذا الفن ، ومؤلف قدير في موضوعات التجديد ومنها كتاب « لمح الملح في التجنيس » وكتاب « الإعجاز في الأحاجي والألغاز » مات في بغداد عام ٥٦٨هـ(٢)، وله مقطوعات كثيرة لكنها تدور حول الغزل بالمذكر وله قصائد في المدح ، وهو يعد إلى الصنعة في التجانس والتقابل ومنها لاميته في بيعة « المستنجد بالله » الخليفة العباسي عام ٥٥٥هـ التي بلغت سبعة وثلاثين بيتاً لم يسلم من التجانس فيها إلا أربعة أبيات يقول في مطلعها :

بيعة شدّ عقدها لا يُحل ... وانقياداً لغيرها لا يحلُّ

سفرت شمسها ، وقد أسفر الصبـ ... ـح ، فحلّ الضياء حيث تحلُّ

لم يفل رأى فالها ، ولقد جا ... ء بغضب ماضي الشيا لا يُفلُّ

---

(١) خريدة القصر ، وجريدة العصر ، المجلد الرابع ١/٣١ .

(٢) المصدر السابق من ٣٠إلى ١٠٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

جاء تأريخها الخمس وخمسي ـن وخمس من المئين يدل(١)

فجانس بين « يحل وتحل » وكرر في « سفرت وأسفر ، وحل وتحل ، ويفل ويفل ، وخمس وخمس » .

وقصيدته البائية في الخليفة المستنجد با لله وهي مكونة من أربعة وستين بيتاً احتوى أربعة وأربعون على التجانس :

عُلى هكذا ، لازال جدك عالياً ولا ينتهي حتى ينال التناهيا
وما المرء إلا في الدناءة سائم إذا لم يكن في مرتقى المجد ساميا
وما يقنعن النفس سائر ما حوت فإن قنعت ببعضه كان كافيا(٢)

والشاعر أبو السمح سعيد بن سمرة الكاتب ، من الشعراء الذين مالوا إلى التصنيع وحذا حذو الحريري في شعره ، فقد أنشد الخليفة (المستنجد با لله) يهنئه بعيد الفطر سنة إحدى وستين وخمسمائة بقصيدة قصيرة خالية من الحروف المعجمة :

ملك الأمر ، دام أمرك مسمو عاً مطاعاً ما حال حول حال
ورعاك الإله ما همر الرّعـ ـد وما دام للودود وصال
وأدام العلاّم ملكك محرو ساً محوطاً ما حُلل الإحلال
عمّ أهل الإسلام طولك طُراً وعداهم لعدلك ، الإمحال
ومحا رسم كل عاد معاد ملحد همه الدهـا والمحال
سرَّ أهل الصلاح عصرُ إمام ما عراه لردع روع ملال
عالم عامل ، مُعمٌّ مُعِمّ عادل عهده عدله هطال(٣)

ومن الشعراء الذين مالوا إلى الصنعة الرائعة أبو مسلم الشروطي المتوفى

---

(١) المصدر السابق ٥٨، ٥٩ .

(٢) المصدر السابق ١/٦٢ .

(٣) خريدة القصر ، القسم العراقي ٢/٢٦٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٥٤٥هـ وهو شاب(١)، وله مسمطة يعنّى بها :

يا ريم كم تجني ؟ لم قد صددت عنا ؟ صل عاشقاً معنّى ، بالوصل ما تهنا
السلسبيل ريق ، والشهد والرحيق والورد والشقيق ، ومن وجنتيه يجني
حتام يا غزال ذا التيه والدلال؟ والصد والملال أفنى ، وليس يفنى؟
عذبتني ، فمهلاً ، لم ترع فيَّ إلاّ ما كنت قطّ إلا أحسنت فيك ظنا
يا فتنة الفتون ، يا نزهة العيون ارحم أخا شجون ما نال ما تمنى
يا بدر كل بدر في نصف كل شهر يا من أطال فكري يا من به فتنا
لم يرق فيك جفني من عظم طول حزني ناح الحمام عني في دوحة وغنى
قد عيروا ولاموا من شفه السقام ما ينفع الملام من في هواك جُنّا
صبٌّ بكم عميدُ أشواقه تزيد قد شفه الصدود أضحى بكم معنى(٢)

وهم يستمحلون الصنعة الخفيفة التي لا تلوي أعناق المعاني ، وتكون في أبيات معدودة كقول أيمن الدولة أبو سعد العلا بن الحسن بن وهب بن الموصلايا المتوفى ٥٦٩هـ :

يا خليليَّ ، خلياني ووجدي فملام العذول ما ليس يجدي
ودعاني ، فقد دعاني إلى الحكـ ـم غريم الغرام للدين عندي
فعساه يرق إذ ملك الرق بنقد من وصله أو بوعد
ثمّ من ذا يجير منه إذا جا ر؟ ومن ذا على تعديه يعدي

وقد نالت إعجاب العماد فقال عنها : « أنا أستحلي هذا النوع من التجنيس واستعذبه ، ويحسبه زلال الماء قلبي في الرقة والصفاء فيشربه ويستشربه»(٣) .

ابن سناء الملك :

من أعلام شعراء التجديد ابن سناء الملك الشاعر المصري الذي أكثر من

---

(١) المصدر السابق ٢/٣٠٨ .

(٢) المصدر السابق ٢/٣٠٩-٣١٠ .

(٣) العماد الأصبهاني : خريد القصر ، القسم العراقي ١/١٢٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المحسنات اللفظية من التجانس والتورية والرمز بألوانه ، مع قرب المأخذ وسهولته، وتدفق الشاعرية ، وفيض الشعور ، وقد أخذ بأسبابها في جل شعره حيث الألفاظ البعيدة عن الغرابة ، وبناء الجملة المتألقة بجمالها الفني ، وخفة الوزن ، وتولد الاشتقاق ، والدارس لبيئة الشاعر ومكوناته الذهنية الأولى ، والتي صحبته في امتداد حياته يعثر على المؤثرات في شعره وهي :

١ – نشأته في البيئة المصرية ، التي تتمثل الحضارة والتي تخاطب النفس للتواصل مع العقل في أسلوب ظاهر قريب المتناول تتبلور فيه الذوقية الحضارية التي تقرب إلى الفطرة السليمة القادرة على الوعي والاستيعاب . لذلك ظهرت الروح المصرية في شعره فكيف وهو ربيب عاصمتها . القاهرة .

٢ – نشأته التعليمية فأبوه من كتاب لإنشاء الذين مارسوا اللغة تعليماً وكتابة ودربة ، وقدرة على توظيفها ، وتوليدها فهم أشبه بصحفيي اليوم الذين يتواصلون مع الكتابة في الرياضة والصياغة الإخبارية ، والنواحي الاجتماعية ثم ما يلبث أحدهم أن يتصدر قائمة الكتاب والمثقفين وأرباب دواوين الإنشاء ، هذا شأنهم وديدنهم .

وابن سناء الملك نشأ مع الأنموذج الفاضلي وتتلمذ عليه وتواصل معه وتعرض لمساجلات كثيرة معه ، ثم التحق بديوان الإنشاء مما صبغ أسلوبه الشعري بالأنموذج الكتابي . فكانت الموهبة وكانت الممارسة ، وكانت الفكرة ماثلة ، وكان التوازن الجمالي الذي جمع مكونات الشعر من الشعور والمضمون والشكل .

٣ – حياة الرفاه والنعمة : فقد عاش في غضارة من الترف فهو قريب الصلة بالدولة الفاطمية ، ومن أعيان الدولة الأيوبية فمشاهداته وحواره وجدله مع علية القوم ، فجمع أشتات المنظومة العليا للذوق ، فهو يصف ماعونه كما قال ابن الرومي عن ابن المعتز . فكأنه جمع أطايب اللغة كما جمع أطايب المشم والمذاق

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والملبس . وهو يقطف ثمار الفكر من رجالاته الذين يتوافدون على مصر حيث عهد القاضي الفاضل إليه برعاية ضيوف مصر من العلماء وربما كان بعض أولئك من الأندلس فسمع منهم الموشحات ، وتأثر بهم وتعلق بها فألف عنها ونسج على منوالها فأثرت نظمه ، وشجعته على استخدام بعض الألفاظ العادية .

ونحن نستعرض بعضاً من قصائده لنقف على ماهية إبداعه الشعري ، واتجاهه الفني :

وقد استهل ديوانه بمهمزية يرثى بها أمه بلغت تسعة وستين بيتاً ، التجانس في ثلاثين بيتاً ، والتقابل في ستة أبيات .

والتجانس فيها ملمح جمالي لا مطعن تكلفي ، يتآزر مع المضمون ، ولا يخفيه ، يتساوى جهد الشعر في شحذهما فيتألقان معاً :

وأمنحا النوم كل صب ينادي ... من يعير الكرى ولو بالكراء

ليست العين منكما لي بعين ... أو تعاني حملاً لبعض عنائي

قد رماني الزمان منه بخطب ... أفحمت عنه ألسن الخطباء

ودهاني بما أعزّاه فيه ... عن ثباتي له وحسن عزائي

صار منه يرى الغناء نواحاً ... مسمعي والنواح مثل الغناء(١)

فالجناس الناقص بين الكرى والكراء يتناسب مع المعنى ويزيده قوة ، والتكرار في البيت الثاني بين العين وعين ففيه مشاركة وجدانية بين الشاعر وصاحبيه ، والاشتقاق بين تعاني وعنائي لم يأت على حساب المعنى وإنما له وفيه تظهر قدرة الشاعر على توظيف الاشتقاق اللغوي الكبير .

وقد اهتدى الكتاب والشعراء إلى التوليد الاشتقاقي ، حتى سهل انقياده لهم ولا عيب في ذلك لولا تكاثر رواده حتى مُلّ منه ، فنحن نرى بعد انقطاع التواصل السياقي مع الأزمان الغابرة ، وتوليد أساليب محدثة جديدة ، نرى النقاد

(١) الديوان ٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يجعلون ذلك التوليد محمدة في أسلوب بعض الشعراء .

إذن فعلينا أن نعترف بتجديدهم بالتوليد الاشتقاقي ، سيما ونحن نلمح الاعتدال بين الشكل والمضمون وكل صاحب يراع أو خطيب معنيٌّ بالمواجهة الأولى في مقدمة قصيدته أو خطبته ، وهم أيضاً على هذه الشاكلة ، فأودعوا مقدماتهم جل صناعتهم ، ولما كانت اللغة واشتقاقها العلامة البارزة تبلورا في مقدمة ابن سناء الملك :

لقد عفت عيشي بعد العفيف ... على العيش بعد العفيف العفاء

فما غاب ما غاب إلا الجميل ... وما مات ما مات إلا الوفاء

وإلا الصديق وإلا الصدوق ... وإلا الصفي وإلا الصفاء(١)

وهي استهلال رثاء للعفيف التلمساني مكونة من واحد وثلاثين بيتاً ، والتقابل في أربعة أبيات . وعنايته باللغة واشتقاقها تتماثل في أغراضه ، فالقصيدة السالفة رثائية تجاوز فيها النصف ، ونلمح مثله في مدائحه كقصيدته المشهورة في مدح صلاح الدين التي استهلها بقوله :

بدولة الترك عزت ملة العرب ... وبابن أيوب ذلت شيعة الصلب

وفي زمان ابن أيوب غدت حلب ... من أرض مصر وغارت مصر من حلب(٢)

فعدد أبياتها سبعة وخمسون بلغ التجانس اثنين وثلاثين بيتاً .

ولما تقدمت به السن نجده يخفف بعضاً من التوليد الاشتقاقي ، فهو يمدح العادل بعد أن تولى السلطة بما يقارب عشر سنوات من وفاة صلاح الدين ، ويعرض عن حشد الألفاظ المشتقة في مقدمته وعدد التجانس لم يبلغ منتصف القصيدة فضمه اثنان وعشرون بيتاً ، والقصيدة خمسون بيتاً مطلعها :

---

(١) المصدر السابق ٦ .

(٢) المصدر السابق ٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

على كل حال ليس لي عندك مذهب وما لرغامي عند غيرك مطلب
وقد زعموا أني قتلت وأنني رضيت فما بال المليحة تغضب(١)

ويعتذر للقاضي الفاضل معلمه الأول ونموذجه المفضل ، فنجد أن نسبة التجانس والتقابل لا تتجاوز غيرها ، فعدد أبيات القصيدة واحد وخمسون ، وبلغ التجانس أربعة وعشرين بيتاً وأحياناً يكرر الألفاظ الاشتقاقية في البيت الأول :

تذكرت أيام الصبابة والصبا وعيشاً مليحاً بالمليحة معجبا(٢)

ومن أشهر قصائده في القاضي الفاضل رائيته التي مطلعها :

باتت معانقتي ولكن في الكرى أترى درى ذاك الرقيب بما جرى(٣)

وقد بلغت سبعة وستين بيتاً والتجانس فيها اثنان وعشرون بيتاً . ولو أنه يرى الجمال في كثرة البديع لحشد منه كثيراً . وهذا دليل على أن الشاعر لا يتكلفه وإنما يرo من فيض الثروة اللغوية التي يدخرها .

ومدح الملك الأفضل ابن الملك الناصر صلاح الدين برائية بلغت اثنين وخمسين بيتاً ، والتجانس أربعة وعشرون مطلعها :

سافر فوجه العيد سافر فلترجعنَّ وأنت ظافر(٤)

فتيان الشاغوري :

ومن شعراء التجديد فتيان الشاغوري : (٥٣٠-٦١٥هـ) الشاعر الشامي الدمشقي الذي تعلق بأهداب التجديد في عصره ، وروض شعره . ووظف لغته توظيفاً فنياً ، ونهج نهج المنظرين المحدثين له فحظي بإعجابهم ، وسلكوه في منظومة شعراء الطبع وسهولة العبارة والبعد عن التكلف ، يقول عنه العماد

(١) المصدر السابق ١٦ .
(٢) المصدر السابق ٧٠ .
(٣) المصدر السابق ٣٥١ .
(٤) المصدر السابق ٣٩٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الأصبهاني : « ليس بالشام في عصرنا هذا مثله رقة شعر ، وسلاسة نظم ، وسهولة عبارة ولفظ ، ولطافة معنى ، وحلاوة مغزى ، بأسلوب سالب للب ، وخالب للخلب ، وصفة عارية من التكلف ، نائيةٍ عن التعسف ، تزنح له أعطاف السامعين ، وتنبع رقته في رياض اللطف الماء المعين »(١) .

وهذا الحكم نابع من مكونات ذهنية للعماد ، فهو ابن العراق ، وربيب الصنعة الحريرية ، والمقتفي أثرها إبداعاً ؛ شعراً ونثراً ، لكن النظرة النقدية تختلف فربما يلمح بعض من معاصريه هذه الصنعة ، أما المعاصرون فيرو قد أمسك بالعصا من وسطها « فبرع في ذلك براعة فائقة تملأ النفس إعجاباً ورضا أحياناً ، وتكلف فيه تكلفاً واضحاً بدا فيه ثقل الصنعة أحياناً أخرى ، وجماع القول في صوره أنها صور مستجادة في الغالب »(٢) .

ويقول عنه محقق الديوان : « ملكت عليه الصنعة أمره في الشعر ، فأولع بالجناس والطباق إلى درجة المبالغة ، كما أولع بالتورية والتشبيه وغيرهما من ألوان الصنعة اللفظية ... ، وقد وفق الشاغوري في بعض هذه الصنعة ، وأخفق في قسم منها »(٣) .

وأرجِّحُ أن فتيان الشاغوري من شعراء الصنعة ، وأرى أنه أول شاعر شامي دمشقي تعلق بأهداب الجناس والتورية والتقابل وألح الطلب وراء المحسنات البديعية ، ولأنه عني باللغة تعلماً وتعليماً ، وبعد أن تألقت العواصم الشامية بالزعماء الذين توافد الشعراء إليهم من كل حدب وصوب ، وسمت سوق الشعر في الشام ، فتلاقحت الاتجاهات ، فأنجبت فتيان الشاغوري ، وابن سناء الملك وغيرهما ، ثم شرف الدين الأنصاري .

---

(١) الخريدة قسم الشام ٢/١٣٠ .

(٢) د . عمر الأسعد : نصوص من شعر عصور الدول المتتابعة ١٥٨ .

(٣) أنور الجندي : ديوان فتيان الشاغوري ٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ونصنف شعر الشاغوري إلى ثلاث شرائح :

الأولى : شعر الطبع الذي تنفثه الفطرة والموهبة الشعرية التي تتلاقح مع التجربة الذاتية العاطفية ، وهذا اللون يفيض بالاهتزازات الشعورية التي تكون ركناً من أركان الشعر وتتماوج أبياته بموجات متتابعة من الأحاسيس الصادقة التي هيمنت على الشاعر وأنسته ميله إلى الصنعة حتى لا نكاد نراها ، يقول :

يا هند لا تسخري بي ... وتعجبي من مشيبي
وتنفري نفرة الشا ... دن الأغن الربيب
فالدهر عوضني بالبا ... زي عن الغريب
فليس لي في الغوا ... ني ووذها من نصيب
أشكو إلى الله من لو ... عة الغرام الذي بي
جار الأحبة نادى ... فيها منادي الخطوب(١)

فهذه قصيدة مكونة من واحد وعشرين بيتاً التجانس فيها لا يتجاوز سبعة أبيات ، وجله من التكرار لا من الجناس ، ولم يظهر فيه التكلف والتوليد والتكرار بمنأى عن التكلف .

ومثلها المقطوعة التي تليها في الديوان ومنها :

أفدي الذي زار بعد هجر ... فكان من علتي طبيبي
أطلع بدراً من فوق غصن ... يميس تيهاً على كثيب
يرنو بأجفانه دلالاً ... فينفث السحر في القلوب
فقمت مستبشراً وقلبي ... في غاية الوجد والوجيب
فدار ما بيننا عتاب ... لخطب وافى على جدوب(٢)

وهي مكونة من اثني عشر بيتاً يتمثل التجانس فيها بتكرار ثلاث كلمات وتخلو من صنعة أي لون من ألوان البديع .

---

(١) الديوان ٨ ، تحقيق أحمد الجندي .

(٢) ديوانه ١٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهو أيضاً يسلك هذا النهج في أوصافه :

نشر الربيع لنا مطاوي طيه ... فاخضَّر ذاوي العيش من ترطيه
فصل تبسم مسفراً عن حسنه ... في إثر فصل جَّ في تقطيه
هو كالإمام فكل شحرور على ... فن بمنبره أتى وخطيه
وهو كيماوي الربيع أجاد في ... تفضيضه صنعاً وفي تذهيه

ومنها :

والورد كالخجلان والمنثور مس ... تحيٌّ كصب مبتلى برقيه
هب النسيم به فنيَّه نائم الزهر ... الأنيق فهب عند هبوبه
إن النسيم عليله يهدي إلى ... الصب العليل شفاءه بطيبه
يا حبذا الغصون على غناء ... الطير حين أجاد في تطريبه(١)

وهي مكونة من أربعة عشر بيتاً ظهر التكرار في ثلاثة أبيات .

واستيطانه في الزبداني مصيف دمشق التي ما زالت تزهو بجمالها ولطف هوائها حتى يومنا هذا ، له تأثير في وصف الشاغوري ، فتلاقت مشاعره بروعة الطبيعة ففاضت أحاسيسه بهذا الوصف البعيد عن التكلف الذي طرأ على مدائحه . أما لاميته المكونة من ثمانية عشر بيتاً ؛ فهي تخلو من التكلف وإن ظهر الجناس الناقص في بيته الأول :

هب نسيم بالطل مبلول ... منه نظام الرياض محلول
مرّ بريحانها تنفسه ... بين البساتين وهو مطلول
ينشر التبر واللجين معاً ... بمرة والياقوت واللولو
والدوح فيه الغصون مائلة ... فكله فاعل ومفعول
والنرجس الغض طرفه غنج ... بصفرة الزعفران مكحول
وقد تبدي شخص بالبنفسج في ... برد يمان والبرد معسول(٢)

(١) المصدر السابق ١١ .
(٢) المصدر السابق ٣٨٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الثانية : وظف الشاغوري اللغة توظيفاً مغايراً لاتجاه التجديد في زمنه ، حيث نحا نحو جمع الألفاظ الغريبة في ندرة من قصائده وأحياناً يحشد جمعاً من الألفاظ المتقاربة الوزن ، فقد كتب إلى خطيب القدس ، ظهير الدين محمد قصيدة أكثر فيها من الألفاظ الغريبة منها :

أمـــا وكـــل نفـــوخ شـــج بـــنرس رضيـــخ(١)
مـــج اللغـــام بنـــج العنـــاكب المنضـــوخ(٢)
يمشـــين مشـــي فيـــول الشـــطرنج خلـــف الرخـــوخ(٣)
ترمـــي القـــلا بســـهام ولا ســـهام الجـــروخ(٤)
تـــؤم مكـــة ذات البيـــت الرفيـــع الرَّفيـــخِ(٥)،(٦)

ومن حشده الألفاظ المتقاربة في الوزن قصيدته في مدح الأمير شمس الدين بن منكورس ومنها :

وكـــذاك شمـــس الديـــن قـــد حـــاز الحماســـة والســـماحة
يرتـــاح إسمـــاعيل لـــلأدا ب أيتمـــا ارتياحـــه
رب الأصالـــة والإصـــا بـــة والحصافـــة والفصاحـــة
وفتـــى العبـــارة والـــبرا عـــة والشـــجاعة والســـجاحة
يـــأوي إلى عـــرض حمـــا ه ببـــذل أمـــوال مباحـــة
فلـــه علـــى الأمـــراء بالـــ ـفضـــل الرزانـــة والرجاحـــة
آراؤه بســـــــــدادها تبـــدي النصاعـــة والنصاحـــة

---

(١) النرس : الثياب ، نسبة إلى قرية في العراق مشهورة بصنعها . رضيخ : كسر ويناسب أن يكون نرس : ترس لأن الترس هو الذي يقع عليه الكسر.

(٢) نضخ : أي رش .

(٣) الرخوخ : حجر من أحجار الشطرنج .

(٤) الجروخ : من أدوات الحرب .

(٥) الرفيخ : الواسع .

(٦) الديوان ١٠٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ظفـــرت ومـــا صفـــرت لمـــن يمتاحـــه في الدهـــر راحـــة(١)

الثالثة : وتتمثل في إلحاح الشاغوري على التجديد المتبلور في المحسنات البديعية حيث الإكثار من التجانس بألوانه ، والتقابل بأنواعه ، والتورية ، والتضمين ، والرمز التراثي من إشارة وتلميح ، وإيحاء . ويتجلى هذا التجديد في قصائده الخطابية التي تندرج في موضوع المدائح ، والشاعر فتيان لم يكن من الشعراء المتميزين زمن التألق الشعري في عهد نور الدين وصلاح الدين ، وإنما عاش في السفح عند الأمراء من أبناء صلاح الدين ، ومن أقل شأناً منهم وذلك وسم شعر الشاعر بميسمه فلم يدخل في المحافل التي تنتقد الشعر والشاعر ، وتلك مجالس تدعو الشاعر إلى التوتر والتباري ومن ثم الإجادة والتثقيف والصنعة المعتدلة التي لم تتجاوز الحد ، حتى تتجنب النقد بالإفراط ، تلك المنتديات التي صنعت كبار شعراء العربية كالفرزدق وجرير وأبي تمام والمتنبي وغيرهم ، وصقلت ابن منير والقيسراني ، والعماد الأصبهاني ، وابن الساعاتي ، وابن سناء الملك . تلك لم تتح لفتيان الشاغوري فظهر عدم التثقيف لشعره ، إلى جانب عدم الرهبة لأنها تذكي النفس وتدفع إلى الاتقان ، ذلك ما جعل الشاعر يتلاعب باللغة ، ويقصر نفسه ، ويضعف مضمونه ويجنح جانب الشكل ولا مناص ، لاسيما وإنه معنيٌّ باللغة تقصياً وتمحيصاً وتدريساً ، فلا ريب من تكوين ثروة لغوية لفظية وهذا ما دفعه لأن يتبوأ منزلة عالية في الصنعة ، البديعية ولنستنبط ماهية هذه الصنعة من خلال الإحصاء للتجانس والتقابل في عدد من قصائده التي يحويها الديوان ، فقصيدته البائية في مدح الملك الأشرف موسى ابن صلاح الدين يوسف حاكم دمشق ، مكونة من خمسة وثلاثين بيتاً ستة أبيات حوت التجانس فقط ، وظهر التقابل في بيت واحد .

وقد تعمد التجانس بلون الجناس الذي يقوم على تكرار اللفظ مع اختلاف

(١) الديوان ٨٦،٨٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المعنى وبه تظهر قدرة الشاعر الفنية أو تكلفه ومنه :

وهـو الـذي لم يـزل تهمـي أناملـه بـالنَيْل كـالنِيل فياضـاً وكالسـحب
وهو الذي باللُهى في دهرنا فتح اللُهى لـه ببديـع المـدح والخطـب(١)

فالجناس بين النيل والنيل ، وبين اللُهى واللُهى ، ولا ترى في البيتين تكلفاً بل صنعة غير أنها قليلة الإيحاء .

أما بقية التجانس فإنه من التكرار وهو في أربعة أبيات :

يُفني الرضا ماله قبـل السـؤال كمـا يفني العدى بأسـه في ساعـة الغضـب

ومثله بقية الأبيات في تكرارها . والتكرار لا يتجاوز مدلوله الصوتي .

وقصيدته البائية التي يمدح به الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه الشاعر المعروف ، وهي مكونة من تسعة وستين بيتاً والتجانس فيها أربعة وعشرون بيتاً ، والتقابل في ثلاثة أبيات ليست متوالية وهي :

الآن أضحـى الجـود فينـا عـامرا مشـيداً وكـان قِدمـاً قـد خـرب
نسـتنبط الأفكـار وهـو كـاتب بيـض المعـاني مـن سـواد مـا كتـب
أكفى الكفـاة مشرقـاً ومغربـاً وأنجب العجـم نصابـاً والعـرب(٢)

أما التجانس فأغلبه من التكرار الذي يوظف اشتقاقات اللفظة توظيفاً قرياً .

وله قصيدة يمدح بها الأمير سعد الدين محمد بن كمشبا مكونة من ستة عشر بيتاً منا أربعة تحتوي على تجانس كلها من لون التكرار، والتقابل ظهر في بيتين(٣).

وقصيدته في مدح شمس الديـن (قايـا) مكونـة مـن سـبعة وعشـرين بيتـاً ، عشرة أبيات فيها تجانس وبيتان فيهما تقابل(٤) .

وهو يمدح الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه صـاحب بعلبـك بقصيـدة بائيـة

---

(١) الديوان ١٢ .
(٢) المصدر السابق ٢٠ .
(٣) المصدر السابق ٢٤ .
(٤) المصدر السابق ٢٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بلغت ثمانية وأربعين بيتاً منها سبعة فيها تجانس وسبعة أبيات فيها تقابل :

ولما تقدم به العمر ازدادت ثروته اللغوية فكثر عنده التجانس ، فمدح الوزير المصري صفي الدين بقصيدته تائية استهلها بذكرى الصبا بعد أن مدّ الشيب أطنابه عليه وتقوضت خيمات الشباب :

ذكر الصبا منه لي هاجت صبابات ... سهامها في الحشا منها إصابات

خيمات ليل شبابي قُوّضت سحراً ... فطبت لصباح الشيب خيمات

فولت البيض عني غير لاوية ... فكنت « قيساً » نأت عنه « الرقيات »

والقصيدة مكونة من ثمانية وثلاثين بيتاً تجاوز التجانس النصف منها حيث بلغ أربعة وعشرين بيتاً .

والذي يلفت الانتباه هو قدرته على حشد ألفاظ قريبة الاشتقاق من بعضها في البيت الواحد ، كما في البيت الأول السابق وقوله :

إذا تغنت حمامات الحمى أُصُلا ... حامت بهتك حمى سرّي الحمامات

قد غادر العبرات الشيبُ فانيةً ... وفي مَذمته تغني العبارات

وَلّت لذاذات عيشي والشباب وهل ... مع المشيب ترى اللذات لذات(١)

ففي البيت الأول تكرار الحمامات والحمى وتكرار اشتقاق اللذة في البيت الثالث .

وتتميز قدرته على توظيف الألفاظ أكثر من قبل فأنت تلمسُ دلالات لاشتقاقاته عامة ، وإن نبعت تلك الإيحاءات من الصنعة لا من صدق العاطفة كقوله:

فكيف أضحك أو أثني على زمن ... فيه الضواحك أودت والثنيات

فالضحك والثناء في الشطر الأول كناية عن السعادة والسرور ، فهو يستغرب ويستبعد ذلك في عهد سقوط الأسنان والثنايا منها .

(١) المصدر السابق ٥١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويقول إن العيون البابلية تغري به وتسحره وتفضي به إلى البلوى :

يـا عـاذلي مـا العيـون البابليـات ينفثـن سـحراً لنـا إلا بليـات

ومنه :

وعدن يدعونـي عمّـاً مهـازأةً يا خيبـة العـم تدعـوه الصبيـات

فهذه الأبيات من الإيحاء الشعوري .

وقصيدته البائية في الوزير ذاته مكونة من سبعة وعشرين بيتاً يظهر التجانس فيها ما عدا بيتين فيهما تقابل(١) .

وقد أحصيت التجانس والتقابل في كم هائل من قصائد الديوان فرأيت أنها تتراوح بين الثلث والنصف ، وهذه كثرة تدل على صنعة يبدو فيها التكلف أقل من الصنعة ، أمّا الشعور فيختفي وراء الجهد اللغوي ، لكنه لا ينعدم .

وملخص القول في البديع والتجديد فيه :

إن هولاء الشعراء هم مخاض العصور الماضية ، فنتاج شعرهم نتيجة تلاقح الإبداع والتنظير في القرون الماضية ، وإن عناصر التجديد ما هي إلا إمتداد لما درج على ألسنة الشعراء السابقين ، لكنهم تواصلوا مع مسيرة الاتجاه اللغوي الفني الذي يتكون منه علم البديع ، فأحسنوا كثيراً - كما أرى - وجانبهم الصواب قليلاً ، وعمدوا إلى المتكلف منه رغبة في الرياضة العقلية والمنفعة ، وزادوا على من سبقهم، بل عرفوا بأنغامهم فيه ، وخير مثال على ذلك الحريري.

وقد رصدت حركة المحسنات البديعية في الشعر زمن الحروب الصليبية ، محللاً لقصائد تارة ، وراصد للظاهرة من الدواوين تارة أخرى ، ومرات كثيرة أقف محصياً للدلالة على الرأي النقدي . لكن هذا الاحصاء لا أدعي شموليته ، ولن أستطيع إلى ذلك سبيلا ، فالباحث أمام عدد كثير من الدواوين في أقاليم

(١) المصدر السابق ٤٤ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

متعددة ، ولكني أتأمل في شعر الشاعر ، فإن كان لصيقاً بالظاهرة ، يكثر منها فإني أحصي له ، ومن ثم أدلي برأيي ، وإن خالف غيره في الحكم كمثل الجاقي الأرجاني بالمحترفين رغم رؤية آخرين له من المكثرين من المحسنات .

وهذا الإحصاء أو لنقل التأمل له وبه ، زرع لدي الاقتناع بجودة شعر هذه المرحلة بعامة ، ورجحان الصنعة في حلّه ، وظهور التكلف في أقله ، لكنه يفتقد العبقرية ، فلا يوازن بشعر العباقرة من العصور السالفة ، كمثل أبي تمام ، والبحتري ، والمتنبي ، لكنهم ربما يماثلون أقرانهم من سائر الشعراء في القرنين الرابع والخامس من الهجرة إن لم يتفوقوا على أكثرهم من خلال الموازنة .

والشعراء يميلون للصنعة ووسيلتهم اللغة ، وروافد هذه اللغة تصب في علم البديع ، والصنعة لا عيب فيها ، فهي من رحم قمة الحضارة الإسلامية التي توظف العقل لبلوغ الغاية ، ومن هنا فإنهم أمعنوا بتوظيف اللغة وثقفوا أشعارهم من خلالها ، وبلغوا درجة جيدة من الجمال الفني ، وقد توصلت من خلال الإحصاء إلى أن الشعراء المجيدين لم يتكلفوا كثيراً ، ولم يغلب عليهم وإنما بلغ درجة الصنعة وأعانهم على ذلك قدرتهم اللغوية ، فالألفاظ تتدافع ، فينتقي منها ما يشاء مراعياً المضمون ، والجرس الموسيقي ، ودليلنا على ذلك بروز المضامين وكون أكثر أولئك الشعراء من شعراء المعاني ، كالقاضي الفاضل الذي زخرت كتب البلاغة بالشواهد الشاذة من شعره . ولكن بالعودة للديوان تتجلى قدرته الشعرية في موضوعاته الجادة . وكذلك منهم ابن سناء الملك ، وكذلك العماد الأصفهاني، وهو أضعفهم صنعة وأكثرهم تكلفاً .

أما التكلف فإنه ينحصر في مواقف معدودة ؛ إما إرادة الإتيان بجديد لم يسبق إليه كما فعل الحريري ، أو هو للتندّر في مجلس من المجالس ، أو رغبة بالاتيان بشكل غريب يظهر الشاعر فيه اقتداره اللغوي ، أو يتوهم أنه يظهر قدراته الفنية. وهذا المذهب الذي يوصف بالعقم الفني ، لأنه في الأصل يقوم على معاناة تفوق

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الجهد ، ويكون له هاجس محدود يوظف كلّ شيء من أجله ، فينسى المضمون ، ويذوب الشعور وينحصر هذا في توظيف الحروف بالاعجام أو الاعراض عنه ، أواستهلال البيت بحرف يماثل الروي . أو جمع الكلمات ألمتقاربة ، أو جمع الأسماء لمسمى واحد ، أو غير ذلك .

وتنحصر ثمرة هذه بالمنفعة التعليمية ، وبالرياضة التي تدعو للممارسة ، وقد أشرت إلى ندرة تلك النماذج في الدواوين الشعرية .

وقد رصدت ظاهرة البديع متمثلة في أشهر ألوانه من التجانس بفروعه ، والتقابل بلونيه ، والرمز بأنواعه ، وحاولت أن أحصي ظواهر أخرى أثناء جمع المادة وتصنيفها ، لكن تلك الظواهر تندر وتنحصر في البيت أو البيتين ، أو بضع من الأبيات عند الشاعر ، لكن يندر جمعها في القصيدة ، فهي لم تكن ظاهرة عند الشاعر . وما دامت لم تكن ظاهرة عند شاعر بعينه أو شعراء فلا عبرة في تناثرها متباعدة .

وأنا لا أنفي وجود الألوان البلاغية والبديعية عن البيت ، أو عن ولوجها في تركيبه الفني ، بل الذي يلفت الانتباه هو تكرارها ، والحاح الشاعر عليها ، واتخاذها مذهباً كاتخاذ ابن سناء الملك للرمز الإشاري ، فهو يومئ إلى حادثة أو آية ، أو كلمة ، أو بيت من الشعر ، وما أكثره في شعره . وقد أحسن المحقق صنعاً حين بين أصل ذلك في الهامش .

وشعراء المحسنات البديعية لم أحصهم عدداً ، ولكنني اخترت نماذج مما عثرت عليه في المصادر التي اطلعت عليها . ولا أحصر هذه الألوان في شعر المجددين الذين اخترتهم والذين لم أذكرهم ، وإنما هي غلبة ، وربما عثرنا على بعض القصائد عند المحترفين تفوق محاسنها قصيدة عند المجددين .

وقضية الرمز التي ألح عليها أرى أنها تجمع عدداً من الألوان البلاغية مثل الإشارة بأنواعها عند ابن رشيق ، والاقتباس والتضمين ، لأنها تعطي مدلولا غائباً

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يستحضر النص جزءاً منه ، ويكتف الاستدعاء الجزء الأكثر الباقي .

وأخيراً أقول : إن صنعة البديع في مجملها صنعة فنية في هذين العصرين ، في حدود التثقيف والتنميق الذي يجاري العصر الحضري والحضاري من التأنق في الدور والدهاليز ، ومعالم الزينة ، وجمال الطبيعة ، حتى بلغ الأمر إلى الأسماء والألقاب ، وليس أدل على ذلك من نضوب المحسنات في شبه الجزيرة العربية التي هي بمعزل عن التعليم اللغوي ، والاستقرار الحضري ، والتطور الحضاري ، فهم لم يتأنقوا في ألقابهم ولا في دورهم ، ولا في أشعارهم ، ونفتقد المحسنات كذلك عند التأجج العاطفي الوجداني في حالات الشكوى ، والحنين والاغتراب ، وبمجمل الحديث النفسي الذاتي عند جل الشعراء من جميع الاتجاهات .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الباب الرابع

السمـــات الفنيـــة

تمهيـــد :

١ – الشعر بين التراث والمعاصرة .

٢ –اللغة بين المثالية والواقعية .

الفصل الأول : بناء القصيدة .

الفصل الثاني : الرمز .

الفصل الثالث : التصوير .

الفصل الرابع : الموسيقى .

الفصل الخامس : التناص .

الفصل السادس : الشعر التأملي .

الفصل السابع : الشعر العابث .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تمهيـــد

الشعر بين التراث والعصرية :

والشعر في القرنين السادس والسابع الهجريين تمازج حضاري وتلاقح فكري، وتواصل تراكمي . وهو نشاط لغوي تلتقي فيه التجارب الفردية والمواهب مع نماذجها السالفة ، وتجوب في خضم مضامين متناثرة يقرؤها الشاعر من واقعه الاجتماعي ، إلى جانب مؤثرات خارجية وأخرى داخلية ، وتنتظم تلك في معامل النفس البشرية المتغيرة المتطورة . ومن ثم لا يكون الانتاج متشابهاً متماثلاً ، وإنما هي قبسات لها خصوصية فردية لكل شاعر ولها سياقات عامة لشريحة من الشعراء ولها سياقات شاملة وتنتظم في شريحة أكبر تمثل حلقة من حلقات النماذج الشعرية العربية عبر عصورها .

والشعر في القرنين السادس والسابع يمثل التلاحم مع تكوين الشعر العربي ولحمته ونسيجه ، ويختلف حسب سنة التطور نتيجة التراكم المعرفي ، والبناء الفني وتطور الدلالة وماهية الاستخدام اللغوي ، الأمر الذي جعله نسيجاً منفرداً مختلفاً ألوانه وأشكاله وعناصر نسيجه ، ذلكم نتيجة عوامل كثيرة منها :

١ – تنامي الألوان البديعية .

٢ – الاحتفال باللغة والتعامل معها عن وعي بتوظيفها .

٣ – التكوين الحضاري الذي أخذ ينمق الأشياء ويزينها ويثقفها ، وينظر فيها ملياً فكان الشعر موازياً لهذا الفكر الحضاري ، ولا أدل على ذلك من الاختلاف البين بين هذا الشعر الحضاري مع الشعر القبلي في الجزيرة فبينهما اختلاف كبير كل منهما صُبغ بصبغة بيئته .

٤ – سبل التعليم اللغوي وممارسة الأنموذج من خلال التعليم ، والإقتداء

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بالقدوة من الشعراء ، والحافظة التي أحدقت بطالب العلم للقرآن الكريم والحديث الشريف وأشعار العرب وحماسة أبي تمام وديوان المتنبي ولزوميات أبي العلاء المعرّي ومقامات الهمذاني ومقامات الحريري . ذلك الحفظ الذي استحوذ على تعابير شعراء العصر فلم يستطيعوا الفكاك منه ، بل لم يترك لهم التدبير في استجلاب تعابير جديدة فهو لم يفكر في الصياغة الفردية بل يحفظ هياكل قوية ، وينسج على شاكلتها من ألفاظ تماثلها .

٥ - تطور معالم الجمال في الحياة الحضرية ، والعمرانية والتأنق والزخرف في جماليات القصور والأواني وأدوات الزينة حتى الآلات الحربية في تلك العصور تظهر عليها نقوش ورسوم التزيين بل ألبسة الجند حلل تتسم بالشكل الواحد .

ويندرج ذلك على طبقات الشعب ، والمواكب السلطانية وزخرفة المساجد وغيرها ، وتلك الأشكال الجمالية لها تأثيرها النفسي ، وكان الشعر مواكباً لها في تنميقه وزخرفته .

ورغم أن هناك شريحة من النقاد تُحجّم التأثير الاجتماعي في تركيبة الشاعر الأدبية فـ « إن السياق الاجتماعي الخاص الذي يحفز الفنان إلى العمل ، ربما لا يحمل شبهاً بمعناه ، ولقد أدى السياق دوره حين بعث الفنان على التأمل ، ولكنه كثيراً ما يقف عند هذا الحد ، فلا يمكن بسهولة أن يربط بينه وبين العمل الأدبي، العمل الأدبي الذي يشب عن طوق السياق الاجتماعي الخاص ، ويعلو عليه ، وينفك من إساره ، وتفسير ذلك واضح إلى حد بعيد ، فكل لحظة غنية بإمكانيات لا حصر لها ، وليس لطرف اجتماعيٍّ ما مَعْنىً واحد على عكس ما قد يتبادر إلينا »(١) .

والواقع أن الشاعر نبتة في روضة المجتمع ، فالروض تختلف أشجاره وألوانها

(١) د . مصطفى ناصف : دراسة الأدب العربي ٩٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأزهارها لكن التربة واحدة ، والمطر واحد ، فالمؤثرات متقاربة فتكون هناك أعشاب ربيعية ، ونبتات صيفية ، وأشجار عظيمة .

والشاعر في روضته الاجتماعية أكثر تأثيراً ، فالسلالة واحدة ، والماء والهواء والنار ، أضف إليها اللسان (اللغة) ، ونزيد عليها أمراً آخر هو الإحساس المتبادل بين الفرد والمجتمع الذي يظل يتأرجح فيكون مطره أشد وقعاً على تجربة الشاعر .

إن العمل الفني مكون من محسوسات الواقع وذهنيته ، فإذا كان الشاعر لاهياً عابثاً ، وخضنا في عباب جداوله ، فإن شعره ينزف بمتعته العاتية ، ومن ذلك تاج الملوك بوري ، والشاب الظريف ، والتلعفري ، وغيرهم . وإذا كان من الشعراء الذين تدفعهم توجهاتهم إلى السلطة ، وقد نالوا حظاً ، فإن خيالاتهم ترتاض هذا المنهل وتزيد في جوانبه وأمانيه وآماله مثل شعراء الجهاد الذين نالوا حظاً عند نور الدين ، وصلاح الدين وغيرهما كابن منير والقيسراني ، والعماد ، وابن سناء الملك . وكل منهم يمتد إحساسه فوق معاصريه في النظرة الحربية أو العدلية أوالتقوى ، وغيرها .

والحيوان بعامة والإنسان بخاصة مقلد لأسرته ومماثل لهم في الشكل ، ومقلد لهم في المعيشة ، ويماثل ذلك الغرائز والأقرب من ذلك اللغة . فكيف يكون إبداعه بمنجاة من ذلك ؟!

وأنا أنكر الانفصال التام ، غير أني أرى حتمية الإضافة في كل جزئية ومن هنا تكون الخصوصية الشعرية .

والأسلوب الشعري في القرنين السادس والسابع الهجري يمدنا بفيض من التراكم المعرفي : إذ إنه يتواصل في سياقه مع النموذج أو النماذج السابقة من الشعر الجاهلي والأموي والعباسي فأنت تحس فيه التواصل من حيث البناء الفني للقصائد وعمود الشعراء معاً ، وأنت تلمح فيها سمات شاعر بذاته عند الشعراء

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كأن نرى معالم المتنبي في أسلوب الأبيوري ، وأبي الفوارس وغيرهما . وتارة تلتقي به على مستوى القصائد كشعر القيسراني ، وابن منير في الجهاد ، فإننا نتمثل عند قراءة قصائدهما بباتية أبي تمام ، وبروميات أبي فراس ، وبقصائد المتنبي .

ومن خلال الألفاظ والتراكيب نلتمس الروح الإيمانية ، فيتبادر إلى الشاعر المخزون الذهني الذي يتجلى في اللفظة القرآنية أو المصطلح الإسلامي ، فيلتبس الشاعر بكيفية التراكيب القرآنية والمعالجة فتنثال كثيراً إلى أشعارهم .

ومن يتأمل علامات الأسلوب الشعري ، ويستقرئ السمات الخارجية كالتجانس والتقابل والتناص والاقتباس أو التضمين والرمز إلى فكرة أو معنى كالذي يتمثل في المقدمات التي ترمز لشخصية أو لحالة الشاعر الذاتية ، من يتأمل ذلك في مرحلتنا الشعرية التي ندرسها فإنه يلمح تلك العناصر الأسلوبية واقترانها بالعناصر الداخلية الوجدانية ، وتجسدها في المضمونية ، ويلمح توافقاً وتلاحماً بينهما ، وأنهما يمثلان كيان إنسان متطور متغير لا يخفى على كل متبصر واع . وقد أدرك النقاد الأوائل هذه الظاهرة فتحدثوا عن مغزى الشعر وغايته وسلامة شكله ، وكونه يشخص حياة الشاعر ويمثلها ، وتنبئ عن عمله وجاهه . يقول العماد الأصبهاني عن الشريف علم الدين بن الأقساسي الشاعر العراقي: « هو شاعر مجيد ، حسن الأسلوب ، متين النظم ، سليم المغزى ، قويم اللفظ والمعنى ، ينطق شعره بحسبه ونسبه ، وتعبر ألفاظه عن غزارة علمه وكمال أدبه »(١) .

ولنضرب أيضاً مثلاً بالعماد الأصبهاني الذي نشأ بالعراق ، وتأثر بمدرسة الحريري البديعية . والشعراء العراقيون أول وأكثر تأثراً بالبديعيات ، وتوليد اللغة، وأسلوب العماد الأصبهاني الشعري متأثر بأطوار حياته ، فشعره بالعراق قد علاه

(١) الخريدة ، الجزء الرابع ١/٣٣٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

البديع ، وسلك أنموذج العراقيين الجديد الذي شق أستاره ، وفتق أبصاره الحريري بإبداعه النثري والشعري معاً . ولأن العماد اقتفى أثره ، فقد كسا شعره حللاً من التجانس . وليس هذا وحسب ، بل كان البديع مبدأً جمالياً تنظيرياً اتخذه مذهباً ، فقد راجت في كتبه التنظيرات البديعية التي تميط اللثام عن اتجاهه الفني ، وميله له والتي حاول أن يستلهمها في شعره كقوله عن الحريري « حريري الوشي ، عراقي الوشم ، لؤلؤي النظم ، كلامه يتمية البحر ، تميمة النحر ، ودرّة الصدف»(١) .

وأمّا إبداعه فيخضع لسنة التغيير التي تعتري النفس البشرية عندما تصطدم بالواقع والمؤثرات الخارجية . فالعماد في العراق له منهجه التقليدي في بناء القصيدة حيث المقدمة المطولة . والأوصاف الجسمية ، وتعدد الأغراض ، والإطالة في طلب النوال كقصيدته في الوزير ابن هبيرة التي مطلعها :

خطرت تحمل من سلمى سلاماً فانثني يشكر إنعام النعامى
مغرم هاجت جواه نسمة يا لها من نسمة هاجت غراما
نفحة أذكت بقلبي لفحة كلما هبت له زادت ضراما(٢)

ومنها قصيدته في الخليفة المستضيئ بالله عام ٥٦٩هـ(٣) .

وهذا شأنه في المقدمة مع أول عهده بصلاح الدين عام ٥٦٥هـ(٤)، فقد كتب قصيدة فائقة طويلة استهلها بالغزل ومثلها الطائية عام ٥٧٠هـ(٥).

غير أن الأمر يختلف جداً بعدما هاجر من العراق إلى ديار الشام إذ تغيرت أحواله في بيئته الجديدة في صحبة أبطال الجهاد الإسلامي مثل نور الدين زنكي، وصلاح الدين . فهو يعرض عن المقدمات وينهل من معين الجهاد والقضايا

(١) خريدة القصر ، الجزء الرابع ٢/٦٠٠ .
(٢) الخريدة القسم العراقي ١/١١٢ .
(٣) الديوان ٢٤٩ .
(٤) المصدر السابق ٣٠٦ .
(٥) المصدر السابق ٢٧٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الإسلامية ويسترسل فيها كقصيدته النونية عام ٥٦٨هـ ، وهو في صحبة نور الدين سائراً للجهاد : استهلها بقوله :

عقدت بنصرك راية الإسلام وبدت لعصرك آية الإحسان
يا غالب الغلب الملوك ، وصائد الـ ـصيد الليوث ، وفارس الفرسان
يا سالب التيجان من أربابها حزت الفخار على ذوي التيجان(١)

وقد تعرض النقاد إلى تنظير التجانس . فالعماد يشير إلى أنه لمحات فنية ، وأسامة بن منقذ يصنفه إلى ثمانية أقسام ويورد الشواهد(٢)، أما صلاح الدين خليل الصفدي فإنه ألف كتاباً عنه سماه « جنان الجنس في علم البديع » وفصل أنواعه وقال عنه :

« أحسن بدعة ، وأوضح لمعة ، وأملح طلعة ، وأكثر رواية وسعة ، ولا أقول رياء وسمعة ، به تبنى الشعر في أشرف بقعة ، وتبرز أبكار الأفكار منه في خلعة بعد خلعة ، وإذا كان الشعر بحراً فهو من أعذب جرعة »(٣) .

والأسلوب الشعري في هذين القرنين متأثر بالأقاليم من حيث خاصية التراكيب ، وخاصية النبرة ، وفخامة الألفاظ المكونة من حروف القلقلة والحلق ، فأنت تجدها تتسم بتآلف الألفاظ الجهورية النطق التي تنبعث من جهد في الشعر العراقي لاسيما شعراء القبائل ، وقد تنبه إلى هذه الخاصية العماد الأصبهاني فقال عن الشاعر أبي الفوارس (حيص بيص) : « ذو الجزالة ، والبسالة والأصالة ، جزل الشعر فحله ، قد علا محله ، وغلا فضله ، وأطاعه وعر الكلام وسهله »(٤)

ومن ذلك قوله :

---

(١) المصدر السابق ٤١٠ .

(٢) أسامة بن منقذ بن مرشد بن منقذ ، البديع في البديع في نقد الشعر ٢٦ ، تحقيق عبده علي مهنا ، دار الكتب العلمية بيروت .

(٣) جنان الجناس ٧ ، دار المدينة للطباعة والنشر ، بيروت ١٢٩٩هـ .

(٤) الخريدة ، القسم العراقي ٢٠٢/١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ليبق الغنى لا ينقص الفقر جوده ولا يعتري معروفه بالعواصف
مريح غريب الحلم والخطب طائش ومغري سرايا صبره بالنوائب
وحامل غرم الحي جل سراته مريد القوى مستروح للمتاعب
هو المرء أقصى البأس منه لنجدة الـ ـطريد وأدنى ماله للمواهب(١)

فهو أكثر من حروف الهمزة والعين ، أو القريبة المخرج من الحلق كالقاف والغين .

أما شعراء المدن المتحضرون ، فقد تلون شعرهم بالذوق الحضاري يقول العماد عن الشاعر عماد الدين بن عضد الدين الوزير ورئيس الرؤساء « له نظم أرق من النسيم السحري ، وأدق من المعنى السحري ، وأعطر من العنبر الشحري »(٢)، وضرب لنا مثلاً بقول الشاعر المذكور :

قف باللوى إن تناءت الدار فعند تلك الأوطان أوطار
وشم لها بارق السحاب ، فإن ضنَّ فماء الجفون مدرار
أحبابنا أزمعوا الرحيل ، وما أظن أني أعيش إن ساروا
راحوا بقلبي وخلّفوا جسدا جار عليه السقام مذ جاروا
أحب نجدا إن أنجدوا ، وإذا غاروا ، فعندي للغور إيثار(٣)

والذي يتروض مع شعراء الشام فترة ويتذوق أسلوبهم ، وتعتاج أذناه على الجرس والموسيقى ، والإيقاع الشعري لمثل ابن الخياط ، والقيسراني ، وابن منير فإنه يجد غربة حين يرتاد شعر الأبيوردي ، والإرجاني ، و(حيص بيص) . وعندما يبحر في الذوق الحضري في مصر يتمتع بالوشي الحريري ، والأفواف الناعمة ، والرياحين العبقة كمثل تاج الملوك بوري ، وابن سناء الملك ، والبهاء زهير ، والشاب الظريف .

(١) المصدر السابق ١/٢١٥ .
(٢) المصدر السابق ١/١٦٧ .
(٣) الخريدة ، القسم العراقي ١/١٦٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأزعم أن تلك الفوارق بين النماذج الإقليمية قد أوحت للعماد الأصبهاني بتصنيف (خريدته) حسب الأقاليم .

وكون الأسلوب الفني الخارجي في الشعر المتزامن مع الحروب الصليبية متلاحماً مع دواخل الشاعر ، ومعبراً عنها ، وموحياً بها ، تبدوا ظاهرة متألقة في نتاجهم الشعري ، ويطفو في شعر كثير من الشعراء لاسيما الوجداني كثغريات القيسراني ، وتاج الملوك بوري ، والبهاء زهير ، وشعر الشاب الظريف . وغيرهم، والذي يقرأ تلك الأشعار سرعان ما يتحلل من الأحكام الجائرة التي وسم بها شعر العصر ، كأن يدور في فلك اللغة ، ويتجافى عن المضمون والشعور ، كقول القيسراني في بنات الأصفر :

أين عزي من روحتي بعزاز ... وجوازي على الظباء الجوازي
واليعافير ساحبات المعافر ... علينا كالرباب المجتاز
بعيون كالمرهفات المواضي ... وقدود مثل القنا الهزاز
ونحور تقلدت بثغور ... ريقها ذوب سكر الأهواز
ووجوه لها نبوة حسن ... غير أن الإعجاز في الأعجاز(١)

وتاج الملوك بوري يشغل بما يجلجل في دواخله وينقلها لنا ويتناسى صفات من يصف :

إذا عز الوصول إلى الوصال ... وحال المنع من دون النوال
فعدني بالمحال ، فإن مثلي ... ليقنع منك بالوعد المحال
رضيت وإن ظمئت ، ولو بآل ... وحسبك من رضى بوميض آل
أعاذل في الهوى دعني ، فإني ... أبالي في الهوى ما لا تبالي
وليس بمستو حب سليم الـ ... ـفؤاد وسالم مذ كان سالي
أفقت من الهوى ، فَعذِلتَ فيه ... أراني الله حالك مثل حالي

(١) القيراني: الديوان (مخطوط ٧٨،٧٩ نقله د. عمر موسى باشا) الأدب في بلاد الشام ، ص ١٩٦.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومعتـدل الجـوار ، وليـس عـدلاً لعمـرك أن يجـور أخـو اعتـدال
عصيـت النـاس كلهـم جميـعاً بـه ، وأطعتـه في كـل حـال
ومن إحـدى العجائـب أن ليثـاً يقاد زمامـه بيـدي غـزال(١)

والشاعر الشاب الظريف المتوفى ٦٨٨هـ ، من متأخري القرن السابع ، تقرأ حياته من شعره وتصحبه في تلك الحياة العابثة والتي تنبئ عن مكانة عالية في المجتمع ، وشعره يسبر أغوار الحس العاطفي ، والهروب من واقعه ، والثنائية التي تتجاذبه بين المكانة السامقة في المجتمع والتقدير ، وبين الإسراف في مجالس اللهو. وفي ثنايا هذا الشعر الوجداني الذاتي تخبو الصنعة ، وتخفت أضواؤها في ديوانه ، فنحن أمام شعر يمثل شاباً أنيقاً جميلاً ظريفاً لطيفاً ذا ذوق حضاري مترف يقول :

أمـا وتمـايل الغصـن النضـير وحسـن تلفـت الظـبي الغريـر
وخـال في الخـد حسـن يجـول بصفحـة الخـد الحريـري
وصـدغ قـد حكـى لمـا تبـدّى خيـال الـروض في صفـو الغديـر
لقـد نشـطت لواحظـه لقتلـي بعـزم وهـي توصـف بـالفتور
كمـا جهلـت ذوائبـه غرامـي عليـه وهـي تنسـب للشـعور
هـلال في التبـاعد والتداني غـزال في التلفـت والنفـور
أعـاين مـن محاسنـه ودمعـي طلوع الشمس في اليـوم المطـير(٢)

فهذه مقطوعة تخلو من التجانس والتقابل ، ومفعمة بالرقة والوشي ، فهي تحاكي نمنمة الربيع ورغد العيش ، ونعومة المرأة .

اللغة بين المثالية والواقعية :

اللغة مشاعة للأمة في أحقاب مختلفة ، غير أن هذه العمومية تداخلها خصوصية لغوية تنفرع منها كما تفرع الإنسان من أبيه آدم عليه السلام ،

(١) الديوان ٢٠٩، ٢١٠ .
(٢) الديوان ١٢١، ١٢٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فشاكله أبناؤه في سمات ثابتة عامة كالعقل ، والنفس ، والحواس ، والهيكل الإنساني ، لكن لكل أمة صفات مشابهة ولكل فرد خاصية . وتنحو اللغة هذا المنحى . فلكل عصر خصائصه العامة ، ولكل فرد خصائصه اللغوية الذاتية ، فاللغة كالكائن الحي في عصره ، ومثله عند الفرد فهي نبض من حياته ، فلها حياتها الاجتماعية ، ولها حياتها الذاتية ، فالعصر يكسوها ثوباً خاصاً ، والفرد يكسوها حلة فردية ، أو قل إن جينات الوراثة تظهر في سمات العصر اللغوية ، وجينات الفرد الوراثية ومكوناته الثقافية تظهر في ألفاظه وتراكيبه الأسلوبية . فالأسلوب الذي يتشكل في عصر غيره في عصر آخر ، فلكل إيحاءاته وتوارد خواطره ، وله طرائقه الفنية التي توصله لغايته الجمالية ، والألفاظ الشائعة في عصر لا تلبث أن تنزوي أو تغيب في عصر لاحق ، وقد كان لهذا العصر خصائصه اللغوية ، فمنها المحافظ على اللغة المثالية كالأبيوري ، والحريري ، وابن الخياط ، وأبي الفوراس ، وأغلب الشعراء لاسيما في شعر الجهاد والمناسبات ، ومنهم من شاكل المضمون والفكرة ؛ فشعر القيسراني في الجهاد غيره في الثغريات ، فالأول يميل إلى الجزالة والقوة ، والثاني يمثل الرقة والليونة .

ومنهم من آثر السهولة والواقعية كشعراء الطبع الذين يستقون من المفردات الفصيحة الشائعة ، وآخرون آثروا الواقعية الاجتماعية فجنحوا إلى ألفاظه العامة وتراكيبهم فظهر الابتذال في الألفاظ والتراكيب كمثل شعر بهاء الدين زهير ، ويماثله شعر مجالس اللهو والمجون ، والمنتديات الشعبية .

وتميز العصر بشيوع المصطلحات الدينية ، والعلمية ، وغير ذلك مما سنورده.

ومما يظهر في هذا العصر بعض ألفاظ البذاءة والجنس ، وتكاثرت في شعر المزاح ومجالس اللهو والمعابثة ، غير أننا لا نورد أمثلة لمثل هذه لتقبع في مكانها .

ومن الاستخدام الذي يحرف اللغة الشاعرية عن وظيفتها ، استخدام الألفاظ المبتذلة ، والتراكيب الشائعة على ألسنة العامة كمثل « أصبحت لا شغل ولا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عطلة » و « جملة الأمر وتفصيله » في قول بهاء الدين زهير :

أصبحت لا شغل ولا عطلة مذبذباً في صفقة خاسرة
وجملة الأمر وتفصيله أن صرت لا دنيا ولا آخرة(١)

ومن التراكيب التي تخرج عن التوظيف الشاعري قوله : « ما يبعد أن تجري» ويمثل الانحدار التركيبي للشعر :

أرى عنوان أشياء ما يبعد أن تجري(٢)

ومنه :

أيها الزائرون أهلاً وسهلاً ومرحبا

ومنه :

راح يدعونا التصابي فسمعنا وأطعنا(٣)

بل إنه يستخدم الحوار الشائع بلا توظيف شاعري :

قال : ما ترجع عني ؟ قلت لا ! قال : ما تطلب مني ؟ قلت : شيء

ويطغى الاستخدام الشعبي على أسلوب البهاء زهير حتى ليخرج عن حدود الشعر ويغوص في أعماق النثرية والسطحية ، بل تجاوز ذلك إلى الانحدار بالمضمون أيضاً حيث الذل والخنوع :

أيها الزائرون أهلاً وسهلاً ومرحبا(٤)
لست أنسى جميلكم كلما هبت الصبا
وقليل لمثلكم بسط خدي تأدبا
إن يوماً أراكم ذاك يوم له نبا(٥)

والبهاء زهير يخرج عن إطار الشعر كثيراً في أساليبه وألفاظه ، فمن أين يتأتى

(١) الديوان ١٣٦ .
(٢) المصدر السابق ١٤٢ .
(٣) المصدر السابق ٦،٧ .
(٤) المصدر السابق ٧ .
(٥) البهاء زهير : الديوان ٣٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

للشعر قوله :

يحسن عقلنا أنا ... نصيد الباز بالخرب
وكنا قد ظننا الصُّفر ... عند النقد بالذهب
فلم نظفر بحاجتنا ... وأشقينا على العطب
رجعنا مثل ما رحنا ... ولم نربح سوى التعب(١)

ومنه قوله :

إياك يدري حديثاً بيننا أحد ... فهم يقولون للحيطان آذان
من لي بنومي أشكو ذا السهاد له ... فهم يقولون : إن النوم سلطان(٢)

وبعض الشعراء تأثروا بالحضارة التي يعيشون فيها ، وأنماط الحضارة متألقة في شعرهم كالرقة والليونة وقرب المأخذ ، والبعد عن المستكره الثقيل ، وسرت التراكيب السهلة أو لتقل الشعبية في أدبهم ، ويمثل ذلك ابن سناء الملك الذي خضع لهيمنة الروح المصرية « فدفع الشعر بكلتا يديه تمثلاً قوياً وفي مقدمتها هذه السهولة في الألفاظ والأساليب التي دفع الشعر المصري لكي تتغير طريقته في التعبير ، حتى يكون صدى حقيقياً لبيئته ، وما تموج به سهولها من تناسق في اعتدال ومن صفاء وسماحة وليونة »(٣) ، ونتيجة لذلك فقد ظهر في شعره بعض الألفاظ العامية وانحدار الأسلوب الشعري إلى الركاكة في بعض أبياته : فمن الألفاظ العامية « ياما » بمعنى كثير :

وصوت أغض الطرف عنه ضرورة ... ياما بقلبي منه لما غضضته

منه « الخروج إلى برّا » :

ولو كنت في عدن وأنت بغيرها ... - وحوشيت - آثرت الخروج إلى برّا

« وقد أكثر فيها على شاكلة المصريين في لغتهم الدارجة من تسهيل الهمزة في

(١) المصدر السابق ٤٤ .
(٢) المصدر السابق ٣٤٧ .
(٣) شوقي ضيف ، فصول في الشعر ونقده ١٧٧ ؟

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الكلمات المهموزة مثل كاس وراس ، ومن قصر الممدود مثل سما ، والدوا ، ووقف على الكلمات مراراً بالسكون كما نصنع في عاميتنا ، وتلقانا كلمات أو عبارات كثيرة مما لا تزال تستخدم إلى اليوم مثل « على عيني » ، ومثل « دخل على العشا » ، ومثل « سلام ولا كلام »(١) .

ومن استخدام الألفاظ العامية قول بهاء الدين زهير : « هنيّاً » .

وبهاء الدين زهير يأتي بشعر في واقعية تتحدّر به وتنزلق عن المنزلة الرفيعة للغة الشاعرة :

قال : خدها ، قلت : خذها أنت ، وأشربها هنيّا(٢)

فألفاظه البيت مما يستخدمها الأطفال من عامة الناس ، وأيضاً حور هنيئاً إلى العامية حيث جعلها « بالياء » .

ومنه لفظة « ست » بمعنى السيدة :

واليوم قالوا حرة ست الحرائر في الحجاب(٣)

ومنه لفظة « مجان » :

قد قيل لي إن بعض الناس يعتبني عرضي له دون كل الناس مجان(٤)

ومن المولد : كلمة الزبون التي عاشت في العصر الحديث :

فاخترتكم لمودتي ولكم عندي زبون(٥)

أما استخدام المسميات فيكثر في شعر تلك الأحقاب كا (الجواذبة) في قول البهاء زهير :

قد شوينا خروفاً وتحته جواذبة(٦)

---

(١) المرجع السابق ١٨٣ .

(٢) البهاء زهير : الديوان ٧ .

(٣) المصدر السابق ٤١ .

(٤) المصدر السابق ٣٤٧ .

(٥) المرجع السابق ٣٥٧ .

(٦) الديوان ٣٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

• والجهاد الإسلامي ضرورة ملحة على المسلمين دفاعاً عن دينهم وديارهم. والجهاد فداء بالحياة والمال وهما أعز ما يملكه الإنسان ، ولولا قوة الدافع إليه لما بذل ماله ونفسه في سبيله ، وحياة الحروب تؤطر الأمة بفكرها وأدبها في إطار الإيمان وتصغر ما دون ذلك فتتوقد أفكاره وألفاظه وتراكيبه مما جعلها تتناثر في ثنايا شعر الجهاد فكثرت المصطلحات الإسلامية ، مثل الإسلام ، الشرك ، الكفر، الإيمان ، الجهاد . ولم يقتصروا على الإسلامية فحسب بل يذكرون النصرانية واليهودية للمقارنة وبيان أفضلية الإسلام ، شأن شعر الجهاد في صدر الإسلام في الفتوحات الإسلامية ، الذي تتمثل فيه هذه الظاهرة تماماً .

وابن منير يمتدح نور الدين ويكثر من الأسماء الإسلامية والمصطلحات ، الدين والكوثر ، والنفاق ، ونار ، والمحشر ، واستسعرت ، والمشعر والكفار والكفر :

يا نور دين الله وابن عماده ... الكوثر بن الكوثر الكوثر
هم شيدوا صرح النفاق وأوقدوا ... ناراً تخش بهم غدا في المحشر
أذكو بجلق حرها واستسعرت ... لفحاتها بين الصفا والمشعر
شردتهم من خلفهم مستنجدا ... ما ظاهر الكفار من لم يكفر(١)

وكقول القيسراني :

سمت قبة الإسلام فخراً بطوله ... ولم يك يسمو الدين لولا عماده
ليهن بني الإيمان أمن ترفعت ... رواسية عزا واطمأن مهاده(٢)

ويقول :

أما آن أن يزهق الباطل ... وأن ينجز العدة الماطل
وهل يمنع الدين إلا فتى ... يصول انتقاماً فيستأصل
وجاهد في الله حق الجها ... د محتسب بالعلى قافل(٣)

---

(١) أبو شامة : الروضتين ١/٧٧، ٧٨ .
(٢) المصدر السابق ١/٣٧ .
(٣) المصدر السابق ١/٤٩ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والتاريخ يزخر بالأحداث التي تحكي الصراع بين التوحيد والإلحاد ، وبين الحق والباطل ، والخير والشر ، والأحداث التاريخية ، وقد ناصر الإسلام والقرآن الكريم التوحيد والحق والخير وقص قصص الوعظ ، فكانت أسماء الأنبياء رمزاً للتوحيد ورمزاً لأنواع الصراع البشري . وشعراء المرحلة استلهموا تلك التوجيهات الربانية ، وتدافعت إلى تجاربهم ليعبروا بها .

والشاعر ابن منير من أولئك الذين ربطوا سير الأنبياء والتمسوا منها العبرة، وهو يشبه الصلاح في عماد الدين ، ونهوضه للجهاد وحمل راية الإسلام بداود عليه السلام ، ويشبه نور الدين في متابعة أبيه على الحق ومجاهدة الصليبيين بسليمان بن داود عليهما السلام :

قال أباك فهل سليمان يرى ... في الدست مهَّد ملكه داود

ويشير إلى التمادي في الضلال ، وعدم العبرة بالرسل لقوم عاد وثمود :

أودوا كما أدوى بعاد غيها ... وغووا كما استغوى الفصيل ثمود

إن آلموا عقراً فإنك صالح ... أو آلموا غدراً فإنك هود(١)

وابن منير يذكر الأماكن المقدسة في مدائحه :

قد استشعرت دين الله عزا ... تتيه له المشاعر والحجون(٢)

وقرين ابن منير الشاعر القيسراني ، تتكاثر في شعره المصطلحات الإسلامية ، والأماكن وغيرها ، فهو يوظف الطهر من الأحداث فيرمز إلى طهر المدن ونزعها من يد الصليبيين ، ويشير إلى الفروض ومعراج الرسول ﷺ ، والمساجد ، والشفع والوتر : يقول مخاطباً نور الدين :

كأني بهذا العزم لا فل حده ... وأقصاه بالأقصى ، وقد قضى الأمر

وقد أصبح البيت المقدس طاهراً ... وليس سوى جاري الدماء له طهر

---

(١) المصدر السابق ١/٨٥ .

(٢) المصدر السابق ١/٨٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد أدت البيض الحداد فروضها فلا عهدة في عنق سيف ولا نذر
وصلت بمعراج النبي صوارم مساجدها شفع وساجدها وتر(١)

وقد وظف هذه الأسماء التي تشير إلى مقدسات إسلامية ، ومضامين إسلامية كي تستثير في النفوس كوامن الإيمان ، فكل مسلم يسعى إلى الطهر والبعد عن النجاسة ، والكل يودي الفروض التي تطلب منه ، ومنها فرض الجهاد . والنذر أمر واجب على من تعهد به ، ومعراج النبي ﷺ ذلك الحدث الذي يعلق بنفوس المسلمين عامة ، والنبي وأسري به فلا عجب إذن ألا يظهر المسلمون ؟! .

ولأن الشعراء ينهلون من واقعهم المضموني واللفظي ، فقد دخلت ألفاظ أعجمية في الشعر ، فالشاعر الذي يتحدث عن بطولات عماد الدين ، ونور الدين ، وصلاح الدين ، ومواقفهم القيادية أمام الصليبيين ، لا مناص له من إيراد أسماء قادتهم وأحوالهم وأسلحتهم ومن هنا تكاثرت ألقابهم أسماؤهم مثل البرنس والقمص والريد والترم وإرناط . ومورد آخر للألفاظ الأعجمية يتمثل في التمازج بين الشعوب ، فقد غلب الجنس التركي على القيادة وهيمنوا عليها فأخذ بعض الناس يحتذيهم تقرباً ، ويدخل أسماءهم .

وأيضاً ، فإن كثيراً من الرقيق كان يدخل البيوت ، فتشيع ألفاظهم ، كما أن التجاور على الأطراف جعلهم يستخدمون ألفاظاً أعجمية ويدخلونها في شعرهم.

والتمازج بين الشعوب في المدن الساحلية بين العرب والإفرنجة كان داعياً لدخول تلك الألفاظ الأعجمية في الشعر .

ومن الألقاب التي ظهرت : البرنس ، فقد حاربه نور الدين طويلاً حتى ظفر به وقتله وورد في شعر الشعراء ومنهم المهذب بن الزبير :

قتل البرنس ومن عساه أعانه لما عتا في البغي والعدوان

(١) المصدر السابق ١/٧٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأرى البرية حيـــن عـــاد برأســـه مُرَّ الجنى يبـــــدوا علـــى المُـــرَّان(١)

وكثرة الأسماء التركية في السلطة مما دع إلى إيرادها كقول العماد يمدح المظفر عمر بن شاهنشاه أخا صلاح الدين :

عمر بن شاهنشاه مـــن هـــو عامـــر أركان ملك الشام حيـــن تضعضـــا(٢)

والعماد الأصبهاني أكثر من أسماء ملوك وأمراء الفرنج بعد فتح بيت المقدس:

تسره المنسر الديوي يلقى سلاحه وينساق ما بين السبايا ملهدا

ألم تر للسلطان صدق نذره دم الغادر الإبرنس فاقيد أربدا

وباشره بالقتل وسط جنابة وعاينه الكند المليك فارعدا

وضاقت بنفس القمص الأرض مهربا فأدركه الموت المفاجئ مكمدا(٣)

والقيسراني يشير إلى دعوى الصليبيين أن المسيح سينزل في بيت المقدس ، وقد أتوا لينزل عليهم :

لقد كان في فتح الرها دلالة على غير ما عند العلوج اعتقاده

يرجون ميلاد ابن مريم نصرة ولم يغن عنهم القوم عنه ولاده(٤)

ويقول :

أرى القمص يأمل فوت الرما ح ولا بدّ أن يضرب الثائل

وأسماء وألقاب الأجناس الأخرى يوردها الشعراء كقول عبدالمنعم الجلياني في معركة حطين ٥٨٣هـ :

مالي أرى ملك الإفرنج في قفص أين القواضب والعسّالة السّمر

والإستبتار إلى الذاوية التأموا كأنهم سدّ يأجوج إذا استجروا

يا وقعة التل ما أبقيت من عجب جحافل لم يفت من جمعها بشر

---

(١) الديوان ٨٨ ، تحقيق د. محمد بن عبدالحميد سالم ، هجر للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ .

(٢) الديوان ٢٨٨ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ١١٨/٢ .

(٤) المصدر السابق ٣٨/١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يا ضحى السبت ما للقوم قد سبتوا تهوّدوا أم بكأس الطعن قد سكروا
ويا ضريح شعيب ما فم جثموا كمدين أم لقوا رجفا بما كفروا
حطوا بحطين ملكاً كافياً عجبا في ساعة زال ذاك الملك والقدر
وعاين الملك الإبرنس في دمه فمات حيّاً وحيّاً وهو يعتذر(١)

وأسماء وألقاب الأجناس الأخرى من الشعوب الإسلامية تداولها الشعراء في قصائدهم لاسيما العنصر التركي الذي له الهيمنة الإدارية ، يقول ابن سناء الملك :

بدولة الترك عزت ملة العرب وبابن أيوب ذلت شيعة الصلب(٢)

ومنه قول ابن منير في صفات الروم :

صفر بحد السيف دار أشائب عقلوا جيادك عن بنات الأصفر(٣)

ولكثرة دخول الأتراك عن طريق الهجرة ، الرقيق ، فإن بعض ألفاظهم تند على ألسنة الشعراء . ولأن أسامة بن منقذ كان كثير الأسفار للمدن القريبة من الروم فإنه استخدم ألفاظهم في قلة ، ثم أن الحروب الصليبية أجبرت الشعراء على استخدام أسمائهم ، فأسامة بن منقذ يجتاز قرية من أعمال (بالوا) تسمى لغى الكوم وفلاحوها أرمن لا يعرفون العربية وفيهم يقول :

نزلت بأرض (بالوا) وهي حصن علا ، حتى تمنطق بالنجوم
بروم ، لا تلائمهم طباعي وما العربي ذو إلف بروم
سلامهم (هزار باريك) ماذا شبيه سلام خزّان النعيم
وإن كلمتهم قالوا : (أشكديم) ولست بعالم معنى (اشكديم)
وما تسوى (لغى كوم) وإن هي سجا ليلي بها وصفا نسيمي(٤)

وكيما لا يظن ظان أن أسامة يكثر من هذا اللون لكثرة كلمات هذه القطعة

---

(١) المنشرات ١٣٧، ١٣٨ ، تحقيق عبدالجليل حسن عبدالمهدي ، دار البشر ١٤٠٩هـ .
(٢) الديوان ٩ .
(٣) أبو شامة : الروضتين ١/٧٧ .
(٤) الديوان ٢٠٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من الدخيل ، فإني قد تتبعت ديوانه فلم أعثر إلا على النزر اليسير من الدخيل في ديوانه(١) .

ومن ذلك قول ابن منير :

تبرنس منهـــا البرنـــس الثيـــا ب وحلته مـــن وقـــع أحلابهـــا(٢)

وللقيسراني :

كما أهدت الأقدار للقمـــص أســـره وأسعد قرن من حـــواه لك الأســـر(٣)

(١) انظر : المصدر السابق .

(٢) أبو شامة : الروضتين ١/٧١ .

(٣) المصدر السابق ١/٧٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الأول

بنـــــاء القصيدة

- الطول والقصر .
- مضمون المقدمة .
- المقدمة الرمزية .
- حسن التخلص .
- موضوعات القصيدة .
- الخاتمـــة .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بناء القصيدة :

والشعراء المحترفون المقلدون التزموا بمناهج الشعر القديمة في إطارين هما : بناء القصيدة ، وتعدد الأغراض في الديوان عامة .

فالقصيدة تستهل بمقدمة مختلفة الموضوعات متواصلة الوشائج ، فالمقدمة إيحاء بموضوع القصيدة ، أو ترمز له . وقد أدرك تلك العلاقة الأوائل ، فابن رشيق يروي عن الحاتمي : « من حكم النسيب الذي يفتتح به الشارع كلامه ، أن يكون ممزوجاً بما بعده من مدح وذم غير منفصل عنه ، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر ، وباينه في صحة التركيب غادر الجسم عاهة ، تتخوّن محاسنه ، وتُعفّي معالم جماله»(١) .

فابن الدهان (ت ٥٨١هـ) يقول قصيدة على لسان الحكيم بن النقاش يمدح فيها ناصر الدين ، ويعرض بوعد مطله النواب فيستهل القصيدة بمقدمة تدور حول مطل الحبيب مما يشير إلى حدث القصيدة :

من مجيري من ظالم مستطيل ... ومعيني على اقتضاء المطول

حسن ليس محسناً بمحب ... وجميل ما عنده من جميل

لج قلبي وقد لج في الإعرا ... ض عني ولجّ فيه عذولي

أبداً ظامئ إلى خمر ثغر ... ما إلى سلسبيله من سبيل

ويجمع بالإشارة بين رسول المحبوب ، ورسول الممدوح فيقول :

أبداً يرجع الرسول إليه ... مثل ما عاد من دمشق رسولي

ثم يعقبه بالتصريح إلى مطل النواب:

منعوه الذي تطوّلت يا مو ... لاي بعد المطال والتطويل(٢)

---

(١) العمدة ١١٧/٢ ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، الطبعة الأولى بيروت ١٩٧٢م .

(٢) الديوان ١٠٢، ١٠٣، تحقيق عبدالله الجبوري ، بغداد دار المعارف ، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ ، ١٩٦٨م .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والشعراء يشاكلون بين هدف القصيدة ومضمون النسيب ، فسبط التعاويذي يغضب منه الوزير عضد الدولة لمدح منافسه ، فيستعطفه ويعتذر إليه بهذه القصيدة فيستهل بالاعتذار لمحبوبته التي أضناه الشوق إليها ، واعتراه الأسى بعد هجرها وأنها تناست العهد القديم ، وكان يرجو دوام الود في القرب والبعد:

أبثكم أني مشوق بكم صبٌّ وأن فؤادي للأسى بعدكم نهب
تناسيتم عهدي كأني مذنبٌ وما كان لي لولا ملالكم ذنبُ

فكأنه يشير إلى أن الممدوح نسي المدائح التي دبجها التعاويذي فيه ويقول :

وقد كنت أرجو أن تكونوا على النوى كم كنتم أيام يجمعنا القرب
وقد كانت الأيام سلمى وثملنا جميع فأمست وهي لي بعدها حرب
وما أدّعي أني على الحب صخرة وأن فؤادي لا يحن ولا يصبو
ولكنها الأيام تعصف بالفتى إلى غير ما يهوى زعازعها النكب
وقد يصحب القلب الأبي على النوى ويسلو على طول المدى الهائم الصَّبُّ
وفي كل دار حلّها المرء جيرة وفي كل أرض للمقيم بها صحبُ
وإن عاد لي عطف الوزير محمد فقد أكثب النائي ولان لي الصعب
وزير إذا اعتل الزمان فرأيه هناءٌ به تشفى خلائقه الجرب(١)

فهو إذن يريد عطف الأمير ووصله ورضاه ، فوظف الاستهلال كي يرمز لمضمون قصيدته ، فصدود الوزير يشبه صدود المعشوق ، واعتذار الشاعر لهما متشابه .

وهم أجادوا في حسن التخلص كما وهو واضح من الأبيات السالفة .

ومن حسن التخلص أيضاً وصف المحبوبة بالبخل والانتقال منه إلى كرم الممدوح كانتقال سبط التعاويذي في مجد الدين بن الصاحب فقال بعد اثنين وعشرين بيتاً :

(١) الديوان ٣١، ٣٢ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ولئن بخلت وما على الـ ـبيض الحسان البخل عاب
فالصاحب الخرق الجوا د له العطايا والرغاب(١)

ومنه قوله في مدح الخليفة بعد ثلاثين بيتاً في المقدمة :

صب إذا ذكر الفراق تصاعدت أنفاسه وتحادرت عبراته
ومن العجائب أن أثواب الصِّبا بليت فزادت جدَّة صبواته
ولقد أعاد له الشباب قشيبةً أبراده موشيةً حبراته
بذل الخليفة للنوال وعطفُهُ وحنوه متابعاً وصلاته(٢)

ومنه حسن تخلص ابن عُنين في مدح العادل بعد خمسة عشر بيتاً :

كم ليلة فالبحر جبت ظلالها عن واضح الصبح المنير فأسفرا
في فتية مثل النجوم تسنموا في اليد أمثال الأهلة ضُمَّرا
قالوا وقد خاط النعاس جفونهم أين المناخ فقلت جدوا في السُّرى
لا تسأموا الإدلاج حتى تدركوا بيض الأيادي والجناب الأخضرا
في ظل ميمون النقيبة طاهر الـ أعراق منصور اللواء مظفرا
العادل الملك الذي أسماؤه في كل ناحية تشرَّف منبرا(٣)

وهم يعددون أغراضهم ، ويستطردون في الأوصاف ، وسيما في التغزل والرحلة ، ومحاسن الممدوح ، ويختمون القصائد بالدعاء للمدوح بثبات المجد والملك ، وطول العمر :

وعش مُخلِقاً ثوب الليالي مجدّداً لباس المعالي في بقاء وتخليدِ
مظاهر عزٍّ لا يرثُّ جديده وملكٍ على رغم العدى غير محدود(٤)

وكثر ختم القصائد بذكر محاسن القصيدة والقوافي ، وأنه مدح بقصيدة

---

(١) سبط التعاويذي : الديوان ٥٥ .
(٢) المصدر السابق ٦٥ .
(٣) ابن عنين : الديوان ٥ ، تحقيق مردم بكل ، الطبعة الثانية ، دار صادر .
(٤) سبط التعاويذي : الديوان ١٠٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

جديدة(١) :

نطقت بعلم فيك لا بفراسة ... فلم أطر في وصف ولم أتزيد
فمن كان في مدح الرجال مقلداً ... فإني في مدحيك غير ملقد(٢)

وفي ميادين الجهاد أعرضوا عن المقدمات فأبوا المجد المسلم بن الخضر بن قسيم الحموي يمتدح عماد الدين زنكي عام ٥٣٢هـ ، فيباشر المدح ويستهل قصيدته بقوله :

بعزمك أيها الملك العظيم ... تذل لك الصعاب وتستقيم
ألم تسر أن كلب الروم لما ... تبين أنك الملك الرحيم
فجاء يطبق الفلوات خيلاً ... كأن الجحفل الليل البهيم(٣)

وفي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة يمدح القيسراني عماد الدين زنكي بفتح حصن بارين ويستهل قصيدته :

حذار منا وأني ينفع الحذر ... وهي الصوارم لا تبقي ولا تذر
وأين ينجو ملوك الشرك من ملك ... من خيله النصر لا بل جنده القدر(٤)

وله في فتح الرها عام ٥٣٩هـ قصيدة يمدح بها عماد الدين استهلها بقوله :

هو السيف لا يغنيك إلا جلاده ... وهل طوق الأملاك إلا نجاده(٥)

وله أيضاً :

أما آن أن يزهق الباطل ... وأن ينجز العدة الماطل
فلا تخفلن بصوت الذنا ... ب وقد زأر الأسد الباسل(٦)

وابن منير أيضاً يعرض عن المقدمات ويستهل قصائده بالمدح مباشرة ولا

---

(١) المصدر السابق ١١٥ .
(٢) المصدر السابق ١١٥ .
(٣) أبو شامة : الروضتين ١/٣٢ .
(٤) المصدر السابق ١/٣٤ .
(٥) المصدر السابق ١/٣٧ .
(٦) المصدر السابق ١/٤٩ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

سيما ما يشير إلى الجهاد شأنه شأن القيسراني ، فهو يمدح نور الدين بعد معركة الجولان بقصيدة أولها :

ما برقت بيضك في غمامها إلا وغيث الدين لابتسامها(١)

الطول والقصر في بناء القصيدة :

المتخصص في دواوين القرنين السادس والسابع الهجريين يجد فيضاً من القصائد الشعرية . وحين يصنفها يجد مطولات ، ويجد قصائد طويلة ، وقصائد متوسطة . والدواوين تتفاوت أيضاً من ناحية الكثرة والقلة ، وبناء القصيدة تأثر بمؤثرات مختلفة من حيث البيئة ، وشخصية الشاعر ، والمكان والزمان ، والسلم والحرب ، ولذلك اختلف بناء القصيدة طولاً وقصراً . ولعلنا هنا نسير في رحلة عبر الدواوين الشعرية . لكن يجمل بنا نتيجة لمعايشة تلك الدواوين الشعرية أن ننظر للقصيدة خارج ميادين الجهاد أي في العراق وخراسان ، وشبه الجزيرة العربية، وننظر إلى إليها في بيئتها الحربية داخل ميادين الجهاد في الشام ، ومصر . وليس هذا التقسيم مسترسلاً على جميع الشعر ولا على جميع الشعراء ، فإن بعض الشعراء لم يحصر شعره من زاوية الحروب ، كابن سناء الملك ، والبهاء زهير وابن النبيه ، وابن عُنين وبعضهم استوقفته الحرب كابن منير الطرابلسي ، والقيسراني ، وأسامة بن منقذ ، وعبدالمنعم الجلياني ، ولهؤلاء شعر خارج عن دائرة الحرب أيضاً .

ونحن لما ندلف إلى جوانب القصيدة كي نستبين معالم الطول والقصر ، فإن ذلك يستدعي توزيع القصيدة إلى موضوعاتها حتى ندرك لماذا هذا الطول أو القصر وما ممرته ، وفي أي الموضوعات منها الإطالة أو تفاوت الشعراء ، وأي

(١) المصدر السابق ١/٨١ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الموضوعات أكثر رححاناً مضمونياً وفنياً ، وهل هناك موضوعات طالت عما سبق ، أو كانت جديد في طرحها . ومن هنا لابدَّ لنا من تأمل القصيدة ، ونتيجة لذلك فإن القصيدة في بلاد العراق وحول الخلافة ، بل عند سائر الشعراء الذين لم يرتبطوا بقادة الجهاد كان بناؤها يقوم على العناصر الآتية :

١ - المقدمة ، ٢ - حسن التخلص ، ٣ - المدح ، ٤ - طلب النوال ، ٥ - الإهداء ، ٦ - الخاتمة . وسأحاول إن شاء الله أن أضرب بعض الأمثلة الإحصائية لطول القصيدة والطول للموضوعات الداخلية ، أو حالة القصر ، وأنتقي أمثلة من أشعار بعض الشعراء .

أما القصيدة داخل ميادين الجهاد فإن بناءها يقوم على الموضوعات الآتية :

١ - مقدمة قليلة الأبيات في بعض القصائد ، وكثيراً ما يعرضون عن المقدمة، ٢ - المدح ، ٣ - ووصف المعركة ، ٤ - التحريض على الجهاد ، وصف الحصون وآلة الحرب ، ٦ - هجاء الأعداء ، ٧ - الخاتمة .

القصيدة في غير ميادين الجهاد :

في العهد المتزامن مع بداية الحروب الصليبية ، أخذت القصيدة تطيل في المقدمات كما يحدث عند الأبيوردي المتوفى سنة ٥٠٧هـ ، وابن الخياط المتوفى سنة ٥١٧هـ ، وأبي الفوارس حيص بيص المتوفى سنة ٥٧٤هـ .

فالأبيوردي(١) يعيش في مرحلة الركود الإسلامي في ظلال الدولة السلجوقية ولا شأن للمسلمين إلا الخلاف بين الوزراء ؛ فليس هناك ما يلهم الشعراء ، وليس هناك ما يثير كوامن تجاربهم ، لذا فإنهم عوضوا عن ذلك بالمقدمات الطوال . فهذا الأبيوري يمتدح الخليفة المقتدي بقصيدة تبلغ تسعة وخمسين بيتاً ، وتغلب عليها المقدمة التي أخذت مساحة كبيرة منها ، فشارفت على الأربعين بيتاً

(١) الديوان ١/١٠٣ حتى ١١٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مطلعها قوله :

بعيشكما يـــا صاحبـــيَّ دعانيـا عشيَّة شام الحـــيُّ برقـــاً يمانيـــا

والمقدمة يخاطب فيها صحبه ، ويحدو لهم بذكريات معشوقته وأطلالها ، ويصفها من خلال الظبا ، ثم يعرج على شكوى الزمان في بيته الخامس والثلاثين وتستغرق الشكوى خمسة أبيات ويمدح الخليفة في البيت الحادي والأربعين :

بأروعَ من آل النبـــي ، إذا انتمـــى أفاض على الدنيا عـــلا ومساعيـــا(١)

وله قصيدة في مدح الخليفة المقتدي مكونة من اثنين وأربعين بيتاً . منها خمسة عشر بيتاً جعلها مقدمة للمدح(٢).

وله قصيدة فيمدح الخليفة المستظهر بالله استغرقت المقدمة سبعة عشر بيتاً من مجمل أبياتها الثمانية والثلاثين(٣) ، ومدحه في اثني عشر بيتاً ، وختمها بطلب النوال في عشرة أبيات .

وله قصيدة فيه أيضاً مكونة من ستة وأربعين بيتاً استغرقت المقدمة عشرين بيتاً منها(٤). ولكن الأبيوردي لما يعرض عن المدح ، ويعالج بعض القضايا الذاتية أو يفخر بقومه ؛ فإنه ينهل من معين ثر فياض متدفق ، فلا يحتاج إلى مقدمة غزلية بل يعوض عنها برحلة طويلة يذكر فيها معاناته التي هي جزء من موضوع القصيدة الذي يدور حول الشكوى تلك القصيدة اللامية التي يشكو فيها ويذم بنيه ، ويفخر بقومه قد بلغت سبعة وستين بيتاً ومطلعها :

أثيرها وهـــي تنتعـــل الظِّـــلال وإن ناجـــت مناسِمُهـــا الكـــلال(٥)

ولأن الأبيوردي عربي صليبة ؛ فهو يتواصل مع الأمراء العرب ، ويحفظ لهم

---

(١) المصدر السابق ١/١١٦ .

(٢) المصدر السابق ١/١٢٤ .

(٣) المصدر السابق ١/١٣١ .

(٤) المصدر السابق ١/١٣٩ .

(٥) المصدر السابق ١/١٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

صلة القرابة ويودهم ، ويؤثرهم بالمدائح التي تفيض بمضامين المُثل العُليا ؛ فهو يمدح سيف الدولة أبا الحسن صدقة بن منصور بن دبيس الأسدي بقصيدة طويلة تبلغ مائة وبيتاً واحداً ولا تتجاوز مقدمتها خمسة وعشرين بيتاً(١) .

ومثله قصيدته الميمية في أحد الأمراء العرب التي استهلها بقوله :

الورد يبسم والركائب حُوَّم والسيف يلمع والصدى يتضرم(٢)

حيث استهلها بالرحلة وعرج في أبيات خمسة على ذكرى غزليه ثم شرع يذم الزمان ويمدح صديقه في قصيدة عدد أبياتها خمسة وستين بيتاً ، وتتضح قلة أبيات المقدمة إذا ما قورنت بقصيدة فيمن أعرض عن ذكر اسمه ، فمدحه بالقصيدة المكونة من ستة وأربعين بيتاً جعل مقدمتها من عشرين بيتاً(٣) .

وديوانه ينهج نهج هذا الطول في المقدمة ، وإن تفاوتت في قصائده التي يمدح بها الخلفاء وغيرهم من الوزراء ، والتي يمدح بها الأمراء العرب فقصائده في الخلفاء تكون مقدماتها تقارب النصف وعدده لا يتجاوز الخمسين بيتاً في الأغلب، أما قصائده في الأمراء فإن أبيات المقدمة في الأغلب لا تتجاوز العشرين بيتاً من قصائد لا يقل عدد أبياتها عن خمسة وستين بيتاً(٤) .

وملخص القول : أن قصائده متوسطة الطول ، فأغلبها ما بين الأربعين بيتاً والخمسين ، وأطولها لا يتجاوز السبعين ومن النادر أن تبلغ واحداً ومائة بيت(٥)، وأن المقدمة تتجاوز العشرين بيتاً وحديثه فيها يدور حول الأطلال والغزل ، والرحلة .

---

(١) المصدر السابق ١/١٥١ .

(٢) الديوان ١/١٧٠ .

(٣) المصدر السابق ١/١٨١ .

(٤) الديوان ١/٤٥٠ .

(٥) الديوان : ١/١٦٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقصائده في الأمراء العرب أطول(١) من قصائده في خلفاء بني عباس لأن أمراء العرب من الأسديين لهم حروبهم المستمرة ، ولأنه يميل إلى العنصر العربي الذي ينافس السلاجقة على السلطة وتولية الخلافة ، ولأنه يتمنى سيادة العنصر العربي الذي أخذ يخفت ضوؤه . وطول المقدمة عنده نتيجة لحب ذاته فهي معبرة عنها ، ولأنه يريد قصيداً مطولاً ، ولا يجد موضوعاً يمده بالمضامين من أعمال ممدوحه .

وهو يمدح في أبيات لا تتجاوز العشرين عند الخلفاء ، ولكنها تطول عند أمراء القبائل(٢) ، ويختم قصيدته بأبيات يهدي فيها قصيدته ، ويطلب النوال وربما ختم بالمدح أيضاً(٣) .

والأرجاني شاعر طويل النفس ، وله ديوان ضخم مكون من ثلاثة مجلدات وجلّ قصائده من المطولات التي تجاوزت سبعين بيتاً . وبالإحصاء الدقيق :-

فإن له ثمانية وخمسين قصيدة كل منها من أربعين بيتاً إلى ٦٩ بيتاً ، وخمس وسبعون قصيدة بكل منها من سبعين بيتاً إلى ٩٩ بيتاً ، وله خمس عشرة قصيدة من مائة بيت إلى ٢١٦ بيتاً(٤)، ثلاثة منها ، وهي أطولها على بحر الرجز .

ومقدماته تدور حول معاناة الفراق لمحبوبته ، وربما يرمز بها إلى هجران أهله وأسرته ، وربما قدم بشكوى الزمان ، ثم يتغزل(٥) . وهو يأتي على مضامين المدح من حسن الطلعة ، والشجاعة ثم يمدحه بالكرم ، ويربط حال الشاعر بفضل الممدوح ثم يختم القصيدة بإهداء القصيدة في ثمانية أبيات أو أكثر(٦) .

---

(١) المصدر السابق ١٦٩/١ .

(٢) الديوان : ١٧٧ .

(٣) المصدر السابق ١٨٠ .

(٤) انظر : فهارس الديوان ، الجزء الثالث .

(٥) انظر : الديوان ١٤٩/١ ، وانظر ١٦٣ .

(٦) انظر : الديوان ١٣٢١/٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن خلال الإحصاء يتبين لنا قدرته على الإطالة بل لا مثيل له بين الشعراء المعاصرين له ، ويؤخذ عليه أنه لم يفصح عن الصراع الداخلي بصراحة الأحداث، لكننا لا نعدم تمثيله من خلال تحليل المواقف وإيماء الشعر ، وعلى حد علمي أنه أول من خص الإهداء بأبيات متعددة في خاتمة القصيدة ربما تتجاوز عشرة أبيات، وهو يزهو بقصيدته :

بدائع لو قَدُمَتْ في الزمان رواها من الحسن فحلا تميم(١)

ويقول في أخرى :

جاءتك من صوب المعاني روضة قد جمعت زهر الكلام المنتخب(٢)

وملخص القول : أن طول النفس عند الأرجاني يأتي من تكاثر المعاني وتوليده لها في المقدمة أولاً ، فهو يفرعها إلى غزل ورحلة وإلى شكوى وحكم ، ثم يطيل الوقوف عند المدح فيحصي الأعمال الفاضلة ، وصوراً كثيرة من الكرم، وأفعال الشجاعة ، وكلها تدور حول مضامين عامة ، وليست بخاصة متعلقة بأعمال الممدوح وإنجازه . وربما له عذر ونحن نلوم ، فقد عاش في عصر السلاجقة المتأخرين الذي كثرت فيه الحروب الداخلية بينهم ، كما يمثله قوله :

والأرض طراً أصبحت مبعةً لا شبر إلا وبه حرب تُشب(٣)

فلو وصف الأحداث مباشرة وناصر هذا لوقع في قبضة أحدهم ، ومن أسباب إطالة القصيدة الاستطراد الذي يداخل مضمونها ، وهذه الظاهرة في أغلب موضوعاته الشعرية .

ومن المقدمات الطويلة التي تدور حول النسيب والرحلة ، قصيدة الأرجاني الطائية التي يمتدح فيها وزيراً من ولد نظام الملك فالقصيدة بكاملها خمسة وستون

---

(١) الديوان ٣/١٣٢١ .

(٢) المرجع السابق ١/١٦٢ .

(٣) المصدر السابق ١/١٥٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بيتاً استغرقت المقدمة تسعة وعشرين بيتاً استهلها بقوله :

سرى ولثام الصبح قد كاد ينحطُ خيال تسدى القاع ، والحي قد شطُّوا(١)

وله أيضاً قصيدة عينية طويلة تبلغ اثنين وثمانين بيتاً خص المقدمة بستة وثلاثين بيتاً(٢)، وجلّ مقدماته تقترب من هذا العدد .

ونحن لا نعدم قصر المقدمات في بلاد واسط ، فالشاعر الكمال أبو عبدالله الحسين بن عبدالباقي بن حرّاز يمتدح العماد الأصفهاني(٣) عام ٥٤٤هـ ، لما تولى الوزارة بقصيدة جعل مقدمتها من أربعة أبيات في الارتحال :

يا راكباً ، يطوي البلاد بحسرة يدني البعيد ذميلها ووجيفها(٤)

وشعراء الشام أقل ميلاً إلى طول المقدمات ، وربما يعود ذلك لبعدهم عن دار الخلافة والوزراء . فالشاعر ابن الخياط الدمشقي المتوفى عام ٥١٧هـ(٥) يمتدح عضب الدولة أبق بن عبدالرزاق في قصيدة صقلها في أربعين عاماً(٦) يستهلها بقوله :

خذ من صبا نجد أماناً لقلبه فقد كاد رياها يطير بلبه

وإياكما ذاك النسيم فإنه متى هبَّ كان الوجد أيسر خطبه(٧)

وتبلغ مقدمتها عشرين بيتاً من جملة أبيات القصيدة الستة والسبعين . وله قصيدة في مدح فخر الملك أبي علي عمار بن محمد بن عمار بطرابلس مكونة من تسعة وخمسين بيتاً استغرقت المقدمة ثمانية وعشرين منها(٨) .

---

(١) ديوان الأرجاني ٨٥١/٣ .

(٢) المصدر السابق ٨٩٣/٣ .

(٣) انظر : خريدة القصر وجريدة العصر ٤٥٠/٢ .

(٤) المصدر السابق ٤٥٧/٢ .

(٥) المصدر السابق ، شعراء الشام ، دمشق ١٤٢ .

(٦) المصدر السابق ١٤٥/٦ .

(٧) المصدر السابق ١٤٥/٦ .

(٨) المصدر السابق ١٥٤/٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقصيدته في جلال الملك علي بن محمد بن عمار:

أمني النفس وصلا من سعاد وأين من المنى درك المراد

بلغت تسعة وأربعين بيتاً استغرقت المقدمة أحد عشر فقط(١) .

وقصيدته القافية في أبي الذواد المفرج تبلغ ستة وسبعين بيتاً عشرون منها مقدمة ، وبعد هذه المقدمة يمتدح عمار بن عمار لكنه لا يلبث أن يعود لوصف رحلته قاصداً هذا الملك ، ثم يعود للمدح بالكرم ويجعله متكفلاً بالأرزاق :

إلى ربع عمار بن عمار الذي تكفل أرزاق العباد بجوده

ثم يصفه بالصباحة والوضاءة . ثم يعود إلى علو شأن شعر الشاعر بمدح ممدوحه .

والواقع أن ابن الخياط يقف عند المدح طويلاً غير أنه يغترب بأوصاف المدح إلى التراث وإلى القيم المتعارف عليها شأنه شأن الأرجاني ، فكلاهما اغترب بمضمون مدح عن واقع حياة الممدوح لأمرين اثنين ، أحدهما : لنضوب أعمال البطولة فلا قناعة عند الشاعر بأعمال الممدوح ، وثانيهما : تقية عن ذكر الحرب مع خصومه المجاورين له من الأمراء العرب والعجم ، حتى لا يقع تحت غضب أي منهم .

ثم هو يفرع مضامين المحامد تفريعاً طويل النفس ، يضفي عليها أسلوب التقابل لكننا نفتقد المضمون الناجم عن شجاعة في موقف مخصوص ، فهو يجمع صفات المدح من شجاعة وكرم وحلم ، ويفصل صورها ، حتى أن القصيدة لا تحمل في مجملها صفة الممدوح وعلاقته بدمشق وأحداث دمشق مع الممدوح حاكم دمشق (عضب الدولة ثم في العشرة الأبيات الأخيرة يلمح بقدرته الشاعرية ، وإخلاصها للممدوح(٢)، لكنه لم يصرح بالإهداء كتصريح الأرجاني .

---

(١) المصدر السابق ٦/١٦٠ .

(٢) خريدة القصر : شعراء دمشق ١٤٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وموضوع المدح في هذه القصيدة يجري على سنن القصائد الأخرى ، فهو يطيل فيه ويفرعه ، لكنه يختم القصيدة بما يشبه الأهداء .

خذها كما حياك نور خميلة خطر النسيم بها ضحى متفتقاً(١)

وقصيدته البائية في مدح الأمير أبي الحسن علي بن مقلد بمن منقذ خرجت عن تقليد المقدمة الطللية والغزلية إلى الحديث عن النفس مع أنها بلغت أربعة وخمسين بيتاً(٢) .

ثم هو يمدح آل منقذ كلهم ويفيض في ذلك كثيراً ، ثم يمدح صاحبه بحسن التدبير وحكمة الرأي ، ثم يختمها بثمانية أبيات حول قدرته الشعرية(٣) .

وموضوع القصيدة فيه تفاعل مع مبتغى الشاعر ، فهو يمدحه بما يقدمه للشاعر أو يأمله منه :

صحبنا عند الأيام بيضا وقد عمّ الزمان من السواد

ولكنه لما وجدّ مدخلاً للمدح بالعمل الصراح مدح ، فهو يشير إلى موقف آل عمار الذي صمد في وجه الزحف الصليبي أكثر من غيره من الولاة والأمراء لكنه مدح على استحياء لمناسبته لضعف الموقف :

كيومك إذ دم الأعلاج بحر يريك البحر في حلل وراد

ثم يشير إلى العدل والسماحة ويختمها بالدعاء(٤) . وهكذا نجده يتنقل من مضمون إلى مضمون .

ومن هنا ندرك أن شاعر الشام ابن الخياط ، أكثر اعتدالاً من شاعر العراق الأبيوري الذي أسرف في المقدمة ، حيث إن مقدمة ابن الخياط أقل بكثير فهي لم تتجاوز العشرين رغم طول قصائده التي بلغت أكثر من سبعين بيتاً .

---

(١) المصدر ١٧٠ .

(٢) المصدر السابق ١٧٢/٦ .

(٣) المصدر السابق ١٧٧ .

(٤) انظر : الخريدة ، شعراء دمشق ١٦٠ وما بعدها .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والشعراء يتأثرون بأعمال ممدوحهم من جهاد في سبيل الله ، وأعمال الخير، والتقى والصلاح . فإذا ما أُعجِبَ الشاعر بممدوحه ، ورأى فيه معاني ثَرَّةً ، فذلك مدعاة لإطالة المدح . يتجلى ذلك في كثير من الدواوين ، ولنضرب مثلاً بديوان ابن الدهان(١)، فإن مدائحه في نور الدين ، وصلاح الدين طويلة يتجاوز أطولها أكثر من ثمانين بيتاً ، ولا يقل عن الأربعين مثل لاميته في مدح صلاح الدين ، فقد بلغت أربعة وسبعين بيتاً ، وحائيته في مدح صلاح الدين أيضاً ؛ فقد بلغت واحداً وثمانين بيتاً(٢)، أما مدائحه في سائر الولاة والأمراء والقادة والوجهاء فإنها لا تتجاوز الثلاثين بيتاً (٣) .

وهذه الظاهرة نجدها في ديوان أبي الفوارس أيضاً ، فإنه لما يمتدح الأمراء والوزراء الذين لا شأن لهم ، لا يتجاوز العشرين بيتاً ، أما إذا مدح خليفة أو وزيراً له شأن أو أميراً عربياً ، فهم يطيل في قصائده(٤) .

والظاهرة تلك شأن الدواوين الشعرية في القرون الخامس ، والسادس ، والسابع الهجرية . وهذا الشاعر عرقلة الكلبي يمدح سيف الدين محمد بن بوران سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة هجرية بقصيدة مكونة من خمسة عشر بيتاً استنفدها في الغزل ما عدا البيت الأخير(٥) .

ويمتدحه بقصيدة أخرى يتغزل فيها بعشرة أبيات ويمتدحه فيها بثلاثة أبيات.

بل يأتي بالفحش في غزله كقوله :

إني لأعشق ما يحويه برقعها ولست أبغض ما تحت السراويل(٦)

---

(١) الديوان ٣٥ ، تحقيق عبدالله الجبوري ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٦٨م .

(٢) الديوان ٥٩ .

(٣) انظر : المرجع السابق .

(٤) انظر : ديوان أبي الفوارس .

(٥) الديوان ٢٢ .

(٦) المصدر السابق ٧٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويعود ذلك لضعف الأمير ومكانته وعدم قناعة الشاعر به ؛ حيث يتغير بناء القصيدة عنده في مدحه للأمير مجاهد الدين بن بران فهو يمتدحه بقصيدة رائعة ؛ فيتغزل في تسعة أبيات لا فحش فيها ويمتدحه بسبعة عشر بيتاً(١) .

وديوان عرقلة الكلبي يمثل الاتجاه الخاطف في القصائد ، فهي قصيرة ، يشمل ذلك قصائد المدح وغيرها . وقد أشار إلى ذلك العماد الأصبهاني : « وقع بيدي بعد ذلك ديوان شعره فطالعته ، وقصائده قصار ، وفي ذلك النادر أن تزيد قصيدته على خمسة وعشرين بيتاً ، ومقطعته على عشرة أبيات »(٢) . ويعود ذلك إلى ارتجاليته في المنتديات وإلى أميته فهو لا يقرأ ولا يكتب .

قصيدة الجهاد :

أما القصائد التي قيلت في ميادين الجهاد ، فإنها تباشر الموضوع ، وتنأى عن المقدمات ، فهذا القيسراني يمجد تاج الملوك بوري عند نصره على الفرنجة عام ٥٢٣هـ استهلها بقوله :

الحق مبتهج والسيف مبتسم ... ومال أعداء مجير الدين مقتسم
قدت الجياد وحصّنت البلاد وأمّـ ... ـنت العباد فأنت الحل والحرم(٣)

وقال يهنئ عماد الدين في فتح الرها عام ٥٣٩هـ بقصيدة يستهلها بقوله :

هو السيف لا يغنيك إلا جلاده ... وهل طوّق الأملاك إلا نجاده
وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظُبا ... سناها وإن فات العيون اتقاده(٤)

وقال القيسراني قصيدة طويلة في فتح أنطاكية عام ٥٤٤هـ يهنئ بها نورالدين :

---

(١) المصدر السابق ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) خريدة القصر ، شعراء الشام ١/١٨٣ ط١ ، بمجمع اللغة العربية بدمشق .

(٣) أبو شامة : الروضتين ١/٥٤ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ١/٣٦، ٣٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هذي العزائم لا مـا تدَّعـي القضـب وذي المكارم لا ما قالـت الكتـب(١)

وقد تجاوزت خمسة وخمسين بيتاً .

أما قصائد شعراء الجهاد وقت السلم ؛ فإنهـا تستهل بـالغزل أحيانـاً في غير طول ، بل تكون في أبيات معدودة .

فشعراء الشام إذا مدحوا المجاهد في زمن السلم ، فإنهم يلجؤون إلى مقدمات قصيرة كقول القيسراني :

أمـا وخيـالٍ زار ممـن أحبـه لقـد هـاج مـن ذكـراه مـا لا أغبـه

إذا مـا صبـا قلـب المحـب إلى الصِّبـا ذكـرت نسـيماً بـالثغور مهبـه

فيـا نفحـات الشـام رفقـاً بمهجـة يحـامي عليهـا مدنـف القلـب صبـه

فـلا تسـألن الصـب أيـن فـؤاده فـإن فـؤاد المـرء مـع مـن يحبـه

وفي شُعب الأكـوار مـن هـو عـالم غـداة اسـتطار البـرق مـن طـار لبـه

يشيم ثغـور المـزن تهمـي كأنهـا سنا بشر نور الـدين تنهـلُّ سحبـه

وهكذا تجد مقدمته الغزلية لا تتجـاوز خمسـة أبيـات لقصيـدة دوَّن منهـا أبـو شاكة ما يقارب من أربعين بيتاً(٢) .

وهم أيضاً إذا امتدحوا غير المحاربين ، يلجؤون إلى المقدمـات ، فهـذا العمـاد الأصبهاني يمتدح القاضي الفاضل بقصيدة طويلة بلغت اثني عشر ومائة بيت تغزل فيها بأكثر من أربعين بيتاً(٣) .

وأزعم هنـا أن الشـعر يتـأثر بواقعـه وأن الشـعراء يتـأثرون بتيـارات العوامـل الخارجية ، فمنها ما يكون كالنسيم العليل فيتلاقح في جوانبه الشـعر فينتـج شـعراً رقيقاً أنيقاً يقترب مـن النبضـات الشـعورية الوجدانيـة ، ومنهـا مـا يكـون حيـث الرياح؛ فتميل بتجربة الشاعر بشعر فيه خير ولكنه يتفـاوت ، وثالثـة كـالعواصف

(١) أبو شامة : الروضتين ١/٥٨ .

(٢) المصدر السابق ١/٧٤ .

(٣)المصدر السابق ، الديوان ٣٨٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الهوجاء ، فيكون الشعر تأثراً مائجاً مؤثراً ملبساً بحلل من تلك الرياح الهوجاء . والقارئ لديوان ابن الدهان أبي الفرج مهذب الدين عبدالله بن أسعد المتوفى ٥٨١هـ ، يدرك ذلك كما أسلفناه ونحن رصدنا مقدمات الدواوين ورأيناها تطول حيث لا معاني تثير الشاعر ، وتقصر في ميادين الحروب مع الصليبيين أو القادة الذين لهم دور في الحياة . وصلاح الدين الأيوبي تكاثر حوله الشعراء ، وانزوت المقدمة كثيراً ، غير أنها كانت عند أولئك المقربين إليه الذين يدركون طويته الخيرة ، أما أولئك الذين يزورونه لماماً فإنهم ينظرون إليه نظرة واقعية ولم يقنعوا بما سلف من أعماله ، لذا نجدهم يطيلون في مقدمة قصائدهم قبل معركة حطين وفتح بيت المقدس ، وليس أدل على ذلك من ديوان ابن الدهان الذي توفي قبلهما فهو يطيل المقدمات في مدح صلاح الدين . فابن الدهان يلتقي به أول مرة عام ٥٧٠هـ ، ولا قناعة بها فالأمراء من غير العرب لا يدركون مكان الشعر فهو القائل : « والشعر ما زال عند الترك متروكاً »(١) . وأول قصيدة قالها في صلاح الدين جعل مقدمتها في عشرين بيتاً استهلها بقوله :

ما نام بعد اليمن يستحلي الكرى إلا ليطرقه الخيال إذا سرى(٢)

والقصيدة كاملة في اثنين وخمسين بيتاً .

ومثلها عينيته التي صدر بها الديوان وقد بلغت ستة وخمسين بيتاً ، فقد بلغت المقدمة خمسة وعشرين بيتاً(٣) .

وابن الدهان يتجاوب مع قناعته الداخلية فقد عايش جهاد نور الدين زنكي وأعجب به وقنع بأعماله الجليلة فأثر ذلك على شعره فلما يمتدحه يستهل مدحه بالموضوع مباشرة ويعرض عن المقدمات كقوله :

---

(١) ديوان ابن الدهان ٤٧ .

(٢) المصدر السابق ٤٧ .

(٣) المصدر السابق ٢٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ظبي المواضي وأطراف القنا الذُبل ضوامن لك ما حازوه من نَفَلِ
وكافل لك كاف ما تحاوله عزم وعزم وبأس غير منتحل
وما يعيبك ما نالوه من سلب بالختل قد توتر الآساد بالحيل(١)

حينما نقارن بين المقدمة في غير ميادين الجهاد وداخل ميادينه فإنا نجد أن الشعراء الذين نظموا قصائد بعيداً عن الجهاد وبطولاته يغرقون في المقدمات ، وإذا أنشدوا في موضوع الجهاد يعرضون عن المقدمات . ومن أولئك العماد الاصبهاني. فإن قصيدته التي تمثل خشيته ورهبته ، ورغبته وأمله فهي تجربة مضطربة ، تلك القصيدة التي نظمها وهو رهن الاعتقال في بغداد يمتدح عماد الدين عضد الدولة ابن رئيس الرؤساء يستشفع به عند السلطان ، ومع الفيض الشعوري يقدم لها بما يقارب من ثلاثين بيتاً تدور حول الغزل أي ما يقرب من نصف القصيدة المكونة من خمسة وستين بيتاً(٢) .

بينما نجده في صحبة صلاح الدين يشيد به في ضم حلب فيقول قصيدة مكونة من ستة وستين بيتاً يجتنب فيها المقدمة ويباشر الموضوع ويستهلها بقوله :

يوم أهب صَبَا الهبات صباحة وروى حديث النصر عنك رواحة
فالسعد مشرفة لنا آفاقه والنصر بادية لنا أوضاحه(٣)

خاتمة الطول والقصر :

بناء القصيدة العربية تأثر تأثراً وضاحاً بحالة الأمة الإسلامية ، فتأثر بأنزواء الخليفة حيث نضب مضمون المدح عند شعراء الخلافة ، وتأثر بخلاف الوزراء والسلاطين . فالشعراء كانوا يمدحون على وجل وتخوف ، وقد لجأوا عند الخلفاء وعند الوزراء وسلاطين السلاجقة إلى ما يسمى بالهروب المضموني ، فقد كان

(١) المصدر السابق ٧٠ .
(٢) الديوان ٦٦ .
(٣) الديوان ١٠٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كان من الواجب أن يقف الشعراء عند أعمال الممدوح ويشيدون بها ويسطرونها، لكنهم لما لم يجدوا شيئاً عند الخلفاء . وعندما خشوا مغبة الخلاف بين السلاطين والأمراء ، اغتربوا إلى اجترار إلى المضامين القديمة العامة والمثل العليا التي تصلح في كل زمان ومكان . فلو مدح الأرجاني أبناء نظام الدين من الوزراء مثلاً بأعمالهم لأغضب الآخرين ، وكان ذلك الالتصاق للشاعر بوزير دون وزير أودى بحياة الطغرائي ، مما جعل الشعراء في حذر من أمرهم فكان ذلك سبباً في غربة المضمون عن الواقع الحيّ .

وبناء القصيدة تأثر بالأقاليم : ففي العراق حيث العواصم كبغداد ، والموصل وكثرة الوزراء ، وسطوة سلاطين السلاجقة ، ومحفل الشعر والشعراء نجد إطالة في بناء القصيدة عن غيره من الأقاليم الأخرى ، ولذلك لا نجد مطولات كالتي عند الأرجاني ويلحق به سبط بن التعاويذي ، وكذلك العماد الأصبهاني .

أما شعراء الشام فهم أقل منهم إذ أن جل قصائدهم لا تتجاوز الستين بيتاً كما يتضح عند ابن الخياط ، وابن منير الطرابلسي ، والقيسراني ، وابن عنين .

ونحن إذ جئنا إلى غالبية دواوين الشعراء المصرية نجدهم أقصر نفساً كالمهذب بن الزبير ، وابن رزّيك ، والقاضي الفاضل ، وابن النبيه المصري ، إذا ما استثنينا ابن سناء الملك الذي هو أطولهم نفساً . ويعود قصر قصائدهم إلى عدم إخلاصهم لغرض المدح ، ولانشغالهم بأعمال الدواوين أو الوزارة ، فجل شعرهم يدور حول ذواتهم ، وهم لم يكونوا في حاجة وعوز كغيرهم من شعراء العراق والشام. وشعراء شبه الجزيرة العربية أكثرهم يدور في فلك المقطعات الشعرية لأنه وليد النبض الشعوري ، ولأنهم بمنأى عن المدح ، والحروب الصليبية؛ ولأن شعرهم الحربي أشبه ما يكون بشعر الفروسية ، ولأنهم أقل قراءة وتعليماً ، فلم يتداخل التوليد الفكري والمضموني في شعرهم ، ولقلة الكتابة أيضاً ، إذا ما استثنينا نفراً قليلاً عاش في كنف الدويلات في اليمن ودولة العيونيين ، كأمثال

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشاعر ابن مقرب العيوني وعمارة اليمني فكلاهما شاعر ينظم قصائد متوسطة الطول .

وبناء القصيدة يصور حالة الأفراد وعلاقاتهم وعملهم ، فمنهم الأمي الذي لا يكتب ، فكانت قصائده قليلة الأبيات كمثل عرقلة الكلبي . ومنهم الوزير الذي هو في شغل عن إطالة القصائد كالبهاء زهير ، أو الوجداني الذي يصور ذاته كتاج الملوك بوري ، والشاب الظريف .

وبناء القصيدة تأثر بالحروب ، فإن ميادين الحروب الصليبية صبغت بناء القصيدة بصبغتها ، فأثرت على المقدمة فأعرضوا عنها إعراضاً تاماً أو ألموا بها إلماماً خفيفاً . ولكن الأكثر معنى هو المضمون ، إذ إن مضمون قصيدة الجهاد اختلف اختلافاً كبيراً ، فالمدح للقائد أُخِذَ من أعماله الحربية وقيادته للجيوش ، ونهوضه بالجهاد وتوحيد البلاد ، والدعوة لمواصلة الجهاد ، وفتح بيت المقدس ، وتطهير بلاد المسلمين . ثم وصف الحصون والقلاع ، وآلة الحرب عامة وذمهم النصارى الأعداء .

إذاً المقدمة اتخذت مكاناً بارزاً في بناء القصيدة بغربتها ورمزيتها ، وتنوع موضوعاتها وطولها وتعبيرها عن حالة الشاعر .

إن قصيدة الجهاد برزت بموضوعها ، فكانت أقرب إلى الواقع وروح العصر وأحداثه من الموضوعات الأخرى .

أما مضمون طلب النوال فقد ظهر واضحاً جلياً متخذاً حيزاً من القصيدة ، وكذلك إهداء القصيدة استحوذ على الخاتمة في أكثر الأحيان .

والطول في القصيدة في عهد الحروب الصليبية خارج ميادين الجهد لم يحدث جديداً ، ولم يكن ذا فائدة ، فهو ترديد مضامين في المقدمة وترديد مضامين في المدح ، ولم تكن ذات جمال يسمو بها كثيراً ، وكذلك فإن الخيال ينضب فيها لأن صوره مستمدة من الصور السابقة ، ومن هنا فإننا لا نجد فائدة في مطولات

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الأرجاني ، وسبط التعاويذي .

أمّا قصائد الجهاد فهي لم تجنح إلى المطولات وإنما هي متوسطة الطول . هذا فيما وصل إلينا في كتاب الروضتين ، ولعل بعضاً من هذه القصائد حذف لكن حتى وهي في طولها الذي وصل إلينا ، فهي مقبولة لثراء المضمون .

• أكثر الشعراء نظموا أشعاراً على قصائد متوسطة الطول لا تتجاوز الستين بيتاً إن طالت ، ومن هؤلاء الأبيوردي ، وأبن الخيام ، والقيسراني ، وابن عنين ، وكثير غيرهم .

وهناك أصحاب القصائد القصيرة : ومنهم عرقلة الكلبي ، والمهذب بن الزبير، وعبدالمنعم الجلياني ، وابن النبيه ، والبهاء زهير ، إلى جانب شعراء الطبع من شعراء الجزيرة، وشعراء الشام ومصر كتاج الملوك بوري، والشاب الظريف .

وأخيراً تبين لنا أن الزيادة في الموضوعات جاءت في طلب النوال وإهداء القصيدة ، وفي قدرة الشاعر على التفريع وتفصيل المعاني .

المضمون في المقدمة :

تلون مضمون المقدمات بتوجهات الشعراء ، ومشاربهم ، فمنهم من يتواصل مع القبائل العربية لانتسابهم إليها ، وتأثر بموروثاتهم الاجتماعية ، وكان شديد الحنين إليهم ، وإلى ديارهم . إن الذي أثار ذلك ربما كان التنافس بين الأجناس العربية والفارسية ، والتركية ، فقويت النزعة العربية المضادة ، مما جعلهم يلجأون لمرجعيتهم الموروثة وأقربها موروثاتهم الشعرية ، فظهر ذلك في مضمونهم الشعري، وتمثل أيضاً في أسلوبهم الفني .

فكوكبة من الشعراء استلهموا القديم بأسماء عربياته مثل ليلى وسعدى ، وهند ، وأسماء أمكنةٍ مثل سلع ، ورضوى ، ووادي الغضا ، ووادي الصمان ونجد ، وغيرها . وظهر هذا اللون أكثر وضوحاً واتباعاً في شعر أولئك الشعراء

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العرب الذين ينتمون إلى أرومة عربية كمثل الأبيوري الأموي ، وأبي الفوارس التميمي ، وعرقلة الكلبي . وشريحة أخرى من الشعراء أخذت تتواصل مع تلك الأسماء لترمز بها إلى أماكن الجزيرة العربية مهبط الوحي .

ويظهر هذا اللون عند الشعراء الصوفية كمثل البوصيري ، وابن الفارض وغيرهما . ولنقبس أمثلة من دواوين الشعراء .

فالطغرائي المتوفى عام (٥١٥هـ) يتواصل مع حياة الأعراب بمكانها ، ومزنها وحوذانها ، وأسفارها ، وحماها فهو يحدو الأظعان ، ويخاطب حاديها بقوله :

أيا حادي الأظعان غَرّدْ فقد بدا ... لنا « حضن » واستقبلتنا صبا « نجد »
وبشرنا وعد من المزن صادقٌ ... بواص من الحوذان والنَّفَلِ الجعدِ
وطارحْ رذاياها وقد ملّتْ السُّرى ... أغاريدَ يُغرين الطلائحَ بالوخد
فإن بذاك الجو فاتنة اللُّمى ... أسيلة مجرى الدمع واضحة الخدّ
إذا ما المداري خُضن سودَ لِمامِها ... خلطن فُتات المسك بالعنبر الورد
لقد طال عهدي « بالحمى » وحلوله ... ولولا شقائي لم يطل بِهمُ عهدي
أسائل عنه من لقيت وعنهم ... متى جاده ، غيث وما فعلوا بعدي
هل أخضر واديهم فعاشوا بغبطة ... أم استبدلوا «الصّمّان» بالأجرع الفرد(١)

ومن أولئك الشعراء الذين يطيلون في مقدماتهم سبط التعاويذي ، يقول في مدح الوزير عون الدين أبي المظفر :

سقاها الحيا من أربُعٍ وطُلُولِ ... حكت دنفي من بعدهم وتحولي
ضَمنت لها أجفان عين قريحة ... من الدمع مدرار الشؤون هموليِ
خليلي قد هاج الغرام وشاقني ... سنا بارق بالأجر عين كليلِ
ودون الكثيب الفرد بيض عقائل ... لعبن بأهواء لنا وعقول

(١) الديوان ١٣٨ ، تحقيق د. علي جواد الطاهر . ويحيى الجبوري دار القلم ، الكويت ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ألا حبذا وادي الأراك وقد وشت بريّاك ريحاً شمأل وقبول(١)

وشعراء الصوفية تمتد بصائرهم إلى الجزيرة مهبط الوحي ، فيستلهمون أماكنها وأحداثها ، وسيرورتها في الشعر العربي ، وتزعم الصوفية أن أشعارهم تقوم على الحب الإلهي ، ووشائج الوصل بين الشاعر وتلك الأماكن والأسماء ، وأحداث الحب العذري ، وهم يوظفون ذلك الرمز مدّعين العشق الإلهي . فالبرق يلمع من أماكن في الجزيرة ، فيشير إلى الإضاءة الروحية التي تهفوا إليها النفوس ، وارتفاع البرق عن ليلى يبلور التجلي في نظر الصوفي ، ولذا فهم يطرحون الأسماء العربية القديمة للتواصل الروحي كقول ابن الفارض :

أبرق بدا من جانب الغورِ لامعُ أم ارتفعت عن وجه ليلى البراقع
أنار الغضا ضاءت وسلمى بذي الغضا أن ابتسمت عما حكته المدامع
وهل لعلع الرعد الهتون بلعلع وهل جادها صوب من المزن هامعُ
وهل أردن ماء العُذيب وحاجرٍ جهاراً وسرُّ الليل بالصبح شائعُ
وهل عذبات الرند يقطف نورها وهل سلماتٌ بالحجاز أيانعُ
وهل قاصرات الطرف عينٌ بعالج على عهدي المعهود أم هو ضائع
وهل فيات بالغوير يريني مرابع نُعمٍ نِعْمَ تلك المرابعُ
وهل رقت بالمأزمين .. قلائص وهل للقباب البيض فيها تدافعُ
وهل سلمت سلمى على الحجر الذي به العهد والتفت عليه الأصابع
وهل رضعت من ثدي زمزم رضعة فلا حُرمت يوماً عليها ... المراضع
لعل أصيحابي بمكة يردوا بذكر سُليمى ما تجن ... الأضالع(٢)

وبعض الشعراء جمع بين الاتجاهين ، فيستلهم الماضي والمكان للعرب والأمة الإسلامية أحياناً ، ويظهر الواقع الحضاري في شعره أحياناً أخرى ؛ ومنهم عرقلة الكلبي ، فيستهل قصيدته في مدح الأمير بحير الدين ابق طغتكين بذكر ديار نجد

(١) الديوان ٣٤٤ .

(٢) الديوان ١٠٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وليس هذا وحسب وإنما يتذوق أسلوب ولحن قول سعدى العربية البدوية يقول :

عـرج علـى نجـد لعلـك منجـدي ... بنسيمها ، وبذكـر سـعدى مُسـعدي

بدويـة الألفـاظ دون خبائهـا ... خيـل تـروح إلى الطعـان وتغتـدي

قـد كـان يغـني لحظهـا وقوامهـا ... عـن كـل خطـي ، وكـل مهنـد(١)

ومن قوله :

أمالي على الأحباب يا سعـد مسعـد ... ولا منجـد لما أغـاروا وأنجـدوا(٢)

وبالمقابل نجده في قصيدة يمدح بها الملك المعظم فخر الدولة تـوران شاه نجم الدين أيوب يستلهم الواقع من حياته الدمشقية ويعـرج على أحيائها وأوديتها ، يقول :

دمشـق حُيـت مـن حـيّ ومـن نـادي ... وحبـذا حبـذا واديـك مـن واد

يا غادياً رائحاً عـرج علـى بـردي ... وخلني من حديث الرائـح الغـادي(٣)

ومنه قصيدته في مدح السلطان الصالح بن رريك :

قـف بجـيرون أو بـباب الـبريد ... وتـأمل أعطـاف بـان القـدود

تلـق سمـرا كالسمـر في اللـون ... واللين وشبـه الخـدود في التوريـد

بل هو يسخر من الأسماء القديمة :

عرجاني ما بين «سطرا » و « مقرا»(٤) ... لا بأكنـاف عالـج وزرود(٥)

وفتيان الشاغوري يعلن إعراضه عن المقدمة الغزلية والطللية فيستهل قصيدة في مدح الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب :

دع النسـيب وقـول اللهـو والغـزل ... ولا تعـرج علـى ربـع ولا طلـل

وارفـع عقـيرة شـادٍ وسـط أنديـة ... وصـوت حـاد ببيـد مطـرب الإبـل

---

(١) ديوانه ٢٥ ، تحقيق أحمد الجندي ، مطبعة دار الحياة ، دمشق ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م .

(٢) المصدر السابق ٢٨ .

(٣) المصدر السابق ٢٧ .

(٤) سطرا ومقرا : قريتان في غوطة دمشق .

(٥) الديوان ٣٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بمدح خيـــر ملـــوك الأرض قاطبـــةً قل ذاك في كـل إقليـــم ولا تُبَـــلِ(١)

والشـاعر الأمـير شـهاب الديـن أبـو الفـوارس ، سـعد بـن محمـد التميمـي البغدادي، المعروف بـ (حيص بيص) يمتدح أعيان العراق سيما وزراء بغداد(٢) ورجال الدولة عامة . ونلحظ ملحظين أحدهما أن قصائده غير كاملة لأنـه يكثر في ثناياها قولـه : « ومنهـا » وهـذا دليـل الحـذف أو السـقوط مـن الناشـر أو المخطوطة(٣) .

وثانيهما : أن جل قصـائده المدحيـة مـن القصـائد المتوسـطة الـتي لا تتجـاوز الأربعين أو الخمسين بيتاً .

وأبو الفوراس كثيراً ما يتجاوز المقدمة الغزلية ليشدوا بقومه بـني تميـم كقولـه في جلال الدين أبي علي بن صدقة :

لمعـــت كتلويـــح الـــرداء المســـبل والليـــل صبـــغ خضابـــه لم ينصـــل
نـار كسـحر العـود أرشـد ضوؤهـا بـــاليد أعنـــاق الركـــاب الظلـــل
طـــابت لمعتـــف الظـــلام كأنمـــا شـبت علـى قنـن اليفـاع بمنـدل
فعلمـــت أن بنـــي تميـــم عندهـــا يتقارعون علـى الضيـــوف النُـزَّل(٤)

وهو يفتخر بنفسه في مقدمة القصائد المدحية ، ويثـني بقومـه ، ويعـرض عـن الغزل والأطلال ، وإن كنا لا نرى أن الفخر يناسب استهلال قصائد المدح ، ومن ذلك قصيدته الرائية المكونة من واحد وستين بيتاً ، يمتـدح بهـا شـرف الديـن أنـو

---

(١) الديوان ٣٢١، ٣٢٢ ، تحقيق أحمد الجبي ، بمجمع اللغة العربية بدمشق .

(٢) ولد عام ٤٩٢ ومات ٥٧٤ هـ ، وله ديوان مكون من جزئين . انظر : مقدمة ديوانه تحقيق مكي السيد جاسم ، وشاكر هادي شكري، منشورات وزارة الإعلام الجمهورية العراقية ، طبع عام ١٩٧٤م ،

(٣) انظر : الديوان ٧٣، ٧٤، ٩٧، ٩٨ .

(٤) المرجع السابق : ٩٥/١ . المقارعة : هي المحاجة عند من ينصبونه قاضياً من أعيان الجلساء ليحكم حسب العرف وكل من رجال الحي يدلي بحججه لعله ينال قرى الأضياف ، فرغم العوز فإنهم يتنافسون في ذلك ، وكانت تلك عادة في الجزيرة إلى يومنا هذا .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

شروان بن خالد وزير السلطان محمود بن ملكشاه يقول فيها :

لقد علمت وزراء دجلة أنني ... وقور إذا خفت حلوم العشائر
وأني قتول بالأناة إذا نبت ... صدور العوالي والسيوف البواتر
وأني غفور للسفيه وآخذ النبيه ... ومناع النزيل المجاور
أعير الجهول الغِر لينة راحم ... وأضرب في رأس الكمي المغامر
وأصدف عن هزل المقال ترفُعاً ... بمجدي عن مؤذ لجدي ضائر(١)

بل إنه يعرض عن الغزل قاصداً ذلك ، فهو يقول في مقدمة قصيدة تبلغ اثنين وسبعين بيتاً يمتدح بها الأمير تاج الدولة أبا منيع قرواش بن مسلم بن قريش أحد أمراء بني عقيل في الموصل :

أقم يا حسامي في صوانك واهجم ... شربت دماً إن لم أروّك بالدم

وفي المقدمة :

يقولون جانبت النسيب وإنما ... نسيبي ذكرى غارة وتَقَحُّم
وفي غزل العلياء لو تعلمونه ... شفاء غرام وادّكار متيّمِ(٢)

والمتفحص لديوانه يجد أن جل قصائده تستهل بالفخر لذاته ثم لقومه . وبذكر الفروسية .

وكثير من العلماء يرتحل للعلم ، وللجاه أو للمزيد منهما كعماد الدين الأصبهاني . ولذا ظهر الحث على مغادرة الوطن كقول الرئيس أبي الغنائم محمد بن علي بن المعلم(٣) في مستهل قصيدة طويلة قالها عام ٥٥٢هـ :

تصل العلى متخطماً هجر الكرى ... فانهض لها ما المجد إلا في السُّرى
سر طالباً غاياتها : إمّا تُرى ... فوق « الثريا » أو تُرى فوق الثرى

---

(١) الديوان ١/١٠١ .

(٢) المصدر السابق ١/١٠٧ .

(٣) ولد في الهرث عام ٥٠١هـ ، ومات ٥٩٢هـ ، وأكثر في المدح والغزل ، انظر الخريدة ٢/٤٣٠ الجزء الخاص بأعيان نواحي واسط .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لا تخلـــدن إلى المقـــام ، فإنمـــا سـير الهـلال قضـى لـه أن يُقمـرا
إيه (ولي الدين) مـا غُـررُ العلـى إلا لمن ركـب الخطـار وغَـررا(١)

والقصيدة بكاملها ستة وأربعون بيتاً .

والأرجاني الذي اشتهر بمدائحه ومقدماته الطوال وقصائده الأطول يعرض عن النسيب إلى الاعتذار عن إجادة الشعر ويعزوه إلى ضعفه وسقمه :

لأي وميـــض بارقـــة أشـــيمُ ومرعـى الفضـل في زمـني هشـيم
أبيـتُ وخـدُّ ليـل الشـعر منـي بكـف الصُبـح مـن شيبـي لطيـم
فعـذراً إن تغـير عهـدُ شـعري وقـد يغضـي عـن الزلـل الحليـم
ومـا قصّـرت عـن شـأوٍ ولكـن سـقيم كُـلُّ مـا نظـم السـقيمُ
وتعتـل القلـوب فليـس يُرضـى لهـا أثـر إذا اعتـلَّ الجسـومُ(٢)

وهي مقدمة لا تتجاوز سبعة أبيات لقصيدة بلغت سبعة وستين بيتاً خلافاً للأعم الشائع عند الأرجاني .

والعماد الأصبهاني من الشعراء الذين أكثروا من المدائح للخلفاء العباسيين والوزراء ، وقادة الجيوش الإسلامية من مثل نور الدين ، وصلاح الدين . ومع طول النفس في شعره إلا أنه أعرض عن المقدمات الطللية والغزلية وباشر المدح كقصيدته في مدح المستضيء لما خطب له في مصر سنة ٥٦٧هـ :

قـد خطبنـا للمسـتضيء بمصـر وارث المصفـى إمـام العصـر
وخذلنـا لنصـرة العضـد العـا ضـد والقـاصر الـذي بـالقصر
وأشعنا بها شعـار بنـي العـ ـباس فاستبشـر وجـوه النصـر(٣)

والشعراء الذين عاشوا الجهاد وصحبوا القادة في ميادين القتال ، تفيض تجاربهم بقصائد تمثل واقع البطولة وسداد الرأي والشجاعة ، وهم في شغل شاغل

(١) المصدر السابق ١/٤٣٣ .
(٢) ديوان الأرجاني ٣/١٢٣١ .
(٣) خريدة القصر وجريدة العصر ١/١٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عن الاستهلال بالأطلال أو الغزل فهم يباشرون الحدث كقصيدة أسامة (الرائية) التي يذكر فيها نور الدين وحروبه ، وسراياه إلى الإفرنجة ومسيرة الجيوش ، ويستهلها بقوله :

أبي الله إلا أن يكون لنا الأمر ... لتحيا بنا الدنيا ، ويفتخر العصر
وتخدمنا الأيام فيما نرومه ... وينقاد طوعاً في أزمتنا الدهر
وتخضع أعناق الملوك لعزنا ... ويرهبها منا على بعدنا الذكر(١)

وابن منير باشر الموضوع في مستهل قصيدته في نور الدين :

المجد ما أدّرعت ثراك هضابُهُ ... وتثقفتك شعوبُهُ وشعابُهُ
ملك تكنف دينُ أحمد كنّه ... فأصاب نيّرهُ وصاب شهابُه
فالعدل حيث تصرفت أحكامه ... والأمن حيث تصرمت أسرابه(٢)

والشاعر الأحل سعد الدين أبو عبدالله الحسين بن شبيب الطيبي من الأعيان والوجهاء الأدباء الذين لهم شعر رقيق ، وقد اشتهر بأول بيت يؤرخ للخلافة :

أصبحت « لب » بني العباس كلهم ... إن عُدّدَت بحروف الجمل الخُلفاء

فالمستنجد الممدوح هو الخليفة الثاني والثلاثون ، وهذا ما تشير إليه « لب » في حساب الجمل(٣) .

له قصيدة حائية استهلها بالوصف :

بكر الغمام لها بدمع سافح ... طرباً إلى نغم الحمام الصادح
وتنبه النوار في جنباتها ... سحراً لدغدغة النسيم المازح
وافتّر ثغر الأقحوانة ضاحكاً ... لما حبته يد السحاب الداح
ووشى بها ووشت به أنوارها ... يا حبذا نفس الكتوم البائح
وتسلسلت رقش الجداول وانثنت ... تستن بين أراكها المتناوح

(١) الديوان ٢٥١ .
(٢) أبو شامة : الروضتين ١/٨٧ .
(٣) العماد الأصبهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ١/١٨٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نجري وتجري الريح بين غصونها فتميل من راح وطيب روائح(١)

وهذه مقدمة نادرة عند الشعراء المحترفين لما فيها من جمال الإبداع ،وحسن الوصف ، ورقة التراكيب ، وهي تتناسب مع مناسبة القصيدة حيث التهنئة بالخلافة ، والفأل بأنها ستكون روضة في حياة الشاعر ، والمقدمة ثمانية أبيات لقصيدة مكونة من خمسة وعشرين بيتاً . وهي من المقدمات الرمزية التي ترمز إلى ما يتمناه الشاعر للخليفة في مستقبل حياته .

ونظير ذلك قصيدة فتيان الشاغوري الرائية في مدح الأمير شمس الدين بكر الأفضلي ، فإن آمال الشاعر في ممدوحة أوحت له بالربيع ورياضه ، ومحادثته للأمير كالنور الباكي يضاحك نوراً ، وربما أن الشاعر يتمنى خلعاً وحللاً من الأكسية فيثيرها بتاجر البز والوشي المنثور . وهكذا فإن المعاني ترمز إلى ما يتعلق بحياة الشاعر :

جاء الربيع وروضةُ الممطور من نوره الباكي يضاحك نور
تذري الجفون دموعه فكأنه المحـ ـزون وهو العاشق المسرور
هل جاء من صنعاء تاجر بزه فالوشي من مطوية منثور
صاغت به الأيدي أكفاً من يوا قيت نظمن فحبذا المنثور

فهو لا يخفي ميله إلى تلك بقوله : « فحبذا المنثور » :

وبه البنفسج عُقّدت أصداغه وكأنه متنفساً مخمور
زهرات نرجسه تضوّع عنبراً من زعفران ضمه كافور
شق الشقيق جيوبه طرباً وقد غنى الهزاز وغرّد الشحرور
من أين يوجد للقلوب سكونها والماء فيه كأنه مذعور(٢)

ومن المقدمات النادرة مقدمة إرجوزة للسديد أبي نصر في الوزير عون الدين بن هبيرة حيث استهلها بحمد الله والصلاة على رسول الله ﷺ :

---

(١) المصدر السابق ١/١٩٠ .

(٢) فتيان الشاغوري : الديوان ١٩٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أفضل ما فاه به الإنسان ... وخير ما جرى به اللسان
حمد الإله ، والصلاة بعده ... على النبي ، فهي خير عُده
« محمد » وآله الأبرار ... وصحبه الأفاضل الأخيار
وكل ما ينظم للإفادة ... فذاك منسوب إلى العبادة
لا سيما في مدح (عون الدين) ... مخجل كل عارض هتون(١)

وهذه الأرجوزة نادرة لقلة المدح بالأراجيز .

والنتيجة لهذا الموضوع أن المقدمة في عهد الحروب الصليبية أصبح لها شأنها من حيث المضمون ومن البناء الفني ، وقد فرضت ذاتها على الدارس فرضاً نتيجة ما تزخر به من قضايا لو قارنها بموضوع القصيدة لرجحت به .

فالمقدمة تتحدث عن ذاتية الشاعر . ففيها يُودع حالته النفسية هياماً وعشقاً ألماً وحزناً ، وأملاً ويأساً ، وهي جديرة بالدراسة المستفيضة من هذا الجانب فهي التي تمثل الشاعرية المتكاملة العناصر من ناحية كثافة الشعور ، وحضور المضمون، وجمال التركيب يشترك في هذا جميع ألوان المقدمة .

وموضوع المقدمة تشعب متأثراً بالأحداث والأقاليم ونفسية الشاعر ، فالشاعر الفرد تارة يغترب بوحدانه إلى الجزيرة ، وتارة أخرى يصف رحلته كالأرجاني ، وتارة يصف معاناته ، كما يظهر عند سبط التعاويذي في حادثة العمى . وتارة يفخر بقومه كأبي الفوارس ، ونجد أن ابن النبيه يلج كثيراً إلى التغزل بالغلمان أو المحبوب وبالخمرة ، وأن فتيان الشاغوري يتنقل في رياض دمشق بمقدمته ، وتارة في الأحياء كما في شعر عرقلة الكلبي ، بل إنها تنقل الانحراف في الذوق عند شريحة من الأدباء ولا سيما عند أولئك الذين يستهلون قصائدهم بالغزل بالمذكر كالدهان وهو قليل وكذلك فتيان الشاغوري والذي يكثر منه ابن النبيه المصري و لم يكتفي بذلك بل تحس فيه تمازجاً بين المدح والغزل

(١) العماد الأصبهاني : الخريدة الجزء الثاني ، المجلد الرابع ص ١٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بالمذكر ، ولاسيما في مدح الأشرف .

المقدمة الرمزية :

المعايش للإبداع الشعري المزامن للحروب الصليبية ، يستشعر المرجعية المكونة للذهنية الفنية التي ترتكز على رصيد من التراكم المعرفي ، والنسق الأسلوبي ، والحس الشعوري ، والتفوق في التلوين الإشاري ، فالقصيدة العمودية، وإن نهجت منهج سلفيتها العربية ، غير أنها أخذت تتشكل من واقع الحياة فهي تستشعرها وتنبض بنبضها ، والمقدمة تشع بقبسات من ذلك التلاحم بين الواقع وإشكالية الفن ، تمثل الرمز واقعاً يومئ إليه ، ويفطن له صاحب النباهة، والألمعية . فالمنى والترجي للقاء المحبوب يشير إلى تعلق الشاعر بممدوحه ، والاغتراب في الأسماء والأماكن والرحلة تضيء بمعاناة الشاعر ، ولكل فئة من الشعراء رمزيتها التي تتواصل مع اتجاهها الفكري ، أو الفني ، تلك أمور عامة .

والمقدمة الرمزية تتشكل في الأقسام الآتية :

١ – الرمز لموضوع القصيدة ، وتلك ظاهرة . تستطيع أن نلمسها من خلال التأمل في حياة الشاعر ، ومناسبة القصيدة وموضوعها ، وهي كثيرة في أشعارهم لكن لكل قصيدة خاصيتها التي نقبس منها تلك الإضاءات . ولنضرب مثلاً بالقصيدة الميمية للمهذب بن الزبير المتوفى (٥٦١هـ) التي يستطعف فيها الداعي لإطلاق سراح أخيه الرشيد .

فهو ينادي " الربع ": " والربع " هم الصحبة أو آثار الصحبة ، وهو يجمع الأحبة ، والعاشق له حبيب وهو يتساءل هل أنجدوا أو أتهموا ؟ وفيه رمز للمجهول الذي يكتنف أخيه :

يا ربع أين ترى الأحبة يَمَّموا هل أنجدوا من بعدنا أم أتهموا

ويرمز بنأي المحب إلى نأي أخيه ، وأخوه ينزل في أعشار القلب ، والعرب

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تشير إلى مكانة الأخ بسواد العين . وهذه الإشارات التي يسمعها المتلقي في مقدمة القصيدة تعود به إلى المناسبة التي أوحت بتجربة القصيدة فيقول :

نزلوا من العين السّواد وإن نأوا ومن الفؤاد مكان ما أنا أكتم
رحلوا وفي القلب المُعنّى بعده وجد على مر الزمان مخيم
وسروا وقد كتموا المسير وإنما تسري إذا جن الظلام الأنجم(١)

فربما يشير في البيت الأخير إلى اعتقال أخيه . ونلمح الإشارة الرمزية في مقدمة قصيدة ابن عُنين (الرائية) التي يلتمس فيها العودة إلى دمشق بعد غربة دامت عشرين سنة ، فيشتكي من هجران الأحبة ويلتمس السماحة ، والإعراض عن قول الوشاة . وذلك برمزه إلى الولاة الذين هجروه ، وغربوه حيث أخرجوه مشرداً من دمشق ، ثم يخاطب محبوباً فرداً فيستغيثه منادياً داعياً إليه ألا يُعرض ، فهو لم يجن جناية مما قيل من رسم الحسود وتزيينه وتزويره ، والمحب يعفو عن حبيبه فآن أن تغفر وتعفو ، أليس كل هذا رمزاً للوالي والتماساً منه للعفو، يقول:

ماذا على طيف الأحبة لو سرى وعليهم لو سامحوني بالكرى
جنحوا إلى قول الوشاة فأعرضوا والله يعلم أن ذلك مفترى

وفيه رمز إلى صلاح الدين الذي أخرجه فإنه يدعي محبته ، ولو من باب التأدب مع أخيه العادل الذي قيلت فيه القصيدة فيقول :

يا معرضاً عني بغير جناية إلا لما رقش الحسود وزوّرا
هبني أسأت كما تقوّل وافترى وأتيتُ في حُبِّيك أمراً منكرا
ما بعد بُعدك والصدود عقوبة يا هاجري قد آن لي أن تغفرا
لا تجمعن عليّ عتبك والنوى حسبُ المحبِّ عقوبةً أن يهجرا
عبء الصدود وأخف من عبء النوى لو كان لي في الحب أن أتخيرا
لو عاقبوني في الهوى بسوى النوى لرجوتهم وطمعت أن أتصبرا(٢)

(١) شعر المهذب بن الزبير ٢١٩ ، الطبعة الأولى ، هجر ، القاهرة .
(٢) الديوان ٣ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ويغلب على مقدماتهم التناسب مع موضوع القصيدة ، وهو إن كان يشير إلى معانٍ عند معشوقه إلا أنها توحي ببعد إلى المعاني التي سيمنحها ممدوحه .

فهذا ابن سناء الملك يستقبل القاضي الفاضل ويهنئه بقصيدة ذات مقدمة يكثر التصاقها بموضوع المدح ، فيقول :

يا قلب ويحك إنّ ظبيك سنح ... فتنح عن مراتعه تنح

أنا لا أتصور أن الشاعر كان واعياً بدلالة البيت التي أريدها وهي أن ابن سناء الملك كان نائباً للقاضي الفاضل ، فلما يعود القاضي فإن الشاعر سيتنحى عن سلطانه ونفوذه وعن مراتعه أيضاً فالبيت يمثل الشعور الداخلي أصدق تمثيل ، وهو ما يسمى بالرمز الشعوري في النقد المعاصر والأبيات التالية لهذا البيت تلتمس منها ما يضارع السالف :

وأردت أعقله ففر من الحشا ... طرباً ، وأحبسه فطار من الفرح

وأتى فظل صريع هذاك اللمى ... عطشاً وعاد قتيل هاتيك الملح فغدوت

جنح الغزال إلى قتال جوانحي ... فغدوت أجنح منه لمّا أن جنح

ومن العجائب أنه لما رمى ... بسهامه قتل الفؤاد وما جرح

كالليل إلا أنه لما دجى ... كالمسك إلا أنه لما نفح

قبلته وقبلتُ أمر صبابتي ... ونصحت نفسي في قطيعة من نصح(١)

ورشفت ريقته على رغم الطلا ... من كأس مرشفه على غيظ القدح

وهكذا فهو يرمز لاضطراب نفسه تجاه قدوم القاضي الفاضل نحو محبته الواقعية ، ونحو هواجسه الأمارة بالسوء . ويشير إلى فضائل القاضي التي ارتشف منها .

٢ –المقدمة المستغرية للجزيرة :

تارة ترمز لحب يلفع الشاعر لكن مكانته الاجتماعية تفرض عليه إخفاء ما

(١) الديوان ١٤١، ١٤٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يضمر ومن هؤلاء مجد الدين بهرام شاه المتوفى ٦٢٨هـ ، وهو شاعر من الأمراء الأيوبيين وقائد من قادتهم ووال من ولاتهم ، وله ديوان ضخم ، يصدره بمقدمات تنقلّ فيها بين جبال الجزيرة العربية وأوديتها ، وشم عريرها وخزامها ، ولمع قلبه بلمعان بروقها . والذي أرجحه أن غزله هذا رمز لغزل واقع في حياته ، لكن أراد التعمية والإبهام ، ومن ذلك قوله :

مغاني الهوى لم يبق إلا رسومها ... سقاها من الحب الغوادي هزيمها
منازل استقى الدموع لتربها ... سجاماً إذا الأنواء ضنت غيومها
طربت وقد لاحت بوارق مزنه ... حجازية عنها فبتُّ أشيمها
تذكرني وجداً تقادم عهده ... وأطرب ذكرى العاشقين قديمها
وعيشاً تولى في ذراها زمانه ... وما هذه الدنيا بباق نعيمها
لي الله من قلب يهيم صبابةً ... إذا هب عن بالي الطلول نسيمها
يحنُّ إلى أوطانها ويزيده ... بها شغفاً أوطارُ نفس يرومها(١)

٣ – الرمز بالمقدمة في الشعر الصوفي :

وهذا اللون كثير في مقدمات شعراء الصوفية مثل ابن الفارض ، وأبن عربي، وربما استغرق الرمز القصيدة أو الديوان كاملاً كما هو شأن ديوان ابن عربي « ترجمان الشروق » الذي يمثل الغزل العذري الرقيق لكن شرح ابن عربي لديوانه حوله إلى فلسفة التصوف ، ويأتي ذلك في مقدمات قصائد المدح النبوي لكننا نختار مثلاً من شعر ابن الفارض :

بروحي من أتلفت روحي بحبها ... فحان حمامي قبل يوم حمامي
ومن أجلها طاب افتضاحي ولذ لي اطـ ... ـراحي وذلي بعد عز مقامي
وفيها حلالي بعد نسكي تهتكي ... وخلع عذاري وارتكابُ أثامي
أصلي فأشدو حين أتلو بذكرها ... وأطرب في المحراب وهي أمامي

(١) الديوان ٩٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وبـالحج إن أحرمـت لبيـت باسمهـا وعنهـا أرى الإمسـاك فطـر صيـامي
وشـأني بشـأني معـرب وبمـا جـرى جـرى وانتحـابي معـربٌ بهيـامي
أروح بقلـبٍ بالصبابـة هـائم وأغـدو بطـرف بالكآبـة هـام
فقلـبي وطـرفي ذا بمعنـى جمالهـا مُعنـى وذا مُغـرَّى بلـين قـوام
ونومـي مفقودٌ وصبحـي لـك البقـا وسهدى موجـود وشوقـي نـام(٢)

وملخص القول في المقدمة الرمزية أن المقدمة وظفت توظيفاً رمزياً في كثير من الأشعار ، وأن أشهر ملامح الرمز تتأتى في الرمز للموضوع ، والرمـز للعشق الذاتي ، والرمز الصوفي ومن أراد البحث في هذا الموضوع فإنه يعثر على فيض من الرموز بجوانب مختلفة ، وتتجلى له مشاعر وأحاسيس ، وصور للحيـاة كثيرة إلى جانب قضايا فنية متعددة .

(٢) الديوان ١٠٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حسن التخلص :

والشعراء يجترون في مقدمة قصائدهم ذكريات الغرام واللقاء والحرمان الذي يودي إلى الوله والهم ؛ فيخلص إلى هجر الديار بركوب الأسفار والإفاضة بتجاربهم التي تجتاحها الهموم ، ولا نجاة لهم ولا رأب لصدع الشاعر إلا من ممدوحه الذي يحاكي الغيث ، يقول ابن الخياط الدمشقي المتوفى ٥١٧ هـ في مدح بن عمار بعد مقدمة طويلة :

سأجعل همي في الشدائد همتي ... فكم كُربة باهم فرَّج ضيقها

وخرق كأن اليم موج سرابه ... ترامت بنا أجوازه وخروقها

كأنا على سفن من العيس فوقه ... مجاديفها أيدي المطايا وسُوقُها

نُرجي الحيا من راحة ابن مُحمدٍ ... وأيُّ سماءٍ لا تُشام بروقُها؟!(١)

بعد أن ذكر الأرجاني المتوفى ٥٤٤هـ حديثه الغزلي في مقدمة طويلة في عينيته في ربيب الدولة الوزير أبي شجاع حتى ، بلغ إعراضهن عنه لظهور شيبة تمنى الزوال لولا مدح الوزير الذي أستشعر معه بالحياة واستمرارها ، وفيه إشارة إلى انتقال رغبات الإنسان من غريزة إلى أخرى :

حتى إذا رفض العذارُ سوادهُ ... مِنّي وأصبح بالبياض مُرَوّعي

ما سرني معه بقائي بعدما ... أضحى يشوب تسنناً بتشيع

إلا بمدح ربيب دولة هاشم ... ما دام عمري بالكلام ممتعي(٢)

ومن حسن التخلص قصيدته النونية في شرف الدين أنو شروان بن خالد التي بلغت اثنين وتسعين بيتاً وجعل مقدمتها مكونة من ثلاثين بيتاً ، ووضح فيها حسن التخلص :

وقد كنت قدماً معنّى الفؤاد ... أو إلى جواداً ، وأهوى ضنينا

---

(١) العماد الاصبهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ١٩١/٦ .

(٢) ديوان الأرجاني ٨٩٨/٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فلمـــا خلصـــت نجـــيَّ الغُـــلا وأقصـــر عـــن عـــذلي العاذلونـــا
حلفـــتُ علـــى مســـحة لســـحاب فعـــزَّت ، فقـــال لي القائلونـــا:
إذا مـــا لثمـــت يميـــن الوزيـــر سموت فأبـــررت تلـــك اليمينـــا(٣)

حيث ضاق به الأمر في كيفية برِّ يمينه ، وليس للسحاب بخيره وعطائـه مثيل إلا يمين الوزير .

ومن الشعراء الذيـن وظفـوا حسـن التخلـص توظيفـاً ، الشـاعر ابـن الدهـان المتوفى ٥٨١هـ ، ومن ذلك قصيدته العينية ، حيث يستسقى الربيع لربع محبوبـه ؛ فبادر إلى ذهنه صلاح الدين فهو أجدى وأسرع :

فســقى الربيــع الجــون ربعــاً طالمــا أبصــرتُ فيــه البــدر ليلــة أربــع
ولو استطعت سقيتـــه سيـــل الحبـــا من كف يوســـف بـــالأدر الأنفـــع(٢)

ويمتدح القاضي الفاضل بمقدمة يشير فيه إلى نحت الخطوب له ، وبريها إياه ، وقد أهوت به إلى قاع مظلمة من الهموم فبمن يستجير ، ويستنجد ؟ فليس لـه إلا القاضي الفاضل :

صـبرت على نحـت الخطـوب وبريهـا وإن كـان ثقـلاً ليـس يحملـه رضـوى
وناديت من قعر الحمول وقد هـوى بجدي صـرف الدهـر في أبعـد المهـوى
أمـا في بـني الدنيـا فتـى متـداركٌ حشاشة هـذا الفضـل من قبـل أن تبلى
وكيـف ودهـري المعتـدى المتعمـدي أحـاول مـن أنيابـه النصـر والعـدوى
ومـا كـان أدناهـا اسـتغاثة موثـق إلى مطلق لـو يسـمع الفاضل الشكوى
فريد بني الدنيا الـذي لا يُـرى لـه نظير على مـرّ الزمـان ولا يُـرى(٣)

والعماد يعجب بحسن التخلص في قصيدة ابن الخياط الميمية التي يمتدح فيها أبا النجم هبة الله بن بديع الأصبهاني ويورد البيتين اللذين يحويان التخلص :

(٣) المصدر السابق ٣/١٣٨٨ .
(٢) ديوان ابن الدهان ٢٩ .
(٣) المصدر السابق ٨١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وخيـــل تمطـــت بـــه وليـــل كأنـــه ... تـــرادف وفـــد الهـــمّ أو زاخـــر اليـــمّ
شققت دجـــاه والنجـــوم كأنهـــا ... قلائد نظمي أو مساعي أبـي النجم(١)

ويجيد ابن سناء الملك حسن التخلص في قصائده كقصيدتـه الدالية في الملـك العزيز بن صلاح الدين حاكم مصر حيث يقول بعد غزله :

حبـــس عليهـــم عذلكـــم لكنهـــم ... بـــاعوه واشـــتروا الضلالـــة بـــالهدى
لا يرجعُ الكلف المشوق عن الهـوى ... أو يرجع الملك العزيز عن النـدى(٢)

ومثلـــه قوله :

بعدت علـي فضـاق صـدري بعدهـا ... وذكـرت عـود أبـي عليّ فانشـرح
عـادت إلى الخلـق الحيـاة مـع الحيـا ... وإلى قلوبهـم السـكون مـع المـرح
إن الرحيم بعبـــده رحيـــم الـــورى ... فأتى كما اقترحوا وجاء كمـا اقترح(٣)

وحسن التخلص قد اكتمل سوقه وغايته في هذه المرحلة من الأدب العربـي ، فالقارئ لا يعدم استنباطه من جل القصائد إن لم يكن كلها .

موضوعات القصيدة :

والقصيدة في ميادين الجهاد تختلف عن مثيلاتها في البلاد الإسلامية الأخـرى، والبيئة التي أطرتها ، وضعتها في بوتقة خالصة لها . فالحروب والجهاد في سبيل الله والأحـداث الإسـلامية كمواجهـة الإفرنجـة ، وتدمـير المـدن الإسـلامية ، والنصـر والهزيمة ، كل ذلك أثرى الموضوع ، فكان الحشـد الهـائل مـن الفكـر المضمونـي الذي ينثال على الشاعر تمثّل في القصيدة المدحية مما أغناهـا عـن تقصـي النظـر في الأطلال ، وإطالة الحديـث الغزلي وإفضائه بهمومـه الـتي يثقـل بهـا السـامع ، أو يستدر بها عطف الوالي . وتلك كانت مضامين يلجـأ إليهـا الشـاعر كيمـا يطيـل

(١) خريدة القصر ٦/١٩٤ .
(٢) الديوان ١٥٣ .
(٣) المصدر السابق ١٤٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

القصيدة الخطابية التي تنشد كقصائد الأبيوردي وابن الخياط الدمشقي ، والأرجاني، وقصائد العماد الأصبهاني في العراق(١) .

والأعمال التي تناط بالسلطان وقائد الجهاد كاسترداد المدن الإسلامية وبيت المقدس ، والانتصارات التي يحققها كفيلة باستثارة تجربة الشاعر ؛ فيتحدث عنها عوضاً عن وصف الخليفة ، أو الوزير القابع في قصره ، وليس له من الأعمال ما يزود الشعراء بمضامين جديدة ؛ ولذا فإنهم يلجأون في وصف أولئك النائين عن ميادين الجهاد إلى المحاسن الجسدية والكرم ، وإغاثة اللهفان ، وإغناء الشاكي وأمثاله . أما مدح الشعراء لقادة الحروب فإنه يتوجه إلى حسن التدبير والتخطيط، والفتك بالأعداء ، وقوة الإرادة والعزيمة ، والتهنئة بالفتوحات والحث على مواصلة الجهاد ، ووصف المعارك ومنهم ابن قسيم الحموي ، وابن منير الطرابلسي وغيرهم ، والقصيدة في عهد الحروب الصليبية تنشطر إلى قسمين :-

أولاً : خارج ميادين الجهاد ، والقصيدة هنا نهجت نهج قصيدة المدح العربية في العصور السالفة ، وتكون الموضوعات التالية :

أ – المقدمة : وتحدثت عن موضوعاتها سابقاً وتنحصر في الغزل ، والرحلة والغزل بالمذكر ، ووصف الخمر ، والفخر عند الأبيوردي ، وأبي الفوارس والشكوى في شعر سبط بن التعاويذي .

ب – المدح : وهو في مجمله مستغرب عن واقع الحياة ، فهو تحدث عن المضامين السالفة في قصيدة المدح من أوصاف بهاء الطلعة ، والكرم الذي وقفوا عنده طويلاً كي يستدروا الممدوح ، والعدل والرأي وإجادة القتال والحكمة في السلم ، وهم لم ينقلوا لنا أعمال الممدوح ، ولم يسموا الحوادث ، ولم ينقلوا لنا الصراع الداخلي المتمثل في الحروب الداخلية التي تفوق بمآسيها الحروب الخارجية حتى المكان الذي يستوطنه الممدوح قلّ أن نجد له معلماً أما الزمان فأكثر نسياناً .

---

(١) ديوان عماد الدين الاصبهاني ٣٩٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إن هذا الإعراض ناجم عن هيمنة التراث وبناء قصيدة المدح أو هو تقية وإيثار للسلامة من ذكر الحوادث التي تمس الأعداء الذين يمكن أن يستولوا على السلطة فيقع الشاعر في حرج كما وقع أبي لأبي الفوارس واعتذاره عن مدح دبيس بن صدقة لما انتصر عليه السلاجقة .

د – إهداء القصيدة وهو موضوع توسع أكثر في هذا العصر حتى احتل حيزاً من مساحة القصيدة فيما يقارب عشرة أبيات في نهاية القصيدة ، وربما يختتم القصيدة بالإهداء .

هـ – الدعاء فإنهم يذكرونه في أبيات قليلة .

فمن الأوصاف الجسمية مدح الأرجاني بطلاقة الوجه وإشراقه للندى :

من القوم : أمّا وجهه لعُفاته ... فطلق ، وأمّا رفده فجزيلُ
يفيضُ لنا ماءُ الندى من يمينه ... وفي وجهه ماء الحياء يجول
ويبسط للدنيا وللدين راحة ... تفاخرُ أقلام بها ونصول(١)

ويقول الأرجاني :

نزلت به غرضاً للخطوب ... فأحيا رمامي ، وأحيا رميمي
وعاشت به همتي إذ رأت ... محياه عيني ، وماتت همومي

وهو يتمتع برؤيته البهية :

وكم قلت للعين في نأيه : ... لبرق ملوك الورى لا تشيمي
نذرت ، فياعين – حتى أراه – ... عن رؤية الخلق ما عشت صومي
فعيِّدت يوم لقائي له ... وعاد سروري بعد الوجوم(٢)

ويكثرون من الإلحاح في طلب النوال حتى أنهم ليقسمون على ممدوحيهم :

يميناً لئن أعطيت أو كنت مانعاً ... لما عنك لي إلا إليك عدول
وأن لم تزل حتى توقّع لي بها ... تراني عن هذا المكان أزول

(١) الديوان ٣/١١٢١ .
(٢) الديوان ٣/١٣١٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأن عليك اليـوم تصديـق حلفتـي فأنت بشـرع المكرمـات تقـول(١)

ومن موضوعات القصيدة خارج ميادين الجهاد ، استتباب الأمـن ، والقضـاء على الفتن ، وحسن الطلعة ، وكونـه سـليل المعـالي ، والأبيـوردي يمـدح الخليفـة المستظهر با لله بجل هذه الصفات ومنها :

وعلـى نـدى المسـتظهر بـن المقتـدي حـام الرجـاء يظلـه التحقيـق

ورث الإمامـة كـابراً عـن كـابر متوكلـيٌّ بـالعلاء خليـق

خضل البنـان بنائـل ، مـن دونـه وجه يجـول البشـر فيـه طليـق(٢)

ومنها طلب النوال فقد كثرت في شعر سبط التعاويذي يقـول من أبيات عشرة في طلب النوال :

عودتـني النعمـى يـداك وعـادا ت الأيـادي علـى الكـرام ديـون

أنـا أهـل وأنـت أيضـاً بـأن تبـ ـعثـي أمثالهـا إلى قمـين

هـي لي جنة مـن الفقـر ماعشـ ـت وحصن مـن الخطـوب حصيـن

ثم يعب بعد الطلب بإهداء القصيدة :

فاسـتمعها عـذراء تحمـل أبكـا ر المعـاني منهـا قـواف عـون

مـدح كالريـاض باكرهـا القطـ ـر فمنهـا الخيـري والنسريـن(٣)

وقد تكاثر إهداء القصيدة في نهاية المدح(٤) .

ثانياً : القصيدة داخل ميادين الجهاد تتكون من الموضوعات التالية :

أ - تستهل أحياناً في أوقات السلم بمقدمة غزلية قصيرة .

ب - المدح وهـم يفيضـون في مـدح السـلطان بالأعمـال الـتي يقـوم بهـا ويذكرون الأحداث ويسمون المعارك .

---

(١) المصدر السابق ١١٢٣/٣ .

(٢) الأبيوردي : الديوان ٢١١/١، ٢١٢ .

(٣) الديوان ٤٣٤ .

(٤) انظر : ابن قلاقس ٢٩٣، ٣٠٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ج - التحريض على الجهاد وفتح بيت المقدس ، وفيه سمي عبدالمنعم الجلياني ديواناً كاملاً بالاسم « المبشرات والقدسيات » .

د - الوصف للمعارك والمجانيق ، وزحف الجيوش ، ومحاصرة الحصون .

هـ - هجاء النصارى بالغدر والخيانة والكفر ، والاعتداء على المحرمات .

والقصائد في مدح أمراء الشام المحاربين للإفرنجة ، الذين حملوا راية الجهاد يتشكل فيها فكرهم الأشرف ، فهم ينشدون هدفاً سامياً إسلامياً ، وتثير مشاعرهم أعمال جليلة تزرع الحب والإعجاب في نفوس الشعراء ، وقد تبوأ أولئك الحكام مكانةً سامية بين المسلمين ، فيستهلون قصائدهم بالدعاء للممدوح، ويفندون ما منحه الله ، يقول القيسراني :

لك الله إن حاربت فالنصر والفتح وإن شئت صلحاً عدّ من حربك الصلح

وهل أنت إلا السيف في كل حالة فطوراً له حد وطوراً له صفح

ثم يتواصل مع ذكر مراحل الصراع بين نور الدين والصليبيين :

تركت قلوب الشرك تشكو جراحها فلا زالت الشكوى ولا اندمل الجرح

ويشير إلى حب المجتمع لأولئك المجاهدين :

فلا قلب إلا قد تملكته هوى ولا صدر إلا قد جلاه لك النصح(١)

وفي فتح (عزاز) يمتدح ابنُ منير نور الدين بقصيدة يستهلها بقوله :

فدتك القلوب بألبابها وساحُ الملوك بأربابها

كتائب ترمي جنود الصليـ ـب منها بتقطيع أصلابها

إذا ما أنشت من قراع الكما ة كست وفدها وشي أسلابها

عشية غصت على آنب نفوس النصارى بغصابها(٢)

وكثير من الموضوعات وردت لها أمثلة ونماذج في ثنايا الكتاب .

---

(١) أبو شامة : الروضتين ١/٧٠ .

(٢) المصدر السابق ١/٧١ ، الديوان ٢٢١ ، تحقيق : عمر عبدالسلام تدمري ، الطبعة الأولى ، دار الجيل بيروت ، عام ١٩٨٦هـ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الخاتمـــــة

درج أكثر الشعراء على الإعراض عـن الخاتمة ، لاسيما القصائد القصار ، لكن في القرون المتزامنة مع الحروب الصليبية شاع ظهور الخاتمة بين الشعراء بتفاوت في دواوينهم ، وعدم الالتزام بها ، واختلفوا في مضمونها . فمنهم من يختمها بإهداء القصيدة المنقحة الخالية من العيوب ، السارية بمحامد الممدوح إلى من يمدحه ، ومنهم من يختمها بالدعاء . وقليل ختمها بالصلاة على النبي ، أو بالحمدلة والشكر ، وكثير هم الذين يختمونها بطلب النوال .

ومن أكثر الشعراء إيراداً للخاتمة الشاعر الأرجاني ، وقد شاع في جلّ قصائده إهداؤه قصيدته والإشادة بها ، ومنها قصيدته الميمية في مدح حسام الدين أبي الخطاب :

هاكهـا مـن وارد عـن ظمـأ ... بعدمـا لاب بهـا دهـراً وحامـاً
قُـرطُ آذان الأُلى أصغـوا لهـا ... مُلـئ اللؤلـؤَ فـذّاً وتؤامـاً
ويراهـا حاسـد مـن حسـدٍ ... صممـاً في الأذن منهـا وصمامـا
فـابق للمجـد وللعليـا ، ودُه ... في ظـلال العـزّ والنعمـي دوامـاً
مليـاً غمـد اللّيـالي عـزةً ... تصدق الضرب ولا تخشى انثلامـا!(١)

وهو يفتخر بقصائده المدحية ، فلو سمعها فحلا تميم لرواياها ، وهي كالأحجار الجميلة :

فخذهـا قريضـاً ، وإن لم يكـن ... مـن العيـب ، أيضـاً بـذاك السَّـليم
بدائـع لـو قَدُمـتْ في الزّمـان ... رواهـا مـن الحُسـن فحـلا تميـم
قبولـك يُزهـى بـه مقـولي ... لمـا فيـك مـن خلـق طبـع كريـم
فيصلـح فاسـده للعُيـونِ ... ويكشـف غامضـه للفهـوم
كمـا الفـص يَعْـوَجُّ مكتوبـه ... ويبدلـه الشـمع بالمسـتقيم

(١) الديوان ٣/١٣٣١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فَعِشْ للعُلا قمراً في دُجى ... من الدهر أو غُرّةً في بهيم
ومُتّعت بالعزّ فيمن تُحب ... ـب ما اعتيد جوبُ الفلا بالرسيم
وخف الحمام بكف الكمي ... وكاس المدام بكفّ النديم(٢)

والشاعر سبط بن التعاويذي ، يكثر من الحديث عن قصائده ويهديها إلى ممدوحه ، ويفتخر بها ، بل يوضح وظيفتها ويذكر سريانها وقد سجل ذلك في سبعة عشر بيتاً من قصيدة مكونة من اثنين وتسعين بيتاً قال في مدح الخليفة العباسي الناصر لدين الله عام ٥٨٣هـ(١) :

فأصخ أمير المؤمنين لشاعر ... سرت بمدحك في البلاد رواته
عهدٌ لكم تقريظه وثناؤه ... وعليكم تسليمه وصلاته
وإليك مدحاً عز مطلبه ولي ... في الناس وحدي ذللت كلماته
مدحاً لكم خيطت ملابسه فما ... يعتام غير بيوتكم أبياته
آليت لا أمتدت يدي إلا إلى ... من تملأ الأرض الفضاء هباته
لا أعتفي غير الخليفة طالباً ... رفداً كفاني بره وصلاته
هو خير من وطئ الثرى وأعزهم ... جاراً فخير المعتفين عفاته
ما لي ومدح مبخل مغبرة ... أكنافه محمرة سنواته
متجهم أصفت مكارمه فما ... تندى على طول السؤال صفاته
فلأصرفن الشعر إلا عن فتى ... كالسيف تلمع بالضحى جفناتُهُ
هي بنت فكري والكريم يغارُ أن ... تُهدي إلى غير الكريم بَنَاتُهُ
فاسلم لموتورٍ أبت أن تُقتضى ... عند الزمان ديونه وتراته
ضاقت مذاهبه وقورب خطوه ... فكأنما سدت عليه جهاته
يمسي حبيساً في قرارة منزل ... سيان محياه به ومماته
وهناك مُلْكٌ لا يَرِثُ جديده ... ممتدة لا تنتهي غاياته

(٢) الديوان ٦٧،٦٨ .
(١) الديوان ٦٧،٦٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

منصوبـــة أعلامـــه مخفوضـــةً أعـــداؤه مرفوعـــة راياتـــه
وأطاعك الفلك المدار ولا جرت إلا بمـــا تختـــاره حركاتـــه
وتَمـــلّه عيـــداً مباركـــةً عشـــا يـــاه عليـــك ســـعيدة غدواتـــه

ومن الختم بإهداء القصائد قوله :

وأستحل من غرار المديح غريره ما آب تاجرهـا بصفقـة خاسـر
بدويـــة حضريـــة فـــاحكم لهـــا بفصاحـة البـادي ولطـف الحـاضر
جـاءتك ترفـل في ثيـاب جمالهـا في وشـي أفـواف لهـا وجبـائر
فضلـت بمعنـى رائـق أنـا أمّـةٌ في نظمـه وحـدي ولفـظ سـاحر
فقـراً فتحـت بهـا فمـي وجعلتهـا سـبباً لسـد خصـاصتي ومفـاقري
تفنـي المواهـب والعطـاء وذكرهـا بـاق على مـرّ الزمـان الغابـر

وقد ورد مثل ذلك في قصائد كثيرة(١).

ومن الخاتمة ما يخصُّون به طلب النوال ، أو التعريض به كقول الأرجاني يمدح الوزير شمس الملك عثمان بن نظام الملك :

لك الخير أنـا العـارض الجـود وبلـه وبي غُلل ، فامطرت بساحة ظمآن
ومثلـك من لا يشـتري حمد نـاظم ولا نـاثر إلا بـأوفر أثمـان
فـلا تَخْلُوَنْ ديوانكـم مـن معيشـتي وأنتـم ملـوك مدحكـم ملءُ ديوانـي
بقيت بقـاء الدهـر في ظـل دولـة وعـز جديد مـا تـوالى الجديـدان(٢)

ونلحظ الدعاء في آخر الأبيات . ومنه قول أبي الفوارس في خاتمة القصيدة ببيتين :

بـأنك فـد بلغـت بـي الثُّريـا وأنـي للـترقي في ازديـاد
فكن حيث الظنـون فكـل كسـب سوى الذكـر الجميـل إلى نفـاد(٣)

(١) المصدر السابق انظر ص ١٦١، ١٧٣، ١٧٦، ١٧٩، ٢٩٨.
(٢) الديوان ٣/١٤٢٧ .
(٣) الديوان ١/٢٥٦ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ومنه قصيدة ميمية مكونة من تسعة وستين بيتاً في مدح شرف الدين بن طراد الزيني يقول في خاتمتها :

إن كان أخرني الزمان بجوره ... فأظن هذا الحين حين تقدمي
فاسق الذي غرست يداك فإنني ... لك اعتزي وإلى فخارك أنتمي(١)

والشاعر الأرجاني يختم قصائد بالدعاء أحياناً :

أنتم فروعٌ سما في الأفق ناضرها ... وذاك أصل رسا في الترب زاكيه
فدمتم بعده توجد مكارمه ... مدى الزمان ولا تفقد معاليه
حتى يكون أبوكم آية نسخت ... لفظاً وما نُسخت منه معانيه(٢)

ومن الدعاء خاتمة قصيدة لاميه في مدح سديد الدولة الأنباري :

لا زلت من حسان قلائدي ... أشباه دُر في النظام مفصل
وبقيت تخطر في عراض سعادة ... وتجر أذيال البقاء الأطول(٣)

ومنه :

فاسلم - يا مجد دولة هاشم ... في دولة قعساء عالية البُنى
سرت بك الدنيا ، وحاش لقلبها ... مع نور وجهك طالعاً - أن يحزنا(٤)

وقد ختم قصيدته النونية التي يمدح فيها ثقة الدولة بن عبدالواحد :

فالحمد لله ، هذا حين أكملت النـ ... ـعمى وأذهب عنا الخوف والحزن
لا زال من حُسن صنع الله واقية ... دون الليالي على عليائكم جنن
ما طاف بالبيت زوّار ، وما رفعت ... فيه الأكف وما سبقت له بُدُن(٥)

ومن النادر أن يباشر الشاعر المدح ثم يختم قصيدته بالغزل ، وقد عثرت على قصيدة من هذا اللون عند الشاعر نجم بن سراج العقيلي الذي رحل إلى مصر

---

(١) المصدر السابق ٢٦٣/١ .
(٢) الديوان ١٥١٥/٣ .
(٣) المصدر السابق ١١٨٢/٣ .
(٤) المصدر السابق ١٤١١/٣ .
(٥) المصدر السابق ١٤١٦/٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

صغيراً واستوطنها وتوفي ٦٠١هـ .

والقصيدة في مدح الرئيس ابن حسان ، وأشار الحموي إلى قوله :

قف الركب وأسأل قبل حث الركائب ... لعل فؤادي بين تلك الحقائب

وماذا عسى يجدي السؤال وإنما ... أعلل قلباً ذاهباً في المذاهب

فوالله لولا الشعر سنة من خلا ... ونحلة قوم في العصور الذواهب

لنزهت نفسي عن سؤال معاشر ... يرون طلاب البر أسنى المكاسب

وهبت لمن يأبى مديحي عرضه ... وإن كان للمعروف ليس بواهب

وأقسمت لا أرجو سوى رفد جعفر ... حليف الندى رب العُلا والمناقب

أحق فتى يطرى ويرجى ويتقى ... كما تتقي خوفاً شفار القواضب

إذا نحن قدرنا تقاعُس مجده(١) ... وجدناه بالتقصير فوق الكواكب

وإن نحن رمنا وصف جدوى يمينه ... رأينا نداه فوق سح السحائب

أخو همم لم يسله اللوم همَّه ... وما همه غير اتصال المواهب

جوادٌ تراه الدهر في البر دائبا ... كأن عليه الجود ضربة لازب

وقد أشار الحموي إلى ختم القصيدة بالغزل فقال :

« ومن هذا رجع إلى الغزل وختم القصيدة به فقال بعده :

علي أنني من وقع عادية النوى ... درينة رام للأسى والنوائب

وما الحب شيء يجهل المرء قدره ... وما فيه لا يخفى على ذي التجارب

خليلي كفا واتركاني وخليا ... ملامي فذهني حاضرٌ غير غائب

إذا كان ذنبي الحبُ والوجد والهوى ... فتلك ذنوب لست منها بتائب

« والقصيدة طويلة تركت باقيها للاختصار »(٢) .

(١) المصدر السابق ٣/١٤١٦ .

(٢) معجم الأدباء ١٩/٢١٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الثاني

الـــرمـــز

- الرمز بالتراث .
- الرمز بالتورية .
- الرمز الإيحائي .
- الرمز بالمشابهة .
- الرمز الأسطوري .
- الرمز التاريخي .
- الرمز الصوفي .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الرمـــز :

الرمز هـو « التعبير عـن الأفكـار والعواطـف ليـس بطريقـة وصفهـا المباشـر الواضح، ولا من خلال التشبيهات الظاهرة للخيالات الجامدة وإنما يكون بواسطة وضع توقعات لماهية الأفكار والعواطف ، وذلـك بإنعاشـها في عقـل القـارئ مـن خلال الاستعمال الرمزي غير الواضح »(١) .

ولـلرمز أنـواع متعـددة ، ومنهـا الرمـز للآيـات أو للسـور أو للقصـص أو للأسلوب ومثل ذلك الحديث الشـريف ، ومنهـا الإشـاري ، كالإشـارة بطـواف المسلمين حول الكعبة استجابة لطاعة الله ، وكالصليب عند النصارى حيث يرمز لصلب عيسى عليه السلام وغيرها ، ومنه رمـز الألـوان المسـتخدم عنـد الرمزيـين المعاصرين .

ومنها الرمز الأسطوري التي تشير إلى الأحداث الخارقة ليسـتوحيها المتلقـي ، ومنه رمز المشـابهة الـذي يتمثـل في الرمـز الصـوفي في القرنـين السـادس والسـابع الهجريين ، والرمز الاستنتاجي « وهو أن يكون الرمز بعيد القرائن يتبلور في الفكر العـام ولا يتحـدد بعلاقـة المشـابهة وإنمـا يكـون الالتقـاء والعلاقـة في النتـائج الفكرية»(٢).

والرمز أن تهدف إلى معنى باطن تستشفه من خـلال المعنـى الظـاهر ويكـون بالمحاكـاة أو الإشـارة ، أو الإيحـاء أو بالتوريـة أو التلميـح والملاحـن ، والإلغـاز والأحاجي . فكل منها يرمز إلى لغة يحددها الناظم أو يؤولها المتلقي أو يكتشفها .

الرمز بالإشارة إلى القرآن الكريم :

اتخذ ألواناً متعددة فمن الأبيات الشعرية ما تقبس لفظه أو أكثر فتستدعي آية

---

(١) د. نسيب النشاوي : المدارس الأدبية ٤٦١ .

(٢) د . مسعد العطوي : الرمز في الشعر السعودي ٦٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كريمة أو سورة أو قصة قرآنية .

والإشارة ترمز إلى مضمون الآية فيتبادر إلى المتلقي فيتكاثف المعنى وفي ذلك غنى وأي غنى عن الإطالة أو الإسهاب بل أكثر دلالة وتأثيراً شعورياً .

وربما يتعاظم الرمز باستحضار سورة كاملة أو قصة من قصص الأنبياء عليهم السلام . ويكون الرمز بالاستخدام الأسلوبي والتوظيف اللفظي معاً كقول ابن سناء الملك :

ثناياه لا تفليل فيها ولا شغى وقامته لا أمت فيها ولا عوج(١)

حيث أسلوب النفي المتتابع في لا أمت ولا عوج ، وقد أشار إلى الآية الكريمة: ﴿ **لا ترى فيها عوجاً ولا آمتا** ﴾(٢) .فجمع الرمز بين كثافة الدلالة وجمال العبارة .

ومن الرمز الذي يتداعى بالأسلوب قول شرف الدين الأنصاري :

نُفِّرُ كالحمر المستنفرة أجفلت هاربة من قسوره
طلبوا شأوى ، ولما يلحقوا بعد لأي من غباري أثره
من يسالمني أسالمه ومن رام حربي ، فإليه المعذرة
وأبي من قد علمتم قدره مجهر بالخطبة المستحنفره
من يشاجره يصادف قومه جلّ من بايع تحت الشجرة(٣)

فالأسلوب يشير إشارة رمزية لبعض الآيات في سورة المدثر : ﴿ **كأنهم حمر مستنفرة ﴿﴾ فرت من قسورة** ﴾(٤) وما يليهما من الآيات . وهي ترمز لاحتقار من يفتخر عليهم ويسخر منهم بهذا الأسلوب القرآني العظيم الذي يصور روعة وفزع أصحاب الجحيم .

---

(١) الديوان ١٣٨ .

(٢) طه ١٠٧ .

(٣) الديوان ٢٢٣ .

(٤) المدثر ٥٠،٥١ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والبيت الأخير فيه رمز إلى بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وهذا يرمز إلى نسبته للأنصار لأن بعض المبايعين من المهاجرين وجلهم من الأنصار .

ومنه الرمز إلى حادثة إخراج إبليس لآدم وحواء من الجنة حينما طعما من الشجرة التي حرمها الله عليهما ، يقول ابن سناء الملك :

كنت في جنة فأخرجت منها ... واستعاد العطاء رب العطاء
أتراني أطعت إبليس في الأكـ ... ـل مع آدم ومع حواء(١)

فهو يرمز إلى المعاناة بعد موت أمه ، فهو خرج من الجنان والعطف بعدها كمعاناة آدم وحواء لما أخرجا من الجنة ، والرمز يودي إلى تكثيف التأثر واستلهام الحادثة الأولى ، وكونه لم يعتبر من حادثة أبينا آدم .

ومنه قول فتيان الشاغوري يمدح الملك الأشرف موسى بن الملك العادل :

هنيئاً لقد أوتيت سؤلك يا موسى ... بجدٍّ وحدٍّ كلمه الدهر ما يوسى
إذا أشرقت للأشرف القيل راية ... تنكست الصلبان بالكسر تنكيسا
وقد نطقت بالنصر بيض سيوفه ... كما أخرست رناتهن النواقيسا
هو الخضر المشهور نشراً وسؤدداً ... ويوسف حسناً وألق موسى تجد موسا
ويحمده عيسى على فتكاته ... بجحفلة في أمه عبدت عيسى(٢)

فيشير إلى استلهام قصة موسى عليه السلام ، وسيرة الخضر الرجل الصالح الذي صحبه وموسى ، ويرمز أيضاً إلى أن عيسى جاء ليصلح من انحراف بني إسرائيل وبشر بمحمد وإلى الآية الكريمة : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾(٣) .

---

(١) الديوان ٤ .

(٢) الديوان ٢٢٣-٢٢٤ .

(٣) المائدة ١١٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومنه قوله :

به عاش موتى الفقر حتى كأنما أتى الناس من بعد المسيح مسيح(١)

فالبيت يرمز إلى طلب الحواريين لعيسى عليه السلام أن ينزل عليهم مائدة من السماء ﴿ قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وءاخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين ﴾(٢) .

وقوله :

فنال الذي نال ابن داود قبله وعُمِّر ما في الدهر عُمِّر نوحُ(٣)

رمز إلى ملك سليمان بن داود عليهما السلام ، وإلى عمر نوح الذي عمر ، دعا قومه ألف سنة إلا خمسين .

وشرف الدين الأنصاري يحشد ألواناً من التوظيف الرمزي ، فيمازج بين الإيحاء القرآني والتراثي معاً ، فهو يذكر نزلة أخرى ، إعجاز المسيح ، وكسرى وقيصر ، قوله : « قد يسر الله لليسرى »، وسقط اللوى وقفا نبك من ذكرى ، وأذكر آيات الخليل وناره الباردة . وقول الله تعالى :﴿ سبحان الذي أسرى ﴾:

شفينا غليل الصدر منه بنزلة فطوبى لمن يحظى به نزلة أخرى
تحدى بإعجاز المسيح ليته فأحياه وصلا بعد قتلته هجرا
فلا تعجبوا للسيل والسيف واعجبوا لمقلته الوسنى ، ومقلتي العبرى
وإن بان ذلي وانكساري لبينه فمن قيصر، عند الوصال، ومن كسرى؟
وأي عذول كان في الحب عاذري؟ فذاك الذي قد يسر الله لليسرى
خليلي ! ها « سقط اللوى » قد بدا لنا فلا تعدواه ، بل « قفا نبك من ذكرى »
بدا فاسترق العالمين جماله فمن أجل هذا جل بالعين أن يشرى
وأذكر آيات الخليل عذاره لجنته الخضراء في ناره الحمرا

(١) الديوان ٨٣ .

(٢) المائدة ١١٤ .

(٣) الديوان ٨٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تباعد مسرى دارنا من حجاره وقد زارنا ليلاً «فسبحان من أسرى»(١)

ويقول ابن سناء الملك :

شاد ركن السبع الأقاليم بالتد بير حتى أضحت كسبع شداد(٢)

قلم في يد له لم يزل يجري في سرري بالصافنات الجياد(٣)

هو للملك كالمعاد فتلك اليـ ـد مغنية بذات(٤) العماد(٥)

فالسبع الشداد ، والصافنات الجياد ، وذات العماد مستوحاة من النظم القرآني ترمز إلى القوة في الأولى وإلى الاستعداد في الثانية وإلى الدعم والمساندة في الثالثة .

ويقول :

ما جاءه بشر منهم ليرشده إلا وهيا له من أمره(٦) رشدا(٧)

يرمز إلى فضل وكرم الفاضل واحتفائه بالعلماء فالكل يسعد بوفادته وينال حظاً وافراً من التقدير والإجلال . والإشارة بالآية تكثيف للمعنى .

ويقول :

من مبلغ بيسان سيد القرى أن الهناء أتاك من أم القرى

فلو استطاع البيت أرسل حجره وفدا وأرسل بالهناء المشعرا

كفر الشآم ، وعسقلان مؤمن حاشاه وهو عرينه أن يكفرا

ولكان مؤمن آل فرعون بهم إذ كان يضمر ضد ما قد أظهرا(٨)

---

(١) الديوان ١٩٨ .

(٢) من قوله تعالى : ﴿ وبنينا فوقكم سبعاً شداد ﴾ عم ١٢ .

(٣) من قوله تعالى : ﴿ إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ﴾ سورة ص ٣١ .

(٤) من قوله تعالى : ﴿ أرم ذات العماد ﴾ الفجر : ٧ .

(٥) ابن سناء الملك : الديوان ١٩٧، ١٩٨ .

(٦) الديوان ٢٢٢ .

(٧) ﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيء لنا من أمرنا رشدا ﴾ الكهف : ١٠ .

(٨) الديوان ٣٥٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فأم القرى لها وقع في نفوس المسلمين تدغدغ عواطفهم ، وتثير كوامنهم ، ومثلها المشاعر المقدسة ، وقد وظفها كيما يستلهم المتلقي الموجات النفسية فيزيد حبه ويندفع المسلم إلى تلك المدن المحتلة .

ويرمز لمكانة عسقلان بين المدن الساحلية التي في قبضة الصليبيين فكأنها مؤمن آل فرعون ﴿ **وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه** ﴾(١) .

وهي ترمز إلى الجهاد ضد الكفر فعسقلان مدينة إسلامية بين مدن احتلها الكفار ، ومؤمن آل فرعون بين قومه المشركين .

ومما يعاب في سبيل الإشارة الرمزية للقرآن الكريم توظيفها في غرض المجون، فالقرآن وإيحاؤه أجل وأعظم لذا يؤخذ على ابن سناء الملك قوله في الغزل :

فيا ليلة أحيت فؤادي بقربه ... فأحييتها سكراً إلى مطلع الفجر
ولما رأيت الروح فيها مسامري ... تيقنت حقاً أنها ليلة القدر(٢)

حاشا للقرآن الكريم هذا . والرمز واضح ﴿ **مطلع الفجر** ﴾ و ﴿ **وليلة القدر** ﴾(٣) ومثل ذلك يكثر في شعره .

ومن ذلك قول فتيان الشاغوري :

سقى الله ديراً فيه نادمت قسيساً ... فكان شريفاً ظاهر البشر قديساً
له خلق يرضى النبي محمداً ... ويأتي بما أوصى به قومه عيسى
ذؤابته الثعبان إذ راع شكلها ... إلى قلبه فرعون يوم عصا موسى
يسر الذي تلقاه يوماً بقربه ... سرور سليمان على عرش بلقيسا
فأنشدني شعراً أنيقاً مهذباً ... به وافق التطبيق في الحسن تجنيساً

---

(١) غافر : ٢٨ .

(٢) الديوان ٤٢١ .

(٣) يشير إلى سورة القدر .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وينبض سهماً طرفه كلما رنا وقوّس منه الحاجب السحب تقويسا(٤)

فنحن نرى من وراء الاقتباس والتضمين والإشارة إلى آية قرآنية رمزاً يؤدي وظيفة هذه المصطلحات البلاغية ، ويضيف إليها ، كثافة دلالية تستحضر الحدث، وتثير المشاعر والأحاسيس .

الرمز بالتراث :

وتستدعي معالم الثقافة الإسلامية في أشعار أولئك الشعراء ، وقد وظفوها للرمز كقول ابن سناء الملك :

وقد صدق النظام جوهر ثغره ألست تراه قد تقسم بالفلج(٢)

وتلتمس تكثيفاً رمزياً في البيت ، فالنظّام إشارة إلى العالم الإسلامي الفلسفي أبي إسحاق النظام ، وذلك يستدعي تنظيمه المنهجي ، وإعجاب الشاعر ، وعقد مقارنه بحسن نظم أسنان المحبوب وكذلك لفظة النظام ترمز إلى حسن انتظام الأسنان ورد الشاعر على فلسفته « فكان ينكر بوجود الجوهر » الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ ، فاستدل الشاعر على أن الجوهر الفرد منقسم كما نجد جوهر ثغره منقسماً بالفلج »(٢) .

ومنه قوله :

فإن قلت لي أن المشوق به سلا لقد قلت لي : إن السليك به عرج(٤)

فالسليك من أغربة العرب ومن العدائين المشهورين ، والرمز هنا للاستدلال على فكرة ثبات العشق الذي لا زوال له ، كما ثبت للعرب قاطبة قدرة السليك على الجري ونفى عنه العرج . والسلو عن الحب وسرعة السليك كلاهما

---

(٤) الديوان ٢٤١ .

(٢) الديوان ١٣٩ .

(٢) المصدر السابق ١٣٩ .

(٤) المصدر السابق ١٣٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

موضع غرابة .

وشرف الدين الأنصاري من الشعراء الذين أكثروا من الرمز التراثي : قال يمدح الملك الأمجد الذي اشتهر بقول الشعر :

والمالك الهادي ، فلا عجب إذا أضحى من الملك المضلل أشعرا

فالملك المضلل هو الضليل امرؤ القيس مما يستوحي القدرة الشاعرية .

ومنه قوله :

ومزمل نشد النجاة بجأشه وبجيشه، فأجبته :« أطرق كرا » (١)

« الكرا في الأصل لغة في الكروان ، ويقال له إذا صيد : « أطرق كرا إن النعام في القرى » ، وهذا مثل يضرب للرجل يخدع بكلام ولطف له ويراد به الغائلة . وقيل يضرب مثلاً للرجل يتكلم عنده بكلام فيظن أنه المراد بالكلام ، أي اسكت فإني أريد من هو أنبل منك وارفع منزلة وقيل معنى أطرق كرا أن الكروان ذليل في الطير والنعام عزيز ، يقال : اسكن عند الأعزة ، ولا تستشرف للذي لست له بند »(٢) .

ففيه هذا المثل رمز لتعظيم الممدوح .

ويكثر توظيف الرمز في مدح الرسول ﷺ والصحابة ، والشعر الصوفي عامة. تعداد الأماكن التي جابها الرسول الكريم ﷺ أو مواقع الأحداث كلها تستدعي نسمات الروح الإيمانية الصادقة للصحابة والرعيل الأول من المسلمين .

ففتيان الشاغوري عندما يمدح الصحابة رضوان الله عليهم يطوف على الأماكن التي ارتبطت بهم ر جذوة الروح الإيمانية . ل مكان يستدعي حدثاً عظيماً فهو يذكر سلع والغوير والعذيب ، وثنيات حاجر ، وشجر العرار ذات الرائحة الزكية .

---

(١) الديوان ٢٣٣ ، تحقيق د. عمر موسى باشا ، المطبعة الهاشمية بدمشق ١٣٨٧هـ .

(٢) المصدر السابق ٢٣٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ذراهـــا بســـلع والغويـــر ذراهـــا تمـــد إلى مـــاء العذيـــب خطاهـــا
ولا تشتهـــا عـــن ثنيـــات حـــاجر وإن راعهـــا جـــذبُ الـــبرى فبراهـــا
تحـــن إلى سلســـع ونور أقاحهـــا إذا هاج أنفـــاس العـــرار صباهـــا

ويشير إلى النفحات الإيمانية عند داود عليه السلام :

تطير إذا الحـــادي حداهـــا كأنمـــا بترتيـــل داود « النـــبي » حداهـــا(١)

وفيتان الشاغوري يجانس بين الممدوح وعلمه ويرمز بها إلى المصامين التي يمدح بها كقوله في الشرف عبدالمحسن بن إسماعيل الفلكي :

نجـم القـــاضي الشـــرف الفلكـــي في أســـعد بـــرج في الفلـــك
وذكـــاء محيـــاه وعطـــارد وا فـــي المولـــد فهـــو ذكـــي
ولـــو نـــاواه الأســـد الأعلـــى لشـــاه منـــدق الحنـــك
ولـــو أنّ الحـــوت عصـــاه أتـــى وهـــو المتخبـــط في الشـــبك
لو شـــاء رمـــى النسرين مـــن الـــ أفـــق الأعلـــى وســـط الشـــرك(٢)

فهو تحدث عن النجوم ومنازلها وأبراجها ، فذكاء هي الشمس ، وذكر عطارد وبرج الأسد ، والحوت وإن كان فيه تورية ، والنجمين المعروفين بالنسرين، وكما يشيد المعاصرون بثقافة السياب والبياتي بما يوردانه من الرمز الأسطوري لدلالته على سعة إطلاعهما كذلك فإن مثل هذه الرموز تدل على ثقافة أولئك الشعراء فدلتنا على إطلاع الشاغوري على علم الفلك .

ومن الألفاظ الرمزية التي تشير إلى أقصوصة كلمة « زياد » التي تشير إلى قصة نسب زياد بن أبيه إلى أبي سفيان بن حرب :

إن دعوى هـــواي بعـــد مشيـــب الـ ـرأس عندي كمثل دعـــوى زيـــاد(٣)

فهو يبرهن على كذب دعواه للحب بتلك الحادثة الإدعائية .

---

(١) فتيان الشاغوري ٥٥٧ .
(٢) الديوان ٣٠٥ .
(٣) الديوان ١٩٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وابن سناء الملك واسع الثقافة كثير الإطلاع . يوظف الأحداث والأساليب والمضامين المشهورة ، أو التي اختص به شاعر أو حكيم أو عالم فيستوحيها ويلمّح لها وبها وروض استخدامها ، وانقادت له فتكاثرت في أشعاره ، وكان لها تأثير في المتلقي حيث التواصل مع الثقافة الإسلامية ، والتراث العربي فيستحضرها القارئ، فيزداد استحياء ، وهذا ما يهدف إليه الرمز التراثي والأساطير ، واعتقد أن ابن سناء الملك بلغ شأواً بعيداً في هذا فهو زعيم الرمزيين في عهده وأكثر من التناص الشعري ومن ذلك قوله :

وبُرد يزيد بن المفرغ فارغ وتلك التي من حسنها ملئ البرد

فهو يهزأ ببيت ابن المفرغ :

وشريت برداً ليتني من بعد برد كنت هامة(١)

وقوله :

مشت قبلي غوراً ونجداً بجمعها فغور ونجد سرّة فوقها نهد

ومن قال إن الخيزرانة قدها فقولوا له إياك أن تسمع القد(٢)

والتواصل مع شعر ابن سناء الملك يكشف عن مذهبه في توليد المعنى حيث التعارض أو التضاد أو التماثل في المعنى التي استخدمها الأوائل فمعانيه نتيجة القدح للنماذج السالفة ، فيحدث شرراً وضياءً وتلك قبساته .

فهو يوظف الرمز من ناحيتين : أولاً الإيحاء ، كما يتضح من استلهام الغور والنجد ، والمعنى المولد الجديد الذي يعارضه وهو السرة والنهد ، وتلك المعارضة كفيلة بالدعوة إلى التأمل ، فتشبيه القد بالخيزرانه كثير في الأدب العربي لكن إن قدها تجاوز ذلك فيستحي أن يشبهه بالخيزران ، فهي معارضة تدعو إلى التدبر .

ومنه قول فتيان الشاغوري يمتدح الملك الأمجد بهرام شاه :

---

(١) المصدر السابق ٢٢٦ .

(٢) المصدر السابق ٢٢٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إذا جـــاد قـــالت عنـــد جـــوده ألا إن فينـــا حاتمـــاً لشـــحيح
يـرى رأي قيـس فـائلاً عنـد رأيـه وإن قـال مـا قـس لديـه فصيـح
وفي معمعان الحـرب عمـرو وعامـر يفران خوفاً منـه وهـو مشيـح(١)

فالبيت الأول يرمز إلى كرم حاتم الطائي .

والبيت الثاني يرمز إلى مشاهير العرب في الحكمة والفصاحة والثالث يرمز إلى الشجاعة بعمرو بن معد يكرب ، وعامر بن الطفيل .

والمصطلحات اللغوية والبلاغية عند كثير من الشعراء ومنهم ابن سناء الملك:

وإذا حملـن مهنـدا في فتنـة فمـن الضـرورة أن يكـون مجـرداً
رفـع الجميـل ، وكـان مبتدئـاً بـه أو ليـس قـد أمـروا برفـع المبتـدا
علم الزمـان عـن النـاس ترفعـي فلذاك ما جمع الجـداية والجـدى(٢)

فالجر ، والمبتدأ ، والرفع من المصطلحات النحوية التي أتى بها على غير وجهها فهي ترمز إلى معنى أبعد .

والجناس من المصطلحات البلاغية .

ومن الذين تجلت في شعرهم المصطلحات العلمية اللغوية شرف الدين الأنصاري :

تجاوزت آمالي بجـود ، هـو الفـلا فأوسعته شكراً بشعر هـو الشّعـرى

الشعرى من أسماء النجوم يرمز بها إلى شهرة شعره ، وكذلك يرمز بالرفع والنصب والجزم والجر :

مديـح تخـيرت القـوافي محليـا بـه رفعها والنصب والجزم والجـرا(٣)

وقـوله :

أيفشي إلى زيـد وعمـرو حديثنـا ؟ ولولا الضنى لم يدر زيـد ولا عمـرو

(١) الديوان ٨٢،٨٣ .
(٢) الديوان ١٥٢،١٥٣ .
(٣) الديوان ١٩٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رفعت ذوي الأعراب من بعد خفضهم فأثنى عليك الرفع والنصب والجر(١)

ومنه إشارته للخبر ، وزيد وعمروا في قوله :

لقد هاهم عنك المخبر قبلها فأغناهم فيها عن الخبر الخبر

وقد علموا في يوم « أفيون » ما نحت قناك ، ولا زيد هناك ، ولا عمرو(٢)

وهو يرمز بالفاعل وارتفاعه للقبول عن الوالي :

وإذا فاعل رام ارتفاعاً بفعله ففعلك مرفوع بأنك فاعله

ويرمز إلى مدحه ببحور الطويل والمنسرح ، والبسيط والوافر والكامل :

وبحر طويل الباع منسرح الندى بسيط المعالي وافر الفضل كامله(٣)

ومنه رمز بمصطلحات العروض والقافية كالبحر ، والردف والروي والتأسيس والدخيل في قوله :

كنت ردف الردى من بحره الزا خر أروي منه وآمن بينه

فثاني كأنني ألف التأ سيس حال الدخيل بيني وبينه(٤)

ووجدت هذه المصطلحات في أشعارهم ليست بالكثيرة خلافاً للدكتور عمر موسى باشا الذي يرى كثرتها عند شرف الدين الأنصاري حيث يقول :« كثرت المصطلحات النحوية وغيرها كثرة ظاهرة ، فقد استخدم معانيها لا كما وضعت لها، وإنما استخدمها بحسب مفهومه الخاص كمظهر من مظاهر الرمز والإيحاء»(٥).

والواقع أن القارئ يتصفح الديوان طويلاً فيمر على عدد كبير من القصائد لا يعثر على ذلك ولكنك تجدها ؛ إذاً فهي ليست بالكثيرة ، ومثل شرف الدين

---

(١) المصدر السابق ٢٢٦، ٢٢٨ .

(٢) الديوان ٢٢٥ .

(٣) المصدر السابق ٤٠٥ .

(٤) المصدر السابق ٥٠٢ .

(٥) ابن شرف الدين الأنصاري : الديوان ٣١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الأنصاري ابن سناء الملك فقد أجلت النظر في ديوانه فلم أعثر إلا على النزر اليسير . والدكتور عمر لم يأت إلا بخمسة أبيات ، ولم يشر إلى المواطن الكثيرة .

ولكنه في مرحلة متأخرة عن شرف الدين الأنصاري كثرت وانحرفت عن اللمحة الخفيفة إلى الإغراق والإفراط كقول شرف الدين الحصني يرثي ابن مالك صاحب الألفية المتوفى ٦٧٢هـ :

يا شتات الأسماء والأفعال ... بعد موت ابن مالك المفضال
وانحراف الحروف من بعد ضبط ... منه في الانفصال والاتصال
مصدراً كان للعلوم بإذن الله ... ، من غير شبهة ومحال
عدم النعت والتعطف والتوكيد ... مستبدلاً من الأبدال
ألم اعتزاه أسكن منه ... حركات كانت بغير اعتلال
يا لها سكتة لهمز قضاء ... أورثت طول مدة الانفصال
رفعوه في نعشه ، فانتصبنا ... نصب تمييز كيف سير الجبال
صرفوه ، يا عظم ما فعلوه ... وهو عدل معرف بالجمال(١)

• وتوظيفهم الرمز التراثي يتجلى فيه أمران :

١- الرمز باستدعاء أسماء المشاهير ، والغزوات ، وغيرها من التاريخ ، وهذا يكشف الدلالة ، ويثير في النفوس كوامنها التراثية ، فكان رمزاً له تأثيره وقدرته الفنية .

٢ - الرمز بالمصطلحات ، وهذا أقل دلالة لا سيما وأن مواطن استخدامه في معان لا تحتمل تكثيف الدلالة .

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأدباء ٢/١٧٣ ، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الرمز بالتورية :

كقول ابن سناء الملك :

عن المالك الأمـلاك رأيـاً وحكمـة وفاضلهم علمـاً وحلمـاً ومنصبـا(١)

ففاضلهم المعنى القريب لأفضل التفضيل لكن الشاعر يريد القاضي الفاضل .

ومنها قوله :

وقـائل جفنـك لم يغتمـض والليـل في سـاعته السـابعة

مـن ذا الـذي تغمـض أجفانـه والشمس مـن مرقـده طالعـة(٢)

فالشمس معناها القريب أنها المعروفة ولكن الشاعر يريد المرأة .

ومثله :

وليلة وصل راقبـت غفلـة الدهـر فجاءت ببدري وهي مشرقـة البـدر(٣)

فبدري يحمل معنى التورية وإن اتضح بالجملة الحالية .

ومن التورية عنده :

ذاكـر الكريـم بـن الكريـ ـم بـن الكـريـم الخيـم(٤)

يتبادر إلى الذهن يوسف عليه السلام للحديث المشهور « الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام » . لكنه يريد القاضي الفاضل .

ومنه قوله :

فجاءنـا المسـيح منـ ـه يـد الكليـم(٥)

فالتورية في المسيح الذي يتبادر إلى الذهن هو عيسى عليه السلام ، ولكن

---

(١) الديوان ٧٤ .

(٢) المصدر السابق ٤١٨ .

(٣) المصدر السابق ٤١٩ .

(٤) المصدر السابق ٧٣٧ .

(٥) المصدر السابق ٧٣٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ليس هو المراد ، وهو إما الرسول يطلق عليه المسيح ، أو هو لون من النقود أو غيرهما . والكليم يتبادر إلى الذهن موسى عليه السلام لأنه كليم الله ، ولكن ليس هو المراد وإنما الرسول المتكلم أو الرسول المنهك المتعب الذي حمل الهدايا .

وفي القصيدة ذاتها :

أشكو وما أشكو نعم أشكو إلى رحيم(١)

فرحيم تورية فالمتبادر إلى الذهن الشكوى رجل رحيم لكنه يريد اسم القاضي الفاضل رحيم .

وممن اشتهر بالتورية شرف الدين الأنصاري ومنها :

قالوا : لنا في جلق نزهة تسيك من أنت به مغرى
يا عاذلي دونك من لحظة سهماً ومن عارضه سطرا(٢)

فسهم وسطر من الأماكن الجميلة في دمشق عرّض بهما الشاعر وفيهما رمز كثيف الإيحاء فإن المكانين يستحضران المحبوب في شكله ونظراته فقرنه بجمال الطبيعة . ويرمز بإنسان العين إلى محبوبه :

يا نظرة ما جلت في حسن طلعته حتى انقضت وأدامتني على وجلي
عاتبت إنسان عيني في تسرعه فقال لي :« خلق الإنسان من عجل »(٣)

وهو يرمز لمغامرات الشعراء بدبيب النمل وعن حكاياتهم بالقصص :

سبحان مورثه من حسن (يوسف) ما لم يبق في (الحجر) لي والصبر من حصص
أقسام (للشعراء) العذر عارضه فكم لهم في دبيب النمل من (قصص)(٤)

وقد استخدموا الرمز بالتورية في الغزل كثيراً وكان من الخير تنزيه الآيات الكريمة والسور عن مجرد المقارنة في ميادين الغزل ، والأجد أيضاً أن لا يوظف

---

(١) المصدر السابق ٧٣٩ .

(٢) شرف الدين الأنصاري : الديوان ٢٤٠ .

(٣) المصدر السابق ٤٠٠ .

(٤) المصدر السابق ٢٧٩ ، ضمن مقطوعة فيها عدد من أبيات التورية .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الرمز بالقرآن أو الحديث الشريف في مضمار المجون أو الحديث عن الخمرة كمقطوعة شرف الدين الأنصاري(١) وله مقطوعة شعرية أخرى مكونة من سبعة أبيات تتضمن كل منها إشارة إلى آية قرآنية :

قسماً (بشمس) جبينه (وضحاها) ونهار مبسمه (إذا جلاها)(٢)

ومن جميل الرمز بالتورية لفظة (كي) فالقريب يشير إلى الكي بالنار وأما البعيد فإنه يستخدم كي التعليلية التي حذف فعلها لزيادة الإيحاء كي ترداد العلة :

ولقد أعجزت راقي علتي فكوى قلبي بالهجران كي(٣)

ومن توريته :

غالبت من عذلي جبابرة فكيف عوقبت منه بالتيه؟(٤)

فالتيه هنا التكبر في دلال يرمز إلى ضياع الشاعر كما تاه بنو إسرائيل . ومنه تعريض بمصرّعه فهو يشير إلى تحمل محبوبته بمصرعه وتباهيها به وفيه رمز إلى الشعر الوجداني الذي يصدر عن عشق حقيقي . في قوله :

فرت بالنوى قلبي ، وقالت : شققته لأكسو بيتي حسن بيت مصرّع(٥)

وقليل الرمز الذي يعمد إلى إخفاء المرموز له بأن يستبدله بصورة مشابهة له ويسمى الرمز الأسلوبي ، ومن هذا القليل ما عمد إليه الأرجاني الذي رمز لممدوحه بالماء ، فأخذ يخاطبه ، والديوان يذكر أنه يعاتب الماء استعارة فالأوائل سموه الاستعارة ، لكن الشاعر يرمز بحوض الماء لعطاء الممدوح وخيره المشرع فقال :

صدر الرّعاء ، وما سقيت ظمائي أفلا يخور جنانُ هذا الماء؟

---

(١) الديوان ٢٧٨ .

(٢) المصدر السابق ٥١٥ .

(٣) المصدر السابق ٥٢٤ .

(٤) المصدر السابق ٥٠٤ .

(٥) المصدر السابق ٣٠٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يا ماء : ها أنا عـن فنائـك راحـلٌ فلقد أطلـتُ ولـم ينلـك رشائـي

فرمز إلى الممنوحين بالرعاء لمناسبة الحوض ، ولأنهم رعاة لأسرهم وأشار إلى حرمانه من العطاء بقوله : (وما سقيت ظمائي) ، ويرمز إلى أمنيته إلى تدفع الماء « أفلا يخور حنان هذا المـاء » . ويشير إلى يأسه بمخاطبته الماء وأنه راحل لأن رشاءه لم يصل إليه فالرشاء رمز للوسيلة للممدوح من شعر أو جاه أو صحبة .

ويواصل الحديث عن علاقته بالماء رمزاً للوالي فيقول :

حتّـى متـى صـدري ووردي واحـدٌ؟ وإلام أشـكو حُرقـة الأحشـاء؟
مـن جمـع قطـر حيـاً أراك مصـوَّراً أفليـس يوجـد فيـك قطـرُ حيـاء؟
تُـروي أخـا نهـل وتـترك صاديـاً أغديـرُ ريٍّ أم غديـر ريـاء؟
إنّي أرى – يـا مـاء – وجهك صافيـاً لكـنّ نفسـك غـير ذات صفـاء
مـا الفضـل فيـك لشـاربيك بمعـوز بـل ، ليـس عنـدك حُرمـة الفُضَـلاء
بخـل الغمـام عليـك بُخلـك ظالمـاً وجفـا ذُراك كمـا أطلـت جفـائي
وإذا تفـروزت الميـاه بخضـرةٍ فبقيـت غـير مدبـج الأرجـاء
وإذا الربيع كسـا البـلاد بـرودهُ فتجـاوزتـك نسائـح الأنـواء

فهو يرمز إلى موارد المال بتوافده من الأقطار على ممدوحه وتجمع بين يديه فكأنها قطرات المطر تتجمع في حوض كبير . وهو يرمز إلى عدم العدالة في توزيع الأموال فالمقربون يشربون دائماً ، وكثير من المحتاجين يمنعون « تُروي أخا نهل ، وتترك صادياً » .

ويشير إلى التملق والنفاق فيرمز إليه بقوله :

إني أرى – يا ماء – وجهـك صافيـاً ولكنّ نفسـك غيـر ذات صفـاء

وهو يشير في قصيدته إلى ما سيكون عليه الأمر رامزاً بهجاء الماء .

ويقول أيضاً :

لأنـادينّ بسُـوءِ فعلـك معلنـاً بالشـرق والغـرب القصـي ندائـي
ولأنظمـن أرق منـك لسـامع كلمـاً وأحسـن في الكتـاب لـراء

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولأمـــلأن الأرض أنـــي مـــزاودي أصـدرن عنـك ، وهـــن غـــير مـــلاء
ولأخـبرن النـــاس حتـــى يعلـــم الـــ ـدانـي القريـب مـــع البعيـــد النـــائي
ما كـان ضـرك لـو كسـبت مدائحـي؟ بـل ، مـا انتفـاعك باكتسـاب هجـائي؟
مـــن كُـــل ســـائرة بـــأفواه الـــورى تحـــدو مطايـــا الرّكـــب أيّ حُـــداء؟
أنا أشعـــرُ الفقهـــاء غيـــر مدافـــعٍ في العصـــر ، أو أنـــا أفقـــه الشعـــراء

فهو يرمز بالمزاود الفارغة إلى عودته بلا عطاء ، ويشير إلى مكانته بين المجتمع تلك التي يخشى الوالي منها ، فهو يحاول إرضاء الناس بإرضاء القاضي الأرجاني ، وهو يرمز إلى مكانة شعره بأنه يروي الناس ويسري بينهم ويشير إلى تأثيره :

شعري ، إذا ما قلتُ يرويـــه الـــورى بـــــالطبع لا بتكلـــــف الإلقـــــاء
كالصوت في ظلل الجبـال ، إذا عـــلا للسمع هـاج تجـــاوب الأصـــداء(١)

الرمز الإيحـــائي:

والشعراء يقطفون كلمات شعرية توحيها القصيـدة أو الأحـداث الـتي قيلـت فيها كقول ابن منير :

غنوا حتـــى غزوتهـــم ففنـــى الصـــ ـدى في أرضهـــم «خـف القطين »(٢)

إشارة إلى قصيدة الأخطل :

خف القطين فراحوا منـك أو بكـروا وأزعجتهم نـوى في صرفهـا غيـر(٣)

فهـذا اللـون مـن الرمـز الإيحـائي ، حيـث توحـي بالارتحـال والفرقـة للوطـن والأهل، وإلى اختصاص الأخطل بعبد الملك وكونه المقـدم عنـد الخليفـة ذلـك مـا يبتغيه ابن منير عند نور الدين فيرتقي إلى هذه المنزلة بهذه الإشارة.

---

(١) الديوان ١/٤١،٤٢،٤٣،٤٤.

(٢) أبو شامة : الروضتين ١/٨٢ .

(٣) الديوان ١/١٩٢ ، إيليا حاوي ، نماذج النقد الأدبي ٣٢٥، ط٣ ، دار الكتاب اللبناني .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومنه الرمز الإيحائي : كقول أبي علي الفرج بن محمد بن الأخوة الشاعر المؤدب البغدادي المتوفى ٥٤٦هـ(١) :

بكيت على عصر الشباب الذي مضى بكاء (لبيد) ضم (أربده) القبر(٢)

فوظف الأسماء (لبيد ، وأربد) والقصة المحكية عن بكاء لبيد على أخيه أربد وظفهما توظيفاً رمزياً إيحائياً كيما توحيان بمعاناة الشاعر ، وحرارة البكاء ، والتأسف على الشباب ، وهذا الإيحاء وسيلته المشابهة . حيث شبَّه فيه فراق الشباب بفراق أربد ، وبكاء الشاعر ببكاء لبيد ، فالرمز هذا في البيت عن طريقين اثنين هما الإيحاء والمشابهة .

ومن الرمز الإيحائي التكثيف بالأسماء :

كقول أبي الجوائز المطاميري (المتوفى ٥٢٠هـ) في جبل لعلع :

يا ليت إيماض البريق عن يمين (لعلع)(٣)

فلعلع جبل في الجزيرة العربية ، من الأماكن التي وقف عندها شعراء العرب، فهي توحي بموجات الوجد والشوق ، مما جعل الشاعر يناسب المعنى بإيماض البرق ، فالذكريات تأتي على نوبات يثيرها حركة البرق من جهته .

« ومنه قول الشروطي البغدادي لفتى العماد ٥٢٢هـ ، وقد مات بعدها بقليل(٤) .

وهذا الشاب على إدراك بمضمون الرمز الإيحائي ، لكونه يستشرف الأسماء والأماكن ، ويستنطق الديار والحيوان يقول » :

واقف بالدار يسألها سفهاً ، لو ينطق الطلل

لو تجيب الدار مخبرة أين حل القوم وارتحلوا؟

---

(١) العماد الأصبهاني : الخريدة القسم العراقي ١٨٦/٢ .

(٢) المصدر السابق ١٨٨/٢ .

(٣) المصدر السابق ١٩٧/٢ .

(٤) المصدر السابق ١٩٢/٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لتشـــاكينا علـــى مضـــض نحـــن والأوطـــان والإبـــل
يـــا صبـــا نجـــد ، أثـــرت لنـــا حرقـــاً في القلـــب تشـــتعل
غـــرد الحـــادي ببينهـــم فلـه - يـــوم النـــوى - زجـــل(١)

فهذه كلها وإن لم تنطق له إلا أنها تؤثر فيه تأثيراً يورث الحرقة والاشتعال ، وهذا ما يمثل لوناً إيحائياً من الرمز المعاصر .

والشروطي صاحب غزل عذري يغلب عليه الرمز الإيحائي كقوله :

ســـتر الغـــرام فهتكتـــه الأدمـــع والدمـــع يعلـــن مـــا تجـــن الأضلـــع
وأعـــار في الأغصـــان كـــل حمامـــة نوحـــاً ، فـــرق لـــه الحمـــام الســـجع
واســـتن بـــرق بـــ (الحجـــاز) فشـــاقه ذاك الوميـــض ، وأقلقتـــه الأربـــع
وكـــذا المشـــوق إذا تذكـــر مـــنزلاً هـــاجت بلابلـــه الـــبروق اللمـــع
يا قلب هل لـك في السـلو طماعـة أم مـا مضـى لـك مـن زمـان يرجـع؟
أم هـــل لمـــن اســـر التجـــني منقـــذ أم أنَّ في قيـــد الصبابـــة موجـــع
كيف السبيل إلى (الحجاز) و (لعلـع) من بعدها ؟ بَعُد (الحجـاز) و (لعلـع)
أوطـــان شـــوق في الفـــؤاد مقيمـــة وغليـــل حـــب في الحشـــا لا ينقـــع
مـــن للمحـــب ترحلـــت أحبابـــه بـ (لوى العقيق) عن (العقيق وودعوا)
خذلتـــه أنصـــار التصـــبر في الهـــوى يـــوم الفـــراق وســـاعدته الأدمـــع
قـــف وقفـــة عـــني بـــ (برقـــة عـــاقل) وســـل الطلـــول ، وهـــل يجيبـــك بلقـــع؟
واستخبر الرسـم القديم ، وقـل لـه : أيـن الكثيـب ؟ وأيـن ذاك الأجـرع ؟
بـل أيـن سـكان الحمـى ؟ فلئـن سـروا عـــن مقلـــتي ، فلهـــم بقلـــبي مربـــع
أضحت هوادجهـم لـــذُرٍّ ربوعهـــم صدفاً ، وهن على الحدائـج تـرفع(٢)

ويتجلى الرمز في هذه القصيدة في مواطن منها :

١ - وظف الدمع للإيحاء بالذي يرمز للوجد والحرمان نتيجة الحب .

---

(١) المصدر السابق ٢/٢٩٨ .

(٢) العماد الأصبهاني : الخريدة القسم العراقي ٢/٣٠٣،٣٠٤،٣٠٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٢ – النواح الشجي الذي أعاره للحمام ينبئ عن أنين وحنين فهو يرمز إلى الغليان الداخلي للشاعر .

٣ – البرق يرمز لخطرات الوجد ، فالقلب ينبض بالهزات الشعورية الوجدانية كما يلمع البرق . ومثله النواح وسجع الحمام كلاهما يوحي بالتأثر الداخلي .

٤ – الأسماء العربية القديمة البعيدة الزمان والمكان لتوحي أكثر بالفرقة إلى جانب ما تثيره من ذكريات مماثلة كمثل (الحجاز) الذي وقف عنده الشاعر أكثر من وقفة ترمز إلى ذكريات عمر بن أبي ربيعة أو شعراء الغزل العذري مثل عروة بن حزام وجميل بثينة ، وكثير عزة .

ومن الأسماء الأخرى ، لعلع ، والعقيق ، وبرقة عاقل ، وقد وردت في شعر الغزليين و لم تكن جلها مما يرتادها الصحابة ولو كانت من الأماكن التاريخية لقلنا إنه غزل صوفي رمزي .

٥ – الحمى والهوادج ترمز إلى ترف وثراء الفتيات فهن منعمات ومعشوقات، وفيه إشارة إلى اكتمال جمالهن .

الرمز بالمشابهة :

وهو يقوم على المحاكاة لأن الصورة تستدعي صورة لها مثاليتها وشيوعها ورمزها النفساني ، كتشبيه الجلياني لموكب نجم الدين الأيوبي لما وفد على ابنه صلاح الدين في مصر ، بقصة يوسف عليه السلام مع أبيه واخوته :

في مشرق المجد نجم الدين مطلعه ... وكل أبنائه شهب فلا أفلوا
جاءوا ليعقوب والأسباط إذ وردوا ... على العزيز من أرض الشام واشتملوا
لكن يوسف هذا جاء إخوته ... ولم يكن بينهم نزع ولا زلل
وملكوا أرض مصر في شماختـه ... ومثلها لرجال مثلهم نزلوا
أبو المظفر مأوى كل مضطهد ... بحلمه ونداه يضرب المثل

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مهما يمـل جائـر أو عائـث عَمَـةٌ فعند عدل صـلاح الـدين يعتـدل(١)

فالقصة ترمز إلى تقى وصلاح نجم الدين وأبنائه ، وأن الله اختصهم بالهداية.

وتشير أيضاً إلى التأييد الإلهي بسياسة صلاح الدين وتقسيمه الأموال بـالعدل بـين المسـلمين ، وفي صبغـه بالصبغـة الإسـلامية رمـز لكيمـا يرهبـه الأعـداء مـن الداخل والخارج .

ومن صور المشابهة التي ترمز إلى أحـداث مؤثـرة يستحضر مدلولها قصيـدة للجلياني عام ٥٨٣هـ « عمـد الإسـلام » فيشـبه ضعـف المسـلمين وخذلانهـم ، وتساقط مدنهم ببيت يتهاوى فما مقدار الهول على أصحابه ؟! وأيضاً يرمز بقص الجناحين للطائر إلى الصليبيين فهم وافدون ، وهم منقضون على المدن الساحلية ، فقص الجناحين يؤدي إلى ضعفه ومن ثـم هلاكـه وكـان الجليـاني يرمـز إلى عـدم قدرة صلاح الديـن علـى إخراجهـم تمامـاً وهـو أيضـاً يسـتحضر صـورة يـأجوج ومأجوج وبناء ذي القرنين للسد ويستحضر فتح مكة المكرمة :

فيـا ملكـاً لم يبـق للديـن غـيره وَهَنَتْ عمد الإسلام فاشدد لها دعما

فشؤم فريق الشـرك في الشـام طـائر فقـص جناحيـه بـأقصى القـوى قصمـا

خصصـت بتمكـين فعـمّ العـدا ردى فـإنهم يـأجوج أفـرغ بهـم ردمـا

إذا صغرت من آل الأصـفر سـاحة الـ ـمقدس ضاهت فتـح أم القرى قدمـا

وهو يستحضر رمية الحصا في أعـين المشـركين في (بـدر) (ومـا رميـت إذ رميت) وهو مشابهة رمزية لطيفة أقل صراحة من التشبيهات المباشرة :

فإذا المسجد الأقصـى وهمتـك العلـى وعزمتك القصوى ورميتـك الصمـا(٢)

وهو أيضاً يستحضر الصور الرمزية المشـابهة التي ترمـز إلى مواقـف إسـلامية مشابهة كمجيء عمر بن الخطاب إلى بيـت المقـدس وقـائد المسـلمين فـاتح بيـت

(١) المبشرات والقدسيات ١٢٤ .

(٢) عبدالمنعم الجلياني : المبشرات والقدسيات ١٣٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المقدس الأول ، أبي عبيدة ابن الجراح ، ويستحضر بكاء أهل بيت المقدس من النصارى واليهود ، ويقرنه بمواقف صلاح الدين وأبنائه :

أبا المظفر أنت المجتبى لهدى ... أخرى الزمان على خُبر بخبرته

فلو رآك وقد حزت العلى عمر ... في قلة التل قضى كنه عبرته

ولو رآك وأهل القدس في ولهٍ ... أبو عبيدة فدى من مسرّته

غداة جزوا النواصي في قمامته ... وأعولوا بالتباكي حول صخرته

وأنت ترى أن البيت يرمز لحكايا تاريخية حول بيت المقدس .

وهو يرمز إلى الاستقامة وصلاح الجيوش الإسلامية وصلاح القائد صلاح الدين بأسلوب رمزي جميل في قوله :

دارت به الملة الحسنى فنحن على ... عهد الصحابة في استمرار ملّته

وأنت كاسمك صديق وصاحب الـ ... ـملك المظفر سام في مسيرته(١)

الرمز الأسطوري :

وهو يشير إلى الحوادث الخارقة ، والعلاقات الإنسانية مع النجوم والأساطير في الحكايات الخرافية القديمة ، يقول عرقلة الكلبي في الشعري ، والجوزاء ، وبرج الحمل :

شعرا تعالى على الشعرى ، وجاز على ... الجوزاء ، وأصبح محمولاً على الحمل(٢)

ومنه إشارته إلى قصة عازر والمسيح :

ألحاظك شيركوه وقلبي شاور ... أهوج في عذابه قد خامر

قدمت هوى ولي حديث آخر ... إن كنت مسيحاً فإنني عازر(٣)

وهو يشير إلى عوج بن عناق الرجل الذي تصوره الأساطير طويلاً عجيباً :

---

(١) المصدر السابق ١٣٦ .

(٢) الديوان ٨٠ .

(٣) المصدر السابق ١١١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مـــــــن رآه ورآنـــــــي قـــــال ذا غيـــر اتفاقـــــي
أعـــور الدجســـــال يمشـــي خلـــف عـــوج بـــن عنـــاق(١)

والإشارة إلى قصة سيف بن ذي يزن الأسطورية :

نـل فـوق مـا نالـه بـن ذي يـزن وافخر بما شئت من قيس ومن يمن
أعط لنفسك أقصـــى مـا تلذ به من مركب فـاره أو ملبـس حسـن(٢)

ومنه إشارة إلى أسطورة عربية هي (البلية) وهي الناقة التي تشد على قبر صاحبها حتى تموت ومنه ذكر المرباع أي ربع الغنيمة وما يختاره الزعيم الجاهلي من الصفايا ، وكلها توحي بإيحاءات مؤثرة حيث ترمز بأساطير قديمة :

حدوتهـــم بحـــد الســـيف لمّـــا أتـــوك بـــأكبد الإبـــل البلايـــا
وقفـــت عليـــك بـــابن أبـــي علـــي ثنـــائي بالغدايـــا والعشـــايا
وجودك عـــمّ كـــل النـــاس لكـــن لي المربـــاع منـــه والصّفايـــا(٣)

وأبو الفوارس يرمز لأسطورة الغول وكونه يمتطي النعام ، وهي من الأساطير العربية في العصر الجاهلي :

شعث كأن علـــى الركائـــب منهـــم غولاً تجـــاري بالنعـــام الأجـــدع(٤)

ومنه الإشارة إلى أسطورة السعالي وهم قبيلة من العرب ينسبون أمهم إلى الجن أو أنثى الغول :

لمـــن الخيـــل كأمثـــال السّعالـــي ماديـــات تتمطـــى بالرجـــال(٥)

---

(١) المصدر السابق ٦٧ .
(٢) شرف الدين الأنصاري : الديوان ٥٦٩ .
(٣) المصدر السابق ٥٢٣ .
(٤) العماد الأصفهاني : الخريدة القسم العراقي ٢٧٢/١ .
(٥) المصدر السابق : القسم العراقي ٢٩٣/١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الرمز التاريخي :

قال عرقلة الكلبي يمدح صلاح الدين الأيوبي :

مثـــل فتـــوح الفـــاروق نائلـــه ... شـــرقاً وغربـــاً في الســـهل والجبـــل
كـــم جعفـــر في يـــدي أبيـــه وكـــم ... في طـــي هـــذا الحشـــا مـــن الغلـــل
محمـــد خـــاتم الكـــرام كمـــا ... سمّيـــة كـــان خـــاتم الرســـل
كـــأن أيـــدي عـــداه حـــين بنـــوا ... أيـــدي بـــني ضبّـــة علـــى الجمـــل(١)
لـــولا فتـــى يوســـف الصـــلاح لقـــد ... كنـــت كيعقـــوب في يـــد البخـــل
كـــم خلـــة سدّهـــا ورأي وقـــد ... رأى قميصي قـــد قـــدّ مـــن قبـــل(٢)

فالشاعر يرمز إلى عظم فتوحات صلاح الدين بفتوحات الفاروق الإسلامية وهذا إيحاء رمزي عن طريق التاريخ والأحداث الكبرى ومثله معركة الجمل واستحضار حادثة يوسف عليه السلام والخير الشامل في عهده يرمز إلى عهد صلاح الديـن الزاهـر ، ويرمـز إلى عدلـه ، وأمـن النـاس علـى محـارمهم ، بحكاية القميص .

ومنه إشارة شرف الدين الأنصاري إلى سلطان كسرى وتبع :

مليك أغار السّحب من جود كفّه ... بـأنقع منهـا للغليـل وأنفـع
أخـير ، إذا قيسـت إليـه أوائـل ... تقاصر عنه مجد كسـرى وتبـع(٣)

الرمز الصـوفي :

إن شعر الغزل العذري ينأى عن تحقيق الرغبة العاجلة وإنما ينشد الاستحواذ الكلي على المحبوب ممثلاً في الاتحاد والتكامل بينهما وهو الزواج .

وأيضاً فإن الصوفي يحب عن قناعة ، ولا ينشد أجراً عاجلاً ،أو مثوبة دنيوية،

---

(١) يشير إلى موقعة الجمل .

(٢) الديوان ٨٦ .

(٣) الديوان ٣٠٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أو هدفاً قريباً إنما يسعى إلى الاتحاد والتكامل والتفاني في ذات الخالق ، تعالى الله عما يزعمون ويقولون علواً كبيرا .

والشعراء العذريون استحوذ عليهم الحب ، وغمرهم بهزاته العنيفة وحجب عنهم ما سواه من الغرائز الأخرى التي تنتاب الإنسان ، وضعف التفكير العقلي وانحرف إلى ماهية الحب والتأمل فيه ، وبطول الاستغراق أصيب بالذهول والشرود ، وعدم المبالاة بالسلوك الاجتماعي ، ونتيجة لإعراضه عن ضروريات الحياة من زواج وعمل وغيرهما فقد نسب إلى الحيوان .

والشعراء الصوفيون استحوذ عليهم الانغماس في التكوين الروحي الذي يوصلهم إلى النور الإلهي كما يزعمون ، وهم يدخلون إلى التصوف بمراحل من الخلوات يعرضون فيها عن الدنيا ، والرغبات النفسية وعدم المبالاة بالسلوك الاجتماعي والفردي معاً ، ونتيجة لهذه النزعة ؛ فإن المجتمع يتسم بالقصور الفكري وعدم الاعتدال والتوازن والعته وهو الجنون الصوفي وهم في شعرهم يدّعون أنهم يعبرون عن رغبة الاتحاد مع النور الإلهي .

ولأن الله لا يتجلى للصوفية ، ويزعمون أنهم يلتمسون صوره في جماليات الأشياء ، وليس أمامهم في نظره الإنسان أجمل من المرأة أو الدمية وتأثير الخمر ، لذلك فمن هنا تخيلوا أوصافهما رمزاً للتجلي الإلهي ، تعالى الله عما يصفون .

والصوفيون تأتي رمزيتهم من تفريغ الدلالة اللفظية العربية إلى دلالات بعيدة، فالدلالة تتجاوز الحد الوضعي لها .

وشعراء ومنظرو الصوفية يعلنون للملأ أنهم يرمزون إلى ما رواء الغزل الذي يتكشف من الألفاظ والتراكيب كقول ابن عربي :

كل ما أذكره من طلل ... أو ربوع أو مغانٍ كل ما

وكذا إن قلت هي أو قلت هو ... أو هموا أوهن جميعاً أو هما

وكذا السحب إذا قلت بكت ... وكذا إذا ما ابتسما

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أو بـــروق أو رعـــود أو صبـــا ... أو ريـــاح أو جنـــون أو سمـــا
أو نســـاء كاعبـــات نهـــد ... طالعـــات كشـــموس أو دمـــى
كـــل مـــا أذكـــره ممـــا جـــرى ... ذكـــره أو مثلـــه أن تفهمـــا
منـــه أســـرار وأنـــوار جلـــت ... أو علـــت جـــاد بهـــا رب السـما
لفـــؤادي أو فـــؤاد مـــن لـــه ... مثـــل مـــا لي مـــن شـــروط العلمـــا
فاصـــرف الخاطـــر عـــن ظاهرهـــا ... واطلـــب الباطـــن حتـــى تعلمـــا(١)

فهذا إعلان للرمزية فهل نكتفي بما يعلنون أم أننا نرى ضرورة التماس ذلك من النص ، فهل استطاع الشاعر الصوفي أن يوحي لنا بهذا المفهوم عن طريق الدلالة اللفظية والنصية ؛ الواقع أنهم أول من لفت الانتباه إلى دلالة نصوصهم كهذا النص السابق ، وكذلك شرحهم لشعرهم . ولولا ذلك لقل من يتأوله تأولاً صوفياً ، ولهذا فإننا نتناول الرمز في أكثر نصوصهم ، ولما تمر بهم أحلام اليقظة الغزلية وتنتابهم وسوسة الشيطان في الصلاة فإنهم يزعمون التجلي الروحي في تلك الصور المادية لهم :

أدر ذكـر مـن أهـوى ولـو بمـلام ... فـإن أحـاديث الحبيـب مرامـي
بورحـي مـن أتلفـت روحـي بحبهـا ... فحـان حمـامي قبـل يـوم حمـامي
أصلي فاشـدوا حـين أتلـوا بذكرهـا ... وأطـرب في المحـراب وهـي امـامي
وبـالحج إن أحرمـت لبيـت باسمهـا ... وعنهـا أرى الإمسـاك فطـر صيـامي
ولمـا تلاقينـا عشـاء وضمنـا ... سـواء سـبيل دارهـا وخيـامي
تثنـت فخلنـا كـل عطـف تهـزه ... قضيـب نقـا يعلـوه بـدر تمـام
وملنـا كـذا شـيئاً عـن الحـي حيـث ... لا رقيـب ولا واش بـزود كـلام
فرشـت لهـا خـدي وطـاء علـى الثـرى ... فقـالت لـك البشـرى بلثـم لثـام
وبتنا كما شاء اقتراحـي علـى المنـى ... أرى الملك ملكي والزمـان غلامـي(٢)

(١) رجاء عيد : دراسة في لغة الشعر ١٢٩ .
(٢) المصدر السابق ١٢٦ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فهذا رمز طبيعي يوظف الصور الغرامية الحسية ليجعلها رمزاً لصور العشق الصوفي كما يزعم ، وأرى هنا عاطفة صادقة تكاد أن تمثل واقع حب حقيقي أو ينفس عن نفسه المكبوتة باللغة الشاعرة .

والرمز الصوفي تمثل في الصور كما أسلفت في النص السابق ، ويتضح في أسماء الأماكن المقدسة وأسماء الأماكن المؤدية إليها ، وأسماء المرأة التراثية ويتمثل أيضاً في الرحلة من الديار النائية إلى البلاد المقدسة ، وتتلاحم الرمزية في القصيدة كاملة . يقول ابن الفارض :

أبرق بدا من جانب الغور لامع ... أن ارتفعت عن وجه ليلى البراقع
أنار الغضا ضاءت وسلمى بذي الغضا ... أن ابتسمت عما حكته المدامع
وهل لعلع الرعد اهتون بلعلع ... وهل جادها عما حكته المدامع
وهل أردن ماءَ العُذيب وحاجر ... وهل جادها صوب من المزن هامع
وهل قاصرات الطرف عين بعالج ... جهاراً وسر الليل بالصبح شائع
وهل فتيات بالغوير يرينني ... مرابع نعم نعم تلك المرابع
وهل رقصت بالمأزمين قلائص ... وهل للقباب البيض فيها تدافع
وهل سلمت سلمى على الحجر الذي ... به العهد والتفت عليه الأصابع
وهل رضعت من ثدي زمزم رضعة ... فلا حرّمت يوماً عليها المراضع
لعل أصيحابي بمكة .. يبردوا ... بذكر سليمى ما تُجنُّ الأضالع(١)

والحقيقة أن رمزيتهم هي الرمزية المعاصرة التي تعمد إلى الإيحاء والتكثيف بواسطة الأسماء التراثية ، أو الصور الحسية وغيرهما ، وليست من الرمز الطبيعي في شيء كالذين يرمزون بالنخلة للمرأة أو ما شابه ذلك .

وقد أتيت بنبذة يسيرة عن الرمز الصوفي ، ومن طلب المزيد فليرجع لكتاب الرمز الشعري عند الصوفية للدكتور عاطف جودة .

---

(١) نقلها : د. عاطف جودة في الرمز الشعري عند الصوفية .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الثالث

الصـــورة الشعريـــــة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التصويـــــر :

استطاعت اللغة الشعرية عند شعراء القرنين السادس والسابع أن ترسم لنا مسارح متحركة تنبض بالإيحاء ، من الأفراح والأحزان ، والأحداث والمعارك ، وكانت اللغة ذات قدرة فاعلة لنقل الأحاسيس والشعور الداخلي لإنسان العصر ممثلاً في شعرائه ، والذي يعايش الدواوين الشعرية لتلك المرحلة يتأرجح بين أمم وشعوب إسلامية مختلفة يجمع بينها الدين ، وتستقل كل منها بمكوناتها الاجتماعية ، وبيئتها التعليمية التي تموج تحت رياح السياسة ، المضطربة ، والشاعر مع تمثله لحياة الأمة بعامة ، فلا ريب من تصيد واقعه الذاتي في بطون أشعاره . يواجهنا الشاعر أبو الفوارس (حيص بيص) في مطالع قصائده بتصوير ذاتي يقول في بائيته :

خذوا من ذمامي عدة للعواقب ... فيا قرب ما بيني وبين المطالب
لواني زماني بالمرام وربما ... تقاضيته بالمرهفات القواضب
على حينما ذدت الصبا عن صبابة ... ذياد المطايا عن عذاب المشارب
وأعرضت عن وصل الخريدة ، والهوى ... يطاوعني طوع الذلول لراكب
ورضت بأخلاق المشيب شبيبة ... معاصية لا تستكين لجاذب
عقائل عزم لا تباع لضارع ... وأسرار حزم لا تذاع للاعب
ولله مقذوف بكل تنوفة ... رأى العزّ أحلى من وصال الكواعب
مرهتُ بإدماني سرى كل حادث ... ولا كحل إلا من غبار المواكب(١)

فأنت تراه يصور الذمام المعنوية بمحسوس يؤخذ منه ، ويشخص الزمان بفاتك يلوي . ويصور صراعه لريب الزمان ودواهيه بقوله : « تقاضيته بالمرهفات القواضب » ، فيجعل عزائمه وإرادته الداخلية كالمرهفات القواضب .

وهو يشير في هذه الصور إلى الديمومة الحربية في النفس الإنسانية

(١) الديوان ١/٧٢ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الأمارة بالسوء .

وفي البيت الثالث يصور مغريات الشباب واندفاعه التي تدعوه للهوى ، وهوى النفس بالإبل الهيم التي تذاد عن حياض الماء كيما لا تؤذي بعضها ، ومعروف اندفاع الإبل الهيم على الماء . فهو تصوير مسرحي تشخيصي .

والصورة تستدعي قول سويد بن كراع العكلي(١) الذي يصور انثيال القوافي بتوارد الإبل :

عواصي إلا ما جعلت أمامها عصا مربد تغشى نحوراً وأذرعاً(٢)

وأبو لفوراس في بيته الرابع يشخص هواه وعزيمته بالعيس التي تذلل وتكون سهلة الانقياد .

وفي الرابع يصور المغيبات النفسية للشاعر وسرائره وأسراره بأنها إبل نجيبة عقائل لا تهدي . وفي الخامس يصور شبابه بالمهر الجامح الذي لا يستكين لمروضه ثم هو يصور العز والقيم والمعالي بجانب الكواكب المغريات .

وتتجلى قدرة الشاعر التصويرية في قوله :

مرهت(٣) يادماني سرى كل حادث ولا كحل إلا من غبار المواكب

فإن كظمه للغيظ ، وكتمه للسر ظهر جلياً على معالم وجهه ونظراته ، وتلك معالم من الفيض الشعوري للشاعر .

وأبو الفوارس أحسن التوظيف الزمني في الصورة في قوله : « خذوا من ذمامي» فيه استحضار للمستقبل واستعداد له .

وقوله : « لواني زماني » فيه دلالة زمنية على ثبات الصراع مع الأحداث ، وقوله : « تقاضيته بالمرهفات ... » فيه إشارة لمرارة الصراع والإنهاك الذي

---

(١) شاعر فارس من شعراء بني أمية : انظر البيان والتبين ١٢/٢ .

(٢) الجاحظ : البيان والتبين ١٢/٢ .

(٣) مرهت عيني : أبيضت حماليقها .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

توحي به لفظة « تقاضيته » حيث زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، وحيث التقاضي الذي يدل على التفاعل والجهد .

وبيت التصوير الحركي والتشخيص والتجسيم هو :

على حينما ذدت الصبا عن صبابة ذياد المطايا عن عذاب المشارب

فصور الدواعي النفسية وأمرها بالسوء بالإبل الهيم ، وصور الصبا حيث الوقوع في الملذات بالحياض ، ثم كأنه لم يقنع بذلك حتى كرر الصورة ذياد المطايا عن عذاب لمشارب .

والشكوى من نوائب الدهر تتكاثر في شعر الشعراء ، حتى أنها ظفرت بالمقدمة : فهذا ابن الخياط الدمشقي يصور تضافر النوائب عليه ، وتصديه لها ، بحزمه الصادق الذي يشاكل حزام الرحل على ظهور النجائب ويصور عزائمه بجيوش تتصدَّى للمعتدين ، بل يرى مقارعة هموم الليالي أشد من مقارعة الكتائب:

يقيني يقيني ، حادثات النوائب وحزمي حزمي في ظهور النجائب

سينجدني جيش من العزم طالما غلبت به الخطب الذي هو غالبي

ومن جرّب الأيام عوّد نفسه قراع الليالي لا قراع الكتائب(١)

ومنها تصويره للمساعي والجد في الحياة ونتائجه بروض ممرع ، وجسد الأماني بالماء الرقراق :

فمالي لأروض المساعي بممرع لدي ولا ماء الأماني بساكب

وابن منير له قصائد كثيرة في المعارك ضد الصليبيين في ظلال الرجل الصالح نور الدين ومن الصور التي وردت في قصيدته البائية :

فأشرف وهو عن شرف معوف وأصعد وهي غاية الانصباب

تكاشره الشوامت وهو مغض ثناه منه عن رجع الجواب

(١) العماد الأصبهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ٦/١٧٢ ، شعراء الشام .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وكم سوط بخيلك أقبلوه الصـــ ـــدور فكان سوطاً من عذاب
هتكت حجابهم والشمس وسنى بشمس لا توارى بالحجاب
بأبيض من حيبك الهند صاف مصون المتن مبتذل الذباب
له سمة الشيوخ صفاء شيب وفي خطواته ترف الشباب
ألا يا ناظر الدنيا بعين أرته علاجها خدع السراب
تبطنها فطلقها ثلاثاً على عز التملق والخلاب
فلا يأوي إلى رأي شعاع ولا يثنى إلى أمل خراب(١)

والقيسراني يصور دمشق حين ضمها نور الدين بالصلح الذي لم يدم طويلاً، بأنها الفتاة البكر لم يحجبها وليها ، وقد تصدت لك في بهجة كأنها الحورية تكسوها الأردية الفردوسية الخضر ، وهو يمنحها الإحساس ، فهي تتمنى هذا اللقاء سراً وتعلنه جهراً ، ويجعل لها مهراً من الأمن والعدل ، ومن ثم يكون التلاقي الذي طال انتظارها إياه :

خطبت فلم يحجبك عنها وليها وخطب العلى بالسيف ما دونه ستر
جلاها لك الإقبال حورية السنا عليها من الفردوس أردية خضر
خلوب أكنت من هواك محبة نمت فانتمت جهراً وسر الهوى جهر
فسقت إليها الأمن والعدل نحلة فأمست ولا أسر اخاف ولا أصر
فإن صافحت يمناك من بعد هجرها فأحلى التلاقي ما تقدَّمه هجر

وتراه يصورها بفتاة ذات دلٍ وغنج وتمنع فهي بكر لم تفتض وقد استعصت:

وهل هي إلا كالحصان تمنعت دلالاً ، وإن عز الحيا وغلا المهر
ولكن إذا ما قستها بصداقها فليس له قدر ، وليس لها قدر(٢)

ومن التصوير لأحداث الجهاد تصوير الملك المظفر تقي الدين عمر بن

(١) أبو شامة : الروضتين ١/٩٢ .
(٢) أبو شامة : الروضتين ١/٧٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

شاهنشاه[1] لفتح بيت المقدس ، حيث صور المدينة في ملامح غادة حسناء تزف إلى صلاح الدين :

جاءتك أرض القدس تخطب ناكحاً ... يا كفأها ما العذر عن عذرائها
زفت إليك عروس خدر تجتلى ... ما بين أعبدها وبين إمائها
إيهٍ صلاح الدين خذها غادة ... بكراً ، ملوك الأرض من رقبائها
كم خاطب لجمالها قد ردّه ... عن نيلها أن ليس من أكفائها[2]

وأسامة بن منقذ يصور مسيرة الجيوش التي يستبان منها البؤس والشر للأعداء، ويصف ألبستهم الحربية ، وخيامهم التي تشبه نجوم السماء ، والبيض حمر المضارب ، والطير تسير فوق الجيوش تلتمس القوت من الأعداء ، وهكذا يستمر في أوصاف الجيش :

وسرنا إليه حين هاب لقاءنا ... وبان له من بأسنا البأس والشر
وثير حشايانا السروج ، وقمصنا الـ ... ـدروع ، ومنصوب الخيام لنا قصر
ترى الأرض مثل الأفق ، وهي نجومه ... وإن حسدتها عزّها الأنجم الزهر

ويصور هيام الملوك خارج ميادين القتال بمفاتن النساء ، فيعرض بهم وبالأعداء ، ويوضح اهتمام ممدوحه والمقاتلين معه بالجهاد .

وهمّ الملوك البيض والسمر كالدّمى ... وهمتنا البيض الصوارم والسمرُ
صوارمنا حمر المضارب من دم ... قوائمها من جودنا نضرة خضر

ويقول :

نسير إلى الأعداء والطير فوقنا ... لها القوت من أعدائنا ، ولنا النصر
فباس يذيب الصخر من حر ناره ... ولطف له بالماء ينبجس الصخر

ويصفهم بأسد الشرى : ويصف جند الأعداء بالصيد السهل من الظباء :

---

(١) ابن أخي صلاح الدين ، من ولاة صلاح الدين على مصر وغيرها مات ٥٨٧هـ ، انظر : العماد الاصبهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ٦/٨٠ قسم الشام .

(٢) المرجع السابق ٦/٨٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وجيش إذا لاقى العدو ظننتهم أسود الشرى عنت لها الأدم والعفر(١)

تلك أبيات من قصيدة أسامة التي أخلصها لسرد الحروب الصليبية ، والمتصفح لديوانه يُفاجأ بندرة الحديث عن الحروب الصليبية ، مع أنه عاش معمعتها ببداية الهجوم الصليبي ، وبداية الجهاد وقوته وانتصار المسلمين وفتح بيت المقدس . وأرجح أن أسباب إعراضه عن ذلك يعود لكونه شاعراً غير مداح ، ولتشرده في أقاليم الشام ومصر ، ولانشغاله بذاته ، ولعدم مصاحبته أبطال الحروب الصليبية كثيراً ، وإنما فترات متقطعة ، وربما للجفوة معهم التي لا تصل إلى حد القطيعة .

والغزل ميدان من ميادين التصوير الفني في شعر القرنين السادس والسابع الهجري . فهو يصور لنا المحبوبة بالشادن والتصبر عنه ومقارعة النفس نسكاً وحلماً ، ذلك الأهيف الذي أنبت الجمال بفيه درّاً ، وأعار الغزال عيناً والغصن ليناً والأقحوانة ثغراً، ويحشد له صورة الشمس والبدر . وأنت تكاد تشعر بملاحته، وتنظر إلى دهشته وروعته وهو يشبه اعتصامه وابتعاده عن الوقوع بالصائم الذي يهيم للماء لكنه يكره الإفطار :

من عذيري من شادن لم أطق عنه من النسك والتحلم صبراً
أهيف أنبت الجمال بفيه الـ ـعذاب درّاً سقاه مسكاً وخمرا
فأعار الغزال عيناً وغصن الـ ـبان ليناً ، والأقحوانة ثغرا
اجتلى منه في ضحى اليوم شمساً وأرى منه في دجى الليل بدرا
فيه أنس وللملاحة في عينيـ ـه معنى ، تخاله العين ذعرا
قال لي : إذ رأى غرامي وصدي أنت تخفي وجداً ، وتظهر هجرا
أنت كالصائم الذي يشتهي الـ ـماء لفرط الظما ، ويكره فطرا(٢)

(١) الديوان ٢٥٢،٢٥٣ .

(٢) المرجع السابق ٧٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهو يصور متابعة العذاري وأن مواعيدهن غبش من ظلام وسراب يتبعه الظمآن :

لا ترتج النجح من مواعده ... فهي صباح ينجاب عن غبش
ما هي إلا السراب يتبعه الظمـ ... ـآن حتى يموت بالعطش(١)

ومن تصويره :

لا غرو إن هجرا الخيالُ الزائر ... ما يستزيد الطيف طرف ساهر
دون الكرى خطرات همٍ ذدنه ... عن ناظري ، فهو النُّوار النافر
وإذا فزعت إلى الأماني صدَّني ... يأس يحققه الزمان الخاتر
استعطف الأيام وهي صوداف ... وألومها ، وهي المصرّ الجائر
أشكو جراحات بقلبي تعجرز ألآ ... سي ، ولم يبلغ مداها السابر(٢)

وهو يصور ابنه عتيق بالهلال الذي يبتدئ من وراء السحب ، حينما كان غلاماً يافعاً ويرى أنه بين أترابه كالبدر بين النجوم ، يقول ذلك في رثائه له :

عتيقٌ كالهلال إذا تبدى ... لساري الليل من تحت الغيوم
تقول إذا به الأتراب حفوا ... أهذا البدر ما بين النجوم(٣)

ويصور حزنه وألمه وحيرته أثناء زيارة قبره وكيف يغص بالإشجان ، فتفقده الوعي ، ويتأمل القبر وظاهره ثم يعود لباطنه حيث يجعل ابنه كالدرٍّ وصدفه في أعماق البحار . وفي البيت الثالث يرسم لنا لوحة للحيرة وعدم الاهتداء :

أزور قبرك والأشجان تمنعني ... أن أهتدي لطريقي حين أنصرف
فما أرى غير أحجار منضدة ... قد احتوتك ومأوى الدرة الصدف
فانثني ، لست أدري أين منقلبي ... كأنني حائر في الليل معتسف(٤)

---

(١) المرجع السابق ٧٣ .
(٢) أسامة بن منقذ : الديوان ١١٨ .
(٣) المرجع السابق ٢١٠ .
(٤) المرجع السابق ٣٥١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مصـادر الصـــورة

القرآن الكريم والحديث الشريف :

والشعراء وغيرهم عكفوا على القرآن الكريم وتنشأوا عليه حفظاً وتفسيراً فانطبع في مخيلتهم ، وتلبست به أحاسيسهم ، وتنامت به لغتهم ، وتجملت به تراكيبهم ، وتأثرت به صورهم . فهذا ابن سناء الملك يشرب شرب الهيم ، ويصور الثغر وما وراءه بالرحيق المختوم ، والعاشق بالعرجون القديم :

شـــربت شـــرب الهيـــم(١) مـــن فـــم ذاك الريـــم
وفـــض لثمـــي الختـــم عـــن رحيقـــه المختـــوم (٢)
وأيـــن ذاك القـــدُّ مـــن عرجونـــه القديـــم(٣)

وهو يقبس صورة أيضاً من الحديث « إذا غم عليكم ... الحديث » :

قـــد غـــمّ بـــدر التـــم منـــه فهـــو في الغمـــوم
ذاك الكريـــم ابـــن الكريـــ ـــم ابـــن الكريـــم الخيـــم(٤)

ومن القصيدة :

واشـــتعل الشـــيب كمثـــ ـــل النـــار في الهشـــيم
وأصبحـــت جنـــة أطـــ ـــرابـــي كـــالصريم
وملكـــي أزيـــل مـــن شـــيطاني الرجيـــم
فجاءنـــا المســـيح منـــ ـــه بيـــد الكليـــم
كمـــا عنـــت أوجههـــا لوجهـــه الكريـــم(٥)

---

(١) الواقعة ﴿ فشاربون شرب الهيم ﴾ ٥٥ .

(٢) المطففين ﴿ يسقون من رحيق مختوم ﴾ ٢٣ .

(٣) يس ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ .

(٤) من الحديث ((الكريم بن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم)).

(٥) الديوان ٧٣٤، ٧٣٥، ٧٣٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وابن النبيه المصري يستقي صورة من القرآن الكريم ، فالملائكة تحف الخليفة في حربه زمراً ، وأجنحة الملائكة تعقد حماية له وتأييداً ، واتقاد نار جهنم ، ويستوحي يوم الأحزاب إذا الرياح اشتد عصفها بالكافرين ، وصور الخيل الصافنات . واستمد أيضاً الهباء المتبدد ، وماء الحميم الآسن ، وصورة المزمل :

يعلوه من زمر الملائك فيلق ... بالرّعب ينصر عزمه ويؤيد
يا عاقداً للطعن فضل لوائه ... مهلاً فأجنحة الملائك تعقد
أنفت صوارمه الجفون فأصبحت ... بالنصر في قمم الخوارج تغمد
عصفت رياح الصافنات بجيشه ... شدّا فطار هباؤه المتبدد
سد العجاج عن الهزيمة سبله ... فسقاه ماء الموت دجن أسود
ثم انجلى عنه القتام فهارب ... ومُزمّلٌ بدمائه ومصفد
زجت به عن أصبهان وأختها ... همذان حرب نارها لا تخمد
مسحاً بأعناق الجياد وسوقها ... إن كان قد أنجاه طف أجرد(١)

ومنه الصور الذهنية في (فصاحبكم ما ضل يوماً وما غوى) والحسية في «والنجم المنير إذا هوى » كما ورد عند شرف الدين الأنصاري :

وقال : أقيلوا صحبتي من ملامكم ... فصاحبكم ما ضل يوماً وما غوى
يميناً بقرط النجم منها إذا سما ... علّوا وبالنجم المنير إذا هوى

فقد استوحى صوره من قوله تعالى : ﴿ **والنجم إذا هوى** ﴾ ﴿ **ما ضل صاحبكم وما غوى** ﴾(٢) .

ويستمد صورة الاستواء على العرش ، والرمي بالشهب لمسترق السمع وتعذيب النار التي تنزع الشوى من قوله تعالى :﴿ **كلا إنها لظى** ﴾ ﴿ **نزاعة للشوى** ﴾(٣) ، وخلع النعلين للتقديس ﴿ **فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس**

(١) الديوان ٨٧،٨٨،٨٩ .
(٢) النجم ١،٢ .
(٣) المعارج ١٥،١٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

طوى ﴾(١)، ومن طي السماء كطي السجل ﴿ والسموات مطويات بيمينه﴾(٢):

ويرمي فلا يشوي بشهب قواضب ... لظاها من الأعداء نزاعة الشوى
ويطعن بالخوصان فيهم كأنها ... مصابيح عن عوج الخناجر في كوا
ألا فاخلعن نعليك إن زرت ربعه ... فأنت من الوادي المقدس في طوى
ترامت بنا آمالنا كل مرتمى ... طوى من بسيطات الممالك ما طوى
وأفضى به المسرى إلى عرصاته ... فألقت عصاها ، واستقرت بها النوى(٣)

ومن مصادر الصورة التراث الشعري الجاهلي والإسلامي ، حيث الأودية والخمائل والتجاور والفراق ، والأمطار والسيول ، والارتحال والسرى ، أو تربية الناشئة على التراث ومدارسة أشعار الأوائل وحفظها له كبير التأثير في تكوين مكوناتهم الذهنية ، التي يتأطر بها فنهم ، ونلمح هذه الظاهرة عند الشعراء الذين لا ينتمون إلى أصول عربية ، بل إنهم في منأى عن البيئة العربية وموروثاتها الاجتماعية المتواصلة الجذور ، فبيئتهم حضارية رقيقة الحواس ، يتنعمون بملذات الحياة في القصور وزخارفها ويعبقون من عبير الورود والأزهار ، ويتمتعون بانسياب الجداول والأنهار ، ومع هذا عندما تقرأ شعرهم فإنك تستحضر الصور البدوية الأعرابية ، وأشهر هؤلاء الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه الأيوبي المتوفى ٦٢٨هـ ، الذي تجد شعره يميل إلى الوجدانيات ، ويتواصل مع الغزل العذري ، وينجد كثيراً فيرتاح لصباه ، ويشم عراره ، ويمتع بصره بخزاماه :

خل المطيَّ تخدي ... لاحت ربوع هند
هَيمَّهَا نفحُ الصَّبا ... عن عذبات الرند
فأرقلت مسرعة ... تطلب أرض نجد

(١) طه ١٢ .
(٢) الزمر ٦٧ .
(٣) الديوان ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حتى كأن عندها ... من الجوى ما عندي
ما مزنةٌ تحدي إلى ... روض الحمى برعد
يلوح فيها البرق وهنا ... كالحسام الهندي
تسوقها ريح الصَّبا ... في عارض مسود
ترخي عزاليها على ... هضب الحمى والوهد
أغزر من دمعي ، وقد ... قُوِّض حيٌّ دعد(١)

ويقول :

لئن وصلت نجداً ولاحت لعينها ... ذرى الهضبات البيض زالت غمومها
وإن نفحت ريح الصبا من بلادها ... على الكبد الحرَّى تجلت همومها
يقرّ بعيني أن أشيم بروقها ... ويسرح في تلك الخمائل ريمها
خمائل يصبيني ذكي عرارها ... إذا فاح ما بين الرياض شميمها
وشغف قلبي أن يفيض جمامها ... ويصبح ريّان النبات جميمها(٢)

وهو يستوحي الصور القديمة وكأنه يعيش في مواطنها ، وبين أربعها وفي ربوعها ، ويوظف الألفاظ التي تتلاحم مع أحوال المعيشة العربية الأولى ، والتي تنأى عن مواطن الحضارة والمدن : فيذكر الثرى والعرصات والخمائل ، والبزل ، والحدق النجل ، وكل ذلك يلون لنا صوراً تراثية فيرسم هطول الأمطار على تلك العرصات ، ويرقب الخمائل وهي تزهى بالوابل الهطال ثم يشير إلى الترحال فوق الجمال البزل . ويلاحقها فوق العيس التي تطوي المهامة الشاسعة المهلكة بل يصور النجائب ذات الأصل الجيد فكأنه من الأعاريب الذين يحرصون على سلالة خيلهم وإبلهم وغير ذلك :

وحيا ثراها من دموعي مواطر ... على عرصات الدار ، سحاحة هُطلُ
يوشح أقطار الخمائل ماؤها ... إذا ما مضى سجلٌ تلا إثره سَجْلُ

(١) الديوان ١٠٣، ١٠٤ .
(٢) المصدر السابق ٩٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وما الدمع من بعد الجبائب سبّة ... وقد باعدتهن المخرمة السبزل
نأين فلي عند الخدور لبانة ... تذكرنيها دونها الحدق النجل
سأطلبها بالعيس تنتهب الفلا ... سراعاً ، إذا ما هابت المهمة الإبل
نواحل أنضاها الوجيف ، إذا نبرت ... تراقل في أرسانها خَجِلَ الهقلُ
نجائب من نسل الجديل وشدقم ... تطير بنا ، لولا الأزمة والجُدل
إذا ما رأت برقاً وقد عسعس الدجى ... يلوح على بعد كما لمع النصل
تراع كأن البرق جرّد سيفه ... عليها إذا امتدت بركبانها السبل
فتعسل تحت الليل ، والليل عاتم ... إلى الغرض النائي ، كما يعسل الطّمل
تغذ بركبان الغرام إلى الحمى ... وقد شافها من دونه الضال والأثل(١)

وديوان الشاعر الضخم ينهج هذا النهج وحله يدور في فلك الغراميات . وابن عنين يتشوق إلى دمشق ويرقب النجوم تتلاحق أسرابها ويلتمس لها صورة من التراث حيث القفول إثر القفول الشائرة في غير انتظام ، والإبل تتهادى بأحمالها ، أو يكون راعياً للنجوم ويلتمس صورة الخضاب لظلمة الليل ، ويستدعي صورة امرئ القيس في قوله :

فيالك من ليل كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدت بيذبُلِ

وتلك صور تراثية تتمثل في قوله :

أبيت وأسرار النجوم كأنها ... قفول تهادى إثرهن قفول
أُراقبها في الليل من كل مطلع ... كأني برعي السائرات كفيل
فيا لك من ليل نأى عنه صبحه ... فليس له فجر إليه يؤول
أما لعقود النجم فيه تصرم ... أما لخضاب الليل فيه نصول
كأن الثريا غرةٌ وهو أدهمٌ ... له من وميض الشعريين حجول(٢)

ومن مصادر الصورة الطبيعة الفاتنة من حدائق غناء ورياض فيحاء . من

(١) الديوان ١٨١ .
(٢) الديوان ٦٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ذلك أن ظافر الحداد كان مع جماعة من المتنزهين فنظر إلى الجلنار في أشجاره فقال :

لله أيـــــامي بقليـــــوب والعيـــش مخضـــر الجلابيـــب
والطـــير في الأغصـــان فتانـــة مـــا بـــين تلحـــين وتطريـــب
والشـــمس في المغـــرب مصفـــرة كعاشـــق مـــن بعـــد محبـــوب
وجلنـــار بـــين أغصانـــه يبـــدي أفـــانين الأعـــاجيب
كزعفـــران لاح في لاذة حمـــراء في راحـــة مخضـــوب(١)

وتاج الملوك بوري من الشعراء الأمراء الذين لطف ورق شعرهم ، وشاكل حياتهم الغضة الطرية وهو يعشق الطبيعة ويأنس بمناظرها الخلابة ، فيعشق دمشق لجمالها وحسنها ، وكثرة متنزهاتها وربيعها الذي يكسو الأرض حللاً من الورود يقول :

لا تلمـني إن أبـك عيشـي فيهـا فهـو عنـدي المحسـوب مـن أيـام
سـيما والربيـع قـد ألبـس الأر ض قميصـاً حاكتـه أيـدي الغمـام
فشـذاه مـن البنفسـج والنـ ـرجس ، والمردكـوش ، والنمـام
والخزامـى ، والآس والـورد والبـا ن وغصن الشقيـق في الروض نـام

ويشبه انتظام الزهرات بانتظام العقود في صنعة بديعة كأنها جنان الخلد ، وتدفق الجداول التي تنساب بين الآس والبان ، وتغريد الطيور ، فهو يرسم لنا منظراً متكاملاً من الحسن فالأزهار والماء واللحن الشجي من البلبل والهزار :

زهـــرات كـــأنهن عقـــود نظمـــت في الريـــاض أي نظـــام
وجنـــان كـــأنهن جنـــان الـــ ـخلـــد لكنهـــا بغـــير دوام
ونهـــور يســـرحن بـــين ظـــلال الـــ ـآس والبـــان صافيـــات طـــوام
وطيـــور تصـــاد في كـــل حـــين بـــين تلـــك الغصـــون والأكمـــام

(١) الديوان ١٢ ، الطبعة الأولى دار مصر للطباعة .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فهـــي ما بيـــن بلبـــل وهـــزار وحمـــام وهدهـــد ويمـــام(١)

وفتيان الشاغوري من أكثر الشعراء هياماً بالطبيعة ، فوصف متنزهات دمشق، وأزهارها وجداولها ، وتغريد طيورها والربيع ، فتأمل هذه الصور :

جيب الربيع على الإحسان مزرور وذيلـه ببديـع الحسـن مجـرور
للمسـك في الزهـر فـارات يُذبحهـا نسـيمه فهـو مسـحوق فمـذرور
عن زعفـران رنـت أحداق نرجسـه علـى الزمـرد والأجفـان كـافور
أمـا تـرى كيميـاوي الربيـع وقـد وافـاه بـالنجح تصعيـد وتقطـير
نثاره كلمـا هـب النسـيم علـى الأر ض الدراهـم بيضـاً والدنانـير
كـأن غدرانـه راح مشعشـعة فروضـه منتـش والزهـر مخمـور
وللطيـور علـى دوحاتـه طـرب كأنمـا تليـت فيهـا المزامـير
كم بلبل وهزار مـا دعـا سحـرا إلا ولبـاه قمـري وشحـرور(٢)

ويصف السحاب فيرسم لوحة لهطول المطر والسيل مع كثافة السحب :

ولا السـحاب هاميـاً ربابـه منبجسـاً مثعنجـراً منسـكبا
قـامت لـه السـهول والحـزون إجـ ـلالاً وحلـت فرحـاً بـه الحبـا
دنا مسفـاً ساحبـاً هيدبـه معانقاً بالسيـل أعنـاق الرّبـا(٣)

والصور مستقاة من وصف عبيد بن الأبرص ، والشاغوري لم يأت بجديد مع تأخره طويلاً عن الشاعر الجاهلي . ومن قول عبيد بن الأبرص :

يـا مـن لـبرق أبيـت الليـل أرقبـه مـن عـارض كبيـاض الصبـح لمـاح
دان مسـف فويـق الأرض هيدبـه يكـاد يدفعـه مـن قـام بـالراح
فمـن بنجوتـه كمـن بمحفلـه والمسـتكن كمـن يمشـي بقـرواح

(١) الديوان ٢٣٧، ٢٣٨.
(٢) الديوان ١٨٨.
(٣) الديوان ٢٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فارتج أعلاه ثم ارتج أسفله وضاق ذرعاً بحمل الماء منصاح(١)

والغزو الصليبي واستقراره في المدن الساحلية ، والتمازج والتزاور بين المسلمين والنصارى ، يمثل مصدراً من مصادر الصورة الأدبية . فهم يصورون الأديرة والكنائس ودور العبادة وقصورهم . يقول القيسراني في أنطاكية :

واحربا في الثغور من بلد يضحك حناً كأنه ثغر

ترى قصوراً كأنها بيع ناطقات في خلالها الصور(٢)

ومنه قوله :

بدينك يا قسَّ بربارةٍ وما بت تتلوه في الحندس

أجرني من الصور الناطقات متى قمن حولك في مدرس

إذا هن أقبلن وقت الصلا ة في كل لون من الأطلس

ترى كل فاتنة وجهها معرى بشمس الضحى مكتس(٣)

فهذه الأوصاف لم يعهده الشعر الغزلي العربي من قبل .

ويقول :

يا هل سمعتم بدير سمعان وما به للعيون من عان

أموقف للصلاة هيكله أم منبت من منابت البان

في كل تفاحتا خجل تلقاك من مثلها ببستان

من ذات بشر تلوح في بشر وذات جان منها على جان(٤)

وهو يشير إلى التصاوير في أثواب الفتيات الإفرنجيات ، وإلى زرقة العيون التي لم يعهدها الشعراء عند العرب :

لقد فتنتني فرنجية نسيم العبير بها يعبق

---

(١) الديوان ٥٢ ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٣م .

(٢) عمر موسى باشا : الأدب في بلاد الشام ١٩٧ .

(٣) المرجع السابق ١٩٨ .

(٤) الأدب في بلاد الشام ١٩٩ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

في ثوبها غصن ناعم ... وفي تاجها قمر مشرق
وإن تك في عينها زرقة ... فإن سنان القنا أزرق(١)

ويقول في قصيدة أخرى :

وعهدي بماريا ، سقى الله عهدها ... بما عندها من حاجة الهائم الصدي
وفي ذلك الزنار تمثال فضة ... تنقط خديه العيون بعسجد
فيا لي من وجه كقنديل هيكل ... عليه من الصدغين محراب مسجد(٢)

ومن مصادر الصورة الغزلية العنصر التركي ، وراج وصف الغلمان الأتراك في شعر المجون والغزل بالمذكر ، لكثرة الرقيق منهم ولجمالهم ، ورأيت من الخير الإعراض عن ضرب المثل لهذا اللون مع شيوعه في دواوينهم سيما ابن سناء الملك، وفتيان الشاغوري .

والغزو الصليبي له أثره فهو من مصادر الصورة الفنية حيث المعارك الحربية والحصون ، وآلات الحرب ، من المنجنيقات والسفن وغيرها .

ولأن البحر سبيل الصليبيين إلى بلاد المسلمين فإنهم يتصدون للأساطيل الوافدة من أوربا فتحدث معارك حربية ، والشاعر يصور السفن بالموج المتلاطم ويرسم مسرحاً حربياً بسرعة الحركة والالتفاف الحربي والدماء تخضب ماء البحر، يقول أسامة بن منقذ :

غزوتهم في البحر حتى كأنما ... الأساطيل فيه موجه المتلاطم
بفرسان بحر فوق دهم كأنها ... على الماء طير ما لهن قوادم
يصرفها فرسانها بأعنة ... جرت حيث لم توصل بهن الشكائم
إذا دفعوها قلت : فرسان غارة ... سروا بجياد ما لهن قوائم
يسوق أساطيل الفرنج إليهم ... حمام وطير للفرنج أشائم
دماؤهم في البحر حمر سوائح ... وهامهم في البر سحم جوائم

(١) المرجع السابق ٢٠١ .
(٢) المرجع السابق ٢٠١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الرابع
الموسيقى الشعريـــة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الموسيقى الشعرية

وقد بحثت الموسيقى الشعرية من جانبين :

أحدهما : الأوزان والقوافي .

وثانيهما :الموسيقى الداخلية .

الأوزان والقوافي :

تأثرت الموسيقى بالأنماط الحضارية ، والتنظيم والتناسق الذي ينشده كل متحضر ، كالتلاحم ، والصنعة في الأثاث المنزلي ، وزخرفة الأواني والقصور والأنسجة ، كل ذلك له دوره في تكوين الموسيقى الشعرية ، الأمر الذي أطر الشعر بأُطر إبداعية يتكاثف فيها النبض الشعوري ، والمضمون الفكري ، والشكل الجمالي ، والإيقاع الموسيقي ، ومن هذه الألوان :

الموشحات :

يعرفه ابن سناء الملك بقوله : « الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص » . وعرفه الدكتور البصير بأنه « ضرب من الكلام المنظوم تعددت أوزانه وتنوعت قوافيه تبعاً لرغبة قائله ، وقدرته على التصرف في أفانين الكلام »(١) .

وقد رجح بعضهم نشأته في المشرق، وشيوعه في المغرب لاسيما الأندلس»(٢).

وابن سناء الملك أول من تناوله في المشرق وجمع بين الإبداع والتنظير ، بالتوضيح والتعريف ، ورصد الأوزان والقوافي ، وهو أيضاً أكثر من نظمه في الغزل ، والمدح والرثاء ، ثم إن ابن عربي المهاجر إلى المشرق أكثر منه في شعره

---

(١) د. صفا خلوص : فن التقطيع ٣٠١ .

(٢) المرجع السابق ٣٠٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الصوفي ، ونحن نجد هذا اللون في كثير من الدواوين المعاصرة لابن سناء الملك وابن عربي ، غير أنها لم تتكاثر حتى وجدنا شيوعها عند ابن السراج ، وقد وجدت معارضات بينه وبين النصير الحمامي(١) ، والشاعر ابن قاسم الواسطي المتوفى بحلب عام ٦٢٦هـ له موشحة وجدانية منها :

في زهرة وطيب بستاني من أوجه ملاح
أجلو على القضيب والورد والأقاح
ما روضة الربيع في حلة الكمال
تزهى على ربيع مرّت به شمال
في الحسن كالبديع بالحسن والجمال
ناهيك من حبيب نشوان بالدل وهو صاح
إن قلت واهيبي حياني من ثغره براح(٢)

والشاعر أبو الفتح البلطي المصري المتوفى عام ٥٩٩هـ المعاصر لابن سناء الملك يقول موشحة في القاضي الفاضل منها :-

ذكاؤه الثاقب يجل من مثل
فهو الفتى الغالب كلَّ ذوي النبل
من عمروُ والصاحب ومن أبو الفضل ؟
لا يستوي الافراغ بواحد الأرض
أين من الأزاد نفاية المنظ
يا أيها الصدرُ فُتَّ الورى وصفا
قد مني الضرُّ والحال ما يخفى
وعبدك الدهرُ يسومني خسفا

(١) انظر : فوات الوفيات : للكتبي ٤/٢٠٥ .
(٢) المصدر السابق ٤/١٩٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وليس لي عذر ما دمت لي كهفا(٣)

ومن أشهر الشعراء في الموشحات ابن السراج ومن ذلك قوله :

البدر على غُصن النقا مطلعه من فوق كثيب
من طرفي والقلب له موضعه يبدو ويغيب
إنسان عيوني ظلَّ في الدمع غريق
والقلب بنار البعد والصدِّ حريق
والدر بثغر راق لمعاً وبريق
من يمنحه السؤال لا يمنعه ظمآن كئيب
أبلاه بما يخفي به موضعه عن مس طبيب
من فترة جفنه أثار الفتنا
واستل بها من الجفون الوسنا
إن ماس وإن أسفر أو عن لنا
كالغصن وكالبدر وكالظبي رنا
دع وصفي فالحسن له أجمعه من غير ضريب
وانظر ملحاً أضعاف ما تسمعه من كل لبيب(٢)

المسمط : -

وهو أن يبتدئ الشاعر ببيت مصرع ، يأتي بأربعة أقسمه على غير قافيته ، ثم يعيد قسيماً واحداً من جنس ما بدأ به ، وهكذا إلى آخر القصيدة »(٢) .

والمسمطات قليلة في الشعر ، وهي أيضاً قليلة في الشعر إبان الحروب

(٣) المصدر السابق ٤٤٦/٢ .
(٢) الكتبي : فوات الوفيات ٢١٨/٤ .
(٢) ابن رشيق : العمدة ١٧٨/١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الصليبية، وقد عثرت على مسمطة في آخر ديوان أسامة بن منقذ مسمطا شعر القيسى بن ذريح ومنها :

كعهدك بانات الحمى فوق كثبانها
ودار الهوى تحمي العدا سرح سربها
أقول وسمر الخط حجب لحجبها

سقى طلل الدار التي أنتم بها حنا تم وبل صيِّفٌ وربيع(١)

ومن أفضل المسمطات مسمكة أبي المعالي بن مسلم الشروطي المتوفى ٥٤٥هـ .

يا ريم كم تجنّى ؟ لم قد صددت عنا؟ صل عاشقاً معنّى بالوصل ما تهنّا
السلسبيل ريق والشهد والرحيق والورد والشقيقُ من وجنتيه يُجنى
حتّام يا غزالُ ذا التيه والدلالُ؟ والصدُّ والملاُ أفنى وليس يفني؟
عذّبتني ، فمهلاً لم ترع فيَّ إلا ما كنت قط إلاّ أحسنت فيك ظناً
يا فتنة الفتون يا نزهة العيون إرحم أخا شُجُون ما نال ما تمنى
يا بدر كلّ بدر في نصف كلّ شهر يا من أطال فكري يا من به فُتنّا
لم يرق فيك جفني من عُظم طول حُزني ناح الحمام عنّى في دوحه وغنى(٢)

ومن المزدوج تصريع أبيات القصيدة كلها ، بل إن بعضهم التزم حرفاً واحداً في الروي لقصيدة طويلة ، وكذلك التزمه في الضرب كقصيدة سبط التعاويذي التي يمدح فيها عضد الدين ابن رئيس الرؤساء ، يقول في مطلعها :

إن أخلقت ثوب شبابي الأيام وبدت شمل مراح ملتام
وزارني ضيفٌ بغيض الإلمام تنكرة عين المها والآرام
ورب يوم عمره كالإبهام ركبت فيه صهوات الأيام

ومنها غرض المدح :

(١) الديوان ٣٦١ .

(٢) العماد : الخريدة ، القسم العراقي الجزء الثاني ٣٠٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أنطقني من بعد طول الإرمام ... له عطاءٌ سابغٌ وإنعام
أحسن في ابتدائه والإتمام ... لا يملك الكريم إلا الإكرام
يا عضد الدين معزُ الإسلام ... يا ابن العوالي والظُبا والأقلام
خير الورى خؤولة وأعمام ... همُ الرؤوس والأنام أقدام
وهمُ إذا ضل العُفاة أعلام ... أسدُ وغى هما الرّماح آجام
شيمتهم بذل القِرى والإطعام ... أكنافهم خضرٌ إذا غير العام
من كل ضرغام ثناه ضرغام ... مقتحمٌ هول الخطوب هجام
منزه عن دنس وعن ذام ... إذا امتطي متن سبوح عوام(٣)

الرباعيات :

هي ما تكون من أربعة أشطر كل شطر فيها بيتاً ، إذن فهي أربعة أبيات وتكون على أشكال وهي إمّا أن تتحد في حرف الروي أو يختلف عنها البيت الثالث أو يكون الاختلاف في البيت الرابع .

ويغلب أن تأتي عند شعراء العراق ، ويكثر منها بعض الشعراء ، وتأتي في موضوعات الوجدان أكثر من غيرها وربما أتت في المدائح .

وابن قلاقس المتوفى ٥٦٧هـ من أكثر الشعراء الذين نظموا على الرباعيات ، بل إنه تجاوز ذلك إلى أن ينظم رباعياته على شكل قصيدة مطولة يجعل كل أربعة أبيات بيتاً واحداً ، و لم يقتصر فيها على مضمون الوحدان فأورد منه المدح . فقد قال رباعيات متعددة في الحافظ السلفي استهلها بالغزل ثم أطال فيه ثم عرج على المدح ، ومن ذلك قوله :-

يا أيها البدر المنير الزاهر ... ما شئت فافعل بي فإني صابر
هاأنذا كما تراني حائرُ ... وإن جهلت ما الأقل فلل

(٣) الديوان : ٣٨١،٣٨٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أقسمت لا حلت وإن حُلت ولا ... رُمت سواك اليوم خلاً بدلا
ولا سلا قلبي فيمن قد سلا ... وحق آيات الكتاب المنزل

❖

أفديه من ظبي غرير أغيد ... يميس كالغصن الرطيب الأملد
لو أنه أصبح لي طوع يدي ... هان عندي ما يقول عُذلي

❖

لله در أهيف محجَّبِ ... مجوهرُ الثغر شهي الشنب
كأنه مثلُ ابن يعقوب النبي ... في الظرف والجمال والتجمل

❖

له الدلال والدلال والخفر ... والفخر للحفاظ من دون البشر
علامة سؤددُ قد اشتهر ... أربى على النعمان وابن حنبل

❖

هو الإمام الأوحد السميذع ... الأريحي الألمعيُّ المصقع
العالم الندب السري الأروع ... المرتجى لكل أمر مشكل

❖

ليث بموت جاحدوه فرقا ... غيث يُرى جودُ يديه غدقا
بدر يشي مغرباً ومشرقا ... بوجهه جنح الظلام ينجلي(٢)

والرباعيات لون اشتهر في هذا العصر حتى اخلص له بعض الشعراء ، ومنهم الربيب أبو المحاسن بن اليوشنجي ، فهو « لهج اللهجة بنظم الرباعيات »(١) .

وأكثر رباعياته في الخمر والغزل بالمذكر لذا نكتفي منها بقوله :-

ما أطيب ما زار بلا ميعاد ... يختال كغصن بأنة مياد
ماطلّ ولابلّ غليل الصادي ... حتى قرب البين ونادى الحادي(٣)

وأبو على بن الرئيس خليفة الدوري له « رباعيات في حسن الربيع ، بالمعنى البديع واللفظ الرصيع » ومنها :

---

(٢) الديوان ٣٠٩ .

(١) العماد : الخريدة ، القسم العراقي ، الجزء الثاني ٢٥٧ .

(٣) المرجع السابق ٢٥٨ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يـا مـن هربـي منـه وفيـه أربـي ضـدان هما عـذاب قلـبي التحبـب
أحيا وأمـوت وهـو لا يشعر بـي كم واحربي فيـه ، وكـم واحربي(١)

ومن رباعياته :

يـامن أدعـو ، فيـستجيب الدعـوى لا يُحسـن بـي إلى سـواك الشـكوى
أنت المبتلى ، فكـن مزيـل البلـوى لا مُسعـد للضيـف إلا الأقـوى(٢)

ومعنى ذلك أن كثرت عند شعراء العراق .

الدوبيت :

هو شكل من أشكال الرباعيات ، غير أنه يختلف عن الرباعيات الاعتيادية في الوزن ، وهو كل شطر منه يسمى بيتاً ، ووزنه ليس من بحور الشعر الستة عشر ، ولا من دوائرها المهملة ، وإنما يكـون في جله على « فعلن ، متفاعلن ، فعولن فعلن » في الشطر (أو البيت) كما هو معروف في الرباعيات لكنـه يُكتب على شكل البيت الشعري العادي لهذا فإن هذه التفاعيل تتكرر .

واختلفوا في تسـمية الدوبيت ، فمنهم من يرى أن أصله عربي ذو بيت أوبيتين، ومنهم من قال : إن أصله فارسي وركب المسمى من كلمتين إحداهما فارسية وهي (دو) بمعنى اثنين ، وثانيهما عربية وهي « بيت » وبعضهم يسميه السلسلة أو الرباعي(٣) .

والأكثر منه أن يأتي في مقطوعة واحدة تسمى رباعية ، لكن شيوعه وذيوعه جعل الشعراء يتصرفون فيه . فهذا حمزة بن علي أبو يعلى المتوفى في عام ٥٥٦هـ، يقول قصيدة يقول ياقوت الحموي عنها إنها من بحر (السلسلة) يقول منها :-

هـل تـأمن يبقى لـك الخليـط إذا بـان للهـم فـؤاداً وللمدامـع أجفـان

(١) المرجع السابق ٢٦٣ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) انظر : فن التقطيع الشعري والقافية للدكتور صفاء خلوصي ٢٩١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أتطمع في سلوة وجسمك خال ... بالسقم ومن حبهم فؤادك ملآن
تبغي أملاً دونه حشاشة نفس ... وهوي في الحشى تضاعف أشجان
اعتل لأجفاني القريحة أجفان ... إذ بأن ركاب من العقيق إلى البان
فالدمع إذا ما استمر فاض نجيعا ... والحب إذا ما استمر ضاعف أشجان
لله وجوه بدت لنا كبدور ... حسنا وقدود غدت تميس كأغصان
إذا عزموا عزمة الفراق أعاروا ... للقلب هموماً تحل فيه وأحزان
سقياً لزمان مضى ففرق شملا ... أيام حلى لي العيش الوصل بحلوان
يا ساكنةً في الحشا ملكت فؤاداً ... أضحت حرق الوجد فيه تضرم نيران
حتام تمني الفؤاد منك بوعد ... هل ينقع لمع السراب غلة عطشان
حتام أرى راجياً وصال حبيب ... قد أسرف في هجره وأصبح خوان

والشاعر لم يلتزم فيها شكل الرباعية وإنما لجأ إلى شكل القصيدة . والواقع أن بعضهم يفرق بين الدوبيت والسلسلة ، لاختلاف الوزن ، وبعضهم يرى أن وزن الدوبيت غير مستقر فيدخل السلسلة ضمن هذا الإطار .

ومن الشعراء الذين أكثروا من الدوبيت العماد الأصفهاني :-

أنتم سؤلي فلم منعتم سولي ... أنتم أملي فقربوا مأمولي
مملوكم بمجده المبذول ... يستعطفكم في دمه المطلول(١)

وقال في الجهاد على لسان نور الدين زنكي :

أذللت ذوي الشرك بعز العزم ... والكفر بهز صارمي في عزم
شيدت بُنى الملك بأمري الجزم ... والنصر رايته قرين الحزم(٢)

وقال عند وصول صلاح الدين دمشق عام ٥٧٠هـ .

قد صح أن صلاح الدين في الكسوة ... ومن سطاه رجال الروع كالنسُّوة

(١) الزركلي : الأعلام ١٥٨/١ .
(٢) الكتبي : فوات الوفيات ١٠٢/١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولي بمن أمنه في جلّق أسوّة والآن يرفل عاري الحظ في كسوه(١)

والشاعر الشهاب العزازي (٦٢٧-٧١٠هـ)(٢)، جمع بين الموشح والدوبيت في منظومة واحدة يقول فيها :

أقسمت عليك بالأسيل القاني أن تنظر في حال الكئيب العاني

أو تقصر عن إطالة الهجران يا من سلب المنام من أجفاني

ما أليق هذا الحسن بالإحسان

وا لله لقد ضاعفت عندي الكمدا مذ جزت من الهجر الطويل لأمدا

أدرك رمقي أو هب فؤادي جلدا يا من أخذ الروح وأبقى الجسدا

ما أصنع بعد الروح بالجثمان ؟(٣)

الموالیا :

وقد كثر عندهم الموالیا وهو « شبه فصيح أو ملحون ، وقد يتألف من أربع أو خمس قواف متشابهة وربما تختلف القافية الثالثة »(٤) .

ومن ذلك قول جوبان القواس في عام ٦٨٠هـ بدمشق :

تغيب وتبطي أقول أسا تجي وأقوم أحرد عليها وأمسيها مسا ميشوم

تجي ومعها الشّوا والنقل والمشموم أسكت، ومن هون قال الناس: ذا مطعون

وقال :

أفارقه وأقول أني قد أنسليتْ ورحت قلبي وزال الهمّ وانخليتْ

وأذكر مساويه في حقي إذا وليتْ وإذا رجع جا نسيت الكلّ وانخليت(٥)

الشاعر تقي الدين ابن المغزي المتوفى ٦٨٤ هـ في بغداد ، من أشهر الظرفاء ،

---

(١) المصدر السابق ٤٤٤ .

(٢) الزركلي : الأعلام ١٥٨/١ .

(٣) الكتبي : فوات الوفيات ١٠٢/١ .

(٤) د . صفاء خلوصي : فن التقطيع ٣٤٦ .

(٥) المصدر السابق ٣٤/٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد قال الشعر على ألوان شتى منها الزجل ومنه :

الوقـــت بـــا نديمـــي قـــد طـــاب واعتـــدل
والشـــمس منـــذ ليـــالي قـــد حلـــت الحمـــل
فانهـــض إلى الحميـــا واستهـــض الصحـــاب(١)

ويقترب من الزجل بوزن مخالف قصيدته المشهورة (الدبدية) وهي طويلة ولطيفة المعاني ، تميل إلى المرح يقول منها :

أي دبدبـــة تدبدبـــي أنـــا علـــي بـــن المغربـــي
تـــأدبي ويحـــك في حـــق أمـــير الأدب

ومنها :

أنـــا امـــرؤ أنكـــر مـــا يعـــرف أهـــل الأدب
ولي كـــلامٌ نحـــوهُ لا مثـــل نحـــو العـــرب
لكنـــه منفـــردٌ بلفظـــه المهـــذب
يصـــافح الفـــراء في الـــ ـنحـــو بجلـــد ثعلـــب
ويقصـــد التثليـــب في نتـــف ســـبال قطـــرب
وإن ســـألت مذهـــبي فمذهـــبي المجـــرَّب
آكلُ مـــا يحصـــل لـــي ورغبتي فـــي الطيـــب (٢)

الكان كان :

من الشعر العامي من وزن واحد وقافية واحدة ألا أن صدر البيت أطول من عجزه ... وهو يستعمل في الحكايات والأساطير ، والحكم والمواعظ(٣) .

ومن ذلك قول الملحمي الواعظ :

دعنـــك شـــرب اهيلـــج يـــا مـــن فـــؤاده بـــه حمـــى

(١) الكتبي : فوات الوفيات ٣٠٨/١ .
(٢) المرجع السابق ٣٨/٣ .
(٣) صفاء خلوص : فن التقطيع ٣٤٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

واتـــرك ذنوبـــك أي مـــن ... مـــا يحمـــل التعذيـــب
أهـــوال يـــوم القيامـــة ... حدِّث عن البحـــر ولا حـــرج
أقـــلّ مـــا في النوبـــه ... الطفـــل فيـــه يشـــيب
القـــبر قـــال نبّـــك ... أوّل منـــازل الآخـــرة
مـــن أوّل الـــدنّ دردي ... وا لله الأخـــير عجيـــب
مـــن الأمـــل يتمســـك ... مثـــل الـــذي يقبـــض الهـــوا
ومـــن مـــن الثلـــج بيتـــو ... لا يـــأمن التخريـــب
مـــن الغُـــراب دليلـــه ... أي المنـــازل يســـكنو
ومـــن لإبليـــس يتبـــع ... يبصـــر لايـــش يصيـــب
مـن تـاب عـن ذنب واحـد ... وذنـب آخـر عـاد فعـل
كمن هـرب مـن رشقـة ... قعـد حـذا مزريب(٤)

وتجاوز بعضهم ذلك التجديد إلى الإتيان بوزنين مختلفين وقافيتين مختلفتين : كقول ابن الهبارية المتوفى ٥٠٤هـ :

بـالعين يصطـاد الظبـاء ... ءَ العين في تلك الـدروب ولا اصطيـاد البـاخل
وأنـا خفيـف الكيـس في ... أسر الحوادث والخطـوب حليـف هـم شـاغل
أضحـي وأمسـي طاويـاً ... للضـر في مرعـى جديـب مـن رباهـا مـاحل
سـعري وشـعري عندهـم ... ولديهـم أعلـى الذنـوب وذاك جـل وسـائلي
قلـت : البشـارة لي عليـ ... ـك فقد خلصت مـن الكـ ـروب وكل شغل شاغل(٢)

ونلحظ أن المعاني لم تُضم في هذه الأوزان الجديدة ما عدا القافية الأخيرة التي يظهر عليها بعض التكلف . وهم ألحوا على التجديد بتغيير الأوزان والقوافي في القصيدة ، غير أنهم لم يدونوا كل ما قيل وقد أشار إلى ذلك العماد الأصبهاني فقال عن الشاعر أحمد بن محمد شميعة المتوفى ٥٥٥هـ « ورأيت من دأبه نظم

(٤) الكتبي ، فوات الوفيات ١١٧/٤ .
(٢) العماد الأصبهاني : الخريدة ، القسم العراقي ١٣٨/٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قصائد مختلفة الأوزان والرويّ في قصيدة واحدة يمدح بها الأعيان ، ويكتب ذلك بالحمرة والألوان المختلفة »(١) .

والجلياني يأتي بلون جديد من التلوين الموسيقي حيث يلتزم في الضرب بحرف روي غير ما يلتزم في القافية . وهو يسميها الدائرة فقد التزم في نهاية الشطر الأول حرف الجيم وللروي حرف الحاء :

جلاً منيراً مقامه سنى لهج ... أزهى مداه ابتداره حُلي مدحا
يسمى فيمني اعتيامه شذا أرج ... بالمكرمات افتخاره فرى نُدحا
إشراقة وانتسامه لمبتهج ... يوم الهياج خطاره يرى وضحا
والنقع داج ظلامه لدى لجج ... يزجي الكماة شعاره مدير رحى
للحرب صاد حسامه إلى مهج ... يلقى الشرار غراره غداة طحا
بالمشركين اقتحامه أخو دلج ... مستنقذ القدس ثاره حبا مِنَحا
واستشعر الأمن شامه بلا حرج ... والناصر الملك جاره سطا مرحا
صولا تلاه ابتسامه على فرج ... أبدى فأحيا انتشاره على سُرُحا(٢)

وقد عكس الأبيات فجعل الشطر الأول ثانياً والثاني أولاً ، لكن لم يلتزم التبادل في البيت الواحد إنما يأخذ ما يناسبه كقوله :

مستنقذ القدس ثاره حباً منحا ... واستشعر الأمر شامه بلا حرج

وبهذا يصبح الروي حرف الجيم والضرب حرف الحاء . وهو اشتهر بالتنويع في أوزانه وقوافيه ، وتشجير تلك القصائد ، وله قصيدة تسمى (المدبجة ذات الأنهار الأربعة) يقول عنها :

« وهذه المدبجة ذات الأنهار الأربعة ، أولها الدوحة الخضراء « سرحة الأحكام وأعجوبة الكلام » ، وهي صورة شجرتين ملتفتين على أربعين بيتاً عينية، لزومية مزدوجة اللزوم ، متناظرة ، متقابلة ، الذي على اليمين مثله على

(١)المصدر السابق ، الخريدة ، القسم العراقي ٣/٣٤٤ .
(٢) المبشرات ١٦٣،١٦٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

اليسار في مثل موضعه وشكله ، مفرغاً من الأصل على هيئة الآخر ، فاعتبر ذلك»(١) .

ومنه : التصريع فقد كان يقتصر على البيت الأول – أما في هذا العصر فقد أكثر منه الطغرائي المتوفى ٥١٥هـ(٢) ، وتطور الأمر إلى أكثر من ذلك فقد تناثر التصريع في أثناء القصائد وتعددت القوافي في البيت الواحد ، وتعددت القافية في القصيدة الواحدة.

ومنها ما نراه في شعر الطغرائي حيث يتماوج بالموسيقى في أشكال مختلفة ربما يخالف الأوائل والذين نما ذوقهم على التصريع في أول القصيدة فحسب ، أما هو فقد أعرض عنه في بيت الاستهلال وأكثر منه في داخل القصيدة كقوله :

ومساعد لي في البكاء مساهر ... بالليل يؤنسني بطيب لقائه

هامي المدامع أو يصاب بعينه ... حامي الأضالع أو يموت بدائه

غرثان يأخذ روحه من جسمه ... فحياته مرهونة بفنائه

يشفي على تلف فيضرب عنقه ... فيكون أقوى موجب لشفائه

ساويته في لونه ونحوله ... وفضلته في بؤسه وشقائه

هب أنه مثلي بحرقة قلبه ... وسهاده طول الدّجى وبكائه

أفوادعٌ طول النهار مرفهٌ ... كمعذب بصباحه ومسائه(٣)

فهو يماثل بين الجرس الموسيقي في الهاء في العروض والضرب ولكنه ينوع حيث يرفع هاء العروض أو ينونها ، وهو أيضاً يكثر من هذه الهاء في داخل الأبيات يستشفي بها مما يعانيه فما هي إلا تنهدات ينفثها في ثنايا قصيدته .

والطغرائي يعمد إلى تلوين الموسيقى ، فيمتد نفسه ثم يختمها بقافية ثم ما يلبث أن يذيلها بأوزان قصيرة النفس ويختمها بقافية مغايرة للأولى ، فالبيت يتأثر

---

(١) الطغرائي : الديوان ، انظر المقدمة .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قصائد مختلفة الأوزان والرويّ في قصيدة واحدة يمدح بها الأعيان ، ويكتب ذلك بالحمرة والألوان المختلفة »(١) .

والجلياني يأتي بلون جديد من التلوين الموسيقي حيث يلتزم في الضرب بحرف روي غير ما يلتزم في القافية . وهو يسميها الدائرة فقد التزم في نهاية الشطر الأول حرف الجيم وللروي حرف الحاء :

جلاّ منيراً مقامه سنى لهج ... أزهى مداه ابتداره حُلي مدحا
يسمى فيمني اعتيامه شذا أرج ... بالمكرمات افتخاره فرى نُدحا
إشراقة وانتسامه لمبتهج ... يوم الهياج خطاره يرى وضحا
والنقع داج ظلامه لدى لجج ... يزجي الكماة شعاره مدير رحى
للحرب صاد حسامه إلى مهج ... يلقى الشرار غراره غداة طحا
بالمشركين اقتحامه أخو دلج ... مستنقذ القدس ثاره حبا مِنَحا
واستشعر الأمن شامه بلا حرج ... والناصر الملك جاره سطا مرحا
صولا تلاه ابتسامه على فرج ... أبدى فأحيا انتشاره على سُرُحا(٢)

وقد عكس الأبيات فجعل الشطر الأول ثانياً والثاني أولاً ، لكن لم يلتزم التبادل في البيت الواحد إنما يأخذ ما يناسبه كقوله :

مستنقذ القدس ثاره حباً منحا ... واستشعر الأمر شامه بلا حرج

وبهذا يصبح الروي حرف الجيم والضرب حرف الحاء . وهو اشتهر بالتنويع في أوزانه وقوافيه ، وتشجير تلك القصائد ، وله قصيدة تسمى (المدبجة ذات الأنهار الأربعة) يقول عنها :

« وهذه المدبجة ذات الأنهار الأربعة ، أولها الدوحة الخضراء « سرحة الأحكام وأعجوبة الكلام » ، وهي صورة شجرتين ملتفتين على أربعين بيتاً عينية، لزومية مزدوجة اللزوم ، متناظرة ، متقابلة ، الذي على اليمين مثله على

(١)المصدر السابق ، الخريدة ، القسم العراقي ٣/٣٤٤ .
(٢) المبشرات ١٦٣،١٦٤ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

اليسار في مثل موضعه وشكله ، مفرغاً من الأصل على هيئة الآخر ، فاعتبر ذلك»(١) .

ومنه : التصريع فقد كان يقتصر على البيت الأول - أما في هذا العصر فقد أكثر منه الطغرائي المتوفى ٥١٥هـ(٢) ، وتطور الأمر إلى أكثر من ذلك فقد تناثر التصريع في أثناء القصائد وتعددت القوافي في البيت الواحد ، وتعددت القافية في القصيدة الواحدة.

ومنها ما نراه في شعر الطغرائي حيث يتماوج بالموسيقى في أشكال مختلفة ربما يخالف الأوائل والذين نما ذوقهم على التصريع في أول القصيدة فحسب ، أما هو فقد أعرض عنه في بيت الاستهلال وأكثر منه في داخل القصيدة كقوله :

ومساعد لي في البكاء مساهر ... بالليل يؤنسني بطيب لقائه
هامي المدامع أو يصاب بعينه ... حامي الأضالع أو يموت بدائه
غرثان يأخذ روحه من جسمه ... فحياته مرهونة بفنائه
يشفي على تلف فيضرب عنقه ... فيكون أقوى موجب لشفائه
ساويته في لونه ونحوله ... وفضلته في بؤسه وشقائه
هب أنه مثلي بحرقة قلبه ... وسهاده طول الدّجى وبكائه
أفوادعٌ طول النهار مرفهٌ ... كمعذب بصباحه ومسائه(٣)

فهو يماثل بين الجرس الموسيقي في الهاء في العروض والضرب ولكنه ينوع حيث يرفع هاء العروض أو ينونها ، وهو أيضاً يكثر من هذه الهاء في داخل الأبيات يستشفي بها مما يعانيه فما هي إلا تنهدات ينفثها في ثنايا قصيدته .

والطغرائي يعمد إلى تلوين الموسيقى ، فيمتد نفسه ثم يختمها بقافية ثم ما يلبث أن يذيلها بأوزان قصيرة النفس ويختمها بقافية مغايرة للأولى ، فالبيت يتأثر

---

(١) الطغرائي : الديوان ، انظر المقدمة .

(٢) ديوان المبشرات ١٧١ .

(٣) الطغرائي : الديوان ٤٢ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بوقفين موسيقيين متغايرين ، وفي ذلك ابتعاد عن الرتابة التي تودي إلى الملل ، يقول :

يا أيها المولى الذي اصطنع الورى ... شرقاً وغربا
والمستعان على الزمان إذا اعترى ... وأجدّ حربا
واصلن نحو البيت بالسير السرّى ... يحملن ركباً
يرضيهم بعد الصدى ورد الصرّى ... رفهاً وغبّا
لقد ابتيت الملك مرفوع الذُرى ... بك مستبا
وتركت دين الله مشدود العرى ... بعداً وقربا
وضمنت للدنيا ومن فيها القرى ... وكشفت جدبا
من قال : غيرك للعلى ، فقد افترى ... ميناً وكذبا
قرب الرحيل وزند عبدك ما ورى ... فيما أحبّا
فأجره من دهر براه كما ترى ... طعناً وضربا(١)

ومنه :

حتام يا غزال ذا التيه والدلال ؟ ... والصد والملال أفنى وليس يفنى
عذبتني فمهلا لم ترع فيَّ إلاّ ... ما كنت قطُّ إلاّ أحسنتُ فيك ظنّا
يا فتنة الفتون يا نزهة العيون ... أرحم أخا شجون ما نال ما تمنى
يا بدر كل بدر في نصف كل شهر ... يا من أطال فكري يا من به فُتنا(٢)

والأوزان تتأثر بالموسيقى الداخلية ، تتبلور تلك الفكرة لما تقارن بين شاعرين أحدهما تأثر بالبداوة ونهج منهج الأوائل ، وميله واتجاهه في تكوينه الغريزي والفكري ، يتواصل مع التراث العربي القبائلي ، أو القوة والعنف الذي يتجسد في العراق ، وبين شاعر آخر قد لا يمت إلى النسب العربي وإنما نشأ في حضارة مصر وتنعم في البيئة القاهرية ، فالأول يمثله أبو الفوارس (حيص بيص) ، والثاني يمثله

(١) المرجع السابق ٤٤ .
(٢) العماد الأصبهاني : الخريدة ، القسم العراقي ٢/٣٠٩، ٣١٠ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ابن سناء الملك . ولنعرض أمام القارئ بعضاً من قصيدتين ميميتين على بحر الطويل وكلاهما في المدح ليتبين الفرق بين الموسيقى الداخلية في كلا القصديتين، وأبو الفوارس يستهل قصيدته بالفخر ، وابن سناء الملك يستهلها بالغزل ، يقول الأول :

أقم يا حسامي في صوانك واهجم ... شربت دماً إن لم أروّك بالدم

ويقول ابن سناء الملك :

تقنعت لكن بالحبيب المعمم ... وفارقت لكن كل عيش مذمم

ويقول أبو الفوارس في المدح :

فتى ليس بالنوام عن طارق الدجى ... ولا عن قراع الدارعين بمحجم

يسيل دماء الكوم وهي منيفة ... ويضرب في رأس الكمي المكمم

نفى واضح التشريق عن شمس أرضه ... دُخان قدورٍ أو عجاجة مصدم

حِمامٌ لأعداءٍ وأمن لخائفٍ ... ورأي لمعتاص وعفو لمجرم

عفيف إزار الليل ، لا يستفزه ... ظلام ولا تغتاله ذات معصم

وما نشوة من قرقف صرخديةٍ ... تدفق من ضنك الجران مُفدّمِ

بأحسن من هز القوافي لعطفه ... إذا رُجّعت بالأفواه المترنم(١)

فأنت ترى قوة الحروف فحلها من الجهورية ، فقد أكثر من الطاء ، والجيم بل كررها وكرر حرف العين في البيت الواحد وكرر حرف الكاف .

وأكثر من حرف الضاد ، وكلها حروف قلقلة ، وصفير ، وإطباق تحدث قوة في اللفظ والتركيب .

وانظر إلى مدح ابن سناء الملك حيث البعد عن الألفاظ القوية التي تكون جزالة التراكيب ، البعد عن الصور البدوية المتوارثة . والمدح بما يتناسب مع الذوق الحضاري ، وكل ذلك يكسو الموسيقى حلل من الليونة والرقة :

غدا بأسه يحمي حماه وقد غدا ... به الدهر منه يستعيذ ويحتمي

(١) الديوان ١/١٠٧، ١٠٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فلو ذكرته الطير أو سمّت اسمه ... لما راعها في جوها بأس قشعم
أخو فتكات لا تزال سيوفه ... تخط سطور النصر في جبهو الكمي
فقد أرسلت حتفاً إلى كل كافر ... كما أرسلت فتحاً إلى كل مسلم
وأصبح يعدي السيف تصميمُ عزمه ... فمن ذا يسمى بالحسام المصمم؟
وأسهمه في صد كل مدرّع ... فما الدرع منها غير بُردٍ مسهّم
وكم عابد من قبله لابن مريم ... رآه فأضحى كافراً بابن مريم
لك الله ملكاً لا تزال يمينه ... تجود بشهد أو تجود بعلقم(١)

بينما تأتي السهولة في مدح ابن سناء الملك من اختياره الألفاظ ذات الحروف الهامسة ، والرخوة ، فنحن نرى تكرار الحاء ، وتكرار السين ، وقلة القاف ، والعين ، والطاء والضاد .

واستخدموا الأوزان القصيرة في المدائح أو أنهم جزؤها أو شطروها أو جعلوها منهوكة ، وقد مدح فتيان الشاغوري بمجزوء الرجز الأمير بدر الدين مودود والي دمشق سنة ٥٨٥هـ ، لكن فتيان الشاغوري جعل جلها في الغزل وذكر الخمر ، فالقصيدة اثنان وثلاثون بيتاً منها سبعة أبيات في المدح فقط ومنها:

مولاي بدر الدين لا ... عاندك الزمانُ
ودمت ما أقام في ... مقامه ثهلانُ
يكلؤك القرآن مما ... يحدث القِران
إذا رأينا المشتري ... قارنه كيوان(٢)

ومثلها قصيدة تالية لها في الديوان مكونة من ثمانية وعشرين بيتاً تسعة أبيات فقط في المدح ، ومعنى ذلك أن الهدف الأسمى من القصيدة الغزل سيما وقد جاء في غاية الروعة والرقة كقوله :

كاد يلين الصخر لي الآ ... ن وهم ما لانوا

(١) الديوان ٧٠٠، ٧٠٤ .
(٢) الديوان ٤٩٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ما هاجني إلا حمامات ... ت لها ألحان

غنّين في البانات ... فاهتزت بهن البان

وأبياته المدح في هذه القصيدة أجمل منها في القصيدة السابقة :

مخلق بدر الدين ... فهي الروح والريحان

فصار بدراً كاملاً ... ما شأنه نقصان

فمنه يبدوا العمل ... الصالح والإيمان

من أجل ذا سُمّي ... مودودا فذا برهان

وافى إليه رجب ... وهو به جذلان(١)

وجاء المديح في تفاعيل من الأوزان المجزوءة ذات النغم الراقص ، وقد وردت في ديوان سبط التعاويذي كقوله :

خليفة الله الذي ... آرؤه موفقه

ومن أمور الدين ... والدنيا به منسقه

من آنسَ إذا في الإسـ ... ـلام فقاً رتقه

بحق من صدّق ما ... أمّلته وحققه(٢)

هذه من قصيدة مكونة من ستة عشر بيتاً جميعها في المدح .

وله قصيدة مكونة من ثلاثين ومائة بيت من مجزوء الرجز :

عسى غزال الأبرق ... يرق لي من أرقي

وتجمع الأيام من ... شمل هوى مفرّق

أغيد مقلان الوشاح ... نائم عن قلقي

أسلمني للوجد وهو ... سالم من حرقتي(٣)

والبهاء زهير من الشعراء الذين يكثرون من تجزئة الأبيات وتشطيرها بل

(١) المرجع السابق ٤٩٨،٤٩٩ .

(٢) سبط التعاويذي : الديوان ٣٠٤ .

(٣) المرجع السابق ٣٠٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يوردونها منهوكة ، يقول من مشطور المديد :

تائـــه مـــا أصـــل ويـــح صـــب ألفـــه
كـــاد أن يتلفـــه ليتـــه لـــو أتلفـــه
أي روض زاهـــر لم أصـــل أن أقطفـــه
وقضيـــب نـــاعم لم أطـــق أن أعطفـــه
اخلـــف الوعـــد ومـــا خلتـــه أن يخلفـــه
بيننـــا معرفـــة يا لهـــا مـــن معرفـــة(١)

ومن تَصَفُّحِ الدواوين الشعرية نرى أن بعض الشعراء مال إلى الأوزان القصيرة ، سيما في الشعر الشعبي الفصيح ، أي ما يقال في المجالس والمنتديات ، ومنهم من مال إليه في الشعر الخطابي المحفلي ، ورواده سبط التعاويذي ، وابن سناء الملك ، والبهاء زهير .

الموسيقى الداخلية :

تتجلى الفروق للأوزان المتشابهة بالفروق الداخلية ، فكم من قصائد تتماثل في البحر والقافية كالطويل ، والبسيط والوافر والكامل وغيرها ، لكننا لما نقارن بين تلك القصائد المتشابهة نرى التفاوت النسبي في الإيقاع ، والنبر والجرس والموسيقى ، فبعضها يعلو إلى قمة التأثير ، وأخرى دون ذلك ، حتى يتضاءل التأثير الموسيقى وهكذا فإن الإطار العام للموسيقا العربية المتمثل في الأوزان يمثل الثوابت، لكن دواخلها تعج بعالم آخر تتاح لكل شاعر فيه خاصية ، بل تتغير هذه تبعاً لاضطراب نفسية الشاعر واهتزاز شعوره وقوة صدمة التجربة ، فتعلو كوامن نفسه في شعره .

ومن أكبر المؤثرات في الموسيقى الداخلية في القرنين السادس والسابع ، التجانس ، فله دور في تكوين الموسيقى الداخلية ، حيث تكرار الحروف المتماثلة

(١) الديوان ٢٠٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

في كلمتين في البيت . ويختلف الجرس الموسيقي تبعاً لألوان التجانس من جناس تام وناقص ومضارع . فكل أنواع الجناس التي تحامل الأوائل في استخراجها يظهر أثره في الموسيقى .

ويقابل ذلك التقابل ، ومنه التضاد الذي يظهر أثره في الموسيقى لأن الإيقاع النفسي يتأثر بالاهتزازات المضمونية التي تميل بالإنسان يمنة ويسرة . وغيرهما كثير مما سنستعرضه في الأمثلة .

ومن المؤثرات في الموسيقى الداخلية تشكل البيت الواحد من كلمات متماثلة في الوزن كقول العماد الأصبهاني :

أنتم ملوك زماننا وسُراتُهُ ... وكرامه ، وعظامه ، وفصاحةُ
عظماؤه كبراؤه فضلاؤه ... ورزانه ورصانه وصباحه
أقماره ، وشموسه ونجومه ... وبحاره وجباله وبطاحه
فتاكة ، نُساكه ضُرَّارُهُ ... نُفَّاعُهُ مُنّاعُهُ مُنّاحُهُ
وأبو المظفر يوسف مطعامُهُ ... مطعانه مقدامه جحجامُهُ(١)

والشاغوري أيضاً يكثر من الكلمات المتماثلة الموسيقى غير متوالية في القصيدة ، وأضمها للاستشهاد :

وكذاك شمس الدين قد ... حاز الحماسة والسماحة
رب الأصالة والإصابة ... والحصافة والفصاحة
آراؤه بسدادها ... تبدي النصاعة والنّصاحة(٢)

وتكرار الكلمات ذات الوزن الواحد له تأثيره على الموسيقى الداخلية كمعمم ، ومنمنم ، ومفوّف ومدّبج ، ومثله الأبيات التالية في قول فتيان الشاغوري :

والنبت بين معمم ومنمنم ... والروض بين مفوّف ومدبّج

(١) العماد الأصبهاني : الديوان ١١٣ .
(٢) الديوان ٨٦،٨٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الصوفي ، ونحن نجد هذا اللون في كثير من الدواوين المعاصرة لابن سناء الملك وابن عربي ، غير أنها لم تتكاثر حتى وجدنا شيوعها عند ابن السراج ، وقد وجدت معارضات بينه وبين النصير الحمامي(١) ، والشاعر ابن قاسم الواسطي المتوفى بحلب عام ٦٢٦هـ له موشحة وجدانية منها :

في زهرة وطيب بستاني من أوجه ملاح
أجلو على القضيب والورد والأقاح
ما روضة الربيع في حلة الكمال
تزهى على ربيع مرّت به شمال
في الحسن كالبديع بالحسن والجمال
ناهيك من حبيب نشوان بالدل وهو صاح
إن قلت والهيبي حياني من ثغره براح(٢)

والشاعر أبو الفتح البلطي المصري المتوفى عام ٥٩٩هـ المعاصر لابن سناء الملك يقول موشحة في القاضي الفاضل منها :-

ذكاؤه الثاقب يجل من مثل
فهو الفتى الغالب كلَّ ذوي النبل
من عمروُ والصاحب ومن أبو الفضل ؟
لا يستوي الافراغ بواحد الأرض
أين من الأزاد نفاية المنظ
يا أيها الصدرُ فُتَّ الورى وصفا
قد مسني الضرُّ والحال ما يخفى
وعبدك الدهرُ يسومني خسفا

(١) انظر : فوات الوفيات : للكتبي ٤/٢٠٥ .
(٢) المصدر السابق ٤/١٩٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وليـــس لي عـــذر مـــا دمـــت لي كهفـــا(٣)

ومن أشهر الشعراء في الموشحات ابن السراج ومن ذلك قوله :

البـدر علـى غُصـن النقـا مطلعـه مـن فـوق كثيـب
مـن طـرفي والقلـب لـه موضعـه يبـدو ويغيـب
إنسان عيوني ظلَّ في الدمع غريق
والقلب بنار البعد والصدّ حريق
والـدر بثغر راق لمعـاً وبريـق
مـن يمنحـه السـؤال لا يمنعـه ظمـآن كثيـب
أبـلاه بمـا يخفـى بـه موضعـه عـن مـس طبيـب
من فترة جفنه آثـار الفتنـا
واستل بها من الجفون الوسنـا
إن ماس وإن أسفر أو عن لنـا
كالغصن وكالبدر وكالظبي رنا
دع وصفي فالحسن له أجمعه مـن غـير ضريـب
وانظر ملحاً أضعاف ما تسمعه مـن كـل لبيـب(٢)

المسمط : -

وهو أن يبتدئ الشاعر ببيت مصرع ، يأتي بأربعة أقسمه علـى غـير قافيتـه ، ثم يعيد قسيماً واحداً من جنس ما بدأ به ، وهكذا إلى آخر القصيدة »(٢) .

والمسـمطات قليلـة في الشـعر ، وهـي أيضـاً قليلـة في الشـعر إبـان الحـروب

(٣) المصدر السابق ٢/٤٤٦ .
(٢) الكتبي : فوات الوفيات ٤/٢١٨ .
(٢) ابن رشيق : العمدة ١/١٧٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الصليبية، وقد عثرت على مسمطة في آخر ديوان أسامة بن منقذ مسمطا شعر القيسى بن ذريح ومنها :

كعهدك بانات الحمى فوق كثبانها
ودار الهوى تحمي العدا سرح سربها
أقول وسمر الخط حجب لحجبها

سقى طلل الدار التي أنتم بها حنا تم وبل صيّفٌ وربيع(١)

ومن أفضل المسمطات مسمكة أبي المعالي بن مسلم الشروطي المتوفى ٥٤٥هـ .

يا ريم كم تجنّى ؟ لم قد صددت عنا؟ صل عاشقاً معنّى بالوصل ما تهنّا
السلسبيل ريق والشهد والرحيق والورد والشقيقُ من وجنتيه يُجنى
حتّام يا غزالُ ذا التيه والدلالُ؟ والصدُّ والملاُ أفنى وليس يفني؟
عذّبتني ، فمهلاً لم ترع فيَّ إلا ما كنت قط إلاّ أحسنت فيك ظناً
يا فتنة الفتون يا نزهة العيون إرحم أخا شُجُون ما نال ما تمنى
يا بدر كلّ بدر في نصف كلّ شهر يا من أطال فكري يا من به فُتنّا
لم يرق فيك جفني من عُظم طول حُزني ناح الحمام عنّى في دوحه وغنى(٢)

ومن المزدوج تصريع أبيات القصيدة كلها ، بل إن بعضهم التزم حرفاً واحداً في الروي لقصيدة طويلة ، وكذلك التزمه في الضرب كقصيدة سبط التعاويذي التي يمدح فيها عضد الدين ابن رئيس الرؤساء ، يقول في مطلعها :

إن أخلقت ثوب شبابي الأيام وبدت شمل مراح ملتام
وزارني ضيفٌ بغيض الإلمام تنكرة عين المها والآرام
ورب يوم عمره كالإبهام ركبت فيه صهوات الأيام

ومنها غرض المدح :

---

(١) الديوان ٣٦١ .

(٢) العماد : الخريدة ، القسم العراقي الجزء الثاني ٣٠٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أنطقني من بعد طول الإرمام ... له عطاءٌ سابغٌ وإنعام
أحسن في ابتدائه والإتمام ... لا يملك الكريم إلا الإكرام
يا عضد الدين معزُ الإسلام ... يا ابن العوالي والظُبا والأقلام
خير الورى خؤولة وأعمام ... همُ الرؤوس والأنام أقدام
وهمُ إذا ضل العُفاة أعلام ... أسدُ وغى هما الرّماح آجام
شيمتهم بذل القِرى والإطعام ... أكنافهم خضرٌ إذا غير العام
من كل ضرغام غماه ضرغام ... مقتحمٌ هول الخطوب هجام
منزه عن دنس وعن ذام ... إذا امتطي متن سبوح عوام(٣)

الرباعيات :

هي ما تكون من أربعة أشطر كل شطر فيها بيتاً ، إذن فهي أربعة أبيات وتكون على أشكال وهي إمّا أن تتحد في حرف الروي أو يختلف عنها البيت الثالث أو يكون الاختلاف في البيت الرابع .

ويغلب أن تأتي عند شعراء العراق ، ويكثر منها بعض الشعراء ، وتأتي في موضوعات الوجدان أكثر من غيرها وربما أتت في المدائح .

وابن قلاقس المتوفى ٥٦٧هـ من أكثر الشعراء الذين نظموا على الرباعيات ، بل إنه تجاوز ذلك إلى أن ينظم رباعياته على شكل قصيدة مطولة يجعل كل أربعة أبيات بيتاً واحداً ، ولم يقتصر فيها على مضمون الوجدان فأورد منه المدح . فقد قال رباعيات متعددة في الحافظ السلفي استهلها بالغزل ثم أطال فيه ثم عرج على المدح ، ومن ذلك قوله :-

يا أيها البدر المنير الزاهر ... ما شئت فافعل بي فإني صابر
هاأنذا كما ترائي حائرُ ... وإن جهلت ما الأقل فسل

❖ ❖

(٣) الديوان : ٣٨١،٣٨٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أقسمت لا حلت وإن حُلت ولا ... رُمت سواك اليوم خلاً بدلا
ولا سلا قلبي فيمن قد سلا ... وحق آيات الكتاب المنزل

❖

أفديه من ظبي غرير أغيد ... يميس كالغصن الرطيب الأملد
لو أنه أصبح لي طوع يدي ... لهان عندي ما يقول عُذلي

❖

لله در أهيف محجَّبِ ... مجوهرُ الثغر شهي الشنب
كأنه مثلُ ابن يعقوب النبي ... في الظرف والجمال والتجمل

❖

له الدلال والدلال والخفر ... والفخر للحفاظ من دون البشر
علامة سؤددُ قد اشتهر ... أربى على النعمان وابن حنبل

❖

هو الإمام الأوحد السميذع ... الأريحي الألمعيُّ المصقع
العالم الندب السري الأروع ... المرتجى لكل أمرٍ مشكل

❖

ليث بموت جاحدوه فرقا ... غيث يُرى جودُ يديه غدقا
بدر يشي مغرباً ومشرقا ... بوجهه جنح الظلام ينجلي(٢)

والرباعيات لون اشتهر في هذا العصر حتى اخلص له بعض الشعراء ، ومنهم الربيب أبو المحاسن بن اليوشنجي ، فهو « لهج اللهجة بنظم الرباعيات »(١) .

وأكثر رباعياته في الخمر والغزل بالمذكر لذا نكتفي منها بقوله :-

ما أطيب ما زار بلا ميعاد ... يختال كغصن بأنة ميّاد
ماطلّ ولابلّ غليل الصادي ... حتى قرب البين ونادى الحادي(٣)

وأبو على بن الرئيس خليفة الدوري له « رباعيات في حسن الربيع ، بالمعنى البديع واللفظ الرصيع » ومنها :

---

(٢) الديوان ٣٠٩ .

(١) العماد : الخريدة ، القسم العراقي ، الجزء الثاني ٢٥٧ .

(٣) المرجع السابق ٢٥٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يـا مـن هربـي منـه وفيـه أربـي ضـدان هما عـذاب قلـبي التحبـب
أحيا وأمـوت وهـو لا يشعر بـي كم واحربي فيـه ، وكـم واحربي(١)

ومن رباعياته :

يـامن أدعـو ، فيـتجيب الدعـوى لا يُحسـن بـي إلى سـواك الشـكوى
أنت المبتلى ، فكـن مزيـل البلـوى لا مُسعـد للضيـف إلا الأقـوى(٢)

ومعنى ذلك أن كثرت عند شعراء العراق .

الدوبيت :

هو شكل من أشكال الرباعيات ، غير أنه يختلف عن الرباعيات الاعتيادية في الوزن ، وهو كل شطر منه يسمى بيتاً ، ووزنه ليس من بحور الشعر الستة عشر ، ولا من دوائرها المهملة ، وإنما يكـون في جله على « فعلن ، متفـاعلن ، فعولـن فعلن » في الشطر (أو البيت) كما هو معروف في الرباعيات لكنـه يُكتـب على شكل البيت الشعري العادي لهذا فإن هذه التفاعيل تتكرر .

واختلفوا في تسـمية الدوبيـت ، فمنهـم مـن يـرى أن أصلـه عربـي ذو بيـت أوبيتين، ومنهم من قال : إن أصله فارسي وركب المسمى من كلمتين إحداهما فارسية وهي (دو) بمعنى اثنين ، وثانيهما عربية وهي « بيت » وبعضهم يسميه السلسلة أو الرباعي(٣) .

والأكثر منه أن يأتي في مقطوعة واحدة تسمى رباعية ، لكن شيوعه وذيوعه جعل الشعراء يتصرفون فيه . فهذا حمزة بن علي أبو يعلى المتوفى في عام ٥٥٦هـ، يقول قصيدة يقول ياقوت الحموي عنها إنها من بحر (السلسلة) يقول منها :-

هـل تـأمن يبقـى لـك الخليـط إذا بـان للهـم فـؤاداً وللمدامـع أجفـان

---

(١) المرجع السابق ٢٦٣ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) انظر : فن التقطيع الشعري والقافية للدكتور صفاء خلوصي ٢٩١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أتطمع في سلوة وجسمك خال ... بالسقم ومن حبهم فؤادك ملآن
تبغي أملاً دونه حشاشة نفس ... وهوي في الحشى تضاعف أشجان
اعتل لأجفاني القريحة أجفان ... إذ بأن ركاب من العقيق إلى البان
فالدمع إذا ما استمر فاض لجيعا ... والحب إذا ما استمر ضاعف أشجان
لله وجوه بدت لنا كبدور ... حسنا وقدود غدت تميس كأغصان
إذا عزموا عزمة الفراق أعاروا ... للقلب هموماً تحل فيه وأحزان
سقياً لزمان مضى ففرق شملا ... أيام حلى لي العيش الوصل بحلوان
يا ساكنةً في الحشا ملكت فؤاداً ... أضحت حرق الوجد فيه تضرم نيران
حتام تمني الفؤاد منك بوعد ... هل ينقع لمع السراب غلة عطشان
حتام أرى راجياً وصال حبيب ... قد أسرف في هجره وأصبح خوان

والشاعر لم يلتزم فيها شكل الرباعية وإنما لجأ إلى شكل القصيدة . والواقع أن بعضهم يفرق بين الدوبيت والسلسلة ، لاختلاف الوزن ، وبعضهم يرى أن وزن الدوبيت غير مستقر فيدخل السلسلة ضمن هذا الإطار .

ومن الشعراء الذين أكثروا من الدوبيت العماد الأصفهاني :-

أنتم سؤلي فلم منعتم سولي ... أنتم أملي فقربوا مأمولي
مملوكم بمجده المبذول ... يستعطفكم في دمه المطلول(١)

وقال في الجهاد على لسان نور الدين زنكي :

أذللت ذوي الشرك بعز العزم ... والكفر بهز صارمي في عزم
شيدت بُنى الملك بأمري الجزم ... والنصر رايته قرين الحزم(٢)

وقال عند وصول صلاح الدين دمشق عام ٥٧٠هـ .

قد صح أن صلاح الدين في الكسوة ... ومن سطاه رجال الروع كالسُّوة

(١) الزركلي : الأعلام ١٥٨/١ .
(٢) الكتبي : فوات الوفيات ١٠٢/١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولي بمن أمسه في جلّق أسوّة والآن يرفل عاري الحظ في كسوه(١)

والشاعر الشهاب العزازي (٦٢٧-٧١٠هـ)(٢)، جمع بين الموشح والدوبيت في منظومة واحدة يقول فيها :

أقسمت عليك بالأسيل القاني أن تنظر في حال الكئيب العاني

أو تقصر عن إطالة الهجران يا من سلب المنام من أجفاني

ما أليق هذا الحسن بالإحسان

وا لله لقد ضاعفت عندي الكمدا مذ جزت من الهجر الطويل لأمدا

أدرك رمقي أو هب فؤادي جلدا يا من أخذ الروح وأبقى الجسدا

ما أصنع بعد الروح بالجثمان ؟(٣)

الموالي :

وقد كثر عندهم الموالي وهو « شبه فصيح أو ملحون ، وقد يتألف من أربع أو خمس قواف متشابهة وربما تختلف القافية الثالثة »(٤) .

ومن ذلك قول جوبان القواس في عام ٦٨٠هـ بدمشق :

تغيب وتبطي أقول أسّا تجي وأقوم أحرد عليها وأمسيها ما ميشوم

تجي ومعها الشّوا والنقل والمشموم أسكت، ومن هون قال الناس: ذا مطعون

وقال :

أفارقه وأقول أني قد أنسليتْ ورحت قلبي وزال الهمّ وانخليتْ

وأذكر مساويه في حقي إذا وليتْ وإذا رجع جا نسيت الكلّ وانخليت(٥)

الشاعر تقي الدين ابن المغزي المتوفى ٦٨٤ هـ في بغداد ، من أشهر الظرفاء ،

---

(١) المصدر السابق ٤٤٤ .

(٢) الزركلي : الأعلام ١٥٨/١ .

(٣) الكتبي : فوات الوفيات ١٠٢/١ .

(٤) د . صفاء خلوصي : فن التقطيع ٣٤٦ .

(٥) المصدر السابق ٣٤/٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد قال الشعر على ألوان شتى منها الزجل ومنه :

الوقـــت بـــا نديمـــي قـــد طـــاب واعتـــدل
والشـــمس منـــذ ليـــالي قـــد حلـــت الحمـــل
فانهـــض إلى الحميـــا واستهـــض الصحـــاب(١)

ويقترب من الزجل بوزن مخالف قصيدته المشهورة (الدبدية) وهي طويلة ولطيفة المعاني ، تميل إلى المرح يقول منها :

أي دبدبـــة تدبدبـــي أنـــا علـــي بـــن المغربـــي
تـــأدبي وبحـــك في حـــق أمـــير الأدب

ومنها :

أنـــا امـــرؤ أنكـــر مـــا يعـــرف أهـــل الأدب
ولي كـــلامٌ نحـــوهُ لا مثـــل نحـــو العـــرب
لكنـــه منفـــردٌ بلفظـــه المهـــذب
يصـــافح الفـــراء في الـــ ـنحـــو بجلـــد ثعلـــب
ويقصـــد التثليـــب في نتـــف ســـبال قطـــرب
وإن ســـألت مذهـــبي فمذهـــبي المجـــرَّب
آكلُ مـــا يحصـــل لـــي ورغبتي فـــي الطيـــب (٢)

الكان كان :

من الشعر العامي من وزن واحد وقافية واحدة ألا أن صدر البيت أطول من عجزه ... وهو يستعمل في الحكايات والأساطير ، والحكم والمواعظ(٣) .

ومن ذلك قول الملحمي الواعظ :

دعنـــك شـــرب اهيلـــج يـــا مـــن فـــؤاده بـــه حمـــى

---

(١) الكتبي : فوات الوفيات ٣٠٨/١ .

(٢) المرجع السابق ٣٨/٣ .

(٣) صفاء خلوص : فن التقطيع ٣٤٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

واتـــرك ذنوبـــك أي مـــن ... مـــا يحمـــل التعذيـــب
أهـــوال يـــوم القيامـــة ... حـدِّث عن البحـر ولا حـرج
أقـــلّ مـــا في النوبـــه ... الطفـــل فيـــه يشـــيب
القـــبر قـــال نيّـــك ... أوّل منـــازل الآخـــرة
مـــن أوّل الـــدنّ دردي ... وا الله الأخـــير عجيـــب
مـــن الأمـــل يتمســـك ... مثـل الـذي يقبـض الهـوا
ومـــن مـــن الثلـج يتـــو ... لا يـــأمن التخريـــب
مـــن الغُـــراب دليلـــه ... أي المنـــازل يســـكنو
ومـــن لإبليـــس يتبـــع ... يصـــر لايـــش يصيـــب
مـن تـاب عـن ذنـب واحـد ... وذنـب آخـر عـاد فعـل
كمن هـرب مـن رشقـة ... قعـد حـذا مزريب(٤)

وتجاوز بعضهم ذلك التجديد إلى الإتيان بوزنين مختلفين وقافيتين مختلفتين : كقول ابن الهبارية المتوفى ٥٠٤هـ :

بـالعين يصطـاد الظبـاء ... ءَ العين في تلـك الـدروب ولا اصطيـاد البـاخل
وأنـا خفيـف الكيـس في ... أسـر الحوادث والخطـوب حليـف هـم شـاغل
أضحـي وأمسـي طاويـاً ... للضـر في مرعـى جديـب مـن رباهـا مـاحل
سـعري وشـعري عندهـم ... ولديهـم أعلـى الذنـوب وذاك جـل وسـائلي
قلـت : البشـارة لي عليـ ... ـك فقد خلصت مـن الكـ ـروب وكل شغل شاغل(٢)

ونلحظ أن المعاني لم تُضم في هذه الأوزان الجديدة ما عدا القافية الأخيرة التي يظهر عليها بعض التكلف . وهم ألحوا على التجديد بتغيير الأوزان والقوافي في القصيدة ، غير أنهم لم يدونوا كل ما قيل وقد أشار إلى ذلك العماد الأصبهاني فقال عن الشاعر أحمد بن محمد شميعة المتوفى ٥٥٥هـ « ورأيت من دأبه نظم

(٤) الكتبي ، فوات الوفيات ١١٧/٤ .
(٢) العماد الأصبهاني : الخريدة ، القسم العراقي ١٣٨/٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قصائد مختلفة الأوزان والرويّ في قصيدة واحدة يمدح بها الأعيان ، ويكتب ذلك بالحمرة والألوان المختلفة »(١) .

والجلياني يأتي بلون جديد من التلوين الموسيقي حيث يلتزم في الضرب بحرف روي غير ما يلتزم في القافية . وهو يسميها الدائرة فقد التزم في نهاية الشطر الأول حرف الجيم وللروي حرف الحاء :

جلاّ منيراً مقامه سنى لهج ... أزهى مداه ابتداره حُلي مدحا
يسمى فيمني اعتيامه شذا أرج ... بالمكرمات افتخاره فرى نُدحا
إشراقة وانتسامه لمبتهج ... يوم الهياج خطاره يرى وضحا
والنقع داج ظلامه لدى لجج ... يزجي الكماة شعاره مدير رحى
للحرب صاد حسامه إلى مهج ... يلقى الشرار غراره غداة طحا
بالمشركين اقتحامه أخو دلج ... مستنقذ القدس ثاره حبا مِنَحا
واستشعر الأمن شامه بلا حرج ... والناصر الملك جاره سطا مرحا
صولا تلاه ابتسامه على فرج ... أبدى فأحيا انتشاره على سُرُحا(٢)

وقد عكس الأبيات فجعل الشطر الأول ثانياً والثاني أولاً ، لكن لم يلتزم التبادل في البيت الواحد إنما يأخذ ما يناسبه كقوله :

مستنقذ القدس ثاره حباً منحا ... واستشعر الأمر شامه بلا حرج

وبهذا يصبح الروي حرف الجيم والضرب حرف الحاء . وهو اشتهر بالتنويع في أوزانه وقوافيه ، وتشجير تلك القصائد ، وله قصيدة تسمى (المدبجة ذات الأنهار الأربعة) يقول عنها :

« وهذه المدبجة ذات الأنهار الأربعة ، أولها الدوحة الخضراء « سرحة الأحكام وأعجوبة الكلام » ، وهي صورة شجرتين ملتفتين على أربعين بيتاً عينية، لزومية مزدوجة اللزوم ، متناظرة ، متقابلة ، الذي على اليمين مثله على

(١)المصدر السابق ، الخريدة ، القسم العراقي ٣/٣٤٤ .
(٢) المبشرات ١٦٣،١٦٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

اليسار في مثل موضعه وشكله ، مفرغاً من الأصل على هيئة الآخر ، فاعتبر ذلك»(١) .

ومنه : التصريع فقد كان يقتصر على البيت الأول - أما في هذا العصر فقد أكثر منه الطغرائي المتوفى ٥١٥هـ(٢) ، وتطور الأمر إلى أكثر من ذلك فقد تناثر التصريع في أثناء القصائد وتعددت القوافي في البيت الواحد ، وتعددت القافية في القصيدة الواحدة.

ومنها ما نراه في شعر الطغرائي حيث يتماوج بالموسيقى في أشكال مختلفة ربما يخالف الأوائل والذين نما ذوقهم على التصريع في أول القصيدة فحسب ، أما هو فقد أعرض عنه في بيت الاستهلال وأكثر منه في داخل القصيدة كقوله :

ومساعد لي في البكاء مساهر ... بالليل يؤنسني بطيب لقائه
هامي المدامع أو يصاب بعينه ... حامي الأضالع أو يموت بدائه
غرثان يأخذ روحه من جسمه ... فحياته مرهونة بفنائه
يشفي على تلف فيضرب عنقه ... فيكون أقوى موجب لشفائه
ساويته في لونه ونحوله ... وفضلته في بؤسه وشقائه
هب أنه مثلي بحرقة قلبه ... وسهاده طول الدّجى وبكائه
أفوادعٌ طول النهار مرفهٌ ... كمعذب بصباحه ومسائه(٣)

فهو يماثل بين الجرس الموسيقي في الهاء في العروض والضرب ولكنه ينوع حيث يرفع هاء العروض أو ينونها ، وهو أيضاً يكثر من هذه الهاء في داخل الأبيات يستشفي بها مما يعانيه فما هي إلا تنهدات ينفثها في ثنايا قصيدته .

والطغرائي يعمد إلى تلوين الموسيقى ، فيمتد نفسه ثم يختمها بقافية ثم ما يلبث أن يذيلها بأوزان قصيرة النفس ويختمها بقافية مغايرة للأولى ، فالبيت يتأثر

---

(١) الطغرائي : الديوان ، انظر المقدمة .
(٢) ديوان المبشرات ١٧١ .
(٣) الطغرائي : الديوان ٤٢ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بوقفين موسيقيين متغايرين ، وفي ذلك ابتعاد عن الرتابة التي تؤدي إلى الملل ، يقول :

يا أيها المولى الذي اصطنع الورى ... شرقاً وغربا
والمستعان على الزمان إذا اعترى ... وأجد حربا
واصلن نحو البيت بالسير السرّى ... يحملن ركباً
يرضيهم بعد الصدى ورد الصرّى ... رفهاً وغبّا
لقد ابتنيت الملك مرفوع الذُرى ... بك مستتبا
وتركت دين الله مشدود العرى ... بعداً وقربا
وضمنت للدنيا ومن فيها القرى ... وكشفت جدبا
من قال : غيرك للعلى ، فقد افترى ... ميناً وكذبا
قرب الرحيل وزند عبدك ما ورى ... فيما أحبّا
فأجره من دهر براه كما ترى ... طعناً وضربا(١)

ومنه :

حتام يا غزال ذا التيه والدلال ؟ ... والصد والملال أفنى وليس يفنى
عذبتني فمهلا لم ترع فيَّ إلاّ ... ما كنت قطُّ إلاّ أحسنتُ فيك ظنّا
يا فتنة الفتون يا نزهة العيون ... أرحم أخا شجون ما نال ما تمنى
يا بدر كل بدر في نصف كل شهر ... يا من أطال فكري يا من به فُتنا(٢)

والأوزان تتأثر بالموسيقى الداخلية ، تتبلور تلك الفكرة لما تقارن بين شاعرين أحدهما تأثر بالبداوة ونهج منهج الأوائل ، وميله واتجاهه في تكوينه الغريزي والفكري ، يتواصل مع التراث العربي القبائلي ، أو القوة والعنف الذي يتجسد في العراق ، وبين شاعر آخر قد لا يمت إلى النسب العربي وإنما نشأ في حضارة مصر وتنعم في البيئة القاهرية ، فالأول يمثله أبو الفوارس (حيص بيص) ، والثاني يمثله

(١) المرجع السابق ٤٤ .
(٢) العماد الأصبهاني : الخريدة ، القسم العراقي ٢/٣٠٩، ٣١٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ابن سناء الملك . ولنعرض أمام القارئ بعضاً من قصيدتين ميميتين على بحر الطويل وكلاهما في المدح ليتبين الفرق بين الموسيقى الداخلية في كلا القصديتين، وأبو الفوارس يستهل قصيدته بالفخر ، وابن سناء الملك يستهلها بالغزل ، يقول الأول :

أقم يا حسامي في صوانك واهجم ... شربت دماً إن لم أروّك بالدم

ويقول ابن سناء الملك :

تقنعت لكن بالحبيب المعمم ... وفارقت لكن كل عيش مذمم

ويقول أبو الفوارس في المدح :

فتى ليس بالنوام عن طارق الدجى ... ولا عن قراع الدارعين بمحجم

يسيل دماء الكوم وهي منيفة ... ويضرب في رأس الكمي المكمم

نفى واضح التشريق عن شمس أرضه ... دُخان قدورٍ أو عجاجة مصدم

حِمامٌ لأعداءٍ وأمن لخائفٍ ... ورأي لمعتاص وعفو لمجرم

عفيف إزار الليل ، لا يستفزه ... ظلام ولا تغتاله ذات معصم

وما نشوة من قرقف صرخديةٍ ... تدفق من ضنك الجران مُقدّمِ

بأحسن من هز القوافي لعطفه ... إذا رُجّعت بالأفواه المترنم(١)

فأنت ترى قوة الحروف فحلها من الجهورية ، فقد أكثر من الطاء ، والجيم بل كررها وكرر حرف العين في البيت الواحد وكرر حرف الكاف .

وأكثر من حرف الضاد ، وكلها حروف قلقلة ، وصفير ، وإطباق تحدث قوة في اللفظ والتركيب .

وانظر إلى مدح ابن سناء الملك حيث البعد عن الألفاظ القوية التي تكون جزالة التراكيب ، البعد عن الصور البدوية المتوارثة . والمدح بما يتناسب مع الذوق الحضاري ، وكل ذلك يكسو الموسيقى حلل من الليونة والرقة :

غدا بأسه يحمي حماه وقد غدا ... به الدهر منه يستعيذ ويحتمي

(١) الديوان ١/١٠٧، ١٠٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فلـو ذكرتـه الطـير أو سَمَّت اسمـه ... لمـا راعهـا في جوهـا بـأس قشـعم
أخـو فتكـات لا تـزال سـيوفه ... تخط سطور النصـر في جبهـو الكمـي
فقـد أرسـلت حتفاً إلى كـل كـافر ... كمـا أرسـلت فتحاً إلى كـل مسـلم
وأصبح يعدي السيف تصميمُ عزمـه ... فمـن ذا يسـمى بالحسـام المصمـم؟
وأسـهمه في صـد كـل مـدرّع ... فمـا الـدرع منهـا غـير بُـردٍ مسـهّم
وكـم عـابد مـن قبلـه لابـن مريـم ... رآه فـأضحى كـافراً بـابن مريـم
لك الله ملكـاً لا تـزال يمينـه ... تجود بشهـد أو تجـود بعلقـم(١)

بينمـا تـأتي السـهولة في مـدح ابـن سـناء الملـك مـن اختيـاره الألفـاظ ذات الحروف الهامسة ، والرخوة ، فنحن نـرى تكـرار الحـاء ، وتكـرار السـين ، وقلـة القاف ، والعين ، والطاء والضاد .

واسـتخدموا الأوزان القصـيرة في المدائـح أو أنهـم جزؤهـا أو شـطروها أو جعلوها منهوكة ، وقد مدح فتيان الشاغوري بمجزوء الرجز الأمير بدر الديـن مودود والي دمشق سنة ٥٨٥هـ ، لكن فتيـان الشـاغوري جعـل جلهـا في الغـزل وذكر الخمر ، فالقصيدة اثنان وثلاثون بيتاً منها سبعة أبيات في المدح فقط ومنها:

مـولاي بـدر الديـن لا ... عـاندك الزمـانُ
ودمـت مـا أقـام في ... مقامـه ثهـلانُ
يكلـؤك القـرآن ممـا ... يحـدث القِـران
إذا رأينـا المشـترى ... قارنـه كيـوان(٢)

ومثلها قصيدة تالية لها في الديوان مكونة من ثمانية وعشرين بيتاً تسعة أبيات فقط في المدح ، ومعنى ذلك أن الهدف الأسمى من القصيدة الغزل سيما وقد جاء في غاية الروعة والرقة كقوله :

كـاد يلـين الصخـر لي الآ ... ن وهـم مـا لانـوا

(١) الديوان ٧٠٠، ٧٠٤ .
(٢) الديوان ٤٩٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ما هاجني إلا حمامـا ت لهـا ألحـان
غنّين في البانات فاهتزت بهن البان

وأبياته المدح في هذه القصيدة أجمل منها في القصيدة السابقة :

مخلـق بـدر الديـن فهـي الـروح والريحـان
فصـار بـدراً كـاملاً مـا شـأنه نقصـان
فمنـه يبـدوا العمـ ـل الصـالح والإيمـان
مـن أجـل ذا سُـمّي مـوذودا فـذا برهـان
وافى إليـه رجـب وهـو بـه جـذلان(١)

وجاء المديح في تفاعيل من الأوزان المجزوءة ذات النغم الراقص ، وقد وردت في ديوان سبط التعاويذي كقوله :

خليفـة الله الـذي آرؤه موفقـه
ومـن أمـور الديـن والدنيـا بـه منـقه
مـن آنَسَ إذا في الإسـ ـلام فتقـاً رتقـه
بحـق مـن صـدّق مـا أمّلتـه وحققـه(٢)

هذه من قصيدة مكونة من ستة عشر بيتاً جميعها في المدح .

وله قصيدة مكونة من ثلاثين ومائة بيت من مجزوء الرجز :

عـسى غـزال الأبـرق يـرق لي مـن أرقـي
وتجمـع الأيـام مـن شمـل هـوى مفـرّق
أغيـد مقـلان الوشـاح نـائم عـن قلقـي
أسلمـني للوجـد وهـو سـالم مـن حرقـتي(٣)

والبهاء زهير من الشعراء الذين يكثرون من تجزئة الأبيات وتشطيرها بل

(١) المرجع السابق ٤٩٨، ٤٩٩ .
(٢) سبط التعاويذي : الديوان ٣٠٤ .
(٣) المرجع السابق ٣٠٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يوردونها منهوكة ، يقول من مشطور المديد :

تائـــه مـــا أصـــل ويـــح صـــب الفـــه
كـــاد أن يتلفـــه ليتـــه لـــو أتلفـــه
أي روض زاهـــر لم أصـــل أن أقطفـــه
وقضيـــب نـــاعم لم أطـــق أن أعطفـــه
اخلـــف الوعـــد ومـــا خلتـــه أن يخلفـــه
بيننـــا معرفـــة يا لهـــا مـــن معرفـــة(١)

ومن تَصَفُّحِ الدواوين الشعرية نرى أن بعض الشعراء مال إلى الأوزان القصيرة ، سيما في الشعر الشعبي الفصيح ، أي ما يقال في المجالس والمنتديات ، ومنهم من مال إليه في الشعر الخطابي المحفلي ، ورواده سبط التعاويذي ، وابن سناء الملك ، والبهاء زهير .

الموسيقى الداخلية :

تتجلى الفروق للأوزان المتشابهة بالفروق الداخلية ، فكم من قصائد تتماثل في البحر والقافية كالطويل ، والبسيط والوافر والكامل وغيرها ، لكننا لما نقارن بين تلك القصائد المتشابهة نرى التفاوت النسبي في الإيقاع ، والنبر والجرس والموسيقى ، فبعضها يعلو إلى قمة التأثير ، وأخرى دون ذلك ، حتى يتضاءل التأثير الموسيقى وهكذا فإن الإطار العام للموسيقا العربية المتمثل في الأوزان يمثل الثوابت، لكن دواخلها تعج بعالم آخر تتاح لكل شاعر فيه خاصية ، بل تتغير هذه تبعاً لاضطراب نفسية الشاعر واهتزاز شعوره وقوة صدمة التجربة ، فتعلو كوامن نفسه في شعره .

ومن أكبر المؤثرات في الموسيقى الداخلية في القرنين السادس والسابع ، التجانس ، فله دور في تكوين الموسيقى الداخلية ، حيث تكرار الحروف المتماثلة

(١) الديوان ٢٠٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

في كلمتين في البيت . ويختلف الجرس الموسيقي تبعاً لألوان التجانس من جناس تام وناقص ومضارع . فكل أنواع الجناس التي تحامل الأوائل في استخراجها يظهر أثره في الموسيقى .

ويقابل ذلك التقابل ، ومنه التضاد الذي يظهر أثره في الموسيقى لأن الإيقاع النفسي يتأثر بالاهتزازات المضمونية التي تميل بالإنسان يمنة ويسرة . وغيرهما كثير مما سنستعرضه في الأمثلة .

ومن المؤثرات في الموسيقى الداخلية تشكل البيت الواحد من كلمات متماثلة في الوزن كقول العماد الأصبهاني :

أنتم ملوك زمانا وسُراتُهُ ... وكرامه ، وعظامه ، وفصاحةُ
عظماؤه كبراؤه فضلاؤه ... ورزانه ورصانه وصباحه
أقماره ، وشموسه ونجومه ... وبحاره وجباله وبطاحه
فتاكة ، نُساكه ضُرَّارُهُ ... نُفَّاعُهُ مُنَّاعُهُ مُنَّاحُهُ
وأبو المظفر يوسف مطعامُهُ ... مطعانه مقدامه جحجاحُهُ(١)

والشاغوري أيضاً يكثر من الكلمات المتماثلة الموسيقى غير متوالية في القصيدة ، وأضمها للاستشهاد :

وكذاك شمس الدين قد ... حاز الحماسة والسماحة
رب الأصالة والإصابة ... والحصافة والفصاحة
آراؤه بسدادها ... تبدي النصاعة والنّصاحة(٢)

وتكرار الكلمات ذات الوزن الواحد له تأثيره على الموسيقى الداخلية كمعمم ، ومنمنم ، ومفوّف ومدّبج ، ومثله الأبيات التالية في قول فتيان الشاغوري :

والنبت بين معمم ومنمنم ... والروض بين مفوّف ومدبّج

(١) العماد الأصبهاين : الديوان ١١٣ .
(٢) الديوان ٨٦،٨٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والمـــاء بـــين مكفّـــر ومعنـــبر ومصنـــدل ، ومسلســـل ومسجـــج
والطير بـــــين مغـــرد ومعربـــد والورد بـــين مُـــزوَّر ومفـــرّج(١)

ونتيجة لإتيانه بهذا في أبيات معدودة في القصيدة ، وأيضاً لأنه يباعد بينها أو يفصل فإنها تكون خفيفة تؤثر في النفس ولا يُملُّ منها .

ومنه تكرار الحروف وتكرار الكلمات المكونة من حروف مختلفة وربما دخلت في لون من ألوان التجانس كمثل ، مهفهف ، ومهجهج :

فأعجب لـه رشـــأ أغـــن مهفهفـــا يسطو علـى أســـدِ أزلَّ مهجهـــجِ

فكأن الأولى الخفيفة مهدت لنطق الثانية الثقيلة وشفعت لها .

ومن تكرار الحروف قول ابن منير :

ودمشق في دمشـــق رجـــال سلـــم لحور نسائهـــم منهـــم نســـاء(٢)

وتكرار حروف المد لـه تأثير في الموسيقى لأن كل حرف يكون مقطعين خلافاً لغيرها من الحروف ، والمد يحتاج إلى جهد نفسي ، وهو الذي يتناسب مع الأنين والحزن ، وقد تبين ذلك في مرثية ابن سناء الملك للعالم العفيف التلمساني، التي تكاثفت فيها حروف المد من الياء والألف والمد في القافية ، وضمها أيضاً فكأن الهمزة التي تخرج من أقصى الحلق لم تكن كافية لإظهار حزنه حتى أتى لها بحركة ثقيلة هي الضمة التي تنطق واواً :

لقـد عفـــت عيشـــي بعـــد العفيـــف علـى العيـش بعـــد العفيـــف العفـــاء
فمـا غـــاب مـــا غـــاب إلا الجميـــل ومـــا مـــات مـــا مـــات إلا الوفـــاء
وإلا الصديـــــق وإلا الصـــــدوق وإلا الصفـــــي وإلا الصفـــــاء
حبيـــب قريـــب بـــه يلتهـــى وتنســـى الأحبـــاء والأقربـــاء

(١) الديوان ٧٨ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ١/٩٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تلاومت إذ عشت من بعده فأين الإباء وأين الحياء(١)

وتلاحظ كثرة المدات كمثل ال ، وإلا وما إضافة إلى الألف قبل الهمزة .

التجانس :

والتجانس من علامات التطور الموسيقي الداخلي في البيت ، وقد مال إليه شعراء القرنين السادس والسابع ، ووسموا به قصائدهم وبعضهم يورده كثيراً في أشعاره وآخرون يجعلونه كالأزهار المتباعدة ومنهم من ينمق به مداخل القصيدة كالذين يعنون بالدهاليز في مقدمة البيت وابن سناء الملك من أولئك الذين ترى أقواف الأزهار تتكاثر في مقدمات قصائدهم يقول :

دع قُضب نعمان أو كثبان يبرينِ ما قلّب القلب إلا أعينُ العين

وقد تعشق قلبي من بنظرته يميتني وبأخرى منه يحييني

يضني فؤادي ويضني جفن مقلته بكسرها فهو يضنيها ويضنيني

قد أشبه الغصن في قدّ وفي هيف وأشبه الرمح في لون وفي لين(٢)

فقد والى بين التجانس في الأبيات بل في الشطر الواحد (قلّب ، القلب) و (أعين والعين) و (لون ولين) ، وهكذا في أربعة الأبيات الأولى ثم يتخفف منه

ومثله قول فيتان الشاغوري :

هذا العقيق ، وهذا الرّند والبان فكيف تبخل لي بالدّمع أجفان

بان الأحبة عن سلع وكاظمة فبان حسن عزاء القلب إذ بانوا

اشتاق نعمان من « باب البريد » فيا لله ما هاجه في القلب نعمان

أقسمت ما لي مذ بان الحبيب عن العذيب إلا عن السلوان سلوان

ما هذه الدار داراً كنت أعهدها قبل الرّحيل ، ولا الجيران جيران(٣)

(١) الديوان ٧٨١، ٧٨٢ .

(٢) الديوان ٧٨١، ٧٨٢ .

(٣) الديوان ٥٢٧ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فلو تتبعت المؤثرات الموسيقية في الأبيات لرأيت كثيراً منها إضافة إلى التجانس .

التقابل :

والتقابل له تأثير موسيقي في الشعر ، وهو من المعالم الجمالية التي لاح شعاعها في القرن السادس ، واستقر ضياؤها في السابع ، فلفظ المحيي له وقع ترتاح له النفس ويسهل على اللفظ ويقابله المميت الذي تنقبض له ، ويقل في النطق ومثله الرجاء والرهبة ، والسهولة والصعوبة والرضا والغضب ، يقول ابن سناء الملك :

هو الملك المحيي المميت بأسه ونائلة أيان يرجى ويرهب
تدين له طوعاً وكرهاً ضراغم تسهل منها كل ما يتصعب
وأعداؤه نوابه في بلادهم تقيم وتمضي حين يرضى ويغضب(١)

الازدواج :

حيث تعادلُ الجمل في البيت فتتماثل في الغمات ، وحسن التقسيم الصوتي كقول الأبيودري :

فالعدل منتشر ، والعزم مجتمع والعمر مقتبل والرأي مكتهل(٢)

ومنه قول عرقلة الكلبي :

أزهارها من جوهر ، ونسيمه من عنبر ، وثماره من عسجد(٣)

ومن المؤثرات في الموسيقى الداخلية الازدواج كقول ابن الاخوة المتوفى ٥٤٦هـ :

ورب ليل مريض ، كنت صحته عزت أواسيه أو عزته أدواء(٤)

---

(١) الديوان ٢٠ .

(٢) الأبيوردي : الديوان ٢٨٩/١ .

(٣) عرقلة الكلبي : الديوان ٢٥ .

(٤) العماد الأصبهاني : الخريدة القسم العراقي ١٨٩/٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولـــه :

لبـــس الصبـــح ، والأجنـــة برديـــ ـن فأرخـــى بـــرداً وقلـــص بردا(١)

ومنه ما يظهر فيه التكثيف الموسيقي حيث تناسق الحروف بالياء وتناسق الكلمات وتقارب الوزن :

لعلائـــك التأييـــــد والتأميـــل ولملكـــك التأبيـــد والتكميـــل (٢)

والترصيع في الشعر الذي يقابل السجع في النثر له أثره في الموسيقى الداخلية: كقول مجد العرب أبي فراس على بن محمد بن غالب العامري :

ومُقربـــةٌ شـــقر، وماذيـــة خضـــر وهنديـــة حمـــر ، وخطيـــة سمـــر(٣)

وقوله :

غمر الرّدا ، جزل العطا ، غدق الندى ضافي التقى ، صافي العلـى والمذخر(٤)

ولأبي الجوائز المطاميري المتوفى ٥٢٠هـ :

عفاتك والجدوى ، وقـــدرك والعلـــى وعدلك والدنيا ، ووجهك والبشـــرُ(٥)

ومنه قول الأرجاني :

مـن غيـث مكرمـة ، وليـث كتيبـة وغنـى فقـير ، وانتعـاش صريـع(٦)

ومنه قول ابن منير :

عزيـــز المُنتَمَـــى ، عـــالي المراقـــي بعيـــد المرتمـــى ، غالي المسامـــي(٧)

والبيت يظهر فيه التشكيل في الموسيقى بين الياء والألف .

ومنه قول فيتان الشاطوري :

---

(١) المرجع السابق ٢/١٩٠ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ١/٨٤ .

(٣) العماد الأصبهاني : الخريدة ، القسم العراقي ٢/١٤٧ .

(٤) المرجع السابق ٢/١٦٠ .

(٥) المرجع السابق ٢/٢٠٠ .

(٦) الديوان ٣/٩١٧ .

(٧) أبو شامة : الروضتين ١/١٠٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

شمس ضحى ، بدر دجى ، ليث وغى غيث جدى، سيف ردى، ماضي الشبا(١)

مخارج الحروف :

إن تقارب مخارج الحروف أو تباعدها ، أو توسط ذلك ، مُكوِّنٌ من مكونات الموسيقى الداخلية ، فالحروف إذا تقاربت مخارجها من الحلق فإنها تكون ثقيلة ، أو من اللسان أو من الشفة ، والأفضل أن تكون متباعدة ، فإذا كثرت الحروف المتقاربة المخارج فأنت تشعر بثقل في موسيقا الصوت ، يقول الشاغوري:

ربة الطوق طوقينا يدا تبقى بقاء الاطواق في الأعناق(٢)

فقد كرر القاف ست مرات وكرر الطاء ثلاث مرات ، ومثلها الباء .

وقوله أيضاً :

إن شدت أنشدت نسب نُصيب أو تغنت غنيتُ عن إسحاق(٣)

ففي الشطر الأول قارب بين الشين والتاء والدال والسين . ومنه :

غادرٌ بالعقوق غادر دمعي ثغره اللؤلؤي وهو عقيق(٤)

تجمع بين تكرار الغين والقاف ، ومنه تكرار الهمزة من أقصى الحلق ست مرات والإتيان بالقاف .

ومنه تكرار الهمزة من أقصى الحلق ست مرات والإتيان بالقاف وتكرار الغين في الشطر الثاني ، كما في قول الأبيوردي :

إذا صيح بالأمجاد أقمأ شخصه وإن زأر الضرغام في غابة ثغا(٥)

---

(١) الديوان ٢٦ .

(٢) الديوان ٢٩١ .

(٣) المرجع السباق ٢٩١ .

(٤) المرجع السابق ٢٩٣ .

(٥) الديوان ٣٢٢/١ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وعدم ترتيب مخارج الحروف من الحلق يؤدي إلى ثقل الموسيقى ، كأن يقدم الشين على حرف الحلق ، والضاد من حروف الإطباق على الغين من الحلق :

وإن هدرت يوم الفخار شقائق شحا فاه يستقري الكلام المضغا(١)

ومثله الشطر الثاني من قوله :

وشاردة يطوي بها الأرض بازل إذا اضطرب الأعناق من لغب رغا(٢)

ففي الشطر الثاني ازدحمت فيه حروف الحلق وقارب بين الغين .

وتكثر عند أبي الفوارس الكلمات التي بها نبوٌّ أو إيقاع مختلف عن البيت أو ما يجاروها في القافية وربما الشطر الأخير يثقل إيقاعه لتوالي الحروف قريبة المخرج كقوله :

يبغون مشكي المجدبات وماجدا تغني رغائبه غناء الهمّع(٣)

فتغنى ، رغائبه متوالية ولفظة الهمّع لها إيقاعها الخاص .

ومن هذه الكلمات ما يتأتى ضمن البيت مثل مراكله وعلندي ، ومنها ما يكون في القافية كحرشع ، وسمعمع :

وعلت به نعماه صهوة سابح نهد مراكله علندي جرشع

فيه إذا تبلو قراه وشدّه شبهان من ضرغامه وسمعمع(٤)

ومثله الحجاجح ، وتفهق ، وشغوفهم ، ويتغطرفون في قوله :

يابن الحجاجح من ذؤابة هاشم أهل الندى المسؤل والمتبرع

والخائضين غمار كل كريهة روعاء تفهق بالحمام الأشجع

يتغطرفون على الحمام ويتقي سطواتهم دفع السمام المنقع(٥)

---

(١) الديوان ١/٣٢٣ .

(٢) المرجع السابق ١/٣٢٣ .

(٣) الديوان ١/٢٨٧ .

(٤) المرجع السابق ١/٢٨٨ .

(٥) المرجع السابق ١/٢٨٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والشاغوري تتأتى في أبياته كثير من الكلمات التي تنبو عن السياق الموسيقي، وهذه المخالفة لا تميل إلى العيب ، ربما لأن الشاعر يوظف هذه المخالفة للتبر الدلالي، أو لتكيف الإحساس حول الموضوع ، وتكون لضرورة الوزن كثيراً، ولعدم الرديف من الألفاظ ، أو لأعجمية الاسم ، لمدينة أو شخصية .

مثل الكلمات صيدنايا ، بركار وإقليدس ، دعيس ، يجعجع ، المتطلس ، يتغشمر » .

وافى بها من صيدنا يا بطرس ... الخمار وهي سبة من جرس
قد كان قبل خساً فغادره زكاً ... فالسيف بركارٌ بكف مهندس
عمّت وخصت في الأنام هباته ... فزكت على الأعداء في إقليدس
يسطو بضرب قاصل بل فاصل ... وبطعن دِعْيسٍ ورمي مقرطس
وتود تيجان الملوك بأسرها ... لو قبلت منه مكان القندس
أمن المروءة أن يجعجع ذو الغنى ... بالعنف منه بذي العيال المفلس
عدّارة بالأشوس الرئبال ثم الأ ... طلس العسّال والمتطلس
سائل (خلاط) به غداة تنمرت ... مُرّادها بتغشمر وتغطرس(١)

وتأثر الحروف على الموسيقى يتجلى في محاكاة الموسيقى لخفيف النسيم وأزيز الأنفاس ووسوسة الحلي ، وترجيع الأنفاس :

نسيم ربعك أفديه بأنفاسي ... وصوت حليك أحكيه بوسواسي
يا حاجبية من قوس بحاجبها ... ردّت سهامك ما قالته أقواسي(٢)

والحروف الهامسة التي تحكي وسوسة النفس يوظفها ابن سناء الملك ويقوف بها أغصان أبياته ، وتهتز بها موسيقاه ، يقول :

يا منية النفس يا مسكينة النفس ... يا روضة القلب يا ريحانة الأنس
الشمس أنت ، ولولا أنت ما طلعت ... لأنها منك كالمشكاة بالقبس
متعت من كل ما تصبو النفوس به ... بالخمس والخمس والخمسين والخُمُسِ
تجلو إساءتها في قلب عاشقها ... ريح السعادة تجري السفن في اليبس(٣)

---

(١) الشاغوري : الديوان ٢١٩ حتى ٢٢٢ .
(٢) الديوان ٤٣٤ .
(٣) المرجع السابق ٤٤٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الخامس

التنـــــاص

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

التنـــاص

التراكم التجريبي والتراكم المعرفي يمثلهما التراكم الفني . فكما أن العلوم التقنية جاءت نتيجة تجارب بشرية متواصلة فإن الفنون كانت نتيجة ، تجارب معرفية وشعورية وسلوكية ، ونشاط لغوي متواصل عبر الأجيال . فالأصالة المقترنة بالمحافظة على الجذور نتيجة لنشأة وتطور المعارف والفنون ثم تتفرع أغصانها من دوحة كبيرة تسقى جذور تلك الأغصان ، أو إنها تتكون من ألوان من النباتات ذات فصائل مختلفة ، كل فصيلة لها مقوماتها وخصائصها ، وتتأثر بمؤثرات متقاربة ومتباعدة ، ومتلاحقة ، لتواكب مسيرة الأمم .

والأدب له فصائله ؛ ومنها الشعر فالشعر له علاقته المتواصلة مع التكوين الإنساني، ودوحة الشعر . تتخذ من الشعور ، وتستقي بالمؤثرات الخارجية ، وتتقولب في الشكلية اللغوية وهي صادرة من نفوس بشرية متقاربة ، وتتأثر بمؤثرات خارجية متشابهة المضمون ، وتوظف اللغة في معيارية متقاربة . ونتيجة لذلك فإن التشابه سيتواصل مع الفصيلة الشعرية ، وظن الجاهليون أن المتقدمين سبقوهم فلم يترك الأوائل للأواخر ما يقولونه ، وأن قولهم معاد مكرور .

وعدا المنظرون على الطبيعة البشرية وماهية التراكم العلمي ، والتكوين اللغوي فتسلطوا على الشعراء بما يسمى السرقات الشعرية ، وصنفوها وتجاوزوا حدهم فيها .

أما المنظرون اليوم فإنهم استشعروا الواقعية فيها وأدركوا ضرورتها فلا فكاك منها وسموها بالتناص أي تداخل النصوص ، وقالوا عن التناص « فسيفساء من نصوص أخرى أدمجت فيه (النص) بتقنيات مختلفة »(١) .

---

(١) د. محمد مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) ، الطبعة الأولى ١٣٨٥هـ المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

و « ممتص لها يجعلها من عندياته وبتصييرها منسجمة مع فضاء بنائه ومع مقاصده »(١) و « محول لها بتمطيطها أو تكثيفها بقصد مناقضة خصائصها ودلالتها أو بهدف تعضيدها »(٢) .

والمحاكاة المقتدية (المعارضة) وهي نتيجة الإعجاب بالنموذج السالف ، والنظرة إليه بمناظر من الاحترام والاكتمال الجمالي ، ونتيجة لممارسته والدربة عليه ونتيجة للنشأة على تنظيره وتكوين الذهن بمقوماته . وكان رواد الفن المتزامن مع الحروب الصليبية قد جاؤوا في مرحلة اكتمال الحضارة الإسلامية في جوانب عدة ، سيما الألوان الفنية . فقد تنشأوا على إبداع كبار الشعراء العرب من جاهليين وأمويين ، وعباسيين ، وما أبو تمام والبحتري والمتنبي وأبو فراس الحمداني وأبو العلاء المعرّي منهم ببعيد . فتتلمذوا عليهم واختزنوا إبداعهم في المكونات الذهنية التي تتلاحق مع تجاربهم أثناء النتاج الإبداعي فيكون التلاقح والتواصل والاقتداء .

وقد أوضح د. محمد مفتاح في كتابه تحليل الخطاب الشعري أن هذه التعاريف تتمثل في « أن التناص هو تعالق (الدخول في علاقة) نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة »(٣) .

ويظهر هذا في الآداب ومنها الأدب العربي ، فهناك مصطلحات نقدية نجد فيها هذا اللون . وهو لا ينحصر في مصطلح فرد ، ولا سيما في البلاغة العربية ، إنما ينضوي تحت عدد من المصطلحات ، مثل السرقات ، والمعارضة ،والنقائض والتضمين ، والاقتباس ، والرمز الإشاري .

ويرى الدكتور مفتاح أن هناك دعامتين أساسيتين يقوم عليهما التناص هما:

---

(١) المرجع السابق ١٢١ .

(٢) المرجع السابق ١٢١ .

(٣) المرجع السابق ١٢١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

١ – « التوالد والتناسل . ذلك أننا نجد أثرا أدبياً أو غيره يتولد بعضه من بعض ، وتقلب النواة المعنوية الواحدة بطرق متعددة وفي صور مختلفة » .

٢ – « التواتر : أي إعادة نماذج معينة وتكرارها لارتباطها بالسنة وبالسلف ولقوتها الإيحائية »(١) .

وبعد التحليل يوضح مفهومه للتناص بقوله : « فالتناص إذن ، أما أن يكون اعتباطياً يعتمد في دراسته على ذاكرة المتلقي ، وأما أن يكون واجباً يوجه المتلقي نحو مظانه ، كما أنه قد يكون معارضه مقتدية أو ساخرة أو مزيجاً بينهما ... ومهما كان نوعه فإنه ليس مجدر عملية لغوية مجانية ، وإنما له وظائف متعددة تختلف أهمية وتأثيراً بحسب مواقف المتناص ومقاصده »(٢) وعدد وظائف التناص:

١ – استخلاص العبرة . مثل معارضات رواد النهضة الشعرية ، البارودي ، أحمد شوقي ، حافظ إبراهيم .

٢ – أو هو لاستخلاص العبرة مع التعريض بقضيه أو حاكم . ومن هذه القصيدة التترية لابن الطرابلسي .

٣ – موقف التقاليد السائدة ، أو التوفيق بينها : وقد مثل له بتناص أبي نواس مع الشعر الجاهلي . ثم يأتي من بعد ليوفق بين العصر الجاهلي ورأي أبي نواس(٣) .

والناظر إلى الشعر في تلك الفترة التي نعني بها يجد فيضاً من ألوان التناص ، ومنه المحكاة القائمة على التناص ، والمحاكاة القائمة على المعارضات . وهذا اللون تكاثر في الشعر إبان الحروب الصليبية . وهم يشبهون القيسراني ، والطرابلسي ،

---

(١) المرجع السابق ١٣٤ .

(٢) المرجع السابق ١٣١ .

(٣) المرجع السابق ١٣٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بجرير والفرزدق(١) .

ومثله مهاجاة أبي الفوارس ومعاصره ابن القطان ، والمعارضات أكثر كمثل معارضات شعراء الحروب الصليبية لأبي تمام ولروميات المتنبي ، وقصيدة بانت سعاد .

ومنه التناص الداخلي والخارجي . وهو أن « يمتص آثار السابقين أو يحاورها أو يتجاوزها ، وأشهر الشعراء في ذلك ابن سناء الملك ، وابن عنين .

وهناك أشكال كثيرة من التناص تستحق بحثاً خاصاً عنها ، لعلي أعود إلى ذلك إن شاء الله . أمّا الآن فإني أحاول رصد أمثلة اعتباطية معدودة .

ومن التناص ما يستلهم فيه الشاعر حكايات الأمم السابقة ، أو يستمد من أفكاره ، ويرصد المذهب لنحلة من النحل ابن منير الطرابلسي معرضاً بمذهب الشيعة :-

وأتت لتُصلح بين جيـ ـش المسلمين على غرر
فأتى أبو حسن وسـ ـلّ حُسامه وسطا وكر
وأذاق إخوته الرّدى وبعير أمّهم عقر
ما ضره لو كان كفّـ ـه وعف عنهم إذ قدر
وأقول : إنّ إمامكُم وليّ بصفين وفر
وأقول : إن أخطأ معا ية فما أخطا القدر
هذا ، ولم يغدر معا وية ولا عمرو مكر
بطل بسوأته يقا تل لا بصارمة الذكر
وجنيت من رطب النوا صب ما تتمّر واختمر
وأقول : ذنب الخراجيـ ـن على عليّ مغتفر
لا ثائرٌ لقتالهم في النهروان ولا أثر
والأشعري بما يؤ ل إليه أمرهما شعر

(١) انظر : ديوان ابن منير الطرابلسي .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قـــال : انصبـــوا لي منـــبراً فأنـــا الـــبريءُ مـــن الخطـــر
فعـلا وقـــال : خلعـــت صـــا حبكـــم ، وأوجـــز واختصـــر(١)

فلما أضحى الشعراء في مواجهة المد الصليبي ، والاجتياح المدمر للمدن الإسلامية ، والتشريد والنهب والتدمير ، وتوج ذلك بسقوط بيت المقدس وقتل ستين ألفاً وتشريد أهلها . فالشعراء ذهلوا أمام الأمر الواقع ، فتعلقوا بمقدمة الانتصارات ولجووا إلى النموذج السالف لقصيدة فتح عمورية ورومياات المتنبئ وأبي فراس الحمداني ، فأخذوا يعارضونها ، ويقتدون بها كما اقتدى القيسراني بفتح عمورية في مدح نور الدين :

هـذي العزائـم لا مـا تدعـي القضـب وذي المكـارم لا مـا قـالت الكتـب
وهـذه الهمـم اللاتـي متـى حطيـت تعـثرت خلفهـا الأشـعار والخطـب
صافحت بابن عماد الـدين ذروتهـا براحـة للمساعـي دونهـا تعـب

ومنها :

أغـرت سـيوفك بـالإفرنج راجفـة فـؤاد رومية الكـبرى هـا يجـب
غضبـت للدين حتـى لم يَفُتْـكَ رضـى وكـان ديـن الهـدى مرضاتـه الغضـب
طهرت أرض الأعادي مـن دمائهـم طهـارة كـل سـيف عندهـا جنـب
حتى استطـار شـرار الزند قادحـه فالحرب تضرم والآجـال تحتطـب(٢)

وممن اقتدى بفتح عمورية العماد الأصبهاني :

بـالجد أدركـت مـا أدركـت لا اللعـب كـم راحـة جنيـت مـن دوحـة التعـب
أنـت الـذي هـو فـرد مـن بسـالته والديـن مـن عزمـه في جحفـل لجـب
وأن ذلـك عنـد الله محتسـب في الحشر من أفضل الطاعات والقرب
ومـا غضبْـتَ لديـن الله منتقمـاً إلا لنيـل رضـى الرحمـن بـالغضب
وأنـت مـن وقعـت في الكفـر هيبتـه وفي ذويـه وقـوع النـار في الحطـب

(١) الديوان ١٦٥ .
(٢) أبو شامة : الروضتين ١/٥٨ وما بعدها .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لما سعيت لوجه الله مرتقباً ثوابه نلت عفواً كل مرتقب
أركبت رأس سنان رأس ظالمها عدلاً وكنت لوزرٍ غير مرتكب(١)

ومنها قصيدة الحافظ أبي القاسم في نور الدين :

لما سمحت لأهل الشام بالخشب عوضت مصر بما فيها من النشب
والأجر في ذاك عند الله مرتقب فيما يثيب عليه خير مرتقب
فالجد في ذاك عند الله مرتقب والحزم في العزم والإدراك بالطلب(٢)

٤ - والضياء الفني للشعر في هذه المرحلة متواصل الجذور مع الأصالة في العصر الجاهلي والعصر الإسلامي والأموي والعباسي ، ويتمثل في المضامين ، والزيادة فيها ، واللغة بألفاظها وتراكيبها ، والصور والألوان البلاغية . وقد أشار إلى ذلك كل من الدكتور عمر موسى باشا في كتاب أدب الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك ، وأحمد أحمد بدوي في كتاب الحياة الأدبية في مصر ، والدكتور محمد الهرفي « شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام » ، ومن هذا القبيل لامية لابن الدهان المتوفى ٥٨١هـ يمدح فيها ناصر الدين محمد بن شيركوه وقد عارض فيها لامية كعب بن زهير ، ومطلعها :

سيف بجفنك مغمد مسلول ماض على العشاق وهو كليل(٣)
أنت الحبيب من البرية كلها ومحمد دون الورى المأمول
بحر له بيض العطايا لجة أسد له سمر العوالي غيل
حيث النفوس تسيل في سبل الردى والخيل في سيل الدماء تجول
صبغ النجيع شياتها فبدت وما يبدوا لها غرر ولا تحجيل(٤)

٥ - وهم ينهجون نهج المعاصرين لهم ، وأشهرهم العماد الأصبهاني . فقد

(١) المرجع السابق ١/١٥٩ .
(٢) المرجع السابق ١/١٦٠ .
(٣) ابن الدهان : الديوان ٨٦ .
(٤) المرجع السابق ٨٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عارض كثيراً من الشعراء في عهد الحروب الصليبية ومنهم ابن منير الطرابلسي في قصيدته النونية التي مطلعها :

حيّ الديار على عماء جيرون مهوى الهوى ومغاني الخرّد العين

وقال العماد قصيدة طويلة منها :

أهدي النسيم لنا ريّا الرياحين أم طيب أخلاق جيراني « بجيرون »

هبّت لنا نفحة في جلق سحرا باحت بسر من الفردوس مكنون(١)

٦ - ومن ألوان التناص التي روضها أهل القرنين السادس والسابع الأخذ بأسلوب واضح المعالم لسورة قرآنية ، أو نص حديث ، أو توظيف ألفاظ مشهورة متداولة في آي القرآن الحكيم بحيث إنه يوحي بصور ودلالات إيحائية أخرى .

كقول ابن النبيه المصري :

أهل بيت قد أذهب الله عنهم كل رجس وطهروا تطهيرا

ففيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾(٢) .

ومنه الإشارة بالألفاظ والمضمون لبعض الأحاديث كحديث القبر :

يا معيني إذا دجت ظلمة القبـ ـر وخاطبت منكراً ونكيرا

ومنه من كلمات القرآن « قمطريرا » ، و « والمستطير » و« سعيرا » و « شاكراً وكفورا » :

يا مجيري إن خفت يوماً عبوساً مكفهراً مستصعباً قمطريرا(٣)

يا مغيثي والنار توقد بالنا س وترمي شرارها المستطيرا(٤)

---

(١) العماد الأصبهاني : الديوان ٤٣١ .

(٢) الأحزاب : ٣٣ .

(٣) من قوله تعالى : ﴿ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا ﴾ الإنسان ١٠ .

(٤) من قوله تعالى : ﴿ إنها ترمي بشرر كالقصر ﴾ المرسلات : ٣٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بولائـــي أمنـــت مـــن ســـيئاتي حـــين ألقـــى كتـــابي المنشـــورا
قد هدانـــا بـــك السبيـــل فإمّـــا مؤمناً شاكـــراً وإمـــا كفـــورا(١).(٢)

٦ – وقد تجاوزوا حدهم في مضمون التناص ، فمنهـم مـن وظفـه في مغـالاة المدائح ، ومنهم من جنح بمضمون ودلالة الألفاظ إلى الغزل ، وكلاهمـا يجـب أن يُنزَّه القرآن الكريم عنه . وقد بادر الأوائل إلى الاعتراض على هذه الألوان ، فقال ابن حجة الحموي : « ومن الاقتباسات التي هـي غـير مقبولـة قـول ابـن النبيـه في مدح الفاضل وتعوذ بالله من قوله بعد ذلك :

جـــل عن سائـــر الخلائـــق فضـــلاً فاخترعنـــا في مدحـــــه التنزيـــلا(٣)

وابن حجة ذكر عشرة الأبيات في مستهل القصيدة ومنها :

قمـــت ليـــل الصـــدود إلا قليـــلا ثـــم رتلـــت ذكركـــم ترتيـــلا
ووصلـــت الســـهاد قُبْـــح وصـــلا وهجـــرت الرقـــاد هجـــراً جميـــلا
مســـمع كـــلَّ عـــن كـــلام عـــذولي حـــين ألقـــى عليـــه قـــولاً ثقيـــلا(٤)
وفؤاد قـــد كـــان بـــين ضلوعـــي أخذته الأحبـــاب أخـــذاً وبيـــلاً(٥)

ومن هذا القبيل استخدام الشاعر شرف الدين الأنصاري لفواصل من سـورة وجعلها خاتمة لأبياته :

قســماً بشـــمس جبينـــه « وضحاهـــا » ونهـــار مبســـمه « إذا جلاهـــا »
وبنـــار خدّيـــه المشعشـــع نورهـــا وبليـــل صدغيـــه « إذا يغشـــاها »
لقـــد أدعيـــت دعاويـــاً في حبّـــه صدقت و «أفلح » فيه « من زكاها»(٦)

---

(١) من قوله تعالى : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا ﴾ الإنسان ٣ .
(٢) ابن النبيه المصري : الديوان ١٠٢،١٠٣ .
(٣) خزانة الأدب ٤٥٠ ، نقله محقق ديوان ابن النبيه ٣٩٧ .
(٤) واضح أن الشاعر أخذ الألفاظ القرآنية من سورة المزمل .
(٥) ابن النبيه : الديوان ٣٩٧، ٣٩٨ .
(٦) الديوان ٥١٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ونكتفي بأمثلة من هذا اللون الذي يدعو للأشمئزاز ، وتتثاقل اليد في نقله .

٧- ومن التناص أن يشطر إحدى القصائد المشهورة كتشطير شرف الدين الأنصاري للامية كعب وكلا القصيدتين في مدح الرسول ﷺ :

أوهمت نصحاً « لو أن النصح مقبول» « لا أهينك ، إني عنك مشغول »

بان التجلُّد عني والتصبر مذ « بانت سعاد ، فقلبي اليوم متبول »

تيّاهة آثرت صدّاً لغرمها « متيم إثرها ، لم يفد مكبول »

ترّت دموعي إذ أفزت بذي أشر « كأنه منهل بالراح معلول »

جديدة الحسن يبدو في مقسمها « عتق متين ، وفي الخدين تسهيل »

حلمت عند تمنيها بزورتها « إن الأماني والأحلام تضليل »

وليس بخاف ضعف التركيب بين الشطرين ، وفقدان الدلالة مع أن الأبيات في الغزل الذي يسهل انقياده .

لكنه في المدح يعرض عن الالتزام بالتشطير الدائم ويمازج بينه والإعراض عنه أو الإتيان بكلمة :

دعني فإن منها النوال فلي « من الرسول بإذن الله تنويل »

ذاك النبي الذي بعقوته « فتم فيها لنا المقصود والسّول »

رسول صدق رحيب قرّ بنا « من ربعه الأرحبيات « المراسيل »

زرناه ، روضة غناء تشغلنا ولا «أغن غضيض الطرف مكحول»[1]

ومنه مسمطات أسامة بن منقذ التي سمط فيها شعر قيس بن ذريح ، ومجنون ليلى[2] ، ومهيار[3] . ومن تسميطه لشعر ابن ذريح :

كعهدك بانات الحمى فوق كثبها

ودار الهوى تحمي العدا سرح سربها

(١) الديوان ٣٨٩، ٣٩٠ ، ٣٩١ .

(٢) الديوان ٣٦٤ .

(٣) المرجع السابق ٣٦٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أقول ، وسمر الخط حجبٌ لحجبها:

سقى طلل الدار أنتم بها حناتم وبل صيف وربيع

بدارك ما بي : ما بلى الشوق والهوى

وبي ما بها : من وحشة البين ، والنوى

سأروي ثراها من دموعي إن ارتوى

وخيماتك اللاتي بمنعرج اللوى بلين بلى لم تبلهن ربوع

وما الجور عن نهج السّلو أعاجني

على ذي أثاف كالحمام الدواجن

ولكن وفاءٌ ، وردةُ غيرُ آجن

ولو لم يهجني الظاعنون لهاجني حمائم ورق في الديار وقوع(١)

(١) المصدر السابق ٣٦١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل السادس

الشعر التأملي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشعر التأملي

والشعر التأملي وليد الذات المتدبرة المعتبرة ، التي تقرأ الحياة والكون ، وتجيل البصيرة في الحياة وحركتها ، وفي عظمة الخالق ، وتهتك حجاب الأستار الشفافة، لتنهل من العمق الفكري الذى منحه الله في الحياة والطبيعة .

والشاعر البوصيري يكثر من تأمله الذاتي ، في الأحوال الإنسانية التي تمور موراً ، وتعصف عصفاً ، وتزهر أحياناً . ومن قصائده التأملية تأمله في نفسه وكيانه استجابة لقول الله تعالى : ﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾(١) .

فالنفس تميل للهوى والملذات ، وتنشغل أو تشغل الفكر ويخفت الإيمان مع اهتزازاتها ، فتوظف العقل لرغباتها :

ياقسوة القلب مالي حيلة فيك ... ملكت قلبي فأضحى شر مملوك

حجبت عني أفادات الخشوع فلا ... يشفيك ذكر ولا وعظ يداويك

وما تماديك من كسب الذنوب ولـ ... ـكنَّ الذنوب أراها من تماديك

ويشير إلى الكسب الحلال وتربية الأبناء بالحلال ففيه صلاح لهم :

لكن تماديك من كسب نشأت به ... طعام سوء على ضعفي يقويك

ثم يصف النفس ورغباتها بأنها أصل كل معضلة ، وكل بلاء ، وهي المندوب الشيطاني المخلص ، وهي التي تستقبله لتجريه معها في كيان الإنسان ، وأخذت تتبع خطوات الشيطان حتى هلكت :

وأنت يا نفس مأوى كل معضلة ... وكل داء بقلبي من عواديكِ

أنت الطليعة للشيطان في جسدي ... فليس يدخل إلا من نواحيك

لما فسحت بتوفير الحظوظ له ... أضحى مع الدم يجري في مجاريك

واليته بقبول الزور منك فلن ... يوالي الله إلا من يعاديك

ما زلت في أسرة تهوين موثقة ... حتى تلفت فأعياني تلافيك

---

(١) الذريات ٢١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثم يدعو نفسه إلى التوبة المخلصة ، والاستقامة ففيهما النجاة ، ويحثها على استدراك ما فات بتوظيف الوقت في مسارب الخير والإعراض عن التكاثر في الدنيا وزينتها :

يا نفس توبي إلى الرحمن مخلصة ... ثم استقيمي على عزم ينجيك
واستدركي فارط الأوقات واجتهدي ... عساك بالصدق أن تحمي مساويك
واسعي إلى البر والتقوى مسارعة ... فربما شكرت يوماً مساعيك
حب التكاثر في الدنيا وزينتها ... هي التي عن طلاب الخير تلهيك
لا تكثري الحرص في تطلابها فلكم ... دم لها بسيوف الحرص مسفوك
بل واقنعي بكفاف الرزق راضية ... فكل ما جاز ما يكفيك يطغيك

وهو يختم بالوعظ لهذه النفس ويذكرها بغصص الموت وظلمة القبر :

ثم اذكري غصص الموت الفظيع بهن ... عليك أكدار دنيا لا تصافيك
وظلمة القبر لا تنسى ووحشته ... عند انفرادك عن خل يوازيك
والصالحات ليوم الفاقة ادخري ... في موقف ليس فيه من يواسيك
وأحسني الظن بالرحمن مخلصة ... فحسن ظنك بالرحمن يكفيك(١)

وهو يحكي ذلك في مدائحه للرسول ﷺ ومقطوعاته ، وهو يتأمل في صفات الله ، وفي مخلوقاته ويعددها ليزداد إيمانه فهو المالك الذي رصع السماء بنجومها ، وهو الذي أنشأ السحاب الثقال تسير الفضاء بين السماء والأرض ، وجعل الشمس ضياء ومحا آية الليل ، ودحا الأرض ، وأحيا الأموات :

أقل عثراتي واعف يا حسن العفو ... عن العمد مسطور ذنبي والهفو
وصف من الأكدار قلبي واهدني ... من البر والتقوى إلى المورد الصفو
فكم لي من سوء اجتراح نسيته ... وأحصاه محروس الحفاظ من السهو
شقيت به أيام أمرح في الصبا ... وأسحب أذيال البطالة والزهو
فيا ملكاً زان السماء بأنجم ... على الفلك الأعلى طفت أحسن الطفو

(١) الكتبي : فوات الوفيات ٤/٣١٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وسخر ما بين السماء وأرضه ... سحائب يخفو برقها أحسن الخفو
وأبقى على شمس النهار ضياءها ... وخص بنقص آية الليل بالمحو
ولما دحا الأرض اقتداراً وحكمة ... على الماء أرسى الشم في أثر الدحو
وأحيا بفضلٍ ميت الأرض بالحيا ... وزينها من بعد ذلك بالصحو
أغثني بتوفيق يُنور باطني ... وينحو إلى الخيرات بي أحسن النحو
فإني مقر أنك الله ربنا ... تعاليت عن شرك الطغاة أولي العدو
برأت جميع الكائنات بقدرة ... على غير أمثال تضاهي ولا حذو
تميت وتحيي والمقادير كلها ... بأمرك في مر الصروف وفي الحلو
وأعددت جنات النعيم لأهلها ... لترحمهم والنار أعددت للسطو
وأرسلت بالحق المبين محمداً ... أجل الورى من حاضرين ومن بدو
وشرفت فضلاً آله وصحابه ... فبعداً لقلب من محبتهم خلو
فلا تخزني يوم الحساب ونجني ... بفضلك من نار تلظى بلا خبو(١)

والشعراء يعاودون التأمل الذاتي في مراحل أعمارهم عند ظهور المشيب وتجاوز العقد الخامس من أعمارهم كما هو الشأن في شعر أسامة بن منقذ(٢)، ومنهم الشاعر الصرصري فلما بلغ الستين أخذ يئن تحت وطأة الأمراض ، ويستذكر من قضى نحبه من محبيه وأهله وانفراده في هذه الحياة ويعدد حالته فيقول :

ذهب الشباب وخانني جلدي ... وتمشت الأسقام في جسدي
ورمتني الستون من عُمري ... فأصاب رشق سهامها كبدي
أودى الحمام بمن أحب من الـ ... ـغر الحسان ففتّ في عضدي
وبقيت مسلوب القرين بلا ... عددٍ أسرُّ به ولا عُدد
لله ما وارى الثرى وحوى ... من والدٍ برٍّ ومن ولد

(١) المرجع السابق ٤/٣٠٥،٣٠٦ .
(٢) أسامة بن منقذ : الديوان ٣١٤ ، وما بعدها .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومـــن ابـــن آدم مشـــفق حـــدب وخليـــل صـــدق غـــير ذي قتـــد
كـــم عـــاينت عينـــاي مـــن رجـــل علـــم لمرتفـــد ومرتشـــد
شمـــس إذا مـــا المشـــكلات دجـــت غيـــث ووجـــه العـــام غـــير نـــدى
كـــانوا الهـــداة لأهـــل وقتهـــم سَـــلكوا بهـــم في أوضـــح الجـــدد
ومضـــوا وقـــد خُلّفـــتُ بعدهـــم فـــرداً أعـــالج لوعـــة الكمـــد
يـــا رب فاختـــم لي بخاتمـــة الـ ـحسني وخـذ في شدتـي بيـدي(١)

وقد أحسن الله خاتمته حيث دافع وهو ضرير بعكازه فقتل أحد المغول فقتلوه .

والقاضي الفاضل المتوفى عام ٥٩٦هـ أفضل كاتب إنشائي عربي جمع معالم الشعر في كتابته الفنية ، فهي تزخر بالمضمون الممتزج مع الشعور ، وبجمال العبارة، والقدرة التصويرية ، في خيال مبدع .

والقاضي الفاضل ذلكم الرجل العالم ، والإداري القدير ، والكاتب الإنشائي، تدرك التأمل يتألق في شعره فهو يسبر غور المعاني ، ويفتقها ويجيل النظر في علاقة الصور . فتختفي عاطفته وراء تأمله وإيراده للصور بل إن المضامين لتميلُ للغموض فمثلاً ما وجه الحب في قوله : (وأغيد شق لي فيه قميص تقى)؟ ثم يباشر بإفاضة الدمع من الدم السائل ، ومثله في البعد البيت الثاني ثم يأتي بقميصه الملطخ بالدماء ، لكنها صادقة .

ثم هو يأتي بالحكمة في غزله « ولا منيَّة إلا قبلها سبب » .

وتظهر قدرته التصويرية في تصويره هدب العينين بهدب السحاب وهو يفصل في الصورة حتى كأنها لا تمت إلى صورة قرب السحاب عند الجاهليين .

وأغيد شق لي فيه قميص تقى وفاض دمعي عليه من دم سرب(٢)

---

(١) الكتبي : الوافي في الوفيات ٣١٧/٤ .

(٢) غيد كفرح : مالت عنقه ولانت أعطافه ، والأغيد المثني ليناً ، سرب : سائل .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سترته من عذول إن رضيت بأن ... أموت فيه فما معناه[1] بالغضب
فهو القميص الذي جئت العشاء به ... وما أتيت عليه بالدم الكذب[2]
ولا منية إلا قبلها سبب ... وجفنه للمنايا أوكد السبب
واسطر الحسن في عينة واضحة ... وزاد إيضاحها شكل من الهدب
كالسحب مسودة المرأى ودانية ... وفي جفوني (أرى) مستودع السحب[3]
تقدمت هدبك الأجفان شائكة ... مثل السهام التي أنذرن بالقضب
فاضت عليه دموعي فضةً فإذا ... أغلى الوصال شراه الجفن بالذهب[4]

ومن الغزل التأملي قوله :

نظرت إليه نظرةً ، فتحيرت ... دقائق فكري في بديع صفاته
فأحوى إليه القلب أني أحبه ... فأثر ذاك الوهم في وجناته[5]

نلحظ في مدح الإحساس بالوعي فمدحه يدرك ما في الكتب وإن كانت عند غيره ويظهر التقسيم التفصيلي في العبارات الذي ينع من التقسيم المضموني وفي ذلك تماثل صوتي تتجانس فيه النغمات .

ثم يصور تكاثر الوافدين من كل حدب وصوب ، بتساقط الطير على الحب:

تواضع مرفوعاً ، تجاوز قادراً ... ففي قدره بُعد ، وفي عفوه قرب

ومنها :

إذا ما اقتنى الناس التصانيف عندهم ... فعندك ما فيها ، وعندهم الكتب

---

(١) معناه : من عناه الأمر يعنيه ويعنهوه : أهمه .

(٢) العشاء : يشير إلى الشاعر بذلك إلى قوله تعلى : ﴿ وجاءوا أباهم عشاءً يبكون ﴾ .

(٣) يصف عينيه بالسواد .

(٤) الديوان ١/٤ .

(٥) المرجع السابق ٢٠ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وإنـك مـن قـوم أنـافوا علـى المنـى ... إذااسترشحوافاضوا،أواستقدحوا شبوا(١)

وإن ساجلوا أوفوا ، وإن وعدوا وفوا ... أواستنهضوا قاموا، أواستصرخوا هبوا(٢)

أكفهـم سـبط وأعراضهـم حمـى ... وأقواهـم فعـل ، وأموالهـم نهـب(٣)

ولفحهـم حتـف ونفحهـم غنـى ... ووثبُهُـمُ عـدوّ ، وخطوهـم وثـب(٤)

لقد أصبحت فيك المعـاني ، وأصبحت ... ذلولاً ومن عـاداتهم الغشـم والشغب(٥)

يفيء عليك الشكر ما وفـت اللهـى ... وتهوي إليك الطير ما انتثر الحب(٦)،(٧)

---

(١) أناف عليه : زاد ، والمعنى : إنه من قوم هو فوق ما يتمنى المتمني . استرشحوا : طلب منهم العطاء . استقدحوا فيها السين والتاء للطلب : فالمعنى إذا طلب منهـم القـدح مـن اقتـداح النـار . وشـب النار: أوقدها . يريد إذا طلبوا للحرب أوقدوا نيرانها .

(٢) ساجله : باراه وفاخره ، وأوفى هنا : إما بمعنى أعطوا الحق وافياً ، ولا تمنعهم المساجلة من أعطـاء مـن يبارونه حقه غير منقوص ، وإما بمعنى أنهم يؤدون حقوق المساجلة كاملة ، فيذكرون صفاتهم الحقه .

(٣) النهب : الغنيمة ، وكل ما انتهب .

(٤) شبه غضبهم بلفح النار فيه الحتف أي الهلاك . نفحهم : من نفح الطيـب : فـاح يريـد رضـاهم السـار يعني من يرضون عنه .

(٥) أصحب ، انقاد ، الغشم : الظلم والشغب ، تهييج الشر . يريد أن من عادة المعـاني أن تظلـم الشـعراء بالنفرة منهم ، وأن تشارهم وتخاصمهم .

(٦) يفيء : يرجع ، اللهى : جمع لهية : وهي أفضل العطايا وأجزلها ، يشير الشاعر بهذا إلى قول الأول :

ينـزل الطـير حيـث ينثـر الحـب ... وتغشـى منـازل الكرمـاء

(٧) الديوان ١/١٦٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل السابع

الشعر العابـــث

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشعر العابث

والمسيرة الإبداعية صنو المسيرة الإنسانية الفردية ، تتلون ببعض الكمال والنقص ، ولكل شيء في هذه الحياة نقص وكمال وتجاوز وتفريط واعتدال وإفراط . ومسيرة الأدب تخضع لهذه الفلسفة . فهو ينشد الكمال ، ولكنه نتاج فكر يطرأ عليه انحراف وتنواءت من المحور المستقيم والمرتكز على أسس فنية ثابتة.

ونتيجة للتدرج والتنامي والتطور ، تظهر ألوان إبداعية تقترب من الكمال الفني في نظر المعاصرين ، إلى جانب النسبية الفنية الأخرى ، وتسير جنباً إلى جنب مع الأغصان المائلة التي تروق في عيون شريحة دون أخرى . وربما يرى الكثير أن جوهر بناء القصور أو الصناعات هو الأصل وآخرون ينظرون إلى التصميم ، وآخرون ينظرون إلى الزخرفة ، ولا يعنيهم غيرها . ومثلها عملية الإبداع . فإن الكثير تعنيهم السمات الجمالية ، لكن منهم من يميل إلى إشادة الصرح الفني بمعالم جمالية، فيحدث التلاحم والانسجام ، وآخرون يميلون إلى الزخرفة ويكثرون منها.

وبعضهم ينظر إلى المدن من خلال الحدائق والجمال المعماري ، والمدن الترفيهية وكثيرهم الذين يقلون ذلك ، ويكتفون بالجوهر ، ويرون أن تأسيس الأساسيات أولى ، وهكذا تكون النظرة إلى الأدب .

لقد ظهر من خلال ذلك الاتجاه الفني الذي يميل إلى زخرفة القول فحسب.

والتطور الفني يحتم شخوص بعض الألوان الفنية التي يتأطر بها السياق ، والنموذج العصري ليقتدي به كمثل عند شريحة من الأدباء ، ويمقته آخرون مثل لزوم ما لا يلزم في اللزوميات ومثله ما يسمى بالإنعكاس ، ومثل تجريد الشعر من الإعجام أو التزام الإعجام وتجريده من الحروف المهملة ، أو التزام حرف من حروف الهجاء في كل كلمة منه وهذه الألوان العبثية نجزم بتجاوزها الصنعة في لون جمالي مخصوص . وتجلي تلك الظواهر الفنية المفرطة سمة تبرز في الاتجاهات

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الأدبية عامة . وقد ظهرت في عصرنا الحاضر في (الكلاسيكية) ، وظهرت في العبثية عند (السريالية) ، وظهرت في المغالاة في المذهب الرمزي ، وظهرت أيضاً في الغموض غير المتناهي .

ولما للحريري من قدرة لغوية نتيجة الرحلة الطويلة مع المقامات التي أعجزت مسوداتها عدداً من (الإبل)، فكان من عجائبه اللغوية أنه طرق لوناً من الوان العبث الأدبي وهو ما يسمى « ما لا يستحيل بالاعكاس » حيث تقرأ البيت من آخره كقوله :

أس امـــــلاً إذا عـــــرا وارع إذا المـــــرء أســـــا
أســـــند أخـــــا نباهـــــة أبـــــن أخـــــاء دنـــــا
أســـــل جنـــــاب غاشـــــم مشـــــاغب إن جلســـــا
أســـــر إذا هـــــبّ مـــــرا وإرم بـــــه إذا رســـــا
اسكـــــن تقـــــوّ فعســـــى يسعـــــف وقـــــت نكســـــا(١)

والأبيات تفتقر إلى التدفق الشعوري والمضمون ، والخيال الشعري الإبداعي وهو إذن المبتكر لهذا اللون خلافاً لمن يدعيه للأرجاني في بيته المشهور .

مـــودة تـــدوم لكـــل هـــول وهـــل كـــل مـــودة تـــدوم

وهو تكلف أبياتاً عواطل من الإعجام وأتى بها في عشرة أيام منها :

أعـــدد لحســـادك حـــدّ الســـلاح وأورد الآمـــل ورد السّـــماح
وصـــارم اللهـــو ووصـــل المهـــا وأعمـــل الكـــوم وسمـــر الرمـــاح
واســـع لإدراك محـــل سمـــا عمـــاده ، لا لاذراع المـــراح
وا لله مـــا الســـؤود حســـو الطـــلا ولا مـــراد الحمـــد رؤد رداح
واه لحـــر صـــدره واســـع وهمّـــه مـــا سـرّ أهـــل الصـــلاح
مـــورده حلـــو لسؤّالـــه ومـــاله مـــا ســـألوه مطـــاح(٢)

(١) العماد الأصبهاني : الخريدة ، الجزء الرابع ٢/٦٦١ .
(٢)المصدر السابق ٢/٦٦٧،٦٦٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ونحن نرى وضوح المعاني وقربها لكون التكلف فيها أهون من التكلف في ما لا يستحيل بالانعكاس السالفة الذكر .

ومثله الالتزام بالحروف المعجمة :

فتنتـــني ، فجننتـــني ، تجـــني بتجـــن يفـــتنّ غـــبّ تجـــن
شـــغفتني ، بجفـــن ظـــبي غضيـــض غنـــج ، يقتضـــي تغيـــض جفـــني
غشيتـــــني بزينتـــين فشفّتـــني بـــزي يشـــف بـــين ثـــن(١)

ومنها الأبيات الأخياف كلمة مهملة ، وكلمة معجمة :

اسمـــح ، فبـــث الســـماح زيـــن ولا تخـــب آمـــلاً تضيـــف
ولا تجـــز ردّ ذي ســـؤال فـــن أم في الســـؤال خفـــف
ولا تظـــن الدهـــور تبقـــى مـــال ضنـــين ولـــو تقشـــف(٢)

ومنه الأبيات المتائيم :

زينـــت (زينـــب) بقـــد يقـــدّ وتـــلاه - ويـــلاه! - نهـــد يهـــدّ
جندهـــا جيدهـــا ، وظـــرف وطـــرف نـــاعس « نعـــش » بخـــد يخـــد
فارقتـــني فأرقتـــني ، وشطـــت وسطت ، ثـــمّ ثمّ وجـــدّ وجـــدّ(٣)

ومنه التزام الحرف الأول في الأبيات ليماثل آخرها ورأيت قصيدة واحدة للشاغوري مكونة من عشرة أبيات منها :

تـألت علـى قتلـى سـليمى وولـت وقـد أقطعـت قلـبي الهمـوم وولـت
تجنـت ومـن ذاك التجـني جننـت في الهـوى ليتهـا لمـا جنـت مـا تجنـت
تمنـت علـى الله الجمـال بأسـره فقـد بلغـت مـن ربهـا مـا تمنـت
تراءت لنا كالشمس جاءت بحاجب وبالحاجب المحجوب بالسر ضنت(٤)

(١) المصدر السابق ٢/٦٦٩ .
(٢) المصدر السابق ٢/٦٧٠ .
(٣) المصدر السابق ٢/٦٧١ .
(٤) الديوان ٦١ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ومنه التزام حروف المعجم في إحدى قصائده حيث استهل كل بيت بحرف من حروف الهجاء على التوالي ومنها :

أما والذي يحيي الورى ويميت ... لقد نعمت عيني بكم وشقيت

بليت بهجر منك يا من أحبّه ... ومن خصرك البالي النحيل بليت

تصد وتجفوني بغير جناية ... فلم يا منى قلبي الكئيب جُفيتُ

ثناني الهوى عن عذلي فأنا الذي ... هوى بي هوان الوجد حين هويت(١)

والتشجير يندر في هذين العصرين ولم أر له معالم إلا في ديوان المبشرات والقدسيات للشاعر المغربي الذي صحب صلاح الدين الأيوبي وتظهر في قصيدته (المدبجة القدسية)(٢) ، ومنه قصيدة لابن النبيه ذكر أنه مدح الملك الأشرف موسى بقصيدة مشجرة منها :

هذا هو الربع ما يغنيك مغناه ... بعد الحبيب ولا يرويك رياه(٣)

وقد وردت القصائد في كلا الديوانين مكتوبة مسترسلة .

وهذا الندر اليسير من العبث اللفظي بألوانه المختلفة لا يصلح أن يكون قاعدة لإصدار أحكام نقدية ، ولا يمثل اتجاهاً أدبياً متكاملاً ، وإنما هو نزهة أدبية تطرأ في أوقات الفراغ والمنتديات الخاصة ، أو بالحاح لمعرفة القدرة اللغوية والعروضية ، بل إن بعض الشعراء عاب التوجه إلى التزيين اللفظي كقول المهذب بن الزبير :

لحقت المخاضين الشعر قبلي ... وإن أخلوا من الزبد الوطابا

فقل لمقعقع بشنان لفظ ... نفى إثباتك القشر اللبابا

طلى كأس القريض من المعاني ... وحسن اللفظ كان لها حجابا(٤)

---

(١) المرجع السابق ٦٥،٦٦ .

(٢) المبشرات والقدسيات ١٤٨،١٤٩،١٥٢،١٥٣ .

(٣) ابن النبيه : الديوان ٣٢٢ .

(٤) الديوان ١٨١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومنه البيت المطرف المشتبه الطرفين :

سـم سمـة تحمـد آثارهـا فاشـكر لمـن أعطـى ولـو سمسـمة
والمكر مهمـا اسطعـت لا تأتـه لتقتـني السـؤدد والمكرمـة

وقرَّظها العماد بقوله : « اللذين أسكتا كل نافث ، وأمنا أن يعززا بثالث»(١)

ومن الالتزام في كل كلمة بحرف قصيدة للشاغوري التزم فيها بالسين:

اسـقني الخندريـس تسـبى عروسـاً بسـناها السـاقي يسـر النفوسـا
سُـقت بالسـاق وبَوسْـنَا نِـكَ للحسـرة الأسـود الشوسـا
حَسّبنا حَسْـوُنا السـلاف شموسـاً بكؤوس يحسـبن حسنـاً شموسـا
عيسُها عرسـت بساحـة عيـسى وسقت بالسمام(٢) موسى موسـا(٣)

وهي مكونة من ستة عشر بيتاً .

وهي الوحيدة التي عثرت عليها في الديوان من الألوان العبثية . وقرينه من الشعراء والمنافس له ابن عنين له قصيدتان من هذا القبيل أحدهما : في كل كلمة سين والأخرى في كل كلمة حاء . والأولى تحتوي على ثلاثة عشر بيتاً ، والثانية على ستة عشر بيتاً ، ومما يدل على أن الاتجاه إلى هذا اللون ليس محبباً إلى النفس ندرته في الديوان ، وأن الشاعر لا يسلك سبيله إلا بإلحاح من غيره ، فالوجهاء والأصدقاء يقترحون عليه هذا اللون أمّا السينية فقد اقترحها عليه فخر الدين الرازي ، ومنها :

مرسـى السـيادة سـدة سـيفية محروسـة مسـعودة التأسـيس
سـيف يسـرك سـله وسـؤاله لمسـاءة يوسـى وسـلب نفـوس
سـبق السـراة بسـيرة وسـريرة محسـودتين وسـار سـير رئيـس

(١) المرجع السابق ٢/٦٧٢ .
(٢) السمام : جمع وسمام الإنسان : فمه ومنخره وأذناه .
(٣) الشاغوري : الديوان ٢٣٨ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

حسنت سريرته وقدس سنخه وسما بأسلاف سراة شوس(١)

ومن الحائية :

حيّا محلّ الحاجيه بالحمى والسفح سفحُ مُدلّجٍ سحاح
حتى تصاحب جِسلَهُ حيّاتُهُ ويضاحك الحوذانُ حسن أقاح
سحب يوشحها لموح مُلقِحٌ ويحف حافلها حفيف رياح
حمالة حانة فحنينها والريح تحفزها حنين رزاح(٢)

وقد استعرضت ديوان شرف الأنصاري ، فلم أعثر على قصائد متكلفة ما عدا مقطوعة واحدة مكونة من ستة أبيات ، وشأنه شأن ابن عنين فقد اقترحت عليه ، والمقطوعة عاطلة خالية من الإعجام :

مولةٌ لعهود اللهو مذكرُ لولا مدامعه ما أهلم المطرُ
لكل مكمورة آراء ساحرها سحّار مصر أطاعوه وما سحروا
حار المسهد لما سار محملها مودّعاً ، وهو لا ورد ولا صدر
ومهمه طامس الأعلام مسلكه وعر ، وسالكه إسعاده عسر(٣)

وشرف الدين الأنصاري من الشعراء الذين أكثروا من اللزوميات فقد قاربت أربعين مقطوعة وجلها لا يتجاوز تسعة أبيات منها :

قد أبى التبرح أن يبرحا فاحسر التعفيف أو فاسرحا
غالين صرف الردى في أخ جلّ رزئي فيه أن يُشرحا
عقلته في الصب عِلة شغلته فيه أن يمرحا
ورماه حتفه أسهماً لم تجد في حسنه مجرحا
فلئن دمت على ترحتي فلأمر مثله أترحا

(١) الديوان ٩٦ .
(٢) المرجع السابق ٩٨ .
(٣) الديوان ٢٣٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولئـــن لاقيـــت مـــا ساءنـــي فبمـــا لاقيـــت مـــا أفرحـــا(١)

وأطلو لروملياته ما قالها في مدح الرسول ﷺ بلغت تسعة أبيات :

أمـر عليـاك في الـورى غـير خـاف فـإليك انتهـى مـدى الأوصـاف
بعـث الله منـك خـير نـبي خـاتم الرّسـل فـاتح الأطـراف
تم جـوداً للمسـتميحين معـف واغتفـاراً عـن المسـيئين عـاف
جـل ربعـاً بطيبـة حـلّ فيـه خـير حـال بسـؤدد وعفـاف
حجـرات كـم للملـوك وللأمـلاك فيهـن مـن حفـا واحتفـاف
راقبـوا مـا يفيـض عـن ركنهـا القبلـي مـن رأفـة ومـن إسـعاف
صانـه ذو الجـلال مـن الدّنيـا مصفـى مـن جوهـر شـفاف
وإليـه خفـت بنـا العيـس في عـر ض الفيـافي قوادمـاً وخـوافي
يممـت ماجـداً سـرت مـدح الآ يات فيه ثـم اقتفتهـا القـوافي(٢)

والواقع أني استعرضت كثيراً من المصادر الجامعة ، والدواوين الشعرية فلم أعثر على كثير من هذه الألوان ، بل إن الكثير من الدواوين خلت منها . وإن شعراء مثل فتيان الشاغوري ، وابن عُنين ، لم أعثر عندهما إلا على مقطوعتين أو واحدة ، ولم أجد مثل ذلك في ديوان الأرجاني إلا البيت المشهور الذي أسلفت الحديث عنه ضمن قصيدة طويلة لم تلتزم بمثل ما التزم به البيت ، وخلا منها ديوان الطغرائي والمهذب بن الزبير ، وعرقلة الكلبي وابن الدهان وابن سناء الملك وغيرهم كثير .

الألغاز والأحاجي :

والألغاز والأحاجي « من لغز اليربوع وألغز ، إذا حفر لنفسه مستقيماً ثم أخذ يمنة ويسرة ، يوري بذلك ويعمي على طالبه » . فنكاد ندخل في هذا

(١) الديوان ١٣٦ .
(٢) المصدر السابق ٣٢٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التعريف اللغوي التعمية أو الغموض ، فالغموض الشعري هو ما قصد إلى إخفاء المعنى واحتمال النص عدداً من التأويلات . ويعرفه ابن رشيق تعريفاً نقدياً (أن يكون للكلام ظاهر عجيب لا يمكن ، وباطن ممكن غير عجيب) .

وهذا التعريف الاصطلاحي نأخذ منه فائدتين :

إحداهما : أنه إحالة إلى الرمز لوجود القصد لشيء محدود بذاته .

وثانيهما : التحول من الفكرة السامية إلى الأدنى أو الأقل .

والاتجاه به إلى الأدنى والأقل انحراف بهذا اللون الرمزي من التأمل في الفكرة السامية ، والبحث عنها أو التي تعالج قضية من القضايا ، أو ترمز لخطأ يراد إصلاحه ، إلى عبثية شكلية ومضمونية معاً ، فالمجالس الأدبية تستنفد وقتها الطويل في التلاعب بالألفاظ من أجل معنى اسم من الأسماء ، أو ساقية أو حبل غسيل ، أو لون من الألوان أو رحى ، أو غير ذلك ولو أنها وُظفت في معان سامية وشعر الشعراء بشرف المضمون لالتحق به شرف الشكل وكانت الغاية الصنعة الأدبية ، غير أنهم انحرفوا به فيما لا فائدة منه ومن هنا ندخله في العبث الأدبي .

والأحاجي والألغاز لم يشتهر أمرها كثيراً في أوائل القرن السادس ، أو أن الشعراء لم يدونوها ضمن أشعارهم كالأبيودري ، والطغرائي ، وابن الخياط ، والقيسراني وابن منير ، والعماد الأصبهاني ، يعود ذلك لحياة التوتر التي يعيشها العالم الإسلامي ، فالشعراء تفيض تجاربهم بما يقع للمسلمين من هزائم أو انتصارات ، والحالة المعيشية لا تميل إلى التسيب والعبث وقضاء الزمن في منتديات عابثة لاهية ، فلما تكونت الدول الضخمة الزنكية والأيوبية ، وانتصر المسلمون على الصليبيين واستعادوا بيت المقدس ، وأنبث في المجتمع أهل الثراء والجاه ، والأمراء والأدباء الشعراء من الأيوبيين ، وساد الأمن ، فإن منتديات الأدباء أخذت تعج بالشعراء في العاصمتين القاهرة ودمشق . ولما خفت حدة الحرب وشموليتها فإن الفراغ كوّن الثللية من الشعراء وغيرهم ، فأضحت الألغاز من

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الرياضة الفكرية التي انشغل الناس بها ، وليس معنى ذلك أنها هيمنت على القوم، وإنما اتخذت لوناً منه ينحصر في المطارحات والمباريات القولية والارتجالية والأحكام النقدية العامة الشاملة توحي بكثير هذا اللون فجعلته يغلب في العصر ، ورأته يحتل مساحات كبيرة من الدواوين الشعرية . يقول الدكتور موسى باشا : « الألغاز فلم يسلم منها شاعر ، ولم يخل منها ديوان »(١) .

والحكم هذا وأمثاله دعاني إلى استعرض عدداً من الدواوين كيما أسبر واقع الألغاز والأحاجي واكشف عن اتجاهاتها وكثافتها وواقعية الحكم . وتبين لي إن عدداً من الدواوين من مستهل القرن السادس حتى الربع الأول من القرن السابع تكاد تخلو من الألغاز . ومجمل الدواوين التي تصفحتها أكثر من عشرين ديواناً جلّها تخلو من الأحاجي والألغاز وهي :

١ـ ديوان الأبيوردي المتوفى ٥٠٧هـ .

٢ـ ديوان الطغرائي ٥١٥هـ .

٣ـ ديوان ظافر الحداد ٥٢٩هـ .

٤ـ سبط التعاويذي ٥٥٣هـ .

٥ـ شعر المهذب بن الزبير المتوفى ٥٦١هـ .

٦ـ دويان طلائع بن رزيك المتوفى ٥٦٣ هـ .

٧ـ ديوان عرقلة الكلبي المتوفى ٥٦٧ هـ .

٨ـ تاج الملوك الأيوبي المتوفى ٥٧٩ هـ .

٩ـ ديوان بن الدهان المتوفى ٥٨١ هـ .

١٠ـ ديوان أسامة بن منقذ المتوفى ٥٨٤ هـ .

١١ـ ديوان عماد الأصبهاني المتوفى ٥٩٧ هـ .

١٢ـ ديوان ابن النبيه المتوفى ٦١٩ هـ .

---

(١) عمر موسى باشا : الأدب في بلاد الشام على عصور الزنكيين والأيوبيين المماليك ٥٩٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

١٣- ديوان الملك الأمجد المتوفى ٦٢٨ هـ .

وسأستعرض الدواوين التي وجدت فيها ألغازاً .

١ - ديوان أبي الفوارس المتوفى ٥٧٤ هـ لغز واحد في مروحة الخيش : في قصيدة من ستة عشر بيتاً تميل إلى الوصف أكثر منها في الألغاز يستهلها بقوله :

ولينة الأعطاف خوارة ذات غصون لونها أورق

غيراً ولا تبرح ممطورة وهي على الغيرة لا تورق(١)

٣ - ديوان ابن سناء الملك المتوفى ٦٠٨ هـ أيضاً أورد لغزاً واحداً في الند في قصيدة مكونة من أربعة عشر بيتاً :

أخبروني عن مرهف القد مطبو ع حبيب إلى القلوب مكرم

أسود أبيض بليد ذكي طائر واقع شقي منعم(٢)

٤ - ديوان ابن عنين المتوفى ٦٣٠هـ .

وهذا الديوان الوحيد الذي عقد لها باباً منفرداً ، وهو أقدم من أفاض فيها ، وأحيا المنتديات بها ، وربما يعود ذلك لبعده الفكري والعملي عن ميادين الجهاد ، وكرهه لأبطاله ولعبثيته ، فالكثير منها يلغز باسماء مثل رسلان ، حاتم ، قراقوس ، مظفر ، حماد ، يحيى ، إسحاق ، بدر ، أبي بكر ، سنجر يعقوب ومنها في وصف المشمش والشمس والساقية ، وسخانة الماء ، والعجلة والميزاب والميزان ، والقوس ، والإسلام ، والسرج واللجام ، وهذه تبدوا فيها أوصافاً ، ويبدو فيها الرمز بأن يذكر صفة امرأة مثل جارية ، أو مملوكه أو غيرها .

والغازه في الأسماء يغلب عليها العبث اللفظي فتخلوا من الدلالة يقول في العقرب :

وما حيوان يتقي الناس شره على أنه واهي القوى واهن البطش

---

(١) العماد الأصبهاني : الخريدة ، القسم العراقي ١/٢٨٥ .

(٢) ابن سناء الملك : الديوان ٧٤٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إذا ضعفوا نصف اسمه صار طائراً وإن ضعفوا باقية صار من الوحش(١)

ومثله تغليزه في المشمش والسمسم :

نبات هذا أصله سامق قاس وذا من خائر قاصر

أيهما صحّفت معكوسه دل بلا شك على الآخر

فهذا مجرد عبث ويخلو من الرمز لأنه ذكر أنهما نبتان(٢) .

ويبدوا بالإشارة الرمزية أحياناً كرمزه بالجارية إلى الساقية :

وجارية يشفى الغليل رضاها ويحكي محيّاها لنا الشمس والقمر

حصان وما ردّت أنامل لامس نتوج ومقلات وما ضاجعت ذكر(٣)

والإلغاز تفتقد خاصية من خصائص الشعر وهي التجربة الشعورية والتوتر المؤثر في النفس الأمر الذي طبعها بطابع النظم فحسب . وهي تقترب من الارتجال فتتسم بالسطحية الفنية وتبتعد عن الصنعة الإبداعية ، وهي تخلو من المضمون الشريف ، وتكون متكلفة فهي تكون بدعوة من الأعيان ومن قبيل المباراة والتحدي وربما كانت وسيلة للمدح كإجابة ابن عنين على الملك المعظم الذي كتب لغزاً في الإسلام :

أي شيء تراه حقاً يقيناً حالما أعوج في الزمان استقاما

فرد عليه ابن عنين وقرضه أولاً :

أيها السيد الذي جعل الشر ك حطاماً وشيد الإسلاما

قد أتاك الجواب لا شك فيه فاتخذني للمشكلات إماماً(٤)

ومثله ما كان بينه وبين عفيف الدين(٥) .

---

(١) ديوان ابن عنين ١٥٠ .

(٢) المرجع السابق ١٤٩ .

(٣) ابن عنين : الديوان ١٤٩ .

(٤) ابن عنين : الديوان ١٥٢ .

(٥) المرجع السابق ١٦٨ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

٥ – ديوان البهاء زهير المتوفى ٦٥٦هـ فإني عثرت فيه على لغز واحد في مدينة يافا :

بعيشك خبرني عن اسم مدينة يكون رباعياً إذا ما ذكرته
على أنه حرفان حين تقوله ومعناه حرف واحد إن قلبته (١)

٦ – ديوان شرف الدين الأنصاري المتوفى ٦٦٢هـ وجل الألغاز بينه وبين والده وهي لا تتجاوز عشر مقطوعات ومنها في اللبان وفي اسم عبدالقادر وفي السراج وفي البلح والخمرة(٢) فهي ست مقطوعات .

٧ – ديوان الشاب الظريف المتوفى ٦٦٨ هـ يحتوي على لغز واحد في (مقراض) مكون من بيتين هما :

ومجتمعين ما اجتمعا لإثم وإن وصفا بضم واعتناق
لعمر أبيك ما اجتمعا لمعنى سوى معنى القطيعة والفراق(٣)

ونتيجة لهذه الإحصائية فإن الألغاز لها ملامحها في القرنين وربما إنها أكثر مما أحصيت ، لكن الأوائل أدركوا عبثيتها فأعرضوا عن تدوينها . وهي لا تمثل سمة من سمات العصر فضلاً أن تطلق حكماً على الشعر . و لم تشغل الشعراء عن موضوعات أسمى ، وإنما كانت رياضة ، والرياضة أمر لابدّ منه .

---

(١) الديوان ٥٣ .

(٢) شرف الدين الأنصاري : الديوان .

(٣) الديوان ١٦٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثبت المراجع

- الأبيوردي : الديوان ، تحقيق د . عمر الأسعد ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، دار الطباعة المنيرية ، القاهرة ودار صادر بيروت .
- ابن الأثير : المثل السائر : تحقيق د . أحمد الحوفي ود . بدوي طبانه ، طبعة ثانية ، دار الرفاعي ، الرياض .
- د . أحمد إبراهيم موسى : التصنيع البديعي ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة .
- أحمد بدوي : الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ، الطبعة الثانية دار نهضة مصر .
- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، دار نهضة مصر .
- الأخطل : الديوان ، دار الثقافة ١٩٦٩م .
- الأرجاني : الديوان تحقيق د. محمد قاسم مصطفى ، دار الرشيد للنشر ، الجمهورية العراقية .
- د . أرشد يوسف : سلاحقة الشام والجزيرة ، الطبعة الأولى، المؤسسة الصحفية الأردنية (الرأي) عمان ،١٤٠٩هـ ١٩٨٨م.
- أسامة بن منقذ : البديع في نقد الشعر ، تحقيق عبدا علي مهنا ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- أسامة بن منقذ : الديوان ، تحقيق د. أحمد بدوي ، حامد عبدالحميد ، ط٢ ، عالم الكتب ، بيروت، ١٩٨٣م .
- ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأدباء ، طبعة أولى سنة ١٣٩٩هـ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

- إيليا حاوي : نماذج النقد الأدبي ، الطبعة الثالثة، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٦٩م .
- د . بكر شيخ : مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، الطبعة الرابعة، دار العلم للميلايين ، ١٩٨٦م .
- بهاء الدين زهير : الديوان ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت .
- البوصيري : الديوان ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، الطبعة الأولى، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م .
- تاج الملوك بوري : الديوان ، تحقيق د. محمد عبدالحميد سالم ، هجر للطباعة والنشر ، مصر .
- ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، الطبعة الأولى .
- الجاحظ : البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .
- جبور عبدالنور ، المعجم الأدبي ، الطبعة الثانية ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٤م .
- الجلياني : ديوان المبشرات والقدسيات ، تحقيق د. عبدالجليل حسن عبدالمهدي ، الطبعة الأولى ، دار البشر ، الأردن .
- جودت الركابي : الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ، الطبعة الأولى، دار الفكر ، ١٤٠٣هـ.
- جميل حرب : الحجاز واليمن في العصر الأيوبي ، الطبعة الأولى جدة ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م .
- ابن حجة الحموي : خزانة الأدب ، شرح عصام شعيبو ، دار مكتبة الهلال ، بيروت .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

- الحريري : المقامات ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، الطبعة السادسة ، دار الأندلس ، بيروت .
- أبو الحسن الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية .
- حسين أحمد أمين : في الحروب الصليبية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة القاهرة ١٩٨٣م .
- د . خاشع المعاضدي وغيره : الوطن العربي ، والغزو الصليبي ، وزارة التعليم والبحث العلمي ، العراق .
- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، دار صادر ، بيروت .
- ابن الخياط الدمشقي : الديوان .
- ابن الدهان : الديوان ، تحقيق عبدالله الجبوري ، الطبعة الأولى ، بغداد دار المعارف ، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .
- الذهبي : العبر .
- د . سي سميل ، الحروب الصليبية ، ترجمة سامي هاشم ، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية ١٩٨٢م .
- رجاء عيد : دراسة في لغة الشعر . منشأة المعارف بالإسكندرية .
- ابن رشيق : العمدة ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢م .
- ابن الأزرق : بدائع السلك في طبائع الملك ، تحقيق د . علي سامي النشار ، الطبعة الأولى، سلسلة التراث ٥٢ ، ١٩٧٨م.
- سامي الكيالي : السهروردي ، دار المعارف بمصر .
- سبط بن التعاويذي : الديوان د . س مرجليوس ، دار صادر ، بيروت .
- ابن سناء الملك : الديوان ، تحقيق د . محمد عبدالحق وام ، أي - دي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فل اكون دار الجيل ، بيروت .

- ابن سهل الأندلسي : الديوان تقديم د. إحسان عباس ، دار صادر، وتحقيق يسرى عبدالغني ، دار الكتب العلمية ، ١٣٨٧هـ.
- د. سيد شور بجي عبدالمولى ، الفكر الاقتصادي عند ابن خلدون ، إدارة الثقافة والنشر ، عام ١٤٠٩هـ .
- الشاب الظريف : الديوان ، تحقيق شاكر هادي شكر ، مكتبة النهضة العربية ، بيروت .
- أبو شامة : كتاب الروضتين ، دار الجيل ، بيروت .
- شرف الدين الأنصاري : الديوان ، تحقيق د. عمر موسى باشا ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .
- شوقي ضيف : فصول في الشعر ونقده ، دار المعارف ، مصر.
- الصفدي : جنان الجناس ، دار المدينة للطباعة والنشر ، بيروت ١٢٩٩هـ .
- الوافي بالوفيات : إخراج ديدرينغ ، الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ .
- الطغرائي : الديوان ، تحقيق د . علي جواد الطاهر ويحيى الجبوري ، دار القلم ، الكوبت ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .
- طلائع بن رزيك : الديوان ، جمعه محمد هادي الأميني ، ط أولى ، مطابع النعمان ، النحف الأشرف .
- ظافر الحداد : الديوان ، الطبعة لأولى ، دار مصر للطباعة .
- د . عاطف جودة : الرمز الشعري عند الصوفية ، الطبعة الأولى، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٧٨م.
- عالي سرحان القرشي ، المبالغة في البلاغة العربية ، الطبعة الأولى نادي الطائف الأدبي ، ١٤٠٦هـ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

- د . عبداللطيف حمزه : أدب الحروب الصليبية ، الطبعة الثانية ١٩٨٤م، دار الفكر العربي .
- الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول ط٨ ، الثامنة ، دار الفكر العربي .
- أبو عبدالله بن الأزرق : بدائع السلك في طابع الملك .
- د.عبدالله التطاوي الشاعر ، مؤرخاً ، دار غريب للطباعة .
- عبيد بن الأبرص : الديوان ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٤هـ-١٩٨٣م .
- عرقلة الكلبي : الديوان ، تحقيق أحمد الجندي ، مطبعة دار الحياة ، دمشق .
- علي أبو زيد : البديعيات في الأدب العربي .
- د . علي عبدالحليم محمود : الغزو الصليبي والعالم الإسلامي ، ط٢ الثانية ، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية
- د. علي عبدالعزيز الخضيري ؛ علي بن المقرب العيوني حياته وشعره ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة بيروت ، عام ١٤٠١هـ .
- العماد الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق محمد بهجة الأثري ، مديرية الثقافه العامة ، الجمهورية العراقية .
- الديوان : تحقيق د. ناظم رشيد الطبعة الأولى، مكتبة التراث العربي ، ١٤٠٤هـ-١٩٨٣م.
- د. عمر الأسعد : نصوص من شعر عصور الدول المتتابعة .
- د. عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ، الطبعة الثانية ، دار العلم للملايين ١٩٨٤م .
- د. عمر عبدالسلام تدمري ، ديوان ابن منير الطرابلسي ، الطبعة الأولى،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

دار الجيل ،١٩٨٦م .

- د. عمر موسى باشا : الأدب في بلاد الشام ، دار الفكر المعاصر ، بيروت .
- د. فضل بن عمار العماري ، ابن مقرب ، الطبعة الأولى ، مكتبة التوبة، بدون معلومات أخرى .
- ابن عنين : الديوان ، تحقيق خليل مردم بك ، ط٢ ، دار صادر ، بيروت .
- ابن الفارض : الديوان ، مكتبة القاهرة ١٣٨٢هـ-١٩٦٣م .
- د. فايد حماد عاشور : الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ، الطبعة الأولى ، دار الاعتصام .
- فتيان الشاغوري : الديوان ، تحقيق أحمد الجندي ، مطبوع بمجمع اللغة العربية بدمشق .
- أبو الفوارس : الديوان ، تحقيق مكي السيد جاسم وشاكر هادي شكر، منشورات وزارة الإعلام ، الجمهورية العراقية ، سلسلة كتب التراث(٣٢) .
- قاسم عبده قاسم : ندوة التاريخ الإسلامي .
- القاضي الفاضل : الديوان ، تحقيق د. أحمد بدوي ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، الجمهورية العربية المتحدة .
- ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٦م.
- ابن قلاقس : الديوان ، مراجعة خليل مطران ، الطبعة الأولى، مطابع الجوانب ، ١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م.
- الديوان : تحقيق د. سهام الفريح ، الطبعة الأولى، المعلا ، الكويت ،

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

١٤٠٨هـ - ١٣٨٨هـ .

- الكتبي : فوات الوفيات : تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر ، بيروت،
- كلور كاهن ، الشرق والغرب ، زمن الحروب الصليبية ، ترجمة أحمد الشيخ ، الطبعة الأولى سيناء للنشر ، ١٩٩٥م .
- محمد زغلول سلام : الأدب في العصر الأيوبي ، الطبعة الأولى ، دار المعارف بمصر .
- د. محمد شفيق ، شيا ، في الأدب الفلسفي ، الطبعة الثانية ، مؤسسة نوفل ، بيروت ، ١٩٨٦م .
- محمد الصامل : البديعيات (مخطوطة) .
- د. محمد علي مسفر : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في العصر الأيوبي ، الطبعة الأولى ، دار مدني جدة ، ١٤٠٥هـ.
- محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ، الطبعة الأولى ، دار الفكر العربي .
- محمد كيلاني : الحروف الصليبية ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب العربي ، مكتبة مصر ، مصر .
- محمد ماهر حماده : وثائق الحروب الصليبية .
- د. محمد مفتاح : تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) ، طبعة أولى سنة، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ١٣٨٥هـ.
- د. محمد الهرفي : شعر الجهاد في الحروب الصليبية ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، سوريا .
- د. محمد فايز السرطاوي : نور الدين زنكي في الأدب العربي ، الطبعة الأولى ، دار البشر ، عمان ، الأردن ، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- د. مسعد العطوي : الرمز في الشعر المعاصر ، الطبعة الأولى ، مكتبة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التوبة ، الرياض ، ١٤١٤هـ .

- د. مصطفى ناصف : دراية الأدب العربي .
- الملك الأمجد : الديوان ، تحقيق د . ناظم رشيد ، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، الجمهورية العراقية .
- ابن منير : الديوان ، تحقيق عمر تدمري ، دار الجيل ، بيروت .
- المهذب بن الزبير : الديوان ، تحقيق د. محمد بن عبدالحميد سالم ، هجر للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ .
- ابن النبيه المصري : الديوان ، تحقيق عمر محمد الأسعد طبعة أولى ، يناير ١٩٦٩ م .
- د . نسيب النشاوي : المدارس الأدبية ، مطابع ألف باء ، الأديب ، دمشق .
- ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، د.س مرجليوث ، الطبعة الثانية ، مطبعة هندية بالموسيكي ، مصر ، وإصدار وزارة المعارف العمومية ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- د . يسري محمد سلانة ، النقد الاجتماعي في آثار أبي العلا المعري ، دار الحرفة الجامعية ، اسكندرية ، عام ١٩٩٣م .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المحتويـــــــــــــــــات

الموضـــــوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثانية	١
مقدمة الطبعة الأولى	٨
التمهيد	١٢
دوافع الحروب الصليبية	١٣
الناحية الاجتماعيـــة	١٤
الاتجـــاه الكنسي للحرب	١٦
الحملات الصليبية	١٧
انعدام المنهجية الإدارية للمستقبل في عهد الحروب الصليبية	٢٢
الحالة الإداريـــة	٢٥
الأتـــابكة	٣٠
أتابكة آل زنكي	٣١
نور الدين بن عماد الدين زنكي	٣٣
صلاح الدين الأيوبي	٣٥
المنهجية السياسية في عهد الحروب الصليبية	٤٠
الباب الأول الفكر الأدبي	**٤٦**
تمهيد مفهوم الفكر الأدبي	٤٧
الفصل الأول الفكر السياسي والإداري	**٥٦**
الـــوزارة	٥٩
النفوذ التركي	٦٢
الفصل الثاني الفكر الاقتصادي	**٨٣**

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الثالث الفكر الثقافي ١٠٣
الفصل الرابع الفكر الاجتماعي ١١٩
الفصل الخامس الاغتـــراب ١٤٢
الغربة والاغتراب ١٤٣
مظاهر الغربة ١٥٠
ومن مظاهر الغربة الشعر الصوفي ١٦٣
الباب الثاني ١٧٠
الموضوعـــات ١٧٠
الفصل الأول المدائح وشعر الجهاد ١٧١
موضوع المدح ١٧٢
المدح في شبه الجزيرة العربية ١٧٨
الغربة في المضمون ١٨٣
المبالغـة ١٨٥
الغلـــو ١٨٧
الشعر الحماسي ١٨٩
المناداة بالجهاد ١٩٨
المدائح النبويـــة ٢١٦
الفصل الثاني الرثـــاء ٢٢٤
غرض الرثـــاء ٢٢٥
أثر الحروب على الرثاء ٢٣٥
أحدهما رثاء الأبطال ٢٣٥
ثانيهما رثـــاء الديار ٢٣٨
الفصل الثالث الطبيعـــة ٢٤٧

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الطبيعة ٢٤٨
الفصل الرابع الغـــزل ٢٦٣
الغـــزل ٢٦٤
وصف الكنائس والراهبات ٢٧٧
الغزل بالمذكر ٢٨٢
الباب الثالث الاتجاهـــات الفنيـــة ٢٨٩
الفصل الأول الاتجـــاه المحافـــظ ٢٩٠
تمهيد ٢٩١
الشعراء المحترفون المقلدون ٢٩٣
هيمنة القديم ٢٩٥
الخطابيـــة ٣٠١
الأسلوب الموضوعي ٣٠٤
موقف المحترفين المقلدين من التجانس ٣٠٩
التقابل والتضـــاد ٣٢٩
أعلام المحترفين ٣٣٤
١ - الأرجاني ٣٣٤
٢ - ابن منير الطرابلسي ٣٣٥
٣ - القيسراني ٣٣٦
٤ - المهذب بن الزبير ٣٣٧
أبو الفواس حيص بيص ٣٣٨
٦ - عرقلـة الكلبـــي ٣٣٩
٧ - أسامة بن منقذ ٣٤٠
سبط بن التعاويذي ٣٤٢

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٦ - ابن عُنين ٣٤٣

الفصل الثاني الطبع ٣٤٩

تمهيد ٣٥٠

الطبع في شبه الجزيرة ٣٥٧

سمات الشعر المطبوع ٣٦٤

الأوزان الخفيفة ٣٦٤

الذاتيـــة ٣٦٦

٣ - السطحية المضمونية ٣٧٠

٤ - قصر النفس ٣٧٣

أعلام شعر الطبع ٣٧٥

١ - تاج الملوك الأيوبي ٣٧٥

بهاء الدين زهير ٣٧٧

٣ - الشاب الظريف ٣٧٨

وملخص الرأي ٣٨٢

الفصل الثالث التجديد ٣٨٤

الاتجاه البديعي ٣٨٥

تمهيد ٣٨٥

مكانة البديع ٣٨٧

مظاهر التجديد ٣٩٣

مقدمة التجديد ٣٩٣

الاشتقاق والتوليد ٣٩٤

التجانس الصوتي ٣٩٨

ونتيجة لشغفهم بهذا اللون ، فقد نرى بعض ملامح التكلف بدرجة أقل . ٤٠١

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التحديد باللغة ٤٠١
أولاً الحـــروف ٤٠١
ثانياً الكلمة ٤٠٥
ثالثاً التراكيـــب ٤١١
الموسيقى ٤١٨
الـــرمـــز ٤٢٢
١ - رمز المشابهة ٤٢٢
٢ - الرمز الشعوري ٤٢٤
الرمز التراثي ٤٢٦
الرمز الصوفي ٤٢٧
رد العجز على الصدر ٤٢٨
أعلام التجديد ٤٣١
ابن سناء الملك ٤٣٨
فتيان الشاغـــوري ٤٤٢
وملخص القول في البديع والتجديد فيه ٤٥٠
الباب الرابع السمـــات الفنيـــة ٤٥٤
تمهيـــد ٤٥٥
الشعر بين التراث والعصرية ٤٥٥
اللغة بين المثالية والواقعية ٤٦٣
الفصل الأول بنـــاء القصيدة ٤٧٤
بناء القصيدة ٤٧٥
الطول والقصر في بناء القصيدة ٤٧٩
القصيدة في غير ميادين الجهاد ٤٨٠

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قصيدة الجهاد ٤٨٩
خاتمة الطول والقصر ٤٩٢
المضمون في المقدمة ٤٩٥
المقدمة الرمزية ٥٠٥
٢ -المقدمة المستغرية للجزيرة ٥٠٧
٣ - الرمز بالمقدمة في الشعر الصوفي ٥٠٨
حسن التخلص ٥١٠
موضوعات القصيدة ٥١٢
الخاتمـــة ٥١٧
الفصل الثاني الـــرمـــز ٥٢٢
الرمـــز ٥٢٣
الرمز بالإشارة إلى القرآن الكريم ٥٢٣
الرمز بالتراث ٥٢٩
الرمز بالتورية ٥٣٦
الرمز الإيحـــائي ٥٤٠
الرمز بالمشابهة ٥٤٣
الرمز الأسطوري ٥٤٥
الرمز التاريخي ٥٤٧
الرمز الصـــوفي ٥٤٧
الفصل الثالث الصـــورة الشعريـــة ٥٥١
التصويـــر ٥٥٢
مصـــادر الصـــورة ٥٥٩
القرآن الكريم والحديث الشريف ٥٥٩

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الرابع الموسيقى الشعرية ـــــــ ٥٧١

الموسيقى الشعرية ـــــــ ٥٧٢

الأوزان والقوافي ـــــــ ٥٧٢

الموشحات ـــــــ ٥٧٢

المسمط ـــــــ ٥٧٤

الرباعيات ـــــــ ٥٧٦

الدوبيت ـــــــ ٥٧٨

المواليا ـــــــ ٥٨٠

الكان كان ـــــــ ٥٨١

الموسيقى الداخلية ـــــــ ٥٨٩

التجانس ـــــــ ٥٩٢

التقابل ـــــــ ٥٩٣

الازدواج ـــــــ ٥٩٣

مخارج الحروف ـــــــ ٥٩٥

الفصل الخامس التناص ـــــــ ٥٩٩

التناص ـــــــ ٦٠٠

الفصل السادس الشعر التأملي ـــــــ ٦١١

الشعر التأملي ـــــــ ٦١٢

الفصل السابع ـــــــ ٦١٩

الشعر العابث ـــــــ ٦١٩

الشعر العابث ـــــــ ٦٢٠

الألغاز والأحاجي ـــــــ ٦٢٦

ثبت المراجع ـــــــ ٦٣٢

المحتويات ـــــــ ٦٤٠